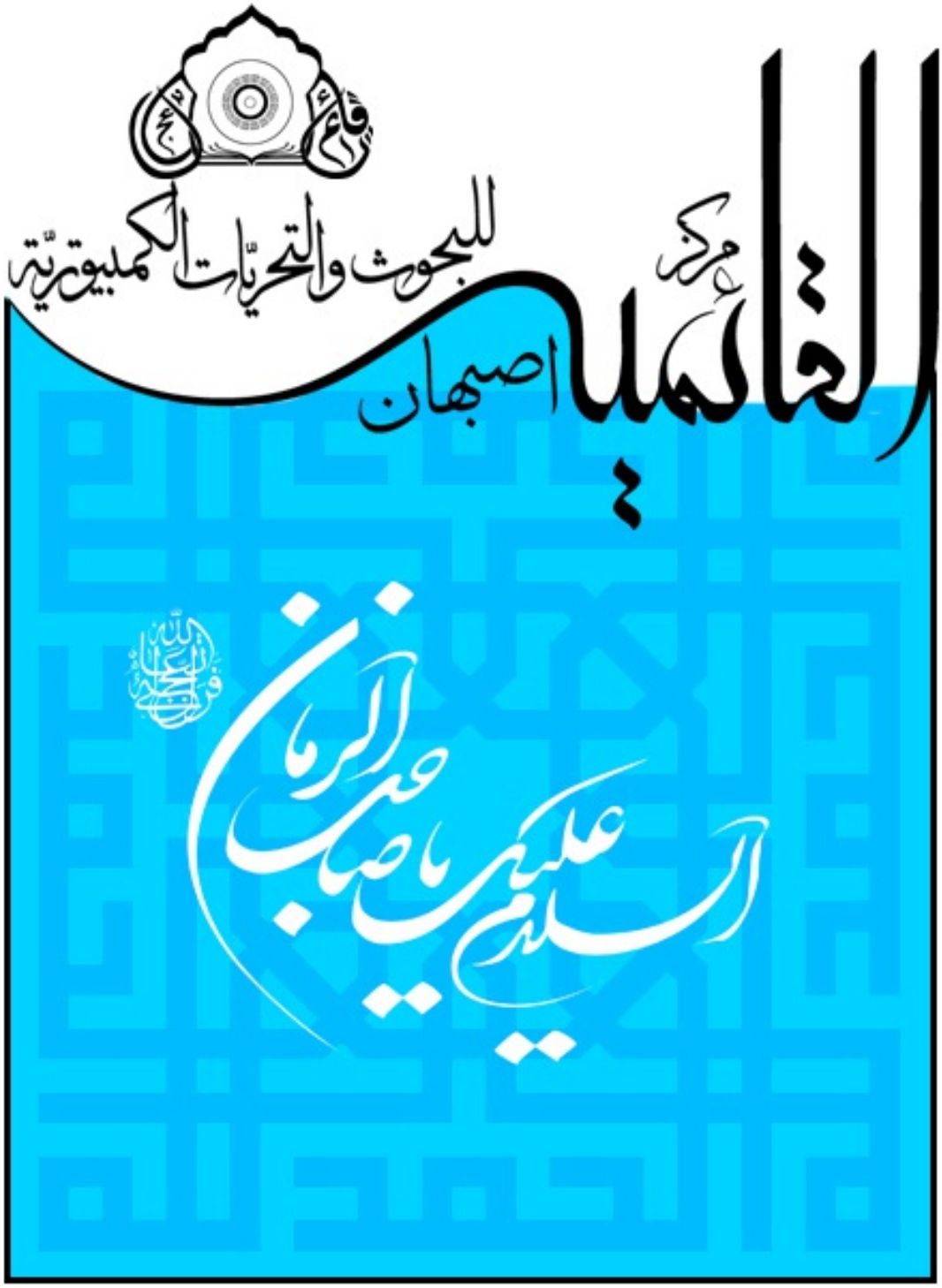

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

كتاب
المواعظ والاعتبار
بذكر الخطط والآثار
المعروف بالخطط المقريزية
تأليف
تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر
العبيدي المقريزي
المتوفى سنة ٨٤٥هـ
الجزء الثالث
دار الكتب العلمية

بسم الله الرحمن الرحيم

المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت

كاتب:

احمد بن على مقريزى

نشرت فى الطباعة:

دارالكتب العلمية

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، المجلد ۳ ----- ۹
اشارة ----- ۹
الجزء الثالث ----- ۹
ذکر حارات القاهرة و ظواهرها ----- ۹
اشارة ----- ۹
ذکر واقعة العبید ----- ۱۰
ذکر أبی عبد اللّه الشیعی ----- ۱۹
ذکر الأمراء البرقیّة و وزارة ضرغام ----- ۲۱
ذکر وزارة أبی الفتح ناصر الجیوش یأنس الأرمنی ----- ۲۷
ذکر الأمیر حسن بن الخلیفة الحافظ ----- ۲۸
ذکر قدوم الأویراتیة ----- ۳۳
ذکر اخطاط القاهرة و ظواهرها ----- ۳۵
ذکر کافور الإخشیدی ----- ۳۸
ذکر مقتل الخلیفة الظافر ----- ۴۲
ذکر الدروب و الأزقة ----- ۵۱
ذکر الخوخ ----- ۶۱
ذکر الرحاب ----- ۶۴
ذکر الدور ----- ۶۹
ذکر الحمامات ----- ۱۰۱
ذکر القیاسر ----- ۱۱۰
ذکر الخانات و الفنادق ----- ۱۱۶
ذکر الأسواق ----- ۱۲۰

الشارع خارج باب زویلة ---- ۱۲۶
ذکر العوائد التی کانت بقصبة القاهرة ---- ۱۳۴
ذکر ظواهر القاهرة المعزیة ---- ۱۳۶
ذکر میدان القبق ---- ۱۳۹
ذکر برّ الخلیج الغربی ---- ۱۴۱
اشارة ---- ۱۴۱
ذکر الأحکار التی فی غربیّ الخلیج ---- ۱۴۲
ذکر المقس و فیه الکلام علی المکس و کیف کان أصله فی أوّل الإسلام ---- ۱۵۱
ذکر میدان القمح ---- ۱۵۵
ذکر أرض الطبالة ---- ۱۵۶
ذکر حشیشة الفقراء ---- ۱۵۷
ذکر أرض البعل و التاج ---- ۱۶۱
اشارة ---- ۱۶۱
ذکر ضواحی القاهرة ---- ۱۶۱
ذکر منیة الأمراء ---- ۱۶۲
ذکر کوم الریش ---- ۱۶۲
ذکر بولاق ---- ۱۶۳
اشارة ---- ۱۶۳
ذکر ما بین بولاق و منشأة المهرانی ---- ۱۶۴
ذکر خارج باب زویلة ---- ۱۶۵
ذکر خارج باب الفتوح ---- ۱۶۹
اشارة ---- ۱۶۹
ذکر الخندق ---- ۱۷۰
ذکر خارج باب النصر ---- ۱۷۲

الریدانیة ----- ۱۷۳
ذکر الخلجان التی بظاهر القاهرة ----- ۱۷۳
اشارة ----- ۱۷۳
ذکر خلیج مصر ----- ۱۷۳
ذکر خلیج فم الخور و خلیج الذکر ----- ۱۸۰
ذکر الخلیج الناصریّ ----- ۱۸۰
ذکر خلیج قنطرة الفخر ----- ۱۸۱
ذکر القناطر ----- ۱۸۱
اشارة ----- ۱۸۱
ذکر قناطر الخلیج الکبیر ----- ۱۸۱
ذکر البرک ----- ۱۸۸
ذکر الماردانیّ ----- ۱۹۲
ذکر بساتین الوزیر ----- ۱۹۴
ذکر المعشوق ----- ۱۹۷
ذکر الجسور ----- ۲۰۴
و قد وجد بخط المصنف رحمه اللّه فی أصله هنا ما صورته ----- ۲۱۱
ذکر الجزائر ----- ۲۱۸
اشارة ----- ۲۱۸
ذکر الروضة ----- ۲۱۹
اشارة ----- ۲۱۹
ذکر قلعة الروضة ----- ۲۲۵
ذکر السجون ----- ۲۲۹
ذکر المواضع المعروفة بالصناعة ----- ۲۳۲
ذکر المیادین ----- ۲۴۲

ذکر قلعة الجبل ----- ۲۴۶
اشارة ----- ۲۴۶
ذکر بناء قلعة الجبل ----- ۲۴۹
ذکر صفة القلعة ----- ۲۵۰
ذکر النظر فی المظالم ----- ۲۵۳
اشارة ----- ۲۵۳
ذکر خدمة الإیوان المعروف بدار العدل ----- ۲۵۵
ذکر العلامة السلطانیة ----- ۲۵۸
ذکر جیوش الدولة الترکیة و زیّها و عوایدها ----- ۲۶۳
اشارة ----- ۲۶۳
ذکر الحجبة ----- ۲۶۸
ذکر أحکام السیاسة ----- ۲۶۸
ذکر المیاه التی بقلعة الجبل ----- ۲۸۰
ذکر ملوک مصر منذ بنیت قلعة الجبل ----- ۲۸۲
اشارة ----- ۲۸۲
ذکر من ملک مصر من الأکراد ----- ۲۸۳
ذکر دولة المماليک البحریة ----- ۲۸۸
ذکر دولة المماليک الجراکسة ----- ۲۹۳
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۲۹۷

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، المجلد ۳

اشارة

نام كتاب: المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت

نويسنده: مقريزى، احمد بن على

تاريخ وفات مؤلف: ۸۴۵ ه. ق

موضوع: جغرافياى شهرها

زبان: عربى

تعداد جلد: ۴

ناشر: دار الكتب العلمية

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۱۸ ه. ق

نوبت چاپ: اول

رده بندى كنگره:

DT۷۷/ م۷م۸۱۳۷۶

almwaa'th walaa'tbar bthkr alkhtt wala'thar alma'rouf balkhtt almkriziah

تأليف: تقدى الدين العبيدى المقريزى تاريخ النشر: ۰۱/۰۱/۱۹۹۸

ترجمة، تحقيق: خليل المنصور الناشر: دار الكتب العلمية

النوع: ورقى غلاف فنى، حجم: ۲۴×۱۷، عدد الصفحات: ۱۸۳۲ صفحة الطبعة: ۱ مجلدات: ۴

الجزء الثالث

ذكر حارات القاهرة و ظواهرها

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم قال ابن سيده: و الحارة كلّ محلّة دنت منازلها، قال: و المحلّة منزل القوم. و بالقاهرة و ظواهرها عدّة حارات و هى:

حارة بهاء الدين: هذه الحارة كانت قديما خارج باب الفتوح الذى وضعه القائد جوهر عند ما اختطّ أساس القاهرة من الطوب النىء، و قد بقى من هذا الباب عقدة برأس حارة بهاء الدين ، و صارت هذه الحارة اليوم من داخل باب الفتوح الذى وضعه أمير الجيوش بدر الجمالى، و هو الموجود الآن. و حدّ هذه الحارة عرضا من خطّ باب الفتوح الآن إلى خطّ حارة الورّاقة بسوق المرحلين، و حدّها طولا فيما وراء ذلك إلى خطّ باب القنطرة. و كانت هذه الحارة تعرف بحارة الريحانية و الوزيرية و هما طائفتان من طوائف عسكر الخلفاء الفاطميين، فإنّ بها كانت مساكنهم، و كان فيها لهاتين الطائفتين دور عظيمة و حوانيت عديدة؛ و قيل لها أيضا بين الحارتين، و اتصلت العمارة إلى السور و لم تزل الريحانية و الوزيرية بهذه الحارة إلى أن كانت واقعة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب بالعبيد.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴

ذكر واقعة العبيد

و سببها أنّ مؤتمن الخلافة جوهرا أحد الأستاذين المحنّكين بالقصر تحدّث فى إزالة صلاح الدين يوسف بن أيوب من وزارة الخليفة العاضد لدين اللّه عندما ضايق أهل القصر و شدّد عليهم و استبدّ بأمور الدولة و أضعف جانب الخلافة و قبض على أكابر أهل الدولة، فصار مع جوهر عدّة من الأمراء المصريين و الجند. و اتفق رأيهم أن يبعثوا إلى الفرنج ببلاد الساحل يستدعونهم إلى القاهرة، حتّى إذا خرج صلاح الدين لقتالهم بعسكر ثاروا و هم بالقاهرة، و اجتمعوا مع الفرنج على إخراجه من مصر.

فسيروا رجلا إلى الفرنج و جعلوا كتبهم التى معه فى نعل، و حفظت بالجلد مخافة أن يفطن بها، فسار الرجل إلى البئر البيضاء قريبا من بلبيس ، فإذا بعض أصحاب صلاح الدين هناك، فأنكر أمر الرجل من أجل أنّه جعل النعلين فى يده، و رآهما و ليس فيهما أثر المشى، و الرجل رثّ الهيئة؛ فارتاب و أخذ النعلين و شقّهما، فوجد الكتب ببطنهما، فحمل الرجل و الكتب إلى صلاح الدين، فتتبّع خطوط الكتب حتّى عرفت، فإذا الذى كتبها من اليهود الكتّاب، فأمر بقتله، فاعتصم بالإسلام و أسلم، و حدّثه الخبر. فبلغ ذلك مؤتمن الخلافة، فاستشعر الشرّ و خاف على نفسه، و لزم القصر و امتنع من الخروج منه، فأعرض صلاح الدين عن ذلك جملة، و طال الأمد؛ فظنّ الخصىّ أنه قد أهمل أمره، و شرع يخرج من القصر. و كانت له منظرة بناها بناحية الخرقانية فى بستان، فخرج إليها فى جماعة. و بلغ ذلك صلاح الدين، فأنهض إليه عدّة هجموا عليه و قتلوه فى يوم الأربعاء لخمس بقين من ذى القعدة سنة أربع و ستّين و خمسمائة، و احتزوا رأسه و أتوا بها إلى صلاح الدين، فاشتهر ذلك بالقاهرة و أشيع، فغضب العسكر المصرىّ، و ثاروا بأجمعهم فى سادس عشريّة، و قد انضمّ إليهم عالم عظيم من الأمراء و العامّة حتّى صاروا ما ينيف على خمسين ألفا، و ساروا إلى دار الوزارة- و فيها يومئذ ساكنا بها صلاح الدين- و قد استعدّوا بالأسلحة، فبادر شمس الدولة فخر الدين توران شاه أخو صلاح الدين، و صرخ فى عساكر الغزّ، و ركب صلاح الدين و قد اجتمع إليه طوائف من أهله و أقاربه و جميع الغزّ و رتبهم، و وقفت الطائفة الريحانية و الطائفة الجيوشية و الطائفة الفرحية و غيرهم من الطوائف السودانية و من انضمّ إليهم بين القصرين، فثارت الحروب بينهم و بين صلاح الدين، و اشتدّ الأمر و عظم الخطب حتّى لم يبق إلا هزيمة صلاح الدين و أصحابه. فعند ذلك أمر توران شاه بالحملة على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵

السودان، فقتل فيها أحد مقدّميهم، فانكفّ بأسهم قليلا، و عظمت حملة الغزّ عليهم، فانكسروا إلى باب الذهب، ثمّ إلى باب الزهومة ، و قتل حينئذ عدّة من الأمراء المصريين و كثير ممّن عداهم.

و كان العاضد فى هذه الوقعة يشرف من المنظرة، فلمّا رأى أهل القصر كسرة السودان و عساكر مصر رموا على الغزّ من أعلى القصر بالنشّاب و الحجارة حتّى أنكوا فيهم، و كفّوهم عن القتال، و كادوا ينهزمون؛ فأمر حينئذ صلاح الدين النفّاطين بإحراق المنظرة، فأحضر شمس الدولة النفّاطين و أخذوا فى تطييب قارورة النفط و صوّبوا بها على المنظرة التى فيها العاضد، فخاف العاضد على نفسه، و فتح باب المنظرة زعيم الخلافة أحد الأستاذين، و قال بصوت عال: أمير المؤمنين يسلّم على شمس الدولة و يقول: دونكم و العبيد الكلاب، أخرجوهم من بلادكم.

فلمّا سمع السودان ذلك ضعفت قلوبهم و تخاذلوا، فحمل عليهم الغزّ فانكسروا، و ركب القوم أقفيتهم إلى أن وصلوا إلى السيوفيين ، فقتل منهم كثير و أسر منهم كثير و امتنعوا هناك على الغزّ بمكان، فأحرق عليهم. و كان فى دار الأرمن التى كانت قريبا من بين القصرين خلق عظيم من الأرمن كلّهم رماة لهم جار فى الدولة يجرى عليهم، فعند ما قرب منهم الغزّ رموهم عن يد واحدة حتّى امتنعوا عن أن يسيروا إلى العبيد، فأحرق شمس الدولة دارهم حتّى هلكوا حرقا و قتلا، و مرّوا إلى العبيد، فصاروا كلّما دخلوا مكانا أحرق عليهم و قتلوا فيه إلى أن وصلوا إلى باب زويلة، فإذا هو مغلوق، فحصروا هناك و استمرّ فيهم القتل مدّة يومين. ثمّ بلغهم أنّ صلاح الدين أحرق المنصورة التى كانت أعظم حاراتهم، و أخذت عليهم أفواه السكك ، فأيقنوا أنّهم قد أخذوا لا محالة، فصاحوا الأمان،

فأمنوا- و ذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة- و فتح لهم باب زويلة، فخرجوا إلى الجيزة، فعدا عليهم شمس الدولة فى العسكر و قد قووا بأموال المهزومين و أسلحتهم، و حكّموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم إلا الشريد؛ و تلاشى من هذه الواقعة أمر العاضد.

و كان من غرائب الاتّفاقات أن الدولة الفاطمية كان الذى افتتح لها بلاد مصر و بنى القاهرة جوهر القائد؛ و الذى كان سببا فى إزالة الدولة و خراب القاهرة جوهر المنعوت بمؤتمن الخلافة هذا. ثمّ لما استبدّ صلاح الدين يوسف بسلطنة الديار المصريّة بعد موت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶

الخليفة العاضد لدين اللّه سكن هذه الحارة الأمير الطواشىّ الخصىّ بهاء الدين قراقوش بن عبد اللّه الأسدى فعرفت به.

حارة برجوان: منسوبة إلى الأستاذ أبى الفتوح برجوان الخادم، و كان خصيّا أبيض تامّ الخلقة، ربّى فى دار الخليفة العزيز بالله، و ولاه أمر القصور. فلمّا حضرته الوفاة وصّاه على ابنه الأمير أبى علىّ منصور، فلمّا مات العزيز بالله أقيم ابنه منصور فى الخلافة من بعده، و قام بتدبير الدولة أبو محمد الحسن بن عمّار الكتامى، فدبّر الأمور و برجوان يناكده فيما يصدر عنه و يختصّ بطوائف من العسكر دونه إلى أن أفسد أمر ابن عمّار، فنظر برجوان فى تدبير الأمور يوم الجمعة لثلاث بقين من رمضان سنة سبع و ثمانين و ثلاثمائة، و صار الواسطة بين الحاكم و بين الناس، فأمر بجمع الغلمان و نهاهم عن التعرّض لأحد من الكتاميين و المغاربة، و وجّه إلى دار ابن عمّار، فمنع الناس عنها بعد أن كانوا قد أحاطوا بها و انتهبوا منها، و أمر أن يجرى لأصحاب الرسوم الرواتب جميع ما كان ابن عمّار قطعه، و أجرى لابن عمّار ما كان يجرى له فى أيام العزيز بالله من الجرايات لنفسه و لأهله و حرمه، و مبلغ ذلك من اللحم و التوابل خمسمائة دينار فى كلّ شهر يزيد عن ذلك أو ينقص عنه على قدر الأسعار، مع ما كان له من الفاكهة؛ و هو فى كلّ يوم سلّة بدينار، و عشرة أرطال شمع بدينار و نصف، و حمل بلح. و جعل كاتبه أبا العلاء فهد بن إبراهيم النصرانى، يوقّع عنه و ينظر فى قصص الرافعين و ظلاماتهم، فجلس لذلك فى القصر و صار يطالعه بجميع ما يحتاج إليه، و رتّب الغلمان فى القصر و أمرهم بملازمة الخدمة و تفقّد أحوالهم، و أزال علل أولياء الدولة، و تفقّد أمور الناس و أزال ضروراتهم، و منع الناس كافة من الترجّل له؛ فكان الناس يلقونه فى داره، فإذا تكامل لقاؤهم ركبوا بين يديه إلى القصر ما عدا الحسين بن جوهر و القاضى ابن النعمان فقط، فإنهما كانا يتقدّمانه من دورهما إلى القصر حتّى أنّه لقّب كاتبه فهدا بالرئيس، فصار يخاطب بذلك و يكاتب به.

و كان برجوان يجلس فى دهاليز القصر، و يجلس الرئيس فهد بالدهليز الأول يوقّع و ينظر و يطالع برجوان ما يحتاج إليه ممّا يطالع به الحاكم، فيخرج الأمر بما يكون العمل به.

و ترقّت أحوال برجوان إلى أن بلغ النهاية، فقصر عن الخدمة، و تشاغل بلذّاته، و أقبل على سماع الغناء و أكثر من الطرب؛ و كان شديد المحبّة فى الغناء، فكان المغنّون من الرجال و النساء يحضرون داره فيكون معهم كأحدهم، ثمّ يجلس فى داره حتّى يمضى صدر النهار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷

و يتكامل جميع أهل الدولة و أرباب الأشغال على بابه، فيخرج راكبا و يمضى إلى القصر، فيمشى من الأمور ما يختار بغير مشاورة.

فلما تزايد الأمر و كثر استبداده تحرّد له الحاكم، و نقم عليه أشياء من تجرّئه عليه و معاملته له بالإذلال و عدم الامتثال، منها أنّه استدعاه يوما و هو راكب معه، فصار إليه و قد ثنى رجله على عنق فرسه و صار باطن قدمه و فيه الخفّ قبالة وجه الحاكم، و نحو ذلك من سوء الأدب. فلما كان يوم الخميس سادس عشرى شهر ربيع الآخر سنة تسعين و ثلاثمائة، أنفذ إليه الحاكم عشيّة للركوب معه إلى المقياس ، فجاء بعد ما تباطأ، و قد ضاق الوقت، فلم يكن بأسرع من خروج عقيق الخادم باكيا يصيح: قتل مولاى. و كان هذا الخادم عينا لبرجوان فى القصر، فاضطرب الناس، و أشرف عليهم الحاكم، و قام زيدان صاحب المظلّة فصاح بهم: من كان فى الطاعة فلينصرف إلى منزله و يبكر إلى القصر المعمور.

فانصرف الجميع.

فكان من خبر قتل برجوان أنّه لما دخل إلى القصر كان الحاكم فى بستان يعرف بدويرة التين و العنّاب و معه زيدان، فوافاه برجوان بها و هو قائم، فسلّم و وقف، فسار الحاكم إلى أن خرج من باب الدويرة فوثب زيدان على برجوان و ضربه بسكّين كانت معه فى عنقه، و ابتدره قوم كانوا قد أعدّوا للفتك به، فأثخنوه جراحة بالخناجر، و احتزّوا رأسه و دفنوه هناك. ثمّ إنّ الحاكم أحضر إليه الرئيس، فهدأ بعد العشاء الأخيرة و قال له: أنت كابنى، و أمّنه و طمّنه، فكانت مدّة نظر برجوان فى الوساطة سنتين و ثمانية أشهر تنقص يوما واحدا، و وجد الحاكم فى تركته مائة منديل يعنى عمامة، كلّها شروب ملوّنة معمّمة على مائة شاشية، و ألف سراويل دبيقية بألف تكّة حرير أرمنىّ، و من الثياب المخيطة و الصحاح و الحلىّ و المصاغ و الطيب و الفرش و الصياغات الذهب و الفضّة ما لا يحصى كثرة، و من العين ثلاثة و ثلاثين ألف دينار، و من الخيل الركابيّة مائة و خمسين فرسا و خمسين بغلة، و من بغال النقل و دواب الغلمان نحو ثلثمائة رأس، و مائة و خمسين سرجا، منها عشرون ذهبا؛ و من الكتب شىء كثير. و حمل لجاريته من مصر إلى القاهرة رحل على ثمانين حمارا.

قال ابن خلكان: و برجوان بفتح الباء الموحدة و سكون الراء و فتح الجيم و الواو و بعد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸

الألف نون هكذا وجدته مقيّدا بخطّ بعض الفضلاء. و قال ابن عبد الظاهر: و يسمى الوزغ، سماه به الحاكم.

حارة زويلة: قال ابن عبد الظاهر: لما نزل القائد جوهر بالقاهرة اختطت كلّ قبيلة خطة عرفت بها، فزويلة بنت الحارة المعروفة بها و البئر التى تعرف ببئر زويلة فى المكان الذى يعمل فيه الآن الروايا، و البابان المعروفان ببابى زويلة. و قال ياقوت: زويلة بفتح الزاى و كسر الواو و ياء ساكنة و فتح اللام: أربعة مواضع: الأوّل زويلة السودان و هى قصبة أعمال فزّان فى جنوب إفريقية مدينة كثيرة النخل و الزرع. الثانى زويلة المهديّة، بلد كالربض للمهديّة اختطّه عبد اللّه الملقّب بالمهدى و أسكنه الرعيّة، و سكن هو بالمهديّة التى استجدّها، فكانت دكاكين الرعية و أمتعتهم بالمهديّة، و منازلهم و حرمهم بزويلة، فكانوا يظلّون بالنهار فى المهدية و يبيتون ليلا بزويلة. و زعم المهدىّ أنه فعل بهم ذلك ليأمن غائلتهم، قال: أحول بينهم و بين أموالهم ليلا و بينهم و بين نسائهم نهارا. الثالث باب زويلة بالقاهرة من جهة الفسطاط الرابع حارة زويلة محلّة كبيرة بالقاهرة بينها و بين باب زويلة عدّة محال، سمّيت بذلك لأنّ جوهرا غلام المعزّ لما اختطّ محلّه بالقاهرة أنزل أهل زويلة بهذا المكان فتسمّى بهم.

الحارة المحمودية : الصواب فى هذه الحارة أن يقال حارة المحمودية على الإضافة، فإنّها عرفت بطائفة من طوائف عسكر الدولة الفاطمية كان يقال لها الطائفة المحمودية، و قد ذكرها المسبّحى فى تاريخه مرارا قال: فى سنة أربع و تسعين و خمسمائة، و فيها اقتتلت الطائفة المحمودية و اليانسية. و اشتبه أمر هذه الحارة على ابن عبد الظاهر، فلم يعرف نسبتها لمن و قال: لا أعلم فى الدولة المصريّة من اسمه محمود إلا ركن الإسلام محمود بن أخت الصالح بن رزّيك صاحب التربة بالقرافة، اللهم إلا أن يكون محمود بن مصال الملكىّ الوزير. فقد ذكر ابن القفطىّ أنّ اسمه محمود، و محمود صاحب المسجد بالقرافة، و كان فى زمان السّرى ابن الحكم قبل ذلك. و هذا و هم آخر، فإنّ ابن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹

مصال الوزير اسمه سليمان، و ينعت بنجم الدين.

و وقعت فى هذه الحارة نكتة، قال القاضى الفاضل فى متجدّدات سنة أربع و تسعين و خمسمائة، و السلطان يومئذ بمصر الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، و كان فى شعبان قد تتابع أهل مصر و القاهرة فى إظهار المنكرات و ترك الإنكار لها و إباحة أهل الأمر و النهى فعلها، و تفاحش الأمر فيها إلى أن غلا سعر العنب لكثرة من يعصره، و أقيمت طاحون بالمحموديّة لطحن حشيشة للبزر، و أفردت برسمه، و حميت بيوت المزر، و أقيمت عليها الضرائب الثقيلة؛ فمنها ما انتهى أمره فى كلّ يوم إلى ستّة عشر دينارا، و منع

المزر البيوتى ليتوفر الشراء من مواضع الحمى، و حملت أوانى الخمر على رؤوس الأشهاد و فى الأسواق من غير منكر، و ظهر من عاجل عقوبة اللّه تعالى وقوف زيادة النيل عن معتادها و زيادة سعر الغلّة فى وقت ميسورها.

حارة الجودرية: هذه الحارة عرفت أيضا بالطائفة الجودرية إحدى طوائف العسكر فى أيام الحاكم بأمر اللّه على ما ذكره المسبّحى، و قال ابن عبد الظاهر: الجودريّة منسوبة إلى جماعة تعرف بالجودريّة اختطّوها و كانوا أربعمائة، منهم أبو علىّ منصور الجودرىّ الذى كان فى أيام العزيز بالله، و زادت مكانته فى الأيام الحاكمية، فأضيفت إليه مع الأحباس الحسبة و سوق الرقيق و السواحل و غير ذلك، و لها حكاية سمعت جماعة يحكونها، و هى أنّها كانت سكن اليهود، و المعروفة بهم؛ فبلغ الخليفة الحاكم أنّهم يجتمعون بها فى أوقات خلواتهم و يغنّون:

و أمّة قد ضلّوا و دينهم معتلّقال لهم نبيّهم: نعم الإدام الخلّ

و يسخرون من هذا القول و يتعرّضون إلى ما لا ينبغى سماعه، فأتى إلى أبوابها و سدّها عليهم ليلا و أحرقها، فإلى هذا الوقت لا يبيت بها يهودىّ و لا- يسكنها أبدا. و قد كان فى الأيام العزيزيّة جودر الصقلبىّ، أيضا ضرب عنقه و نهب ماله فى سنة ستّ و ثمانين و ثلثمائة.

حارة الوزيرية: هى أيضا تنسب إلى طائفة يقال لها الوزيرية من جملة طوائف العسكر، و كانت أوّلا تعرف بحارة بستان المصمودى و عرفت أيضا بحارة الأكراد. قال ابن عبد الظاهر: الوزيرية منسوبة إلى الوزير يعقوب بن يوسف بن كلّس؛ و قال ابن الصيرفىّ

و الطائفة المنعوتة بالوزيرية إلى الآن منسوبة إليه، يعنى الوزير يعقوب بن يوسف بن كلّس أبو الفرج. كان يهوديا من أهل بغداد، فخرج منها إلى بلاد الشام و نزل بمدينة الرملة، و أقام بها فصار فيها وكيلا للتجّار بها، و اجتمع فى قبله مال عجز عن أدائه، ففرّ إلى مصر فى أيّام كافور الإخشيدىّ، فتعلّق بخدمته. و وثب إليه بالمتجر، فباع إليه أمتعة أحيل بثمنها على ضياع مصر، فكثر لذلك تردّده على الريف، و عرف أخبار القرى؛ و كان صاحب حيل و دهاء و مكر و معرفة مع ذكاء مفرط و فطنة، فمهر فى معرفة الضياع حتّى كان إذا سئل عن أمر غلالها و مبلغ ارتفاعها و سائر أحوالها الظاهرة و الباطنة أتى من ذلك بالغرض، فكثرت أمواله و اتسعت أحواله، و أعجب به كافور لما خبر فيه من الفطنة و حسن السياسة فقال: لو كان هذا مسلما لصلح أن يكون وزيرا. فلمّا بلغه هذا عن كافور تاقت نفسه إلى الولاية و أحضر من علّمه شرائع الإسلام سرا، فلمّا كان فى شعبان سنة ستّ و خمسين و ثلثمائة دخل إلى الجامع بمصر و صلّى صلاة الصبح، و ركب إلى كافور و معه محمد بن عبد اللّه بن الخازن فى خلق كثير، فخلع عليه كافور، و نزل إلى داره و معه جمع كثير، و ركب إليه أهل الدولة يهنئونه، و لم يتأخّر عن الحضور إليه أحد، فغصّ بمكانه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات، و قلق بسببه، و أخذ فى التدبير عليه، و نصب الحبائل له حتّى خافه يعقوب، فخرج من مصر فارّا منه يريد بلاد المغرب فى شوّال سنة سبع و خمسين و ثلاثمائة. و قد مات كافور، فلحق بالمعزّ لدين اللّه أبى تميم معدّ، فوقع منه موقعا حسنا، و شاهد منه معرفة و تدبيرا، فلم يزل فى خدمته حتّى قدم من المغرب إلى القاهرة فى شهر رمضان سنة اثنين و ستّين و ثلثمائة، فقلّده فى رابع عشر المحرّم سنة ثلاث و ستين و ثلاثمائة الخراج و جميع وجوه الأموال و الحسبة و السواحل و الأعشار و الجوالى و الأحباس و المواريث و الشرطتين و جميع ما يضاف إلى ذلك و ما يطرأ فى مصر و سائر الأعمال. و أشرك معه فى ذلك كله عسلوج بن الحسن، و كتب لهما سجلا بذلك قرىء فى يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون فقبضت أيدى سائر العمّال و المتضمّنين، و جلس يعقوب و عسلوج فى دار الإمارة فى جامع أحمد بن طولون للنداء على الضياع و سائر وجوه الأموال، و حضر الناس للقبالات، و طالبا بالبقايا من الأموال ممّا على الناس من المالكين و المتقبّلين و العمّال، و استقصيا فى الطلب، و نظرا فى المظالم، فتوفّرت الأموال و زيد فى الضياع، و تزايد الناس و تكاشفوا، أو امتنعا أن يأخذا إلا دينارا معزيا ، فاتضّع الدينار الراضى و انحطّ و نقص من صرفه أكثر من ربع

دينار، فخسر الناس كثيرا من أموالهم فى الدينار الأبيض و الدينار الراضى، و كان صرف المعّزىّ خمسة عشر درهما و نصفا و اشتدّ الاستخراج، فكان يستخرج فى اليوم نيّف و خمسون ألف دينار معزّيـة، و استخرج فى يوم واحد مائة و عشرون ألف دينار معزّية، و حصل فى يوم واحد من مال تنّيس و دمياط الأشمونين أكثر من مائتى ألف دينار و عشرين ألف دينار، و هذا شىء لم يسمع قطّ بمثله فى بلد.

فاستمرّ الأمر على ذلك إلى المحرّم سنة خمس و ستّين و ثلثمائة. فتشاغل يعقوب عن حضور ديوان الخراج، و انفرد بالنظر فى أمور المعزّ لدين اللّه فى قصره و فى الدور الموافق عليها، و بعد ذلك بقليل مات المعزّ لدين اللّه فى شهر ربيع الآخر منها و قام من بعده فى الخلافة ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار ، ففوّض ليعقوب النظر فى سائر أموره و جعله وزيرا له فى أوّل المحرّم سنة سبع و ستّين و ثلثمائة. و فى شهر رمضان سنة ثمان و ستّين لقبه بالوزير الأجلّ، و أمر أن لا يخاطبه أحد و لا يكاتبه إلّا به، و خلع عليه و حمل و رسم له فى محرّم سنة ثلاث و سبعين و ثلثمائة أن يبدأ له فى مكاتباته باسمه على عنوانات الكتب النافذة عنه، و خرج توقيع العزيز بذلك. و فى هذه السنة اعتقل فى القصر، و ردّ الأمر إلى خير بن القاسم، فأقام معتقلا عدّة شهور ثم أطلق فى سنة أربع و سبعين و حمل على عدّة خيول، و قرىء سجلّ بردّه إلى تدبير الدولة. و وهبه خمسمائة غلام من الناشئة و ألف غلام من المغاربة ملّكه العزيز رقابهم، فكان يعقوب أوّل وزراء الخلفاء الفاطميين بديار مصر. فدبّر أمور مصر و الشام و الحرمين و بلاد المغرب و أعمال هذه الأقاليم كلّها من الرجال و الأموال و القضاء و التدبر، و عمل له إقطاعا فى كلّ سنة بمصر و الشام مبلغها ثلثمائة ألف دينار، و اتسعت دائرته و عظمت مكانته حتّى كتب اسمه على الطرز ، و فى الكتب، و كان يجلس كلّ يوم فى داره يأمر و ينهى و لا ترفع إليه رقعة إلا وقّع فيها، و لا يسأل فى حاجة إلا قضاها، و رتب فى داره الحجّاب نوبا، و أجلسهم على مراتب و ألبسهم الديباج، و قلّدهم السيوف، و جعل لهم المناطق ، و رتب فرسين فى داره للنوبة لا تبرح واقفة بسروجها و لجمها، لهم برد ، و نصب فى داره الدواوين، فجعل ديوانا للعزيزية فيه عدّة كتّاب، و ديوانا للجيش فيه عدّة كتاب، و ديوانا للأموال فيه عدّة كتّاب، و عدّة جهابذة ، و ديوانا للخراج، و ديوانا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲

للسجلات و الإنشاء، و ديوانا للمستغلّات ، و أقام على هذه الدواوين زمانا، و جعل فى داره خزانة للكسوة و خزانة للمال و خزانة للدفاتر و خزانة للأشربة، و عمل على كلّ خزانة ناظرا، و كان يجلس عنده فى كلّ يوم الأطبّاء لينظروا فى حال الغلمان و من يحتاج منهم إلى علاج أو إعطاء دواء، و رتّب فى داره الكتّاب و الأطبّاء يقفون بين يديه، و جعل فيها العلماء و الأدباء و الشعراء و الفقهاء و المتكلّمين و أرباب الصنائع، لكلّ طائفة مكان مفرد، و أجرى على كلّ واحد منهم الأرزاق، و ألّف كتبا فى الفقه و القراءات، و نصب له مجلسا فى داره يحضره فى كلّ يوم ثلاثاء، و يحضر إليه الفقهاء و المتكلّمون و أهل الجدل يتناظرون بين يديه. من تأليفه: كتاب فى القراءات و كتاب فى الأديان- و هو كتاب الفقه و اختصره- و كتاب فى آداب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و كتاب فى علم الأبدان و صلاحها فى ألف ورقة، و كتاب فى الفقه ممّا سمعه من الإمام المعزّ لدين اللّه و الإمام العزيز بالله. و كان يجلس فى يوم الجمعة أيضا و يقرأ مصنّفاته على الناس بنفسه، و فى حضرته القضاة و الفقهاء و القرّاء و أصحاب الحديث و النّحاة و الشهود، فإذا فرغ من قراءة ما يقرأ من مصنّفاته قام الشعراء ينشدون مدائحهم فيه. و كان فى داره عدّة كتّاب ينسخون القرآن الكريم و الفقه و الطبّ و كتب الأدب و غيرها من العلوم، فإذا فرغوا من نسخها قوبلت و ضبطت، و جعل فى داره قرّاء و أئمة يصلّون فى مسجد داره، و أقام بداره عدّة مطابخ لنفسه و لجلسائه و لغلمانه و حواشيه، و كان ينصب مائدة لخاصّته يأكل هو و خواصّه من أهل العلم و وجوه كتّابه و خواصّ غلمانه و من يستدعيه عليها، و ينصب عدّة موائد لبقيّة الحجّاب و الكتّاب و الحواشى. و كان إذا جلس يقرأ كتابه فى الفقه الذى سمعه من المعزّ و العزيز لا يمنع أحد من مجلسه، فيجتمع عنده الخاص و العامّ، و رتّب عند العزيز بالله جماعة لا يخاطبون إلا بالقائد، و أنشأ عدّة مساجد و مساكن بمصر و القاهرة، و كان يقيم فى شهر رمضان الأطعمة للفقهاء و وجوه الناس و أهل الستر و التعفّف و لجماعة كثيرة من الفقراء، و كان إذا فرغ الفقهاء و الوجوه من الأكل معه يطاف عليهم بالطّيب. و مرض مرّة من علّة أصابت

يده، فقال فيه عبد اللّه بن محمد بن أبى الجرع:

يد الوزير هى الدنيا فإن ألمترأيت فى كلّ شىء ذلك الألما

تأمّل الملك و انظر فرط علّتهمن أجله و اسأل القرطاس و القلما

و شاهد البيض فى الأغماد حائمةإلى العدا و كثيرا ما روين دما

و أنفس الناس بالشكوى قد اتّصلت كأنّما أشعرت من أجله سقما

هل ينهض المجد إلا أن يؤيّدهساق يقدّم فى إنهاضه قدما

لولا العزيز و آراء الوزير معاتحيّفتنا خطوب تشعب الأمما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳ فقل لهذا و هذا أنتما شرفلا أوهن اللّه ركنيه و لا انهدما

كلاكما لم يزل فى الصالحات يدامبسوطة و لسانا ناطقا و فما

و لا أصابكما أحداث دهركماو لا طوى لكما ما عشتما علما

و لا انمحت عنك يا مولاى عافيةفقد محوت بما أوليتنى العدما

و كان الناس يفتون بكتابه فى الفقه، و درّس فيه الفقهاء بجامع مصر، و أجرى العزيز باللّه لجماعة فقهاء يحضرون مجلس الوزير أرزاقا فى كلّ شهر تكفيهم، و كان للوزير مجلس فى داره للنظر فى رقاع المرافعين و المتظلّمين، و يوقع بيده فى الرقاع، و يخاطب الخصوم بنفسه. و أراد العزيز باللّه أن يسافر إلى الشام فى زمن ابتداء الفاكهة، فأمر الوزير أن يأخذ الأهبة لذلك فقال: يا مولاى؛ لكلّ سفر أهبة على مقداره، فما الغرض من السفر؟ فقال:

إنّى أريد التفرّج بدمشق لأكل القراصيا . فقال: السمع و الطاعة. و خرج فاستدعى جميع أرباب الحمام و سألهم عمّا بدمشق من طيور مصر، و أسماء من هى عنده، و كانت مائة و نيّفا و عشرين طائرا، ثمّ التمس من طيور دمشق التى هى فى مصر عدّة، فأحضرها و كتب إلى نائبه بدمشق يقول: إنّ بدمشق كذا و كذا طائرا، و عرّفه أسماء من هى عنده، و أمره بإحضارها إليه جميعها، و أن يصيب من القراصيا فى كلّ كاغدة ، و يشدّها على كلّ طائر منها و يسرّحها فى يوم واحد، فلم يمض إلا ثلاثة أيّام أو أربعة حتّى وصلت الحمائم كلّها و لم يتأخر منها إلا نحو عشر، و على جناحها القراصيا، فاستخرجها من الكواغد، و عملها فى طبق من ذهب، و غطّاها و بعث بها إلى العزيز باللّه مع خادم، و ركب إليه و قدّم ذلك و قال: يا أمير المؤمنين قد حضّرنا قبالك القراصيا ههنا، فإن أغناك هذا القدر و إلا استدعينا شيئا آخر، فعجب العزيز بالوزير و قال: مثلك يخدم الملوك يا وزير؛ و اتفق أنه سابق العزيز بين الطيور، فسبق طائر الوزير يعقوب طائر العزيز، فشقّ ذلك على العزيز، و وجد أعداء الوزير سبيلا إلى الطعن فيه، فكتبوا إلى العزيز أنه قد اختار من كلّ صنف أعلاه و لم يترك لأمير المؤمنين إلا أدناه حتّى الحمام، فبلغ ذلك الوزير فكتب إلى العزيز:

قل لأمير المؤمنين الذىله العلى و المثل الثاقب

طائرك السابق لكنّهلم يأت إلّا و له حاجب

فأعجب العزيز ذلك و أعرض عما و شى به، و لم يزل على حال رفيعة و كلمة نافذة إلى أن ابتدأت به علّته يوم الأحد الحادى و العشرين من شوّال سنة ثمانين و ثلثمائة، و نزل إليه العزيز باللّه يعوده، و قال له: وددت أنّك تباع فابتاعك بمالى أو تفدى فأفديك بولدى، فهل من حاجة توصى بها يا يعقوب؟ فبكى و قبّل يده و قال: أمّا فيما يخصّنى فأنت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴

أرعى بحقّى من أن أسترعيك إياه و أرأف على من أن أوصيك به، و لكنّى أنصح لك فيما يتعلّق بك و بدولتك سالم الروم ما سالموك، و اقنع من الحمدانية بالدعوة و الشكر ، و لا تبق على مفرج بن دعقل إن عرضت لك فيه فرصة. و انصرف العزيز فأخذته السكتة، و كان فى سياق الموت يقول: لا يغلب اللّه غالب، ثمّ قضى نحبه ليلة الأحد لخمس خلون من ذى الحجّة، فأرسل العزيز باللّه

إلى داره الكفن و الحنوط، و تولّى غسله القاضى محمد بن النعمان و قال: كنت و اللّه اغسل لحيته و أنا أرفق به خوفا أن يفتح عينه فى وجهى.

و كفّن فى خمسين ثوبا، ثلاثين مثقلا، يعنى: منسوجا بالذهب، و وشى مذهبا، و شرب ديبقى مذهبا، و حقّة كافورا، و قارورتى مسك و خمسين منا ماء ورد؛ و بلغت قيمة الكفن و الحنوط عشرة آلاف دينار.

و خرج مختار الصقلبىّ و علىّ بن عمر العدّاس و الرجال بين أيديهم ينادون لا يتكلّم أحد و لا ينطق، و قد اجتمع الناس فيما بين القصر و دار الوزير التى عرفت بدار الديباج، ثمّ خرج العزيز من القصر على بغلة و الناس يمشون بين يديه و خلفه بغير مظلّة و الحزن ظاهر عليه حتّى وصل إلى داره، فنزل و صلّى عليه، و قد طرح على تابوته ثوب مثقل، و وقف حتّى دفن بالقبّة التى كان بناها و هو يبكى، ثمّ انصرف. و سمع العزيز و هو يقول: و اطول أسفى عليك يا وزير، و اللّه لو قدرت أفديك بجميع ما أملك لفعلت. و أمر بإجراء غلمانه على عادتهم، و عتق جميع مماليكه، و أقام ثلاثا لا يأكل على مائدته و لا يحضرها من عادته الحضور، و عمل على قبره ثوبان مثقلان، و أقام الناس عند قبره شهرا، و غدا الشعراء إلى قبره، فرثاه مائة شاعر أجيزوا كلّهم، و بلغ العزيز أنّ عليه ستّة عشر ألف دينار دينا، فأرسل بها إلى قبره فوضعت عليه و فرّقت على أرباب الديون، و ألزم القرّاء بالمقام على قبره، و أجرى عليهم الطعام، و كانت الموائد تحضر إلى قبره كلّ يوم مدّة شهر، يحضر نساء الخاصّة كلّ يوم و معهنّ نساء العامّة، فتقوم الجوارى بأقداح الفضّة و البلّور و ملاعق الفضّة فيسقين النساء الأشربة و السويق بالسكّر، و لم تتأخّر نائحة و لا لاعبة عن حضور القبر مدّة الشهر، و خلّف أملاكا و ضياعا قياسير و رباعا و عينا و ورقا و أوانى ذهبا و فضّة و جوهرا و عنبرا و طيبا و ثيابا و فرشا و مصاحف و كتبا و جوارى و عبيدا و خيلا و بغالا و نوقا و حمرا و إبلا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵

و غلالا- و خزائن ما بين أشربة و أطعمة قوّمت بأربعة آلاف ألف دينار سوى ما جهّز به ابنته و هو ما قيمته مائتا ألف دينار، و خلّف ثمانمائة حظيّة سوى جوارى الخدمة، فلم يتعرّض العزيز لشىء ممّا يملكه أهله و جواريه و غلمانه، و أمر بحفظ جهاز ابنته إلى أن زوّجها و أجرى لمن فى داره كلّ شهر ستمائة دينار للنفقة سوى الكسوة و الجرايات و ما يحمل إليهم من الأطعمة من القصر، و أمر بنقل ما خلّفه إلى القصر، فلمّا تمّ له من يوم وفاته شهر قطع الأمير منصور بن العزيز جميع مستغلّاته، و أقرّ العزيز جميع ما فعله الوزير و ما ولّاه من العمّال على حاله، و أجرى الرسوم التى كان يجريها، و أقرّ غلمانه على حالهم و قال: هؤلاء صنائعى. و كانت عدّة غلمان الوزير أربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيريّة، و زاد العزيز أرزاقهم عمّا كانت عليه، و أدناهم، و إليهم تنسب الوزيريّة، فإنّها كانت مساكنهم. و اتّفق أنّ الوزير عمّر قبّة أنفق عليها خمسة عشر ألف دينار، و آخر ما قال: لقد طال أمر هذه القبّة، ما هذه قبّة، هذه تربة. فكانت كذلك، و دفن تحتها، و موضع قبره اليوم المدرسة الصاحبيّة، و اتّفق أنّه وجد فى داره رقعة مكتوب فيها:

احذروا من حوادث الأزمانو توقّوا طوارق الحدثان

قد أمنتم ريب الزمان و نمتمربّ خوف مكمن فى الأمان

فلمّا قرأها قال: لا حول و لا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم، و لم يلبث بعدها إلا أياما يسيرة، و مرض فمات.

حارة الباطلية: عرفت بطائفة يقال لهم الباطلية، قال ابن عبد الظاهر: و كان المعزّ لما قسم العطاء فى الناس جاءت طائفة فسألت عطاء فقيل لها: افرغ ما كان حاضرا، و لم يبق شىء؛ فقالوا: رحنا نحن فى الباطل، فسمّوا الباطليّة، و عرفت هذه الحارة بهم. و فى سنة ثلاث و ستّين و ستّمائة احترقت حارة الباطليّة عند ما كثر الحريق فى القاهرة و مصر، و اتّهم النصارى بفعل ذلك، فجمعهم الملك الظاهر بيبرس، و حملت لهم الأحطاب الكثيرة و الحلفاء، و قدّموا ليحرقوا بالنار، فتشفّع لهم الأمير فارس الدين أقطاى أتابك العساكر على أن يلتزموا بالأموال التى احترقت و أن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار فتركوا. و جرى فى ذلك ما تستحسن حكايته، و هو أنّه قد جمع مع النصارى سائر اليهود، و ركب السلطان ليحرقهم بظاهر القاهرة، و قد اجتمع الناس من كلّ مكان للتشفّى بحريقهم لما

نالهم من البلاء فيما دهوا به من حريق الأماكن لا سيّما الباطليّة، فإنّها أتت النار عليها حتّى حرقت بأسرها. فلمّا حضر السلطان و قدم اليهود و النصارى ليحرقوا برز ابن الكازرونى اليهودىّ- و كان صيرفيا- و قال للسلطان: سألتك بالله لا تحرقنا مع هؤلاء الكلاب الملاعين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶

أعدائنا و أعدائكم، احرقنا ناحية وحدنا؛ فضحك السلطان و الأمراء، و حينئذ تقرّر الأمر على ما ذكر، فندب لاستخراج المال منهم الأمير سيف الدين بلبان المهرانى، فاستخلص بعض ذلك فى عدّة سنين، و تطاول الحال، فدخل كتّاب الأمراء مع مخادعيهم و تحيّلوا فى إبطال ما بقى، فبطل فى أيام السعيد بن الظاهر. و كان سبب فعل النصارى لهذا الحريق حنقهم لمّا أخذ الظاهر من الفرنج أرسوف و قيسارية و طرابلس و يافا و أنطاكية. و ما زالت الباطلية خرابا، و الناس تضرب بحريقها المثل لمن يشرب الماء كثيرا فيقولون: كأنّ فى باطنه حريق الباطليّة. و لما عمر الطواشى بهادر المقدّم داره بالباطليّة عمر فيها مواضع بعد سنة خمس و ثمانين و سبعمائة.

حارة الروم: قال ابن عبد الظاهر: و اختطّت الروم حارتين: حارة الروم الآن و حارة الروم الجوّانية، فلمّا ثقل ذلك عليهم قالوا: الجوّانية لا غير. و الورّاقون إلى هذا الوقت يكتبون حارة الروم السفلى و حارة الروم العليا المعروفة اليوم بالجوّانية. و فى سابع عشر ذى الحجّة سنة تسع و تسعين و ثلثمائة أمر الخليفة الحاكم بأمر اللّه بهدم حارة الروم فهدمت و نهبت.

حارة الديلم: عرفت بذلك لنزول الديلم الواصلين مع هفتكين الشرابى حين قدم و معه أولاد مولاه معزّ الدولة البويهى و جماعة من الدّيلم و الأتراك فى سنة ثمان و ستّين و ثلثمائة، فسكنوا بها فعرفت بهم. و هفتكين هذا يقال له الفتكين أبو منصور التركىّ الشرابىّ غلام معزّ الدولة أحمد بن بويه. ترقّى فى الخدم حتّى غلب فى بغداد على عزّ الدولة مختار بن معزّ الدولة، و كان فيه شجاعة و ثبات فى الحرب. فلمّا سارت الأتراك من بغداد لحرب الديلم جرى بينهم قتال عظيم اشتهر فيه هفتكين إلّا أنّ أصحابه انهزموا عنه و صار فى طائفة قليلة، فولّى بمن معه من الأتراك و هم نحو الأربعمائة، فسار إلى الرحبة و أخذ منها على البرّ إلى أن قرب من حوشبة إحدى قرى الشام، و قد وقع فى قلوب العربان منه مهابة، فخرج إليه ظالم بن مرهوب العقيلى من بعلبك، و بعث إلى أبى محمود إبراهيم بن جعفر أمير دمشق من قبل الخليفة المعزّ لدين اللّه يعلمه بقدومه هفتكين من بغداد لإقامة الخطبة العباسيّة، و خوّفه منه، فأنفذ إليه عسكرا و سار إلى ناحية حوشبة يريد هفتكين، و سار بشارة الخادم من قبل أبى المعالى بن حمدان عونا لهفتكين فردّ ظالم إلى بعلبك من غير حرب، و سار بشارة بهفتكين إلى حمص، فحمل إليه أبو المعالى و تلقّاه و أكرمه. و كان قد ثار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷

بدمشق جماعة من أهل الدّعارة و الفساد و حاربوا عمّال السلطان و اشتدّ أمرهم، و كان كبيرهم يعرف بابن الماورد، فلمّا بلغهم خبر هفتكين بعثوا إليه من دمشق إلى حمص يستدعونه، و وعدوه بالقيام معه على عساكر المعزّ و إخراجهم من دمشق ليلى عليهم، فوقع ذلك منه بالموافقة، و سار حتّى نزل بثنية العقاب لأيام بقيت من شعبان سنة أربع و ستّين و ثلثمائة فبلغ عسكر المعزّ خبر الفرنج و أنّهم قد قصدوا طرابلس، فساروا بأجمعهم إلى لقاء العدوّ، و نزل هفتكين على دمشق من غير حرب، فأقام أياما ثم سار يريد محاربة ظالم، ففرّ منه، و دخل هفتكين بعلبكّ، فطرقه العدوّ من الروم و الفرنج و انتهبوا بعلبك و أحرقوا، و ذلك فى شهر رمضان، و انتشروا فى أعمال بعلبك و البقاع يقتلون و يأسرون و يحرقون، و قصدوا دمشق و قد التحق بها هفتكين، فخرج إليهم أهل دمشق و سألوهم الكفّ عن البلد، و التزموا بمال، فخرج إليهم هفتكين و أهدى إليهم، و تكلّم معهم فى أنه لا يستطيع جباية المال لقوّة ابن الماورد و أصحابه، و أمر ملك الروم به، فقبض عليه و قيّده، و عاد فجبى المال من دمشق بالعنف، و حمل إلى ملك الروم ثلاثين ألف دينار، و رحل إلى بيروت ثمّ إلى طرابلس، فتمكن هفتكين من دمشق، و أقام بها الدعوة لأبى بكر عبد الكريم الطائع بن المطيع العباسىّ، و سيّر إلى العرب السرايا، فظفرت و عادت إليه بعده بمن أسرته من رجال العرب فقتلهم صبرا.

و كان قد تخوّف من المعزّ، فكاتب القرامطة يستدعيهم من الأحساء للقدوم عليه لمحاربة عساكر المعزّ، و ما زال بهم حتّى وافوا دمشق

فی سنهٔ خمس و ستّین، و نزلوا علی ظاهرها و معهم کثیر من أصحاب هفتکین الذین کانوا قد تشتتوا فی البلاد، فقوی بهم، و لقی القرامطهٔ ، و حمل إلیهم و سرّ بهم، فأقاموا علی دمشق أیاما، ثمّ رحلوا نحو الرّملهٔ و بها أبو محمود فلحق بیافا، و نزل القرامطهٔ الرملهٔ و نصبوا القتال علی یافا حتّی کلّ الفریقان و سئموا جمیعا من طول الحرب، و سار هفتکین علی الساحل و نزل صیدا، و بها ظالم بن مرهوب العقیلیّ و ابن الشیخ من قبل المعزّ، فقاتلهم قتالا شدیدا انهزم منه ظالم إلی صور، و قتل بین الفریقین نحو أربعهٔ آلاف رجل، فقطع أیدی القتلی من عسکر المعزّ و سیّرها إلی دمشق، فطیف بها، ثمّ سار عن صیدا یرید عکّا و بها عسکر المعزّ، و کان قد مات المعزّ فی ربیع الآخر سنهٔ ۳۶۵ ه، و قام من بعده ابنه العزیز بالله، و سیّر جوهرا القائد فی عسکر عظیم إلی قتال هفتکین و القرامطهٔ، فبلغ ذلک القرامطهٔ و هم علی الرملهٔ و وصل الخبر بمسیره إلی هفتکین و هو علی عکّا، فخاف القرامطهٔ و فرّوا عنها، فنزلها جوهر، و سار من القرامطهٔ إلی

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۳، ص: ۱۸

الأحساء التی هی بلادهم جماعهٔ و تأخّر عدّهٔ، و سار هفتکین من عکّا إلی طبریّهٔ و قد علم بمسیر القرامطهٔ و تأخّر بعضهم، فاجتمع بهم فی طبریهٔ و استعدّ للقاء جوهر، و جمع الأقوات من بلاد حوران و الثنیهٔ، و أدخلها إلی دمشق و سار إلیها، فتحصن بها، و نزل جوهر علی ظاهر دمشق لثمان بقین من ذی القعدهٔ فبنی علی معسکره سورا، و حفر خندقا عظیما، و جعل له أبوابا، و جمع هفتکین الناس للقتال.

و کان قد بقی بعد ابن الماورد رجل یعرف بقسّام التراب، و صار فی عدّهٔ وافرهٔ من الدعّار، فأعانه هفتکین و قوّاه و أمدّه بالسلاح و غیره، و وقعت بینهم و بین جوهر حروب عظیمهٔ طویلهٔ إلی یوم الحادی عشر من ربیع الأوّل سنهٔ ستّ و ستین و ثلاثمائهٔ، فاختلّ أمر هفتکین و همّ بالفرار، ثمّ إنه استظهر و وردت الأخبار بقدوم الحسن بن أحمد القرمطیّ إلی دمشق، فطلب جوهر الصلح علی أن یرحل عن دمشق من غیر أن یتبعه أحد، و ذلک أنه رأی أمواله قد قلّت و هلک کثیر ممّا کان فی عسکره حتّی صار أکثر عسکره رجّالهٔ و أعوزهم العلف، و خشی قدوم القرامطهٔ، فأجابه هفتکین، و قد عظم فرحه و اشتدّ سروره، فرحل فی ثالث جمادی الأولی و جدّ فی المسیر و قد قرب القرامطهٔ؛ فأناخ بطبریّهٔ، فبلغ ذلک القرمطی فقصده، و قد سار عنها إلی الرملهٔ فبعث إلیه بسریهٔ کانت لها مع جوهر وقعهٔ قتل فیها جماعهٔ من العرب، و أدرکه القرمطی، و سار فی أثره هفتکین فمات الحسن بن أحمد القرمطی بالرملهٔ، و قام من بعده بأمر القرامطهٔ ابن عمّه جعفر، ففسد ما بینه و بین هفتکین، و رجع عن الرملهٔ إلی الأحساء، و ناصب هفتکین القتال، و ألح فیه علی جوهر حتّی انهزم عنه و سار إلی عسقلان و قد غنم هفتکین ممّا کان معه شیئا یجلّ عن الوصف، و نزل علی البلد محاصرا لها. و بلغ ذلک العزیز، فاستعدّ للمسیر إلی بلاد الشام، فلما طال الأمر علی جوهر راسل هفتکین حتّی یقرّر الصلح علی مال یحمله إلیه و أن یخرج من تحت سیف هفتکین، فعلق سیفه علی باب عسقلان، و خرج جوهر و من معه من تحته و ساروا إلی القاهرهٔ، فوجد العزیز قد برز یرید المسیر، فسار معه، و کان مدّهٔ قتال هفتکین لجوهر علی ظاهر الرملهٔ و فی عسقلان سبعهٔ عشر شهرا. و سار العزیز بالله حتّی نزل الرملهٔ، و کان هفتکین بطبریّهٔ، فسار إلی لقاء العزیز و معه أبو إسحاق و أبو طاهر أخو عز الدولهٔ ابن بختیار بن أحمد بن بویه و أبو اللحاد مر زبان عز الدولهٔ ابن بختیار بن عز الدولهٔ ابن بویه، فحاربوه، فلم یکن غیر ساعهٔ حتّی هزمت عساکر العزیز عساکر هفتکین و ملکوه فی یوم الخمیس لسبع بقین من المحرّم سنهٔ ثمان و ستّین و ثلثمائهٔ، و استأمن أبو إسحاق و مرزبان بن بختیار و قتل أبو طاهر أخو عز الدولهٔ ابن بختیار، و أخذ أکثر أصحابه أسری، و طلب هفتکین فی القتلی فلم یوجد.

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۳، ص: ۱۹

و کان قد فرّ وقت الهزیمهٔ علی فرس بمفرده، فأخذه بعض العرب أسیرا، فقدم به علی مفرّج بن دعقل بن الجراح الطائیّ و عمامته فی عنقه، فبعث به إلی العزیز، فأمر به فشهر فی العسکر، و طیف به علی جمل، فأخذ الناس یلطمونه و یهزّون لحیته حتی رأی فی نفسه العبر، ثم سار العزیز بهفتکین و الأسری إلی القاهرهٔ، فاصطنعه و من معه، و أحسن إلیه غایهٔ الإحسان، و أنزله فی دار و واصله بالعطاء و

الخلع حتّى قال: لقد احتشمت من ركوبى مع مولانا العزيز بالله و تطوّفى إليه بما غمرنى من فضله و إحسانه. فلما بلغ ذلك العزيز قال لعمه حيدرة: يا عمّ؛ و اللّه إنى أحبّ أن أرى النعم عند الناس ظاهرة، و أرى عليهم الذهب و الفضة و الجوهر و لهم الخيل و اللباس و الضياع و العقار، و أن يكون ذلك كلّه من عندى.

و بلغ العزيز أنّ الناس من العامّة يقولون: ما هذا التركىّ؟ فأمر به فشهّر فى أجمل حال، و لمّا رجع من تطوّفه و هب له مالا جزيلا، و خلع عليه و أمر سائر الأولياء بأن يدعوه إلى دورهم، فما منهم إلا من عمل له دعوة، و قدم إليه و قاد بين يديه الخيول، ثمّ إن العزيز قال له بعد ذلك: كيف رأيت دعوات أصحابنا؟ فقال: يا مولانا، حسنة فى الغاية و ما فيهم إلا من أنعم و أكرم. فصار يركب للصيد و التفرّج، و جمع إليه العزيز بالله أصحابه من الأتراك و الديلم، و استحجبه و اختصّ به، و ما زال على ذلك إلى أن توفّى فى سنة اثنين و سبعين و ثلثمائة، فاتّهم العزيز وزيره يعقوب بن كلّس أنه سمّه لأنّ هفتكين كان يترفّع عليه، فاعتقله مدّة ثمّ أخرجه.

حارة الأتراك: هذه الحارة تجاه الجامع الأزهر، و تعرف اليوم بدرب الأتراك، و كان نافذا إلى حارة الديلم، و الورّاقون القدماء تارة يفردونها من حارة الديلم، و تارة يضيفونها اليها و يجعلونها من حقوقها، فيقولون تارة: حارة الديلم و الأتراك، و تارة يقولون: حارتى الديلم و الأتراك، و قيل لها حارة الأتراك لأنّ هفتكين لما غلب ببغداد سار معه من جنسه أربعمائة من الأتراك، و تلاحق به عند ورود القرامطة عليه بدمشق عدّة من أصحابه، فلما جمع لحرب العزيز بالله كان أصحابه ما بين ترك و ديلم، فلما قبض عليه العزيز و دخل به إلى القاهرة فى الثانى و العشرين من شهر ربيع الأوّل سنة ثمان و ستّين و ثلثمائة كما تقدّم نزل الديلم مع أصحابهم فى موضع حارة الديلم، و نزل هفتكين بأتراكه فى هذا المكان، فصار يعرف بحارة الأتراك. و كانت مختلطة بحارة الديلم لأنهما أهل دعوة واحدة، إلا أنّ كلّ جنس على حدة لتخالفهما فى الجنسيّة ثم قيل بعد ذلك درب الأتراك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰

حارة كتامة : هذه الحارة مجاورة لحارة الباطليّة، و قد صارت الآن من جملتها.

كانت منازل كتامة بها عند ما قدموا من المغرب مع القائد جوهر، ثمّ مع العزيز، و موضع هذه الحارة اليوم حمام كواى و ما جاورها مما وراء مدرسة ابن الغنام حيث الموضع المعروف بدرب ابن الأعسر إلى رأس الباطلية، و كانت كتامة هى أصل دولة الخلفاء الفاطميين.

ذكر أبى عبد اللّه الشيعى

هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعى من أهل صنعاء اليمن، ولى الحسبة فى بعض أعمال بغداد، ثمّ سار إلى ابن حوشب باليمن، و صار من كبار أصحابه، و كان له علم و فهم و عنده دهاء و مكر، فورد على ابن حوشب موت الحلوانىّ داعى المغرب و رفيقه، فقال لأبى عبد اللّه الشيعى: إنّ أرض كتامة من بلاد المغرب قد خرّبها الحلوانىّ و أبو سفيان، و قد ماتا، و ليس لها غيرك؛ فبادر فإنّها موطّأة ممهّدة لك. فخرج من اليمن إلى مكّة، و قد زوّده ابن حوشب بمال، فسأل عن حجّاج كتامة فأرشد إليهم و اجتمع بهم، و أخفى عنهم قصده، و ذلك أنه جلس قريبا منهم فسمعهم يتحدّثون بفضائل آل البيت فحدّثهم فى ذلك و أطال، ثمّ نهض ليقوم فسألوه أن يأذن لهم فى زيارته فأذن لهم، فصاروا يتردّدون إليه لما رأوا من علمه و عقله، ثمّ إنهم سألوه أين يقصد؟ فقال: أريد مصر، فسرّوا بصحبته، و رحلوا من مكّة و هو لا يخبرهم شيئا من خبره و ما هو عليه من القصد. و شاهدوا منه عبادة و ورعا و تحرّجا و زهادة، فقويت رغبتهم فيه و اشتملوا على محبّته و اجتمعوا على اعتقاده، و ساروا بأسرهم خدما له. و هو فى أثناء ذلك يستخبرهم عن بلادهم و يعلم أحوالهم و يفحص عن قبائلهم و كيف طاعتهم للسلطان بإفريقية، فقالوا له: ليس له علينا طاعة، و بيننا و بينه عشرة أيام، قال: أفتحملون السلاح؟ قالوا: هو شغلنا. و ما برح حتّى عرف جميع ما هم عليه. فلمّا وصلوا إلى مصر أخذ يودّعهم، فشقّ عليهم فراقه و سألوه عن حاجته بمصر فقال: ما لى بها من حاجة، إلا أنّى أطلب التعليم بها. قالوا: فأمّا إذا كنت تقصد هذا فإنّ بلادنا أنفع لك و

أطوع لأمرك، و نحن أعرف بحقّك؛ و ما زالوا به حتّى أجابهم إلى المسير معهم، فساروا به إلى أن قاربوا بلادهم، و خرج إلى لقائهم أصحابهم، و كان عندهم حسّ كبير من التشيّع و اعتقاد عظيم فى محبّة أهل البيت كما قرّره الحلوانىّ، فعرّفهم القوم خبر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱

أبى عبد اللّه، فقاموا بحقّ تعظيمه و إجلاله، و رغبوا فى نزوله عندهم، و اقترعوا فيمن يضيفه، ثمّ ارتحلوا إلى أرض كتامة فوصلوا إليها منتصف الربيع الأوّل سنة ثمان و ثمانين و مائتين، فما منهم إلا من سأله أن يكون منزله عنده، فلم يوافق أحدا منهم و قال: أين يكون فجّ الأخبار؟ فعجبوا من ذلك و لم يكونوا قطّ ذكروه له منذ صحبوه فدلّوه عليه، فقصده و قال: إذا حللنا به صرنا نأتى كلّ قوم منكم فى ديارهم و نزورهم فى بيوتهم؛ فرضوا جميعا بذلك. و سار إلى جيل ايلحان و فيه فج الأخيار، فقال هذا فج الأخيار و ما سمّى إلا بكم، و لقد جاء فى الآثار للمهدىّ هجرة ينبو بها عن الأوطان ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان، قوم اسمهم مشتقّ من الكتمان، و لخروجكم فى هذا الفجّ سمّى فجّ الأخيار، فتسامعت به القبائل و أتته البربر من كلّ مكان، و عظم أمره حتى أنّ كتامة اقتتلت عليه مع قبائل البربر، و هو لا- يذكر اسم المهدى و لا- يعرّج عليه، فبلغ خبره إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، فقال أبو عبد اللّه لكتامة: أنا صاحب النذر الذى قال لكم أبو سفيان و الحلوانىّ، فازدادت محبّتهم له و عظم أمره فيهم، و أتته القبائل من كلّ مكان، و سار إلى مدينة تاصروق ، و جمع الخيل و صيّر أمرها للحسن بن هارون كبير كتامة، و خرج للحرب فظفر و غنم، و عمل على تاصروق خندقا، فرجعت إليه قبائل من البربر و حاربوه فظفر بهم، و صارت إليه أموالهم، و والى الغزو فيهم حتّى استقام له أمرهم، فسار و أخذ مدائن عدّة، فبعث إليه ابن الأغلب بعساكر كانت له معهم حروب عظيمة و خطوب عديدة و أنباء كثيرة آلت إلى غلب أبى عبد اللّه و انتشار أصحابه من كتامة فى البلاد، فصار يقول: المهدىّ يخرج فى هذه الأيام و يملك الأرض، فيا طوبى لمن هاجر إلىّ و أطاعنى. و أخذ يغرى الناس بابن الأغلب ، و يذكر كرامات المهدى و ما يفتح اللّه له، و يعدهم بأنّهم يملكون الأرض كلّها.

و سير إلى عبيد اللّه بن محمد رجالا من كتامة ليخبروه بما فتح اللّه له و أنه ينتظره، فوافوا عبيد اللّه بسلمية من أرض حمص، و كان قد اشتهر بها و طلبه الخليفة المكتفى، ففرّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲

منه بابنه أبى القاسم و سار إلى مصر، و كان لهما قصص مع النوشزىّ عامل مصر حتّى خلصا منه و لحقا ببلاد المغرب. و بلغ ابن الأغلب زيادة اللّه خبره مسير عبيد اللّه، فأزكى له العيون و أقام له الأعوان حتّى قبض عليه بسلجماسة، و كان عليها اليسع بن مدرار، و حبس بها هو و ابنه أبو القاسم. و بلغ ذلك أبا عبد اللّه و قد عظم أمره، فسار و ضايق زيادة اللّه بن الأغلب، و أخذ مدائنه شيئا بعد شىء، و صار فيما ينيف على مائتى ألف، و ألحّ على القيروان حتّى فرّ زيادة اللّه إلى مصر، و ملكها أبو عبد اللّه، ثم سار إلى رفادة فدخلها أوّل رجب سنة ست و تسعين و مائتين، و فرّق الدور على كتامة و بعث العمال إلى البلاد، و جمع الأموال و لم يخطب باسم أحد.

فلما دخل شهر رمضان سار من رفّادة فاهتزّ لرحيله المغرب بأسره و خافته زنانة و غيرها، و بعثوا إليه بطاعتهم، و سار إلى سلجماسة ، ففرّ منه اليسع بن مدرار و اليها، و دخل البلد فأخرج عبيد اللّه و ابنه من السجن و قال: هذا المهدىّ الذى كنت أدعوكم إليه.

و أركبه هو و ابنه و مشى بسائر رؤساء القبائل بين أيديهما و هو يقول: هذا مولاكم و يبكى من شدّة الفرح حتى وصل إلى فسطاط ضرب له، فأنزل فيه و بعث فى طلب اليسع فأدركه، و حمل إليه فضربه بالسياط و قتله، ثمّ سار المهدى إلى رفادة فصار بها فى آخر ربيع الآخر سنة سبع و تسعين و مائتين.

و لما تمكّن قتل أبا عبد اللّه و أخاه فى يوم الاثنين للنصف من جمادى الآخرة سنة ثمان و تسعين و مائتين، فكان هذا ابتداء أمر الخلفاء الفاطميين، و ما زالت كتامة هى أهل الدولة مدّة خلافة المهدى عبيد اللّه و خلافة ابنه القاسم القائم بأمر اللّه و خلافة المنصور بنصر اللّه إسماعيل بن القاسم و خلافة معدّ المعز لدين اللّه ابن المنصور، و بهم أخذ ديار مصر لما سيّرهم إليها مع القائد جوهر فى

سنة ثمان و خمسين و ثلثمائة، و هم أيضا كانوا أكابر من قدم معه من الغرب فى سنة اثنين و ستّين و ثلثمائة. فلما كان فى أيّام ولده العزيز بالله نزار اصطنع الدّيلم و الأتراك، و قدّمهم و جعلهم خاصّته، فتنافسوا و صار بينهم و بين كتامة تحاسد إلى أن مات العزيز بالله، و قام من بعده أبو علىّ المنصور الملقّب بالحاكم بأمر اللّه، فقدّم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳

ابن عمار الكتامى و ولّاه الوساطة و هى فى معنى رتبة الوزارة، فاستبدّ بأمور الدولة و قدّم كتامة و أعطاهم، و حطّ من الغلمان الأتراك و الديلم الذين اصطنعهم العزيز، فاجتمعوا إلى برجوان و كان صقلبيا و قد تاقت نفسه إلى الولاية فأغرى المصطنعة بابن عمّار حتّى وضعوا منه، و اعتزل عن الأمر، و تقلّد برجوان الوساطة، فاستخدم الغلمان المصطنعين فى القصر، و زاد فى عطاياهم و قوّاهم، ثمّ قتل الحاكم ابن عمّار و كثيرا من رجال دولة أبيه و جدّه، فضعفت كتامة و قويت الغلمان.

فلما مات الحاكم و قام من بعده ابنه الظاهر لإعزاز دين اللّه على، أكثر من اللهو و مال إلى الأتراك و المشارقة، فانحطّ جانب كتامة، و ما زال ينقص قدرهم و يتلاشى أمرهم حتّى ملك المستنصر بعد أبيه الظاهر، فاستكثرت أمّه من العبيد حتّى يقال إنهم بلغوا نحوا من خمسين ألف أسود، و استكثر هو من الأتراك، و تنافس كلّ منهما مع الآخر فكانت الحرب التى آلت إلى خراب مصر و زوال بهجتها إلى أن قدم أمير الجيوش بدر الجمالى من عكّا و قتل رجال الدولة و أقام له جندا و عسكرا من الأرمن، فصار من حينئذ معظم الجيش الأرمن، و ذهبت كتامة و صاروا من جملة الرعيّة بعد ما كانوا وجوه الدولة و أكابر أهلها.

حارة الصالحية: عرفت بغلمان الصالح طلائع بن رزبك، و هى موضعان:

الصالحيّة الكبرى و الصالحيّة الصغرى، و موضعهما فيما بين المشهد الحسينى و رحبة الأيدمرى و بين البرقيّة، و كانت من الحارات العظيمة، و قد خربت الآن و باقيها متداع إلى الخراب. قال ابن عبد الظاهر: الحارة الصالحية منسوبة إلى الصالح طلائع بن رزيك، لأنّ غلمانه كانوا يسكنونها، و هى مكانان، و للصالح دار بحارة الديلم كانت سكنه قبل الوزارة، و هى باقية إلى الآن و بها بعض ذرّيته، و المكان المعروف بخوخة الصالح نسبة إليه.

حارة البرقية: هذه الحارة عرفت بطائفة من طوائف العسكر فى الدولة الفاطمية، يقال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴

لها الطائفة البرقية، ذكرها المسبّحى . قال ابن عبد الظاهر: و لما نزل بالقاهرة- يعنى المعزّ لدين اللّه- اختطّت كلّ طائفة خطة عرفت بها، قال: و اختطت جماعة من أهل برقة الحارة المعروفة بالبرقية، انتهى. و إلى هذه الحارة تنسب الأمراء البرقية.

ذكر الأمراء البرقيّة و وزارة ضرغام

و ذلك أنّ الصالح طلائع بن رزيك كان قد أنشأ فى وزارته أمراء يقال لهم البرقيّة، و جعل ضرغاما مقدّمهم، فترقّى حتّى صار صاحب الباب، و طمع فى شاور السعدى لما ولى الوزارة بعد رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، فجمع رفقته و تخوّف شاور منه، و صار العسكر فرقتين: فرقة مع ضرغام و فرقة مع شاور. فلمّا كان بعد تسعة أشهر من وزارة شاور ثار ضرغام فى رمضان سنة ثمان و خمسين و خمسمائة، و صاح على شاور فأخرجه من القاهرة، و قتل ولده الأكبر المسمّى بطيّئ، و بقى شجاع المنعوت بالكامل، و خرج شاور من القاهرة يريد الشام كما فعل الوزير رضوان بن و لخشى فإنه كان رفيقا له فى تلك الكرّة، و استقرّ ضرغام فى وزارة الخليفة العاضد لدين اللّه بعد شاور، و تلقّب بالملك المنصور، فشكر الناس سيرته، فإنه كان فارس عصره، و كان كاتبا جميل الصورة فكه المحاضرة عاقلا كريما لا يضع كرمه إلا فى سمعة ترفعه أو مداراة تنفعه إلا أنه كان أذنا مستحيلا على أصحابه، و إذا ظنّ فى أحد شرّا جعل الشكّ يقينا، و عجّل له العقوبة. و غلب عليه مع ذلك فى وزارته أخواه ناصر الدين همام و فخر الدين حسام، و أخذ يتنكّر لرفقته البرقيّة الذين قاموا بنصرته و أعانوه على إخراج شاور و تقليده للوزارة من أجل أنه بلغه عنهم أنّهم يحسدونه و يضعون منه، و

أنّ منهم من كاتب شاور و حثّه على القدوم إلى القاهرة و وعده بالمعاونة له، فأظلم الجوّ بينه و بينهم، و تجرّد للإيقاع بهم على عادته فى أسرع العقوبة، و أحضرهم إليه فى دار الوزارة ليلا- و قتلهم بالسيف صبرا و هم: صبح بن شاهنشاه، و الطهر مرتفع المعروف بالجلواص، و عين الزمان، و على بن الزبد، و أسد الفازى و أقاربهم و هم نحو من سبعين أميرا سوى اتباعهم، فذهبت لذلك رجال الدولة و اختلّت أحوالها و ضعفت بذهاب أكابرها و فقد أصحاب الرأى و التدبير، و قصد الفرنج ديار مصر فخرج إليهم همام أخو ضرغام، و انهزم منهم، و قتل منهم عدّة، و نزلوا على حصن بلبيس ، و ملكوا بعض السور، ثمّ ساروا و عاد همام عودا رديئا، فبعث به ضرغام إلى الإسكندرية و بها الأمير مرتفع الجلواص، فأخذه العرب و قاده همام إلى أخيه، فضرب عنقه و صلبه على باب زويلة، فما هو إلا أن قدم رسل الفرنج على ضرغام فى طلب مال الهدنة المقرّر فى كلّ سنة- و هو ثلاثة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵

و ثلاثون ألف دينار- و إذا بالخبر قد ورد بقدوم شاور من الشام و معه أسد الدين شير كوه فى كثير من الغزّ، فأزعجه ذلك، و أصبح الناس يوم التاسع و العشرين من جمادى الأولى سنة تسع و خمسين و خمسمائة خائفين على أنفسهم و أموالهم، فجمعوا الأقوات و الماء و تحوّلوا من مساكنهم، و خرج همام بالعسكر أوّل يوم من جمادى الآخرة، فسار إلى بلبيس و كانت له وقعة مع شاور انهزم فيها، و صار إلى شاور و أصحابه جميع ما كان مع عسكر همام، و أسروا عدّة، و نزل شاور بمن معه إلى التاج ظاهر القاهرة فى يوم الخميس سادس جمادى الآخرة، فجمع ضرغام الناس، و ضمّ إليه الطائفة الريحانية و الطائفة الجيوشية بداخل القاهرة، و شاور مقيم بالتاج مدّة أيام- و طوالعه من العربان- فطارد عسكر ضرغام بأرض الطبّالة خارج القاهرة، ثمّ سار شاور و نزل بالمقس، فخرج إليه عسكر ضرغام، و حاربوه فانهزم هزيمة قبيحة، و سار إلى بركة الحبش، و نزل بالشرف الذى يعرف اليوم بالرصد، و ملك مدينة مصر، و أقام بها أياما، فأخذ ضرغام مال الأيتام الذى كان بمودع الحكم، فكرهه الناس و استعجزوه، و مالوا مع شاور، فتنكّر منهم ضرغام و تحدّث بإيقاع العقوبة بهم فزاد بغضهم له، و نزل شاور فى أرض اللوق خارج باب زويلة، و طارد رجال ضرغام و قد خلت المنصورة و الهلالية، و ثبت أهل اليانسية بها، و زحف إلى باب سعادة و باب القنطرة، و طرح النار فى اللؤلؤة و ما حولها من الدور، و عظمت الحروب بينه و بين أصحاب ضرغام، و فنى كثير من الطائفة الريحانية، فبعثوا إلى شاور و وعدوه بأنّهم عون له، فانحلّ أمر ضرغام، فأرسل العاضد إلى الرماة يأمرهم بالكفّ عن الرمى، فخرج الرجال إلى شاور و صاروا من جملته و فترت همة أهل القاهرة، و أخذ كلّ منهم يعمل الحيلة فى الخروج إلى شاور، فأمر ضرغام بضرب الأبواق لتجتمع الناس فضربت الأبواق و الطبول ما شاء اللّه من فوق الأسوار فلم يخرج إليه أحد، و انفكّ عنه الناس، فسار إلى باب الذهب من أبواب القصر و معه خمسمائة فارس، فوقف و طلب من الخليفة أن يشرف عليه من الطاق، و تضرّع إليه و أقسم عليه بآبائه فلم يجبه أحد، و استمرّ واقفا إلى العصر و الناس تنحلّ عنه حتّى بقى فى نحو ثلاثين فارسا، فوردت عليه رقعة فيها خذ نفسك و انج بها، و إذا بالأبواق و الطبول قد دخلت من باب القنطرة و معها عساكر شاور، فمرّ ضرغام إلى باب زويلة، فصاح الناس عليه و لعنوه، و تخطّفوا من معه، و أدركه القوم فأردوه عن فرسه قريبا من الجسر الأعظم فيما بين القاهرة و مصر ، و احتزوا رأسه فى سلخ جمادى الآخرة، و فرّ منهم أخوه إلى جهة المطريّة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶

فأدركه الطلب ، و قتل عند مسجد تبر خارج القاهرة، و قتل أخوه الآخر عند بركة الفيل، فصار حينئذ ضرغام ملقى يومين، ثمّ حمل إلى القرافة و دفن بها، و كانت وزارته تسعة أشهر، و كان من أجلّ أعيان الأمراء و أشجع فرسانهم و أجودهم لعبا بالكرة و أشدّهم رميا بالسهام، و يكتب مع ذلك كتابة ابن مقلة و ينظم الموشّحات الجيدة، و لمّا جيء برأسه إلى شاور رفع إلى قفاه و طيف به، فقال الفقيه عمارة:

أرى جنك الوزارة صار سيفايحزّ بحدّه جيد الرقاب

كأنّك رائد البلوى و إلابشير بالمنيّة و المصاب

فكان كما قال عمارة فإن البلايا و المنايا من حينئذ تتابعت على دولة الخلفاء الفاطميين حتّى لم يبق منهم عين تطرف و للّه عاقبة الأمور.

حارة العطوفية: هذه الحارة تنسب إلى طائفة من طوائف العسكر يقال لها العطوفية، و قال ابن عبد الظاهر: العطوفية منسوبة لعطوف أحد خدّام القصر و هو عطوف غلام الطويلة، و كان قد خدم ستّ الملك أخت الحاكم، قال: و سكنت- يعنى الطائفة الجيوشية- بحارة العطوفية بالقاهرة، و للّه درّ الأديب إبراهيم المعمار إذ يقول مواليا يشتمل على ذكر حارات بالقاهرة و فيها تورية:

فى الجودرية رأيت صورة هلاليةللباطليّة تميل لا للعطوفيّة

لها من اللؤلؤة ثغرين منشيّهإن حرّكوا وجهها بنت الحسينيّة

و كانت العطوفية من أجلّ مساكن القاهرة، و فيها من الدور العظيمة و الحمامات و الأسواق و المساجد ما لا يدخل تحت حصر، و قد خربت كلّها و بيعت أنقاضها و بيوتها و منازلها، و أضحت أوحش من و تدعير فى قاع. و عطوف هذا كان خادما أسود قتله الحاكم بجماعة من الأتراك وقفوا له فى دهليز القصر و احتزّوا رأسه فى يوم الأحد لإحدى عشرة خلت من صفر سنة إحدى و أربعمائة قاله المسبّحى.

حارة الجوّانية : كان يقال لهذه الحارة أوّلا حارة الروم الجوّانية، ثمّ ثقل على الألسنة ذلك فقال الناس الجوانية، و كان أيضا يقال لها حارة الروم العليا المعروفة بالجوّانية. و قال المسبّحى: و قد ذكر ما كتبه أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه من الأمانات فى

سنة خمس و تسعين و ثلثمائة فذكر أنه كتب أمانا للعرافة الجوّانية، فدلّ أنّه كان من جملة الطوائف قوم يعرفون بالجوّانية، قال ابن عبد الظاهر: قال لى مؤلّفه القاضى زين الدين و فقه اللّه: إن الجوّانية منسوبة للأشراف الجوّانيين منهم الشريف النسابة الجوّانى. قال مؤلّفه رحمه اللّه: فعلى هذا يكون بفتح الجيم، فإن الجوّانى بفتح الجيم و تشديد الواو و فتحها و بعد الواو ألف ساكنة ثمّ نون نسبة إلى جوّان- على وزن حرّان- و هى قرية من عمل مدينة طيبة على صاحبها أفضل الصلاة و السلام. و على القول الأوّل تكون الجوّانية بفتح الجيم أيضا مع فتح الواو و تشديدها، فإن أهل مصر يقولون: لما خرج عن المدينة أو الدار برّا، و لمّا دخل جوّا بضم الجيم- و هو خطأ- و لهذا كان الورّاقون يكتبون حارة الروم البرّانية لأنها من خارج القصر، و يكتبون حارة الروم الجوّانية لأنّها من داخل القاهرة، و لا يصار إليها إلا بعد المرور على القصر. و كان موضعها إذ ذاك من وراء القصر خلف دار الوزارة و الحجر ، فكأنها فى داخل البلد، و لذلك أصل. قال ابن سيده فى مادة (ج و) من كتاب المحكم: و جوّا البيت داخله، لفظة شاميّة، فتعيّن فتح الجيم من الجوّانية و لا عبرة بما تقوله العامّة من ضمّها.

و قال الشريف محمد بن أسعد الجوّانى ابن الحسن بن محمد الجوانى ابن عبيد اللّه الجوانى بن حسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، و قيل لمحمد بن عبد اللّه الجوّانىّ بسبب ضيعة من ضياع المدينة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام يقال لها الجوّانية، و كانت تسمّى البصرة الصغرى لخيراتها و غلالها، لا يطلب شىء إلا وجد بها، و هى قريبة من صرار ضيعة الإمام أبى جعفر محمد بن على الرضى. و كانت الجوّانية ضيعة لعبيد اللّه، فتوفى عنها فورثها بعده ولده و أزواجه، فاشترى محمد الجوّانىّ ولده بما حصل له بالميراث الباقى من الورثة، فحصلت له كاملة، فعرف بها فقيل: الجوّانى. قال: و لم تزل أجداد مؤلّفه ببغداد إلى حين قدوم ولده أسعد النحوىّ مع أبيه من بغداد إلى مصر، و مولده بالموصل فى سنة اثنتين و تسعين و أربعمائة.

حارة البستان: و يقال لها حارة بستان المصمودىّ و حارة الأكراد أيضا، و هى الآن من جملة الوزيرية التى تقدّم ذكرها.

حارة المرتاحية: هذه الحارة عرفت بالطائفة المرتاحية إحدى طوائف العسكر. قال ابن عبد الظاهر: خطّ باب القنطرة يعرف فى كتب الأملاك القديمة بالمرتاحية.

حارة الفرحية: بالحاء المهملة كانت سكن الطائفة الفرحية، و هى بجوار حارة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸

المرتاحية، فإلى يومنا هذا فيما بين سويقة أمير الجيوش و باب القنطرة زقاق يعرف بدرب الفرحية، و الفرحية كانت طائفة من جملة عبيد الشراء، و كانت عبيد الشراء عدّة طوائف و هم: الفرحية و الحسينية و الميمونية ينسبون إلى ميمون و هو أحد الخدّام.

حارة فرج بالجيم: كانت تعرف قديما بدرب النميرى، ثمّ عرفت بالأمير جمال الدين فرج من أمراء بنى أيوب. و هى الآن داخلة فى درب الطفل من خط قصر الشوك.

حارة قائد القوّاد: هذه الحارة تعرف الآن بدرب ملوخيا ، و كانت أوّلا تعرف بحارة قائد القوّاد، لأن حسين بن جوهر الملقّب قائد القوّاد كان يسكن بها فعرفت به. و هو حسين بن القائد جوهر أبو عبد اللّه الملقّب بقائد القوّاد. لما مات أبوه جوهر القائد خلع العزيز بالله عليه و جعله فى رتبة أبيه و لقّبه بالقائد بن القائد، و لم يتعرّض لشىء مما تركه جوهر، فلمّا مات العزيز و قام من بعده ابنه الحاكم استدناه ثم إنه قلّده البريد و الإنشاء فى شوّال سنة ستّ و ثمانين و ثلثمائة، و خلع عليه و حمله على فرس بموكب، و قاد بين يديه عدّة أفراس، و حمل معه ثيابا كثيرة. فاستخلف أبا منصور بشر بن عبيد اللّه بن سورين الكاتب النصرانىّ على كتابة الإنشاء، و استخلف على أخذ رقاع الناس و توقيعاتهم أمير الدولة الموصلى. و لما تقلّد برجوان النظر فى تدبير الأمور و جلس للوساطة بعد ابن عمّار. كان الكافة يلقونه فى داره و يركبون جميعا بين يديه من داره إلى القصر ما خلا القائد الحسين و محمد بن النعمان القاضى، فإنهما كانا يسلّمان عليه بالقصر فقط. فلما قتل الحاكم الأستاذ برجوان كما تقدّم خلع على القائد حسين لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة تسعين و ثلثمائة ثوبا أحمر و عمامة زرقاء مذهّبة، و قلّده سيفا محلّى بذهب، و حمله على فرس بسرج و لجام من ذهب، و قاد بين يديه ثلاثة أفراس بمراكبها، و حمل معه خمسين ثوبا صحاحا من كلّ نوع، و ردّ إليه التوقيعات و النظر فى أمور الناس و تدبير المملكة كما كان برجوان، و لم يطلق عليه اسم وزير، فكان يبكّر إلى القصر و معه خليفته الرئيس أبو العلاء فهد بن إبراهيم النصرانى- كاتب برجوان- فينظران فى الأمور ثمّ يدخلان و ينهيان الحال إلى الخليفة، فيكون القائد جالسا و فهد من خلفه قائما. و منع القائد الناس أن يلقوه فى الطريق أو يركبوا إليه فى داره و أنّ من كان له حاجة فليبلغه إياها بالقصر، و منع الناس من مخاطبته فى الرقاع بسيدنا، و أمر أن لا يخاطب و لا يكاتب إلا بالقائد فقط، و تشدّد فى ذلك لخوفه من غيرة الحاكم، حتّى أنّه رأى جماعة من القوّاد الأتراك قياما على الطريق ينتظرونه، فأمسك عنان فرسه و وقف و قال لهم: كلّنا عبيد مولانا صلوات اللّه عليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹

و مماليكه، و لست و اللّه أبرح من موضعى أو تنصرفوا عنّى و لا يلقانى أحد إلا فى القصر، فانصرفوا و أقام بعد ذلك خدما من الصقالبة الطرّادين على الطريق بالنوبة لمنع الناس المجيء إلى داره و من لقائه إلا فى القصر، و أمر أبا الفتوح مسعود الصقلبى صاحب الستر أن يوصل الناس بأسرهم إلى الحاكم و أن لا يمنع أحدا عنه.

فلمّا كان فى سابع عشر جمادى الآخرة قرىء سجل على سائر المنابر بتلقيب القائد حسين بقائد القوّاد و خلع عليه، و ما زال إلى يوم الجمعة سابع شعبان سنة ثمان و تسعين و ثلاثمائة، فاجتمع سائر أهل الدولة فى القصر بعد ما طلبوا، و خرج الأمر إليهم أن لا يقام لأحد، و خرج خادم من عند الخليفة فأسرّ إلى صاحب الستر كلاما، فصاح: صالح بن علىّ، فقام صالح بن علىّ الرودباذى متقلّد ديوان الشام، فأخذ صاحب الستر بيده و هو لا يعلم هو و لا أحد ما يراد به، فأدخل إلى بيت المال و أخرج و عليه درّاعة مصمتة و عمامة مذهّبة و معه مسعود، فأجلسه بحضرة قائد القوّاد، و أخرج سجلا قرأه ابن عبد السميع الخطيب، فإذا فيه ردّ سائر الأمور التى ينظر فيها قائد القوّاد حسين بن جوهر إليه. فعند ما سمع من السجل ذكره قام و قبّل الأرض. فلما انتهت قراءة السجلّ قام قائد القوّاد و قبّل خدّ صالح و هنأه. و انصرف، فكان يركب إلى القصر و يحضر الأسمطة إلى اليوم الثالث من شوّال أمره الحاكم أن يلزم داره هو و صهره قاضى القضاة عبد العزيز بن النعمان و أن لا يركباهما و سائر أولادهما، فلبسا الصوف، و منع الناس من الاجتماع بهما، و صاروا يجلسون على حصر. فلمّا كان فى تاسع عشر ذى القعدة عفا عنهما الحاكم، و أذن لهما فى الركوب، فركبا إلى القصر بزيّهما من غير

حلق شعر و لا- تغيير حال الحزن، فلمّا كان فى حادى عشر جمادى الآخرة سنة تسع و تسعين و ثلاثمائة قبض على عبد العزيز بن النعمان، و طلب حسين بن جوهر ففرّ هو و ابنه فى جماعة، و كثر الصياح بدار عبد العزيز، و غلقت حوانيت القاهرة و أسواقها، فأفرج عنه و نودى أن لا يغلق أحد فردّ حسين بعد ثلاثة أيام بابنيه، و تمثلوا بحضرة الحاكم، فعفا عنهم و أمرهم بالمسير إلى دورهم بعد أن خلع على حسين و على صهره عبد العزيز و على أولادهما، و كتب لهما أمانان، ثمّ أعيد عبد العزيز فى شهر رمضان إلى ما كان يتقلّده من النظر فى المظالم، ثم ردّ الحاكم فى شهر ربيع الأوّل سنة أربعمائة على حسين بن جوهر و أولاده و صهره عبد العزيز ما كان لهم من الإقطاعات و قرىء لهم سجل بذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰

فلمّا كان ليلة التاسع من ذى القعدة فرّ حسين بأولاده و صهره و جميع أموالهم و سلاحهم، فسيّر الحاكم الخيل فى طلبهم نحو دجوة فلم يدركهم و أوقع الحوطة على سائر دورهم، و جعلت للديوان المفرد، و هو ديوان أحدثه الحاكم يتعلّق بما يقبض من أموال من يسخط عليه، و حمل سائر ما وجد لهم بعد ما ضبط، و خرجت العساكر فى طلب حسين و من معه، و أشيع أنّه قد صار إلى بنى قرّة بالبحيرة، فأنفذت إليه الكتب بتأمينه و استدعائه إلى الحضور، فأعاد الجواب بأنه لا يدخل ما دام أبو نصر ابن عبدون النصرانىّ الملقّب بالكافى ينظر فى الوساطة و يوقّع عن الخليفة، فإنّى أحسنت إليه أيام نظرى فسعى بى إلى أمير المؤمنين و نال منّى كلّ منال، و لا أعود أبدا و هو وزير. فصرف ابن عبدون فى رابع المحرّم سنة إحدى و أربعمائة، و قدم حسين بن جوهر و معه عبد العزيز بن النعمان و سائر من خرج معهما، فخرج جميع أهل الدولة إلى لقائه و تلقّته الخلع فأفيضت عليه و على أولاده و صهره، و قيّد بين أيديهم الدواب، فلمّا وصلوا إلى باب القاهرة ترجّلوا و مشوا و مشى الناس بأسرهم إلى القصر فصاروا بحضرة الحاكم، ثمّ خرجوا و قد عفا عنهم، و أذن لحسين أن يكاتب بقائد القوّاد و يكون اسمه تاليا للقبه، و أن يخاطب بذلك. و انصرف إلى داره فكان يوما عظيما، و حمل إليه جميع ما قبض له من مال و عقار و غيره، و أنعم عليه و واصل الركوب هو و عبد العزيز بن النعمان إلى القصر، ثم قبض عليه و على عبد العزيز و اعتقلا ثلاثة أيام، ثمّ حلفا أنّهما لا يغيبان عن الحضرة، و أشهدا على أنفسهما بذلك، و أفرج عنهما، و حلف لهما الحاكم فى أمان كتبه لهما. فلما كان فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة إحدى و أربعمائة ركب حسين و عبد العزيز على رسمهما إلى القصر، فلمّا خرج للسلام على الناس قيل للحسين و عبد العزيز و أبى على أخى الفضل: اجلسوا لأمر تريده الحضرة منكم، فجلس الثلاثة، و انصرف الناس فقبض عليهم و قتلوا فى وقت واحد، و أحيط بأموالهم و ضياعهم و دورهم، و أخذت الأمانات و السجلات التى كتبت لهم. و استدعى أولاد عبد العزيز بن النعمان و أولاد حسين بن جوهر و وعدوا بالجميل و خلع عليهم، و جملوا و اللّه يفعل ما يشاء.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱

حارة الأمراء: و يقال لها أيضا حارة الأمراء الأشراف الأقارب، و موضعها يعرف بدرب شمس الدولة، و سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

حارة الطوارق: و يقال لها أيضا حارة صبيان الطوارق، و هم من جملة طوائف العسكر، كانوا معدّين لحمل الطوارق. و موضع هذه الحارة فى طريق من سلك من الرقيق سوق الخلعيين داخل باب زويلة طالبا الباطلية بالزقاق الطويل الضيّق الذى يقال له اليوم حلق الجمل السالك إلى درب أرقطاى.

حارة الشرابية: عرفت بذلك لأنّها كانت موضع سكن الغلمان الشرابية إحدى طوائف العسكر، و كانت فيما بين الباطلية و حارة الطوارق.

حارة الدميرى و حارة الشاميين: هما من جملة العطوفية .

حارة المهاجرين: و موضعها الآن من جملة المكان الذى يعرف بالرقيق المعدّ لسوق الخلعيين بجوار باب زويلة، و كان بعد ذلك سوق الخشّابين، ثمّ هو الآن سوق الخلعيين.

و موضع هذه الحارة بجوار الخوخة التى كانت تعرف بالشيخ السعيد بن فشيرة النصرانىّ الكاتب. و هى الخوخة التى يسلك إليها من الزقاق المقابل لحمام الفاضل المعدّ لدخول النساء، و يتوصل منها إلى درب كوز الزير بحارة الروم، و قد صارت هذه الحارة تعرف بدرب ابن المجندار، و سيأتى ذكره إن شاء اللّه.

حارة العدوية: قال ابن عبد الظاهر: العدوية هى من باب الخشيبة إلى أوّل حارة زويلة عند حمّام الحسام الجلدكى الآن منسوبة لجماعة عدويين نزلوا هناك، و هذا المكان اليوم هو عبارة عن الموضع الذى تلقاه عند خروجك من زقاق حمّام خشيبة الذى يتوصّل إليه من سوق باب الزهومة، فإذا انتهيت إلى آخر هذا الزقاق و أخذت على يمينك صرت فى حارة العدويّة. و موضعها الآن من فندق بلال المغيثى إلى باب سر المارستان، و تدخل فى العدوية رحبة بيبرس التى فيها الآن فندق الرخام، عن يمينك إذا خرجت فى الرحبة المذكورة التى صارت الآن دربا إلى باب سرّ المارستان و ما عن يسارك إلى حمّام الكريك و حمام الجوينىّ الذى تقول له العامّة الجهينىّ، و إلى سوق الزجاجيين. و كلّ هذه المواضع هى من حقوق العدويّة و كانت العدويّة قديما واقعة فيما بين الميدان الذى يعرف اليوم بالخرشتف و حارة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲

زويلة و بين سقيفة العداس و الصاغة القديمة التى صار موضعها الآن سوق الحريريين الشرابشيين برأس الوراقين و سوق الزجاجيين.

حارة العيدانية: كانت تعرف أوّلا بحارة البديعيين، ثم قيل لها بعد ذلك الحبّانية من أجل البستان الذى يعرف بالحبانية الجارى فى وقف الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، و يتوصّل إلى هذه الحارة من تجاه قنطرة آق سنقر، و بعض دورها الآن يشرف على بستان الحبانية، و بعضها يطل على بركة الفيل.

حارة الحمزيين: كانت أوّلا تعرف بالحبانية، ثمّ قيل لها حارة الحمزيين من أجل أن جماعة من الحمزيين نزلوا بها، منهم الحاج يوسف بن فاتن الحمزى، و الحمزيون أيضا ينسبون إلى حمزة بن أدركة السارى، خرج بخراسان فى أيام هارون بن محمد الرشيد، فعاث و أفسد و فضّ جموع عيسى بن علىّ عامل خراسان، و قتل منهم خلقا، و انهزم عيسى إلى بابل، ثمّ غرق حمزة بواد فى كرمان، فعرفت طائفته بالحمزية. و أخوه ضرغام بن فاتن بن ساعد الحمزىّ و الحاج عونى الطحان ابن يونس بن فاتن الحمزى و رضوان بن يوسف بن فاتن الحمزىّ الحمامى و أخوه سالم بن يوسف بن فاتن الحمزىّ، و كان هؤلاء بعد سنة ستّمائة، و هذه الحارة خارج باب زويلة. و من بلاد أفريقية قرية يقال لها حمزى ينسب إليها محمد بن حمد بن خلف القيسىّ الحمزىّ من أهل القرية و قاضيها، توفى سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة، و لا يبعد أن تكون هذه الحارة نسبت إلى أهل قرية حمزة هذه لنزولهم بها كنزول بنى سوس و كتامة و غيرهم فى المواضع التى نسبت إليهم.

حارة بنى سوس: عرفت بطائفة من المصامدة يقال لهم بنو سوس كانوا يسكنون بها.

حارة اليانسية: تعرف بطائفة من طوائف العسكر يقال لها اليانسية منسوبة لخادم خصىّ من خدّام العزيز بالله يقال له أبو الحسن يأنس الصقلىّ، خلفه على القاهرة، فلما مات العزيز أقرّه ابنه الحاكم بأمر اللّه على خلافة القصور، و خلع عليه و حمله على فرسين، فلمّا كان فى المحرم سنة ثمان و ثمانين و ثلثمائة سار لولاية برقة بعد ما خلع عليه و أعطى خمسة آلاف دينار و عدّة من الخيل و الثياب. قال ابن عبد الظاهر: اليانسية خارج باب زويلة أظنها منسوبة ليأنس وزير الحافظ لدين اللّه الملقب بأمير الجيوش سيف الإسلام و يعرف بيانس الفاصد،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳

و كان أرمنىّ الجنس، و سمّى الفاصد لأنه فصد الأمير حسن بن الحافظ و تركه محلولا فصاده حتّى مات. و له خبر غريب فى وفاته، كان الحافظ قد نقم عليه أشياء طلب قتله بها باطنا فقال لطبيبه: اكفنى أمره بمأكل أو مشرب، فأبى الطبيب ذلك خوفا أن يصير عند الحافظ بهذه العين و ربما قتله بها، و الحافظ يحثّه على ذلك فاتّفق ليانس الوزير المذكور أنه مرض بزحير ، و إن الحافظ خاطب

الطبيب بذلك فقال: يا مولاى، قد أمكنتك الفرصة و بلغت مقصودك، و لو أنّ مولانا عادة فى هذه المرضة اكتسب حسن أحدوثة، و هذه المرضة ليس دواؤه منها إلّا الدعة و السكون، و لا شىء أضرّ عليه من الانزعاج و الحركة، فبمجرّد ما سمع بقصد مولانا له تحرّك و اهتمّ بلقاء مولانا و انزعج، و فى ذلك تلاف نفسه. ففعل الخليفة ذلك و أطال الجلوس عنده فمات . و هذا الخبر فيه أوهام منها أنه جعل اليانسية منسوبة ليانس الوزير، و قد كانت اليانسية قبل يانس هذا بمدّة طويلة، و منها أنه ادّعى أن حسن بن الحافظ مات من فصادة، و ليس كذلك، و إنما مات مسموما، و منها أنه زعم أن يأنس تولّى فصده و ليس كذلك، بل الذى تولى قتله بالسم أبو سعيد ابن فرقة، و منها أن الذى نقم عليه الحافظ من الأمراء فخانه فى ابنه حسن إنما هو الأمير المعظّم جلال الدين محمد المعروف بجلب راغب، و هذا نص الخبر فنزه بالك، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر وزارة أبى الفتح ناصر الجيوش يأنس الأرمنى

و كان من خبر ذلك أن الخليفة الآمر بأحكام اللّه أبا علىّ منصورا لما قتله النزارية فى ذى القعدة سنة أربع و عشرين و خمسمائة أقام هزبر الملوك جوامرد العادل برغش الأمير أبا الميمون عبد المجيد فى الخلافة كفيلا للحمل الذى تركه الآمر، و لقّب بالحافظ لدين اللّه، و لبس هزبر الملوك خلع الوزارة، فثار الجند و أقاموا أبا علىّ أحمد الملقّب بكتيفات ولدا لأفضل ابن أمير الجيوش فى الوزارة، و قتل هزبر الملوك و استولى كتيفات على الآمر، و قبض على الحافظ و سجنه بالقصر مقيّدا إلى أن قتل كتيفات فى المحرّم سنة ستّ و عشرين و خمسمائة. و بادر صبيان الخاص الذين تولّوا قتله إلى القصر، و دخلوا و معهم الأمير يأنس متولّى الباب إلى الخزانة التى فيها الحافظ، و أخرجوه إلى الشبّاك و أجلسوه فى منصب الخلافة و قالوا له: و اللّه ما حرّكنا على هذا إلا الأمير يأنس، فجازاه الحافظ بأن فوّض إليه الوزارة فى الحال، و خلع عليه فباشرها مباشرة جيّدة. و كان عاقلا مهابا متمسّكا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴

متحفّظا لقوانين الدولة، فلم يحدث شيئا و لا خرج عمّا يعيّنه الخليفة له إلا أنه بلغه عن أستاذ من خواصّ الخليفة شىء يكرهه فقبض عليه من القصر من غير مشاورة الخليفة، و ضرب عنقه بخزانة البنود، فاستوحش منه الخليفة و خشى من زيادة معناه. و كانت هذه الفعلة غلطة منه، ثمّ إنه خاف من صبيان الخاصّ أن يفتكوا به كما فتكوا بكتيفات، فتنكّر لهم، و تخوّفوه أيضا، فركب فى خاصّيته و أركب العسكر، و ركب صبيان الخاص، فكانت بينهما وقعة قبالة باب التبّانين بين القصرين، قوى فيها يأنس، و قتل من صبيان الخاصّ ما يزيد على ثلثمائة رجل من أعيانهم، فيهم قتلة أبى علىّ كتيفات، و كانوا نحو الخمسمائة فارس، فانكسرت شوكتهم و ضعف جانبهم، و اشتدّ بأس يأنس و عظم شأنه، فثقل على الخليفة. و تحيّل منه فأحسّ بذلك، فأخذ كلّ منهما فى التدبير على الآخر، فأعجل يأنس و قبض على حاشية الخليفة، و منهم قاضى القضاة و داعى الدعاة أبو الفخر و أبو الفتح بن قادوس و قتلهما، فاشتدّ ذلك على الحافظ، و دعا طبيبه و قال: اكفنى أمر يأنس! فيقال أنّه سمّه فى ماء المستراح فانفتح دبره و اتّسع حتّى ما بقى يقدر على الجلوس، فقال الطبيب: يا أمير المؤمنين قد أمكنتك الفرصة و بلغت مقصودك، فلو أنّ مولانا عاده فى هذه المرضة اكتسب حسن الأحدوثة، فإنّ هذا المرض ليس له دواء إلا الدّعة و السكون، و لا شىء عليه أضرّ من الحركة و الانزعاج، و هو إذا سمع بقصد مولانا له تحرّك و اهتمّ للقاء و انزعج، و فى ذلك تلاف نفسه. فنهض لعيادته، و عند ما بلغ ذلك يأنس قام ليلقاه و نزل عن الفراش و جلس بين يدى الخليفة، فأطال الخليفة جلوسه عنده و هو يحادثه، فلم يقم حتّى سقطت أمعاء يأنس، و مات من ليلته فى سادس عشرى ذى الحجة سنة ستّ و عشرين و خمسمائة، و كانت وزارته تسعة أشهر و أياما، و ترك ولدين كفلهما الحافظ و أحسن إليهما. و كان يأنس هذا مولى أرمنيّا لباديس جدّ عبّاس الوزير، فأهداه إلى الأفضل بن أمير الجيوش، و ترقّى فى خدمته إلى أن تأمّر، ثمّ ولى الباب و هى أعظم رتب الأمراء، و كنّى بأبى الفتح، و لقّب بالأمير السعيد، ثم لمّا ولى الوزارة نعت بناصر الجيوش سيف الإسلام، و كان عظيم الهمّة بعيد الغور كثير الشرّ شديد الهيبة .

ذكر الأمير حسن بن الخليفة الحافظ

و لمّا مات الوزير يأنس تولّى الخليفة الحافظ الأمور بنفسه، و لم يستوزر أحدا، و أحسن السيرة. فلمّا كان فى سنة ثمان و عشرين و خمسمائة عهد إلى ولده سليمان، و كان أسنّ أولاده و أحبّهم إليه، و أقامه مقام الوزير، فمات بعد شهرين من ولاية العهد، فجعل مكانه أخاه حيدرة فى ولاية العهد، و نصّبه للنظر فى المظالم، فشق ذلك على أخيه الأمير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵

حسن- و كان كثير المال متّسع الحال له عدّة بلاد و مواشى و حاشية و ديوان مفرد- فسعى فى نقض ذلك بأن أوقع الفتنة بين الطائفة الجيوشية و الطائفة الريحانية، و كانت الريحانية قويّة الشوكة مهابة مخوفة الجانب، فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين، و صاح الجند: يا حسن يا منصور، يا للحسينية؛ و التقى الفريقان فقتل بينهما ما يزيد على خمسة آلاف نفس، فكانت هذه الوقعة أوّل مصائب الدولة الفاطمية من فقد رجالها و نقص عساكرها، فلم يبق من الطائفة الريحانية إلا من نجا بنفسه من ناحية المقس ، و ألقى نفسه فى بحر النيل.

و استظهر الأمير حسن و قام بالأمر، و انضمّ إليه أوباش الناس و دعّارهم، ففرّق فيهم الزرد و سمّاهم صبيان الزرد، و جعلهم خاصّيته، فاحتفوا به و صاروا لا يفارقونه، فإن ركب أحاطوا به، و إن نزل لازموا داره، فقامت قيامة الناس منهم. و شرع فى تتبع الأكابر، فقبض على ابن العسّاف و قتله، و قصد أباه الخليفة الحافظ و أخاه حيدرة بالضرر حتّى خافا منه و تغيّبا، فجدّ فى طلب أخيه حيدرة، و هتك بأوباشه الذين اختارهم حرمة القصر، و خرق ناموسه، و سلّطهم يفتّشون القصر فى طلب الخليفة الحافظ و ابنه حيدرة، و اشتدّ بأسهم، و حسّنوا له كلّ رذيلة، و جرّوه على الأذى، فلم يجد الحافظ بدّا من مداراة حسن و تلافى أمره عساه ينصلح، و كتب سجلا بولايته العهد و أرسله إليه فقرىء على الناس، فما زاده ذلك إلا جرأة عليه و إفسادا له، و شدّد فى التضييق على أبيه و أخذ بأنفاسه. فبعث حينئذ الخليفة بالأستاذ ابن إسعاف إلى بلاد الصعيد ليجمع من يقدر عليه من الريحانيّة، فمضى و استصرخ الناس لنصرة الخليفة على ولده حسن، و جمع أمما لا يحصيها إلا اللّه، و سار بهم، فبلغ ذلك حسنا فزجّ عسكر اللقاء إسعاف، فالتقيا و كانت بينهما وقعة هبّت فيها ريح سوداء على عسكر إسعاف حتّى هزمتهم، و ركبهم عسكر حسن فلم ينج منهم إلا القليل، و غرق أكثرهم فى البحر و أخذ إسعاف أسيرا، فحمل إلى القاهرة على جمل و فى رأسه طرطور لبد أحمر. فلمّا وصل بين القصرين رشق بالنشّاب حتّى هلك، و رمى من القصر الغربى بأستاذ آخر، فقتل، و قتل الأمير شرف الدين. فاشتدّ ذلك على الحافظ و خاف على نفسه؛ فكتب ورقة- و كاد ابنه بأن ألقى إليه تلك الورقة- و فيها: يا ولدى؛ أنت على كلّ حال ولدى، و لو عمل كلّ منّا لصاحبه ما يكره الآخر ما أراد أن يصيبه مكروه، و لا يحملنى قلبى، و قد انتهى الأمر إلى أمراء الدولة و هم فلان و فلان، و قد شدّدت و طأتك عليهم و خافوك و هم معوّلون على قتلك، فخذ حذرك يا ولدى.

فعند ما وقف حسن على الورقة غضب و لم يتأنّ، و بعث إلى أولئك، فلمّا صاروا إليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶

أمر صبيان الزرد بقتلهم، فقتلوا عن آخرهم، و كانوا عدّة من أعيان الأمراء، و أحاط بدورهم و أخذ سائر ما فيها، فاشتدّت المصيبة و عظمت الرزيّة، و تخوّف من بقى من الجند و نفروا منه، فإنّه كان جريئا مفسدا شديد الفحص عن أحوال الناس و الاستقصاء لأخبارهم يريد إقلاب الدولة و تغييرها ليقدّم أوباشه، و أكثر من مصادرة الناس، و قتل قاضى القضاة أبا الثريّا نجم لأنه كان من خواصّ أبيه، و قتل جماعة من الأعيان، و ردّ القضاء لابن ميسّر، و تفاقم أمره و عظم خطبه و اشتدّت الوحشة بينه و بين الأمراء و الأجناد، و همّوا بخلع الحافظ و محاربة ابنه حسن، و صاروا يدا واحدة، و اجتمعوا بين القصرين و هم عشرة آلاف ما بين فارس و راجل، و سيّروا إلى الحافظ يشكون ما هم فيه من البلاء مع ابنه حسن و يطلبون منه أن يزيله من ولاية العهد، فعجز حسن عن مقاومتهم، فإنه لم يبق معه

سوى الراجل من الطائفة الجيوشية و من يقول بقولهم من الغزّ الغرباء، فتحيّر و خاف على نفسه، فالتجأ إلى القصر و صار إلى أبيه الحافظ، فما هو إلا أن تمكّن منه أبوه، فقبض عليه و قيّده و بعث إلى الأمراء يخبرهم بذلك، فأجمعوا على قتله، فردّ عليهم أنه قد صرفه عنهم و لا يمكّنه أبدا من التصرّف، و وعدهم بالزيادة فى الأرزاق و الإقطاعات و أن يكفّوا عن طلب قتله، فألحّوا فى قتله و قالوا: إمّا نحن و إمّا هو.

اشتدّ طلبهم إياه حتّى أحضروا الأحطاب و النيران ليحرقوا القصر، و بالغوا فى التجرّؤ على الخليفة فلم يجد بدّا من إجابتهم إلى قتله، و سألهم أن يمهلوه ثلاثا، فأناخوا بين القصرين، و أقاموا على حالهم حتّى تنقضى الثلاث، فما وسع الحافظ إلا أن استدعى طبيبيه و هما أبو منصور اليهودىّ و ابن قرقة النصرانىّ، و بدأ بأبى منصور و فاوضه فى عمله سقية قاتله، فامتنع من ذلك و حلف بالتوراة أنه لا يعرف عمل شىء من ذلك، فتركه و أحضر ابن قرقة و كلّمه فى هذا فقال: الساعة، و لا يتقطّع منها جسده، بل تفيض النفس لا غير. فأحضر السقية من يومه، فبعثها إلى حسن مع عدّة من الصقالبة، و ما زالوا يكرهونه على شربها حتّى فعل، و مات فى العشرين من جمادى الآخرة سنة تسع و عشرين و خمسمائة، فبعث الحافظ إلى القوم سرّا يقول: قد كان ما أردتم، فامضوا إلى دوركم؛ فقالوا: لا بدّ أن يشاهده منّا من نثق به، و ندبوا منهم أميرا معروفا بالجرأة و الشرّ يقال له المعظّم جلال الدين محمد، و يعرف بجلب راغب الآمرى، فدخل إلى القصر و صار جنب حسن، فإذا به قد سجّى بثوب، فكشف عن وجهه و أخرج من وسطه آلة من حديد، و غرزه بها فى عدّة مواضع من بدنه إلى أن تيقّن أنه قد مات، و عاد إلى القوم و أخبرهم، فتفرّقوا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷

و عند ما سكنت الدهماء حقد الحافظ لابن قرفة و قتله بخزانة البنود، و أنعم بجميع ما كان له على أبى منصور اليهودى، و جعله رئيس الأطباء، فهذا ما كان من خبر يأنس و كيفيّة موته و خبر حسن و الخبر عن قتله.

حارة المنتجبية: قال ابن عبد الظاهر: بلغنى أنّ رجلا كان يتحجّب لشمس الدين قاضى زادة كان يقول: إنّ هذه الخطّة منسوبة لجدّة منتجب الدولة.

الحارة المنصورية: هذه الحارة كانت كبيرة متسعة جدا فيها عدّة مساكن السودان، فلمّا كانت واقعتهم فى ذى القعدة سنة أربع و ستّين و خمسمائة كما تقدّم فى ذكر حارة بهاء الدين، أمر صلاح الدين يوسف بن أيّوب بتخريب المنصورة هذه، و تعفية أثرها، فخرّبها خطلبا بن موسى الملقّب صارم الدين، و عملها بستانا. و كان للسودان بديار مصر شوكة و قوّة، فتبعهم صلاح الدين ببلاد الصعيد حتّى أفناهم بعد أن كان لهم بديار مصر فى كلّ قرية و محلّة و ضيعة مكان مفرد لا يدخله وال و لا غيره احتراما لهم. و قد كانوا يزيدون على خمسين ألفا، و إذا ثاروا على وزير قتلوه، و كان الضرر بهم عظيما لامتداد أيديهم إلى أموال الناس و أهاليهم، فلمّا كثر بغيهم و زاد تعدّيهم أهلكهم اللّه بذنوبهم، و فى واقعة السودان و تخريب المنصورة و قتل مؤتمن الخلافة الذى تقدّم ذكره يقول العماد الأصفهانى الكاتب يخاطب بهاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب:

بالملك الناصر استنارتفى عصرنا أوجه الفضائل

يوسف مصر الذى إليه تشدّ آمالنا الرواحل

رأيك فى الدهر عن رزاياجلى مهماته الجلائل

أجريت نيلين فى ثراهانيل نجيع و نيل نائل

كم كرم من نداك جارو كم دم من عداك سائل

و كم معاد بلا معادو مستطيل بغير طائل

و حاسد كاسد المساعىو سائد نافق الوسائل

أقررت عين الإسلام حتّىلم يبق فيها قذى لباطل

و كيف يزهى بملك مصرمن يستقلّ ذنبا لنائل

و ما نفيت السودان حتّىحكمت البيض فى المقاتل

صيّرت رحب الفضا مضيقاعليهم كفّة لجائل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸ و كلّ رأى منهم كراو أرض مصر كلام واصل

و قد خلت منهم المغانىو أقفرت منهم المنازل

و ما أصيبوا إلا بطلّفكيف لو أمطروا بوابل؟

و قد تجلّى بالحقّ ما بالباطل فى مصر كان عاجل

و السود بالبيض قد تنحّوافهى بواديهم نوازل

مؤتمن القوم خان حتّىغالته من شرّه الغوائل

عاملكم بالخنا فأضحىو رأسه فوق رأس عامل

و حالف الذلّ بعد عزّو الدهر أحواله حوائل

يا مخجل البحر بالأيادىقد آن أن تفتح السواحل

نقدّس القدس من خباثأرجاس كفر غتم أراذل

و كان موضع المنصور على يمنة من سلك فى الشارع خارج باب زويلة. قال ابن عبد الظاهر: كانت للسودان حارة تعرف بهم تسمّى المنصورة خرّبها صلاح الدين، و أخذها خطلبا، فعمرها بستانا و حوضا، و هى إلى جانب الباب الحديد، يعنى الذى يعرف اليوم بالقوس عند رأس المنتجبية، فيما بينها و بين الهلالية، و قد حكر هذا البستان فى الأيام الظاهرية و بعضها يعنى المنصورة من جهة بركة الفيل إلى جانب بستان سيف الإسلام، و يسمّى الآن بحكر الغتمى، لأن الغتمى هذا كان شرع بستان سيف الإسلام فحكر فى هذه الجهة، و هى الآن أحكار الديوان السلطانى، و حكر الغتمى الذى كان بستان سيف الإسلام يعرف اليوم بدرب ابن البابا تجاه البندقدارية بجوار حمّام الفارقانى قريب من صليبة جامع ابن طولون.

حارة المصامدة: هذه الحارة عرفت بطائفة المصامدة أحد طوائف عساكر الخلفاء الفاطميين، و اختطّت فى وزارة المأمون البطائحى و خلافة الآمر بأحكام اللّه بعد سنة خمس عشرة و خمسمائة. قال ابن عبد الظاهر: حارة المصامدة مقدّمهم عبد اللّه المصمودى. و كان المأمون البطائحى وزير الخليفة الآمر بأحكام اللّه قدّمه و نوّه بذكره و سلّم له أبوابه للمبيت عليها، و أضاف إليه جماعة من أصحابه، فلما استخلص المصامدة و قرّبهم سيّر أبا بكر المصمودى ليختار لهم حارة، فتوجّه بالجماعة إلى اليانسية بالشارع، فلم يجد بها مكانا، و وجدها تضيق عنهم، فسيّر المهندسين لاختيار حارة لهم، فاتفقوا على بناء حارة ظاهر باب الحديد على يمنة الخارج على شاطىء بركة الفيل، فقال: بل تكون على يسرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹

الخارج و الفسح قدّامها إلى بركة الفيل. فبنيت الحارة على يسرة الخارج من الباب المذكور، و بنى بجانبها مسجد على زلاقة الباب المذكور، و بنى أبو بكر المصمودى مسجدا أيضا، و هذه فيما أعتقد هى الهلالية، و حذّر من بناء شىء قبالتها فى الفضاء الذى بينها و بين بركة الفيل لانتفاع الناس، بها و صار ساحل بركة الفيل من المسجد قبالة هذه الحارة إلى آخر حصن دويرة مسعود إلى الباب الحديد، و لم يزل ذلك إلى بعض أيام الخليفة الحافظ لدين اللّه. قال: و بنى فى صفّ هذه الحارة من قبليّها عدّة دور بحوانيت تحتها إلى أن اتّصل البناء بالمساجد الثلاثة الحاكميّة المعلّقة و القنطرة المعروفة بدار ابن طولون و بعدها بستان ذكر أنه كان فى جملة قاعات الدار المذكورة. قال: و أظنّ المساجد هى التى قبالة حوض الجاولى، قال: و بنى المأمون ظاهره حوضا و أجرى الماء له و ذلك قبالة مشهد محمد الأصغر و مشهد السيّدة سكينة. قال: و أظنّ هذا البستان هو الذى بنته شجر الدرّ بستانا و دارا و حمّامات قريب من مشهد

السيّدة نفيسة، قال: و أمر المأمون بالنداء فى القاهرة مع مصر ثلاثة أيام بأنّ من كانت له دار فى الخراب أو مكان يعمر، و من عجز عن أن يعمره فليؤجّره من غير نقل شىء من أنقاضه، و من تأخّر بعد ذلك فلا حقّ له فى شىء منه و لا حكر يلزمه. و أباح تعمير ذلك جميعه بغير طلب بحقّ فيه، فطلب الناس كافة ما هو جار فى الديوان السلطانىّ و غيره، و عمروه حتّى صار البلدان لا يتخلّلهما داثر و لا دارس، و بنى فى الشارع يعنى خارج باب زويلة من الباب الجديد إلى الجبل عرضا و هو القلعة الآن. قال: و كان الخراب استولى على تلك الأماكن فى زمن المستنصر فى أيام وزارة البازورى حتّى أنه كان بنى حائطا يستر الخراب عن نظر الخليفة إذا توجّه من القاهرة إلى مصر، و بنى حائطا آخر عند جامع ابن طولون. قال: و عمر ذلك حتّى صار المتعيّشون بالقاهرة و المستخدمون يصلّون العشاء الأخيرة بالقاهرة و يتوجّهون إلى مساكنهم فى مصر لا يزالون فى ضوء و سرج و سوق موقود إلى باب الصفا و هو المعاصر الآن، و ذلك أنه يخرج من الباب الحديد الحاكمى على يمنة بركة الفيل إلى بستان سيف الإسلام و عدّة بساتين، و قبالة جميع ذلك حوانيت مسكونة عامرة بالمتعيّشين إلى مصر و المعاش مستمر الليل و النهار.

حارة الهلالية: ذكر ابن عبد الظاهر أنّها على يسرة الخارج من الباب الحديد الحاكمى.

حارة البيازرة: هذه الحارة خارج باب القنطرة على شاطىء الخليج من شرقيه فيما بين زقاق الكحل و باب القنطرة حيث المواضع التى تعرف اليوم ببركة جنادق و الكدّاشين، و إلى

قريب من حارة بهاء الدين، و اختطت هذه الحارة فى الأيام الآمرية، و ذلك أن زمام البيازرة شكا ضيق دار الطيور بمصر، و سأل أن يفسح للبيازرة فى عمارة حارة على شاطىء الخليج بظاهر القاهرة لحاجة الطيور و الوحوش إلى الماء، فأذن له فى ذلك، فاختطّوا هذه الحارة و جعلوا منازلهم مناظر على الخليج، و فى كلّ دار باب سرّ ينزل منه إلى الخليج و اتّصل بنا هذه الحارة بزقاق الكحل، فعرفت بهم و سميت بحارة البيازرة، واحدهم بازيار ، ثم إنّ المختار الصقلبى زمام القصر أنشأ بجوارها بستانا و بنى فيه منظرة عظيمة، و هذا البستان يعرف اليوم موضعه ببستان ابن صيرم خارج باب الفتوح، فلما كثرت العمائر فى حارة البيازرة أمر الوزير المأمون بعمل الأقنة لشىّ الطوب على شاطىء الخليج الكبير إلى حيث كان البستان الكبير الجيوشىّ الذى تقدّم ذكره فى ذكر مناظر الخلفاء و منتزهاتهم.

حارة الحسينية: عرفت بطائفة من عبيد الشراء يقال لهم الحسينية. قال المسبّحى فى حوادث سنة خمس و تسعين و ثلثمائة: و أمر بعمل شونة ممّا يلى الجبل ملئت بالسنط و البوص و الحلفاء فابتدىء بعملها فى ذى الحجة سنة أربع و تسعين و ثلثمائة إلى شهر ربيع الأول سنة خمس و تسعين، فخامر قلوب الناس من ذلك جزع شديد، و ظنّ كلّ من يتعلّق بخدمة أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه أنّ هذه الشونة عملت لهم. ثمّ قويت الإشاعات و تحدّث العوام فى الطرقات أنها للكتّاب و أصحاب الدواوين و أسبابهم، فاجتمع سائر الكتّاب و خرجوا بأجمعهم فى خامس ربيع الأوّل و معهم سائر المتصرّفين فى الدواوين من المسلمين و النصارى إلى الرماحين بالقاهرة، و لم يزالوا يقبّلون الأرض حتّى وصلوا إلى القصر، فوقفوا على بابه يدعون و يتضرّعون و يضجّون و يسألون العفو عنهم، و معهم رقعة قد كتبت عن جميعهم إلى أن دخلوا باب القصر الكبير و سألوا أن يعفى عنهم و لا يسمع فيهم قول ساع يسعى بهم، و سلّموا رقعتهم إلى قائد القوّاد الحسين بن جوهر، فأوصلها إلى أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه، فأجيبوا إلى ما سألوا، و خرج إليهم قائد القوّاد، فأمرهم بالانصراف و البكور لقراءة سجلّ بالعفو عنهم، فانصرفوا بعد العصر، و قرىء من الغد سجل كتب منه نسخة للمسلمين و نسخة للنصارى و نسخة لليهود بأمان لهم و العفو عنهم. و قال:

فى ربيع الآخر، و اشتدّ خوف الناس من أمير المؤمنين الحاكم بأمر اللّه، فكتب ما شاء اللّه من الأمانات للغلمان الأتراك الخاصّة و زمامهم و أمرائهم من الحمدانية و الكجورية و الغلمان العرفان و المماليك و صبيان الدار و أصحاب الإقطاعات و المرتزقة و الغلمان الحاكميّة القدم

على اختلاف أصنافهم، و كتب أمان الجماعة من خدم القصر الموسومين بخدمة الحضرة بعد ما تجمّعوا و صاروا إلى تربة للعزيز بالله و ضجوا بالبكاء و كشفوا رؤوسهم، و كتبت سجلّات عدّة بأمانات للديلم و الجبل و الغلمان الشرابية و الغلمان الريحانية و الغلمان البشارية و الغلمان المفرّقة العجم و غيرهم و النقباء و الروم المرتزقة، و كتبت عدّة أمانات للزويليين و البنادين و الطبّالين و البرقيين و العطوفيين و للعرافة الجوانية و الجودرية و للمظفرّية و للصنهاجيين و لعبيد الشراء الحسينية و للميمونية و للفرحية و أمان لمؤذنى أبواب القصر و أمانات لسائر البيارزة و الفهّادين و الحجّالين و أمانات أخر لعدّة أقوام، كلّ ذلك بعد سؤالهم و تضرّعهم. و قال: فى جمادى الآخرة و خرج أهل الأسواق على طبقاتهم كلّ يلتمس كتب أمان يكون لهم، فكتب فوق المائة سجل بأمان لأهل الأسواق على طبقاتهم نسخة واحدة، و كان يقرأ جميعها فى القصر أبو علىّ أحمد بن عبد السميع العباسىّ، و تسلم أهل كل سوق ما كتب لهم، و هذه نسخة إحداها.

بعد البسملة: هذا كتاب من عبد اللّه و وليه المنصور أبى علىّ، الإمام الحاكم بأمر اللّه أمير المؤمنين، لأهل مسجد عبد اللّه، أنكم من الآمنين بأمان اللّه، الملك الحق المبين، و أمان جدّنا محمد خاتم النبيين، و أبينا علىّ خير الوصيين، و آبائنا الذريّة النبويّة المهديين، صلى اللّه على الرسول و وصيه و عليهم أجمعين، و أمان أمير المؤمنين على النفس و الحال و الدم و المال، لا خوف عليكم، و لا تمتدّ يد بسوء إليكم إلّا فى حدّ يقام بواجبه، و حق يؤخذ بمستوجبه، فليوثق بذلك و ليعوّل عليه إن شاء اللّه تعالى. و كتب فى جمادى الآخرة سنة خمس و تسعين و ثلاثمائة و الحمد للّه، و صلى اللّه على محمد سيد المرسلين، و على خير الوصيين، و على الأئمة المهديين ذرية النبوّة، و سلم تسليما كثيرا. و قال ابن عبد الظاهر:

فأمّا الحارات التى من باب الفتوح ميمنة و ميسرة للخارج منه، فالميمنة إلى الهليلجة، و الميسرة إلى بركة الأرمن برسم الريحانية، و هى الحسينية الآن، و كانت برسم الريحانية الغزاوية و المولدة و العجمان و عبيد الشراء، و كانت ثمان حارات و هى: حارة حامد، بين الحارتين، المنشية الكبيرة، الحارة الكبيرة، الحارة الوسطى، سوق الكبير، الوزيرية و للأجناد بظاهر القاهرة حارات و هى: حارة البيازرة و الحسينية جميع ذلك سكن الريحانية و سكن الجيوشية و العطوفية بالقاهرة، و بظاهرها الهلالية و الشوبك و حلب و الحبانية و المأمونية و حارة الروم و حارة المصامدة و الحارة الكبيرة و المنصورة الصغيرة و اليانسية و حارة أبى بكر و المقس و رأس التبان و الشارع. و لم يكن للأجناد فى هذا الوجه غير حارة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۲

عنتر للمؤمنين المترجلة، و كانت كل حارة من هذه بلدة كبيرة بالبزازين و العطارين و الجزارين و غيرهم، و الولاة لا يحكمون عليها، و لا يحكم فيها إلّا الأزمة و نوّابهم، و أعظم الجميع الحارة الحسينية التى هى آخر صف الميمنة إلى الهليلجة، و هى الحسينية الآن، لأنها كانت سكن الأرمن، فارسهم و راجلهم، و كان يجتمع بها قريب من سبعة آلاف نفس و أكثر من ذلك، و بها أسواق عدّة.

و قال فى موضع آخر: الحسينية منسوبة لجماعة من الأشراف الحسينيين، و كانوا فى الأيام الكاملية قدموا من الحجاز، فنزلوا خارج باب النصر بهذه الأمكنة و استوطنوها، و بنوا بها مدابغ صنعوا بها الأديم المشبه بالطائفى، فسمّيت بالحسينية، ثم سكنها الأجناد بعد ذلك و ابتنوا بها هذه الأبنية العظيمة، و هذا و هم، فإنه تقدّم أنّ جملة الطوائف فى الأيام الحاكمية الطائفة الحسينية، و تقدّم فيما نقله ابن عبد الظاهر أيضا أنّ الحسينية كانت عدّة حارات، و الأيام الكاملية، إنما كانت بعد الستمائة، و قد كانت الحسينية قبل ذلك بما ينيف عن مائتى سنة فتدبره.

و اعلم أنّ الحسينية شقتان، إحداهما ما خرج عن باب الفتوح، و طولها من خارج باب الفتوح إلى الخندق، و هذه الشقة هى التى كانت مساكن الجند فى أيام الخلفاء الفاطميين، و بها كانت الحارات المذكورة. و الشقة الأخرى ما خرج عن باب النصر و امتدّ فى الطول إلى الريدانية، و هذه الشقة لم يكن بها فى أيام الخلفاء الفاطميين سوى مصلى العيد تجاه باب النصر، و ما بين المصلى إلى الريدانية فضاء لا بناء فيه، و كانت القوافل إذا برزت تريد الحج تنزل هناك، فلما كان بعد الخمسين و أربعمائة و قدم بدر الجمالى

أمير الجيوش، و قام بتدبير أمر الدولة الخليفة المنتصر بالله، أنشأ بحرى مصلى العيد خارج باب النصر تربة عظيمة، و فيها قبره هو و ولده الأفضل ابن أمير الجيوش، و أبو علىّ كتيفات بن الأفضل و غيره، و هى باقية إلى يومنا هذا. ثم تتابع الناس فى إنشاء الترب هناك حتى كثرت، و لم تزل هذه الشقة مواضع للترب، و مقابر أهل الحسينية و القاهرة إلى بعد السبعمائة، و لقد حدّثت عن المشيخة ممن أدرك، بأنّ ما بين مصلى الأموات التى خارج باب النصر و بين دار كهرداش التى تعرف اليوم بدار الحاجب؛ مكانا يعرف بالمراغة، معدّ لتمريغ الدّواب به، و أنّ ما فى صف المصلى من بحريها الترب فقط، و لم تعمر هذه الشقة إلا فى الدولة التركية، لا سيما لما تغلب التتر على ممالك الشرق و العراق، و جفل الناس إلى مصر، فنزلوا بهذه الشقة و بالشقة الأخرى، و عمروا بها المساكن، و نزل بها أيضا أمراء الدولة فصارت من أعظم عمائر مصر و القاهرة، و اتخذ الأمراء بها من بحريها فيما بين الريدانية إلى الخندق مناخات الجمال، و اصطبلات الخيل، و من ورائها الأسواق و المساكن العظيمة فى الكثرة، و صار أهلها يوصفون بالحسن، خصوصا لما قدمت الأويراتية.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۳

ذكر قدوم الأويراتية

و كان من خبر هذه الطائفة: أنّ بيدو بن طرغاى بن هولاكو لما قتل فى ذى الحجة، سنة أربع و تسعين و سبعمائة، و قام فى الملك من بعده على المغل الملك غازان محمود بن خر بنده بن إيغانى، تخوّف منه عدّة من المغل يعرفون بالأويراتية، و فرّوا عن بلاده إلى نواحى بغداد، فنزلوا هناك مع كبيرهم طرغاى، و جرت لهم خطوب آلت بهم إلى اللحاق بالفرات فأقاموا بها هنالك، و بعثوا إلى نائب حلب يستأذنوه فى قطع الفرات ليعبروا إلى ممالك الشام، فأذن لهم، و عدّوا الفرات إلى مدينة بهنسا، فأكرمهم نائبا و قام لهم بما ينبغى من العلوفات و الضيافات، و طولع الملك العادل زين الدين كتيفا، و هو يومئذ سلطان مصر و الشام بأمرهم، فاستشار الأمراء فيما يعمل بهم، فاتفق الرأى على استدعاء أكابرهم إلى الديار المصرية، و تفريق باقيهم فى البلاد الساحلية و غيرها من بلاد الشام، و خرج إليهم الأمير علم الدين سنجر الدوادارى، و الأمير شمس الدين سنقر الأعسر إلى دمشق، فجهزا أكابر الأويراتية نحو الثلاثمائة للقدوم على السلطان، و فرّقا من بقى منهم بالبقاع العزيزة و بلاد الساحل، و لما قرب الجماعة من القاهرة، و خرج الأمراء بالعسكر إلى لقائهم، و اجتمع الناس من كل مكان حتى امتلأ الفضاء للنظر إليهم، فكان لدخولهم يوم عظيم، و صاروا إلى قلعة الجبل، فأنعم السلطان على طرغاى مقدّمهم بإمرة طبلخانة، و على اللصوص بإمرة عشرة، و أعطى البقية تقادما فى الحلقة و اقطاعات، و أجرى عليهم الرواتب، و أنزلوا بالحسينية، و كانوا على غير الملة الإسلامية، فشق ذلك على الناس، و بلوامع ذلك منهم بأنواع من البلاء لسوء أخلاقهم و نفرة نفوسهم و شدّة جبروتهم، و كان إذ ذاك بالقاهرة و مصر غلاء كبير و فناء عظيم، فتضاعفت المضرّة و اشتدّ الأمر على الناس، و قال فى ذلك الأديب شمس الدين محمد بن دينار:

ربنا اكشف عنا العذاب فإنّاقد تلفنا فى الدولة المغلية

جاءنا المغل و الغلا فانصلقناو انطبخنا فى الدولة المغلية

و لما دخل شهر رمضان من سنة خمس و تسعين و ستمائة لم يصم أحد من الأويراتية، و قيل للسلطان ذلك، فأبى أن يكرههم على الإسلام، و منع من معارضتهم و نهى أن يشوّش عليهم أحد، و أظهر العناية بهم، و كان مراده أن يجعلهم عونا له يتقوّى بهم، فبالغ فى إكرامهم حتى أثر فى قلوب إمراء الدولة منه احنا و خشوا إيقاعه بهم، فإن الأويراتية كانوا أهل جنس كتيفا، و كانوا مع ذلك صورا جميلة، فافتتن بهم الأمراء و تنافسوا فى أولادهم من الذكور و الإناث، و اتخذوا منهم عدّة صيّروهم من جملة جندهم، و تعشّقوهم، فكان بعضهم يستنشد من صاحبه من اختص به و جعله محل شهوته، ثم ما قنع الأمراء ما كان منهم بمصر حتى أرسلوا إلى البلاد الشامية و استدعوا منهم طائفة كبيرة، فتكاثر نسلهم فى القاهرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۴

و اشتدّت الرغبة من الكافة فى أولادهم على اختلاف الآراء فى الإناث و الذكور، فوقع التحاسد و التشاجر بين أهل الدولة إلى أن آل الأمر بسببهم و بأسباب أخر إلى خلع السلطان الملك العادل كتيفا من الملك، فى صفر سنة ست و تسعين و ستمائة.

فلما قام فى السلطنة من بعده الملك المنصور حسام الدين لاجين، قبض على طرغاى مقدّم الأويراتية، و على جماعة من أكابرهم، و بعث بهم إلى الإسكندرية فسجنهم بها و قتلهم، و فرّق جميع الأويراتية على الأمراء، فاستخدموهم و جعلوهم من جندهم، فصار أهل الحسينية لذلك يوصفون بالحسن و الجمال البارع، و أدركنا من ذلك طرفا جيدا، و كان للناس فى نكاح نسائهم رغبة، و لآخرين شغف بأولادهم، و للّه در الشيخ تقىّ الدين السروجىّ إذ يقول من أبيات:

يا ساعى الشوق الذى مذ جرىجرت دموعى فهى أعوانه

خذ لى جوابا عن كتابى الذىإلى الحسينية عنوانه

فهى كما قد قيل وادى الحمىو أهلها فى الحسن غزلانه

أمشى قليلا و انعطف يسرةيلقاك درب طال بنيانه

و اقصد بصدر الدرب ذاك الذىبحسنه تحسّن جيرانه

سلم و قل يخشى مسن أى مسنىاشت حديثا طال كتمانه

و سل لى الوصل فإن قال بقفقل أوت قد طال هجرانه

و ما برحوا يوصفون بالزعارة و الشجاعة، و كان يقال لهم البدورة، فيقال البدر فلان، و البدر فلان، و يعانون لباس الفتوّة و حمل السلاح، و يؤثر منهم حكايات كثيرة و أخبار جمة، و كانت الحسينية قد أربت فى عمارتها على سائر اخطاط مصر و القاهرة، حتى لقد قال لى ثقة ممن أدركت من الشيخة: أنّه يعرف الحسينية عامرة بالأسواق و الدور، و سائر شوارعها كافة بازدحام الناس، و من الباعة و المارة و أرباب المعايش، و أصحاب اللهو و الملعوب، فيما بين الريدانية، محطة المحمل يوم خروج الحاج من القاهرة، و إلى باب الفتوح، لا يستطيع الإنسان أن يمرّ فى هذا الشارع الطويل العريض طول هذه المسافة الكبيرة إلّا بمشقة من الزحام، كما كنا نعرف شاعر بين القصرين فيما أدركنا. و ما زال أمر الحسينية متماسكا إلى أن كانت الحوادث و المحن منذ سنة ست و ثمانمائة و ما بعدها، فخربت حاراتها، و نقضت مبانيها، و بيع ما فيها من الأخشاب و غيرها، و باد أهلها، ثم حدث بها بعد سنة عشرين و ثمانمائة آية من آيات اللّه تعالى، و ذلك أنّ فى أعوام بضع و ستين و سبعمائة، بدا بناحية برج الزيات فيما بين المطرية و سر ياقوس فساد الأرضة التى من شأنها العبث فى الكتب و الثياب، فأكلت لشخص نحو ألف و خمسمائة قتة دريس، فكنّا لا نزال نتعجب من ذلك، ثم فشت هناك و شنع عبثها فى سقوف الدور، و سرت حتى عاثت فى أخشاب سقوف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۵

الحسينية و غلات أهلها و سائر أمتعتهم، حتى أتلفت شيئا كثيرا، و قويت حتى صارت تأكل الجدران، فبادر أهل تلك الجهة إلى هدم ما قد بقى من الدور، خوفا عليها من الأرضة شيئا بعد شىء حتى قاربوا باب الفتوح و باب النصر، و قد بقى منها اليوم قليل من كثير يخاف إن استمرّت أحوال الإقليم على ما هى عليه من الفساد أن تدثر و تمحى آثارها، كما دثر سواها، و للّه در القائل:

و اللّه إن لم يداركها و قد رحلتبلمحة أو بلطف من لديه خفى

و لم يجد بتلافيها على عجلما أمرها صائر إلّا إلى تلف

حارة حلب: هذه الحارة خارج باب زويلة، تعرف اليوم بزقاق حلب، و كانت قديما من جملة مساكن الأجناد. قال ياقوت فى باب حلب: الأوّل حلب المدينة المشهورة بالشام، و هى قصبة نواحى قنسرين و العواصم اليوم، الثانى حلب الساجود من نواحى حلب أيضا الثالث كفر حلب من قراها أيضا، الرابع محلة بظاهر القاهرة بالشارع من جهة الفسطاط. و اللّه تعالى أعلم.

ذكر اخطاط القاهرة و ظواهرها

قد تقدّم ذكر ما يطلق عليه حارة من الأخطاط، و نريد أن نذكر من الخطط ما لا يطلق عليه اسم حارة و لا درب، و هى كثيرة، و كل قليل تتغير أسماؤها، و لا بدّ من إيراد ما تيسر منها.

خط خان الوراقة: هذا الخط فيما بين حارة بهاء الدين و سويقة أمير الجيوش، و فى شرقيّة سوق المرجلين، و هو يشتمل على عدّة مساكن، و به طاحون، و كان موضعه قديما اصطبل الصبيان الحجرية لموقف خيولهم كما تقدّم، فلما زالت الدولة الفاطمية اختط مواضع للسكنى و قد شمله الخراب.

خط باب القنطرة: هذا الخط كان يعرف قديما بحارة المرتاحية و حارة الفرحية و الرماحين، و كان ما بين الرماحين الذى يعرف اليوم بباب القوس، داخل باب القنطرة، و بين الخليج، فضاء لا عمارة فيه، بطول ما بين باب الرماحين إلى باب الخوخة، و إلى باب سعادة، و إلى باب الفرج، و لم يكن إذ ذاك على حافة الخليج عمائر البتة، و إنما العمائر من جانب الكافورى و هى مناظر اللؤلؤة و ما جاورها من قبليها إلى باب الفرج، و تخرج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۶

العامّة عصريات كل يوم إلى شاطىء الخليج الشرقى تحت المناظر للتفرّج، فإن بر الخليج الغربىّ كان فضاء ما بين بساتين و برك، كما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

قال القاضى الفاضل فى متجدّدات سنة سبع و ثمانين و خمسمائة: فى شوّال قطع النيل الجسور و اقتلع الشجر، و غرّق النواحى و هدم المساكن، و أتلف كثيرا من النساء و الأطفال، و كثر الرخاء بمصر، فالقمح كل مائة أردب بثلاثين دينارا، و الخبز البايت ستة أرطال بربع درهم، و الرطب الأمهات ستة أرطال بدرهم، و الموز ستة أرطال بدرهم، و الرمان الجيد مائة حبة بدرهم، و الحمل الخيار بدرهمين، و التين ثمانية أرطال بدرهم، و العنب ستة أرطال بدرهم فى شهر بابه بعد انقضاء موسمه المعهود بشهرين، و الياسمين خمسة أرطال بدرهم، و آل أمر أصحاب البساتين إلى أن لا يجمعوا الزهر لنقص ثمنه عن أجرة جمعه، و ثمر الحناء عشرة أرطال بدرهم، و البسرة عشرة أرطال بدرهم من جيده، و المتوسط خمسة عشر رطلا بدرهم، و ما فى مصر إلّا متسخط بهذه النعمة.

قال: و لقد كنت فى خليج القاهرة من جهة المقس لانقطاع الطرق بالمياه، فرأيت الماء مملوء سمكا، و الزيادة قد طبقت الدنيا، و النخل مملوء تمرا، و المكشوف من الأرض مملوء ريحانا و بقولا، ثم نزلت فوصلت إلى المقس، فوجدت من القلعة التى بالمقس إلى منية السيرج غلالا قد ملأت صبرها الأرض، فلا يدرى الماشى أين يضع رجله، متصلا عرض ذلك إلى باب القنطرة، و على الخليج عند باب القنطرة من مراكب الغلة ما قد ستر سواحله و أرضه. قال: و دخلت البلد فرأيت فى السوق من الأخباز و اللحوم و الألبان و الفواكه ما قد ملأها، و هجمت منه العين على منظر ما رأيت قبله مثله. قال: و فى البلد من البغى و من المعاصى و من الجهر بها و من الفسق بالزنا و اللواط و من شهادة الزور و من مظالم الأمراء و الفقهاء، و من استحلال الفطر فى نهار رمضان و شرب الخمر فى ليله ممن يقع عليه اسم الإسلام، و من عدم النكير على ذلك جميعه ما لم يسمع و لم يعهد مثله، فلا حول و لا قوّة إلا باللّه العلىّ العظيم، و ظفر بجماعة مجتمعين فى حارة الروم يتغدّون فى قاعة فى نهار رمضان، فما كلموا، و بقوم مسلمين و نصارى اجتمعوا على شرب خمر فى ليل رمضان، فما أقيم فيهم حدّ، و خط باب القنطرة فيما بين حارة بهاء الدين و سويقة أمير الجيوش و ينتهى من قبليه إلى خط بين السورين.

خط بين السورين: هذا الخط من حدّ باب الكافورى فى الغرب إلى باب سعادة، و به الآن صفان من الأملاك، أحدهما مشرف على الخليج، و الآخر مشرف على الشارع المسلوك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۷

فيه، من باب القنطرة إلى باب سعادة، و يقال لهذا الشارع بين السورين، تسمية للعامة بها فاشتهر بذلك، و كان فى القديم بهذا الخط البستان الكافورى، يشرف عليه بحده الغربى ثمة مناظر اللؤلؤة، و قد بقيت منها عقود مبنية بالآجر، يمرّ السالك فى هذا الشارع من تحتها، ثم مناظر دار الذهب، و موضعها الآن دار تعرف بدار بهادر الأعسر، و على بابها بئر يستقى منها الماء فى حوض يشرب منه الدواب، و يجاورها قبو معقود يعرف بقبو الذهب، و هو من بقية مناظر دار الذهب، و بحدّ دار الذهب منظرة الغزالة، و هى بجوار قنطرة الموسكى، و قد بنى فى مكانها ربع يعرف إلى اليوم بربع غزالة، و دار ابن قرفة، و قد صار موضعها جامع ابن المغربى، و حمام ابن قرفة، و بقى منها البئر التى يستقى منها إلى اليوم بحمام السلطان، و عدّة دور كلها فيما يلى شقة القاهرة من صف باب الخوخة، و كان ما بين المناظر و الخليج براحا، و لم يكن شىء من هذه العمائر التى بحافة الخليج اليوم البتة، و كان الحاكم بأمر اللّه فى سنة إحدى و أربعمائة منع من الركوب فى المراكب بالخليج، و سدّ أبواب القاهرة التى تلى الخليج، و أبواب الدور التى هناك، و الطاقات المطلة عليه على ما حكاه المسبحىّ.

و قال ابن المأمون فى حوادث سنة ست عشرة و خمسمائة، و لما وقع الاهتمام بسكن اللؤلؤة و المقام بها مدّة النيل على الحكم الأوّل، يعنى قبل أيام أمير الجيوش بدر و ابنه الأفضل، و إزالة ما لم تكن العادة جارية عليه من مضايقة اللؤلؤة بالبناء، و أنها صارت حارات تعرف بالفرحية و السودان و غيرهما، أمر حسام الملك متولى بابه بإحضار عرفاء الفرحية و الإنكار عليهم فى تجاسرهم على ما استجدّوه و أقدموا عليه، فاعتذروا بكثرة الرجال و ضيق الأمكنة عليهم، فبنوا لهم قبابا يسيرة، فتقدّم يعنى أمر الوزير المأمون إلى متولى الباب بالإنعام عليهم و على جميع من بنى فى هذه الحارة بثلاثة آلاف درهم، و أن يقسم بينهم بالسوية، و يأمرهم بنقل قسمهم، و أن يبنو لهم حارة قبالة بستان الوزير، يعنى ابن المغربىّ، خارج الباب الجديد من الشارع، خارج باب زويلة.

قال: و تحوّل الخليفة إلى اللؤلؤة بحاشيته، و أطلقت التوسعة فى كل يوم لما يخص الخاص و الجهات و الأستاذين من جميع الأصناف، و انضاف إليها ما يطلق كل ليلة عينا و ورقا و أطعمة للبائتين بالنوبة برسم الحرس بالنهار و السهر فى طول الليل، من باب قنطرة بهادر إلى مسجد الليمونة من البرين، من صبيان الخاص و الركاب و الرهجية و السودان و الحجاب، كل طائفة بنقيبها، و العرض من متولى الباب واقع بالعدة فى طرفى كل ليلة، و لا يمكن بعضهم بعضا من المنام و الرهجية تخدم على الدوام.

خط الكافورى: هذا الخط كان بستانا من قبل بناء القاهرة و تملك الدولة الفاطمية لديار مصر، أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طفج بن جف، الملقب بالإخشيد، و كان بجانبه ميدان فيه الخيول، و له أبواب من حديد، فلما قدم جوهر القائد إلى مصر، جعل هذا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۸

البستان من داخل القاهرة، و عرف ببستان كافور، و قيل له فى الدولة الفاطمية البستان الكافورى، ثم اختط مساكن بعد ذلك.

قال ابن زولاق فى كتاب سيرة الإخشيد: و لست خلون من شوّال سنة ثلاثين و ثلثمائة، سار الإخشيد إلى الشام فى عساكره، و استخلف أخاه أبا المظفر بن طفج. قال:

و كان يكره سفك الدماء، و لقد شرع فى الخروج إلى الشام فى آخر سفراته، و سار العسكر، و كان نازلا فى بستانه فى موضع القاهرة اليوم، فركب للمسير، فساعة خرج من باب البستان اعترضه شيخ يعرف بمسعود الصابونى، يتظلّم إليه، فنظر له، فتطير به و قال: خذوه ابطحوه، فبطح و ضرب خمس عشرة مقرعة و هو ساكت. فقال الإخشيد: هو ذا يتشاطر.

فقال له كافور: قد مات. فانزعج و استقال سفرته و عاد لبستانه، و أحضر أهل الرجل و استحلهم و أطلق لهم ثلاثمائة دينار، و حمل الرجل إلى منزله ميتا، و كانت جنازته عظيمة، و سافر الإخشيد فلم يرجع إلى مصر، و مات بدمشق. و قال فى كتاب تتمة كتاب أمراء مصر للكندى: و كان كافور الإخشيدى أمير مصر يواصل الركوب إلى الميدان و إلى بستانه فى يوم الجمعة و يوم الأحد و يوم الثلاثاء، قال: و فى غد هذا اليوم، يعنى يوم الثلاثاء، مات الأستاذ كافور الإخشيدى، لعشر بقين من جمادى الأولى سنة سبع و خمسين و ثلثمائة، و يوم مات الأستاذ كافور الإخشيدى، خرج الغلمان و الجند إلى المنظرة و خرّبوا بستان كافور، و نهبوا دوابه و طلبوا مال

البيعة.

و قال ابن عبد الظاهر: البستان الكافورى هو الذى كان بستانا لكافور الإخشيدى، و كان كثيرا ما يتنزه به، و بنيت القاهرة عنده، و لم يزل إلى سنة إحدى و خمسين و ستمائة، فاختطت البحرية و العزيزية به اصطبلات، و أزيلت أشجاره. قال: و لعمرى إنّ خرابه كان بحق، فإنه كان عرف بالحشيشة التى يتناولها الفقراء، و التى تطلع به يضرب بها المثل فى الحسن. قال شاعرهم نور الدين أبو الحسن على بن عبد اللّه بن على الينبعى لنفسه:

ربّ ليل قطعته و نديمىشاهدى هو مسمعى و سميرى

مجلسى مسجد و شربى من خضراء تزهو بحسن لون نضير

قال لى صاحبى و قد فاح منهانشرها مزريا بنشر العبير

أمن المسك؟ قلت ليست من المسك و لكنّها من الكافورى

و قال الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمود بن أحمد بن محمد الأسدىّ الدمشقىّ، المعروف باليغمورى: أنشدنى الإمام العالم المعروف بجموع الفضائل، زين الدين أبو عبد اللّه محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الحنفى لنفسه، و هو أوّل من عمل فيها:

و خضراء كافورية بات فعلهاألبابنا فعل الرحيق المعتّق

إذ نفحتنا من شذاها بنفحةتدبّ لنا فى كل عضو و منطق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۹ غنيت بها عن شرب خمر معتّقو بالدلق عن لبس الجديد المزوّق

و أنشدنى الحافظ جلال الدين أبو المعز ابن أبى الحسن بن أحمد بن الصائغ المغربىّ لنفسه:

عاطنى خضراء كافوريةيكتب الخمر لها من جندها

أسكرتنا فوق ما تسكرناو ربحنا أنفسا من حدّها

و أنشدنى لنفسه:

قم عاطنى خضراء كافوريةقامت مقام سلافة الصهباء

يغدو الفقير إذا تناول درهمامنها له تيه على الأمراء

و تراه من أقوى الورى فإذا خلامنها عددناه من الضعفاء

و أنشدنى من لفظه لنفسه أيضا:

عاطيت من أهوى و قد زارنىكالبدر وافى ليلة البدر

و البحر قد مدّ على متنهشعاعه جسرا من التبر

خضراء كافورية رنحتأعطافه من شدّة السكر

يفعل منها درهم فوق ماتفعل أرطال من الخمر

فراح نشوانا بها غافلالا يعرف الحلو من المرّ

قال و قد نال بها أمرهفبات مردودا إلى أمرى

قتلتنى قلت نعم سيدىقتلين بالسكر و بالبحر

قال: و أمر السلطان الملك الصالح، يعنى نجم الدين أيوب، الأمير جمال الدين أبا الفتح موسى بن يغمور، أن يمنع من يزرع فى الكافورى من الحشيشة شيئا، فدخل ذات يوم فرأى فيه منها شيئا كثيرا، فأمر بأن يجمع فجمع و أحرق. فأنشدنى فى الواقعة الشيخ الأديب الفاضل شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف لنفسه، و ذلك فى ربيع الأوّل سنة ثلاث و أربعين و ستمائة:

صرف الزمان و حادث المقدورتركا نكير الخطب غير نكير

ما سالما حيا و لا ميتا و لاطودا سما بل دكدكا بالطور

لهفى و هل يجدى التهلف فى ذرىطرب الغنىّ و أنس كلّ فقير

أخت المذلة لارتكاب محرّمقطب السرور بأيسر الميسور

جمعت محاسن ما اجتمعن لغيرهامن كلّ شىء كان فى المعمور

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۰ منها طعام و الشراب كلاهماو البقل و الريحان وقت حضور

هى روضة إن شئتها و رياضةيغنى بها عن روضة و خمور

ما فى المدامة كلّها منها سوىإثم المدام و صحبة المخمور

كلا و نكهة خمرة هى شاهدعدل على حدّ و جلد ظهور

أسفا لدهر غالها و لربماظلّ الكريم بذلة الماسور

جمعت له الأشهاد كرما أخضراكعروسة تجلى بخضر حرير

زفوا لها نارا فخلنا جنةبرزت لنا قد زوّجت بالنور

ثم اكتست منها غلالة صفرةفى خضرة مقرونة بزفير

فكأنها لهب اللظى فى خضرةمنها و طرف رمادها المنثور

جارى النضار على مذاب زمرّدتركا فتيت المسك فى الكافورى

للّه درك حية أو ميتةمن منظر بهج بغير نظير

أوذيت غير ذميمة فسقى الحياتربا تضمّن منك ذوب عبير

عندى لذكرك ما بقيت مخلداسح الدموع و نفثة المصدور

ذكر كافور الإخشيدى

كان عبدا أسود خصيا، مثقوب الشفة السفلى، بطينا قبيح القدمين، ثقيل البدن، جلب إلى مصر و عمره عشر سنين فما فوقها، فى سنة عشر و ثلثمائة، فلما دخل إلى مصر تمنى أن يكون أميرها، فباعه الذى جلبه لمحمد بن هاشم، أحد المتقبلين للضياع، فباعه لابن عباس الكاتب، فمرّ يوما بمصر على منجّم فنظر له فى نجومه و قال له: أنت تصير إلى رجل جليل القدر، و تبلغ معه مبلغا عظيما، فدفع إليه درهمين لم يكن معه سواهما، فرمى بهما إليه و قال: أبشّرك بهذه البشارة و تعطينى درهمين؟ ثم قال له: و أزيدك، أنت تملك هذه البلد و أكثر منه، فاذكرنى.

و اتفق أنّ ابن عباس الكاتب أرسله بهدية يوما إلى الأمير أبى بكر محمد بن طغج الإخشيد، و هو يومئذ أحد قوّاد تكين أمير مصر، فأخذ كافورا و ردّ الهدية، فترقّى عنده فى الخدم حتى صار من أخص خدمه.

و لما مات الإخشيد بدمشق، ضبط كافور الأمور و دارى الناس و وعدهم إلى أن سكنت الدهماء، بعد أن اضطرب الناس، و جهز أستاذه و حمله إلى بيت المقدس، و سار إلى مصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۱

فدخلها. و قد انعقد الأمر بعد الإخشيد لابنه أبى القاسم أونوجور ، فلم يكن بأسرع من ورود الخبر من دمشق بأنّ سيف الدولة علىّ بن حمدان أخذها و سار إلى الرملة، فخرج كافور بالعساكر و ضرب الدباديب، و هى الطبول، على باب مضربه فى وقت كل صلاة، و سار فظفر و غنم ثم قدم إلى مصر و قد عظم أمره، فقام بخلافة أو نوجور، فخاطبه القوّاد بالأستاذ، و صار القوّاد يجتمعون عنده فى داره فيخلع عليهم و يحملهم و يعطيهم، حتى أنه وقع لجانك أحد القوّاد الإخشيدية فى يوم بأربعة عشر ألف دينار، فما زال عبدا له

حتى مات، و انبسطت يده فى الدولة، فعزل و ولى و أعطى و حرم، و دعى له على المنابر كلها إلّا منبر مصر و الرملة و طبرية، ثم دعى له بها فى سنة أربعين و ثلثمائة، و صار يجلس للمظالم فى كل سبت، و يحضر مجلسه القضاة و الوزراء و الشهود و وجوه البلد، فوقع بينه و بين الأمير أونوجور، و تحرّر كل منهما من الآخر، و قويت الوحشة بينهما، و افترق الجند، فصار مع كل واحد طائفة، و اتفق موت أونوجور فى ذى القعدة سنة تسع و أربعين و ثلثمائة، و يقال أنه سمّه. فأقام أخاه أبا الحسن علىّ بن الإخشيد من بعده، و استبدّ بالأمر دونه، و أطلق له فى كل سنة أربعمائة ألف دينار، و استقل بسائر أحوال مصر و الشام، ففسد ما بينه و بين الأمير أبى الحسن علىّ، فضيّق عليه كافور و منع أن يدخل عليه أحد، فاعتل بعلة أخيه و مات، و قد طالت به فى محرّم سنة خمس و خمسين و ثلثمائة.

فبقيت مصر بغير أمير أياما لا يدعى فيها سوى للخليفة المطيع فقط، و كافور يدبر أمر مصر و الشام فى الخراج و الرجال، فلما كان لأربع بقين من المحرّم المذكور، أخرج كافور كتابا من الخليفة المطيع بتقليده بعد علىّ بن الإخشيد، فلم يغير لقبه بالأستاذ، و دعى له على المنبر بعد الخليفة، و كانت له فى أيامه قصص عظام، و قدم عسكر من المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ من المغرب إلى الواحات، فجهّز إليه جيشا أخرجوا العسكر و قتلوا منهم، و صارت الطبول تضرب على بابه خمس مرّات فى اليوم و الليلة، و عدّتها مائة طبلة من نحاس. و قدمت عليه دعاة المعز لدين اللّه من بلاد المغرب يدعونه إلى طاعته، فلاطفهم، و كان أكثر الإخشيدية و الكافورية و سائر الأولياء و الكتّاب قد أخذت عليهم البيعة للمعز، و قصر مدّ النيل فى أيامه. فلم يبلغ تلك السنة سوى اثنى عشر ذراعا و أصابع، فاشتدّ الغلاء و فحش الموت فى الناس، حتى عجزوا عن تكفينهم و مواراتهم، و أرجف بمسير القرامطة إلى الشام، و بدت غلمانه تتنكر له، و كانوا ألفا و سبعين غلاما تركيا سوى الروم و المولدين، فمات لعشر بقين من جمادى الأوّل سنة سبع و خمسين و ثلاثمائة، عن ستين سنة، فوجد له من العين سبعمائة ألف دينار، و من الورق و الحلى و الجوهر و العنبر و الطيب و الثياب و الآلات و الفرش و الخيام و العبيد و الجوارى و الدواب ما قوّم بستمائة ألف ألف دينار،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۲

و كانت مدّة تدبيره أمر مصر و الشام و الحرمين إحدى و عشرين سنة و شهرين و عشرين يوما، منها منفردا بالولاية بعد أولاد أستاذه سنتان و أربعة أشهر و تسعة أيام، و مات عن غير وصية و لا صدقة و لا مأثرة يذكر بها، و دعى له على المنابر بالكنية التى كناه بها الخليفة، و هى أبو المسك، أربع عشرة جمعة، و بعده اختلت مصر و كادت تدمر حتى قدمت جيوش المعز على يد القائد جوهر، فصارت مصر دار خلافة، و وجد على قبره مكتوب:

ما بال قبرك يا كافور منفردابصائح الموت بعد العسكر اللجب

يدوس قبرك من أدنى الرجال و قدكانت أسود الشرى تخشاك فى الكثب

و وجد أيضا مكتوب:

انظر إلى غير الأيام ما صنعتأفنت أناسا بها كانوا و ما فنيت

دنياهم أضحكت أيام دولتهمحتى إذا فنيت ناحت لهم و بكت

خط الخرشتف: هذا الخط فيما بين حارة برجوان و الكافورى، و يتوصل إليه من بين القصرين، فيدخل له من قبو يعرف بقبو الخرشتف، و هو الذى كان يعرف قديما بباب التبانين، و يسلك من الخرشتف إلى خط باب سرّ المارستان، و إلى حارة زويلة، و كان موضع الخرشتف فى أيام الخلفاء الفاطميين ميدانا بجوار القصر الغربىّ و البستان الكافورىّ، فلما زالت الدولة اختطّ و صار فيه عدّة مساكن، و به أيضا سوق، و إنما سمّى بالخرشتف لأنّ المعز أوّل من بنى فيه الاصطبلات بالخرشتف، و هو ما يتحجر مما يوقد به على مياه الحمامات من الأزبال و غيرها. قال ابن عبد الظاهر: الحارة المعروفة بالخرشتف كانت قديما ميدانا للخلفاء، فلما ورد المعز بنوا به اصطبلات و كذلك القصر الغربىّ، و قد كان النساء اللاتى أخرجن من القصر يسكنّ بالقصر النافعى، فامتدّت الأيدى إلى طوبه و أخشابه، و بيعت و تلاشى حاله و بنى به و بالميدان اصطبلات و دويرات بالخرشتف، فسمى بذلك، ثم بنى به الأدر و الطواحين و

غيرها، و ذلك بعد الستمائة، و أكثر أراضى الميدان حكر للأدر القطبية.

خط اصطبل القطبية : هذا الخط أيضا من جملة أراضى الميدان، و لما انتقلت القاعة التى كانت سكن أخت الحاكم بأمر اللّه بعد زوال الدولة الفاطمية، صارت إلى الملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب، فاستقرّ بها هو و ذريته، فصار يقال لها الدار القطبية، و اتخذ هذا المكان اصطبلا لهذه القاعة، فعرف باصطبل القطبية، ثم لما أخذ الملك المنصور قلاوون القاعة القطبية من مونسة خاتون، المعروفة بدار إقبال ابنة الملك العادل أبى بكر ابن أيوب، أخت المفضل قطب الدين أحمد المعروفة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۳

بخاتون القطبية، و عملها المارستان المنصورى، بنى فى هذا الإصطبل المساكن، و صارت من جملة الخطط المشهورة، و يتوصل إليه من وسط سوق الخرشتف، و يسلك فيه من آخره إلى المدرسة الناصرية و المدرسة الظاهرية المستجدّة، و عمل على أوّله دربا يغلق و هو خط عامر.

خط باب سر المارستان: هذا الخط يسلك إليه من الخرشتف، و يصير السالك فيه إلى البندقانيين، و بعض هذا الخط و هو جله و معظمه من جملة اصطبل الجميزة الذى كان فيه خيول الدولة الفاطمية، و قد تقدّم ذكره. و موضع باب سر المارستان المنصورى هو باب الساباط، فلما زالت الدولة و اختط الكافورى و الخرشتف و اصطبل القطبية، صار هذا الخط واقعا بين هذه الأخطاط، و نسب إلى باب سر المارستان لأنه من هنالك، و أدركت بعض هذه الخطة و هى خراب، ثم أنشأ فيه القاضى جمال الدين محمود القيصرى محتسب القاهرة فى أيام ولايته. نظر المارستان، فى سنة إحدى و ثمانين و سبعمائة، الطاحون العظيمة ذات الأحجار، و الفرن و الربع، علوه فى المكان الخراب، و جعل ذلك جاريا فى جملة أوقاف المارستان المنصورى.

خط بين القصرين: هذا الخط أعمر أخطاط القاهرة و أنزهها، و قد كان فى الدولة الفاطمية فضاء كبيرا و براحا واسعا، يقف فيه عشرة آلاف من العسكر ما بين فارس و راجل، و يكون به طرادهم و وقوفهم للخدمة، كما هو الحال اليوم فى الرميلة تحت قلعة الجبل، فلما انقضت أيام الدولة الفاطمية و خلت القصور من أهاليها، و نزل بها أمراء الدولة الأيوبية و غيروا معالمها، صار هذا الموضع سوقا مبتذلا بعد ما كان ملاذا مبجلا، و قعد فيه الباعة بأصناف المأكولات، من اللحمان المتنوّعة و الحلاوات المصنعة و الفاكهة و غيرها، فصار منتزها تمر فيه أعيان الناس و أماثلهم فى الليل مشاة، لرؤية ما هناك من السرج و القناديل الخارجة عن الحدّ فى الكثرة، و لرؤية ما تشتهى الأنفس و تلذ الأعين، مما فيه لذة للحواس الخمس، و كانت تعقد فيه عدّة حلق لقراءة السير و الأخبار و إنشاد الأشعار، و التفنن فى أنواع اللعب و اللهو، فيصير مجمعا لا يقدّر قدره، و لا يمكن حكاية و صفه، و سأتلو عليك من أنباء ذلك ما لا تجده مجموعا فى كتاب.

قال المسبّحى فى حوادث جمادى الآخرة سنة خمس و تسعين و ثلثمائة: و فيه منع كل أحد ممن يركب مع المكاريين أن يدخل من باب القاهرة راكبا، و لا المكاريين أيضا بحميرهم، و لا يجلس أحد على باب الزهومة من التجار و غيرهم، و لا يمشى أحد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۴

ملاصق القصر من باب الزهومة إلى أقصى باب الزمرّد ، ثم عفى عن المكاريين بعد ذلك و كتب لهم أمان قرىء.

و قال ابن الطوبر: و يبيت خارج باب القصر كل ليلة خمسون فارسا، فإذا أذّن بالعشاء الآخرة داخل القاعة، و صلّى الإمام الراتب بها بالمقيمين فيها من الأستاذين و غيرهم، وقف على باب القصر أمير يقال له سنان الدولة ابن الكركندى، فإذا علم بفراغ الصلاة أمر بضرب النوبات، من الطبل و البوق و توابعهما من عدّة وافرة بطريق مستحسنة ساعة زمانية، ثم يخرج بعد ذلك أستاذ برسم هذه الخدمة، فيقول: أمير المؤمنين يردّ على سنان الدولة السلام، فيصقع و يغرس حربة على الباب ثم يرفعها بيده، فإذا رفعها أغلق الباب و سار إلى حوالى القصر سبع دورات، فإذا انتهى ذلك جعل على الباب البياتين و الفرّاشين المقدّم ذكرهم، و أفضى المؤذنون إلى خزانتهم هناك، و رميت السلسلة عند المضيق آخر بين القصرين من جانب السيوفيين، فينقطع المار من ذلك المكان إلى أن تضرب

النوبة سحرا قريب الفجر، فتنصرف الناس من هناك بارتفاع السلسلة. انتهى.

و أخبرنى المشيخة أنه ما زال الرسم إلى قريب، أنه لا يمرّ بشارع بين القصرين حمل تبن و لا حمل حطب، و لا يستطيع أحد أن يسوق فرسا فيه، فإن ساق أحد أنكر عليه و خرق به.

و قال ابن سعيد فى كتاب المغرب: و المكان الذى كان يعرف فى القاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطانىّ، لأنّ هناك ساحة متسعة للعسكر و المتفرّجين ما بين القصرين، و لو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية.

و قال ياقوت: و بين القصرين كان ببغداد بباب الطاق، يراد به قصر أسماء بنت المنصور، و قصر عبد اللّه بن المهدى، و كان يقال لهما أيضا بين القصرين. و بين القصرين بمصر و القاهرة، و هما قصران متقابلان بينهما طريق العامّة و السوق، عمرهما ملوك مصر المغاربة المتعلونة، الذين ادّعوا أنهم علويّة.

و حدّثنى الفاضل الرئيس تقىّ الدين عبد الوهاب، ناظر الخواص الشريفة، ابن الوزير الصاحب فخر الدين عبد اللّه بن أبى شاكر، أنه كان يشترى فى كل ليلة من بين القصرين بعد العشاء الآخرة، برسم الوزير الصاحب فخر الدين عبد اللّه بن خصيب، من الدجاج المطجن و القطا و فراخ الحمام و العصافير المقلاة بمبلغ مائتى درهم، و خمسين درهما فضة، يكون عنها يومئذ نحو من اثنى عشر مثقالا من الذهب، و أنّ هذا كان دأبه فى كل ليلة، و لا يكاد مثل هذا مع كثرته لرخاء الأسعار يؤثر نقصه، فيما كان هنالك من هذا الصنف، لعظم ما كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۵

يوضع فى بين القصرين من هذا النوع و غيره، و لقد أدركنا فى كل ليلة من بعد العصر يجلس الباعة بصنف لحمان الطيور التى تقلى صفا، من باب المدرسة الكاملية إلى باب المدرسة الناصرية، و ذلك قبل بناء المدرسة الظاهرية المستجدّة، فيباع لحم الدجاج المطجن، و لحم الأوز المطجن، كلّ رطل بدرهم، و تارة بدرهم و ربع، و تباع العصافير المقوّة كل عصفور بفلس، حسابا عن كل أربعة و عشرين بدرهم، و المشيخة تقول إنّا حينئذ فى غلاء، لكثرة ما تصف من سعة الأرزاق و رخاء الأسعار فى الزمن الذى أدركوه قبل الفناء الكبير، و مع ذلك فلقد وقع فى سنة ست و ثمانين شىء لا يكاد يصدّقه اليوم من لم يدرك ذلك الزمان، و هو أنّه: كان لنا من جيراننا بحارة برجوان، شخص يعانى الجندية، و يركب الخيل، فبلغنى عن غلامه أنّه خرج فى ليلة من ليالى رمضان، و كان رمضان إذ ذاك فى فصل الصيف، و معه رقيق له من غلمان الخيل، و أنهما سرقا من شارع بين القصرين، و ما قرب منه، بضعا و عشرين بطيخة خضراء، و بضعا و ثلاثين شقفة جبن، و الشقفة أبدا من نصف رطل إلى رطل، فما منّا إلّا من تعجب من ذلك، و كيف تهيأ لاثنين فعل هذا، و حمل هذا القدر يحتاج إلى دابتين، إلى أن قدّر اللّه تعالى لى بعد ذلك أن اجتمعت بأحد الغلامين المذكورين، و سألته عن ذلك فاعترف لى به، قلت: صف لى كيف عملتما، فذكر أنهما كانا يقفان على حانوت الجبان، أو مقعد البطيخىّ، و كان إذ ذاك يعمل من البطيخ فى بين القصرين مرصّات كثيرة جدّا، فى كل مرصّ ما شاء اللّه من البطيخ، قال: فإذا وقفنا قلب أحدنا بطيخة و قلب الآخر أخرى، فلشدّة ازدحام الناس يتناول أحدنا بطيخته بخفة يد و صناعة و يقوم، فلا يفطن به. أو يقلب أحدنا و رفيقه قائم من ورائه، و البياع مشغول البال لكثرة ما عليه من المشترين، و ما فى ذلك الشارع من غزير الناس، فيحذفها من تحته و هو جالس القرفصا، فإذا أحسّ بها رفيقه تناولها و مرّ. و كذلك كان فعلهم مع الجبانين، و كانوا كثيرا، فانظر- أعزك اللّه- إلى بضاعة يسرق منها مثل هذا القدر و لا يفطن به من كثرة ما هنالك من البضائع و لعظم الخلق.

و لقد حدّثنى غير واحد ممن قدم مع قاضى القضاة عماد الدين أحمد الكركىّ، أنّه لما قدموا من الكرك فى سنة اثنين و تسعين و سبعمائة، كادوا يذهلون عند مشاهدة بين القصرين.

و قال لى ابنه محب الدين محمد: أوّل ما شاهدّت بين القصرين، حسبت أنّ زفة أو جنازة كبيرة تمرّ من هنالك، فلما لم ينقطع المارة، سألت ما بال الناس مجتمعين للمرور من ههنا؟

فقيل لى: هذا دأب البلد دائما، و لقد كنا نسمع أنّ من الناس من يقوم خلف الشاب أو المرأة عند التمشى بعد العشاء بين القصرين و يجامع حتى يقضى و طره و هما ماشيان، من غير أن يدركهما أحد لشدّة الزحام، و اشتغال كل أحد بلهوه. و ما برحت أجد من الازدحام مشقة، حتى أفادنى بعض من أدركت أنّ من الرأى فى المشى أن يأخذ الإنسان فى مشيه نحو شماله، فإنه لا يجد من المشقة كما يجد غيره من الزحام، فاعتبرت ذلك آلاف مرّات فى عدّة سنين، فما أخطأ معى، و لقد كنت أكثر من تأمّل المارة بين القصرين، فإذا هم صفان،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۶

كلّ صف يمرّ من صوب شماله كالسيل إذا اندفع، و علّل هذا الذى أفادنى، أنّ القلب من يسار كل أحد، و الناس تميل إلى جهة قلوبهم، فلذلك صار مشيهم من صوب شمائلهم، و كذا صح لى مع طول الاعتياد. و لما حدثت هذه المحن بعد سنة ست و ثمانين و ثمانمائة، تلاشى أمر بين القصرين، و ذهب ما هناك، و ما أخوفنى أن يكون أمر القاهرة كما قيل:

هذه بلدة قضى اللّه يا صاح عليها كما ترى بالخراب

فقف العيس وقفة و ابك من كان بها من شيوخها و الشباب

و اعتبر إن دخلت يوما إليهافهى كانت منازل الأحباب

خط الخشيبة: هذا الخط يتوصل إليه من وسط سوق باب الزهومة، و يسلك فيه إلى الحارة العدوية حيث فندق الرخام برحبة بيبرس، و إلى درب شمس الدولة، و قيل له خط الخشيبة، من أجل أنّ الخليفة الظافر لما قتله نصر بن عباس و بنى على مكانه الذى دفنه فيه المسجد الذى يعرف اليوم بمسجد الخلعيين، و يعرف أيضا بمسجد الخلفاء، نصبت هناك خشبة حتى لا يمرّ أحد من هذا الموضع راكبا، فعرف بخشيبة تصغير خشبة، و ما زالت هناك حتى زالت الدولة الفاطمية، و قام السلطان صلاح الدين بسلطنة مصر، فأزال الخشيبة، و عرف هذا الخط بها إلى اليوم، و يقال له خط حمام خشيبة، من أجل الحمام التى هناك.

و لمقتل الظافر خبر يحسن ذكره هنا.

ذكر مقتل الخليفة الظافر

و كان من خبر الظافر أنه لما مات الخليفة الحافظ لدين اللّه أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر، فى ليلة الخميس، لخمس خلون من جمادى الآخرة، سنة أربع و أربعين و خمسمائة، بويع ابنه أبو المنصور إسماعيل، و لقب بالظافر بأمر اللّه، بوصية من أبيه له بالخلافة، و قام بتدبير الوزارة الأمير نجم الدين سليمان بن محمد بن مصال، فلم يرض الأمير المظفر علىّ بن السلار والى الإسكندرية و البحيرة يومئذ بوزارة ابن مصال، و حشد و سار إلى القاهرة، ففرّ ابن مصال، و استقرّ ابن السلار فى الوزارة، و تلقّب بالعادل، فجهز العساكر لمحاربة ابن مصال، فحاربته و قتل، فقوى و استوحش منه الظافر، و خاف منه ابن السلار و احترز منه على نفسه، و جعل له رجالا- يمشون فى ركابه بالزرد و الخود، و عددهم ستمائة رجل بالنوبة، و نقل جلوس الظافر من القاعة إلى الإيوان فى البراح و السعة، حتى إذا دخل للخدمة يكون أصحاب الزرد معه، ثم تأكدت النفرة بينهما فقبض على صبيان الخاص و قتل أكثرهم، و فرّق باقيهم، و كانوا خمسمائة رجل، و ما زال الأمر على ذلك إلى أن قتله ربيبه عباس بن تميم، بيد ولده نصر،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۷

و استقرّ بعده فى وزارة الظافر، و كان بين ناصر الدين نصر بن عباس الوزير، و بين الظافر، مودّة أكيدة و مخالطة، بحيث كان الظافر يشتغل به عن كل أحد، و يخرج من قصره إلى دار نصر بن عباس التى هى اليوم المدرسة السيوفية، فخاف عباس من جرأة ابنه، و خشى أن يحمله الظافر على قتله، فيقتله كما قتل الوزير على بن السلار زوج جدّته أمّ عباس، فنهاه عن ذلك و ألحف فى تأنيبه، و أفرط فى لومه، لأنّ الأمراء كانوا مستوحشين من عباس و كارهين منه تقريبه أسامة بن منقذ، لما علموه من أنه هو الذى حسّن لعباس

قتل ابن السلار كما هو مذكور فى خبره، و همّوا بقتله، و تحدّثوا مع الخليفة الظافر فى ذلك، فبلغ أسامة ما هم عليه، و كان غريبا من الدولة، فأخذ يغرى الوزير عباس بن تميم بابنه نصر، و يبالغ فى تقبيح مخالطته للظافر إلى أن قال لى مرة: كيف تصبر على ما يقول الناس فى حق ولدك، من أنّ الخليفة يفعل به ما يفعل بالنساء، فأثّر ذلك فى قلب عباس، و اتفق أنّ الظافر أنعم بمدينة قليوب على نصر بن عباس، فلما حضر إلى أبيه و أعلمه بذلك و أسامة حاضر، فقال له: يا ناصر الدين، ما هى بمهرك غالية، يعرّض له بالفحش، فأخذ عباس من ذلك ما أخذه، و تحدّث مع أسامة لثقته به فى كيفية الخلاص من هذا، فأشار عليه بقتل الظافر إذا جاء إلى دار نصر على عادته فى الليل، فأمره بمفاوضة ابنه نصر فى ذلك، فاغتنمها أسامة، و ما زال بنصر يشنع عليه و يحرّضه على قتل الظافر، حتى وعده بذلك.

فلما كان ليلة الخميس آخر المحرّم، من سنة تسع و أربعين و خمسمائة، خرج الظافر من قصره متنكرا و معه خادمان، كما هى عادته، و مشى إلى دار نصر بن عباس، فإذا به قد أعدّ له قوما، فعند ما صار فى داخل داره و ثبوا عليه و قتلوه هو و أحد الخادمين، و توارى عنهم الخادم الآخر، و لحق بعد ذلك بالقصر. ثم دفنوا الظافر و الخادم تحت الأرض، فى الموضع الذى فيه الآن المسجد، و كان سنّة يوم قتل، إحدى و عشرين سنة و تسعة أشهر و نصف، منها فى الخلافة بعد أبيه أربع سنين و ثمانية أشهر تنقص خمسة أيام، و كان محكوما عليه فى خلافته.

و فى أيامه ملك الفرنج مدينة عسقلان، و ظهر الوهن فى الدولة، و كان كثير اللهو و اللعب، و هو الذى أنشأ الجامع المعروف بجامع الفاكهيين.

و بلغ أهل القصر ما عمله نصر بن عباس من قتل الظافر، فكاتبوا طلائع بن رزبك، و كان على الأشمونين، و بعثوا إليه بشعور النساء يستصرخون به على عباس و ابنه، فقدم بالجموع، و فرّ عباس و أسامة و نصر، و دخل طلائع و عليه ثياب سود، و أعلامه و بنوده كلها سود، و شعور النساء التى أرسلت إليه من القصر على الرماح، فكان فألا عجيبا، فإنه بعد خمس عشرة سنة، دخلت أعلام بنى العباس السود من بغداد إلى القاهرة لما مات العاضد،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۸

و استبد صلاح الدين بملك ديار مصر، و كان أوّل ما بدأ به طلائع أن مضى ماشيا إلى دار نصر، و أخرج الظافر و الخادم و غسلهما و كفنهما، و حمل الظافر فى تابوت مغشّى، و مشى طلائع حافيا و الناس كلهم، حتى وصلوا إلى القصر، فصلّى عليه ابنه الخليفة الفائز و دفن فى تربة القصر.

خط سقيفة العدّاس : هذا الخط قيّما بين درب شمس الدولة و البندقانيين، كان يقال له أولا سقيفة العدّاس، ثم عرف بالصاغة القديمة، ثم عرف بالأساكفة، ثم هو الآن يعرف بالحريريين الشراريين، و بسوق الزجّاجين، و فيه يباع الزجاج. و هو خط عامر، و هذا العدّاس هو: على بن عمر بن العدّاس أبو الحسن. ضمن فى أيام المعز لدين اللّه كورة بوصير، فخلع عليه و جمله، و سار خليفته بالبنود و الطبول، فى جمادى الأولى سنة أربع و ستين و ثلثمائة.

فلما كان فى أوّل خلافة العزيز بالله بن المعز لدين اللّه، ولّاه الوساطة، و هى رتبة الوزارة، بعد موت الوزير يعقوب بن كلس، و لم يلقبه بالوزير، فجلس فى القصر لتسع عشر خلت من ذى الحجة، سنة إحدى و ثمانين و ثلثمائة، و أمر و نهى و نظر فى الأموال، و رتّب العمال، و أمر أن لا يطلق شىء إلا بتوقيعه، و لا ينفذ إلّا ما أمر به و قرّره، و أمره العزيز بالله أن لا يرتفق، أى يرتشى، و لا يرتزق، يعنى أنّه لا يقبل هدية، و لا يضيع دينارا و لا درهما، فأقام سنة و صرف فى أوّل المحرّم من سنة ثلاث و ثمانين، فقرّر فى ديوان الاستيفاء إلى أن كان جمادى الآخرة سنة ثلاث و تسعين و ثلثمائة حسن لأبى طاهر محمود النحوى الكاتب، و كان منقطعا إليه أن يلقى الحاكم بأمر اللّه، و يبلغه ما تشكوه الناس من تظافر النصارى، و غلبتهم على المملكة، و توازرهم، و أنّ فهد بن إبراهيم هو الذى يقوّى نفوسهم، و يفوّض أمر الأموال و الدواوين إليهم، و أنه آفة على المسلمين، و عدّة للنصارى، فوقف أبو طاهر للحاكم ليلا فى وقت

طوافه فى الليل، و بلّغه ذلك.

ثم قال: يا مولانا إن كنت تؤثر جمع الأموال و إعزاز الإسلام، فأرنى رأس فهد بن إبراهيم فى طشت، و إلّا لم يتم من هذا شىء.

فقال له الحاكم: و يحك، و من يقوم بهذا الأمر الذى تذكره و يضمنه.

فقال: عبدك علىّ بن عمر بن العدّاس.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۵۹

فقال: و يحك، أو يفعل هذا؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: قل له يلقانى ههنا فى غد.

و مضى الحاكم، فجاء أبو طاهر إلى ابن العدّاس و أعلمه بما جرى. فقال: و يحك قتلتنى و قتلت نفسك. فقال: معاذ اللّه، أفنصبر لهذا الكلب الكافر على ما يفعل بالإسلام و المسلمين، و يتحكم فيهم من اللعب بالأموال، و اللّه إن لم تسع فى قتله ليسعين فى قتلك، فلما كان فى الليلة القابلة وقف علىّ بن عمر العدّاس للحاكم و وافقه على ما يحتاج إليه، فوعدوه بانجاز ما اتفقا عليه، و أمر بالكتمان و انصرف الحاكم. فلما أصبح ركب العداس إلى دار قائد القوّاد حسن بن جوهر القائد، فلقى عنده فهد بن إبراهيم، فقال له فهد: يا هذا، كم تؤذينى و تقدح فىّ عند سلطانى.

فقال العداس: و اللّه ما يقدح و لا يؤذينى عند سلطانى و يسعى علىّ غيرك. فقال فهد:

سلط اللّه على من يؤذى صاحبه فينا، و يسعى به سيف هذا الإمام الحاكم بأمر اللّه.

فقال العدّاس: آمين و عجّل ذلك و لا تمهله.

فقتل فهد فى ثامن جمادى الآخرة و ضربت عنقه، و كان له منذ نظر فى الرياسة خمس سنين و تسعة أشهر و اثنى عشر يوما، و قتل العداس بعده بتسعة و عشرين يوما، و استجيب دعاء كل منهما فى الآخر، و ذهبا جميعا، و لا يظلم ربك أحدا.

و ذلك أن الحاكم خلع على العداس فى رابع عشره، و جعله مكان فهد، و خلع على ابنه محمد بن علىّ، فهناه الناس، و استمرّ إلى خامس عشرى رجب منها، فضربت رقبة أبى طاهر محمود بن النحوى، و كان ينظر فى أعمال الشام لكثرة ما رفع عليه من التجبر و العسف، ثم قتل العدّاس فى سادس شعبان سنة ثلاث و تسعين و ثلثمائة و أحرق بالنار.

خط البندقانيين: هذا الخط كان قديما إصطبل الجميزة، أحد إصطبلات الخلفاء الفاطميين، فلما زالت الدولة اختط و صارت فيه مساكن و سوق، من جملته عدّة دكاكين لعمل قسىّ البندق، فعرف الخط بالبندقانيين لذلك، ثم أنه احترق يوم الجمعة للنصف من صفر سنة إحدى و خمسين و سبعمائة و الناس فى صلاة الجمعة، فما قضى الناس الصلاة إلّا و قد عظم أمره، فركب إليه و إلى القاهرة و النيران قد ارتفع لهبها، و اجتمع الناس، فلم يعرف من أين كان ابتداء الحريق، و اتفق هبوب رياح عاصفة فحملت شرر النار إلى آمد بعيد، و وصلت أشعتها إلى أن رؤيت من القلعة، فركب الوزير منجك بمماليك الأمراء، و جمعت السقاءون لطفى النار فعجزوا عن اطفائها، و اشتدّ الأمر فركب الأمير شيخو و الأمير طاز

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۰

و الأمير مغلطاى أمير أخور، و ترجلوا عن خيولهم و منعوا النهابة من التعرّض إلى نهب البيوت التى احترقت، و عمّ الحريق دكاكين البندقانيين و دكاكين الرسامين و حوانيت الفقاعين و الفندق المجاور لها، و الربع علوّه، و عملت إلى الجانب الذى يلى بيت بيبرس ركن الدين الملقب بالملك المظفر، و الربع المجاور لعالى زقاق الكنيسة، فما زال الأمير شيخو واقفا بنفسه و مماليكه و معه الأمراء إلى أن هدم ما هنالك، و النار تأكل ما تمرّ به إلى أن وصلت إلى بئر الدلاء التى كانت تعرف قديما ببئر زويلة ، و منها كان يستقى لأصطبل الجميزة، فأحرقت ما جاور البئر من الأماكن إلى حوانيت الفكاه و الطباخ و ما يجاورهما من الحوانيت. و الربع المجاور لدار

الجو كندار، و كادت أن تصل إلى دار القاضى علاء الدين علىّ بن فضل اللّه كاتب السرّ، المجاورة لحمام الشيخ نجم الدين ابن عبود، و لم يبق أحد فى ذلك الخط حتى حوّل متاعه خوفا من الحريق، فكان أهل البيت بينما هم فى نقل ثيابهم، و إذا بالنار قد أحاطت بهم فيتركون ما فى الدار و ينجون بأنفسهم، و الأمر يعظم و الهدم واقع فى الدور المجاورة لأماكن الحريق، خشية من تعلق النار بها، فسرى إلى جميع البلد إلى أن أتى الهدم على سائر ما كان هنالك، فأقام الأمر كذلك يومين و ليلتين و الأمراء وقوف، فلما خفّ انصرف الأمراء و وقف والى القاهرة و معه عدّة من الأمراء لطفى ما بقى، فاستمرّوا فى طفئه ثلاثة أيام أخر، و كان المصاب بهذا الحريق عظيما، تلف فيه للناس من المال و الثياب و المصاغ و غيره بالحريق و النهب ما لا يعلم قدره إلا اللّه، هذا مع ما كان فيه الأمراء من منع النّهابة و كفهم عن أموال الناس، إلا أنّ الأمر كان قد تجاوز الحدّ، و عطب بالنار جماعة كثيرة، و وصل حريق النار إلى قيسارية طشتمر و ربع بكتمر الساقى، فلما كفى اللّه أمر هذا الحريق، و أعان على طفئه بعد أن هدمت عدّة أماكن جليلة، ما بين رباع و حوانيت، وقع الحريق فى أماكن من داخل القاهرة و خارج باب زويلة ، و وجد فى بعض المواضع التى بها الحريق كعكات بزيت و قطران، فعلم أن هذا من فعل النصارى، كما وقع فى الحريق الذى كان فى أيام الملك الناصر، و قد ذكر فى خبر السيرة الناصرية، فنودى فى الناس أن يحترسوا على مساكنهم، فلم يبق أحد من الناس أعلاهم و أدناهم حتى أعدّ فى داره أوعية ملانة بالماء، ما بين أحواض و أزيار، و صاروا يتناوبون السهر فى الليل، و مع ذلك فلا يدرى أهل البيت إلّا و النار قد وقعت فى بيتهم، فيتداركون طفئها لئلا تشتعل و يصعب أمرها. و ترك جماعة من الناس الطبخ فى الدور، و تمادى ذلك فى الناس من نصف صفر إلى عاشر ربيع الأوّل، فأحضر الأمير سيف الدين تشتمرشاد الدواوين نشابة فى وسطها نقط قد وجدها فى سطح داره، فأراها للأمراء و هى محروقة النصل، فصدر أمر الوزير منجك للأمير علاء الدين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۱

علىّ بن الكورانى والى القاهرة، بالقبض على الحرافيش و تقييدهم و سجنهم، خوفا من غائلهم و نهبهم الناس عند وقوع الحريق، فتتبعهم و قبض عليهم فى الليل من بيوتهم و من الحوانيت، حتى خلت السكك، منهم.

ثم إن الأمراء كلموا الوزير فى أمرهم، فأمر بإطلاقهم، و نودى فى البلد أن لا يقيم فيها غريب، و طلبوا الخفراء و ولاة المراكز و أمروا بالاحتفاظ و تتبع الناس، و أخذ من تتوهم فيه ريبة أو يذكر بشىء من أمر هذا، و الحريق أمره فى تزايد، و صاروا إلى القاهرة من ذلك فى تعب كبير لا ينام هو و لا أعوانه فى الليل البتة لكثرة الضجات فى الليل، و وقع حريق فى شونة حلفاء بمصر مجاورة لمطابخ السكر السلطانية، فركب القاضى علم الدين بن زنبور ناظر الخاص فى جماعة، و خرج عامّة أهل مصر، و تكاثروا على الشونة حتى طفئت، و وقع الحريق فى عدّة أماكن بمصر، و استمرّ للحريق بمصر و القاهرة مدّة شهر، من ابتدائه بالبندقانيين، و لم يعلم له سبب. و استمرّ كثر خط البندقانيين خرابا إلى أن عمر الأمير يونس النوروزىّ، دوادار الملك الظاهر برقوق، الربع فوق بئر الدلاء التى كانت تعرف ببئر زويلة، و أنشأ بجوار درب الأنجب الحوانيت و الرباع و القياسرية، فى سنة تسع و ثمانين و سبعمائة.

ثم أنشأ الأمير شهاب الدين أحمد الحاجب ابن أخت الأمير جمال الدين يوسف الاستادار، داره بجوار حمام ابن عبود، فاتصل ظهرها بدكاكين البندقانيين، فصار فيها ما كان من خراب الحريق هناك، حيث الحوض الذى أنشأه تجاه دار ببيرس. و لقد أدركنا فى خط البندقانيين عدّة كثيرة من الحوانيت التى يباع فيها الفقاع، تبلغ نحو العشرين حانوتا، و كانت من أنزه ما يرى فإنها، كانت كلها مرخمة بأنواع الرخام الملوّن، و بها مصانع من ماء تجرى إلى فوّارات تقذف بالماء على ذلك الرخام، حيث كيزان الفقاع مرصوصة فيستحسن منظرها إلى الغاية، لأنها من الجانبين، و الناس يمرّون بينهما، و كان بهذا الخط عدّة حوانيت لعمل قسىّ البندق، و عدّة حوانيت لرسم إشكال ما يطرّز بالذهب و الحرير، و قد بقيت من هذه الحوانيت بقايا يسيرة، و هو من اخطاط القاهرة الجسيمة.

خط دار الديباج: هذا الخط هو فيما بين خط البندقانيين و الوزيرية، و كان أوّلا يعرف بخط دار الديباج، لأن دار الوزير يعقوب بن كلس التى من جملتها اليوم المدرسة الصاحبية و درب الحريرى و المدرسة السيفية، عملت دارا ينسج فيها الديباج و الحرير برسم

الخلفاء الفاطميين، و صارت تعرف بدار الديباج، فنسب إليها الخط إلى أن سكن هناك الوزير صفىّ الدين عبد اللّه بن علىّ بن شكر، فى أيام العادل أبى بكر بن أيوب، فصار يعرف بخط سويقة الصاحب، و هو خط جسيم به مساكن جليلة و سوق و مدرسة.

خط الملحيين: هذا الخط فيما بين الوزيرية و البندقانيين من وراء دار الديباج، و تسميه العامّة خط طواحين الملوحيين بواو بعد اللام و قبل الحاء المهملة، و هو تحريف، و إنما هو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۲

خط الملحيين، عرف بطائفة من طوائف العسكر فى أيام الخليفة المستنصر بالله يقال لها الملحية، و هم الذى قاموا بالفتنة فى أيام المستنصر إلى أن كان من الغلاء ما أوجب خراب البلاد و نهب خزائن الخليفة المستنصر، فلما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى إلى القاهرة و تقلد وزارة المستنصر، و تجرد لإصلاح إقليم مصر، و تتبع المفسدين و قتلهم و سار فى سنة سبع و ستين و أربعمائة إلى الوجه البحرىّ و قتل لواته، و قتل مقدّمهم سليمان اللواتى و ولده، و استصفى أموالهم ثم توجه إلى دمياط و قتل فيها عدّة من المفسدين، فلما أصلح جميع البرج الشرقىّ عدّى إلى البرّ الغربىّ، و قتل جماعة من الملحية و أتباعهم بثغر الإسكندرية بعد ما أقام أياما محاصر البلد و هم يمتنعون عليه و يقاتلونه إلى أن أخذها عنوة، فقتل منهم عدّة كثيرة، و كان بهذا الخط عدّة من الطواحين، فسمى بخط طواحين الملحيين، و به إلى الآن يسير من الطواحين.

خط المسطاح: هذا الخط فيما بين خط الملحيين و خط سويقة الصاحب، و فيه اليوم سوق الرقيق الذى يعرف بسوق الحوار و المدرسة الحسامية و ما دار به، و يعرف بالمسطاح، و بخارج باب القنطرة قريب من باب الشعرية أيضا خط يعرف بالمسطاح.

خط قصر أمير سلاح: هذا الخط تجاه حمام البيسرى بين القصرين، يسلك فيه إلى مدرسة الطواشى سابق الدين، المعروفة بالسابقية، و كان يخرج منه إلى رحبة باب العيد من باب القصر، إلى أن هدمه الأمير جمال الدين يوسف الاستادار، و بنى فى مكانه القيسارية المستجدّة بجوار مدرسته من رحبة باب العيد، فصار هذا الخط غير نافذ، و كان شارعا مسلوكا يمرّ فيه الناس و الدواب بالأحمال، فركب عليه جمال الدين المذكور دروبا لحفظ أمواله، و كان هذا الخط من أخص أماكن القصر الكبير الشرقى، فلما زالت الدولة الفاطمية و تفرّق أمراء صلاح الدين يوسف القصر، عرف هذا المكان بقصر شيخ الشيوخ بن حمويه الوزير لسكنه فيه، ثم عرف بعد ذلك بقصر أمير سلاح، و بقصر سابق الدين، و هو إلى الآن يعرف بذلك، و سبب شهرته بأمير سلاح أنه اتخذ به عمائر جليلة هى بيد ورثته إلى الآن، و أمير سلاح هذا هو بكتاش الفخرىّ الأمير بدر الدين أمير سلاح الصالحى النجمى، كان أوّلا مملوكا لفخر الدين ابن الشيخ، فصار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، و تقدّم عنده من جملة من قدّمه من المماليك البحرية الذين ملكوا الديار المصرية من بعد انقضاء الدولة الأيوبية، و تأمّر فى أيام الملك الصالح، و تقدّم فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، و استمر أميرا ما ينيف على الستين سنة، لم ينكب فيها قط، و عظم فى أيام الملك المنصور قلاون الألفىّ، بحيث أنّ الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۳

بديار مصر فى أيام قلاون، تجارى مرّة مع السلطان فى حديث الأمراء، فقال له المنصور:

أما اليوم فما بقى فى الأمراء خير أمير سلاح إذا قلت فارس خيل شجاع، ما يردّ وجهه من عدوّه، و إذا حلف ما يخون، و إذا قال صدق. فقال طرنطاى و اللّه يا خوند، له إقطاع عظيم ما كان يصلح إلّا لى. فاحمرّ وجه السلطان و غضب و قال له: و يلك إيّاك أن تتكلم بهذا، و اللّه مكان يصل فيه سيف أمير سلاح ما يصل نشابك و لا نشاب غيرك، و كان كريما شجاعا يسافر كل سنة مجرّدا بالعسكر فيصل إلى حلب للغارة و محاصرة قلاع العدوّ، فاشتهر بذلك فى بلاد العدو و عظم صيته و اشتدّت مهابته، و كانت له رغبة فى شراء المماليك و الخيول بأغلى القيم، و كان يبعث للأمراء المجرّدين معه النفقة، و يقوم لهم بالشعير و الأغنام، و بلغت مماليكه الغاية فى الحشمة، و كان إقطاع كل منهم فى السنة عشرين ألف درهم فضة، عنها يومئذ ألف مثقال من الذهب، و لكل من جنده خبز

مبلغه فى السنة عشرة آلاف درهم، سوء كلفهم من الشعير و اللحم، و مع ذلك فكان خيرا ديّنا له صدقات و معروف و إحسان كثير، و مات بعد ما ترك أمرته فى مرضه الذى ما فيه، للنصف من ربيع الآخر سنة ست و سبعمائة رحمه اللّه. و بهذا الخط عدّة دور جليلة يأتى ذكرها عند ذكر الدور من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

أولاد شيخ الشيوخ: جماعة أصلهم الذى ينتسبون إليه حمويه بن علىّ، يقال أنه من ولد رزم بن يونان، أحد قوّاد كسرى أنوشروان، و ولى قيادة جيش نصر بن نوح بن سامان، و دبر دولته، و هو جدّ شيخ الإسلام محمد، و أخيه أبى سعد بنى حمويه بن محمد بن حمويه، و كان محمد و أبو سعد من ملوك خراسان، فتركا الدنيا و أقبلا على طريق الآخرة، و مات ركب الإسلام أبو سعد بنجران من قرى جوين فى سنة سبع و عشرين و خمسمائة، و مات أخوه شيخ الإسلام محمد بها فى سنة ثلاثين و خمسمائة، و ترك أبو سعد، زيد الدين أحمد و بنات، و ترك شيخ الإسلام محمد ولدا واحدا، و هو أبو الحسن علىّ، فتزوّج علىّ بن محمد بابنة عمه أبى سعد و رزق منها سعد الدين، و معين الدين حسنا، و عماد الدين عمر، و ترك زين الدين أحمد بن أبى سعد، ركن الدين أبا سعد، و عزيز الدين، و زين الدين القاسم، فقدّم عماد الدين عمر بن على بن محمد بن حمويه إلى دمشق، و صار شيخ الشيوخ بها، و قدم عليه ابنه شيخ الشيوخ صدر الدين علىّ، فلما مات عمر فى رجب سنة سبع و سبعين و خمسمائة بدمشق، أقرّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولده صدر الدين محمدا موضعه، و صار شيخ الشيوخ بدمشق، فتزوّج بابنة القاضى شهاب الدين ابن أبى عصرون، و رزق منها عشرة بنين، منهم عماد الدين عمر، و فخر الدين يوسف، و كمال الدين أحمد، و معين الدين حسن، فأرضعت أمّهم بنت أبى عصرون السلطان الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، فصار أخا لأولاد صدر الدين شيخ الشيوخ من الرضاعة، و قدم صدر الدين إلى القاهرة و ولى تدريس الشافعىّ بالقرافة، و مشيخة الخانقاه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۴

الصلاحية سعيد السعدا، ثم سافر فمات بالموصل فى رابع عشر جمادى الأولى سنة سبع عشرة و ستمائة، و استبدّ الملك الكامل بمملكة مصر بعد أبيه، فرقّى أولاد صدر الدين شيخ الشيوخ محمد بن جويه الأربعة، و بعث عماد الدين عمر فى الرسالة إلى الخليفة ببغداد، و جمع له بين رياسة العلم و القلم فى سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة، و لم يجتمع ذلك لأحد فى زمانه، و ما زال على ذلك إلى أن مات الملك الكامل، و قام من بعده فى سلطنة مصر ابنه الملك العادل أبو بكر بن الكامل، فخرج إلى دمشق ليحضر إليه الجواد مظفر الدين يونس بن مردود بن العادل أبى بكر بن أيوب نائب السلطنة بدمشق، فدسّ عليه من قتله على باب الجامع فى سادس عشرى جمادى الآخرة سنة ست و ثلاثين و ستمائة.

و أما فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ صدر الدين فإن الملك الكامل جعله أحد الأمراء، و ألبسه الشربوش و القباء و نادمه و بعثه فى الرسالة عنه إلى ملك الفرنج، ثم إلى أخيه المعظم بدمشق، ثم إلى الخليفة ببغداد، و أقامه يتحدّث بمصر فى تدبير المملكة و تحصيل الأموال، ثم بعثه حتى تسلم حران و الرها، و جهزه إلى مكة على عسكر فقاتل صاحبها الأمير راجح الدين بن قتادة، و أخذها بالسيف، و قتل عسكر اليمن، و ما زال مكرّما محترما حتى مات الملك الكامل، فقبض عليه العادل ابن الكامل و اعتقله، فلما خلع العادل بأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب أطلقه و أمّره و بالغ فى الإحسان إليه، و بعثه على العساكر إلى الكرك، فأوقع بالخوارزمية و بدّد شملهم و كانوا قد قدموا من المشرق إلى غزة، و أقام الدعوة للصالح فى بلاد الشام و عاد، ثم قدّمه على العساكر فأخذ طبرية من الفرنج و هدمها، و أخذ عسقلان من الفرنج و هدم حصونها، و نازل حمص حتى أشرف على أخذها، ثم تقدّم على العساكر بقتال الفرنج بدمياط، فمات السلطان عند المنصورة، و قام بتدبير الدولة بعده خمسة و سبعين يوما إلى أن استشهد فى رابع ذى القعدة سنة سبع و أربعين و ستمائة، فحمل من المنصورة إلى القرافة فدفن بها.

و أما كمال الدين أحمد، فإن الملك الكامل استنابه بحران و الجزيرة، و ولى تدريس المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر، و تدريس الشافعىّ بالقرافة، و مشيخة الشيوخ بديار مصر، و قدّمه الملك الصالح نجم الدين أيوب على العساكر غير مرّة، و مات بغزة

فى صفر سنة تسع و ثلاثين و ستمائة.

و أما معين الدين حسن فإنه ولىّ مشيخة الشيوخ بديار مصر، و بعثه الملك الكامل فى الرسالة عنه إلى بغداد، ثم أقامه نائب الوزارة إلى أن مات، فاستوزره الملك الصالح نجم الدين أيوب فى ذى القعدة، سنة سبع و ثلاثين و ستمائة، و جهّزه على العساكر فى هيئة الملوك إلى دمشق، فقاتل الصالح إسماعيل ابن العادل حتى ملكها، و مات بها فى ثانى عشرى رمضان سنة ثلاث و أربعين و ستمائة، و قد ذكرت أولاد شيخ الشيوخ فى كتاب تاريخ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۵

مصر الكبير، و استقصيت فيه أخبارهم و اللّه تعالى أعلم.

خط قصر بشتاك: هذا الخط من جملة القصر الكبير، و يتوصل إليه من تجاه المدرسة الكاملية حيث كان باب القصر المعروف بباب البحر، و هدمه الملك الظاهر بيبرس كما تقدّم فى ذكر أبواب القصر، و صار اليوم فى داخل هذا الباب حارة كبيرة فيها عدّة دور جليلة، منها قصر الأمير بشتاك، و به عرف هذا الخط.

و بشتاك هذا: هو الأمير سيف الدين بشتاك الناصرى، قرّبه الملك الناصر محمد بن قلاون، و أعلى محله، و كان يسميه بعد موت الأمير بكتمر الساقى بالأمير فى غيبته، و كان زائد التيه لا يكلم استاداره و كاتبه الأبتر جان، و يعرف بالعربىّ و لا يتكلم به، و كان إقطاعه ست عشرة طبلخانة أكبر من إقطاع قوصون، و لما مات بكتمر الساقى ورثه فى جميع أحواله و اصطبله الذى على بركة الفيل، و فى امرأته أمّ أحمد، و اشترى جاريته خوبى بستة آلاف دينار، و دخل معها ما قيمته عشرة آلاف دينار، و أخذ ابن بكتمر عنده و زاد أمره و عظم محله، فثقل على السلطان و أراد الفتك به، فما تمكن، و توجه إلى الحجاز و أنفق فى الأمراء و أهل الركب و الفقراء و المجاورين بمكة و المدينة شيأ كثيرا إلى الغاية، و أعطى من الألف دينار إلى المائة دينار إلى الدينار، بحسب مراتب الناس و طبقاتهم، فلما عاد من الحجاز لم يشعر به السلطان إلّا و قد حضر فى نفر قليل من مماليكه و قال: إن أردت إمساكى فها أنا قد جئت إليك برقبتى، فغالطه السلطان و طيب خاطره، و كان يرمى بأوابد و دواهى من أمر الزنا و جرّده السلطان لإمساك تنكر نائب الشام، فحضر إلى دمشق بعد إمساكه هو و عشرة من الأمراء، فنزلوا القصر الأبلق، و حلف الأمراء كلهم للسلطان و لذريته، و استخرج و دائع تنكر و عرض حواصله و مماليكه و جواريه و خيله و سائر ما يتعلق به، و وسط طغاى و حفاى مملوكى تنكر فى سوق الخيل، و وسط دران أيضا بحضوره يوم الموكب، و أقام بدمشق خمسة عشر يوما و عاد إلى القلعة و بقى فى نفسه من دمشق و ما تجاسر يفاتح السلطان فى ذلك، فلما مرض السلطان و أشرف على الموت، ألبس الأمير قوصون مماليكه، فدخل بشتاك، فعرف السلطان ذلك، فجمع بينهما و تصالحا قدّامه، و نص السلطان على أن الملك بعده لولده أبى بكر، فلم يوافق بشتاك و قال: لا أريد إلّا سيدى أحمد، فلما مات السلطان قام قوصون إلى الشباك و طلب بشتاك و قال له: يا أمير المؤمنين أناما يجىء منى سلطان، لأنى كنت أبيع الطسما و البرغالى و الكشاتوين، و أنت اشتريت منى، و أهل البلاد يعرفون ذلك، و أنت ما يجىء منك سلطان، لأنك كنت تبيع البوز و أنا اشتريت منك، و أهل البلاد يعرفون ذلك، و هذا أستاذنا هو الذى وصى لمن هو أخبر به من أولاده، و ما يسعنا إلّا امتثال أمره حيا و ميتا و أنا ما أخالفك إن أردت أحمد أو غيره، و لو أردت أن تعمل كل يوم سلطانا ما خالفتك. فقال بشتاك: هذا كله صحيح، و الأمر أمرك، و احضر المصحف و حلفا عليه و تعانقا، ثم قاما إلى رجلى السلطان فقبلاهما، و وضعا أبا بكر ابن السلطان على الكرسىّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۶

و قبلا له الأرض و حلفا له، و تلقب بالملك المنصور، ثم إن بشتاكا طلب من السلطان الملك المنصور نيابة دمشق، فأمر له بذلك.

و كتب تقليده و برز إلى ظاهر القاهرة و أقام يومين، ثم طلع فى اليوم الثالث إلى السلطان ليودّعه، فوثب عليه الأمير قطلوبغا الفخرىّ و أمسك سيفه و تكاثروا عليه فأمسكوه و جهزوه إلى الإسكندرية، فاعتقل بها، ثم قتل فى الخامس من ربيع الأوّل سنة اثنين و أربعين و سبعمائة، لأوّل سلطنة الملك الأشرف كجك، و كان شابا أبيض اللون ظريفا مديد القامة نحيفا، خفيف اللحية كأنها عذار، على

حركاته رشاقة حسن العمة يتعمم الناس على مثالها، و كان يشبّه بأبى سعيد ملك العراق إلّا أنه كان غير عفيف الفرج زائد الهرج و المرج لم يعف عن مليحة و لا قبيحة، و لم يدع أحدا يفوته، حتى يمسك نساء الفلاحين و زوجات الملاحين.

و اشتهر بذلك و رمى فيه بأوابد، و كان زائد البذخ منهمكا على ما يقتضيه عنفوان الشبيبة، كثير الصلف و التيه، لا يظهر الرأفة و لا الرحمة فى تأنيه، و لما توجه بأولاد السلطان ليفرّجهم فى دمياط كان يذبح لسماطه فى كل يوم خمسين رأسا من الغنم و فرسا لا بدّ منه، خارجا عن الأوز و الدجاج، و كان راتبه دائما كل يوم من الفحم برسم المشوى مبلغ عشرين درهما، عنها مثقال ذهب، و ذلك سوى الطوارىء، و أطلق له السلطان كل يوم بقجة قماش من اللفافة إلى الخف إلى القميص و اللباس و الملوطة و البغلطاق و القباء الفوقانى بوجه اسكندرانى على سنجاب طريق مطرّز مزركش رقيق، و كلوته و شاش، و لم يزل يأخذ ذلك كل يوم إلى أن مات السلطان، و أطلق له فى يوم واحد عن ثمن قرية تبنى بساحل الرملة مبلغ ألف درهم فضة، عنها يومئذ خمسون ألف مثقال من الذهب، و هو أوّل من أمسك بعد موت الملك الناصر. و قال الأديب المؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى و من كتابه نقلت ترجمة بشتاك:

قال الزمان و ما سمعنا قولهو الناس فيه رهائن الأشراك

من ينصر المنصور من كيدى و قدصاد الردى بشتاك لى بشراك

خط باب الزهومة: هذا الخط عرف بباب الزهومة، أحد أبواب القصر الكبير الشرقى الذى تقدّم ذكره، فإنه كان هناك، و قد صار الآن فى هذا الخط سوق و فندق و عدّة آدر، يأتى ذكر ذلك كله فى موضعه إن شاء اللّه تعالى.

خط الزراكشة العتيق: هذا الخط فيما بين خط باب الزهومة و خط السبع خوخ، و بعضه من دار العلم الجديدة، و بعضه من جملة القصر النافعى، و بعضه من تربة الزعفران، و فيه اليوم فندق المهمندار الذى يدق فيه الذهب، و خان الخليلى، و خان منجك، و دار خواجا، و درب الحبش، و غير ذلك، كما ستقف عليه إن شاء اللّه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۷

خط السبع خوخ العتيق : هذا الخط فيما بين خط اصطبل الطارمة و خط الزراكشة العتيق، كان فيه قديما أيام الخلفاء الفاطميين سبع خوخ يتوصل منها إلى الجامع الأزهر، فلما انقضت أيامهم اختط مساكن و سوقا يباع فيه الإبر التى يخاط بها و غير ذلك، فعرف بالأبّارين.

خط اصطبل الطارمة : هذا الخط كان اصطبلا لخاص الخليفة يشرف عليه قصر الشوك و القصر النافعى، و قد تقدّم الكلام عليه، و كانت فيه طارمة يجلس الخليفة تحتها، فعرف بذلك، ثم هو الآن حارة كبيرة فيها عدّة من المساكن و به سوق و حمّام و مساجد، و هذا الخط فيما بين رحبة قصر الشوك و رحبة الجامع الأزهر، كما ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى فى ذكر الرحاب.

خط الأكفانيين: هذا الخط كان يعرف بخط الخرقيين جمع خرقة .

خط المناخ: هذا الخط فيما بين البرقية و العطوفية، كان مواضع طواحين القصر و قد تقدّم ذكره، ثم اختط بعد ذلك و صار حارة كبيرة، و هو الآن متداع للخراب.

خط سويقة أمير الجيوش: كان حارة الفرحية، و سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى فى الأسواق، و هذا الخط فيما بين حارة برجوان و خط خان الوراقة.

خط دكة الحسبة: هذا الخط يعرف اليوم بمكسر الحطب، و فيه سوق الأبازرة و هو فيما بين البندقانيين و المحمودية، و فيه عدّة أسواق و دور.

خط الفهادين: هذا الخط فيما بين الجوانية و المناخ.

خط خزانة البنود: هذا الخط فيما بين رحبة باب العيد و رحبة المشهد الحسينى، و كان موضعه خزانة تعرف بخزانة البنود، و كان أوّلا

يعمل فيها السلاح، ثم صارت سجنا لأمراء الدولة و أعيانها، ثم أسكن فيها الفرنج إلى أن هدمها الأمير الحاج آل ملك، و حكر مكانها فبنى فيه الطاحون و المساكن كما تقدّم.

خط السفينة: هذا الخط فيما بين درب السلاحى من رحبة باب العيد، و بين خزانة البنود، كان يقف فيه المتظلمون للخليفة كما تقدّم ذكره، ثم اختط فصار فيه مساكن و هو خط صغير.

خط خان السبيل: هذا الخط خارج باب الفتوح، و هو من جملة أخطاط الحسينية،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۸

قال ابن عبد الظاهر: خان السبيل بناه الأمير بهاء الدين قراقوش، و أرصده لابنا السبيل و المسافرين بغير أجرة، و به بئر ساقية و حوض انتهى. و أدركنا هذا الخط فى غاية العمارة، يعمل فيه عرصة تباع بها الغلال، و كان فيه سوق يباع فيه الخشب و يجتمع الناس هناك بكرة كل يوم جمعة، فيباع فيه من الأوز و الدجاج ما لا يقدر قدره، و كانت فيه أيضا عدة مساكن ما بين دور و حوانيت و غيره، و قد اختل هذا الخط.

خط بستان ابن صيرم: هذا الخط أيضا خارج باب الفتوح مما يلى الخليج و زقاق الكحل، كان من جملة حارة البيازرة، فانشأه زمام القصر المختار الصقلبى بستانا، و بنى فيه منظرة عظيمة، فلما زالت الدولة الفاطمية استولى عليه الأمير جمال الدين سويخ بن صيرم أحد أمراء الملك الكامل فعرف به، ثم اختط و صار من أجل الأخطاط عمارة تسكنه الأمراء و الأعيان من الجند، ثم هو الآن آيل إلى الدثور.

خط قصر ابن عمار: هذا الخط من جملة حارة كتامة، و هو اليوم درب يعرف بالقماحين، و فيه حمام كرائى، و دار خوند شقرا، يسلك إليه من خط مدرسة الوزير كريم الدين بن غنام، و يسلك منه إلى درب المنصورى، و ابن عمار هذا هو أبو محمد الحسن بن عمار بن علىّ بن أبى الحسن الكلبى من بنى أبى الحسب، أحد أمراء صقلية، و أحد شيوخ كتامة، وصاه العزيز بالله نزار بن المعز لدين اللّه لما احتضر هو و القاضى محمد بن النعمان على ولده أبى على منصور، فلما مات العزيز بالله و استخلف من بعده ابنه الحاكم بأمر اللّه، اشترط الكتاميون و هم يومئذ أهل الدولة أن لا ينظر فى أمورهم غير أبى محمد بن عمار بعدما تجمعوا، و خرج منهم طائفة نحو المصلى و سألوا صرف عيسى بن مشطورس، و أن تكون الوساطة لابن عمار، فندب لذلك و خلع عليه فى ثالث شوّال سنة خمس و سبعين و ثلاثمائة و قلد بسيف من سيوف العزيز بالله، و حمل على فرس بسرج ذهب، و لقّب بأمين الدولة، و هو أوّل من لقب فى الدولة الفاطمية من رجال الدولة، و قيّد بين يديه بحدّة دواب، و حمل معه خمسون ثوبا من سائر البز الرفيع، و انصرف إلى داره فى موكب عظيم، و قرىء سجله، فتولى قراءته القاضى محمد بن النعمان بجلوسه للوساطة و تلقيبه بأمين الدولة، و الزم سائر الناس بالترجّل إليه، فترجّل الناس بأسرهم له من أهل الدولة، و صار يدخل القصر راكبا، و يشق الدواوين و يدخل من الباب الذى يجلس فيه خدم الخليفة الخاصة، ثم يعدل إلى باب الحجرة التى فيها أمير المؤمنين الحاكم فينزل على بابها و يركب من هناك، و كان الناس من الشيوخ و الرؤساء على طبقاتهم يبكرون إلى داره فيجلسون فى الدهاليز بغير ترتيب و الباب مغلق، ثم يفتح فيدخل إليه جماعة من الوجوه و يجلسون فى قاعة الدار على حصير و هو جالس فى مجلسه، و لا يدخل له أحد ساعة، ثم يأذن لوجوه من حضر كالقاضى و وجوه شيوخ كتامة و القوّاد فتدخل أعيانهم، ثم يأذن لسائر الناس فيزدحمون عليه، بحيث لا يقدر أحد أن يصل إليه، فمنهم من يومى بتقبيل الأرض و لا يردّ السلام على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۶۹

أحد، ثم يخرج فلا يقدر أحد على تقبيل يده سوى أناس بأعيانهم إلا أنهم يومئون إلى تقبيل الأرض، و شرف أكابر الناس بتقبيل ركابه، و أجلّ الناس من يقبل ركبته، و قرّب كتامة و أنفق فيهم الأموال، و أعطاهم الخيول، و باع ما كان بالاصطبلات من الخيل و البغال و النجب و غيرها، و كانت شيأ كثيرا، و قطع أكثر الرسوم التى كانت تطلق لأولياء الدولة من الأتراك، و قطع أكثر ما كان فى

المطابخ، و قطع أرزاق جماعة، و فرّق كثيرا من جوارى القصر، و كان به من الجوارى و الخدم عشرة آلاف جارية و خادم، فباع من اختار البيع، و أعتق من سأل العتق طلبا للتوفير، و اصطنع أحداث المغاربة، فكثر عتيهم و امتدّت أيديهم إلى الحرام فى الطرقات، و شلّحوا الناس ثيابهم، فضج الناس منهم و استغاثوا إليه بشكايتهم، فلم يبد منه كبير نكير فأفرط الأمر حتى تعرّض جماعة منهم للغلمان الأتراك و أرادوا أخذ ثيابهم، فثار بسبب ذلك شرّ قتل فيه غلام من الترك، و حدث من المغاربة، فتجمع شيوخ الفريقين و اقتتلوا يومين آخرهما يوم الأربعاء تاسع شعبان سنة سبع و ثمانين و ثلاثمائة، فلما كان يوم الخميس ركب ابن عمار لابسا آلة الحرب و حوله المغاربة، فاجتمع الأتراك و اشتدّت الحرب و قتل جماعة و جرح كثير فعاد إلى داره، و قام برجوان بنصرة الأتراك، فامتدّت الأيدى إلى دار ابن عمار و اصطبلاته و دار رشا غلامه، فنهبوا منها ما لا يحصى كثرة، فصار إلى داره بمصر فى ليلة الجمعة، لثلاث بقين من شعبان و اعتزل عن الأمر، فكانت مدّة نظره أحد عشر شهرا إلّا خمسة أيام، فأقام بداره فى مصر سبعة و عشرين يوما، ثم خرج إليه الأمر بعوده إلى القاهرة فعاد إلى قصره هذا ليلة الجمعة، الخامس و العشرين من رمضان، فأقام به لا يركب و لا يدخل إليه أحد إلّا أتباعه و خدمه، و أطلقت له رسومه و جراياته التى كانت فى أيام العزيز بالله، و مبلغها عن اللحم و التوابل و الفواكه خمسمائة دينار فى كل شهر، و فى اليوم سلة فاكهة بدينار، و عشرة أرطال شمع، و نصف حمل ثلج، فلم يزل بداره إلى يوم السبت الخامس من شوّال سنة تسعين و ثلثمائة، فأذن له الحاكم فى الركوب إلى القصر، و أن ينزل موضع نزول الناس، فواصل الركوب إلى يوم الاثنين رابع عشرة، فحضر عشية إلى القصر و جلس مع من حضر، فخرج إليه الأمر بالانصراف، فلما انصرف ابتدره جماعة من الأتراك وقفوا له فقتلوه و احتزوا رأسه و دفنوه مكانه، و حمل الرأس إلى الحاكم، ثم نقل إلى تربته بالقرافة فدفن فيها، و كانت مدّة حياته بعد عزله إلى أن قتل ثلاث سنين و شهرا واحدا و ثمانية و عشرين يوما، و هو من جملة وزراء الدولة المصرية، و ولى بعده برجوان، و قد مرّ ذكره.

ذكر الدروب و الأزقة

قد اشتملت القاهرة و ظواهرها من الدروب و الأزقة على شىء كثير، و الغرض ذكر ما يتيسر لى من ذلك:

درب الأتراك: هذا الدرب أصله من خط حارة الديلم، و هو من الدروب القديمة و قد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۰

تقدّم ذكره فى الحارات، و يتوصل إليه من خطة الجامع الأزهر، و قد كان فيما أدركناه من أعمر الأماكن.

أخبرنى خادمنا محمد بن السعودى قال: كنت أسكن فى أعوام بضع و ستين و سبعمائة بدرب الأتراك، و كنت أعانى صناعة الخياطة، فجاءنى فى موسم عيد الفطر من الجيران أطباق الكعك و الخشكنانج على عادة أهل مصر فى ذلك، فملأت زيرا كبيرا كان عندى مما جاءنى من الخشكنانج خاصة، لكثرة ما جاءنى من ذلك، إذ كان هذا الخط خاصا بكثرة الأكابر و الأعيان، و قد خرب اليوم منه عدّة مواضع.

درب الأسوانى: ينسب إلى القاضى أبى محمد الحسن بن هبة اللّه الأسوانى، المعروف بابن عتاب.

درب شمس الدولة: هذا الدرب كان قديما يعرف بحارة الأمراء كما تقدّم، فلما كان مجىء الغز إلى مصر و استيلاء صلاح الدين يوسف على مملكة مصر، سكن فى هذا المكان الملك المعظم شمس الدولة توران شاه ابن أيوب، فعرف به و سمى من حينئذ درب شمس الدولة، و به يعرف إلى اليوم: توران شاه الملقب بالملك المعظم شمس الدولة بن نجم الدين أيوب بن شادى بن مروان، قدم إلى القاهرة مع أهله من بلاد الشام فى سنة أربع و ستين و خمسمائة، عندما تقلد صلاح الدين يوسف بن أيوب وزارة الخليفة العاضد لدين اللّه، بعد موت عمه أسد الدين شير كوه، و كانت له أعمال فى واقعة السودان تولّاها بنفسه، و اقتحم الهول، فكان أعظم الأسباب فى نصرة أخيه صلاح الدين و هزيمة السودان، ثم خرج إليهم بعد انهزامهم إلى الجيزة، فأفناهم بالسيف حتى أبادهم، و أعطاه صلاح الدين قوص و أسوان و عيداب، و جعلها له أقطاعا، فكانت عبرتها فى تلك السنة مائتى ألف و ستة و ستين ألف دينار، ثم خرج إلى

غزو بلاد النوبة فى سنة ثمان و ستين، و فتح قلعة أبريم و سبى و غنم ثم عاد بعد ما أقطع أبريم بعض أصحابه، و خرج إلى بلاد اليمن فى سنة تسع و ستين و كان بها عبد النبيّ أبو الحسن عليّ ابن مهدى قد ملك زبيد و خطب لنفسه، و كان الفقيه عمارة قد انقطع إلى شمس الدولة، و صار يصف له بلاد اليمن و يرغّبه فى كثرة أموالها و يغربه بأهلها، و قال فيه قصيدته المشهورة التى أولها:

العلم مذ كان محتاج إلى القلمو شفرة السيف تستغنى عن القلم

فبعثه ذلك على المسير إلى بلاد اليمن فسار إليها فى مستهل رجب، و دخل مكة معتمرا و سار منها فنزل على زبيد فى سابع شوّال، و فى نهار الاثنين ثامن شوّال فتحها بالسيف و قبض على عليّ بن مهدى و أخوته و أقاربه، و استولى على ما كان فى خزائنه من مال، و تسلّم الحصون التى كانت بيده، و فى مستهل ذى القعدة توجه قاصدا عدن، و بذل لياسر بن بلال فى كل سنة ثلاثين ألف دينار و سلمها إليه، فما رغب فى ذلك، و كان قصده

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۱

أن يقيم بها نائبا عن المجلس الفخرىّ، فلما أبى ذلك نزل عليها فى يوم الجمعة تاسع عشرى ذى القعدة و ملكها فى ساعة بالسيف، و قبض على ياسر و إخوته و ولدى الداعى، فاحتوى على ما فيها و قبض على عبد النبيّ، و استولى أيضا على تعز و تفكر و صنعا و ظفار و غيرها من مدن اليمن و حصونها، و تلقب بالملك المعظم، و خطب لنفسه بعد الخليفة العباسيّ، و ما زال بها إلى سنة إحدى و سبعين فسار منها إلى لقاء أخيه صلاح الدين، و وصل إليه و ملّكه دمشق فى شهر ربيع الأوّل سنة اثنين و سبعين، فأقام بها إلى أن خرج السلطان صلاح الدين مرة من القاهرة إلى بلاد الشام فجهزه فى ذى القعدة سنة أربع و سبعين إلى مصر، و كان قد عمله نائبا ببعلبك، فاستناب عنه فيها و دخل إلى القاهرة، و أنعم عليه صلاح الدين بالإسكندرية، فسار إليها و أقام بها إلى أن توفى فى مستهل صفر سنة ست و سبعين و خمسمائة بالإسكندرية، فدفن بها، و كان كريما واسع العطاء، كثير الإنفاق، مات و عليه مائتا ألف دينار مصرية دينا، فقضاها عنه أخوه صلاح الدين، و كان سبب خروجه من اليمن أنه التاث بدنه بزبيد، فارتجل له سيف الدولة مبارك بن منقذ:

و إذا أراد اللّه سوءا بامرئو أراد أن يحييه غير سعيد

أغراه بالترحال من مصر بلاسبب و أسكنه بصقع زبيد

فخرج من اليمن كما تقدّم.

و حكى الأديب الفاضل مهذب الدين أبو طالب محمد بن على الحلى المعروف بابن الخيمى قال: رأيت فى النوم المعظم شمس الدولة و قد مدحته و هو فى القبر ميت، فلفّ كفنه و رماه إلىّ و أنشدنى:

لا تستقلنّ معروفا سمحت بهميتا و أمسيت عنه عاريا بدنى

و لا تظنّ جودى شابه بخلمن بعد بذلى بملك الشام و اليمن

إنى خرجت عن الدنيا و ليس معىمن كل ما ملكت كفى سوى كفنى

و هذا الدرب من أعمر أخطاط القاهرة، به دار عباس الوزير و جماعة كما تراه إن شاء اللّه تعالى.

درب ملوخيا: هذا الدرب كان يعرف بحارة قائد القوّاد كما تقدم، و عرف الآن بدرب ملوخيا، و ملوخيا كان صاحب ركاب الخليفة الحاكم بأمر اللّه، و يعرف بملوخيا الفرّاش، و قتله الحاكم و باشر قتله، و فى هذا الدرب مدرسة القاضى الفاضل، و قد اتصل به الآن الخراب.

درب السلسلة: هذا الدرب تجاه باب الزهومة، يعرف بالسلسلة التى كانت تمدّ كل ليلة بعد العشاء الآخرة كما تقدّم، و كان يعرف بدرب افتخار الدولة الأسعد، و عرف بسنان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۲

الدولة بن الكركندىّ و هو الآن درب عامر.

درب الشمسى: هذا الدرب بسوق المهامزيين تجاه قيسارية العصفر، عرف بالأمير علاء الدين كشنقدى الشمسىّ، أحد الأمراء فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، و قتل على عكا فى سنة تسعين و ستمائة بيد الفرنج شهيدا، و كان هذا الدرب فى القديم موضعه دار الضرب، ثم صار من حقوق درب ابن طلائع بسوق الفرّايين، و قد هدم بعض هذا الدرب الأمير جمال الدين يوسف الاستادار ، لما اغتصب الحوانيت التى كانت على يمنة السالك من الخراطين إلى سوق الخيميين، و كانت فى وقف المعظم تمرتاش الحافظى كما سيأتى ذكره، عند ذكر مدرسته إن شاء اللّه تعالى.

درب بن طلائع: هذا الدرب على يسرة من سلك من سوق الفرّايين الآن، الذى كان يعرف قديما بالخرقيين، طالبا إلى الجامع الأزهر، و يسلك فى هذا الدرب إلى قيسارية السروج، و باب ممرّ حمّام الخرّاطين، و دار الأمير الدمر، و عرف هذا الدرب أوّلا بالأمير نور الدولة أبى الحسن علىّ بن نجا بن راجح بن طلائع، ثم عرف بدرب الجاولى الكبير، و هو الأمير عز الدين جاولى الأسدى، مملوك أسد الدين شير كوه بن شادى، ثم عرف بدرب العماد سنينات، ثم عرف بدرب الدمر، و به يعرف إلى الآن.

(الدمر أمير جان دار سيف الدين) أحد أمراء الملك الناصر محمد بن قلاون، خرج إلى الحج فى سنة ثلاثين و سبعمائة، و كان أمير حاج الركب العراقى تلك السنة، يقال له محمد الحويج من أهل توريز، بعثه أبو سعيد ملك العراق إلى مصر، و خفّ على قلب الملك الناصر، ثم بلغه عنه ما يكرهه فأخرجه من مصر، و لما بلغه أنّ حويج فى هذه السنة أمير الركب العراقىّ، كتب إلى الشريف عطيفة أمير مكة أن يعمل الحيلة فى قتله بكل ما يمكن، فأطلع على ذلك ابنه مباركا و خواص قوّاده، فاستعدّوا لذلك، فلما وقف الناس بعرفة و عادوا يوم النحر إلى مكة، قصد العبيد إثارة فتنة و شرعوا فى النهب لينالوا غرضهم من قتل أمير الركب العراقىّ، فوقع الصارخ و ليس عند المصريين خبر مما كتبه السلطان، فنهض أمير الركب الأمير سيف الدين خاص تركك، و الأمير أحمد قريب السلطان، و الأمير الدمر أمير جان دار فى مماليكهم، و أخذ الدمر يسب الشريف رميته، و أمسك بعض قوّاده و أحدق به، فقام إليه الشريف عطيفة و لا طفه فلم يرجع، و كان حديد النفس شجاعا فأقدم إليهم و قد اجتمع قوّاد مكة و أشرافها و هم ملبسون يريدون الركب العراقىّ، و ضرب مبارك بن عطيفة بدبوس فأخطأه، و ضربه مبارك بحربة نفذت من صدره، فسقط عن فرسه إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۳

الأرض، فأرتج الناس و وقع القتال، فخرج أمير الركب العراقىّ و احترس على نفسه فسلم، و سقط فى يد أمير مكة إذ فات مقصوده، و حصل ما لم يكن بإرادته، ثم سكنت الفتنة و دفن الدمر، و كان قتله يوم الجمعة رابع عشر ذى الحجة، فكأنما نادى منادى فى القاهرة و القلعة و الناس فى صلاة العيد بقتل الدمر و وقوع الفتنة بمكة، و لم يبق أحد حتى تحدّث بذلك، و بلغ السلطان فلم يكترث بالخبر.

و قال أين مكة من مصر، و من أتى بهذا الخبر، و استفيض هذا الخبر بقتل الدمر حتى انتشر فى إقليم مصر كله، فما هو إلّا أن حضر مبشر الحاج فى يوم الثلاثاء ثانى المحرّم سنة إحدى و ثلاثين و سبعمائة فاخبروا بالخبر مثل ما أشيع، فكان هذا من أغرب ما سمع به، و لما بلغ السلطان خبر قتل الدمر غضب غضبا شديدا، و صار يقوم و يقعد، و أبطل السماط و أمر فجرد من العسكر ألفا فارس كل منهم بخودة و جوشن و مائة فردة نشاب و فأس برأسين أحدهما للقطع و الآخر للهدم، و مع كل منهم جملان و فرسان و هجين، و رسم لأمير هذا العسكر أنه إذا وصل إلى ينبع و عدّاه، لا يرفع رأسه إلى السماء بل ينظر إلى الأرض و يقتل كل من يلقاه من العربان إلّا من علم أنّه أمير عرب، فإنه يقيده و يسجنه معه، و جرّد من دمشق ستمائة فارس على هذا الحكم، و طلب الأمير أيتمش أمير هذا الجيش و من معه من الأمراء و المقدّمين و قال له: بدار العدل يوم الخدمة: و إذا وصلت إلى مكة لا تدع أحدا من الأشراف و لا من القوّاد و لا من عبيدهم يسكن مكة، و ناد فيها من أقام بمكة حلّ دمه، و لا تدع شيئا من النخل حتى تحرقه جميعه، و لا تترك بالحجاز دمنة عامرة، و أخرب المساكن كلها، و أقم فى مكة بمن معك حتى أبعث إليك بعسكر ثانى، و كان القضاة حاضرين.

فقال قاضى القضاة جلال الدين القزوينىّ: يا مولانا السلطان، هذا حرم قد أخبر اللّه عنه أنّ من دخله كان آمنا، و شرّفه. فردّ عليه جوابا فى غضب. فقال الأمير أيتمش يا خوند، فإن حضر دمنة للطاعة و سأل الأمان؟ فقال أمّنه.

ثم لما سكن عنه الغضب كتب باستقرار أهل مكة و تأمينهم، و كتب أمانا نسخته: هذا أمان اللّه سبحانه و تعالى، و أمان رسوله صلى اللّه عليه و سلّم، و أماننا للمجلس العالى الأسدى دمنة بن الشريف نجم الدين محمد بن أبى نمر، بأن يحضر إلى خدمة الصنجق الشريف صحبة الجناب العالى السيفى أيتمش الناصرى، آمنا على نفسه و أهله و ماله و ولده و ما يتعلق به، لا يخشى حلول سطوة قاصمة، و لا يخاف مؤاخذة حاسمة، و لا يتوقع خديعة و لا مكرا، و لا يحذر سوأ و لا ضررا، و لا يستشعر مخافة و لا ضرارا، و لا يتوقع و جلا، و لا يرهب بأسا.

و كيف يرهب من أحسن عملا، بل يحضر إلى خدمة الصنجق آمنا على نفسه و ماله و آله مطمئنا واثقا باللّه و رسوله. و بهذا الأمان الشريف المؤكد الأسباب المبيض الوجه الكريم الأحساب، و كلما يخطر بباله أنا نؤاخذ به فهو مغفور، و للّه عاقبة الأمور، و له منّا الإقبال

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۴

و التقديم، و قد صفحنا الصفح الجميل، و أنّ ربك هو الخلّاق العليم، فليثق بهذا الأمان الشريف و لا يسىء به الظنون، و لا يصغى إلى قول الذين لا يعلمون، و لا يستشير فى هذا الأمر إلّا نفسه، فيومه عندنا ناسخ لأمسه. و قد قال صلى اللّه عليه و سلّم: «يقول اللّه تعالى أنا عند ظن عبدى بى فليظنّ بى خيرا، فتمسك بعروة هذا الأمان فإنها وثقى، و اعمل عمل من لا يضل و لا يشقى، و نحن قد أمّنّاك فلا تخف، و رعينا لك الطاعة و الشرف، و عفا اللّه عما سلف، و من أمّناه فقد فاز، فطب نفسا و قرّ عينا، فأنت أمير الحجاز و الحمد للّه وحده».

و كان الدمر فيه شهامة و شجاعة و له سعادة طائلة ضخمة و متاجر و زراعات اقتنى بها أموالا جزيلة، و زوّج ابنه بابنة قاضى القضاة جلال الدين القزوينى.

درب قيطون: هذا الدرب بين قيسارية جهاركس و قيسارية أمير على، و هو نافذ إلى خلف مستوقد حمّام القاضى، و كان من حقوق درب الأسوانى.

درب السراج: هذا الدرب على يسرة من سلك من الجامع الأزهر طالبا درب الأسوانىّ، و خط الأكفانيين، و كان من جملة خط درب الأسوانى ثم أفرد فصار من خط الجامع الأزهر، و كان يعرف أوّلا بدرب السراج، ثم عرف بدرب الشامى، و هو الآن يعرف بدرب ابن الصدر عمر.

درب القاضى: هذا الدرب يقابل مستوقد حمّام القاضى، على يمنة من سلك من درب الأسوانىّ إلى الجامع الأزهر، و هو من حقوق درب الأسوانى، كان يعرف أوّلا بزقاق عزاز، غلام أمير الجيوش شاور السعدى وزير العاضد، ثم عرف بالقاضى السعيد أبى المعالى هبة اللّه بن فارس، ثم عرف بزقاق ابن الإمام، و عرف أخيرا بدرب ابن لؤلؤ، و هو شمس الدين محمد بن لؤلؤ التاجر، بقيسارية جهاركس.

درب البيضاء: هو من جملة خط الأكفانيين الآن، المسلوك إليه من الجامع الأزهر و سوق الفرّايين، عرف بذلك لأنه كان به دار تعرف بالدار البيضاء.

درب المنقدى: هذا الدرب بين سوق الخيميين و سوق الخرّاطين، على يمنة من سلك من الخرّاطين إلى الجامع الأزهر، كان يعرف قديما بزقاق غزال، و هو صنيعة الدولة أبو الظاهر إسماعيل بن مفضل بن غزال، ثم عرف بدرب المنقدى، و هو الآن يعرف بدرب الأمير بكتمر استادار العلاى.

درب خرابة صالح: هذا الدرب على يسرة من سلك من أوّل الخرّاطين إلى الجامع الأزهر، كان موضعه فى القديم مارستانا، ثم صار مساكن، و عرف بخرابة صالح، و فيه الآن دار الأمير طينال التى صارت بيد ناصر الدين محمد البارزى كاتب السرّ، و فيه أيضا باب سوق الصنادقيين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۵

درب الحسام: هذا الدرب على يمنة من سلك من آخر سويقة الباطلية إلى الجامع الأزهر، عرف بحسام الدين لاجين الصفدى استادار الأمير منجك.

درب المنصورى: هذا الدرب بأوّل الحارة الصالحية تجاه درب أمير حسين، عرف أوّلا بدرب الجوهرى، و هو شهاب الدين أحمد بن منصور الجوهرى، كان حيا فى سنة ثمانين و ستمائة، و عرف أخيرا بدرب المنصورى، و هو الأمير قطلو بغا المنصورى حاجب الحجّاب فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين.

درب أمير حسين: هذا الدرب فى طريق من سلك من خط خان الدميرى طالبا إلى حارة الصالحية و حارة البرقية، استجدّه الأمير حسين بن الملك الناصر محمد بن قلاون، و مات فى ليلة السبت رابع شهر ربيع الآخر سنة أربع و ستين و سبعمائة، و كان آخر من بقى من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون، و هو والد الملك الأشرف شعبان بن حسين.

درب القماحين: هذا الدرب كان يعرف بخط قصر ابن عمار، من جملة حارة كتامة، قريبا من الحارة الصالحية، و فيه اليوم دار خوند شقرا و حمام كراى وراء مدرسة ابن الغنام.

درب العسل: هذا الدرب على يمنة من خرج من خط السبع خوخ يريد المشهد الحسينى، كان يعرف أوّلا بخوخة الأمير عقيل ابن الخليفة المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، أوّل خلفاء الفاطميين بالقاهرة، و مات فى سنة أربع و سبعين و ثلاثمائة، هو و أخوه الأمير تميم بن المعز بالقاهرة، و دفنا بتربة القصر.

درب الجباسة: هذا الدرب تجاه من يخرج من سوق الأبارين إلى المشهد الحسينى، و هو من جملة القصر الكبير، و به دار خوخى التى تعرف اليوم بدار بهادر.

درب ابن عبد الظاهر: هذا الدرب بجوار فندق الذهب بخط الزراكشة العتيق، و فى صفه، و هو من حقوق دار العلم التى استجدّت فى خلافة الآمر و وزارة المأمون الباطيجى، فلما زالت الدولة اختط مساكن و سكن هناك القاضى محى الدين ابن عبد الظاهر فعرف به.

درب الخازن: هذا الدرب ملاصق لسور المدرسة الصالحية التى للحنابلة، و مجاور لباب سرّ قاعة مدرسة الحنابلة، و السبيل الذى على باب فندق مسرور الصغير، استجدّه الأمير علم الدين سنجر الخازن الأشرفىّ والى القاهرة، المنسوب إليه حكر الخازن بخط الصليبة، و سنجر هذا كانت فيه حشمة و له ثروة زائدة، و يحب أهل العلم، تنقل فى المباشرات إلى أن صار والى القاهرة، فاشتهر بدقة الفهم و صدق الحدس الذى لا يكاد يخطئ، مع عقل و سياسة و إحسان إلى الناس، و عزل بالأمير قديدار و مات عن تسعين سنة فى ثامن جمادى الأولى سنة خمس و ثلاثين و سبعمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۶

درب الحبيشى: هذا الدرب على يمنة من سلك من خط الزراكشة العتيق طالبا سوق الأبارين، و هو بجوار دار خواجا المجاورة لخان منجك، أصله من جملة القصر النافعى، و كان يعرف بخط القصر النافعى، ثم عرف بخط سوق الوراقين، و هو الآن يعرف بدرب الحبيشى، و هو الأمير سيف الدين بلبان الحبيشى أحد الأمراء الظاهرية ببيرس.

درب بقولا الصفار: بحارة الروم، كان يعرف بدرب الرومى الجزار.

درب دغمش: هذا الدرب ينفذ إلى الخوخة التى تخرج قبالة حمّام الفاضل المرسوم لدخول النساء، كان يعرف قديما بدرب دغمش، و يقال طغمش، ثم عرف بدرب كوز الزير، و يقال كوز الزيت، و يعرف بدرب القضاة بنى غثم من حقوق حارة الروم.

درب أرقطاى: هذا الدرب بحارة الروم، كان يعرف بدرب الشماع، ثم عرف بدرب شمخ، و هو تاج العرب شمخ الحلبى، ثم عرف بدرب المعظم، و هو الأمير عز الملك المعظم ابن قوام الدولة جبر، بجيم و باء موحدة، ثم عرف بدرب أرسل، و هو الأمير عز الدين أرسل بن قرأ رسلان الكاملى والد الأمير جاولى المعظمى، المعروف بجاولى الصغير، ثم عرف بدرب الباسعردى، و هو الأمير علم

الدين سنجر الباسعردى أحد أكابر المماليك البحرية الصالحية النجمية، و ولى نيابة حلب، ثم عرف إلى الآن بدرب ابن أرقطاى، و العامّة تقول رقطاى بغير همز، و هو أرقطاى الأمير سيف الدين الحاج أرقطاى أحد مماليك الملك الأشرف خليل ابن قلاون، و صار إلى أخيه الملك الناصر محمد فجعله جمدارا و كان هو و الأمير أيتمش نائب الكرك بينهما أخوة، و لهما معرفة بلسان الترك القيجاقى، و يرجع إليهما فى الياسة التى هى شريعة جنكزخان التى تقول العامّة و أهل الجهل فى زماننا هذا حكم السياسة، يريدون حكم الياسة، ثم إن الملك الناصر أخرجه مع الأمير تنكر إلى دمشق، ثم استقرّ فى نيابة حمص لسبع مضين من رجب سنة عشر و سبعمائة، فباشرها مدّة ثم نقله إلى نيابة صفد فى سنة ثمان عشرة، فأقام بها و عمر فيها أملاكا و تربة، فلما كان فى سنة ست و ثلاثين طلب إلى مصر و جهز الأمير أيتمش أخوه مكانه و عمل أمير مائة بمصر، فلما توجه العسكر إلى اياس خرج معهم و عاد، فكان يعمل نيابة الغيبة إذا خرج السلطان للصيد، ثم أخرج إلى نيابة طرابلس عوضا عن طينال، فأقام بها إلى أن توجه الطنبغا إلى طشطمر نائب حلب، و كان معه بعسكر طرابلس، فلما جرى من هروب الطنبغا ما جرى، كان أرقطاى معه، فأمسك و اعتقل بسكندرية، ثم أفرج عن أرقطاى فى أوّل سلطنة الملك الصالح إسماعيل بوساطة الأمير ملكتمر الحجازى و جعل أميرا إلى أن مات الصالح.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۷

و قام من بعده الملك الكامل شعبان و رسم له بنيابة حلب عوضا عن الأمير يلبغا اليحياوى، فحضر إليها فى جمادى الأولى سنة ست و أربعين، فأقام بها نحو خمسة أشهر، ثم طلب إلى مصر فحضر إليها فلم يكن غير قليل حتى خلع الكامل و تسلطن المظفر حاجى، و ولاه نيابة السلطنة بمصر فباشرها إلى أن خلع المظفر و أقيم فى السلطنة الملك الناصر، استعفى من النيابة و سأل نيابة حلب فأجيب و ولى نيابة حلب و خرج إليها، و ما زال فيها إلى أن نقل منها إلى نيابة دمشق، ففرح أهلها به و ساروا إلى حلب، فرحل عنها فنزل به مرض، و سار و هو مريض فمات بعين مباركة ظاهر حلب يوم الأربعاء خامس جمادى الأولى سنة خمس و سبعمائة و قد أناف عن السبعين. فعاد أهل دمشق خائبين. و كان زكيا فطنا محجاجا لسنا مع عجمة فى لسانه، و له تبنيت مطبوع و ميل إلى الصور الجميلة ما يكاد يملك نفسه إذا شاهدها مع كرم فى المأكول.

درب البنادين: بحارة الروم، يعرف بالبنادين من جملة طوائف العساكر فى الدولة الفاطمية، ثم عرف بدرب أمير جاندار، و هو ينفذ إلى حمام الفاضل المرسوم بدخول الرجال، و أمير جاندار هذا هو الأمير علم الدين سنجر الصالحى المعروف بأمير جندار.

درب المكرّم: بحارة الروم يعرف بالقاضى المكرّم جلال الدين حسين بن ياقوت البزاز نسيب ابن سنا الملك.

درب الضيف: بحارة الديلم، عرف بالقاضى ثقة الملك أبى منصور نصر بن القاضى الموفق أمير الملك أبى الظاهر إسماعيل بن القاضى أمين الدولة أبى محمد الحسن بن على بن نصر بن الضيف. كان موجودا فى سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة، و به أيضا رحبة تعرف برحبة الضيف منسوبة إليه.

درب الرصاصى: بحارة الديلم، هذا الدرب كان يعرف بحكر الأمير سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء، صهر بنى رزبك من وزراء الدولة الفاطمية، ثم عرف بحكر تاج الملك بدران بن الأمير سيف الدين المذكور، ثم عرف بالأمير عز الدين أيبك الرصاصى.

درب ابن المجاور: هذا الدرب على يسرة من دخل من أوّل حارة الديلم، كان فيه دار الوزير نجم الدين بن المجاور وزير الملك العزيز عثمان، عرف به و هو يوسف بن الحسين بن محمد بن الحسين أبو الفتح نجم الدين الفارسىّ الشيرازى، المعروف بابن المجاور، كان والده صوفيا من أهل فارس، ثم من شيراز، قدم دمشق و أقام فى دويرة الصوفية بها. و كان من الزهد و الدين بمكان، و أقام بمكة و بها مات فى رجب سنة ست و ثمانين و خمسمائة، و كان أخوه أبو عبد اللّه قد سمع الحديث و حدّث و قدم إلى القاهرة و مات بدمشق أوّل رمضان سنة خمس و عشرين و ستمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۸

درب الكهارية: هذا الدرب فيه المدرسة الكهارية بجوار حارة الجودرية المسلوك إليه من القماحين، و يتوصل منه إلى المدرسة

الشريفية.

درب الصفيرة: بتشديد الفاء هذا الدرب بجوار باب زويلة، و هو من حقوق حارة المحمودية و كان نافذا إلى المحمودية، و هو الآن غير نافذ و أصله درب الصفيراء تصغير صفراء، هكذا يوجد فى الكتب القديمة، و قد دخل بجميع ما كان فيه من الدور الجليلة بالجامع المؤيدى.

درب الأنجب: هذا الدرب تجاه بئر زويلة التى من فوق فوهتها اليوم ربع يونس من خط البندقانيين، يعرف بالقاضى الأنجب أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن نصر بن علىّ، أحد الشهود فى أيام قاضى القضاة سنان الملك أبى عبد اللّه محمد بن هبة اللّه بن ميسر، و كان حيا فى سنة بضع و عشرين و خمسمائة، و ينسب إلى الحسين بن الأنجب المقدسىّ، أحد الشهود المعدّلين، و كان موجودا فى سنة ستمائة، ثم عرف هذا الدرب بأولاد العميد الدمشقىّ، فإنه كان مسكنهم، ثم عرف بالبساطىّ، و هو قاضى القضاة جمال الدين يوسف. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۳ ؛ ص۷۸

ب كنيسة جدة: بضم الجيم، هذا الدرب بالبندقانيين كان يعرف بدرب بنت جدّة، ثم عرف بدرب الشيخ السديد الموفق.

درب ابن قطز: هذا الدرب بجوار مستوقد حمّاد الصاحب و رباط الصاحب من خط سويقة الصاحب، عرف بناصر الدين بن بلغاق بن الأمير سيف الدين قطز المنصورىّ، و مات بعد سنة ثمان و تسعين و ستمائة.

درب الحريرى: هذا الدرب من جملة دار الديباج هو و درب ابن قطز المذكور قبله، و يتوصل إليه اليوم من أوّل سويقة الصاحب و فيه المدرسة القطبية، عرف بالقاضى نجم الدين محمد بن القاضى فتح الدين عمر المعروف بابن الحريرىّ، فإنه كان ساكنا فيه.

درب ابن عرب: هذا الدرب بخط سويقة الصاحب كان يعرف بدرب بنى أسامة الكتاب، أهل الإنشاء فى الدولة الفاطمية، ثم عرف بدرب بنى الزبير الأكابر الرؤساء فى الدولة الفاطمية، ثم سكنه القاضى علاء الدين علىّ بن عرب محتسب القاهرة فى أيام الأمير بليغاق وكيل بيت المال، فعرف به إلى اليوم، و ابن عرب هذا هو علاء الدين أبو الحسن علىّ بن عبد الوهاب بن عثمان بن علىّ بن محمد عرف بابن عرب، ولى الحسبة بالقاهرة فى آخر صفر سنة خمس و ستين و سبعمائة، و ولى وكالة بيت المال أيضا و توفى.

درب ابن مغش: هذا الدرب تجاه المدرسة الصاحبية، عرف أخيرا بتاج الدين موسى كاتب السعدىّ و ناظر الخاص فى الأيام الظاهرية برقوق، و له به دار مليحة، و كان ماجنا متهتكا يرمى بالسوء، و أما الديانة فإنه قبطىّ، و عنه أخذ سعد الدين إبراهيم بن غراب وظيفة المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۷۹

ناظر الخاص، و عاقبه بين يديه، ثم صار يتردّد بعد ذلك إلى مجلسه، و هلك فى واقعة تيمور لنك بدمشق فى شعبان سنة ثلاث و ثمانمائة بعد ما احترق بالنار لما احترقت دمشق و أكل الكلاب بعضه.

درب مشترك: هذا الدرب يقرب من درب العدّاس تجاه الخط الذى كان يعرف بالمساطح، و فيه الآن سوق الجوارى، عرف أوّلا بدرب الأخنای قاضى القضاة برهان الدين المالكىّ، فإنه كان يسكن فيه، ثم هو الآن يقال له درب مشتكر و هذه كلمة تركية أصلها بلسانهم أج ترك بضم الهمزة و أشمامها، ثم جيم بين الجيم و الشين و معنى ذلك ثلاث و ترك بتاء مثناة من فوق ثم راء مهملة و كاف. و معناها النخل، و معنى هذا الاسم ثلاث نخيل، و عرّبته العامّة فقالت مشترك و هو مشترك السلاح دار الظاهر برقوق، فإنه سكن بها و مات فى سنة ۸۰۱.

درب العداس: هذا الدرب فيما بين دار الديباج و الوزيرية، عرف بعلىّ بن عمر العدّاس صاحب سقيفة العدّاس.

درب كاتب سيدى: هذا الدرب من جملة خط الملحيين، كان يعرف بدرب تقىّ الدين الأطربانى أحد موقعى الحكم عند قاضى القضاة تقىّ الدين الأخناوى ثم عرف بالوزير لصاحب علم الدين عبد الوهاب القبطىّ الشهير بكاتب سيدى.

الوزير كاتب سيدى: تسمى لما أسلم بعبد الوهاب بن القسيس، و تلقّب علم الدين، و عرف بين الكتاب الأقباط بكاتب سيدى و ترقى فى الخدم الديوانية حتى ولى ديوان المرتجع، و تخصص بالوزير الصاحب شمس الدين إبراهيم كاتب أرلان، فلما أشرف من مرضه

على الموت عين للوزارة من بعده علم الدين هذا فولاه الملك الظاهر وظيفة الوزارة بعد موت الوزير شمس الدين فى سادس عشرى شعبان سنة تسع و ثمانين و سبعمائة. فباشر الوزارة إلى يوم السبت رابع عشرى رمضان سنة تسعين و سبعمائة، ثم قبض عليه و أقيم فى منصب الوزارة بدله الوزير الصاحب كريم الدين بن الغنام و سلمه إليه و كان قد أراد مصادرة كريم الدين فاتفق استقراره فى الوزارة و تمكنه منه، فألزمه بحمل مال قرّره عليه. فيقال أنه حمل فى هذا اليوم ثلثمائة ألف درهم عنها إذ ذاك نحو العشرة آلاف مثقال ذهبا، و مات بعد ذلك من هذه السنة. و كان كاتبا بليغا كتب بيده بضعا و أربعين رزمة من الورق، و كانت أيامه ساكنة و الأحوال متمشية و فيه لين.

درب مخلص: هذا الدرب بحارة زويلة، عرف بمخلص الدولة أبى الحيا مطرف المستنصرى، ثم عرف بدرب الرايض و هو الأمير طراز الدولة الرايض باصطبل الخلافة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۰

درب كوكب: هذا الدرب هو الآن زقاق شارع يسلك فيه من حارة زويلة إلى درب الصقالبة، عرف أوّلا- بالقائد الأعز مسعود المستنصر، ثم عرف بكوكب الدولة ابن الحناكى.

درب الوشاقى: بحارة زويلة، عرف بالأمير حسام الدين سنقر الوشاقى المعروف بالأعسر، السلاح دار أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب.

درب الصقالبة: بحارة زويلة: عرف بطائفة الصقالبة أحد طوائف العساكر فى أيام الخلفاء الفاطميين و هم جماعة.

درب الكنجى: بحارة زويلة، كان يعرف بدرب حليلة، ثم عرف بالأمير شمس الدين سنقر شاه الكنجى الحاجب الظاهرىّ، قتله قلاون أوّل سلطنته.

درب رومية: هذا الدرب كان فى القديم فيما بين زقاق القابلة و درب الزراق، فزقاق القابلة فيه اليوم كنيسة اليهود بحارة زويلة، و يتوصل منه إلى السبع سقايات و دار بيبرس التى عرفت بدار كاتب السرّ ابن فضل اللّه تجاه حمام ابن عبود، و درب الزراق هو اليوم من جملة خط سويقة الصاحب، و بينهما الآن دور لا يوصل إليه إلّا بعد قطع مسافة، و درب رومية كان يعرف أوّلا بزقاق حسين بن إدريس العزيزى أحد اتباع الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز لدين اللّه، ثم عرف بدرب رومية، و هو بجوار زقاق القابلة الذى عرف بزقاق العسل، ثم عرف بزقاق المعصرة، و عرف اليوم بزقاق الكنيسة.

درب الخضيرى: هذا الدرب يقابل باب الجامع الأقمر البحرى و هو من جملة حقوق القصر الصغير الغربىّ، عرف بالأمير عز الدين ايدمر الخضيرىّ أحد أمراء الملك المنصور قلاوون.

درب شعلة: هو الشارع المسلوك فيه من باب درب ملوخيا إلى خط الفهادين و العطوفية، و قد خرب.

درب نادر: هذا الدرب بجوار المدرسة الجمالية فيما بين درب راشد و درب ملوخيا، عرف بسيف الدولة نادر الصقلبىّ، و توفى لاثنتى عشرة خلت من صفر سنة اثنين و ثمانين و ثلثمائة، فبعث إليه الخليفة العزيز بالله لكفنه خمسين قطعة من ديباج مثقل، و خلّف ثلثمائة ألف دينار عينا و آنية من فضة و ذهب و عبيدا و خيلا و غير ذلك مما بلغت قيمته نحو ثمانين ألف دينار، و كان أحد الخدام ذكره المسبحى فى تاريخه، و قد ذكر ابن عبد الظاهر: أنّ بالسويقة التى دون باب القنطرة دربا يعرف بدرب نادر، فلعله نسب إليه درب كان هناك فى القديم أيضا.

درب راشد: هذا الدرب تجاه خزانة البنود عرف بيمين الدولة راشد العزيزى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۱

درب النميرىّ: عرف بالأمير سيف المجاهدين محمد بن النميرىّ أحد أمراء الخليفة الحافظ لدين اللّه، و ولىّ عسقلان فى سنة ست و ثلاثين و خمسمائة، و كانت ولايتها أكبر من ولاية دمشق، و هذا الدرب كان ينفذ إلى درب راشد و هو الآن غير نافذ، و فى داخله

درب يعرف بأولاد الداية طاهر و قاسم الأفضلين أحد أتباع الأفضل بن أمير الجيوش، و عرف الآن بدرب الطفل، و هو من جملة خطة قصر الشوك، فإنه قبالة باب قصر الشوك و بينهما سوقة رحبة الأيدمرى.

درب قراصيا: هذا الدرب من جملة الدروب القديمة، و كان تجاه باب قصر الزمرّد الذى فى مكانه اليوم المدرسة الحجازية، و هذا الدرب اليوم من جملة خطة رحبة باب العيد بجوار سجن الرحبة و قد هدمه الأمير جمال الدين يوسف الأستادار، و هدم كثيرا من دوره و عملها وكالة فمات و لم تكمل، و هى إلى الآن بغير تكملة، ثم كمله الملك المؤيد شيخ و جعله وقفا على جامعه و هو إلى الآن خان عامر.

درب السلامى: هذا الدرب من جملة خط رحبة باب العيد و فيه إلى اليوم أحد أبواب القصر المسمى بباب العيد، و العامّة تسميه القاهرة، و هذا الدرب يسلك منه إلى خط قصر الشوك و إلى المارستان العتيق الصلاحى و إلى دار الضرب و غير ذلك.

عرف بخواجا مجد الدين السلامى: إسماعيل بن محمد بن ياقوت الخواجا مجد الدين السلامى تاجر الخاص فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، و كان يدخل إلى بلاد الطط و يتجر و يعود بالرقيق و غيره، و اجتهد مع جويان إلى أن اتفق الصلح بين الملك الناصر و بين القان أبى سعيد، فانتظم ذلك بسفارته و حسن سعيه فازدادت و جاهته عند الملكين، و كان الملك الناصر يسفره و يقرّر معه أمورا فيتوجه و يقضيها على وفق مراده بزيادات، فأحبه و قرّبه و رتب له الرواتب الوافرة، فى كل يوم من الدراهم و اللحم و العليق و السكر و الحلواء و الكماج و الرقاق مما يبلغ فى اليوم مائة و خمسين درهما، عنها يومئذ ثمانية مثاقيل من الذهب، و أعطاه قرية أراك ببعلبك، و أعطى مماليكه إقطاعات فى الحلقة، و كان يتوجه إلى الأردن و يقيم فيه الثلاث سنين و الأربع و البريد لا ينقطع عنه، و تجهّز إليه التحف و الأقمشة ليفرّقها على من يراه من خواص أبى سعيد و أعيان الأردن، ثقة بمعرفته و درايته، و كان النشو ناظر الخاص لا يفارقه و لا يصبر عنه، و من أملاكه ببلاد المشرق السلامية و المأخوذة و المراوزة و المناصف، و لما مات الملك الناصر قلاوون تغير عليه الأمير قوصون و أخذ منه مبلغا يسيرا، و كان ذا عقل وافر و فكر مصيب و خبرة بأخلاق الملوك و ما يليق بخواطرها و دراسة بما يتحفها به من الرقيق و الجواهر، و نطق سعيد و خلق رضىّ و شكالة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۲

حسنة و طلعة بهية، و مات فى داره من درب السلامىّ هذا يوم الأربعاء سابع جمادى الآخرة سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة، و دفن بتربته خارج باب النصر، و مولده فى سنة إحدى و سبعين و ستمائة بالسلّاميّة، بلدة من أعمال الموصل على يوم منها بالجانب الشرقىّ، و هى بفتح السين المهملة و تشديد اللام و بعد الميم ياء مثناة من تحت مشدّدة ثم تاء التأنيث.

درب خاص ترك: هذا الدرب برحبة باب العيد عرف بالأمير الكبير ركن الدين بيبرس المعروف بخاص التركى الكبير، أحد الأمراء الصالحية النجمية، أو بالأمير عز الدين أيبك، المعروف بخاص التركى الصغير، سلاح دار الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى.

درب شاطى: هذا الدرب يتوصل منه إلى قصر الشوك، عرف بالأمير شرف الدين شاطى، السلاح دار فى أيام الملك المنصور قلاوون، و كان أميرا كبيرا مقدّما بالديار المصرية، و أخرجه الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الشام فأقام بدمشق، و كانت له حرمة وافرة و ديانة و فيه خير، و مات بها فى الحادى و العشرين من شعبان سنة اثنين و ثلاثين و سبعمائة.

درب الرشيدى: هذا الدرب مقابل باب الجوانية عرف بالأمير عز الدين أيدمر الرشيدى، مملوك الأمير بلبان الرشيدى، خوش داش الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى و ولى الأمير ايدمر هذا، استدارا لأستاذه بلبان، ثم ولى استدارا للأمير سلار، و مات فى تاسع عشر شوّال سنة ثمان و سبعمائة، و كان سكنه فى هذا الدرب و كان عاقلا ذا ثروة و جاه، و كان فى القديم موضع هذا الدرب براحا قدّام الحجر.

درب الفريحية: هذا الدرب على يمنة من خرج من الجملون الصغير طالبا درب الرشيدى المذكور، و هو من الدروب التى كانت فى

أيام الخلفاء.

درب الأصفر: هذا الدرب تجاه خانقاه الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، و موضع هذا الدرب هو المنحر الذى تقدّم ذكره.

درب الطاوس: هذا الدرب فى الحدرة التى عند باب سرّ المارستان المنصورى على يمنة من ابتدا الخروج منه، و كان موضعه بجوار باب الساباط أحد أبواب القصر الصغير، و قد تقدّم ذكره، و درب الطاوس أيضا بالقرب من درب العدّاس فيما بين باب الخوخة و الوزيرية.

درب ماينجار: هذا الدرب بجوار جامع أمير حسين من حكر جوهر النوبى خارج القاهرة، عرف بالأمير ما ينجار الرومىّ الواقدىّ أيام الملك الظاهر بيبرس، و قد خربت تلك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۳

الديار فى سلطنة الملك المؤيد شيخ.

درب كوسا: هو الآن يسلك فيه على شاطىء الخليج الكبير من قنطرة الأمير حسين إلى قنطرة الموسكى، عرف بحسام الدين كوسا أحد مقدّمى الخلفاء فى أيام الملك المنصور قلاوون، مات بعد سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة، و هذا الموضع تجاه دار الذهب التى تعرف اليوم بدار الأمير حسين الطرطرىّ السلاح دار الناصرىّ، و قد خربت أيضا.

درب الجاكى: هذا الدرب بالحكر عرف بالأمير شرف الدين إبراهيم بن علىّ بن الجنيد الجاكى المهمندار المنصورى، و قد دثر فى أيام المؤيد على يد الأمير فخر الدين عبد الغنى بن أبى الفرج الاستادار، لما خرب ما هناك.

درب الحرامى: بالحكر، عرف بسعد الدين حسين بن عمر بن محمد الحرامى و ابنه محيى الدين يوسف، و كانا من أجناد الحلقة.

درب الزراق: بالحكر، عرف بالأمير عز الدين أيدمر الزراق، أحد الأمراء، ولّاه الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون نيابة غزة فى سنة خمس و أربعين و سبعمائة، فأقام بها مدّة ثم استعفى بعد موت الملك الصالح و عاد إلى القاهرة، ثم توجه إلى دمشق للحوطة على موجود الخاصكية يلبغا اليحياوى فى الأيام المظفرية و عاد فلما ركب العسكر على المظفر لم يكن معه سوى الزراق واق سنقر و أيدمر الشمسى فنقم الخاصكية عليهم ذلك و أخرجوهم إلى الشام، فوصلوا إليها فى أوّل شوّال سنة ثمان و أربعين، فأقام الزراق بدمشق، ثم ورد مرسوم السلطان حسن بتوجيههم إلى حلب فتوجه إليها على إقطاع و بها مات، و كان ديّنا ليّنا فيه خير، و كان هذا الدرب عامرا و فيه دار الزراق الدار العظيمة، و قد خرب هذا الدرب و ما حوله منذ كانت الحوادث فى سنة ست و ثمانمائة ثم نقضت الدار فى أيام المؤيد شيخ، على يد ابن أبى الفرج.

زقاق طريف: بالطاء المهملة، هذا الزقاق من أزقة البرقية، عرف بالأمير فخر الدين طريف بن بكتوت، و كان يعرف بزقاق منار بن ميمون بن منار، توفى فى ذى الحجة سنة اثنتين و ثمانين و خمسمائة.

زقاق منعم: بحارة الديلم، كان يعرف بمساطب الديلم و الأتراك، ثم عرف بالأمير منعم الدولة باتكين بالبوسحاقى، ثم عرف بزقاق جمال الدولة، ثم بزقاق الجلاطى، ثم بزقاق الصهرجتى، و هو القاضى المنتخب ثقة الدولة أبو الفضل محمد بن الحسين بن هبة اللّه بن وهيب الصهرجتى، و كان حيّا فى سنة ستين و خمسمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۴

زقاق الحمام: بحارة الديلم، عرف قديما بخوخة المنقدى، ثم عرف بخوخة سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء، صهر بنى رزبك، ثم عرف بزقاق حمام الرصاصى، ثم عرف بزقاق المزار.

زقاق الحرون: بحارة الديلم، عرف بالأمير الأوحد سلطان الجيوش زرى الحرون، رفيق العادل بن السلاروز مصر فى أيام الخليفة الظافر بأمر اللّه، ثم عرف بابن مسافر عين القضاة، ثم عرف بزقاق القبة.

زقاق الغراب: بالجودريـة، كان يعرف بزقاق أبى العز، ثم عرف بزقاق ابن أبى الحسن العقيلى، ثم قيل له زقاق الغراب، نسبة إلى أبى عبد اللّه محمد بن رضوان الملقب بغراب.

زقاق عامر: بالوزيرية، عرف بعامر القماح فى حارة الأقانصة.

زقـاق فرج: بـالجيم، من جملـة أزقـة درب ملوخيـا، عرف بفرج مهتـار الطشـتخاناه للملك المنصور قلاوون، كان حيّا فى سـنة ثلاث و ثمانين و ستمائة.

زقاق حـدرة: الزاهـدى بحارة برجوان، عرفت بالأمير ركن الـدين بيبرس الزاهـدى الرمّاح الأحدب، أحد الأمراء و ممن له عدّة غزوات فى الفرنج، و لما تمالأ الأمراء على الملك السـعيد ابن الظاهر و سـبقهم إلى القلعة كان قدّامه بيبرس الزاهدى هذا، فسـقط عن فرسه و خرجت له حدبة فى ظهره، و مات فى سـنة ثلاث و تسعين و ستمائة و كان مكان هذه الحدرة إخصاصا، و هى الآن مساكن بينها زقاق يسلك فيه من رأس الحارة إلى رحبة الأفيال.

ذكر الخوخ

و القصد إيراد ما هو مشهور من الخوخ، أو لذكره فائدة، و إلّا فالخوخ و الدروب و الأزقة كثيرة جدا.

الخوخ السـبع: كـانت سـبع خوخ فيما يقال متصـلة باصـطبل الطارمـة، يتوصل منها الخلفاء إذا أرادوا الجامع الأزهر، فيخرجون من باب الديلم الذى هو اليوم باب المشهد الحسينىّ إلى الخوخ، و يعبرون منها إلى الجامع الأزهر، فإنه كان حينئذ فيما بين الخوخ

و الجامع رحبـة، كما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى، و كان هـذا الخط يعرف أوّلا بخوخة الأمير عقيل، و لم يكن فيه مساكن، ثم عرف بعد انقضاء دولة الفاطميين بخط الخوخ السبع، و ليس لهذه الخوخ اليوم أثر البتة، و يعرف اليوم بالأبارين.

باب الخوخة: هو أحد أبواب القاهرة مما يلى الخليج فى حدّ القاهرة البحرى، يسلك إليه من سويقة الصاحب و من سويقة المسعودىّ، و كان هذا الباب يعرف أوّلا بخوخة ميمون دبه، و يخرج منه إلى الخليج الكبير. و ميمون دبه يكنّى بأبى سعيد، أحد خدام العزيز باللّه، كان خصيا.

خوخـة ايـدغمش: هـذه الخوخـة فى حكم أبواب القـاهرة، يخرج منها إلى ظاهر القاهرة عنـد غلق الأبواب فى الليل و أوقات الفتن إذا غلقت الأبواب، فينتهى الخارج منها إلى الدرب الأحمر و اليانسـية، و يسلك من هناك إلى باب زويلة، و يصار إليها من داخل القاهرة إما من سوق الرقيق أو من حارة الروم من درب أرقطاى، و هـذه الخوخة بجوار حمّام أيدغمش. و هو ايدغمش الناصـرى، الأمير علاء الـدين، أصـله من مماليك الأمير سـيف الدولـة بلبان الصالحىّ، ثم صار إلى الملك الناصـر محمـد بن قلاوون، فلما قـدم من الكرك جعله أمير أخـور عوضـا عن الأمير بيبرس الحـاجب، و لم يزل حـتى مـات الملـك الناصـر فقـام مع قوصون و وافقه على خلع الملك المنصور أبى بكر بن الملك الناصر، ثم لما هرب الطنبغا الفخرى اتفق الأمراء مع أدغمش على الأمير قوصون فوافقهم على محاربته، و قبض على قوصون و جماعته و جهزهم إلى الاسـكندرية، و جهز من أمسك الطنبغا و من معه و أرسلهم أيضا إلى الإسكندرية، و صار ايـدغمش فى هـذه النوبـة هو المشار إليه فى الحلّ و العقـد، فأرسل ابنه فى جماعـة من الأمراء و المشايـخ إلى الكرك بسـبب إحضار أحمد بن الملك الناصر محمد، فلما حضر أحمد من الكرك و تلقب بالملك الناصر و استقرّ أمره بمصر أخرج إيدغمش نائبا بحلب، فسـار إلى عين جالوت ، و إذا بالفخرى قـد صار إليه مسـتجيرا به، فآمنه و أنزله فى خيمـة، فلما ألقى عنه سـلاحه و اطمأنّ قبض عليه و جهز إلى الملك الناصـر أحمر، و توجه إلى حلب فأقام بها إلى أن استقرّ الملك الصالح إسماعيل بن محمد فى السلطنة، نقله عن نيابة حلب إلى نيابـة دمشق، فـدخلها فى يوم العشـرين من صـفر سـنة ثلاث و أربعين و سـبعمائة، و ما زال بها إلى يوم الثلاثا ثالث جمادى الآخرة منها. فعاد من مطعم طيوره و جلس بدار السعادة حتى انقضت الخدمة، و أكل الطارى و تحدّث، ثم دخل إلى داره فإذا جواريه

يختصمن، فضرب واحدة منهنّ ضربتين و شرع فى الضربة الثالثة فسقط ميتا، و دفن من الغد فى تربته خارج ميدان الحصى ظاهر دمشق، و كان جوادا كريما، و له مكانة عند الملك الناصر الكبير بحيث أنّه أمّر أولاده الثلاثة، و كان قد بعث الملك الصالح بالقبض

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۶

عليه فبلغ القاصد موته فى قطيا فعاد.

خوخة الأرقى: بحارة الباطلية، يخرج منها إلى سوق الغنم و غيره و هى بجوار داره.

خوخة عسيلة: هذه الخوخة من الخوخ القديمة الفاطمية، و هى بحارة الباطلية مما يلى حارة الديلم فى ظهر الزقاق المعروف بخرابة العجيل بجوار دار الست حدق.

خوخة الصالحية: هذه الخوخة بجوار حبس الديلم، قريبة من دار الصالح طلائع بن رزبك التى هدمها ابن قايمار و عمرها، و كانت تعرف هذه الخوخة أوّلا بخوخة بحتكين، و هو الأمير جمال الدولة بحتكين الظاهرىّ، ثم عرفت بخوخة الصالح طلائع بن رزبك، لأنّ داره كانت هناك و بها كان سكنه قبل أن يلى وزارة الظافر.

خوخة المطوع: هذه الخوخة بحارة كتامة فى أوّلها مما يلى الجامع الأزهر، عند اصطبل الحسام الصفدى، عرفت بالمطوع الشيرازى.

خوخة حسين: هذه الخوخة فى الزقاق الضيق المقابل لمن يخرج من درب الأسوانىّ و يسلك فيه إلى حكر الرصاصىّ، بحارة الديلم، و يعرف هذا الزقاق بزقاق المزار، و فيه قبر تزعم العامّة و من لا علم عنده أنه قبر يحيى بن عقب، و أنه كان مؤدّبا للحسين بن علىّ بن أبى طالب، و هو كذب مختلق و أفك مفترى. كقولهم فى القبر الذى بحارة برجوان أنه قبر جعفر الصادق، و فى القبر الآخر أنه قبر أبى تراب النخشبىّ، و فى القبر الذى على يسرة من خرج من باب الحديد ظاهر زويلة أنه قبر زارع النوى و أنه صحابىّ، و غير ذلك من أكاذيبهم التى اتخذها لهم شياطينهم أنصابا ليكونوا لهم عزّا، و سيأتى الكلام على هذه المزارات فى مواضعها من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

و حسين هذا: هو الأمير سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء، صهر بنى رزبك، و كان كرديا قدّمه الصالح بن رزبك ابن الصالح لما ولىّ الوزارة و نوه به، فلما مات و قام من بعده ابنه رزبك بن الصالح فى الوزارة، كان حسين هذا هو مدبر أمره بوصية الصالح، و استشار حسينا فى صرف شاور عن ولاية قوص، فأشار عليه بإبقائه، فأبى و ولى الأمير أبى الرفعة مكانه، و بلغ ذلك شاور فخرج من قوص إلى طريق الواحات، فلما سمع رزبك بمسيره رأى فى النوم مناما عجيبا، فأخبر حسينا بأنه رأى مناما، فقال: إن بمصر رجلا يقال له أبو الحسن علىّ بن نصر الأرتاجىّ، و هو حاذق فى التعبير فأحضره. و قال: رأيت كأنّ القمر قد أحاط به حنش، و كأننى روّاس فى حانوت. فغالطه الأرتاجى فى تعبير الرؤيا و ظهر ذلك لحسين، فأمسك حتى خرج. و قال له: ما أعجبنى كلامك و اللّه، لا بدّ أن تصدقنى و لا بأس عليك. فقال: يا مولاى، القمر عندنا هو الوزير، كما أن الشمس الخليفة، و الحنش المستدير عليه حبس مصحف، و كونه روّاس اقبلها تجدها شر مصحفا، و ما وقع لى غير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۷

هذا. فقال حسين: اكتم هذا عن الناس. و أخذ حسين فى الاهتمام بأمره، و وطأ أنه يريد التوجه إلى مدينة الرسول صلى اللّه عليه و سلم، و كان قد أحسن إلى أهلها و حمل إليها مالا و قماشا و أودعه عند من يثق به، هذا و أمر شاور يقوى و يتزايد و يصل الأرجاف به إلى أن قرب من القاهرة، فصاح الصائح فى بنى رزبك و كانوا أكثر من ثلاثة آلاف فارس، فأوّل من نجا بنفسه حسين، و سار فسأل عنه رزبك فقالوا: خرج. فانقطع قلبه لأن حسينا كان مذكورا بالشجاعة مشهورا بها، و له تقدّم فى الدولة و مكانة و ممارسة للحروب و خبرة بها، و لم يثبت بعد خروج حسين بل انهزم إلى ظاهر اطفيح فقبض عليه ابن النيض مقدّم العرب و أحضره إلى شاور فحبسه، و صدقت رؤياه و مات حسين فى سنة

خوخة الحلبى: هذه الخوخة فى آخر اصطبل الطارمة بجوار حمّام الأمير علم الدين سنجر الحلبىّ و فى ظهر داره.

سنجر الحلبيّ: أحد المماليك الصالحية، ترقّى فى الخدم إلى أن ولّاه الملك المظفر سيف الدين قطز نيابة دمشق، فلما قتل قطز على عين جالوت و قام من بعده فى السلطنة بالديار المصرية الملك الظاهر بيبرس، ثار سنجر بدمشق فى سنة ثمان و خمسين و ستمائة و دعا إلى نفسه، و تلقب بالملك المجاهد، و بقى أشهرا و الملك الظاهر يكاتب أمراء دمشق إلى أن خامروا على سنجر و حاصروه بقلعة دمشق أياما، فلما خشى أن يقبض عليه فرّ من القلعة إلى بعلبك، فجهز إليه الظاهر الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى و ما زال يحاصره حتى أخذه أسيرا، و بعث به إلى الديار المصرية، فاعتقله الظاهر و ما زال فى الاعتقال من سنة تسع و خمسين إلى سنة تسع و ثمانين و سبعمائة، مدّة تنيف على ثلاثين سنة، مدّة أيام الملك الظاهر و ولديه و أيام الملك المنصور قلاوون، فلما ولى الملك الأشرف خليل بن قلاوون أخرجه من السجن و خلع عليه و جعله أحد الأمراء الأكابر على عادته، فلم يزل أميرا بمصر إلى أن مات على فراشه فى سنة اثنين و تسعين و سبعمائة، و قد جاوز تسعين سنة، و انحنى ظهره و تقوّس.

خوخة الجوهرة: هذه الخوخة بآخر حارة زويلة، عرفت اليوم بخوخة الوالى لقربها من دار الأمير علاء الدين الكورانىّ والى القاهرة، و كان من خير الولاة يحفظ كتاب الحاوى فى الفقه على مذهب الإمام الشافعىّ رضى اللّه عنه، و أقام فى ولاية القاهرة من محرّم سنة تسع و أربعين و سبعمائة بعد استدمر القلنجىّ و إلى القاهرة إلى

خوخة مصطفى: هذه الخوخة بآخر زقاق الكنيسة من حارة زويلة، يخرج منها إلى القبو الذى عند حمّام طاب الزمان المسلوك منه إلى قبو منظرة اللؤلؤة على الخليج، عرفت

بالأمير فارس المسكين مصطفى أحد أمراء بنى أيوب الملوك، و هو أيضا صاحب هذا الحمّام.

خوخة ابن المأمون: هذه الخوخة فى حارة زويلة بالدرب الذى بقرب حمام الكوبك، و يقال لهذه الخوخة اليوم باب حارة زويلة، و أصلها خوخة فى درب ابن المأمون البطائحى.

خوخة كوتية أق سنقر: هذه الخوخة فى الزقاق الذى يظهر المدرسة الفهرية بآخر سويقة الصاحب، كان يسلك منها إلى الخليج من جوار باب الذهب، و موضعها بحذاء بيت القاضى أمين الدين ناظر الدولة، و لم تزل إلى أن بنى المهتار عبد الرحمن البابا داره بجوارها فى سنى بضع و تسعين و سبعمائة، فسدّها، و عرفت هذه الخوخة أخيرا بخوخة المسيرى، و هو قمر الدين بن السعيد المسيرى.

خوخة أمير حسين: هذه الخوخة من جملة الوزيرية، يخرج منها إلى تجاه قنطرة أمير حسين، فتحها الأمير شرف الدين حسين بن أبى بكر بن إسماعيل بن حيدرة بيك الرومى حين بنى القنطرة على الخليج الكبير، و أنشأ الجامع بحكر جوهر التوبى. و جرى فى فتح هذه الخوخة أمر لا بأس بإيراده: و هو أن الأمير حسين قصد أن يفتح فى السور خوخة لتمرّ الناس من أهل القاهرة فيها إلى شارع بين السورين ليعمر جامعه، فمنعه الأمير علم الدين سنجر الخازن و إلى القاهرة من ذلك إلّا بمشاورة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، و كان للأمير حسين إقدام على السلطان، و له به مؤانسة، فعرّفه أنه أنشأ جامعا، و سأله أن يفسح له فى فتح مكان من السور ليصير طريقا نافذا يمرّ فيه الناس من القاهرة و يخرجون إليه، فأذن له فى ذلك و سمح به، فنزل إلى السور و خرق منه قدر باب كبير و دهن عليه رنكه بعد ما ركب هناك بابا و مرّ الناس منه، و اتفق أنه اجتمع بالخازن والى القاهرة و قال له على سبيل المداعبة: كم كنت تقول ما أخليك تفتح فى السور بابا حتى تشاور السلطان، ها أنا قد شاورته و فتحت بابا على رغم أنفك، فحنق الخازن من هذا القول و صعد إلى القلعة و دخل على السلطان و قال: يا خوند أنت رسمت للأمير شرف الدين أن يفتح فى السور بابا، و هو سور حصين على البلد. فقال السلطان: إنما شاورنى أن يفتح خوخة لأجل حضور الناس للصلاة فى جامعه. فقال الخازن: يا خوند ما فتح إلّا بابا يعادل باب زويلة، و عمل عليه رنكة، و قصد يعمل سلطانا على البارد، و ما جرت عادة أحد بفتح سور البلد. فأثر هذا الكلام من الخازن فى نفس السلطان أثرا قبيحا و غضب غضبا شديدا، و بعث إلى النائب و قد اشتدّ حنقه بأن يسفر حسين بن حيدر إلى دمشق، بحيث لا يبيت فى المدينة، فخرج من يومه من البلد بسبب ما تقدّم ذكره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۸۹

ذكر الرحاب

الرحبة بإسكان الحاء و فتحها: الموضع الواسع، و جمعها رحاب. اعلم أنّ الرحاب كثيرة لا تتغير إلّا بأن يبنى فيها، فتذهب و يبقى اسمها، أو يبنى فيها و يذهب اسمها و يجهل، و ربما انهدم بنيان و صار موضعه رحبة أو دارا أو مسجدا، و الغرض ذكر ما فيه فائدة.

رحبة باب العيد: هذه الرحبة كان أوّلها من باب الريح أحد أبواب القصر الذى أدركنا هدمه على يد الأمير جمال الدين الاستادار، فى سنة إحدى عشرة و ثمانمائة، و إلى خزانة البنود، و كانت رحبة عظيمة فى الطول و العرض، غاية فى الاتساع، يقف فيها العساكر فارسها و راجلها فى أيام مواكب الأعياد ينتظرون ركوب الخليفة و خروجه من باب العيد، و يذهبون فى خدمته لصلاة العيد بالمصلى خارج باب النصر، ثم يعودون إلى أن يدخل من الباب المذكور إلى القصر، و قد تقدّم ذكر ذلك، و لم تزل هذه الرحبة خالية من البناء إلى ما بعد الستمائة من الهجرة، فاختط فيها الناس و عمروا فيها الدور و المساجد و غيرها، فصارت خطة كبيرة من أجل أخطاط القاهرة، و بقى اسم رحبة باب العيد باقيا عليها لا تعرف إلّا به.

رحبة قصر الشوك: هذه الرحبة كانت قبلىّ القصر الكبير الشرقىّ، فى غاية الاتساع، كبيرة المقدار، و موضعها من حيث دار الأمير الحاج أل ملك بجوار المشهد الحسينىّ و المدرسة الملكية إلى باب قصر الشوك، عند خزانة البنود، و بينها و بين رحبة باب العيد خزانة البنود و السفينة، و كان السالك من باب الديلم الذى هو اليوم المشهد الحسينىّ إلى خزانة البنود يمرّ فى هذه الرحبة، و يصير سور القصر على يساره، و المناخ و دار افتكين على يمينه، و لا يتصل بالقصر بنيان البتة، و ما زالت هذه الرحبة باقية إلى أن خرب القصر بفناء أهله، فاختط الناس فيها شيئا بعد شىء حتى لم يبق منها سوى قطعة صغيرة تعرف برحبة الأيد مرى.

رحبة الجامع الأزهر: هذه الرحبة كانت أمام الجامع الأزهر و كانت كبيرة جدّا، تبتدىء من خط اصطبل الطارمة إلى الموضع الذى فيه مقعد الأكفانيين اليوم، و من باب الجامع البحرىّ إلى حيث الخرّاطين. ليس بين هذه الرحبة و رحبة قصر الشوك سوى اصطبل الطارمة، فكان الخلفاء حين يصلّون بالناس بالجامع الأزهر تترجل العساكر كلها و تقف فى هذه الرحبة حتى يدخل الخليفة إلى الجامع، و سيأتى ذكر ذلك إن شاء اللّه تعالى عند ذكر الجوامع. و لم تزل هذه الرحبة باقية إلى أثناء الدولة الأيوبية، فشرع الناس فى العمارة بها إلى أن بقى منها قدّام باب الجامع البحرى هذا القدر اليسير.

رحبة الحلىّ: هذه الرحبة الآن من خط الجامع الأزهر و من بقية رحبة الجامع التى تقدّم ذكرها، عرفت بالقاضى نجم الدين أبى العباس أحمد بن شمس الدين علىّ بن نصر اللّه بن مظفر الحلىّ، التاجر العادل لأنها تجاه داره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۰

رحبة البانياسى: هذه الرحبة بدرب الأتراك تجاه دار الأمير طيدمر الجمدار الناصرى، و عرفت بالأمير نجم الدين محمود بن موسى البانياسىّ، لأنّ داره كانت فيها، و مسجده المعلق هناك، و مات بعد سنة خمسمائة.

رحبة الأيدمرى: هذه الرحبة من جملة رحبة باب قصر الشوك، و عرفت بالأيدمرى لأنّ داره هناك.

و الأيدمرىّ: هذا مملوك عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة فى أيام الملك الظاهر بيبرس، ترقى فى الخدم حتى تأمّر فى أيام الملك الظاهر بيبرس، و علت منزلته فى أيام الملك المنصور قلاوون، و مات سنة سبع و ثمانين و ستمائة، و دفن بتربته فى القرافة بجوار الشافعى رضى اللّه عنه.

رحبة البدرى: هذه الرحبة يدخل إليها من رحبة الأيدمرى من باب قصر الشوك، و من جهة المارستان العتيق، و هى من جملة القصر الكبير، عرفت بالأمير بيدمر البدرى صاحب المدرسة البدرية، فإن داره هناك.

رحبة ضروط: هذه الرحبة بجوار دار أىّ ملك، و هى من جملة رحبة قصر الشوك، عرفت بالأمير ضروط الحاجب، فإنه كان يسكن

هناك.

رحبة اقبغا: هذه الرحبة هى الآن سوق الخيميين، و هى من جملة رحبة الجامع الأزهر التى مرّ ذكرها، عرفت بالأمير اقبغا عبد الواحد أستادار الملك الناصر، و صاحب المدرسة الأقبغاوية.

رحبة مقبل: هذه الرحبة كانت تعرف بخط بين المسجدين، لأنّ هناك مسجدين أحدهما يقابل الآخر، و يسلك من هذه الرحبة إلى سويقة الباطلية، و إلى زقاق تريده، و عرفت أخيرا بالأمير زين الدين مقبل الرومى أمير جاندار الملك برقوق.

رحبة ألدمر: هذه الرحبة فى الدرب أوّل سوق الفرّايين مما يلى الأكفانيين، عرفت بالأمير سيف الدين الدمر الناصرىّ المقتول بمكة.

رحبة قرديغا: هذه الرحبة بخط الاكفانين، تجاه دار الأمير قردية الجمدار الناصرىّ، و كانت هذه الدار تعرف قديما بالأمير سنجر الشكارى، و له أيضا مسجد معلق يدخل من تحته إلى الرحبة المذكورة، و هناك اليوم قاعة الذهب التى فيها الذهب الشريط لعمل المزركش.

رحبة المنصورىّ: قبالة دار المنصورىّ، عرفت بالأمير قطلوبغا المنصورى المقدّم ذكره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۱

رحبة المشهد: هذه الرحبة تجاه المشهد الحسينى، كانت رحبة فيما بين باب الديلم أحد أبواب القصر الذى هو الآن المشهد الحسينى و بين اصطبل الطارمة.

رحبة أبى البقاء: هذه الرحبة من جملة رحبة باب العيد تجاه باب قاعة ابن كتيلة بخط السفينة، عرفت بقاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء محمد بن عبد البرّ بن يحيى بن علىّ بن تمام السبكىّ الشافعىّ، و مولده فى سنة سبع و سبعمائة، أحد العلماء الأكابر، تقلد قضاء القضاة بديار مصر و الشام و مات فى ... .

رحبة الحجازية: هذه الرحبة تجاه المدرسة الحجازية، و هى من جملة رحبة باب العيد، عرفت برحبة الحجازية.

رحبة قصر بشتاك: هذه الرحبة تجاه قصر بشتاك، و هى من جملة الفضاء الذى بين القصرين.

رحبة سلار: تجاه حمام البيسرى و دار الأمير سلار نائب السلطنة، هى أيضا من جملة الفضاء الذى كان بين القصرين.

رحبة الفخرى: هذه الرحبة بخط الكافورى تجاه دار الأمير سيف الدين قطلوبغا الطويل الفخرى السلاح دار الأشرفىّ، أحد أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون.

رحبة الأكز: بخط الكافورى، هذه الرحبة تجاه دار الأمير سيف الدين الأكز الناصرى الوزير، و تعرف أيضا برحبة الأبوبكرى، لأنها تجاه دار الأمير سيف الدين الأبوبكرى السلاح دار الناصرىّ، و هى شارعة فى الطريق يسلك إليها من دار الأمير تنكز و يتوصل منها إلى دار الأمير مسعود و بقية الكافورى.

رحبة جعفر: هذه الرحبة تجاه حارة برجوان، يشرف عليها شباك مسجد تزعم العوام أن فيه قبر جعفر الصادق. و هو كذب مختلق، و أفك مفترى، ما اختلف أخف من أهل العلم بالحديث و الآثار و التاريخ و السير أنّ جعفر بن محمد الصادق عليه السلام مات قبل بناء القاهرة بدهر، و ذلك أنه مات سنة ثمان و أربعين و مائة، و القاهرة بلا خلاف اختطت فى سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة بعد موت جعفر الصادق بنحو مائتى سنة و عشر سنين، و الذى أظنه أن هذا موضع قبر جعفر بن أمير الجيوش بدر الجمالى المكنّى بأبى محمد، الملقب بالمظفر، و لما ولى أخوه الأفضل ابن أمير الجيوش الوزارة من بعد أبيه جعل أخاه المظفر جعفرا يلى العلامة عنه، و نعت بالأجل المظفر سيف الإمام جلال الإسلام شرف الأنام ناصر الدين خليل، أمير المؤمنين أبى محمد جعفر بن أمير الجيوش بدر الجمالى، و توفى ليلة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۲

الخميس لسبع خلون من جمادى الأولى سنة أربع عشرة و خمسمائة، مقتولا، يقال قتله خادمه جوهر بمباطنة من القائد أبى عبد اللّه

محمد بن فاتك البطائحى، و يقال بل كان يخرج فى الليل يشرب، فجاء ليلة و هو سكران، فمازحه دراب حارة برجوان و ترامیا بالحجارة، فوقعت ضربة فى جنبه آلت به إلى الموت، و الذى نقل أنّه دفن بتربة أبيه أمير الجيوش فإما أن يكون دفن هنا أوّلا، ثم نقل أو لم يدفن هنا، و لكنه من جملة ما ينسب إليه، فإنه بجوار دار المظفر التى من جملتها دار قاضى القضاة شمس الدين محمد الطرابلسى و ما قاربها، كما ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى عند ذكر دار المظفر.

رحبة الأفيال: هذه الرحبة من جملة حارة برجوان، يتوصل إليها من رأس الحارة، و يسلك فى حدرة الزاهدىّ إليها، و أدركتها ساحة كبيرة، و المشيخة تسميها رحبة الأفيال، و كذا يوجد فى مكاتيب الدور القديمة، و يقال أنّ الفيلة فى أيام الخلفاء كانت تربط بهذه الرحبة أمام دار الضيافة، و لم تزل خربة إلى ما بعد سنة سبعين و سبعمائة، فعمر بها دويرات و وجد فيها بئر متسعة ذات وجهين تشبه أن تكون البئر التى كانت سوّاس الفيلة يستقون منها، ثم طمت هذه البئر بالتراب.

رحبة مازن: هذه الرحبة بحارة برجوان تجاه باب دار مازن التى خربت، و فيها المسجد المعروف بمسجد بنى الكوبك.

رحبة أقوش: هذه الرحبة بحارة برجوان تجاه قاعة الأمير جمال الدين أقوش الرومى السلاح دار الناصرىّ، التى حل وقفها بهاء الدين محمد بن البرجى، ثم بيعت من بعده، و مات أقوش سنة خمس و سبعمائة.

رحبة برلغى: هذه الرحبة عند باب سرّ المدرسة القراسنقرية، تجاه دار الأمير سيف الدين برلغى الصغير، صهر الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، و هذه الرحبة من جملة خط داء الوزارة.

رحبة لؤلؤ: هذه الرحبة بحارة الديلم فى الدرب الذى بخط ابن الزلابى، و هى تجاه دار الأمير بدر الدين لؤلؤ الزردكاش الناصرىّ، و هو من جملة من فرّ مع الأمير قراسنقر و أقوس الأفرم إلى ملك التتر بو سعيد.

رحبة كوكاى: هذه الرحبة بحارة زويلة، عرفت بالأمير سيف الدين كوكاى السلاح دار الناصرىّ، و فيها المدرسة القطبية الجديدة.

رحبة ابن أبى ذكرى: هذه الرحبة بحارة زويلة، و هى التى فيها البئر السائلة بالقرب من المدرسة العاشورية، عرفت بالأمير ابن أبى ذكرى، و هى من الرحاب القديمة التى كانت أيام الخلفاء، و بها الآن سوق حارة اليهود القرّايين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۳

رحبة بيبرس: هذه الرحبة يتوصل إليها من سويقة المسعودىّ، و من حمام ابن عبود، عرفت بالملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، فإنّ بصدرها داره التى كانت سكنه قبل أن يتقلد سلطنة ديار مصر، و قد حلّ وقفها و بيعت.

رحبة بيبرس الحاجب: هذه الرحبة بخط حارة العدوية عند باب سر الصاغة، عرفت بالأمير بيبرس الحاجب، لأنّ داره بها، و بيبرس هذا هو الذى ينسب إليه غيط الحاجب بجوار قنطرة الحاجب، و بهذه الرحبة الآن فندق الأمير الطواشى زمام الدور السلطانية زين الدين مقبل، و به صار الآن هذا الخط يعرف بخط فندق الزمام، بعد ما كنا نعرفه يعرف بخط رحبة بيبرس الحاجب.

رحبة الموفق: تعرف هذه الرحبة بحارة زويلة تجاه دار الصاحب الوزير موفق الدين أبى البقاء هبة اللّه بن إبراهيم، المعروف بالموفق الكبير، و هى بالقرب من خوخة الموفق، المتوصل منها إلى الكافورى من حارة زويلة.

رحبة أبى تراب: هذه الرحبة فيما بين الخرشنف و حارة برجوان، تشبه أن تكون من جملة الميدان، ادركتها رحبة بها كيمان تراب، و سبب نسبتها إلى أبى تراب أن هناك مسجدا من مساجد الخلفاء الفاطميين، تزعم العامّة و من لا خلاق له أن به قبر أبى تراب النخشبىّ، و هذا القول من أبطل الباطل، و أقبح شىء فى الكذب، فإنّ أبا تراب النخشبى هو أبو تراب عسكر بن حصين النخشبى، صحب حاتما الأصم و غيره، و هو من مشايخ الرسالة، و مات بالبادية نهشته السباع سنة خمس و أربعين و مائتين، قبل بناء القاهرة بنحو مائة و ثلاث سنين، و قد أخبرنى القاضى الرئيس تاج الدين أبو الفداء إسماعيل بن أحمد بن عبد الوهاب بن الخطباء المخزومى، خال أبى رحمه اللّه، قبل أن يختلط قال: أخبرنى مؤدّبى الذى قرأت عليه القرآن، أن هذا المكان كان كوما، و أن شخصا حفر فيه ليبنى عليه دارا فظهرت له شرافات، فمازال يتبع الحفر حتى ظهر هذا المسجد، فقال الناس: هذا أبو تراب، من حينئذ، و يؤيد ما قال: أنى

أدركت هذا المسجد محفوفا بالكيمان من جهاته و هو نازل فى الأرض، ينزل إليه بنحو عشر درج، و ما برح كذلك إلى ما بعد سنة ثمانين و سبعمائة، فنقلت الكيمات التراب التى كانت هناك حوله، و عمر مكانها ما هنالك من دور، و عمل عليها درب من بعد سنة تسعين و سبعمائة، و زالت الرحبة و المسجد على حاله، و أنا قرأت على بابه فى رخامة قد نقش عليها بالقلم الكوفىّ عدّة اسطر، تتضمن أنّ هذا قبر أبى تراب حيدرة ابن المستنصر بالله، أحد الخلفاء الفاطميين. و تاريخ ذلك فيما أظنّ بعد الأربعمائة، ثم لما كان فى سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة سوّلت نفس بعض السفهاء من العامّة له أن يتقرّب بزعمه إلى اللّه تعالى بهدم هذا المسجد و يعيد بناءه، فجبى من الناس مالا شحذه منهم و هدم المسجد، و كان بناء حسنا، و ردمه بالتراب نحو سبعة أذرع حتى ساوى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۴

الأرض التى تسلك المارّة منها، و بناه هذا البناء الموجود الآن، و بلغنى أن الرخامة التى كانت على الباب نصبوها على شكل قبر أحدثوه فى هذا المسجد، و بالله ان الفتنة بهذا المكان الآخر من حارة برجوان الذى يعرف بجعفر الصادق لعظيمة، فإنهما صارا كالأنصاب التى كانت تتخذها مشركوا العرب، يلجأ إليهما سفهاء العامّة و النساء فى أوقات الشدائد، و ينزلون بهذين الموضعين كربهم و شدائدهم التى لا ينزلها العبد إلا بالله ربه، و يسألون فى هذين الموضعين ما لا يقدر عليه إلا اللّه تعالى وحده، من وفاء الدين من غير جهة معينة، و طلب الولد و نحو ذلك، و يحملون النذور من الزيت و غيره إليهما، ظنا أن ذلك ينجيهم من المكاره، و يجلب إليهم المنافع، و لعمرى إن هى إلّا كرّة خاسرة، و للّه الحمد على السلامة.

رحبة أرقطاى: هذه الرحبة بحارة الروم قدّام دار الأمير الحاج أرقطاى نائب السلطنة بالديار المصرية.

رحبة ابن الضيف: هذه الرحبة بحارة الديلم، و هى من الرحاب القديمة، عرفت بالقاضى أمين الملك إسماعيل بن أمين الدولة الحسن بن علىّ بن نصر بن الضيف، و فى هذه الرحبة الدار المعروفة بأولاد الأمير طنبغا الطويل، بجوار حكر الرصاصىّ، و تعرف هذه الرحبة أيضا بحمدان البزاز و بابن المخزومى.

رحبة وزير بغداد: هذه الرحبة بدرب ملوخيا، عرفت بالأمير الوزير نجم الدين محمود بن علىّ بن شردين، المعروف بوزير بغداد، قدم إلى مصر يوم الجمعة ثامن صفر سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة، و هو و حسام الدين حسن بن محمد بن محمد الغورىّ الحنفىّ، فارّين من العراق بعد قتل موسى ملك التتر، فأنعم عليه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون باقطاع أمرة تقدمة ألف. مكان الأمير طازبغا، عند وفاته، فى ليلة السبت ثامن عشرى جمادى الأولى من السنة المذكورة. فلما مات الملك الناصر محمد بن قلاون، و قام فى الملك من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر بن محمد، قلد الوزارة بالديار المصرية للأمير نجم الدين محمود وزير بغداد فى يوم الاثنين ثالث عشر المحرّم سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة. و بنى له دار الوزارة بقلعة الجبل، و أدركناها دار النيابة و عمل له فيها شباك يجلس فيه، و كان هذا قد أبطله الملك الناصر محمد، و خربت قاعة الصاحب، فلم يزل إلى أن صرف فى أيام الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاون عن الوزارة، بالأمير ملكتمر السرجوانى فى مستهل رجب سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة، ثم أعيد فى آخر ذى الحجة بعد تمنع منه، و اشترط أن يكون جمال الكفاة ناظر الخاص معه صفة مشير، فأجيب إلى ذلك.

فلما قبض على جمال الكفاة، صرف وزير بغداد و ولى بعده الوزارة الأمير سيف الدين ايتمش الناصرىّ، فى يوم الأربعاء ثانى عشرى ربيع الآخر سنة خمس و أربعين، بحكم استعفائه منها، فباشرها أيتمش قليلا و سأل أن يعفى من المباشرة فأعفى، و ذلك لقلة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۵

المتحصل و كثرة المصروف فى الأنعام على الجوارى و الخدّام و حواشيهم، و كانت الكلف فى كل سنة ثلاثين ألف ألف دينار، و المتحصل خمسة عشر ألف ألف، نحو النصف، و مرتب السكّر فى شهر رمضان كان ألف قنطار، فبلغ ثلاثة آلاف قناطر.

رحبة الجامع الحاكمى: هذه الرحبة من غير قاهرة المعز التى وضعها القائد جوهر، و كانت من جملة الفضاء الذى كان بين باب النصر و المصلى، فلما زاد أمير الجيوش بدر الجمالى فى مقدار السور صارت من داخل باب النصر الآن، و كانت كبيرة فيما بين الحجر و

الجامع الحاكمى، و فيما بين باب النصر القديم و باب النصر الموجود الآن، ثم بنى فيها المدرسة القاصدية التى هى تجاه الجامع. و ما فى صفها إلى حمّام الجاولى، و بنى فيها الشيخ قطب الدين الهرماس دارا ملاصقة لجدار الجامع، ثم هدمت كما سيأتى فى خبرها إن شاء اللّه تعالى، عند ذكر الدور، و فى موضعها الآن الربع و الحوانيت سفله، و القاعة الجارى ذلك فى أملاك ابن الحاجب، و ادركت إنشاءها فيما بعد سنة ثلاثين، و هذه الرحبة تؤخذ أجرتها لجهة وقف الجامع.

رحبة كتبغا: هذه الرحبة من جملة اصطبل الجميزة، و هى الآن من خط الصيارف يسلك إليها من الجملون الكبير بسوق الشرابشيين، و من خط طواحين الملحيين و غيره، عرفت بالملك العادل زين الدين كتبغا، فإنها تجاه داره التى كان يسكنها، و هو أمير قبل أن يستقرّ فى السلطنة، و سكنها بنوه من بعده، فعرفت به، ثم حل وقفها فى زمننا و بيعت.

رحبة خوند: هذه الرحبة بآخر حارة زويلة، فيما بينها و بين سويقة المسعودىّ، يتوصل إليها من درب الصقالبة و من سويقة المسعودىّ، و هى من الرحاب القديمة، كانت تعرف فى أيام الخلفاء برحبة ياقوت، و هو الأمير ناصر الدولة ياقوت. والى قوص، أحد أجلّاء الأمراء، و لما قام طلائع ابن رزبك بالوزارة فى سنة تسع و أربعين و خمسمائة، هم ناصر الدولة ياقوت بالقيام عليه، فبلغ طلائع الملقب بالصالح بن رزبك ذلك فقبض عليه و على أولاده و اعتقلهم فى يوم الثلاثاء تاسع عشرى ذى الحجة سنة اثنتين و خمسين و خمسمائة، فلم يزل فى الاعتقال إلى أن مات فيه يوم السبت سابع عشر رجب سنة ثلاث و خمسين، فأخرج الصالح أولاده من الاعتقال و أمّرهم و أحسن إليهم، ثم عرفت هذه الرحبة من بعده بولده الأمير ربيع الإسلام محمد بن ياقوت، ثم عرفت فى الدولة الأيوبية برحبة ابن منقذ، و هو الأمير سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، ثم عرفت برحبة الفلك المسيرىّ، و هو الوزير فلك الدين عبد الرحمن المسيرى، وزير الملك العادل أبى بكر بن الملك العادل بن أيوب، ثم عرفت الآن برحبة خوند، و هى الست الجليلة أردوتكين ابنة نوغيه السلاح دار، زوج الملك الأشرف خليل بن قلاون، و امرأة أخيه من بعده الملك الناصر محمد، و هى صاحبة تربة الست خارج باب القرافة، و كانت خيّرة و ماتت أيما فى سنة أربع و عشرين و سبعمائة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۶

رحبة قراسنقر: هذه الرحبة برأس حارة بهاء الدين، تجاه دار الأمير قراسنقر، و بها الآن حوض تشرب منه الدواب.

رحبة بيغرا: بدرب ملوخيا، عرفت بالأمير سيف الدين بيغرا، لأنها تجاه داره.

رحبة الفخرى: بدرب ملوخيا، عرفت بالأمير منكلى بغا الفخرىّ، صاحب التربة بظاهر باب النصر، لأنها تجاه داره.

رحبة سنجر: هذه الرحبة بحارة الصالحية فى آخر درب المنصورىّ، عرفت بالأمير سنجر الجمقدار علم الدين الناصرىّ، لأنها تجاه داره، ثم عرفت برحبة ابن طرغاى، و هو الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير سيف الدين طرغاى الجاشنكير نائب طرابلس.

رحبة ابن علكان: هذه الرحبة بالجودرية فى الدرب المجاور للمدرسة الشريفية، عرفت بالأمير شجاع الدين عثمان بن علكان الكردىّ، زوج ابنة الأمير يازكوج الأسدىّ، و بابنه منها، الأمير أبو عبد اللّه سيف الدين محمد بن عثمان، و كان خيرا، استشهد على غزة بيد الفرنج فى غرّة شهر ربيع الأوّل، سنة سبع و ثلاثين و ستمائة، و كانت داره و دار أبيه بهذه الرحبة، ثم عرفت بعد ذلك برحبة الأمير علم الدين سنجر الصيرفىّ الصالحىّ.

رحبة ازدمر: بالجودرية، هذه الرحبة بالدرب المذكور أعلاه، عرفت بالأمير عز الدين ازدمى الأعمى الكاشف، لأنها كانت أمام داره.

رحبة الاخناى: هذه الرحبة فيما بين دار الديباج و الوزيرية، بالقرب من خوخة أمير حسين، عرفت بقاضى القضاة برهان الدين إبراهيم بن قاضى القضاة علم الدين محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدران الأخناى المالكىّ، لأنها تجاه داره، و قد عمر عليها درب فى أعوام بضع و تسعين و سبعمائة.

رحبة باب اللوق: رحاب باب اللوق خمس رحاب، ينطلق عليها كلها الآن رحبة باب اللوق، و بها تجتمع أصحاب الحلق و أرباب الملاعب و الحرف، كالمشعبذين و المخايلين و الحواة و المتأففين و غير ذلك، فيحشر هنالك من الخلائق للفرجة و لعمل الفساد ما

لا ينحصر كثرة، و كان قبل ذلك فى حدود ما قبل الثمانين و سبعمائة من سنىّ الهجرة، إنما تجتمع الناس لذلك فى الطريق الشارع المسلوك من جامع الطباخ بالخط المذكور إلى قنطرة قدادار.

رحبة التبن: هذه الرحبة قريبة من رحبة باب اللوق فى بحرى منشأة الجوّانية، شارعة فى الطريق العظمى المسلوك فيها من رحبة باب اللوق إلى قنطرة الدكة، و يتوصل إليها السالك من عدّة جهات، و كانت هذه الرحبة قديما تقف بها الجمال بأحمال التبن لتباع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۷

هناك، ثم اختطت و عمرت و صارت بها سويقة كبيرة عامرة بأصناف المأكولات، و الخط إنما يعرف برحبة التبن، و قد خرب بعد سنة ست و ثمانمائة.

رحبة الناصرية: هذه الرحبة كانت فيما بين الميدان السلطانىّ و البركة الناصرية أيام كانت تلك الخطة عامرة، و كان يتفق فى ليالى أيام ركوب السلطان إلى الميدان فى كل سنة من الاجتماع و الإنس ما ستقف على بعض و صفه عند ذكر المنتزهات إن شاء اللّه تعالى. و قد خربت الأماكن التى كانت هناك، و جهلت هذه الرحبة إلّا عند القليل من الناس.

رحبة ارغون ازكه: و العامّة تقول رحبة أزكى بياء، و هى رحبة كبيرة بالقرب من البركة الناصرية، و هذه الرحبة و ما حولها من جملة بستان الزهرىّ الآتى ذكره إن شاء اللّه فى الأحكار، و عرفت بالأمير ارغون أزكى.

ذكر الدور

قال ابن سيدة الدار: المحل يجمع البناء و العرصة التى هى من داريدور، لكثرة حركات الناس فيها، و الجمع أدور، و أدؤر، و ديار، و ديارة، و ديارات، و ديران، و دور، و دورات، و الدارة لغة فى الدار، و الدار البلد، و البيت من الشعر، ما زاد على طريقة واحدة. و هو مذكر يقع على الصغير و الكبير. و قد يقال للمبنىّ و البيت، أخص من غير الأبنية التى هى الأخبية بيت، و جمع البيت أبيات و أبابيت، و بيوت و بيوتات، و البيت أخص من الدار، فكلّ دار بيت، و لا ينعكس. و لم تكن العرب تعرف البيت إلّا الخباء، ثم لما سكنوا القرى و الأمصار و بنوا بالمدر و اللبن سموا منازلهم التى سكنوها دورا و بيوتا، و كانت الفرس لا تبيح شريف البنيان، كما لا تبيح شريف الأسماء إلّا لأهل البيوتات، كصنيعهم فى النواويس و الحمامات و القباب الخضر و الشرف على حيطان الدار و كالعقد على الدهليز.

دار الأحمدى: هذه الدار من جملة حارة بهاء الدين، و بها مشترف عال فوق بدنة من بدنات سور القاهرة، ينظر منه أرض الطبالة و خارج باب الفتوح، و هى إحدى الدور الشهيرة، عرفت بالأمير بيبرس الأحمدى.

بيبرس الأحمدى: ركن الدين أمير جاندار، تنقل فى الخدم أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أن صار أمير جاندار أحد المقدّمين، فلما مات الملك الناصر قوى عزم قوصون على إقامة الملك المنصور أبى بكر بعد أبيه، و خالف بشتاك، فلما نسب المنصور إلى اللعب حضر إلى باب القصر بقلعة الجبل و قال: أىّ شىء هذا اللعب، فلما ولى الناصر أحمد أخرجه لنيابة صفد فأقام بها مدة، ثم أحس من الناصر أحمد بسوء فخرج من صفد بعسكره إلى دمشق، و ليس بها نائب، فهمّ الأمراء بإمساكه، ثم أخروا ذلك و أرسلوا إليه الإقامة، فقدم البريد من الغد بإمساكه، فكتب الأمراء من دمشق إلى السلطان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۸

يشفعون فيه، فعاد الجواب بأنه لا بدّ من القبض عليه و نهب ماله و قطع رأسه و إرساله، فأبوا من ذلك و خلعوا الطاعة و شقوا العصا جميعا، فلم يكن بأسرع من ورود الخبر من مصر بخلع الناصر أحمد و إقامة الصالح إسماعيل فى الملك بدله، و الأحمدىّ مقيم بقصر تنكز من دمشق، فورد عليه مرسوم بنيابة طرابلس، فتوجه إليها و أقام بها نحو الشهرين، ثم طلب إلى مصر فسار إليها و أخرج لمحاصرة أحمد بالكرك، فحصره مدّة و لم ينل منه شيئا، ثم عاد إلى القاهرة فأقام بها حتى مات فى يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرّم سنة ست و أربعين و سبعمائة، و له من العمر نحو الثمانين سنة و كان أحد الأبطال الموصوفين بقوّة النفس و شدّة العزم و محبة الفقراء و إيثار

الصالحين، و له مماليك قد عرفوا بالشجاعة و النجدة، و كان ممن يقتدى برأيه و تتبع آثاره لمعرفته بالأيام و الوقائع، و ما برحت ذريته بهذه الدار إلى الآن، و أظنها موقوفة عليهم.

دار قراسنقر: هذه الدار برأس حارة بها الدين، أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر، و بها كان سكنه، و هى إحدى الدور الجليلة، و وجد بها فى سنة اثنتى عشرة و سبعمائة لما أحيط بها، اثنان و ثلاثون ألف ألف دينار، و مائة ألف و خمسون ألف درهم فضة، و سروج مذهبة و غير ذلك، فحمل الجميع إلى بيت المال، و لم تزل جارية فى أوقاف المدرسة القراسنقرية إلى أن اغتصبها الأمير جمال الدين يوسف الاستادار، فيما اغتصب من الأوقاف، و جعلها وقفا على مدرسته التى أنشأها برحبة باب العيد، فلما قتله الملك الناصر فرج بن برقوق و ارتجع جميع ما خلفه و صار فى جملة الأموال السلطانية، ثم أفرد من الأوقاف التى جعلها جمال الدين على مدرسته شيئا، و جعل باقيها لأولاده، و على تربته التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق بالصحراء تحت الجبل، خارج باب النصر، فلما قتل الملك الناصر فرج، صارت هذه الدار بيد الأمير طوغان الدوادار، و كانوا كسارق من سارق، و ما من قتيل يقتل إلّا و على ابن آدم الأوّل كفل منه، لأنه أوّل من سنّ القتل.

دار البلقينى: هذه الدار تجاه مدرسة شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى، من حارة بهاء الدين، أنشأها قاضى العساكر بدر الدين محمد بن شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينىّ الشافعىّ. و مات فى يوم الخميس لست بقين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، و لم تكمل، فاشتراها أخوه قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن شيخ الإسلام و كمّلها، و بها الآن سكنه، و هى من أجلّ، دور القاهرة صورة و معنا، و قد ذكرت الأخوين و أبيهما فى كتابى المنعوت بدرر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة، فانظر هناك أخبارهم.

دار منكوتمر: هذه الدار بحارة بهاء الدين، بجوار المدرسة المنكوتمرية، أنشأها الأمير منكوتمر نائب السلطنة بجوار مدرسته الآتى ذكرها عند ذكر المدارس إن شاء اللّه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۹۹

تعالى، و هى من الدور الجليلة، و بها إلى اليوم بعض ذريته و هى وقف.

دار المظفر: هذه الدار كانت بحارة برجوان، أنشأها أمير الجيوش بدر الجمالى إلى أن مات، فلما ولى الوزارة من بعده ابنه الأفضل ابن أمير الجيوش، و سكن دار القباب التى عرفت بدار الوزارة، و قد تقدّم ذكرها، صار أخوه المظفر أبو محمد جعفر بن أمير الجيوش بهذه الدار، فعرفت به، و قيل لها دار المظفر، و صارت من بعده دار الضيافة، كما مرّ فى هذا الكتاب. و آخر ما أعرفه أنها كانت ربعا و حمّاما و خرائب، فسقط الربع بعد سنة سبعين و سبعمائة، و كانت الحمام قد خربت قبل ذلك، فلم تزل خرابا إلى سنة ثمان و ثمانين و سبعمائة، فشرع قاضى القضاة شمس الدين محمد بن أحمد بن أبى بكر الطرابلسىّ الحنفىّ فى عمارتها، فلما حفر أساس جداره القبلىّ ظهر تحت الردم عتبة عظيمة من حجر صوّان مانع، يشبه أن يكون عتبة دار المظفر، و كان الأمير جهاركس الخليلىّ إذ ذاك يتولى عمارة المدرسة التى أنشأها الملك الظاهر برقوق بخط بين القصرين، فبعث بالرجال لهذه العتبة و تكاثروا على جرّها إلى العمارة، فجعلها فى المزمّلة التى تشرب منها الناس الماء بدهليز المدرسة الظاهرية، و كمّل قاضى القضاة شمس الدين بناء داره، حيث كانت دار المظفر، فجاءت من أحسن دور القاهرة، و تحوّل إليها بأهله و ما زال فيها حتى مات بها، و هو متقلد وظيفة قضاء القضاة الحنفية بالديار المصرية، فى ليلة السبت الثامن عشر من ذى الحجة سنة تسع و تسعين و سبعمائة، و له من العمر سبعون سنة و أشهر، و مولده بطرابلس الشام، و أخذ الفقه على مذهب أبى حنيفة رحمه اللّه، عن جماعة من أهل طرابلس.

ثم خرج منها إلى دمشق فقرأ على صدر الدين محمد بن منصور الحنفىّ، و وصل إلى القاهرة و قاضى الحنفية بها قاضى القضاة جمال الدين عبد اللّه التركمانىّ، فلازمه و ولّاه العقود و أجلسه ببعض حوانيت الشهود، فتكسب ممن تحمل الشهادة مدّة. و قرأ على قاضى القضاة سراج الهدى، و لازمه فولّاه نيابة القضاء بالشارع، فباشرها مباشرة مشكورة، و أجازه العلامة شمس الدين محمد بن الصائغ

الحنفيّ بالإفتاء و التدريس، فلما مات صدر الدين بن منصور قلده الملك الظاهر برقوق قضاء القضاة مكانه فى يوم الاثنين ثانى عشرى شهر ربيع الآخر سنة ست و ثمانين و سبعمائة، فباشر القضاء بعفة و صيانة و قوّة فى الأحكام لها النهاية و مهابة و حرمة و صولة تذعن لها الخاصة و العامّة، إلى أن صرف فى سابع عشر رمضان سنة إحدى و تسعين و سبعمائة بشيخنا قاضى القضاة مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم التركمانيّ، فلم يزل إلى أن عزل مجد الدين و ولى من بعده قاضى القضاة و ناظر الجيوش جمال الدين محمود القيصريّ، و هو ملازم داره و ما بيده من التدريس، و هو على حال حسنة و تجلد من الكافة، إلى أن استدعاه السلطان فى يوم الثلاثاء تاسع شهر ربيع الأوّل سنة تسع و تسعين و سبعمائة، فقلّده وظيفة القضاء عوضا عن محمود القيصرى، فلم يزل حتى مات من عامه رحمه اللّه تعالى، و هذه الدار على يسرة من سلك من باب حارة برجوان طالبا المسجد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۰

المسمى بجعفر، و أما الحمّام فإنها فى مكانها اليوم ساحة بجوار دار قاضى القضاة شمس الدين، و من جملة حقوق دار المظفر رحبة الأفيال، و حدرة الزاهدى إلى الدار المعروفة بسكنى قريبا من حمّام الرومى.

دار ابن عبد العزيز: هذه الدار بحارة برجوان، على يمنة من سلك من باب الحارة طالبا حمّام الرومى، أيضا من جملة دار المظفر، كانت طاحونا، ثم خربت، فابتدأ عمارتها فخر الدين أبو جعفر محمد بن عبد اللطيف بن الكويك ناظر الأحباس، و مات و لم تكمل، فصارت لامرأته و ابنة عمه خديجة، فماتت فى رجب سنة اثنتين و ستين و سبعمائة، و قد تزوّجت من بعده بالقاضى الرئيس بدر الدين حسن بن عبد العزيز بن عبد الكريم ابن أبى طالب بن على بن عبد اللّه بن سيدهم النجميّ السيروانى، فانتقلت إليه، و مات فى سنة أربع و سبعين و سبعمائة، فى العشرين من جمادى الأولى، و ورثه من بعد موته كريم الدين ابن أخيه.

و هو عبد الكريم بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد الكريم بن أبى طالب بن علىّ بن عبد اللّه بن سيدهم، و مات آخر ربيع الأوّل سنة سبع و ثمانمائة عن سبعين سنة، و ولى نظر الجيوش بديار مصر للظاهر برقوق، فباعها لقريبه شمس الدين محمد بن عبد اللّه بن عبد العزيز، و كملها و سكنها مدّة طويلة إلى أن باعها فى سنة خمس و تسعين و سبعمائة بألفى دينار ذهبا، لخوند فاطمة ابنة الأمير منجك، فوقفتها على عتقائها، و هى إلى اليوم بيدهم، و تعرف ببيت ابن عبد العزيز المذكور، لطول سكنه بها، و كان خيّرا عارفا يلى كتابة ديوان الجيش، و عدّة مباشرات، و مات ليلة الثانى عشر من صفر سنة ثمان و تسعين و سبعمائة.

دار الجمقدار : هذه الدار على يسرة من سلك من باب حارة برجوان تحت القبو طالبا حمام الرومى، عرفت بالأمير علم الدين سنجر الجمقدار، من الأمراء البرجية، و قدّمه الملك الناصر محمد تقدمة ألف بعد مجيئه من الكرك إلى مصر، ثم أخرجه إلى الشام فأقام بها إلى أن حضر قطلو بغا الفخرىّ فى نوبة أحمد بالكرك، فحضر معهم و استقرّ من الأمراء بالديار المصرية إلى أن مات يوم الجمعة تاسع رمضان سنة خمس و أربعين و سبعمائة، و قد كبر و ارتعش و كان روميا ألثغ، صار لخالد بن الزراد المقدّم، فلما قبض عليه و مات فى ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة خمس و أربعين و سبعمائة تحت المقارع، ارتجعت عنه لديوان السلطان حسن فصارت فى يد ورثته إلى أن باع بعض أولاده اسهما منها، فاشتراها الأمير سودون الشيخونى نائب السلطنة، ثم تنقلت و بعضها وقف بيد أولاد السلطان حسن بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۱

محمد بن قلاوون إلى أن ملك ما تملك منها بالشراء قاضى القضاة عماد الدين أحمد بن عيسى الكركى و سكنها، إلى أن سافر، فصارت من بعده لورثته فباعوها للشيخ زين الدين أبى بكر القمنىّ، و هى بيده الآن.

دار أقوش: الرومى بحارة برجوان، هذه الدار من أجلّ دور القاهرة، و بابها من نحاس بديع الصنعة، يشبه باب المارستان المنصورى، و كان تجاهها اصطبل كبير يعلوه ربع فيه عدّة مساكن، عرفت بالأمير جمال الدين أقوش الرومى السلاح دار الناصرى، و توفى سنة سبع و سبعمائة، و هى مما وقفه على تربته بالقرافة، و قد خرب اصطبلها و علوه و بيع نقض ذلك و تداعت الدار أيضا للسقوط، فبيعت

انقاضا و صارت من جملة الأملاك.

دار بنت السعيدى: هذه الدار بحارة برجوان، عرفت بقاعة حنيفة بنت السعيدى إلى أن اشتراها شهاب الدين أحمد بن طوغان دوادار الأمير سودون الشيخونى نائب السلطان، فى سنة تسع و تسعين و سبعمائة، فأخذ عدّة مساكن مما حولها، و هدمها و صيرها ساحة بها، فصارت من أعظم الدور اتساعا و زخرفة، و فيها آبار سبعة معينة، و فسقية ينقل إليها الماء بساقية على فوهة بئر، و ما زال صاحبها شهاب الدين فيها إلى أن سافر إلى الاسكندرية فى محرّم سنة ثمان و ثمانمائة، فمات رحمه اللّه، و انتقلت من بعده لغير واحد بالبيع.

دار الحاجب: هذه الدار فيما بين الخرشتف و حارة برجوان، كان مكانها من جملة الميدان، و كان يسلك من حارة برجوان فى طريق شارعه إلى باب الكافوريّ، فلما عمر الأمير بكتمر هذه الدار جعل اصطبلها حيث كانت الطريق، و ركّب بابا بخوجة مما يلى حارة برجوان، و اشترط عليه الناس أن لا يمنع المارّة من سلوك هذا المكان، فوفى بما اشترط، و ما برح الناس يمرّون من هذا الطريق فى وسط الاصطبل على باب داره، سالكين من حارة برجوان إلى الكافورى و الخرشتف، و منها إلى حارة برجوان، و أنا سلكت من هذه الطريق غير مرّة، و كان يقال لها خوخة الحاجب، ثم لما طال الأمد و ذهبت المشيخة نسيت هذه الطريق و قفل الباب، و انقطع سلوك الناس منه، و صارت تلك الطريق من جملة حقوق الدار، و ما برحت هذه الدار ينصب على بابها الطوارق دائما، كما كانت عادة دور الأمراء فى الزمن القديم، فلما تغيرت الرسوم و بطل ذلك قلعت الطوارق من جانبى الباب. و أعلى اسكفته، و باب هذه الدار تجاه باب الكافوريّ، و عرفت بالأمير سيف الدين بكتمر الحاجب، صاحب الدار، خارج باب النصر و المدرسة بجواره، ثم حل وقفها سنة ثمان و عشرين و ثمانمائة، و بيعت كما بيع غيرها من الأوقاف. و هناك ترى ترجمته.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۲

دار تنكز: هذه الدار بخط الكافورى، كانت للأمير ايبك البغدادى، و هى من أجلّ دور القاهرة و أعظمها، انشأها الأمير تنكز نائب الشام، و أظنه أوقفها فى جملة ما أوقف، و كان بها ولده، و سكنها قاضى القضاة برهان الدين إبراهيم بن جماعة، فأنفق فى زخرفها على ما أشيع سبعة عشر ألف درهم، عنها يومئذ ما ينيف عن سبعمائة دينار مصرية، و لم تزل هذه الدار وقفا إلى أن بيعت على أنها ملك فى سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة بدون ألف دينار، لزين الدين عبد الباسط بن خليل، فجدّد بناءها و بنى تجاهها جامعة.

تنكز الأشرفى: سيف الدين أبو سعيد خليل، جلبه إلى مصر و هو صغير الخواجا علاء الدين السوسىّ، فنشأ بها عند الملك الأشرف خليل بن قلاوون، فلما ملك السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمّره أمرة عشرة، قبل توجهه إلى الكرك، و سافر معه إلى الكرك، و ترسل عنه منها إلى الأفرم، فاتهمه أنّ معه كتبا إلى الأمراء بالشام، و عرض عليه العقوبة فارجف منه و عاد إلى الناصر. فقال له: إن عدت إلى الملك فانت نائب دمشق، فلما عاد إلى الملك جهزه إلى دمشق فوصلها فى العشرين من ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة و سبعمائة، فباشر النيابة و تمكن فيها و سار بالعساكر إلى ملطية و افتتحها فى محرّم سنة خمس عشرة، و عظم شأنه و أمّن الرعايا حتى لم يكن أحد من الأمراء يظلم ذميّا، فضلا عن مسلم، خوفا من بطشه، و شدّة عقوبته، و كان السلطان لا يفعل شيئا بمصر إلّا و يشاوره فيه و هو بالشام، و قدم غير مرّة على السلطان فاكرمه و أجله بحيث أنه انعم عليه فى قدومه إلى مصر سنة ثلاث و ثلاثين بما مبلغه ألف ألف درهم و خمسون ألف درهم، عنها خمسون ألف دينار و نيف، سوى الخيل، و زادت أملاكه و سعادته و أنشأ جامعا بدمشق بديع الوصف بهج الزى، و عدّة مواضع، و كان الناس فى أيامه قد أمنوا كل سوء، إلّا أنه كان يتخيل خيالا فيحتدّ خلقه و يشتدّ غضبه، فهلك بذلك كثير من الناس، و لا يقدر أحد أن يوضح له الصواب لشدّة هيبته، و كان إذا أغضب لا يرضى البتة بوجه، و إذا بطش كان بطشه الجبارين، و يكون الذنب صغيرا فلا يزال يكبره، حتى يخرج فى عقوبة فاعله عن الحدّ، و لم يزل إلى أن أشيع بدمشق أنه يريد العبور إلى بلاد الططر، فبلغ ذلك السلطان فتنكر له و جهز إليه من قبض عليه فى ثالث عشرى ذى الحجة سنة أربعين، و أحيط بماله و قدم الأمير بشتاك إلى دمشق لقبضه، و خرج إلى مصر و معه من مال تنكز و هو من الذهب العين ثلاثمائة ألف و ستة و ثلاثون ألف دينار، و من الدراهم الفضة ألف ألف و خمسمائة ألف درهم، و من الجوهر و اللؤلؤ و الزركش و القماش ثمانمائة

حمل، ثم استخرج بعد ذلك من بقايا أمواله أربعون ألف دينار و ألف ألف و مائة ألف درهم، فلما وصل تنكز إلى قلعة الجبل جهز إلى الاسكندرية و اعتقل فيها نحو الشهر، و قتل فى محتبسه و دفن بها فى يوم الثلاثاء حادى عشرى المحرّم، سنة إحدى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۳

و أربعين و سبعمائة، و من الغريب أنه أمسك يوم الثلاثاء، و دخل مصر يوم الثلاثاء و دخل الاسكندرية يوم الثلاثاء و قتل يوم الثلاثاء، ثم نقل إلى دمشق فدفن بتربته جوار جامعه، ليلة الخامس من رجب سنة أربع و أربعين و سبعمائة، بعد ثلاث سنين و نصف بشفاعة ابنته.

دار أمير مسعود: هذه الدار بآخر خط الكافوريّ، عرفت بالأمير بدر الدين مسعود بن خطير الرومى، أحد الأمراء بمصر، أخرجه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى ذى الحجة سنة أربعين و سبعمائة إلى نيابة غزة، ثم نقل منها إلى إمرة دمشق و ولى نيابة طرابلس، ثم أعيد إلى دمشق و أصله من أتباع الأمير تنكز، فشكره عند الملك الناصر و قدّمه حتى صار أميرا حاجبا فلما قتل تنكز أخرجه لنيابة غزة، و تنقل فى نيابة طرابلس ثلاث مرات إلى أن استعفى من النيابة، فأنعم عليه بإمرة فى دمشق، و على ولديه بامرة طبلخاناه ، و ما زال مقيما بها حتى مات فى سابع شوال سنة أربع و خمسين و سبعمائة بدمشق، و مولده بها ليلة السبت سابع جمادى الأولى سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة.

دار نائب الكرك: هذه الدار فيما بين خط الخرشتف و خط باب سر المارستان المنصورى، و هى من جملة أرض الميدان، عرفت بالأمير أقوش الأشرفيّ المعروف بنائب الكرك صاحب الجامع.

أقوش الأشرفى: جمال الدين، ولّاه الملك الناصر محمد بن قلاون نيابة دمشق بعد مجيئه من الكرك، و عزله تنكز بعد قليل، و اعتقله إلى شهر رجب سنة خمس عشرة و سبعمائة، ثم أفرج عنه و جعله رأس الميمنة، و صار يقوم له إذا قدم مميزا له عن غيره من الأمراء، و كان لا يلبس مصقولا، و يمشى من داره هذه إلى الحمّام و هو حامل المئزر و الطاسة وحده، فيدخل الحمام و يخرج عريانا، فاتفق مرة أنّ رجلا رآه فعرفه، و أخذ الحجر و حك رجله و غسله و هو لا يكلمه كلمة واحدة، فلما خرج و صار إلى داره، طلب الرجل و ضربه و قال له: أنا مالى مملوك، ما عندى غلام، مالى طاسة حتى تتجرأ عليّ أنت، و كان يتوجه إلى معبد له فى الجبل الأحمر و ينفرد فيه وحده اليومين و الثلاثة، و يدخل منه إلى القاهرة و هو ماش و ذيله على كتفه حتى يصل إلى داره، و باشر نظر المارستان المنصورى مباشرة جيدة، ثم أخرجه السلطان إلى نيابة طرابلس فى أوّل سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة فأقام بها، ثم طلب الإقالة فأعفى و قبض عليه و اعتقل بقلعة دمشق، ثم نقل منها إلى صفد فحبس بها فى برج، ثم أخرج منها إلى الإسكندرية فمات بها معتقلا فى سنة ست و ثلاثين و سبعمائة.

و كان عسوفا جبارا فى بطشه، مات عدّة من الناس تحت الضرب قدّامه، و كان كريما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۴

سمحا إلى الغاية، و عرف بنائب الكرك لأنه أقام فى نيابتها من سنة تسعين و ستمائة إلى سنة تسع و سبعمائة.

دار ابن صغير: هذه الدار من جملة الميدان، و هى اليوم من خط باب سرّ المارستان المنصورى، أنشأها علاء الدين على بن نجم الدين عبد الواحد بن شرف الدين محمد بن صغير، رئيس الأطباء، و مات بحلب عند ما توجه إليها فى خدمة الملك الظاهر برقوق فى يوم الجمعة تاسع عشر ذى الحجة سنة ست و تسعين و سبعمائة. و دفن بها، ثم نقلته ابنته إلى القاهرة و دفنته بظاهرها.

دار بيبرس الحاجب: هذه الدار بخط حارة العدوية، و هى الآن من خط باب سر المارستان، عرفت بالأمير بيبرس الحاجب صاحب غيط الحاجب، فيما بين جسر بركة الرطلى و الجرف.

بيبرس الحاجب: الأمير ركن الدين، ترقى فى الخدم إلى أن صار أميراخور، فلما حضر الملك الناصر من الكرك عزله بالأمير ايدغمش، و عمله حاجبا، و ناب فى الغيبة عن الأمير تنكز بدمشق لما حج، ثم تجرّد إلى اليمن و عاد، فتنكر عليه السلطان و حبسه فى

ذى القعدة سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و أفرج عنه فى رجب سنة خمس و ثلاثين، و جهزه من الإسكندرية إلى حلب فصار بها أميرا من أمرائها، ثم تنقل منها إلى أمرة بدمشق بعد عزل تنكز، فلم يزل بها إلى أن توجه الفخرىّ و طشتمر إلى مصر، فأقرّه على نيابة الغيبة بدمشق، و كان قد أسنّ و مات فى شهر رجب سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة، و أدركنا له حفيدا يعرف بعلاء الدين أمير علىّ بن شهاب الدين أحمد بن بيبرس الحاجب، قرأ القراءات السبع على والده، و كان حسن الأداء للقراءة، مشهورا بالعلاج، يعالج بمائة و عشرة أرطال، مات و هو ساح فى سابع ربيع الآخر سنة إحدى و ثمانمائة.

دار عباس: هذه الدار كانت فى درب شمس الدولة، عرفت بالوزير عباس بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، أصله من المغرب و ترقى فى الخدم حتى ولى الغربية، و لقب بالأمير ركن الإسلام، و كانت أمّه تحت الأمير المظفر علىّ بن السلار والى البحيراء و الإسكندرية، فلما رحل علىّ بن السلار إلى القاهرة و أزال الوزير نجم الدين سليمان بن مصال من الوزارة و استقرّ مكانه فى وزارة الخليفة الظافر بأمر اللّه، و تلقب بالعادل، قدّمه لمحاربة ابن مصال فلم ينل غرضا، فخرج إليه عباس حتى ظفر به، و ولى ناصر الدين نصير بن عباس ولاية مصر بشفاعة جدّته أمّ عباس، فاختص به الخليفة الظافر و اشتغل به عمن سواه، و كان جريا مقداما، فخرج إليه أبو عباس بالعسكر لحفظ عسقلان من الفرنج و معه من الأمراء ملهم و الضرغام و أسامة بن منقذ، و كان أسامة خصيصا بعباس، فلما نزلوا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۵

بلبيس تذاكر عباس و أسامة مصر و طيبها و ما هم خارجون إليه من مقاساة السفر و لقاء العدوّ، فتأوّه عباس أسفا على مفارقة لذّاته بمصر، و أخذ يثرب على العادل بن السلار، فقال له أسامة: لو أردت كنت أنت سلطان مصر. فقال: كيف لى بذلك؟ قال: هذا ولدك ناصر الدين بينه و بين الخليفة مودّة عظيمة، فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر موضع زوج أمّك، فإنه يحبك و يكرهه، فإذا أجابك فاقتله و صر فى منزلته، فأعجب عباس ذلك و جهز ابنه لتقرير ما أشار به أسامة، فسار إلى القاهرة و دخلها على حين غفلة من العادل، و اجتمع بالخليفة و فاوضه فيما تقرّر، فأجابه إليه و نزل إلى دار جدّته، و كان من قتله للعادل علىّ بن سلار ما كان، فماج الناس و سرح الطائر من القصر إلى عباس و هو على بلبيس فى الانتظار، فقام من فوره و دخل القاهرة سحر يوم الأحد ثانى عشر المحرّم سنة ثمان و أربعين و خمسمائة، فوجد عدّة من الأتراك قد نفروا و خرجوا يدا واحدة إلى الشام، فصار إلى القصر و خلع عليه خلع الوزارة، فباشر الأمور و ضبط الأحوال و أكرم الأمراء و أحسن إلى الأجناد، و ازدادت مخالطة ولده للخليفة فخاف أن يقتله كما قتل ابن السلار، فما زال به حتى قتل الخليفة الظافر، كما تقدّم ذكره، و صار إلى القصر على العادة، فلما جلس فى مقطع الوزارة سأل الاجتماع على الخليفة، فدخل الزمام إلى دور الحرم فلم يجد الخليفة، فلما عاد إليه أحضر أخوى الظافر و اتهمهما بقتله و قتلهما قدّامه، و استدعى بولد الظافر عيسى و لقبه بالفائز بنصر اللّه، و كثرت النياحة على الظافر، و بحث أهل القصر على كيفية قتله، فكتبوا إلى طلائع بن رزبك و هو والى الأشمونين يستدعونه، فحشد و سار، فاضطرب عباس و كثرت مناكدة أهل القاهرة له، حتى أنّه مرّ يوما فرمى من طاقة تشرف على شارع بقدر مملوء طعاما حارّا، فعوّل على الفرار و خرج و معه ابنه و أسامة بن منقذ و جميع ما لهم من أتباع و مال و سلاح، و دخل طلائع إلى القاهرة و استقرّ فى وزارة الخليفة الفائز، فسير أهل القصر إلى الفرنج البريد بطلب عباس، فخرجوا إليه و كانت بينهم و بينه وقعة فرّ فيها أسامة فى جماعة إلى الشام، فظفر به الفرنج و قتلوه و أخذوا ابنه فى قفص من حديد، و جهزوه إلى القاهرة، و ذلك فى شهر ربيع الأوّل سنة تسع و أربعين و خمسمائة، فلما وصل ابنه إلى القصر قتل و صلب على باب زويلة، و أحرق بعد ذلك، ثم عرفت هذه الدار بعد ذلك بدار تقىّ الدين صاحب حماه، ثم خربت و حكر مكانها، فصار يعرف بحكر صاحب حماه، و بنى فيه عدّة دور و موضعها الآن بداخل درب شمس الدولة بالقرب من حمّام عباس التى تعرف اليوم بحمام الكويك.

دار ابن فضل اللّه: هذه الدار فيما بين حارة زويلة و البندقانيين، كان موضعها من جملة اصطبل الجميزة، عرفت بابن فضل اللّه: و بنو

فضل اللّه جماعة أوّلهم بمصر:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۶

شرف الدين: عبد الوهاب بن الصاحب جمال الدين أبى المآثر فضل اللّه ابن الأمير عز الدين الحلى بن دعجان العمرىّ، ولى كتابة السرّ للملك الناصر محمد بن قلاون، ثم صرفه عنها و ولاه كتابة السرّ بدمشق، فلم يزل بها حتى مات فى ثالث شهر رمضان سنة سبع عشرة و سبعمائة، و قد عمر و بلغ أربعا و تسعين سنة، و خلّف أموالا جمة، و رثاه الشهاب محمود، و قد ولى بعده و أرثاه علاء الدين علىّ بن غانم، و الجمال ابن نباتة، و كان فاضلا بارعا أديبا عاقلا و قورا ناهضا ثقة أمينا مشكورا، مليح الخط جيد الإنشاء، حدّث عن الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام و غيره.

و منهم محيى الدين: يحيى بن الصاحب جمال الدين أبى المآثر فضل اللّه بن مجلى بن دعجان بن خلف بن نصر بن منصور بن عبد اللّه بن علىّ بن محمد بن أبى بكر عبد اللّه بن عبيد اللّه بن عمر بن الخطاب القرشىّ العدوىّ المرىّ، ولى كتابة السرّ بالديار المصرية عن الملك الناصر، نقل إليها من كتابة سرّ دمشق لما مرض علاء الدين باستدعائه إلى مصر، و أقيم بدله فى كتابة سرّ دمشق شرف الدين أبو بكر بن الشهاب محمود، و كان استقراره فى محرّم سنة ثلاثين و سبعمائة، فباشرها إلى ثانى عشر شعبان سنة اثنتين و ثلاثين، و نقل منها إلى كتابة السرّ بدمشق، و طلب شرف الدين بن الشهاب محمود فاستقرّ فى كتابة السرّ بمصر إلى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث و ثلاثين، و طلب محيى الدين من دمشق هو و ابنه شهاب الدين أحمد، فوصلا إلى القاهرة غرّة جمادى الأولى، و خلع عليهما و رسم لهما بكتابة السرّ، و نقل ابن الشهاب محمود إلى كتابة السرّ بدمشق، فلم يزل محيى الدين يباشر كتابة السرّ هو و ابنه إلى أن كان من تنكز السلطان لولده شهاب الدين ما كان، و ذلك أنه كان استعفى من الوظيفة لثقل سمعه و كبر سنه، فأذن له أن يقيم ابنه القاضى شهاب الدين يباشر عنه، فصار الاسم لمحيى الدين و المباشر ابنه شهاب الدين إلى أن حضر الأمير تنكز نائب الشام إلى القلعة و سأل السلطان فى علم الدين محمد بن قطب الدين أحمد بن مفضل المعروف بابن القطب أن يوليه كتابة السرّ بدمشق، و كان السلطان لا يمنع تنكز شيئا يسأله، فخلع عليه و أقرّه فى ذلك عوضا عن جمال الدين عبد اللّه بن الأثير، فأخذ شهاب الدين ينقصه عند السلطان بأنه نصرانىّ الأصل، و ليس من أهل صناعة الإنشاء، و نحو ذلك، و السلطان مغض عنه غير ملتفت إلى ما يرمى به رعاية لتنكز، فلما كتب توقيع ابن القطب أراد تكثير الألقاب و الزيادة له فى المعلوم، فامتنع شهاب الدين من كتابة ذلك، و كان حادّ المزاج قوىّ النفس شرس الأخلاق، ففاجأ السلطان بغلظة و مخاشنة فى القول، و كان من كلامه كيف تعمل قبطيا أسلميا كاتب السرّ و تزيد فى معلومه، و بالغ فى الجراءة حتى قال ما يفلح من يخدمك، و خدمتك علىّ حرام، و نهض قائما لشدّة حنقه، و كان هذا منه بحضرة الأمراء فغضبوا لذلك و هموا بضرب عنقه، فأغضى السلطان عنه و بلغ محيى الدين ما كان من ابنه فبادر إلى السلطان و قبل الأرض و اعترف بخطإ ابنه و اعتذر عن تأخره بثقل سمعه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۷

فرسم له أن يكون ابنه علاء الدين علىّ يدخل و يقرأ البريد، فاعتذر بأنه صغير لا يقوم بالوظيفة. فقال السلطان أنا أربيه مثل ما أعرف، فصار يخلف أباه كما كان شهاب الدين، و انقطع شهاب الدين فى منزله مدّة سنين إلى أن مات أبوه محيى الدين فى يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة بالقاهرة، عن ثلاث و تسعين سنة، و هو متمتع بحواسه، فدفن ظاهر القاهرة ثم نقل إلى تربتهم من سفح قاسيون بدمشق، و كان صدرا معظما رزينا كامل السؤدد حركا كاتبا بارعا دبر الأقاليم بكفايته و حسن سياسته، و وفور عقله و أمانته و شدّة تحرّزه، و له النظم و النثر البديع الرايق فمن شعره:

تضاحكنى ليلى فأحسب ثغرها سنا البرق لكن أين منه سنا البرق

و أخفت نجوم الصبح حين تبسمتفقمت بفرعيها أشدّ على الشرق

و قلت سواء جنح ليل و شعرهاو لم أدر أنّ الصبح من جهة الفرق

علاء الدين: على بن يحيى بن فضل اللّه العمرىّ، استقل بوظيفة كتابة السرّ قبل موت أبيه محيى الدين، و خلع عليه يوم الاثنين رابع شهر رمضان سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة، و له من العمر أربع و عشرون سنة، فخرج و فى خدمته الحاجب و الدوادار، و تقدّم أمر السلطان للموقعين بامتثال ما يأمرهم به عن السلطان، فشق ذلك على أخيه شهاب الدين و حسده، و ربما قيل أنه سمّه، فكان يعتريه دم منه إلى أن مات، ثم إنه كتب قصة يسأل فيها السفر إلى الشام، و شكا كثرة الكلفة، و كان قبل ذلك جرى ذكره فى مجلس السلطان فذمّه و تهدّده، فعند ما قرئت عليه قصته تحرّك ما كان ساكنا من غضبه، و رسم بإيقاع الحوطة عليه، فحمل من داره إلى قاعة الصاحب من قلعة الجبل فى رابع عشرى شعبان سنة تسع و ثلاثين، و خرج إليه الأمير طاجار الدوادار، و أمر به فعرّى من ثيابه ليضرب بالمقارع، فرفق به و لم يضر به و استكتبه خطه بحمل عشرة آلاف، فأحيط بداره و أخرج سائر ما وجد له و بيع عليه، و أرسل مملوكه إلى بلاد الشام فباع كل ما له فيها، و اقترض خمسين ألف درهم حتى حمل من ذلك كله مائة و أربعين ألف درهم، عنها سبعة آلاف دينار، فسكن أمره و خف الطلب عنه و أقام إلى ثالث عشر ربيع الآخر سنة أربعين مدّة سبعة أشهر و ثمانية عشر يوما، ففرج اللّه عنه بأمر عجيب، و هو أنّه لما كان يباشر عن أبيه وقع شخص من الكتاب بشىء زور، فرسم السلطان بقطع يده، فلم يزل شهاب الدين يتلطف فى أمره حتى عفا السلطان عنه من قطع يده، و أمر به فسجن طول هذه السنين إلى أن قدّر اللّه سبحانه أنه رفع قصة يسأل فيها العفو عنه، فلما قرئت على السلطان لم يعرفه، فسأل عن خبره و شأنه، فقيل له لا يعرف خبر هذا إلا شهاب الدين بن فضل اللّه، فبعث إليه بقاعة الصاحب يستخبره عنه، فطالعه بقصته، و ما كان منه، فألان اللّه له قلب السلطان و رسم بالإفراج عن الرجل و عن شهاب الدين و عن مملوكه، ففرّج اللّه عن الثلاثة، و نزل شهاب الدين إلى داره و أقام إلى أن قبض السلطان على الأمير تنكز نائب الشام، فاستدعى شهاب الدين إلى حضرته و حلفه و ولاه كتابة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۸

السرّ بدمشق عوضا عن شرف الدين خالد بن عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن خالد بن نصر المخزومىّ، المعروف بابن القيسرانىّ، فباشرها حتى مات بدمشق، و انفرد أخوه علاء الدين بكتابة السرّ إلى أن مات ليلة الجمعة التاسع و العشرين من شهر رمضان سنة تسع و ستين و سبعمائة بمنزله من القاهرة، عن سبع و خمسين سنة، و ترك ستة بنين و أربع بنات.

بدر الدين: محمد بن على بن يحيى بن فضل اللّه، ولّاه الملك الأشرف شعبان بن حسين كتابة السرّ، و أبوه فى مرض موته، يوم الخميس ثامن عشرى شهر رمضان، سنة تسع و ستين و سبعمائة، و له من العمر تسع عشرة سنة، و جعل أخاه عز الدين حمزة نائبا عنه، فباشر إلى شوّال سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، فصرف بأوحد الدين عبد الواحد بن إسماعيل بن يس، و لزم داره فلم يره أحد البتة إلى أن مات أوحد الدين، فنزل إليه الأمير يونس الدوادار و استدعاه، فركب بثياب جلوسه من غير خف و لا فرجية و لا شاش و صعد إلى القلعة، فخلع عليه فى اليوم الرابع من ذى الحجة سنة ست و ثمانين، فلما ثار الأمير يلبغا الناصرى على الملك الظاهر و خلعه من الملك و أقام الملك الصالح حاجى بن الأشرف شعبان بن حسين و لقبه بالملك المنصور، ثم خرج الملك الظاهر برقوق من محبسه بالكرك و سار إلى محاربة الأمير تمربغا منطاش و معه المنصور حاجى، فخرج ابن فضل اللّه، فلما انهزم منطاش على شعجب و استولى برقوق على المنصور و الخليفة و القضاة و الخزائن، و كان ابن فضل اللّه و أخوه عز الدين فى من فرّ مع منطاش إلى دمشق، فأقام بها و استولى برقوق على تخت الملك بقلعة الجبل، فولى علاء الدين علىّ بن عيسى الكركى كتابة السرّ، و أخذ ابن فضل اللّه يتحيل فى الخروج من دمشق و سيّر إلى السلطان مطالعة فيها من شعره:

يقبل الأرض عبد بعد خدمتكمقد مسّه ضرر مثله ضرر

حصر و حبس و ترسيم أقام بهو فرقة الأهل و الأولاد و الفكر

لكنه و الورى مستبشرون بكميرجو بكم فرجا يأتى و ينتظر

و الشغل يقضى لأن الناس قد ندمواإذ عاينوا الجور من منطاش ينتشر

جورا كما فرّطوا فى حقكم و رأواظلما عظيما به الأكباد تنفطر

و اللّه إن جاءهم من بابكم أحدقاموا لكم معه بالروح و انتصروا

اللّه ينصركم طول المدا أبدايا من زمانهم من دهرنا غرر

قدم إلى القاهرة و معه أخوه عز الدين حمزة، و جمال الدين محمود القيصرى ناظر الجيش، و تاج الدين عبد الرحيم بن أبى شاكر، و شمس الدين محمد بن الصاحب، فما زال فى داره إلى أن سافر الملك الظاهر إلى بلاد الشام فى سنة ثلاث و تسعين، فتقدّم أمره إليه بالمسير مع العسكر، فسار بطالا، و قدّر اللّه تعالى ضعف علاء الدين الكركى، فولاه كتابة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۰۹

السرّ و صرف الكركى فى شوّال، و كانت هذه ولاية ثالثة، فباشر و تمكن هذه المرّة من سلطان تمكنا زائدا إلى أن سافر السلطان إلى البلاد الشامية فى سنة ست و تسعين، فمات بدمشق يوم الثلاثاء لعشرين من شوّال سنة ست و تسعين و سبعمائة، و دفن بترتبهم بسفح قاسيون، و مات أخوه حمزة بدمشق أيضا فى أوائل المحرم سنة سبع و تسعين و سبعمائة و دفن بها، و انقطع بموتهما هذا البيت فلم يبق من بعدهما إلّا كما قال اللّه سبحانه، فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا. و من شعر البدر محمد بن فضل اللّه ما كتبه عنوانا لكتاب الملك الظاهر برقوق جوابا عن كتاب تمرلنك الوارد إلى مصر فى سنة ست و تسعين و سبعمائة و عنوانه:

سلام و إهداء السلام من البعددليل على حفظ المودّة و العهد

فافتتح البدر العنوان بقوله:

طويل حياة المرء كاليوم فى العدّفخبرته أن لا يزيد على العدّ

فلا بدّ من نقص لكل زيادةلأنّ شديد البطش يقتص للعبد

و كتب فيه من شعره أيضا جوابا عن كثرة تهديد تمرلنك و افتخاره:

السيف و الرمح و النشاب قد علمت منا الحروب فسل منها تلبيكا

إذ التقينا تجد هذا مشاهدةفى الحرب فأثبت فأمر اللّه آتيكا

بخدمة الحرمين اللّه شرّفنافضلا و ملّكنا الأمصار تمليكا

و بالجميل و حلو النصر عوّدناخذ التواريخ و اقرأها فتنبيكا

و الأنبياء لنا الركن الشديد و كمبجاههم من عدوّ راح مفكوكا

و من يكن ربه الفتاح ناصرهممن يخاف و هذا القول يكفيكا

و قال:

إذا المرء لم يعرف قبيح خطيئةو لا الذنب منه مع عظيم بليته

فذلك عين الجهل منه مع الخطاو سوف يرى عقباه عند منيته

و ليس يجازى المرء إلا بفعلهو ما يرجع الصياد إلا بنيته

و هذه الدار كانت موجودة قبل بنى فضل اللّه، و تعرف بدار ببرس، فعمر فيها محيى الدين و ابنه علاء الدين، و كانت من أبهج دور القاهرة و أعظمها، و ما زالت بيد أولاد بدر الدين و أخيه عز الدين حمزة إلى أن تغلب الأمير جمال الدين على أموال الخلق، فأخذ ابن أخيه الأمير شهاب الدين أحمد الحاجب المعروف بسيدى أحمد بن أخت جمال الدين دار بنى فضل اللّه منهم، كما أخذ خاله دور الناس و أوقافهم و عوض أولاد ابن فضل اللّه عنها، و غيّر كثيرا من معالمها، و شرع فى الازدياد من العمارة اقتداء بخاله، فأخذ دورا كانت بجوار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۰

مستوقد حمام ابن عبود المقابلة لدار ابن فضل اللّه، و اغتصب لها الرخام و الأحجار و الأخشاب، و هدم عدّة دور و كثيرا من الترب بالقرافة، منها تربة الشيخ عز الدين بن عبد السلام، و كانت عجيبة البناء، و أدخل ذلك فى عمارته المذكورة، و وسع فيها من جهة البندقانيين ما كان خرابا منذ الحريق الذى تقدّم ذكره، و أنشأ من هناك حوض ماء يشرب منه الدواب، فلما قارب إكمالها قبض الملك الناصر فرج على خاله جمال الدين يوسف استادار و قتله، و كان أحمد هذا ممن قبض عليه معه، فوضع الأمير تغرى بردى، و هو يومئذ أجلّ أمراء الناصر، يده على هذه الدار، و ما رضى بأخذها حتى طلب كتابها فإذا به قد تضمن أنّ أحمد قد وقف هذه الدار، فلم يزل بقضاة العصر حتى حكموا له بهذه الدار و جعلوها له بطريق من طرقهم، فأقام فيها حتى أخرجه الناصر لنيابة دمشق فى سنة ثلاث عشرة و سبعمائة، فنزل بها الأمير دمرداش بإرث ابنة جمال الدين، و هى امرأة أحمد المذكور و لها منه أولاد، و أرادت استرجاع الدار كما فعلت فى مدرسة أبيها، و كان لها و لورثة تغرى بردى مخاصمات، و استقرّت لبنى تغرى بردى.

دار بيبرس: هذه الدار فيما بين دار ابن فضل اللّه و السبع قاعات فى ظهر حارة زويلة، و قريبة من سويقة المسعودى، تشبه أن تكون من جملة اصطبل الجميزة، كانت دار الشريف بن تغلب صاحب المدرسة الشريفية برأس حارة الجودرية، ثم عرفت بالأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، فإنه كان يسكنها و هو أمير قبل أن يلى السلطنة، و جدّد رخامها من الرخام الذى دل عليه الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح، بالقصر الذى عرف بقصر أمير سلاح، من جملة قصر الخلفاء، كما سيأتى خبر ذلك عند ذكر الخانقاة الركنية بيبرس، فإن بيبرس هذا هو الذى أنشأها و لم تزل إلى أن هدمها ناصر الدين محمد بن البارزى الحموىّ كاتب السرّ بعد ما اشتراها نقضا، كما اشترى غيرها من الأوقاف، و ذلك فى سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة.

السبع قاعات: هذه الدار عرفت بالسبع قاعات، و هى يتوصل إليها من جوار دار بيبرس المذكورة و من سويقة الصاحب، و قد صارت عدّة مساكن جليلة، و مكانها من جملة اصطبل الجميزة، أنشأها الوزير الصاحب علم الدين بن زنبور، و وقفها من جملة ما وقف، فلما قبض عليه الأمير صرغتمش فى حل أوقافه و وعد بالسبع قاعات خوند قطلوبنك ابنة الأمير تنكز الحسامىّ نائب الشام أمّ السلطان الملك الصالح صالح بن الناصر محمد بن قلاوون، و لقّنه الشريفان، شرف الدين علىّ بن حسين بن محمد نقيب الأشراف، و أبو العباس الصفراوىّ، أنّ الناصر لما قبض على كريم الدين الكبير، بعث إلى كريم الدين من شهد عليه أنّ جميع ما صار بيده من الأملاك وقفها و طلقها إنما هو من مال السلطان دون ماله، و شهد بذلك عند قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة، فأثبت بهذه الشهادة أن أملاك كريم الدين جارية فى الأملاك السلطان، فأقرّ السلطان ما وقفه كريم الدين منها على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۱

حاله و سماه الوقف الناصرى، فلما جلس السلطان الملك الصالح بدار العدل، و حضر قاضى القضاة و الأمراء و غيرهم من أهل الدولة على العادة، تكلم الأمير صرغتمش مع قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن بدر الدين محمد بن جماعة فى حل أوقاف ابن زنبور، فإنها ملك السلطان و من ماله اشتراها، و ذكر قضية كريم الدين، فأجابه بأنّ تلك القضية كانت صحتها مشهورة، و ذلك أنّ خزائن السلطان و حواصله و أمواله كلها كانت بيد كريم الدين و فى داره، يتصرف فيها على ما يختاره، جعل له السلطان بتوكيله و الإذن له فى التصرّف، بخلاف ابن زنبور، فإنه كان يتصرّف فى ماله الذى اكتسبه من المتجر و غيره، فما وقفه و ثبت وقفه و حكم قضاة الإسلام بصحته لا سبيل إلى حله، و ساعده فى ذلك القاضى موفق الدين عبد اللّه الحنبلىّ، و تردّد الكلام بينهما فى ذلك، فاحتج عليهما الأمير صرغتمش بما لقناه الشريفان من مشاطرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه، عماله و أخذه من كل عامل نصف ماله، و أن مال الوزير جميعه من مال السلطان، فقال له ابن جماعة: يا أمير، إن كنت تبحث معنا فى هذه المسألة بحثنا معك، و إن كان أحد قد ذكرها لك فليحضر حتى نبحث معه فيها، فإنّ الذى ذكر لك هذه المسألة إنما قصد أن تصادر الناس و تأخذ أموالهم، فوافقه رفقته الثلاثة قضاة على قوله، و أراد ابن جماعة بقوله هذا التعريض بالشريفين و كان اختصاصهما بالأمير

صرغتمش، و قيامهما على ابن زنبور مشهورا، فشق هذا على الأمير صرغتمش و انفض المجلس و قد اشتدّ حنقه لما ردّ عليه من كلامه و عورض فيه من مراده، فبعثت خوند أم السلطان إلى ابن جماعة تعرّفه ما وعدت به من مصير السبع قاعات إليها، و أكدت عليه فى أن لا يعارضها فى حلّ أوقاف ابن زنبور، فأجابها بتقبيح هذا، و خوّفها سوء عاقبته، فكفت عنه، و لقوّة غيظ الأمير صرغتمش مرض مرضا شديدا من انفتاح صدره و نفثه الدم، حتى خيف عليه الموت، ثم عوفى بعد ذلك بأيام، و ذلك كله فى سنة أربع و خمسين و سبعمائة، و استمرّت السبع قاعات وقفا بيد ذرية ابن زنبور إلى يومنا هذا، إلّا أنّ الأمير صرغتمش المذكور أخذ رخامها و وجد فيها شيئا كثيرا من صينىّ و نحاس و قماش و غير ذلك قد أخفى فى زواياها.

علم الدين: عبد اللّه بن تاج الدين أحمد بن إبراهيم، المعروف بابن زنبور، أوّل ما باشر به استيفاء الوجه القبلى شريكا لوهب بن سنجر، و طلع صحبته الأمير علم الدين عبد الرزاق كاشف الوجه القبلىّ، و نهض فيه، فلما كانت مصادرة ابن الجيعان كاتب الإصطبل، طلب السلطان سائر الكتاب، و كان منهم ابن زنبور، فعرضهم ليختار منهم فشكر الفخر ناظر الجيش منه و قال: هو ولد تاج الدين رفيقه و شكره الأكوز، فلما انفض المجلس طلبه و خلع عليه، فباشر نظر الإصطبل فى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، و نال فيه سعادة طائلة، و استمرّ إلى أن مات السلطان الملك الناصر محمد، و حكم الأمير ايدغمش، فباشر استيفاء الصحبة، فلما قبض على حمال الكفاة ناظر الخاص و ناظر الجيش و على الموفق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۲

ناظر الدولة و على الصفىّ ناظر البيوت، المعروف بكاتب قوصون، فى سنة خمس و أربعين و سبعمائة، و مات حمال الكفاة فى العقوبة يوم الأحد سادس شهر ربيع الأوّل، عيّن ابن زنبور لوظيفة نظر الخاص، ثم قرّر فيها القاضى موفق الدين هبة اللّه بن إبراهيم ناظر الدولة، و كان ابن زنبور و هو مستوفى الصحبة، قد سيّره حمّال الكفاة قبل القبض عليه، لكشف القلاع الشامية، و معه جارا كتمر الحاجب إبعادا له، و كان الأمير أرغون العلائى يعنى به، فلما قبض على حمّال الكفاة، تحدّث له العلائى مع السلطان الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون فى نظر الخاص، فبعث فى طلبه، ثم لم يحضر إلّا بعد شهر، فتحدّث الوزير نجم الدين محمود بن علىّ المعروف بوزير بغداد مع السلطان فى ولاية الموفق نظر الخاص، فخلع عليه، و حضر ابن زنبور من الشام فباشر نظر الدولة علم الدين بن سهلوك و ابن زنبور على ما هى عادته فى استيفاء الصحبة، و نهض فى المباشرة و حصّل الأموال و دخل هو و الوزير نجم الدين و شكيا، توقف الدولة من كثرة الإنعامات و الإطلاقات للخدم و الجوارى، و من يلوذ بهم، فتقرّر الحال مع الأمراء على كتابة أوراق بكلفة الدولة، فلما قرئت بمحضر من الأمراء بلغت الكلف ثلاثين ألف ألف درهم، و المتحصل خمسة عشر ألف درهم، فأبطل ما استجدّ بعد موت الملك الناصر بأسره، فلم يستمرّ غير شهر واحد حتى عاد الأمر على ما كان عليه، بحيث بلغ مصروف الحوائج خاناه فى كل يوم اثنين و عشرين ألف درهم، بعد ما كانت فى أيام الناصر محمد ثلاثة عشر ألف درهم، فلما مات الملك الصالح إسماعيل و أقيم فى الملك من بعده أخوه الملك الكامل سيف الدين شعبان بن محمد، صرف الموفق عن نظر الخاص و نقل ابن زنبور من استيفاء الصحبة إليها، و استقرّ فخر الدين السعيد فى استيفاء الصحبة، و ذلك فى ربيع الآخر سنة ست و أربعين و سبعمائة، فباشر ذلك إلى أخريات رجب نيفا و ثمانين يوما، فولى الملك الكامل نظر الخاص لفخر الدين ابن السعيد مستوفى الدولة، و أعاد ابن زنبور من نظر الخاص إلى استيفاء الدولة، فلما كان فى المحرّم سنة سبع و أربعين، أعيد نجم الدين وزير بغداد إلى الوزارة، و قرّر ابن زنبور فى نظر الدولة، فاستمرّ إلى أن قتل الكامل شعبان، و أقيم فى الملك من بعده أخوه الملك المظفر حاجى فى مستهل جمادى الآخرة سنة سبع و أربعين، فطلب ابن زنبور و أعيد إلى نظر الخاص، و قبض على فخر الدين بن السعيد، و طولب بالحمل، و أضيف إليه نظر الجيش، فباشر ذلك إلى سنة إحدى و خمسين، فأضيف إليه الوزارة فى يوم الخميس سابع عشرى ذى القعدة، و خلع عليه، و كان له يوم عظيم جدّا، فلما كان يوم السبت جلس بشباك قاعة الصاحب من القلعة فى دست الوزارة، و استدعى جميع المباشرين و طلب المقدّم ابن يوسف و شدّ وسطه على ما كان عليه، و طلب المعاملين و سلفهم على اللحم و غيره، و استكتب المباشرين أنه لم يكن فى

بيت المال و لا الاهرا من الدراهم و الغلال شيء البتة، و دخل بها و قرأها على السلطان و الأمراء، و شرع في عرض

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۳

أرباب الوظائف كلهم، و طلب حساب الأقاليم بأسرها، و ولى صهره فخر الدين ماجد فرويتة نظر البيوت، و أنفق جامكية شهر و حمل الرواتب إلى الدور السلطانية. و الأسمطة من السكر و الزيت و القلوبات و غير ذلك، و أقام بكتمر المومنى فى وظيفة شدّ الدواوين، و ألزم نفسه فى المجلس السلطانى بحضرة الأمراء، أنه يباشر الوزارة بغير معلوم، و قرّر ابنه فى ديوانه المماليك، و التزم أنّه لا يتناول معلوما بل يوفر المعلومين للسلطان، و أبطل رمى الشعير و البرسيم من بلاد مصر، و كان يحصل برميها ضرر كبير، فإن ذلك كان يحصل من سائر البلاد فيغرم على كل أردب أكثر من ثمنه، و التزم بتكفية بيت المال من الشعير و البرسيم بغير ذلك، فبطل على يديه، و كتب به مرسوم و كتب نقشا على حجر فى جانب باب القلعة من قلعة الجبل، و أمر بقياس أراضى الجيزة فجاء زيادتها عن الارتفاع الذى مضى ثلثمائة ألف درهم، و عنها خمسة عشر ألف دينار، فلم يزل إلى سابع عشرى شوّال سنة ثلاث و خمسين و سبعمائة، فأحيط به و قبض عليه حسدا له على ما صار إليه، و لم يجتمع لغيره فى الدولة التركية، و تولى القيام عليه الأمير صرغتمش لأنه علم أنه من جهة الأمير شيخو و يقوم له بجميع ما يختاره، و أعانه عليه الأمير طاز، و ما زال يدأب فى ذلك إلى أن عاد السلطان الملك الصالح من دمشق فى يوم الاثنين خامس عشرى شوّال سنة ثلاث و خمسين و سبعمائة إلى قلعة الجبل، و عمل يوم الخميس سماطا مهما فى القلعة، و لما انفض السماط خلع على سائر أرباب الوظائف من الأمراء، و على الوزير و سائر المباشرين، فاتفق لما قدّره اللّه تعالى أنه حضر إلى الأمير صرغتمش و هو يومئذ رأس نوبة عشر تشريف، غيّر تشريفه و دون رتبته، فأخذه و دخل إلى الأمير شيخو و ألقى البلقجة قدّامه و قال: أنظر فعل الوزير معى و كشف الخلعة، فقال شيخو هذا غلط، فقام و قد أخذه من الغضب شبه الجنون و قال: هذا شغل الوزير و أنا ما اصبر على أن أهان لهذا الحدّ، و لا بدّ لى من القبض عليه و مهما شئت أنت افعل بى و خرج فإذا الوزير داخل لشيخو و عليه خلعة فصاح فى مماليكه، خذوه فكشفوا الخلعة عنه و سحبوه إلى بيت صرغتمش و سرّح مماليكه فى القبض على جميع حاشية الوزير، فقبض على سائر من يلوذ به لأنهم كانوا قد اجتمعوا بالقلعة، و خالطت العامّة المماليك فى القبض على الكتاب و أخذوا منهم فى ذلك اليوم شيئا كثيرا، حتى أن بعض الغلمان صار إليه فى ذلك اليوم ستة عشر دواة من دوى الكتاب، فلم يمكن منها أربابها إلّا بمال يأخذه على كل دواة، ما بين عشرين إلى خمسين درهما، و أمّا ما سلبوه من العمائم و الثياب و المهاميز الفضة فشيء كثير، و خرج الأمير قشتمر الحاجب و غيره فى جماعة إلى دوره التى بالصوصة من مصر، فأوقعوا الحوطة على حريمه و أولاده و ختموا سائر بيوته و بيوت حواشيه، و كانوا قد اجتمعوا و تزينوا لقدوم رجالهم من السفر، و أنزل الوزير فى مكان مظلم من بيت صرغتمش، فلما أصبح طلب ولد الوزير و صار به صرغتمش إلى بيت أبيه و أحضر أمّه ليعاقبه و هى تنظره حتى يدلوه على المال، ففتحوا له خزانة وجد فيها خمسة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۴

عشر ألف دينار و خمسين ألف درهم فضة، و أخرج من بئر صندوق فيه ستة آلاف دينار و شيء من المصالح، و حضرت أحماله من السفر فوجد فيها ستة آلاف دينار و مائة و خمسون ألف درهم فضة، و غير ذلك من تحف و ثياب و أصناف، و ألزم والى مصر بإحضار بناته، فنودى عليهنّ فى مصر و القاهرة، و هجمت عدّة دور بسببهنّ و نال الناس من نكاية أعدائهم فى هذه الكائنة كل غرض، فإنه كان الرجل يتوجه إلى أحد من جهة صرغتمش و يرمى عدوّه بأنّ عنده بعض حواشى ابن زنبور، فيؤخذ بمجرّد التهمة، و لقى الناس من ذلك بلاء عظيما.

ثم حمل إلى داره و عرّى ليضرب، فدل على مكان استخرج منه نحو من خمسة و ستين ألف دينار، فضرب بعد ذلك، و عرّيت زوجته و ضرب ولده فوجد له شيء كثير إلى الغاية.

قال الصفدىّ خليل بن أيبك الملقب صلاح الدين فى كتاب أعيان العصر: و أمّا ما أخذ منه فى المصادرة فى حال حياته فنقلت من

خط الشيخ بدر الدين الحمصيّ فى ورقة بخطه على ما أملاه القاضى شمس الدين محمد البهنسيّ، أوانى ذهب و فضة ستون قنطارا، جوهر ستون رطلا، لؤلؤ أردبان، ذهب مصكوك مائتا ألف و أربعة آلاف دينار، ضمن صندوق ستة آلاف حياصة، ضمن صناديق زركش ستة آلاف كلوته ذخائر، عدّة قماش بدنه، ألفان و ستمائة فرجية بسط، آلاف صنجة دراهم خمسون ألف درهم، شاشات ثلثمائة شاش، دواب عاملة سبعة آلاف حلابة، ستة آلاف خيل و بغال ألف، دراهم ثلاثة أرداب، معاصر سكر خمسة و عشرون معصرة، إقطاعات سبعمائة، كل إقطاع خمسة و عشرون ألف درهم، عبيد مائة، خدّام ستون، جوارى سبعمائة، أملاك القيمة عنها ثلاثمائة ألف دينار، مراكب سبعمائة، رخام القيمة عنه مائتا ألف درهم، نحاس قيمته أربعة آلاف دينار، سروج و بدلات خمسمائة، مخازن و متاجر أربعمائة ألف دينار، نطوع سبعة آلاف، دواب خمسمائة، بساتين مائتان، سواقى ألف و أربعمائة. و كان فى وقت القبض عليه أشدّ الناس قياما فى إفساد صورته الشريف شرف الدين علىّ بن الحسين نقيب الأشراف، و الشريف أبو العباس الصفراوى، و بدر الدين ناظر الخاص، و أمير المؤمنين، و الصوّاف، و استادار الأمير صرغتمش، فأوّل ما فتحوه من أبواب المكايد أن حسنوا الصرغتمش أن يأمر بالإشهاد عليه.

أن جميع ماله من الأملاك و البساتين و الأراضى و الوقف و الطلق جميعها من مال السلطان دون ماله، فصير إليه ابن الصدر عمر و شهود الخزانة، فاشهد عليه بذلك، ثم كتبوا فتى فى رجل يدعى الإسلام و يوجد فى بيته كنيسة و صلبان و شخوص من تصاوير النصارى، و لحم الخنزير، و زوجته نصرانية، و قد رضى لها بالكفر، و كذلك بناته و جواريه، و أنه لا يصلى و لا يصوم و نحو ذلك، و بالغوا فى تحسين قتله حتى قالوا لصرغتمش: و اللّه لو فتحت جزيرة قبرص ما كتب لك أجر من اللّه بقدر ما يؤجرك اللّه على ما فعلته مع هذا، فأخرج فى باشا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۵

و زنجير و ضرب فى رحبة قاعة الصاحب من القلعة بالمقارع، و توالت عقوبته، و أسلم لشادّ الدواوين ليعاقبه حتى يموت، فقام الأمير شيخو فى أمره، فردّه صرغتمش إلى داره و أكرمه و أقام عنده إلى سابع عشرى المحرّم سنة أربع و خمسين، فأخرجه من داره و تسلمه شادّ الدواوين و عاقبه عقوبة الموت فى قاعة الصاحب، فاتفق ركوب الأمير شيخو من داره إلى القلعة و ابن زنبور يعاقب، فغضب من ذلك و وقف و منع من ضربه، و بلغ الخبر صرغتمش فصعد إلى القلعة و جرى له مع شيخو عدّة مفاوضات كادت تفضى إلى فتنة، و آل الأمر فيها إلى تسفير ابن زنبور إلى قوص، فأخرج من ليلته، و كانت مدّة شدّته ثلاثة أشهر، و أقام بمدينة قوص إلى أن عرض له مرض أقام به أحد عشر يوما و مات يوم الأحد سابع عشر ذى القعدة سنة أربع و خمسين و سبعمائة، و له بالقاهرة السبيل الذى على يسرة من دخل من باب زويلة بجوار خزانة شمائل، و قد دخل فى الجامع المؤيدى.

دار الدوادار: هذه الدار فيما بين حارة زويلة و اصطبل الجميزة، و هى اليوم من جملة خط السبع قاعات عرفت ... .

دار فتح اللّه: هذه الدار اليوم بخط سويقة المسعودىّ، كان موضعها زقاقا يعرف بزقاق البناده، و فيه باب قاعة أنشأها سعد الدين إبراهيم بن عبد الوهاب بن النجيب أبى الفضائل الميمونىّ أحد مباشرى ديوان الجيش، و هى قاعة فى غاية الملاحة من جودة رخام و كثرة دهان و حسن ترتيب، و مات الميمونىّ فى ثانى ذى الحجة سنة خمس و تسعين و سبعمائة، فسكنها فتح اللّه بن معتصم و هو يومئذ رئيس الأطباء، فلما ولى كتابة السر شره إلى العمارة، فأخذ ما فى الزقاق المذكور من الدور شيئا بعد شىء، و أخرج منها سكانها و هدمها و ابتنى قاعة تجاه قاعة الميمونىّ، و جعل فيها بئرا و فسقية ماء، و بنى بها حمّاما، ثم أنشأ اصطبلا كبيرا لخيوله، و لم يقنع بذلك حتى حمل القضاة على الحكم له باستبدال دار الميمونىّ، و كانت وقفا على أولاد الميمونىّ و من بعدهم على الحرمين، فعمل له طرف فى جواز الاستبدال بها على ما صار القضاة يعتمدونه منذ كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة، فلما تم حكم القضاة له بتملكها غير بابها و زاد فى سعتها. و أضاف إليها عدّة مواضع مما بجوارها، و غرس فى جانبها عدّة أشجار و زرع كثيرا من الأزهار التى حملت إليه من بلاد الشام، و بالغ فى تحسين رخام هذه الدار، و أنشأ دهيشة كيسة إلى الغاية بوسطها فسقية ماء ينخرط إليها الماء

من شاذروان عجيب الصنعة بهج الزيّ، و تشرف هذه الدهيشة على هذه الجنينة التى أبدع فيها كل الأبداع، و ركب علو هذه القاعة الأروقة العظيمة، و بنى بجوارها عدّة مساكن لمماليكه، و مسجدا معلقا كان يصلى فيه وراء إمام راتب قرّره له بمعلوم جار، فجاءت هذه الدار من أجلّ دور القاهرة و أبهجها، و وقف ذلك كله مع أشياء غيرها على تربته

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۶

التى أنشأها خارج باب البرقية، و على عدّة جهات من البر فلما نكب أكره حتى رجع عن وقف هذه الدار على ما عينه فى كتاب وقفه، و جعلها وقفا على أولاد السلطان الملك المؤيد شيخ، فلما مات المؤيد عاد ذلك إلى وقف فتح اللّه.

فتح اللّه بن معتصم بن نفيس الإسرايلى الداودىّ العنانىّ التبريزىّ، رئيس الأطباء، و كاتب السرّ، ولد بتبريز فى سنة تسع و خمسين و سبعمائة، و كان قد قدم جدّه نفيس إلى القاهرة فى سنة أربع و خمسين، فأسلم و عظم بين الناس، ثم قدم فتح اللّه مع أبيه فنشأ بالقاهرة فى كفالة عمه، و نظر فى الطب و عاشر الفقهاء و اتصل بصحبة بعض الأمراء، فعرف منه أحد مماليكه، و كان يسمى بشيخ، فلما تأمّر شيخ قرّبه و أنكحه و فوّض إمر ديوانه، ثم مات عمه بديع ابن نفيس، فأقرّه الملك الظاهر برقوق مكانه فى رياسة الأطباء فباشرها مباشرة مشكورة، و اختص بالملك الظاهر برقوق اختصاصا كبيرا، فلما مات بدر الدين محمود الكلسانىّ قلده وظيفة كتابة السرّ، و خلع عليه فى يوم الاثنين حادى عشر جمادى الأولى سنة إحدى و ثمانمائة، و مات الظاهر و قد جعله أحد أوصيائه، فما زال إلى أوائل ربيع الأوّل سنة ثمان و ثمانمائة فقبض عليه و استقرّ بدله فى كتابة السر سعد الدين إبراهيم بن غراب، و ضرب حتى حمل مالا ثم أفرج عنه فلزم داره إلى شهر رمضان، فحمل إلى دار الوزير فخر الدين ماجد بن غراب و ألزم بمال آخر، فحمله و أطلق، فقام الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى أمره، و ما زال بالملك الناصر فرج إلى أن أعاده إلى كتابة السرّ فى أوائل ذى الحجة فاستقرّ فيها، و تمكن من أعدائه و أراه اللّه مصارعهم، و اتسعت أحواله و انفرد بسلطانه و أنيط به جلّ الأمور، فأصبح عظيم المصر نافذ الأمر قائما بتدبير الدولة، لا يجد أحد من عظماء الدولة بدا من حسن سفارته، و أبدا للناس دينا و خيرا و تواضعا، و حسن وساطة بين الناس و بين السلطان، فلما كان من أمر الناصر و هزيمته على اللجون ما كان، وقع فتح اللّه مع الخليفة المستعين بالله العباسى ابن محمد المتوكل على اللّه و عدّة من كتاب الدولة فى قبضة الأميرين شيخ و نوروز، و ما زال عند هما حتى قتل الناصر و أقيم من بعده أمير المؤمنين المستعين بالله، و هو على حاله من نفوذ الكلمة و تدبير الأمور، فلما استبدّ الأمير شيخ بمملكة الديار المصرية و اعتقل الخليفة و تلقب بالملك المؤيد شيخ فى شعبان سنة خمس عشرة و ثمانمائة، أقرّ فتح اللّه على رتبته، ثم قبض عليه يوم الخميس تاسع شوال، و عوقب غير مرّة، و أحيط بجميع أمواله و أسبابه و حواشيه، و بيع عليه بعض ما وجد له، و حمل ما تحصل منه فبلغ ما ينيف عن أربعين ألف دينار، سوى ما أخذ مما لم يبع، و هو ما يتجاوز ذلك، و ما زال فى العقوبة إلى أن خنق فى ليلة الأحد خامس عشر شهر ربيع سنة ست عشرة و ثمانمائة، و حمل من الغد إلى تربته فدفن بها، و كان رحمه اللّه من خير أهل زمانه رياضة و ديانة و طيب مقال، و تأله و تنسك و محبة لسنة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و حسن قيام مع السلطان فى أمر الناس، و به كفى اللّه عن الناس من شرّ الناصر فرج شيئا كثيرا، و قد ذكرته

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۷

بأبسط من هذا فى كتابى «درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة»، و فى كتابى «خلاصة التبر فى أخبار كتاب السرّ».

دار ابن قرقه: هذه الدار من الدور القديمة، و هى بخط سويقة المسعودىّ إلى خط بين السورين، و قد تغيرت معالمها. قال ابن عبد الظاهر: دار ابن قرقة هى الآن سكن الأمير صارم الدين المسعودىّ والى القاهرة، بأوّل حارة زويلة من جهة باب الخوخة على يسرة السالك إلى داخل الحارة، و هى معروفة اليوم و إلى جانبها الحمام المعروفة بابن قرقة أيضا، و هذه الدار و الحمام أنشأهما أبو سعيد بن قرقة الحكيم، و باعهما فى حال مصادرته مما خرج عليه، فابتاعهما منه علم السعداء، ثم سكنها الكامل بن شاور، و هما من جهة الخليج. انتهى.

و هذه الدار و الحمام قد قدمتا و صار موضع الدار الجامع المعروف بجامع ابن المغربيّ برأس سويقة الصاحب و ما يجاوره من دور ابن أبى شاكر، و آخر ما بقى منها شيء، هدمه الوزير الصاحب تاج الدين عبد الرحيم بن الوزير الصاحب فخر الدين عبد اللّه بن تاج الدين موسى بن أبى شاكر، فى رمضان سنة أربع و تسعين و سبعمائة.

و ابن قرقة: هذا كان يتولى الاستعمالات بدار الديباج و خزائن السلاح، و كان ماهرا فى علم الطب و الهندسة و نحو ذلك من علوم الأوائل، و قتله الخليفة الحافظ لدين اللّه من أجل أنه دبر السم لابنه حسن بن الحافظ، عندما تشاور و الجند و طلبوا من الخليفة قتل ابنه حسن كما تقدّم ذكره، فلما سكنت الدهماء قبض عليه الخليفة و اعتقله بخزانة البنود و قتله، فى سنة تسع و عشرين و خمسمائة.

دار خوند: هذه الدار من حقوق حارة زويلة، عرفت بالست الجليلة خوندار دوتكين ابنة نوغية السلاح دار الطرطريّ، تزوّج بها الملك الأشرف خليل بن قلاون، و مات عنها فتزوّجها من بعده أخوه الملك الناصر محمد بن قلاون، و ولدت منه ولدين و ماتا، ثم طلقها و نزلت من القلعة فسكنت هذه الدار، و أنشأت لها تربة بالقرافة تعرف الآن بتربة الست، و جعلت لها عدّة أوقاف، و كانت من الخير على جانب عظيم، لها معروف و صدقات و إحسان عميم، و ماتت و لها ما ينيف على الألف، ما بين جارية و خادم أعتقتهم كلهم، و خلّفت أموالا تخرج عن الحدّ فى الكثرة، و كانت وفاتها فى ليلة السبت ثالث عشرى المحرم سنة أربع و عشرين و سبعمائة، و دفنت بتربتها، فتقدّم أمر السلطان للأمراء و القضاة لشهود جنازتها و حمل ما تركته من الأموال و الجواهر، و طلب أخوها جمال الدين خضر بن نوغية و صولح على إرثه منها بمائة و عشرين ألف درهم، عنها يومئذ سبعة آلاف دينار، و لم تزل هذه الدار إلى أن هدمت، فأخذها الأمير صلاح الدين محمد استادار السلطان ابن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه فى شهر رجب سنة أربع و عشرين و ثمانمائة، و أدخلها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۸

فى داره التى أنشأها فجاءت من أجلّ دور القاهرة.

دار الذهب: هذه الدار خارج القاهرة، فيما بين باب الخوخة و باب سعادة، بناها الأفضل أبو القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى، و كان فيما بين باب القنطرة و باب الخوخة منظرة اللؤلؤة التى تقدّم ذكرها، عند ذكر مناظر الخلفاء، و يجاورها من حيزباب الخوخة دار الفلك، و بناها فلك الملك أحد الأستاذين الحاكمية، و يلاصقها دار الذهب هذه، و يجاور دار الذهب دار الشابورة، و دار الذهب عرفت أخيرا بدار الأمير بها در الأعسر شادّ الدواوين، ثم الآن عرفت بدار الأمير الوزير المشير الأستادار فخر الدين عبد الغنى ابن الأمير الوزير استادار تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج الأرمنيّ الأصل، و عنى بها و هدم كثيرا من الدور التى كانت تجاهها على برّ الخليج الشرقيّ، و أنشأ هناك دارا يتطرّق إليها من هذه الدار بساباط، و أنشأ بجوارها جامعه الآتى ذكره و حمامه، ثم هدم كثيرا من الدور التى كانت على الخليج و ما وراءها بتلك الأحكار التى فى الجانب الغربيّ من الخليج، و غرس فى أراضى تلك الدور الأشجار و جعلها بستانا تجاه داره، فمات قبل أن تكمل، و صار أكثر مواضع الدور التى خربها هناك كيمانا.

دار الحاجب: خارج باب النصر تجاه مصلى الأموات، هذه الدار أنشأها الأمير سيف الدين كهرداش المنصوريّ، أحد المماليك الزراقين، و هو الذى فتح جزيرة أرواد فى المراكب المتوجهة إلى بلاد الفرنج، و تولى عمارة مأذنة المدرسة المنصورية لما تهدّمت فى الزلزلة، و تقدم و كثرت أمواله و مات بدمشق فى سنة أربع عشرة و سبعمائة، فاشترى هذه الدار الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب، و لم تزل بها ذريته من بعد الأمير جمال الدين عبد اللّه بن بكتمر، و الأمير ناصر الدين محمد بن عبد اللّه، و بها الآن ولدا الأمير ناصر الدين، و هما الأمير علىّ و عبد الرحمن، و ما برح هذا البيت فيه الأمرة و السعادة.

بكتمر الحاجب: الأمير سيف الدين، كان أميرا خور، ثم ولىّ شدّ الدواوين بدمشق فى نيابة الأفرم، و لم يكن لأحد معه كلام فى عزل و لا ولاية، ثم ولى الحجوبية، و توجه إلى صفد كاشفا على الأمير ناهض الدين عمر بن أبى الخير والى الولاة و شادّ الدواوين بها، و معه معين الدين بن حشيش، فحرّر الكشف و رفعه، حتى قال فيه زين الدين عمر بن حلاوات موقع صفد:

يا قاصدا صفدا فعد عن بلدهمن جور بكتمر الأمير خراب

لا شافع تغنى شفاعته و لاجار له مما جناه جناب

حشر و ميزان و نشر صحائفو جرائد معروضة و حساب

و بها زبانية تحثّ على الورىو سلاسل و مقامع و عقاب

ما فاتهم من كلّ ما و عدوا بهفى الحر إلّا راحم وهاب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۱۹

و لما قدم الملك الناصر محمد بن قلاون من الكرك إلى دمشق، ولّاه الحجوبية، و دخل فى خدمته إلى مصر و هو حاجب، ثم أخرجه ثانيا نائبا إلى غزة فى سنة عشر و سبعمائة، فأقام بها قليلا و طلبه و ولّاه الوزارة بالديار المصرية عوضا عن الصاحب فخر الدين ابن الخليليّ، فى رمضان سنة عشر، فباشر الوزارة إلى أن قبض عليه مستهل ربيع الأوّل سنة خمس عشرة، و اعتقل مدّة سنة و نصف و أخذ كير من ماله، ثم أفرج عنه و أخرج إلى صفد نائبا فى سنة ست عشرة، و أنعم عليه بمائة ألف درهم، عنها يومئذ خمسة آلاف دينار، فأقام بها عشرة أشهر و طلب إلى مصر فصار من الأمراء المشهورة، فإذا تكلم السلطان فى المشورة لا يردّ عليه غيره، لما عنده من المعرفة و الخبرة، و تزوّج بابنة الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك، و أولاده الذين ذكرنا منها، و سرق له مال كثير من خزانته بهذه الدار، ادّعى أنه مبلغ مائتى ألف درهم، و كان فى الباطن على ما قيل سبعمائة ألف درهم، فما جسر يتفوّه خوفا من السلطان، و كان إذ ذاك والى القاهرة الأمير سيف الدين قدادار، المنسوب إليه القنطرة على الخليج، فتقدّم أمر السلطان إليه بتتبع من سرق المال، فدسّ إليه الأمير بكتمر الساقى، و الوزير مغلطاى الجمالى، و القاضى فخر الدين ناظر الجيش فى السرّ، أن يتهاون فى أمر السرقة نكاية لبكتمر، و أخذوا يحتجون لكل من اتهم و يقولون للسلطان لعن اللّه ساعة هذه العملة، كل يوم يموت من الناس تحت المقارع عدّة، و إلى متى يقتل المتهم الذى لا ذنب له، فلما طار الأمر شكا بكتمر إلى السلطان فى دار العدل، فأحضر الوالى و سبّه السلطان، فقال يا خوند: اللصوص الذين أمسكتهم و عاقبتهم أقرّوا أن سيف الدين بخشى خزنداره، اتفق معهم على أخذ المال و جماعة من إلزامه الذين فى بابه. فقال السلطان للجمالى الوزير: احضر هؤلاء المذكورين و عاقبهم، فأخذ بخشى و عصره و كان عزيزا عند بكتمر، قد زوجه بابنته، و هو يثق بعقله و دينه و أمانته، فشق ذلك عليه و اغتم غما شديدا مات منه، فجاءة فيما بين الظهر إلى العصر من يومه سنة ثمان و عشرين و سبعمائة، و كان خبيرا بالأمور بصيرا بالحوادث طويل الروح فى الكلام لا يمل من تطويله، و لو قعد فى الحكم الواحد بين الأمير و اليهودى ثلاثة أيام، و لا يلحقه من ذلك سآمة البتة، مع معرفة تامّة و خبرة بالسياسة لم ير مثله فى حق أصحابه، لكثرة تذكرهم فى غيبتهم، و الفكر فى مصالحهم و تفقد أحوالهم، و من جفاه منهم عتب عليه، و كان سمحا بجاهه بخيلا بماله إلى الغاية، ساقط الهمة فى ذلك، و له متاجر و أملاك و سعادة لا تكاد تنحصر، و مع ذلك فله قدور يكريها لصلاقى الفول و الحمص و غير ذلك من العدد و الآلات، و يماحك على أجرها مماحكة يستحى من ذكرها، و أنشأ عدّة دور و اقتنى كثيرا من البساتين، و ولى من بعده ابنه الأمير جمال الدين عبد اللّه الإمرة، و كان حاجبا، و لأبيه فى سيرة البخل و الحرص الشديد تابعا و مقلدا، و تولى أمره الحاج غير مرّة، و خرج فى سنة ست و ثمانين و سبعمائة من القاهرة لولاية كشف الجسور بالغربية، فورد عليه كتاب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۰

السلطان الملك الظاهر برقوق بالإنكار، و فيه تهديد مهول فداخله الخوف و مرض، فحمل فى محفة إلى القاهرة فدخلها يوم الأربعاء النصف من جمادى الأولى من تلك السنة، فمات من يومه و أخذ أقطاعه الأمير يودى، و صار ابنه ناصر الدين أحد الأمراء العشراوات، سالكا طريق أبيه و جدّه فى الإمساك إلى أن مات خامس عشرى شهر ربيع الآخر سنة اثنين و ثمانمائة، و دفن بتربتهم خارج باب النصر.

دار الجاولى: هذه الدار من جملة الحجر التى تقدّم ذكرها، و هى تجاه الخان المجاور لوكالة قوصون، أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى و جعلها وقفا على المدرسة المعروفة بالجاولية بخط الكبش جوار الجامع الطولونى، و عرفت فى زماننا بقاعة البغادّة، لسكنى عبد الصمد الجوهرىّ البغدادىّ بها هو و أولاده فى سنة سبع و أربعين و سبعمائة إلى بعد سنة ست عشرة و ثمانمائة، و هى من الدور الجليلة، إلّا أنها قد تشعثت لطول الزمن.

دار أمير أحمد: هذه الدار بجوار دار الجاولىّ من غربيها، عرفت بأمير أحمد قريب الملك الناصر محمد بن قلاون، و عرفت فى زماننا بسكن أبو ذقن ناظر المواريث، و هى من جملة ما اغتصبه جمال الدين يوسف الأستادار من الدور الوقف، و جعلها لأخيه شمس الدين محمد البيرى قاضى حلب، و شيخ الخانقاه البيبرسية، فغير بابها و شرع فى عمارتها، فقبض عليه عند القبض على أخيه و هو بها.

دار اليوسفى: هذه الدار بجوار باب الجوّانية فيما بينها و بين الحوض المعدّ لشرب الدواب، أنشأها هى و الحوض الأمير سيف الدين بهادر اليوسفىّ السلاح دار الناصرىّ.

دار ابن البقرى: هذه الدار أنشأها الوزير الصاحب سعد الدين سعد اللّه بن البقرىّ بن أخت القاضى شمس الدين شاكر بن غزيل البقرىّ، صاحب المدرسة البقرية اظهر الإسلام و باشر فى الخدمة الديوانية إلى أن ولاه الملك الظاهر برقوق وظيفة نظر الديوان المفرد و نظر الخاص، عوضا عن الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن مكانس، فى ثالث شهر رمضان سنة ثلاث و ثمانين و سبعمائة، فباشر ذلك إلى تاسع شهر رمضان سنة خمس و ثمانين، فقبض عليه و نزل الأمير يونس الدوادار و الأمير قرقماش الخازندار إلى داره هذه و أحاط بها، و أخذ جميع ما فيها من المال و الثياب و الأوانى و الحلى و الجوارى و غير ذلك، و حمل إلى القلعة، فبلغ قيمة ما وجد بداره فى هذه النوبة مائتى ألف دينار، و سلم ابن البقرىّ لشادّ الدواوين بقاعة الصاحب من القلعة، فضرب بالمقارع نيفا و ثلاثين شيبا، و ولى موفق الدين أبو الفرج نظر الخاص، ثم أن الملك الظاهر لما عاد إلى المملكة، بعد ثورة الأمير بلبغا الناصرىّ و الأمير تمربغا منطاش عليه، و خلعه من الملك و سجنه بالكرك، ثم قيامه بأهل الكرك و دخوله إلى القاهرة و عوده إلى المملكة، ولى ابن البقرىّ الوزارة فى يوم الاثنين سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنين و تسعين و سبعمائة عوضا عن موفق الدين أبى الفرج، ثم

صرف فى يوم الخميس لعشرين من شهر رمضان، و أعيد الوزير أبو الفرج و أحيط بدور ابن البقرىّ و أسلم هو و ابنه تاج الدين عبد اللّه إلى الأمير ناصر الدين محمد بن اقبغا آص، فلما استقرّ الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام الصفدىّ فى الوزارة يوم الثلاثاء سابع عشرى ذى الحجة منها، عوضا عن الوزير أبى الفرج، اشترط على السلطان أمورا منها استخدام الوزراء المعزولين، فجلس بشباك قاعة الصاحب من القلعة و بعث إلى من بالقاهرة من الوزراء المعزولين، و هم شمس الدين عبد اللّه المقسى، و علم الدين عبد الوهاب بن الطنساوىّ، المعروف بسنّ إبرة، و سعد الدين سعد اللّه بن البقرىّ، و موفق الدين أبو الفرج، و فخر الدين عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن ابراهيم بن مكانس، فأقرّ المقسىّ و سنّ إبرة معا فى نظر الدولة و أقرّ ابن البقرىّ ناظر البيوت و مستوفى الدولة، و قرّر أبا الفرج فى استيفاء الصحبة، و ابن مكانس فى استيفاء الدولة شريكا لابن البقرىّ، فكانوا يركبون فى خدمته دائما و يجلسون بين يديه، و ربما وقف ابن البقرىّ على قدميه بحضرته بعد أن كان ابن الحسام دواداره، و لا يزال قائما بين يديه، فعدّ الناس هذا من أعظم المحن التى لم يشاهد فى الدولة التركية مثلها، و هو أن يصير الرجل خادما لمن كان فى خدمته، فنعوذ بالله من المحن، ثم إن الوزير ابن الحسام قبض على ابن البقرىّ و ألزمه بحمل سبعين ألف درهم، ثم أعيد إلى الوزارة بعد القبض على الصاحب تاج الدين عبد الرحيم بن عبد اللّه بن موسى بن أبى بكر ابن أبى شاكر فى ذى القعدة سنة خمس و تسعين، و قبض عليه و على ولده فى حادى عشرى شهر ربيع الأوّل سنة ست و تسعين، و سلما مع عدّة من الكتاب لشادّ الدواوين، ثم أفرج عنهما على حمل مال، فلما ولى الأمير ناصر الدين محمد بن رجب بن كلفت الوزارة، بعد الوزير أبى الفرج، قرّر ابن البقرىّ فى نظر الدولة عوضا عن بدر الدين الأقفهسىّ، و استخدم بقية الوزراء كما فعل الوزير ابن الحسام، فلما خلع السلطان على الأمير ناصر الدين محمد بن تنكر و جعله استادار الأملاك فى رجب

سنة سبع و تسعين، قرّر ابن البقرىّ ناظر الأملاك، و خلع عليه، فصار يتحدّث فى نظر الدولة و نظر الأملاك، فلما كان يوم الخميس رابع رجب سنة ثمان و تسعين أعيد إلى الوزارة و صرف عنها الأمير مبارك شاه ناظر الظاهرىّ، و استقرّ بدر الدين محمد بن محمد الطوخى فى نظر الدولة، ثم قبض عليه فى يوم الخميس رابع ربيع الأوّل سنة تسع و تسعين، و أحيط بسائر ما قدر عليه من موجوده، و ولى الوزارة بعده ابن الطوخىّ، و عوقب عقابا شديدا فى دار الأمير علاء الدين علىّ بن الطبلاوىّ، ثم أخرج نهارا و هو عار مكشوف الرأس و بيده حبل يجرّبه و ثيابه مضمومة بيده الأخرى و الناس تراه من درب قراصيا برحبة باب العيد فى السوق إلى دار ابن الطبلاوىّ، و قد انتهك بدنه من شدّة الضرب، فسجن بدار هناك. ثم خنق فى ليلة الاثنين رابع جمادى الآخرة سنة تسع و تسعين و سبعمائة، و كان أحد كتاب الدنيا الذين انتهت إليهم السيادة فى كتابة الرسوم الديوانية، مع عفة الفرج و جودة الرأى و حسن التدبير، إلّا أنه لم يؤت سعدا فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۲

وزارته، و ما برح ينكب كل قليل، و كان يظهر الإسلام و يكتب بخطه كتب الحديث و غيرها، و يتهم فى باطن الأمر بالتشدّد فى النصرانية، و ولى ابنه تاج الدين عبداللّه الوزارة و نظر الخاص، و مات قتيلا تحت العقوبة عند الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى سنة ثمان و ثمانمائة، و دار ابن البقرىّ هذه من أعظم دور القاهرة، و هى من جملة خط حارة الجوّانية فى أوّلها.

دار طولباى: هذه الدار بجوار حمّام الأعسر برأس حارة الجوّانية، تجاه درب الرشيدىّ، أنشأها الأمير شمس الدين سنقر الأعسر الوزير، ثم عرفت بخوند طولباى الناصرية جهة الملك الناصر.

طلنباى: و يقال دلبية، و يقال طلوبية ابنة طفاجى ابن هندر بن بكر بن دوشى خان ابن جنكزخان، ذات الستر الرفيع الخاتونى، كان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون قد جهز الأمير إيدغدى الخوارزمىّ فى سنة ست عشرة و سبعمائة يخطب إلى أزبك ملك التتار بنتا من الذرية الجنكزية، فجمع أزبك أمراء التومانات و هم سبعون أميرا و كلمهم الرسول فى ذلك، فنفروا منه ثم اجتمعوا ثانيا بعدما وصلت إليهم هداياهم و أجابوا، ثم قالوا إلّا أن هذا لا يكون إلا بعد أربع سنين، سنة سلام، و سنة خطبة، و سنة مهاداة، و سنة زواج، و اشتطوا فى طلب المهر، فرجع السلطان عن الخطبة، ثم توجه سيف الدين طوخى بهدية و خلعة لأزبك، فلبسها و قال لطوخى: قد جهزت لأخى الملك الناصر ما كان طلب و عينت له بنتا من بيت جنكزخان من نسل الملك ياطرخان. فقال طوخى: لم يرسلنى السلطان فى هذا.

فقال أزبك: أنا أرسلها إليه من جهتى، و أمر طوخى بحمل مهرها فاعتذر بعدم المال.

فقال: نحن نقترض من التجار، فاقترض عشرين ألف دينار و حملها، ثم قال لا بدّ من عمل فرح تجتمع فيه الخواتين، فاقترض مالا آخر نحو سبعة آلاف دينار، و عمل الفرح. و جهزت الخاتون طلنباى و معها جماعة من الرسل، و هم بانبجار من كبار المغل، و طقبغا و منعوش و طرحى و عثمان و بكتمر و قرطبا و الشيخ برهان الدين أمام الملك أزبك و قاضى حراى، فساروا فى زمن الخريف و أقلعوا فلم يجدوا ريحا تسير بهم، فأقاموا فى برّ الروم على مينا ابن مشتا خمسة أشهر، و قام بخدمتهم هو و الأشكرىّ ملك قسطنطينية، و أنفق عليهم الأشكرىّ ستين ألف دينار، فوصلوا إلى الإسكندرية فى شهر ربيع الأوّل سنة عشرين و سبعمائة، فلما طلعت الخاتون من المراكب حملت فى خركاة من الذهب على العجل، و جرّها المماليك إلى دار السلطنة بالإسكندرية، و بعث السلطان إلى خدمتها عدّة من الحجاب، و ثمانى عشرة من الحرم، و نزلت فى الحراقة، فوصلت إلى القلعة يوم الاثنين خامس عشرى ربيع الأوّل المذكور، و فرش لها بالمناظر فى الميدان دهليز أطلس معدنى، و مدّ لهم سماط، و فى يوم الخميس ثانى عشرية أحضر السلطان رسل أزبك، و وصل رسل ملك الكرج، و رسل الأشكرىّ بتقادمهم، ثم بعث إلى الميدان الأمير سيف الدين أرغون

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۳

النائب، و الأمير بكتمر الساقى، و القاضى كريم الدين ناظر الخاص، فمشوا فى خدمة الخاتون إلى القلعة و هى فى عز، ثم عقد عليها

يوم الاثنين سادس ربيع الآخر على ثلاثين ألف دينار، حالة المعجل منها عشرون ألفا، و عقد العقد قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة، و قبل عن السلطان النائب أرغون، و بنى عليها، و أعاد الرسل بعد أن شملهم من الأنعام ما أربى على أملهم، و معهم هدية جليلة، فساروا فى شعبان، و تأخر قاضى حراى حتى حج و عاد فى سنة إحدى و عشرين، و ماتت فى رابع عشرى ربيع الآخر سنة خمس و ستين و سبعمائة، و دفنت بتربتها خارج باب البرقية بجوار تربة خوند طغاى أم أنوك.

دار حارس الطير: هذه الدار بداخل درب قراصيا بخط رحبة باب العيد، عرفت بالأمير سيف الدين سنبغا حارس الطير، ترقى فى الخدم إلى أن صار نائب السلطنة بديار مصر فى أيام السلطان حسن بن محمد بن قلاون بعد يلبغا روس، ثم عزل بالأمير قبلاى و جهز إلى نيابة غزة، فأقام بها شهرا و قبض عليه و حضر مقيدا إلى الإسكندرية فى شعبان سنة اثنين و خمسين و سبعمائة، فسجن بها مدّة ثم أخرج إلى القدس، فأقام بطالا مدّة، ثم نقل إلى نيابة غزة فى شعبان سنة ست و خمسين و سبعمائة.

الدار القردمية: هذه الدار خارج باب زويلة بخط الموّازيين من الشارع المسلوك فيه إلى رأس المنجبية، بناها الأمير الجاى الناصرىّ، مملوك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، و كان من أمره أنه ترقى فى الخدم السلطانية حتى صار دوادار السلطان بغير أمرة، رفيقا للأمير بهاء الدين أرسلان الدوادار، فلما مات بهاء الدين استقرّ مكانه بإمرة عشرة مدّة ثلاث سنين، ثم أعطى أمرة طبلخاناه، و كان فقيها حنفيا يكتب الخط المليح، و نسخ بخطه القرآن الكريم فى ربعة، و كان عفيفا عن الفواحش، حليما لا يكاد يغضب، مكبا على الاشتغال بالعلم، محبا لاقتناء الكتب، مواظبا على مجالسة أهل العلم، و بالغ فى إتقان عمارة هذه الدار بحيث أنه أنفق على بوّابتها خاصة مائة ألف درهم فضة، عنها يومئذ نحو الخمسة آلاف مثقال من الذهب، فلما تمّ بناؤها لم يمتع بها غير قليل، و مرض فمات فى أوائل شهر رجب، و قيل فى رمضان سنة اثنين و ثلاثين و سبعمائة، و هو كهل، فدفن بقرافة مصر.

فسكنها من بعده خوند عائشة خاتون المعروفة بالقردمية، ابنة الملك الناصر محمد بن قلاوون زمانا، فعرفت بها، و كانت هذه المرأة ممن يضرب بغناها و سعادتها المثل، إلّا أنها عمرت طويلا و تصرّفت فى مالها تصرّفا غير مرضىّ، فتلف فى اللهو حتى صارت تعدّ من جملة المساكين، و ماتت فى الخامس من جمادى الأولى سنة ثمان و سبعين و سبعمائة، و مخدّتها من ليف.

ثم سكن هذه الدار الأمير جمال الدين محمود بن علىّ الاستادار مدّة، و أنشأ تجاهها مدرسة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۴

دار الصالح: هذه الدار بحارة الديلم قريبا من السجن، و كانت دار الصالح طلائع بن رزبك يسكنها و هو أمير قبل أن يلى الوزارة، بناها فى سنة سبع و أربعين و خمسمائة، و بناها على ما هى عليه الآن.

دار بهادر: هذه الدار بالقاهرة جوار المشهد الحسينى، فى درب جرجى المقابل للابارين، المسلوك منه إلى دار الضرب و غيره، أنشأها الأمير بهادر رأس نوبة أحد مماليك الملك المنصور قلاوون، و اتفق أنه كان ممن مالأ الأمير بدر الدين بيدرا على قتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون، فلما قدّر اللّه بانتقاض أمر بيدر أو قتله، و إقامة الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد أخيه الأشرف خليل، قبض على جماعة ممن وافق على قتل الملك الأشرف خليل، و قد تجمعت المماليك الأشرفية مع الأمير علم الدين سنجر الشجاعى، و هو يومئذ وزير الديار المصرية فى دار النيابة من قلعة الجبل عند الأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة، و إذا بالأمير بهادر المذكور قد حضر هو و الأمير جمال الدين أقوش الموصلى الحاجب المعروف بنميلة، و كانا قد اختفيا فرقا من سطوة الأشرفية حتى دبر أمرهما النائب، و أذن لهما فى طلوع القلعة، فما هو إلّا أن أبصرهما الأشرفية سلوا سيوفهم و ضربوا رقبتيهما فى أسرع وقت، فدهش الحاضرون و ما استطاعوا أن يتكلموا خوفا من الأشرفية، و اتفق فى بناء هذه الدار ما فيه عبرة لمن اعتبر، و ذلك أن بهادر هذا لما حفر أساسها وجد هناك قبورا كثيرة، فأخرج تلك العظام و رماها، فبلغ ذلك قاضى القضاة تقىّ الدين ابن دقيق العيد، فبعث إليه ينهاه عن نبش القبور و رمى العظام و يخوّفه عاقبة ذلك، فقال: إذا مت يجرّوا رجلى و يرمونى، فقال القاضى: لما أعيد عليه هذا الجواب: و قد يكون ذلك.

فقدّر اللّه أنه لما ضربت رقبته و رقبة أقوش ربط فى رجليهما حبل و جرّا من دار النيابة بالقلعة إلى المجاير بالكيمان، نعوذ بالله من سوء عاقبة القضاء، ثم عرفت هذه الدار ببيت الأمير جركتمر بن بهادر المذكور، و كان خصيصا بالأمير قوصون، فبعثه لقتل السلطان الملك المنصور أبى بكر بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، لمّا نفاه إلى مدينة قوص بعد خلعه، فتولى قتله، فلما قبض على قوصون قبض على جركتمر فى ثانى شعبان سنة اثنين و أربعين و سبعمائة، و قتل بالإسكندرية هو و قوصون فى ليلة الثلاثاء ثامن عشر شوال، تولى قتلهما الأمير ابن طشتمر طلبة، و أحمد بن صبيح، و كان جركتمر هذا فيه أدب و حشمة، و أوّل أمره كان من أصحاب الأمير بيبرس الجاشنكيرى، فقدّمه و أعطاه أمرة عشرة، ثم اتصل بالأمير أرغون النائب، فأعطاه أمرة طبلخاناه، و كان يلعب بالأكرة و يجيد فى لعبها إلى الغاية.

ثم عرفت هذه الدار بالأمير سيف الدين بهادر المنجكى أستادار الملك الظاهر برقوق لسكنه بها، و تجديد عمارتها، و أنشأ بجوارها حماما و كانت وفاته يوم الاثنين الثانى من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۵

جمادى الآخرة سنة تسعين و سبعمائة، و هذه الدار باقية إلى اليوم تسكنها الأمراء.

دار البقر: هذه الدار خارج القاهرة فيما بين قلعة الجبل و بركة الفيل، بالخط الذى يقال له اليوم حدرة البقر، كانت دارا للأبقار التى برسم السواقى السلطانية، و منشرا للزبل، و فيه ساقية، ثم إن الملك الناصر محمد بن قلاون أنشأها دارا و اصطبلا و غرس بها عدّة أشجار، و تولى عمارتها القاضى كريم الدين عبد الكريم الكبير، فبلغ المصروف على عمارتها ألف ألف درهم، و عرفت بالأمير طقتمر الدمشقىّ، ثم عرفت بدار الأمير طاش تمر حمص أخضر، و هذه الدار باقية إلى وقتنا هذا ينزلها أمراء الدولة.

قصر بكتمر الساقى: هذا القصر من أعظم مساكن مصر و أجلّها قدرا، و أحسنها بنيانا، و موضعه تجاه الكبش على بركة الفيل، أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاون لسكن أجلّ أمراء دولته، الأمير بكتمر الساقى، و أدخل فيه أرض الميدان التى أنشأها الملك العادل كتبغا، و قصد أن يأخذ قطعة من بركة الفيل ليتسع بها الإصطبل الذى للأمير بكتمر بجوار هذا القصر، فبعث إلى قاضى القضاة شمس الدين الحريرىّ الحنفىّ ليحكم باستبدالها على قاعدة مذهبه، فامتنع من ذلك تنزها و تورّعا، و اجتمع بالسلطان و حدّثه فى ذلك، فلما رأى كثرة ميل السلطان إلى أخذ الأرض نهض من المجلس مغضبا و صار إلى منزله، فأرسل القاضى كريم الدين الكبير ناظر الخواص إلى سراج الدين الحنفىّ عن أمر السلطان و قلده قضاء مصر منفردا عن القاهرة، فحكم باستبدال الأرض فى غرة رجب سنة سبع عشرة و سبعمائة، فلم يلبث سوى مدّة شهرين و مات فى أوّل شهر رمضان، فاستدعى السلطان قاضى القضاة شمس الدين الحريرىّ و أعاده إلى ولايته، و كمّل القصر و الإصطبل على هيئة قلّ ما رأت الأعين مثلها، بلغت النفقة على العمارة فى كل يوم مبلغ ألف و خمسمائة درهم فضة مع جاه العمل، لأنّ العجل التى تحمل الحجارة من عند السلطان، و الحجارة أيضا من عند السلطان، و الفعلة فى العمارة أهل السجون المقيدون من المحابيس، و قدّر لو لم يكن فى هذه العمارة جاه و لا سخرة لكان مصروفها فى كل يوم مبلغ ثلاثة آلاف درهم فضة، و أقاموا فى عمارته مدّة عشرة أشهر، فتجاوزت النفقة على عمارته مبلغ ألف ألف درهم فضة، عنها زيادة على خمسين ألف دينار، سوى ما حمل و سوى من سخر فى العمل، و هو بنحو ذلك.

فلما تمت عمارته سكنه الأمير بكتمر الساقى، و كان له فى إصطبله هذا مائة سطل نحاس لمائة سائس، كل سائس على ستة أرؤس خيل، سوى ما كان له فى الحشارات و النواحى من الخيل، و كان من المغرب يغلق باب إصطبله فلا يصير لأحد به حس، و لمّا تزوّج أنوك بن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون بابنة الأمير بكتمر الساقى، فى سنة اثنين و ثلاثين و سبعمائة، خرج شوارها من هذا القصر، و كان عدّة الحمالين ثمانمائة حمّال.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۶

المساند الزركش على أربعين حمّالا، عدّتها عشرة مساند، و المدوّرات ستة عشر حمالا، و الكراسى اثنا عشر حمّالا، و كراسى لطاف

أربعة حمالين، و فضيات تسعة و عشرون حمّالا، و سلم الدكك أربعة حمالين، و الدكك و التخوت الأبنوس المفضضة و الموشقة مائة و اثنين و ستين حمالا، و النحاس الشامى اثنين و عشرين حمّالا، و البعلبكى المدهون اثنى عشر حمّالا، و الخونجات و المحافى و الزبادى و النحاس تسعة و عشرين حمّالا، و صناديق الحوائج خاناه ستة حمالين، و غير ذلك تتمة العدّة، و البغال المحملة الفرش و اللحف و البسط، و الصناديق التى فيها المصاغ تسعة و تسعين بغلا.

قال العلامة صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدىّ: قال لى المهذب الكاتب: الزركش و المصاغ ثمانون قنطارا بالمصرى ذهب، و لمّا مات بكتمر هذا، صار هذا الوقف من بعده من جملة أوقافه، فتولى أمره و أمر سائر أوقافه أولاده، حتى انقرض أولاده و أولاد أولاده، فصار أمر الأوقاف إلى ابن ابنته، و هو أحمد بن محمد بن قرطاى، المعروف بأحمد بن بنت بكتمر، و هذا القصر فى غاية من الحسن، و لا ينزله إلّا أعيان الأمراء إلى أن كانت سنة سبع عشرة و ثمانمائة، و كان العسكر غائبا عن مصر مع الملك المؤيد شيخ فى محاربة الأمير نوروز الحافظى بدمشق، عمد هذا المذكور إلى القصر فأخذ رخامه و شبابيكه و كثيرا من سقوفه و أبوابه و غير ذلك، و باع الجميع، و عمل بدل ذلك الرخام البلاط، و بدّل الشبابيك الحديد بالخشب، و فطن به أعيان الناس فقصدوه و أخذوا منه أصنافا عظيمة بثمن و بغير ثمن، و هو الآن قائم البناء يسكنه الأمراء.

الدار البيسرية: هذه الدار بخط بين القصرين من القاهرة، كانت فى آخر الدولة الفاطمية، لما قويت شوكة الفرنج قد أعدّت لمن يجلس فيها من قصاد الفرنج، عندما؟؟؟ تقرّر الأمر معهم على أن يكون نصف ما يحصل من مال البلد للفرنج، فصار يجلس فى هذه الدار قاصد معتبر عند الفرنج يقبض المال، فلما زالت الدولة بالغز، ثم زالت دولة بنى أيوب، و ولى سلطنة مصر الملوك من الترك، إلى أن كانت أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، شرع الأمير ركن الدين بيبرس الشمسىّ الصالحىّ البخمىّ فى عمارتها، فى سنة تسع و خمسين و ستمائة، و تأنّق فى عمارتها و بالغ فى كثرة المصروف عليها، فأنكر الملك الظاهر ذلك من فعله و قال له: يا أمير بدر الدين، أىّ شىء خليت للغزاة و الترك؟ فقال:

صدقات السلطان، و اللّه يا خوند ما بنيت هذه الدار إلّا حتى يصل خبرها إلى بلاد العدوّ، و يقال بعض مماليك السلطان عمّر دارا غرم عليها مالا عظيما، فأعجب من قوله ذلك السلطان و أنعم عليه بألف دينار عينا، و عدّ هذا من أعظم أنعام السلطان، فجاء سعة هذه الدار باصطبلها و بستانها و الحمّام بجانبها نحو فدّانين، و رخامها من أبهج رخام عمل فى القاهرة، و أحسنه صنعة، فكثر تعجب الناس إذ ذاك من عظمها لما كان فيه أمراء الدولة و رجالها حينئذ من الاقتصاد، حتى أن الواحد منهم إذا صار أميرا لا يتغير عن داره التى كان

يسكنها و هو من الأجناد، و عند ما كملت عمارة هذه الدار وقفها و أشهد عليه بوقفها اثنين و تسعين عدلا، من جملتهم قاضى القضاة تقىّ الدين ابن دقيق العيد، و قاضى القضاة تقىّ الدين بن بنت الأعز، و قاضى القضاة تقىّ الدين بن رزين، قبل ولايتهم القضاء فى حال تحملهم الشهادة، و ما زالت بيد ورثة بيسرى إلى سنة ثلاث و ثلاثين و سبعمائة.

فشرهت نفس الأمير قوصون إلى أخذها، و سأل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى ذلك فأذن له فى التحدّث مع ورثة بيسرى، فأرسل إليهم و وعدهم و منّاهم و أرضاهم حتى أذعنوا له، فبعث السلطان إلى قاضى القضاة شرف الدين الحرّانىّ الحنبلىّ يلتمس منه الحكم باستبدالها، كما حكم باستبدال بيت قتال السبع و حمامّه الذى أنشأ جامعه بخط خارج الباب الجديد من الشارع، فأجاب إلى ذلك، و نزل إليها علاء الدين بن هلال الدولة شادّ الدواوين، و معه شهود لقيمة، فقوّمت بمائة ألف درهم و تسعين ألف درهم نقرة، و تكون الغبطة للأيتام عشرة آلاف درهم نقرة لتتم الجملة مائتى ألف درهم نقرة، و حكم قاضى القضاة شرف الدين الحرّانىّ ببيعها و كان هذا الحكم مما شنع عليه فيه.

ثم اختلفت الأيدى فى الاستيلاء على هذه الدار، و اقتدى القضاة بعضهم ببعض فى الحكم باستبدالها، و آخر ما حكم به من استبدالها فى أعوام بضع و ثمانين و سبعمائة، فصارت من جملة الأوقاف الظاهرية برقوق، و هى الآن بيد ابنة بيرم، و كان لها باب بوّابته من

أعظم ما عمل من البوابات بالقاهرة، و يتوصل إلى هذه الدار من هذا الباب، و هو بجوار حمام بيسرى من شارع بين القصرين، و قد بنى تجاه هذا الباب حوانيت حتى خفى و صار يدخل إلى هذه الدار من باب آخر بخط الخرشتف.

بيسرى: الأمير شمس الدين الشمسى الصالحى البخمى، أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب البحرية، تنقل فى الخدم حتى صار من أجلّ الأمراء فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ، و اشتهر بالشجاعة و الكرم و علو الهمة، و كانت له عدّة مماليك راتب كل واحد منهم مائة رطل لحم، و فيهم من له عليه فى اليوم ستين عليقة لخيله، و بلغ عليق خيله و خيل مماليكه فى كل يوم ثلاثة آلاف عليقة سوى علف الجمال، و كان ينعم بالألف دينار و بالخمسمائة غير مرّة، و لما فرّق الملك العادل كتبغا المماليك على الأمراء بعث إليه بستين مملوكا، فأخرج إليهم فى يومهم لكل واحد فرسين و بغلا و شكا إليه استادار مكثرة خرجه و حسن له الاقتصاد فى النفقة، فحنق عليه و عزله و أقام غيره، و قال لا يرنى وجهه أبدا، و لم يعرف عنه أنه شرب الماء فى كوز واحد مرّتين، و إنما يشرب كل مرّة فى كوز جديد، ثم لا يعاود الشرب منه، و تنكر عليه الملك المنصور قلاوون فسجنه فى سنة ثمانين و ستمائة، و ما زال فى سجنه إلى أن مات الملك المنصور و قام من بعده ابنه الملك الأشرف خليل، فأفرج عنه فى سنة اثنين و تسعين و ستمائة بعد عوده من دمشق بشفاعة الأمير بيدرا و الأمير سنجر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۸

الشجاعىّ، و أمر أن يحمل إليه تشريف كامل و يكتب له منشور بإمرة مائة فارس، و أنه يلبس التشريف من السجن، فجهز التشريف و حمل إليه المنشور فى كيس حرير أطلس، و عظم فيه تعظيما زائدا و أثنى عليه ثناء جما، و سار إليه بيدر و الشجاعىّ و الدوادار و الأفرم إلى السجن ليمشوا فى خدمته إلى أن يقف بين يدى السلطان، فامتنع من لبس التشريف و التزم بأيمان مغلظة أنه لا يدخل على السلطان إلا بقيده و لباسه الذى كان عليه فى السجن، و تسامعت الأمراء و أهل القلعة بخروجه فهرعوا إليه، و كان لخروجه نهار عظيم، و دخل على السلطان بقيده فأمر به ففك بين يديه و أفيض عليه التشريف، فقبّل الأرض، و أكرمه السلطان و أمره فنزل إلى داره، و خرج الناس إلى رؤيته و سرّوا بخلاصه، فبعث إليه السلطان عشرين فرسا و عشرين اكديشا و عشرين بغلا، و أمر جميع الأمراء أن يبعثوا إليه، فلم يبق أحد حتى سير إليه ما يقدر عليه من التحف و السلاح، و بعث إليه أمير سلاح ألفى دينار عينا. و كانت مدّة سجنه إحدى عشرة سنة و أشهرا.

فصار يكتب بعد خروجه من السجن بيسرى الأشرفى بعد ما كان يكتب بيسرى الشمسىّ، و ما زال إلى أن تسلطن الملك المنصور لاجين، فأخذ الأمير منكرتمر يغريه بالأمير بيسرى و يخوّفه منه و أنه قد تعين للسلطنة، فعمله كاشف الجيزة و أمره أن يحضر الخدمة يومى الاثنين و الخميس بالقلعة، و يجلس رأس الميمنة تحت الطواشى حسام الدين بلال المغيثى لأجل كبره و تقدّمه، ثم زاد منكرتمر فى الإغراء به و السلطنة تستمهله إلى أن قبض عليه و سجنه فى سنة سبع و تسعين و ستمائة، و أحاط بسائر موجوده و حبس عدّة من مماليكه، فسر منكرتمر بمسكه سرورا عظيما، و استمرّ فى السجن إلى أن مات فى تاسع عشر شوّال سنة ثمان و تسعين و ستمائة و عليه ديون كثيرة، و دفن بتربته خارج باب النصر رحمه اللّه تعالى.

قصر بشتاك: هذا القصر هو الآن تجاه الدار البيسرية، و هو من جملة القصر الكبير الشرقىّ الذى كان مسكنا للخفاء الفاطميين، و يسلك إليه من الباب الذى كان يعرف فى أيام عمارة القصر الكبير فى زمن الخلفاء بباب البحر، و هو يعرف اليوم بباب قصر بشتاك، تجاه المدرسة الكاملية، و ما زال إلى أن اشتراه الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ المعروف بأمير سلاح، و أنشأ دورا و اصطبلات و مساكن له و لحواشيه، و صار ينزل إليه هو و الأمير بدر الدين بيسرى عند انصرافهما من الخدمة السلطانية بقلعة الجبل فى موكب عظيم زائد الحشمة، و يدخل كل منهما إلى داره، و كان موضع هذا القصر عدّة مساجد فلم يتعرّض لهدمها و أبقاها على ما هى عليه، فلما مات أمير سلاح و أخذ الأمير قوصون الدار البيسرية كما تقدّم ذكره، أحب الأمير بشتاك أن يكون له أيضا دار بالقاهرة، و ذلك أن قوصون و بشتاك كانا يتناظران فى الأمور و يتضادّان فى سائر الأحوال، و يقصد كل منهما أن يسامى الآخر و يزيد عليه فى التجمل،

فأخذ بشتاك يعمل فى الاستيلاء على قصر أمير سلاح حتى اشتراه من ورثته، فأخذ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۲۹

من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قطعة أرض كانت داخل هذا القصر من حقوق بيت المال، و هدم دارا كانت قد أنشئت هناك. عرفت بدار قطوان الساقى، و هدم أحد عشر مسجدا و أربعة معابد كانت من آثار الخلفاء يسكنها جماعة الفقراء، و أدخل ذلك فى البناء إلّا مسجدا منها فإنه عمر، و يعرف اليوم بمسجد النجل، فجاء هذا القصر من أعظم مبانى القاهرة، فإن ارتفاعه فى الهواء أربعون ذراعا، و نزول أساسه فى الأرض مثل ذلك، و الماء يجرى بأعلاه، و له شبابيك من حديد تشرف على شارع القاهرة و ينظر من أعلاه عامّة القاهرة و القلعة و النيل و البساتين، و هو مشرق جليل مع حسن بنائه و تأنق زخرفته و المبالغة فى تزويقه و ترخيمه، و أنشأ أيضا فى أسفله حوانيت كان يباع فيها الحلوى و غيرها، فصار الأمر أخيرا كما كان أوّلا بتسمية الشارع بين القصرين، فإنه كان أوّلا كما تقدّم بالقاهرة القصر الكبير الشرقى الذى قصر بشتاك من جملته، و تجاهه القصر الغربىّ الذى الخرشتف من جملته، فصار قصر بشتاك و قصر بيسرى و ما بينهما من الشارع يقال له بين القصرين، و من لا علم له يظنّ إنما قيل لهذا الشارع بين القصرين لأجل قصر بيسرى و قصر بشتاك و ليس هذا بصحيح، و إنما قيل له بين القصرين قبل ذلك من حين بنيت القاهرة، فإنه كان بين القصرين القصر الكبير الشرقىّ و القصر الصغير الغربىّ، و قد تقدّم ذلك مشروحا مبينا.

و لما أكمل بشتاك بناء هذا القصر و الحوانيت التى فى أسفله و الخان المجاور له فى سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة لم يبارك له فيه و لا- تمتع به، و كان إذا نزل إليه ينقبض صدره و لا- تنبسط نفسه ما دام فيه حتى يخرج منه، فترك المجىء إليه فصار يتعاهده أحيانا فيعتريه ما تقدّم ذكره، فكرهه و باعه لزوجة بكتمر الساقى و تداوله ورثتها إلى أن أخذه السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، فاستقرّ بيد أولاده إلى أن تحكم الأمير الوزير المشير جمال الدين الأستادار فى مصر. أقام من شهد عند قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم الحنفى بأن هذا القصر يضرّ بالجار و المار، و أنه مستحق للإزالة و الهدم كما عمل ذلك فى غير موضع بالقاهرة، فحكم له باستبداله و صار من جملة أملاكه، فلما قتله الملك الناصر فرج بن برقوق استولى على سائر ما تركه و جعل هذا القصر فيما عينه للتربة التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر، فاستمرّ فى جملة أوقاف التربة المذكورة إلى أن قتل الملك الناصر بدمشق فى حرب الأمير شيخ و الأمير نوروز، و قدم الأمير شيخ إلى مصر هو و الخليفة المستعين بالله العباسى ابن محمد، وقف له من بقى من أولاد جمال الدين و أقاربه، و كان لأهل الدولة يومئذ بهم عناية قاضى القضاة صدر الدين علىّ بن الأدمىّ الحنفىّ بارتجاع أملاك جمال الدين التى وقفها على ما كانت عليه، فتسلمها أخوه و صار هذا القصر إليهم و هو الآن بيدهم.

قصر الحجازية: هذا القصر بخط رحبة باب العيد بجوار المدرسة الحجازية، كان يعرف أوّلا بقصر الزمرد فى أيام الخلفاء الفاطميين، من أجل أنّ باب القصر الذى كان يعرف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۰

بباب الزمرد كان هناك، كما تقدّم ذكره فى هذا الكتاب عند ذكر القصور، فلما زالت الدولة الفاطمية صار من جملة ما صار بيد ملوك بنى أيوب، و اختلفت عليه الأيدى إلى أن اشتراه الأمير بدر الدين أمير مسعود بن خطير الحاجب من أولاد الملوك بنى أيوب، و استمرّ بيده إلى أن رسم بتسفيره من مصر إلى مدينة غزة، و استقرّ نائب السلطنة بها فى سنة إحدى و أربعين و سبعمائة و كاتب الأمير سيف الدين قوصون عليه و ملّكه إيّاه، فشرع فى عمارة سبع قاعات لكل قاعة اصطبل و منافع و مرافق، و كانت مساحة ذلك عشرة أفدنة، فمات قوصون قبل أن يتم بناء ما أراد من ذلك، فصار يعرف بقصر قوصون إلى أن اشترته خوند تتر الحجازية ابنة الملك الناصر محمد بن قلاوون و زوج الأمير ملكتمر الحجازىّ، فعمرته عمارة ملوكية و تأنقت فيه تأنقا زائدا، و أجرت الماء إلى أعلاه، و عملت تحت القصر إصطبلا كبيرا لخيول خدّامها، و ساحة كبيرة يشرف عليها من شبابيك حديد، فجاء شيئا عجيبا حسنه، و أنشأت بجواره مدرستها التى تعرف إلى اليوم بالمدرسة الحجازية، و جعلت هذا القصر من جملة ما هو موقوف عليها، فلما ماتت

سكنه الأمراء بالأجرة إلى أن عمر الأمير جمال الدين يوسف الأستادار داره المجاورة للمدرسة السابقية، و تولى استادارية الملك الناصر فرج، صار يجلس برحبة هذا القصر و المقعد الذى كان بها، و عمل القصر سجنا يحبس فيه من يعاقبه من الوزراء و الأعيان، فصار موحشا يروع النفوس ذكره لما قتل فيه من الناس خنقا و تحت العقوبة، من بعد ما أقام دهرا و هو مغنى صبابات و ملعب أتراب و موطن أفراح و دار عز و منزل لهو و محل أمانى النفوس و لذاتها، ثم لما فحش كلب جمال الدين و شنع شرهه فى اغتصاب الأوقاف أخذ هذا القصر يتشعث شيء من زخارفه، و حكم له قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم الحنفى باستبداله، كما تقدّم الحكم فى نظائره، فقلع رخامه، فلما قتل صار معطلا مدّة، و همّ الملك الناصر فرج ببنائه رباطا، ثم انثنى عزمه عن ذلك، فلما عزم على المسير إلى محاربة الأمير شيخ و الأمير نوروز فى سنة أربع عشرة و ثمانمائة، نزل إليه الوزير الصاحب سعد الدين إبراهيم بن البشيرى و قلع شبابيكه الحديد لتعمل آلات حرب، و هو الآن بغير رخام و لا شبابيك، قائم على أصوله لا يكاد ينتفع به، إلا أن الأمير المشير بدر الدين حسن بن محمد الأستادار لما سكن فى بيت الأمير جمال الدين جعل ساحة هذا القصر اصطبلا لخيوله، و صار يحبس فى هذا القصر من يصادره أحيانا.

و فى رمضان سنة عشرين و ثمانمائة ذكر الأمير فخر الدين عبد الغنىّ بن أبى الفرج الأستادار، ما يجده المسجونون فى السجن المستجدّ، عند باب الفتوح، بعد هدم خزانة شمائل من شدّة الضيق و كثرة الغم، فعيّن هذا القصر ليكون سجنا لأرباب الجرائم، و أنعم على جهة وقف جمال الدين بعشرة آلاف درهم فلوسا عن أجرة سنتين، فشرعوا فى عمل سجن و أزالوا كثيرا من معالمه، ثم ترك على ما بقى فيه و لم يتخذ سجنا.

قصر يلبغا اليحياوى: هذا القصر موضعه الآن مدرسة السلطان حسن المطلة على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۱

الرميلة، تحت قلعة الجبل، و كان قصرا عظيما، أمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة ببنائه لسكن الأمير يلبغا اليحياوى، و أن يبنى أيضا قصر يقابله برسم سكنى الأمير الطنبغا المارديني، لتزايد رغبته فيهما و عظيم محبته لهما، حتى يكونا تجاهه و ينظر إليهما من قلعة الجبل، فركب بنفسه إلى حيث سوق الخيل من الرميلة تحت القلعة، و سار إلى حمام الملك السعيد، و عيّن اصطبل الأمير أيدغمش أميراخور، و كان تجاهها ليعمره هو و ما يقابله قصرين متقابلين و يضاف إليه إصطبل الأمير طاشتمر الساقى، و اصطبل الجوق و أمر الأمير قوصون أن يشترى ما يجاور إصطبله من الأملاك و يوسع فى إصطبله، و جعل أمر هذه العمارة إلى الأمير اقبغا عبد الواحد، فوقع الهدم فيما كان بجوار بيت الأمير قوصون، و زيد فى الإصطبل و جعل باب هذا الإصطبل من تجاه باب القلعة المعروف بباب السلسلة ، و أمر السلطان بالنفقة على العمارة من مال السلطان على يد النشو، و كان للملك الناصر رغبة كبيرة فى العمارة بحيث أنه أفرد لها ديوانا، و بلغ مصروفها فى كل يوم اثنى عشر ألف درهم نقرة، و أقل ما كان يصرف من ديوان العمارة فى اليوم برسم العمارة مبلغ ثمانية آلاف درهم نقرة، فلما كثر الاهتمام فى بناء القصرين المذكورين و عظم الاجتهاد فى عمارتهما و صار السلطان ينزل من القلعة لكشف العمل و يستحث على فراغهما، و أوّل ما بدىء به قصر يلبغا اليحياوى، فعمل أساسه حضيرة واحدة انصرف عليها وحدها مبلغ أربعمائة ألف درهم نقرة، و لم يبق فى القاهرة و مصر صانع له تعلق فى العمارة إلّا و عمل فيها حتى كمل القصر، فجاء فى غاية الحسن، و بلغت النفقة عليه مبلغ أربعمائة ألف ألف و ستين ألف درهم نقرة، منها ثمن لازورد خاصة مائة ألف درهم.

فلما كملت العمارة نزل السلطان لرؤيتها، و حضر يومئذ من عند الأمير سيف الدين طرغاى نائب حلب تقدمة، من جملتها عشرة أزواج بسط أحدها حرير، و عدّة أوانى من بلور و نحوه، و خيل و بخاتى، فأنعم بالجميع على الأمير يلبغا اليحياوىّ، و أمر الأمير أقبغا عبد الواحد أن ينزل إلى هذا القصر و معه أخوان سلار برفقته، و سار أرباب الوظائف لعمل مهم، فبات النشو ناظر الخاص هناك لتعبية ما يحتاج إليه من اللحوم و التوابل و نحوها، فلما تهيأ ذلك حضر سائر أمراء الدولة من أوّل النهار و أقاموا بقصر يلبغا اليحياوى فى أكل

و شرب و لهو، و فى آخر النهار حضرت إليهم التشاريف السلطانية، و عدّتها أحد عشر تشريفا برسم أرباب الوظائف، و هم: الأمير أقبغا عبد الواحد، و الأستادار، و الأمير قوصون الساقى،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۲

و الأمير بشتاك، و الأمير طقوزدمر أمير مجلس فى آخرين، و حضر لبقية الأمراء خلع و أقبية على قدر مراتبهم، فلبس الجميع التشاريف و الخلع و الأقبية و اركبوا الخيول المحضرة إليهم من الإصطبل السلطانىّ بسروج و كنابيش ما بين ذهب و فضة بحسب مراتبهم، و ساروا إلى منازلهم، و ذبح فى هذا المهمّ ستمائة رأس غنم و أربعون بقرة و عشرون فرسا، و عمل فيه ثلثمائة قنطار سكر برسم المشروب، فإن القوم يومئذ لم يكونوا يتظاهرون بشرب الخمر و لا شىء من المسكرات البتة، و لا يجسر أحد على عمله فى مهمّ البتة، و ما زالت هذه الدار باقية إلى أن هدمها السلطان الملك الناصر حسن، و أنشأ موضعها مدرسته الموجودة الآن.

إصطبل قوصون: هذا الإصطبل بجوار مدرسة السلطان حسن و له بابان، باب من الشارع بجوار حدرة البقر، و بابه الآخر تجاه باب السلسلة الذى يتوصل منه إلى الإصطبل السلطانىّ و قلعة الجبل، أنشأه الأمير علم الدين سنجر الجمقدار، فأخذه منه الأمير سيف الدين قوصون و صرف له ثمنه من بيت المال، فزاد فيه قوصون إصطبل الأمير سنقر الطويل، و أمره الملك الناصر محمد بن قلاوون بعمارة هذا الإصطبل، فبنى فيه كثيرا و أدخل فيه عدّة عمائر، ما بين دور و إصطبلات، فجاء قصرا عظيما إلى الغاية، و سكنه الأمير قوصون مدّة حياة الملك الناصر.

فلما مات السلطان و قام من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر، عمل عليه قوصون و خلعه و أقام بعده بدله الملك الأشرف كجك بن الملك الناصر محمد، فلما كان فى سنة اثنين و أربعين و سبعمائة حدث فى شهر رجب منها فتنة بين الأمير قوصون و بين الأمراء، و كبيرهم أيدغمش أميراخور، فنادى أيدغمش فى العامة يا كسابه عليكم بإصطبل قوصون، إنهبوه، هذا و قوصون محصور بقلعة الجبل، فأقبلت العامّة من السؤال و الغلمان و الجند إلى إصطبل قوصون، فمنعهم المماليك الذين كانوا فيه و رموهم بالنشاب و أتلفوا منهم عدّة، فثارت مماليك الأمير يلبغا اليحياوى من أعلى قصر يلبغا، و كان بجوار قصر قوصون حيث مدرسة السلطان حسن، و رموا مماليك قوصون بالنشاب حتى انكفوا عن رمى النّهابة، فاقتحم غوغاء الناس إصطبل و قوصون و انتهبوا ما كان بركاب خاناته و حواصله، و كسروا باب القصر بالفؤس، و صعدوا إليه بعد ما تسلقوا إلى القصر من خارجه، فخرجت مماليك قوصون من الإصطبل يدا واحدة بالسلاح و شقوا القاهرة و خرجوا إلى ظاهر باب النصر يريدون الأمراء الواصلين من الشام، فأتت النهابة على جميع ما فى إصطبل قوصون من الخيل و السروج و حواصل المال التى كانت بالقصر، و كانت تشتمل من أنواع المال و القماش

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۳

و الأوانى الذهب و الفضة على ما لا يحدّ و لا يعدّ كثرة.

و عندما خرجت العامّة بما نهبته، وجدت مماليك الأمراء و الأجناد قد وقفوا على باب الإصطبل فى الرميلة لانتظار من يخرج، و كان إذا خرج أحد بشىء من النهب أخذه منه أقوى منه، فإن امتنع من إعطائه قتل، و احتمل النهابة أكياس الذهب و نثروها فى الدهاليز و الطرق، و ظفروا بجواهر نفيسة و ذخائر ملوكية و أمتعة جليلة القدر و أسلحة عظيمة و أقمشة مثمنة، و جرّوا البسط الرومية و الأمدية و ما هو من عمل الشريف و تقاتلوا عليها و قطعوها قطعا بالسكاكين و تقاسموها، و كسّروا أوانى البلور و الصينى، و قطعوا سلاسل الخيل الفضة، و السروج الذهب و الفضة، و فكوا اللجم و قطعوا الخيم و كسروا الخركاوات و أتلفوا سترها و أغشيتها الأطلس و الزركفت.

و ذكر عن كاتب قوصون أنه قال: أما الذهب المكيس و الفضة كان ينيف على أربعمائة ألف دينار، و أما الزركش و الحوايص و المعصبات ما بين خوانجات و أطباق فضة و ذهب، فإنه فوق المائة ألف دينار، و البلور و المصاغ المعمول برسم النساء فإنه لا يحصر، و كان هناك ثلاثة أكياس أطلس فيها جوهر قد جمعه فى طول أيامه، لكثرة شغفه بالجوهر، لم يجمع مثله ملك، كان ثمنه نحو المائة ألف دينار، و كان فى حاصله عدّة مائة و ثمانين زوج بسط، منها ما طوله من أربعين ذراعا إلى ثلاثين ذراعا عمل البلاد، و ستة عشر

زوج من عمل الشريف بمصر، ثمن كل زوج اثنا عشر ألف درهم نقرة، منها أربعة أزواج بسط من حرير، و كان من جملة الخام نوبة خام جميعها أطلس معدنيّ قصب، جميع ذلك نهب و كسر و قطع و انحطّ سعر الذهب بديار مصر عقيب هذه النهبة من دار قوصون، حتى بيع المثقال بأحد عشر درهما لكثرته فى أيدى الناس، بعد ما كان سعر المثقال عشرين درهما و من حينئذ تلاشى أمر هذا القصر لزوال رخامه فى النهب، و ما برح مسكنا لأكابر الأمراء، و قد اشتهر أنه من الدور المشئومة، و قد أدركت فى عمرى غير واحد من الأمراء سكنه و آل أمره إلى ما لا خير فيه، و ممن سكنه: الأمير بركة الزينبيّ، و نهب نهبة فاحشة، و أقام أعوام خرابا لا يسكنه أحد، ثم أصلح و هو الآن من أجلّ دور القاهرة.

دار أرغون الكاملى: هذه الدار بالجسر الأعظم على بركة الفيل، أنشأها الأمير أرغون الكاملىّ فى سنة سبع و أربعين و سبعمائة، و أدخل فيها من أرض بركة الفيل عشرين ذراعا.

أرغون الكاملى: الأمير سيف الدين نائب حلب و دمشق، تبناه الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون و زوّجه أخته من أمّه، بنت الأمير أرغون العلائى، فى سنة خمس و أربعين و سبعمائة. و كان يعرف أوّلا بأرغون الصغير، فلما مات الملك الصالح و قام من بعده فى مملكة مصر أخوه الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون، أعطاه أمرة مائة و تقدمة ألف، و نهى أن يدعى أرغون الصغير، و تسمّى أرغون الكاملى. فلمّا مات الأمير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۴

قطليجا الحموىّ فى نيابة حلب، رسم له الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون بنيابة حلب، فوصل إليها يوم الثلاثاء حادى عشر شهر رجب سنة خمسين و سبعمائة، و عمل النيابة بها على أحسن ما يكون من الحرمة و المهابة، وهابه التركمان و العرب، و مشت الأحوال به.

ثم جرت له فتنة مع أمراء حلب، فخرج فى نفر يسير إلى دمشق، فوصلها لثلاث بقين من ذى الحجة سنة إحدى و خمسين، فأكرمه الأمير ايتمش الناصرىّ نائب دمشق و جهّزه إلى مصر، فأنعم عليه السلطان و أعاده إلى نيابة حلب فأقام بها إلى أن عزل ايتمش من نيابة دمشق، فى أوّل سلطنة الملك الصالح صالح بن قلاون، فنقل من نيابة حلب إلى نيابة دمشق، فدخلها فى حادى عشرى شعبان سنة اثنتين و خمسين، و أقام بها فلم يصف له بها عيش فاستعفى، فلم يجبّ و ما زال بها إلى أن خرج يلبغاروس و حضر إلى دمشق، فخرج إلى اللّد، و استولى يلبغاروس على دمشق.

فلما خرج الملك الصالح من مصر و سار إلى بلاد الشام بسبب حركة يلبغاروس، تلقّاه أرغون و سار بالعساكر إلى دمشق، و دخل السلطان بعده و قد فرّ يلبغاروس، فقلّده نيابة حلب فى خامس عشرى شهر رمضان. و عاد السلطان إلى مصر، فلم يزل الأمير أرغون بحلب و خرج منها إلى الأبلستين فى طلب ابن دلغادر، و حرقها و حرق قراها و دخل إلى قيصرية و عاد إلى حلب فى رجب سنة أربع و خمسين.

فلما خلع الملك الصالح بأخيه الملك الناصر حسن فى شوال سنة خمس و خمسين طلب الأمير أرغون من حلب فى آخر شوّال، فحضر إلى مصر و عمل أمير مائة مقدّم ألف إلى تاسع صفر سنة ست و خمسين، فأمسك و حمل إلى الإسكندرية اعتقل فيها و عنده زوجته. ثم نقل من الإسكندرية إلى القدس فأقام بها بطالا، و بنى هناك تربة و مات بها يوم الخميس لخمس بقين من شوّال سنة ثمان و خمسين و سبعمائة.

دار طاز: هذه الدار بجوار المدرسة البندقدارية تجاه حمام الفارقانى، على يمنة من سلك من الصليبة يريد حدرة البقر و باب زويلة، أنشأها الأمير سيف الدين طاز فى سنة ثلاث و خمسين و سبعمائة، و كان موضعها عدّة مساكن، هدمها برضى أربابها و بغير رضاهم، و تولى الأمير منجك عمارتها و صار يقف عليها بنفسه حتى كملت، فجاءت قصرا مشيدا و اصطبلا كبيرا، و هى باقية إلى يومنا هذا يسكنها الأمراء. و فى يوم السبت سابع عشرى جمادى الآخرة سنة أربع و خمسين، عمل الأمير طاز فى هذه الدار وليمة عظيمة حضرها

السلطان الملك الصالح صالح و جميع الأمراء، فلما كان وقت انصرافهم قدّم الأمير طاز للسلطان أربعة أفراس بسروج ذهب و كنابيش ذهب، و قدّم للأمير سنجر فرسين كذلك،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۵

و للأمير صرغتمش فرسين، و لكل واحد من أمراء الألوف فرسا كذلك، و لم يعهد قبل هذا أن أحدا من ملوك الأتراك نزل إلى بيت أمير قبل الصالح هذا، و كان يوما مذكورا.

طاز: الأمير سيف الدين، أمير مجلس، اشتهر ذكره فى أيام الملك الصالح إسماعيل، و لم يزل أميرا إلى أن خلع الملك الكامل شعبان و أقيم المظفر حاجى، و هو أحد الأمراء الستة أرباب الحل و العقد، فلما خلع الملك المظفر و أقيم الملك الناصر حسن، زادت و جاهته و حرمته، و هو الذى أمسك الأمير يلبغاروس فى طريق الحجاز، و أمسك أيضا الملك المجاهد سيف الإسلام علىّ ابن المؤيد صاحب بلاد اليمن بمكة، و أحضره إلى مصر، و هو الذى قام فى نوبة السلطان حسن لما خلع و أجلس الملك الصالح صالح على كرسىّ الملك، و كان يلبس فى درب الحجاز عباءة و سرقولا و يخفى نفسه ليتجسس على أخبار يلبغاروس، و لم يزل على حاله إلى ثانى شوّال سنة خمس و خمسين و سبعمائة، فخلع الصالح و أعيد الناصر حسن، فأخرج طاز إلى نيابة حلب و أقام بها.

دار صرغتمش: هذه الدار بخط بئر الوطاويط بالقرب من المدرسة الصرغتمشية المجاورة لجامع أحمد بن طولون من شارع الصليبية، كان موضعها مساكن فاشتراها الأمير صرغتمش و بناها قصرا و اصطبلا، فى سنة ثلاث و خمسين و سبعمائة، و حمل إليه الوزراء و الكتاب و الأعيان من الرخام و غيره شيئا كثيرا، و قد ذكر التعريف به عند ذكر المدرسة الصرغتمشية من هذا الكتاب فى ذكر المدارس، و هذه الدار عامرة إلى يومنا هذا يسكنها الأمراء، و وقع الهدم فى القصر خاصة فى شهر ربيع الآخر سنة سبع و عشرين و ثمانمائة.

دار الماس: هذه الدار بخط حوض ابن هنس فيما بينه و بين حدرة البقر بجوار جامع الماس، أنشأها الأمير الماس الحاجب، و اعتنى برخامها عناية كبيرة، و استدعى به من البلاد، فلما قتل فى صفر سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة، أمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بقلع ما فى هذه الدار من الرخام، فقلع جميعه و نقل إلى القلعة، و هذه الدار باقية إلى يومنا هذا ينزلها الأمراء.

دار بهادر المقدم: هذه الدار بخط الباطلية من القاهرة، أنشأها الأمير الطواشى سيف الدين بهادر مقدّم المماليك السلطانية، فى أيام الملك الظاهر برقوق.

و بهادر هذا من مماليك الأمير يلبغا، و أقام فى تقدمة المماليك جميع الأيام الظاهرية، و كثر ماله و طال عمره حتى هرم، و مات فى أيام الملك الناصر فرج، و هو على أمرته و فى وظيفته تقدمة المماليك السلطانية، يوم الأحد سابع عشر رجب سنة اثنتين و ثمانمائة.

و موضع هذه الدار من جملة ما كان احترق من الباطلية فى أيام الملك الظاهر بيبرس كما تقدّم فى ذكر حارة الباطلية عند ذكر الحارات من هذا الكتاب، و لما مات المقدّم بهادر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۶

استقرّت من بعده منزلا لأمراء الدولة، و هى باقية على ذلك إلى يومنا هذا.

دار الست شقراء: هذه الدار من جملة حارة كتامة، و هى اليوم بالقرب من مدرسة الوزير الصاحب كريم الدين ابن غنام، بجوار حمام كراى، و هى من الدور الجليلة، عرفت بخوند الست شقراء ابنة السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، و تزوّجها الأمير روس، ثم انحط قدرها و اتضعت فى نفسها إلى أن ماتت فى يوم الثلاثاء ثامن عشرى جمادى الأولى، سنة إحدى و تسعين و سبعمائة.

دار ابن عنان: هذه الدار بخط الجامع الأزهر، أنشأها نور الدين علىّ بن عنان التاجر، بقيسارية جهاركس من القاهرة، و تاجر الخاص الشريف السلطانىّ فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، كان ذا ثروة و نعمة كبيرة و مال متسع، فلما زالت دولة الأشرف أجمع، و داخله و هم، أظهر فاقة، و تذكّر أنه دفن مبلغا كبيرا من الألف مثقال ذهب فى هذه الدار، و لم يعلم به أحد

سوى زوجته أمّ أولاده، فاتفق أنه مرض و خرس، و مرضت زوجته أيضا، فمات يوم الجمعة ثامن عشر شوّال سنة تسع و ثمانين و سبعمائة، و ماتت زوجته أيضا، فأسف أولاده على فقد ماله، و حفروا مواضع من هذه الدار فلم يظفروا بشيء البتة، و أقامت مدّة بأيديهم و هى من وقف أبيهم، و مات ولده شمس الدين محمد بن على بن عنان يوم السبت تاسع صفر سنة ثلاث و ثمانمائة، ثم باعوها سنة سبع عشرة و ثمانمائة، كما بيع غيرها من الأوقاف.

دار بهادر الأعسر: هذه الدار بخط بين السورين، فيما بين سويقة المسعودى من القاهرة و بين الخليج الكبير الذى يعرف اليوم بخليج اللؤلؤة، كان مكانها من جملة دار الذهب التى تقدّم ذكرها فى ذكر مناظر الخلفاء من هذا الكتاب، و إلى يومنا هذا بجوار هذه الدار قبو، فيما بينها و بين الخليج، يعرف بقبو الذهب، من جملة أقباء دار الذهب، و يمرّ الناس من تحت هذا القبو.

بهادر هذا: هو الأمير سيف الدين بهادر الأعسر اليحياوى، كان مشرفا بمطبخ الأمير سيف الدين فجا الأمير شكار ، ثم صار زردكاش الأمير الكبير يلبغا الخاصكى، و ولى بعد ذلك مهمندار السلطان بدار الضيافة، و ولى وظيفة شدّ الدواوين إلى أن قدم الأمير يلبغا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۷

الناصرى نائب حلب بعساكر الشام إلى مصر و أزال دولة الملك الظاهر برقوق، فى جمادى سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، قبض عليه و نفاه من القاهرة إلى غزة، ثم عاد بعد ذلك إلى القاهرة و أقام بها إلى أن مات بهذه الدار فى يوم عيد الفطر سنة ثمان و تسعين و سبعمائة، و حصرت تركته و كان فيها عدّة كتب فى أنواع من العلوم، و هذه الدار باقية إلى يومنا هذا و على بابها بئر بجانبها حوض يملأ لشرب الدواب منه.

دار ابن رجب: هذه الدار من جملة أراضى البستان الذى يقال له اليوم الكافورى، كان إصطبلا للأمير علاء الدين علىّ بن كلفت التركمانىّ شادّ الدواوين، فيما بين داره و دار الأمير تنكز نائب الشام. فلما استقر ناصر الدين محمد بن رجب فى الوزارة، أنشأ هذا الإصطبل مقعدا صار يجلس فيه، و قصرا كبيرا، و استولى من بعده على ذلك كله أولاده، فلما عمر الأمير جمال الدين يوسف الأستادار مدرسته بخط رحبة باب العيد، أخذ هذا القصر و الإصطبل فى جملة ما أخذ من أملاك الناس و أوقافهم. فلما قتله الملك الناصر فرج، و استولى على جميع ما خلفه أفرد هذا القصر و الإصطبل فيما أفرده للمدرسة المذكورة، فلم يزل من جملة أوقافها إلى أن قتل الملك الناصر فرج، و قدم الأمير شيخ نائب الشام إلى مصر، فلما جلس على تخت الملك و تلقب بالملك المؤيد فى غرّة شعبان سنة خمس عشرة و ثمانمائة، وقف إليه من بقى من أولاد علاء الدين علىّ بن كلفت، و هما امرأتان، كانت إحداهما تحت الملك المؤيد قبل أن يلى نيابة طرابلس، و هو من جملة أمراء مصر فى أيام الملك الظاهر برقوق، و ذكرتا أن الأمير جمال الدين الاستادار أخذ وقف أبيهما بغير حق، و أخرجتا كتاب وقف أبيهما، ففوّض أمر ذلك لقاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير البلقينىّ الشافعىّ، فلم يجد بيد أولاد جمال الدين مستندا، فقضى بهذا المكان لورثة ابن كلفت و بقائه على ما وقفه حسبما تضمنه كتاب وقفه، فتسلم مستحقوا وقف بن كلفت القصر و الاصطبل، و هو الآن بأيديهم، و بينهم و بين أولاد ابن رجب نزاع فى القصر فقط.

محمد بن رجب: ابن محمد بن كلفت الأمير الوزير ناصر الدين، نشأ بالقاهرة على طريقة مشكورة، فلما استقرّ ناصر الدين محمد بن الحسام الصفدى شادّ الدواوين بعد انتقال الأمير جمال الدين محمود بن علىّ من شدّ الدواوين إلى استادارية السلطان فى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة سنة تسعين و سبعمائة، أقام ابن رجب هذا استادارا عند الأمير سودون باق، و كانت أوّل مباشراته، ثم ولى شدّ الدواوين بعد الأمير ناصر الدين محمد بن اقبغا آص، فى سابع عشرى ذى الحجة، و عوّض فى شدّ الدواوين بشد دواليب الخاص، عوضا عن خاله الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام، عند انتقاله إلى الوزارة، فلم يزل إلى أن توجّه الملك الظاهر برقوق إلى الشام، و أقام الأمير محمود الاستادار، فقدم عليه ابن رجب بكتاب السلطان و هو مختوم، فإذا فيه أن يقبض على ابن رجب و يلزمه بحمل مبلغ مائة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۸

و ستين ألف درهم نقرة، فقبض عليه فى رابع شهر رمضان سنة ثلاث و تسعين، و أخذ منه مبلغ سبعين ألف درهم نقرة.

فلما كان فى يوم الاثنين رابع عشر ربيع الآخر سنة ست و تسعين، صرف السلطان عن الوزارة الصاحب موفق الدين أبا الفرج، و استقرّ بابن رجب فى منصب الوزارة، و خلع عليه، فلم يغير زىّ الأمراء، و باشر الوزارة على قالب ضخم و ناموس مهاب، و صار أميرا وزيرا مدبرا لممالك، و سلك سيرة خاله الوزير ناصر الدين محمد بن الحسام فى استخدام كل من باشر الوزارة، فأقام الصاحب سعد الدين بن نصر اللّه ابن البقرىّ ناظر الدولة، و الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن الغنام ناظر البيوت، و الصاحب علم الدين عبد الوهاب سن إبرة مستوفى الدولة، و الصاحب تاج الدين عبد الرحيم بن أبى شاكر رفيقا له فى استيفاء الدولة، و أنعم عليه بإمرة عشرين فارسا فى سادس شهر ربيع الآخر سنة سبع و تسعين، فلم يزل على ذلك إلى أن مات من مرض طويل فى يوم الجمعة لأربع بقين من صفر، سنة ثمان و تسعين و سبعمائة، و هو وزير من غير نكبة، فكانت جنازته من الجنائز المذكورة، و قد ذكرته فى كتاب در العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة.

دار القليجى: هذه الدار من جملة خط قصر بشتاك، كانت أوّلا من بعض دور القصر الكبير الشرقىّ الذى تقدم ذكره عند ذكر قصور الخلفاء، ثم عرفت بدار حمال الكفاة، و هو القاضى جمال الدين إبراهيم المعروف بحمال الكفاة، ابن خالة النشو ناظر الخاص، كان أوّلا من جملة الكتاب النصارى، فأسلم و خدم فى بستان الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى كان ميدانا للملك الظاهر بيبرس بأرض اللوق، ثم خدم فى ديوان الأمير بيدمر البدرىّ، فلما عرض السلطان دواوين الأمراء و اختار منهم جماعة، كان من جملة من اختاره السلطان حمال الكفاة هذا، فجعله مستوفيا إلى أن كات المهذب كاتب الأمير بكتمر الساقى، فولاه السلطان مكانه فى ديوان الأمير بكتمر، فخدمه إلى أن مات، فخدم بديوان الأمير بشتاك إلى أن قبض الملك الناصر على النشو ناظر الخاص ، ولّاه وظيفة نظر الخاص بعد النشو، ثم أضاف إليه وظيفة نظر الجيش بعد المكين بن قزوينة عند غضبه عليه و مصادرته، فباشر الوظيفتين إلى أن مات الملك الناصر، فاستمرّ فى أيام الملك المنصور أبى بكر، و الملك الأشرف كجك، و الملك الناصر أحمد، فلما ولى الملك الصالح إسماعيل جعله مشير الدولة مع ما بيده من نظر الخاص و الجيش، و كان الوزير إذ ذاك الأمير نجم الدين محمود وزير بغداد، و كتب له توقيع باستقراره فى وظيفة الإشارة، فعظم أمره و كثر حساده إلى أن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۳۹

قبض عليه و ضرب بالمقارع، و خنق ليلة الأحد سادس شهر ربيع الأوّل سنة خمس و أربعين و سبعمائة، و دفن بجوار زاوية ابن عبود من القرافة، و كانت مدّة نظره فى الخاص خمس سنين و شهرين تنقص أياما، و كان مليح الوجه حسن العبارة كثير التصرّف ذكيا، يعرف باللسان التركىّ و يتكلم به، و يعرف باللسان النوبىّ و التكرورى.

و لم تزل هذه الدار بغير تكملة إلى أن ترأس القاضى شمس الدين محمد بن أحمد القليجىّ الحنفى، كان أولا يكتب على مبيضة الغزل، و هى يومئذ مضمنة لديوان السلطان، ثم اتصل بقاضى القضاة سراج الدين عمر بن إسحاق الهندى و خدمه فرفع من شأنه و استنابه فى الحكم، فعيب ذلك على الهندى، و قال فيه شمس الدين محمد بن محمد الصائغ الحنفى:

و لمّا رأينا كاتب المكس قاضياعلمنا بأنّ الدهر عاد إلى ورا

فقلت لصحبى ليس هذا تعجباو هل يجلب الهندىّ شيئا سوى الخرا

و ولى افتاء دار العلم، و ناب عن القضاة فى الحكم بعد مباشرة توقيع الحكم عدّة سنين، فعظم ذكره، و بعد صيته، و صار يتوسط بين القضاة و الأمراء فى حوائجهم، و يخدم أهل الدولة فيما يعنّ لهم من الأمور الشرعية، فصار كثير من أمور القضاة لا يقوم به غيره، حتى لقد كان شيخنا الأستاذ قاضى القضاة ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون يسميه دريد بن الصمة، يعنى أنه صاحب رأى القضاة، كما أن دريد ابن الصمة كان صاحب رأى هوازن يوم حنين سرّه بذلك، فلما فخم أمره أخذ هذه الدار، و قد تم بناء جدرانها، فرخّمها و

بيضها، فجاءت فى أعظم قالب و أحسن هندام و أبهج زىّ، و سكنها إلى أن مات يوم الثلاثاء لعشرين من شهر رجب سنة سبع و تسعين و سبعمائة، بعدما وقفها، فاستمرّت فى يد أولاده مدّة إلى أن أخذها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار، كما أخذ غيرها من الدور.

دار بهادر المعزى: هذه الدار بدرب راشد المجاور لخزانة البنود من القاهرة، عمرها الأمير سيف الدين بهادر المعزى، كان أصله من أولاد مدينة حلب، من أبناء التركمان، و اشتراه الملك المنصور لاجين قبل أن يلى سلطنة مصر، و هو فى نيابة السلطنة بدمشق، فترقى حتى صار أحد أمراء الألوف إلى أن مات فى يوم الجمعة تاسع شعبان سنة تسع و ثلاثين و سبعمائة، عن ابنتين إحداهما تحت الأمير أسدمر المعزى، و الأخرى تحت مملوكه اقتمر، و ترك مالا كثيرا منه، ثلاث عشر ألف دينار، و ستمائة ألف درهم نقرة، و أربعمائة فرس، و ثلثمائة جمل، و مبلغ خمسين ألف اردب غلة، و ثمان حوايص ذهب، و ثلاث كلوتات زركش، و اثنى عشر طراز زركش، و عقارا كثيرا، فأخذ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون جميع ما خلفه، و كان جميل الصورة، معروفا بالفروسية، و رمى فى القبق النشاب بيمينه و يساره، و لعب الرمح لعبا جيدا، و كان لين الجانب حلو الكلام جميل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۰

العشرة، إلّا أنه كان مقتّرا على نفسه فى مأكله و سائر أحواله لكثرة شحه، بحيث أنه اعتقل مرّة فجمع من راتبه الذى كان يجرى عليه و هو فى السجن مبلغ اثنى عشر ألف درهم نقرة، أخرجها معه من الاعتقال.

دار طينال: هذه الدار بخط الخرّاطين فى داخل الدرب الذى كان يعرف بخربة صالح، كان موضعها و ما حولها فى الدولة الفاطمية مارستانا، و أنشأ هذه الدار الأمير طينال، أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون، أقامه ساقيا، ثم عمله حاجبا صغيرا، ثم أعطاه أمرة دكتمر، و جعله أمير مائة مقدّم ألف، فباشر ذلك مدّة ثم أخرجه لنيابة طرابلس. فأقام بها زمانا، ثم نقله إلى نيابة صفد فمات بها فى ثالث شهر ربيع سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة، و كان تترىّ الجنس قصيرا إلى الغاية، مليح الوجه، مشكورا فى أحكامه، محبا لجمع المال، شحيحا، و هذه الدار تشتمل على قائمتين متجاورتين، و هى من الدور الجليلة، و لطينال أيضا قيسارية بسويقة أمير الجيوش.

دار الهرماس: هذه الدار كانت بجوار الجامع الحاكمى من قبلية شارعة فى رحبة الجامع، على يسرة من يمرّ إلى باب النصر، عمرها الشيخ قطب الدين محمد بن المقدسى المعروف بالهرماس، و سكنها مدّة، و كان أثيرا عند السلطان الملك الناصر الحسن بن محمد بن قلاوون، له فيه اعتقاد كبير، فعظم عند الناس قدره، و اشتهر فيما بينهم ذكره إلى أن دبت بينه و بين الشيخ شمس الدين محمد بن النقاش عقارب الحسد، فسعى به عند السلطان إلى أن تغير عليه و أبعده، ثم ركب فى يوم سنة إحدى و ستين و سبعمائة من قلعة الجبل بعساكره إلى باب زويلة، فعند ما وصل إليه ترجل الأمراء كلهم عن خيولهم و دخلوا مشاة من باب زويلة كما هى العادة، و صار السلطان راكبا بمفرده، و ابن النقاش أيضا راكب بجانبه، و سائر الأمراء و المماليك مشاة فى ركابه على ترتيبهم إلى أن وصل السلطان إلى المارستان المنصورى بين القصرين، فنزل إليه و دخل القبة و زار قبر أبيه و جدّه و إخوته، و جلس، و قد حضر هناك مشايخ العلم و القضاة، فتذاكروا بين يديه مسائل علمية، ثم قام إلى النظر فى أمور المرضى بالمارستان، فدار عليهم حتى انتهى غرضه من ذلك، و خرج فركب و سار نحو باب النصر و الناس مشاة فى ركابه إلّا ابن النقاش فإنه راكب بجانبه إلى أن وصل إلى رحبة الجامع الحاكمى، فوقف تجاه دار الهرماس و أمر بهدمها، فهدمت و هو واقف، و قبض على الهرماس و ابنه و ضرب بالمقارع عدّة شيوب، و نفى من القاهرة إلى مصياف . فقال الإمام العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفى فى ذلك:

قد ذاق هرماس الخسارةمن بعد عز و جساره

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۱ حسب البهتان يبقىأخرب اللّه دياره

فلما قتل السلطان فى سنة اثنين و ستين، عاد الهرماس إلى القاهرة و أعاد بعض داره، فلما كانت سنة ثمانين و سبعمائة صارت هذه الدار إلى الأمير جمال الدين عبد اللّه بن بكتمر الحاجب، فأنشأها قاعة و عدّة حوانيت و ربعا علوّ ذلك، و انتقل من بعده إلى أولاده،

و هو بأيديهم إلى اليوم.

دار أوحد الدين: هذه الدار بداخل درب السلامى فى رحبة باب العيد، مقابل قصر الشوك و إلى جانب المارستان العتيق الصلاحىّ، كان موضعها من حقوق القصر الكبير، و صار أخيرا طاحونا، فهدمها القاضى أوحد الدين عبد الواحد أيام كان يباشر توقيع الأمير الكبير برقوق، بعد سنة ثمانين و سبعمائة، فلما حفر أساس هذه الدار و وجد فيه هيئة قبة معقودة من لبن، و فى داخلها إنسان ميت قد بليت أكفانه و صار عظما نخرا، و هو فى غاية طول القامة، يكون قدر خمسة أذرع، و عظام ساقيه خلاف ما عهد من الكبر، و دماغه عظيم جدا، فلما كملت هذه الدار سكنها أيام مباشرته وظيفة كتابة السر إلى أن مات بها، و قد حبسها على أولاده، فاستمرت بأيديهم إلى أن أخذها منهم الأمير جمال الدين يوسف الاستادار، كما أخذ غيرها من الأوقاف، فاستمرّت فى جملة ما بيده إلى أن قتله الملك الناصر فرج، فقبضها فيما قبض مما خلف جمال الدين، فلما قتل الملك الناصر فرج و استقل الملك المؤيد شيخ بمملكة مصر استرجع أولاد جمال الدين ما كان أخذه الناصر من أملاك جمال الدين، و صارت بأيديهم إلى أن وقف له أولاد أوحد الدين فى طلب دار أبيهم، فعقد لذلك مجلس اجتمع فيه القضاة، فتبين أن الحق بيد أولاد أوحد الدين، فقضى بإعادة الدار إلى ما وقفها عليه أوحد الدين، فتسلمها أولاد أوحد الدين من ورثة جمال الدين، و هى الآن بأيديهم.

عبد الواحد بن إسماعيل بن ياسين الحنفىّ: أوحد الدين كاتب السر، ولد بالقاهرة و نشأ بها فى كنف قاضى القضاة جمال الدين عبد اللّه بن علىّ التركمانىّ الحنفىّ لصهارة كانت بين أبيه و بين التركمانية، و باشر توقيع الحكم مدة، و اتفق أن أميرا من أمراء الملك الأشرف شعبان بن حسين يعرف بيونس الرماح مات، فادّعى برقوق العثمانىّ أحد الممالك اليلبغاوية أنه ابن عم يونس هذا، و أنه يستحق إرثه لموته عن غير ولد، حضر إلى المدرسة الصالحية بين القصرين حيث يجلس القضاة للحكم بين الناس حتى يثبت ما ادّعاه، فلما أراد اللّه من اسعاد جدّ أوحد الدين لم يقف برقوق على أحد من موقعى الحكم إلا عليه، و أخبره بما يريد، فبادر إلى توريق سؤال باسم برقوق، و انهائه أنه ابن عمّ يونس الرماح، و أن عنده بينة تشهد بذلك، و دخل بهذا السؤال إلى قاضى القضاة، و أنهى العمل حتى ثبت أن برقوق ابن عم يونس يستحق ارثه، فلما فرغ من ذلك دفع برقوق إلى أوحد الدين مبلغ دراهم اجرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۲

توريقه كما هى عادة أهل مصر فى هذا، فامتنع من أخذها، و ألحف برقوق فى سؤاله، و هو يمتنع، فتقلد له برقوق المنة بذلك و اعتقد أمانته و خيره، و صار لكثرة ركونه إليه إذا قدم فلاحوا إقطاعه يبعثهم إليه حتى يحاسبهم عما حملوه من الخراج، فلما قتل الملك الأشرف و ثارت المماليك، و كان من أمرهم ما كان إلى أن تغلّب برقوق و صار من جملة الأمراء و استولى على الاصطبل السلطانىّ فى شهر ربيع الآخر سنة تسع و سبعين و سبعمائة، و صار أميرا خور، أقام أوحد الدين موقعا عنده، و ما زال أمر برقوق يزداد قوّة حتى انيطت به أمور المملكة كلها، فصار أوحد الدين صاحب الحل و العقد، و كاتب السرّ بدر الدين محمد بن علىّ بن فضل اللّه اسما لا معنى له، إلى أن جلس الأمير برقوق على تخت المملكة فى شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، فقرّر القاضى أوحد الدين فى وظيفة كتابة السرّ عوضا عن ابن فضل اللّه، و خلع عليه فى يوم السبت ثانى عشر شوال من السنة المذكورة، فباشر كتابة السرّ على القالب الجائز، و ضبط الأمور أحسن ضبط، و عكف سائر الناس على بابه لتمكنه من سلطانه، و كان الأمير يونس الدوادار يرى أنه أكثر الناس من الأمراء تمكينا من السلطان، و جرت العادة بانتماء كاتب السرّ إلى الدوادار، فأحب أوحد الدين الاستبداد على الأمير يونس الدوادار، فقال السلطان سرّا فى غيبة يونس: أن السلطان يرسم بكتابة مهمات الدولة و أسرار المملكة إلى البلاد الشامية و غيرها، و الأمير الدوادار يريد من المملوك أن يطلع على ذلك، فلم يقدر المملوك على مخالفته، و لا أمكنه إعلامه إلّا بإذن، فأنفق السلطان من ذلك و قال: الحذر أن يطلع على شىء من مهمات السلطان أو أسراره. فقال:

أخاف منه إن سأل و لم أعلمه. فقال السلطان: ما عليك منه.

فرأى أنه قد تمكن حينئذ، فأمسك أياما. ثم أراد الازدياد من الاستبداد فقال للسلطان سرّا: قد رسم السلطان أن لا يطّلع أحد على سرّ

السلطان، و لا يعرف بما يكتب من المهمات، و طائفة البريدية كلهم يمشون فى خدمة الدوادار، فإذا اقتضت آراء السلطان تسفير أحد منهم فى مهم يحتاج المملوك إلى استدعائه من خدمة الأمير الدوادار، فإذا التمس منى أنى أخبره بالمعنى الذى توجه فيه البريدى لا أقدر على إعلامه بذلك، و لا آمن إن كتمته، و انصرف. فلما كان من الغد و طلع الأمراء إلى الخدمة على العادة، قال السلطان للأمير يونس الدوادار: أرسل البريدية كلهم إلى كاتب السرّ ليمشوا و يركبوا معه، فلم يجد بدّا من إرسالهم، و حصل عنده من إرسالهم المقيم المقعد، فصار البريدية يركبون نوبا فى خدمة أوحد الدين، و يتصرف فى أمور الدولة وحده مع سلطانه، فانفرد بالكلمة، و خضع له الخاص و العام إلّا أنه نغّص عليه فى نفسه و مرض مرضا طويلا سقطت معه شهوة الطعام، بحيث أنه لم يكن يشتهى شيئا من الغداء، و تنوّع له المأكل من بين يديه لكى تميل نفسه إلى شىء منها، و متى تناول غذاء تقيأه فى الحال، و ما زال على ذلك إلى أن مات عن سبع و ثلاثين سنة، فى يوم السبت ثانى ذى الحجة سنة ست و ثمانين و سبعمائة، و دفن خارج باب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۳

النصر، فلم يتأخر أحد من الأمراء و الأعيان عن جنازته، و كان حسن السياسة، رضىّ الخلق، عاقلا، كثير السكون، جيد السيرة، جميل الصورة، حسن الهيئة، عارفا بأمر دنياه، محبا للمداراة، صاحب باطن، قليل العلم رحمه اللّه.

ربع الزيتى: هذا الربع كان بجوار قنطرة الحاجب التى على الخليج الناصرى، و كان يشتمل على عدّة مساكن ينزلها أهل الخلاعة للقصف، فإنه كان يشرف من جهاته الأربع على رياض و بساتين ففى شرقية غيط الزيتى، و قد خرب، و موضعه اليوم بركة ماء، و فى غربيه غيط الحاجب بيبرس، و أدركته عامرا و هو اليوم مزارع بعد ما كان له باب كبير بجانبه حوض ماء للسبيل، و عليه سياج من طين دائر به، و من قبلى، هذا الربع الخليج و قنطرة الحاجب و الجنينة التى بأرض الطبالة، و من بحر به بساتين تتصل بالبعل و كوم الريش، و ما زال هذا الربع معمورا باللذات آهلا بكثرة المسرّات إلى أن كانت سنة الغرقة، و هى سنة خمس و خمسين و سبعمائة، فخربت دور كوم الريش و غيرها، و وصل ماء النيل إلى قنطرة الحاجب، فخرب ربع الزيتى و أهمل أمره حتى صار كوما عظيما تجاه قنطرة الحاجب، و غيط الحاجب، و سمعت من أدركته يخبر عن هذا الربع بعجائب من الملاذ التى كانت فيه، و كانت العامة تقول فى هزلها: ستى أين كنتى و أين رحتى و أين جيتى قالت مع ربع الزيتى:

ثمّ انقضت تلك السنون و أهلهافكأنها و كأنّهم أحلام

الدار التى فى أوّل البرقية من القاهرة التى حيطانها حجارة بيض منحوتة: هذه الدار بقى منها جدار على يمين من سلك من المشهد الحسينىّ يريد باب البرقية، و بقى منها أيضا جدار على يمين من سلك من رحبة الأيدى مرىّ إلى باب البرقية، و هى دار الأمير صبيح بن شاهنشاه أحد أمراء الدولة الفاطمية فى أيام الصالح طلائع بن رزيك، و كانت فى غاية الكبر و التحسين. قال بعض أصحاب الصالح: يا مولانا أبقاك اللّه حتى تتم دار ابن شاهنشاه، و كان الضرغام قبل أن يلى وزارة مصر قد فرّس العادل أبا شجاع رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، فظهر منه فارسا فى غاية الفروسية، بحيث أنه قد حضر فى يوم عيد الحلقة و أخذ رمحا و حربة و قوسا و سهما، فأخذ الحلقة بالرمح، و رمى بالسهم فأصاب الغرض، و حذف بالحربة فأثبتها فى المرمى، و لعب بالرمح فى غاية الحسن.

ثم دخل صبيح ابن شاهنشاه فعمل مثل ذلك، فتحرّك الضرغام و كان يلبس عمامة بعذبة و إكمال واسعة على زىّ المصريين يومئذ، فتلثم بعذبته ولف أكمامه و أخذ رمحه و لعب به فى غاية الحسن، و طرد كذلك و دخل فى الحلقة و أخذها، فعجب منه كل من فى العسكر، فأخذ عند ذلك الأمير صبيح ابن شاهنشاه المبخرة و أتى إليه و قال: يا مولاى كفاك اللّه أمر العين، فإن هذا شىء ما يقدر عليه أحد، و جعل يدور حول فرسه و يبخره و الضرغام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۴

يتبسم و يعجبه ذلك، و بعد هذا كان قتل ابن شاهنشاه على يده فى سنة ثمان و خمسين و خمسمائة و لم تكمل هذه الدار.

دار التمر: هذه الدار بمدينة مصر من خارجها، فيما انحسر عنه ماء النيل بعد الخمسمائة من سنى الهجرة، و تعرف اليوم بصناعة التمر،

تجاه الصاغة بخط سوق المعاريج، و من جملتها بيت برهان الدين إبراهيم الحلىّ و مدرسته، و هذه الدار وقفها القاضى عبد الرحيم بن علىّ البيسانىّ على فكاك الأسرى من المسلمين ببلاد الفرنج.

قال القاضى محى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر فى كتاب الدر النظيم فى أوصاف القاضى الفاضل عبد الرحيم: و من جملة بنائه دار التمر بمصر المحروسة، و لها دخل عظيم، يجمع و يشترى به الأسرى من بلاد الفرنج، و ذلك مستمرّ إلى هذا الوقت، و فى كل وقت يحضر بالأسارى فيلبسون و يطوفون و يدعون له، و سمعتهم مرارا يقولون: يا اللّه يا رحمن يا رحيم ارحم القاضى الفاضل عبد الرحيم.

و قال القاضى جمال الدين بن شيث: كان للقاضى الفاضل ربع عظيم يؤجره بمبلغ كبير، فلما عزم على الحج ركب و مرّ به و وقف عليه و قال: اللهم إنك تعلم أن هذا الخان ليس شىء أحب إلىّ منه، أو قال أعز علىّ منه، اللهم فاشهد أنى وقفته على فكاك الأسرى من بلاد الفرنج.

و قال ابن المتوّج: و من جملة الأوقاف الوقف الفاضلى، و هو الدار المشهورة بصناعة التمر الوقف على فكاك الأسرى من يد العدوّ، المشتملة على مخازن و أخصاص و شون و منازل علوية و حوانيت بمجازها و ظاهرها، و هى اثنا عشر حانوتا، و خمسة مقاعد، و ثمانية و خمسون مخزنا، و خمسة عشر خصا، و ست قاعات و ساحة، و ست شون، و خمسة و سبعون منزلا، و خمسة مقاعد علوية، الأجرة عن ذلك جميعه إلى آخر شعبان سنة تسع و ثمانين و ستمائة فى كل شهر ألف و مائة و ست و ثلاثون درهما نقرة، و استجدّ بها القاضى جمال الدين الوجيزى خليفة الحكم بمصر حين كان ينظر فى الأوقاف دارا من ريع الوقف، فأكلها البحر، فأمر ببناء زربية أمامها من مال الوقف.

عمارة أمّ السلطان: هذه العمارة من جملة المنحر كانت دارا تعرف بالأمير جمال الدين ايدغدى العزيزىّ و لها باب من الدرب الأصفر الذى هو الآن تجاه خانقاه بيبرس، و باب من المحايريين تجاه الجامع الأقمر. عرفت هذه الدار بالأمير مظفر الدين موسى

الصالح على ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى، ثم خربت فأنسأتها خوند أم الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن فلاوون، و جعلت منها قيسارية بخط الركن المخلق يباع بها الجلود و يعلوها ربع جليل لسكن العامّة يشتمل على عدّة طباق، و وقفت ذلك على مدرستها بخط التبانة خارج باب زويلة، فلم تزل جارية فى وقفها إلى أن اغتصبها الوزير الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فيما أخذ من الأوقاف، و جعلها وقفا على مدرسته بخط رحبة باب العيد من القاهرة، و جعلت خوند بركة من جملة هذه الدار قاعة لم يعمر فيها سوى بوابتها لا غير، و هى أهلّ بوّابات الدور، و قد دخلت أيضا فيما أخذه جمال الدين و صارت بيد مباشرى مدرسته إلى أن أخذها السلطان الملك الأشرف أبو العزيز برسباى الدقماقى الظاهرىّ، و ابتدأ بعملها وكالة فى شوّال سنة خمس و عشرين و ثمانمائة، فكملت فى رجب سنة ست و عشرين، و غيّر من الطراز المنقوش فى الحجارة بجانبى باب الدخول، اسم شعبان بن حسين، و كتب برسباى، فجاءت من أحسن المبانى و يعلوها طباق للسكنى، و لم يسخر فى عمارتها أحد من الناس كما أحدثه ولاة السوء فى عمائرهم، بل كان العمال من البنايين و الفعلة و نحوهم يوفون أجورهم من غير عنف و لا عسف، فإنه كان القائم على عمارتها القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل ناظر الجيش، و هذه عادته فى أعماله أن لا يكلف فيها العمال غير طاقتهم، و يدفع إليهم أجورهم و اللّه أعلم.

ذكر الحمامات

قال ابن سيده: الحمّام و الحميم و الحميمة جميعا الماء الحار، و الحميمة أيضا المخض إذا سخن، و قد أحمّه و حمّه، و كلّما سخن فقد حمّ. قال ابن الأعرابى: و الحمائم جمع الحميم الذى هو الماء الجار، و هذا خطأ، لأن فعيلا لا يجمع على فعائل، و إنما هو جمع الحميمة الذى هو الماء الحار لغة فى الحميم مذكر، و هو أحد ما جاء من الأسماء على فعال، نحو القذاف و الجبان و الجمع حمّامات.

قال سيبويه: جمعوه بالألف و التاء و إن كان مذكرا، حيث لم يكسر جعلوا ذلك عوضا من التكسير. و الاستحمام الاغتسال بالماء الحار، و قيل هو الاغتسال بأىّ ماء كان، و الحميم العرق، و استحمّ الرجل عرق. و أمّا قولهم لداخل الحمام إذا خرج طاب حميمك، فقد يعنى به العرق، أى طاب عرقك، و إذا دعى له بطبيب العرق، فقد دعى له بالصحة، لأنّ الصحيح يطيب عرقه.

و روى عن سفيان الثورى أنه قال: ما درهم ينفقه المؤمن هو فيه أعظم أجرا من درهم صاحب حمّام ليخليه له، و قال محمد بن إسحاق فى كتاب المبتدىء: إنّ أوّل من اتخذ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۶

الحمامات و الطلاء بالنورة سليمان بن داود عليهما السلام، و أنه لما دخل و وجد حميمة قال: اوّاه من عذاب اللّه أوّاه.

و ذكر المسبحىّ فى تاريخه: أنّ العزيز بالله نزار بن المعز لدين اللّه، أوّل من بنى الحمامات بالقاهرة، و ذكر الشريف أسعد الجوّانى عن القاضى القضاعى أنه كان فى مصر الفسطاط ألف و مائة و سبعون حماما. و قال ابن المتوّج أن عدّة حمامات مصر فى زمنه بضع و سبعون حماما. و ذكر ابن عبد الظاهر أن عدّة حمامات القاهرة إلى آخر سنة خمس و ثمانين و ستمائة، تقرّب من ثمانين حماما، و أقل ما كانت الحمامات ببغداد فى أيام الخليفة الناصر أحمد بن المستنصر نحو الألف حمام.

حمّامى السيدة العمة: قال ابن عبد الظاهر: حمّامى الكافى يعرفان بحمامى السيدة العمة، و انتقلتا إلى الكامل بن شاور، ثم إلى ورثة الشريف ابن ثعلب، و هما الآن بأيديهم، و لا تدور إلّا الواحدة، و هاتان الحمامان كانتا على يمنة من يدخل من أول حارة الروم تجاه ربع الحاجب لؤلؤ، المعروف الآن بربع الزياتين، علو الفندق الذى بابه بسوق الشوّايين، و كانت إحداهما برسم الرجال و الأخرى برسم النساء، و قد خربتا و لم يبق لهما أثر البتة.

حمام الساباط: قال ابن عبد الظاهر: كان فى القصر الصغير باب يعرف بباب الساباط، كان الخليفة فى العيد يخرج منه إلى الميدان، و هو الخرشتف الآن، إلى المنحر لينحر فيه الضحايا. قلت حمام الساباط هذا يعرّف فى زمننا بحمّام المارستان المنصورى و هو برسم دخول النساء عند باب سرّ المارستان المنصورى، و هذا الحمّام هو حمّام القصر الصغير الغربى، و يعرف أيضا بحمّام الصنيمة، فلما زالت دولة الخلفاء الفاطميين من القاهرة، باعها القاضى مؤيد الدين أبو المنصور محمد بن المنذر بن محمد العدل الأنصارىّ الشافعىّ، وكيل بيت المال فى أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، للأمير عز الدين أيبك العزيزىّ هى و ساحات تحاذيها بألف و مائتى دينار، فى ذى الحجة سنة تسعين و خمسمائة، ثم باعها الأمير عز الدين أيبك للشيخ أمين الدين قيمار بن عبد اللّه الحموىّ التاجر، بألف و ستمائة دينار، فورثها من بعده من استحق إرثه، ثم اشترى من الورثة نصفها الأمير الفارس صارم الدين خطلبا الكاملى العادلى، فى سنة سبع و ثلاثين و ستمائة، و انتقلت أيضا منها حصة إلى ملك الأمير علاء الدين ايدكين البندقدارى الصالحى النجمى استادار الملك الظاهر بيبرس، فى سنة ثمان و سبعين و ستمائة، فلما تملك الملك المنصور قلاوون الألفى و انشأ المارستان الكبير المنصورى، صارت فيما هو موقوف عليه، و هى الآن فى أوقافه و لها شهرة فى حمامات القاهرة.

حمام لؤلؤ: هذه الحمام برأس رحبة الأيد مرى ملاصقة لدار السنانى، أنشأها الأمير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۷

حسام الدين لؤلؤ الحاجب فى أيام ... .

حمام الصنيمة: هذه الحمّام كانت بالقرب من خزانة البنود، على يسرة من سلك فى رحبة باب العيد إلى قصر الشوك، و قد خربت، و عمل فى موضعها مبيضة للغزل، بالقرب من الجمالية.

حمام تتر: هذه الحمام كانت بخط دار الوزارة الكبرى، و قد خربت و صار مكانها دارا عرفت بالأمير الشيخ على، و هى الدار المجاورة للمدرسة النابلسية فى الزّقاق المقابل للخانقاه الصلاحية سعيد السعداء.

و تتر هذا: بتاءين مفتوحتين كل منهما منقوط بنقطتين من فوق، أحد مماليك أسد الدين شير كوه، عمّ السلطان صلاح الدين يوسف

بن أيوب، استولى على هذه الحمّام و كانت معدّة لدار الوزارة فى مدّة الدولة الفاطمية، فعرفت به و ما حولها، و إلى الآن يعرف ذلك الخط بخط خرائب تتر، و العامّة تقول خرائب التتر بالتعريف، و هو خطأ.

حمام كرجى: هذه الحمّام كانت بخط خرائب تتر أيضا فى جوار المدرسة النابلسية، تجاه باب الخانقاه الصلاحية، عرفت بالأمير علم الدين كرجى الأسدىّ، أحد الأمراء الأسدية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و قد خربت هذه الحمّام و بنى فى مكانها هذا البناء الذى تجاه باب الخانقاه بأوّل الزّقاق.

حمام كتيلة: هذه الحمّام كانت داخل باب الخوخة برأس سويقة الصاحب، عرفت أخيرا بالأمير صارم الدين ساروج شادّ الدواوين، ثم خربت فى أيام ... و مكانها الآن مسمط يذبح فيه الغنم و تسمط.

حمّام ابن أبى الدم: هذه الحمام كانت فيما بين سويقة المسعودى و باب الخوجة، أنشأها ابن أبى الدم اليهودى، أحد كتاب الإنشاء فى أيام الخليفة الحاكم، و تولى ابن خيران الديوان و نقل عنه أنه وسع بين السطور فى كتاب كتبه إلى الخليفة و هذه مكاتبة الأعلى إلى الأدنى، فلما حضر و أنكر عليه، ألحق بين السطر و السطر سطرا مناسبا للفظ و المعنى، من غير أن يظهر ذلك، فعفا عنه. و قد خربت و صار مكانها دربا فيه دور يعرف بسكن القاضى بدر الدين حسن البردينىّ، أحد خلفاء الحاكم العزيزى الشافعىّ، و أدركت بعض آثار هذه الحمام.

حمام الحصينية: هذه الحمام كانت فى سويقة الصاحب من داخل درب الحصينية

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۸

الذى يعرف اليوم بدرب ابن عرب و قد خربت.

حمام الذهب: هذه الحمّام كانت بدار الذهب، أحد مناظر الخلفاء الفاطميين التى ذكرت فى المناظر من هذا الكتاب، و قد خربت هذه الحمّام و لم يبق لها أثر.

حمام ابن قرقة: هذه الحمّام كانت بخط سويقة المسعودى من حارة زويلة، أنشأها أبو سعيد بن قرقة الحكيم، متولى الاستعمالات بدار الديباج و خزائن السلاح فى الدولة الفاطمية، بجوار داره التى تقدّمت فى الدور من هذا الكتاب، ثم عرفت هذه الحمّام فى الدولة الأيوبية بالأمير صارم الدين المسعودى و إلى القاهرة، المنسوب إليه سويقة المسعودى المذكورة فى الأسواق من هذا الكتاب، ثم خربت هذه الحمّام و عمل فى موضعها فندق عرف أخيرا بفندق عمار الحمّامى، بجوار جامع ابن المغربى من جانبه الغربىّ، و أخذت بئر هذه الحمّام، فعملت للحمام التى تعرف اليوم بحمّام السلطان.

حمّام السلطان: هذه الحمّام يتوصل إليها الآن من سويقة المسعودى، و من قنطرة الموسكى، و هى من الحمّامات القديمة عرفت فى الدولة الفاطمية بحمّام الأوحد، ثم عرفت فى الدولة الأيوبية بحمّام ابن يحيى، و هو القاضى المفضل هبة اللّه بن يحيى العدل، ثم عرفت بحمّام الطيبرسى، ثم هى الآن تعرف بحمّام السلطان.

حمّام خوند: هذه الحمّام بجوار رحبة خوند، المذكورة فى الرحاب من هذا الكتاب، و كانت برسم الدار التى تعرف الآن بدار خوندارد تكين، ثم أفردت و صارت إلى الآن حمّاما يدخله عامة الرجال فى أوائل النهاء، ثم تعقبهم النساء من بعد، إلى أن هدمها الأمير صلاح الدين محمد استادار السلطان ابن الأمير الوزير الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللّه فى شهر رجب سنة أربع و عشرين و ثمانمائة، و عمل موضعها من جملة داره التى هناك.

حمّام ابن عبود: هذه الحمّام موضعها فيما بين اصطبل الجميزة المذكورة فى اصطبلات الخلفاء من هذا الكتاب، و بين رأس حارة زويلة، و هى من الحمامات القديمة، عرفت بحمّام الفلك، و هو القاضى فلك الملك العادل، ثم عرفت بالأمير علىّ بن أبى الفوارس، ثم عرفت بابن عبود، و هو الشيخ نجم الدين أبو علىّ الحسين بن محمد بن إسماعيل بن عبود القرشىّ الصوفىّ، مات فى يوم الجمعة ثالث عشرى شوال سنة اثنين و عشرين و سبعمائة بعد ما عظم قدره و نفذ فى أرباب الدولة نهيه و أمره، و هو صاحب الزاوية المعروفة

بزاوية ابن عبود بلحف الحبل، قريبا من الدينوريّ من القرافة، فانظرها فى الزوايا من هذا الكتاب، و لم تزل هذه الحمام جارية فى أوقاف التربة المذكورة إلى أن تسلّط الأمير جمال الدين على أموال أهل مصر، فاغتصب ابن أخته الأمير شهاب الدين أحمد المعروف بسيدى أحمد ابن أخت جمال الدين هذه الحمام، و اغتصب دار ابن فضل اللّه التى تجاه هذه الحمام، و اغتصب آدرا أخر بجوارها، و عمر هناك دارا عظيمة كما قد ذكر فى الدور من هذا الكتاب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۴۹

حمّام الصاحب: هذه الحمام بسويقة الصاحب، عرفت بالصاحب الوزير صفىّ الدين عبد اللّه بن شكر الدمرى صاحب المدرسة الصاحبية التى بسويقة الصاحب، ثم تعطلت مدّة سنين، فلما ولى الأمير تاج الدين الشوبكى ولاية القاهرة فى أيام الملك المؤيد شيخ، جدّدها و أدار بها الماء فى سنة سبع عشرة و ثمانمائة.

حمّام السلطان: هذه الحمّام كان موضعها قديما من جملة دار الديباج، و هى الآن بخط بين العواميد من البندقانيين بجوار خوخة سوق الجوار، و مدرسة سيف الإسلام، أنشأها الأمير فخر الدين عثمان ابن قزل استادار السلطان الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، و تنقلت إلى أن صارت فى أوقاف الملك الناصر محمد بن قلاوون.

حمّاما طغريك: هاتان الحمامان بجوار فندق فخر الدين بالقرب من سويقة حارة الوزيرية، أنشأهما الأمير حسام الدين طغريك المهرانىّ، أحد الأمراء الأيوبية.

حمام السوباشى: هذه الحمّام كانت بدرب طلائع بخط الخروقيين الذى يعرف اليوم بسوق الفرّايين، عرفت بالأمير الفارس همام الدين أبو سعيد برغش السوباشى، و اسمه عمرو بن كحت بن شيرك العزيزى والى القاهرة.

حمام عجينة: هذه الحمام كانت بخط الأكفانيين، انشأها الأمير فخر الدين أخو الأمير عز الدين موسك فى الدولة الأيوبية، و تنقلت حتى صارت بيد أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ، مما أوقف عليهم، و عرفت أخيرا بحمام عجينة، ثم خربت بعد سنة أربعين و سبعمائة، و موضعها الآن خربة بجوار الفندق الكبير المعدّ لديوان المواريث.

حمّام درى: هذه الحمّام كانت بخط الأكفانيين الآن، عرفت بشهاب الدولة درى الصغير غلام المظفر ابن أمير الجيوش. قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب النقط لمعجم ما أشكل من الخطط. شهاب الدولة درى المعروف بالصغير المظفرى غلام المظفر أمير الجيوش، كان أرمنيا و أسلم، و كان من المشددين فى مذهب الإمامية، و قرأ الجمل فى النحو للزجاجىّ، و كتاب اللمع لابن جنى، و كانت له خرائط من القطن الأبيض فى يديه و رجليه، و كان يتولى خزائن الكسوة، و لا يدخل على بسط السلطان و لا بسط الخليفة الحافظ لدين اللّه، و لا يدخل مجلسه إلا بتلك الخرائط فى رجليه، و لا يأخذ من أحد شيئا إلّا و فى يديه خريطة، يظنّ أنّ كل من لمسه نجّسه، وسوسة منه، فإذا اتفق أنه صافح أحد المومس رقعة بيده من غير خريطة، لا يمس ثوبه بها أبدا حتى يغسلها، فإن لمس ثوبه بها غسل الثوب، و كان الاستاذون المحنكون يرمون له فى بساط الخليفة الحافظ العنب، فإذا مشى عليه و انفجر و وصل ماؤه إلى رجليه سبهم و حرد، فيعجب الخليفة من ذلك و يضحك و لا يؤاخذه بما صدر منه، و مات بعد سنة ثلاث و ثلاثين و خمسمائة، و قد خربت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۰

هذه الحمام و لم يبق لها أثر يعرف.

حمّام الرصاصى: هذه الحمّام كانت بحارة الديلم، أنشأها الأمير سيف الدين حسن بن أبى الهيجاء المروانىّ، حامل السيف المنصور، و أوقفها هى و جميع الآدر المجاورة لها على أولاده و ذريته، فلما زالت الدولة الفاطمية عرفت بالأمير عز الدين أيبك الرصاصى، و لم تزل باقية إلى بعد سنة أربعين و سبعمائة، ثم خربت.

حمام الجيوشى: هذه الحمام كانت بحارة برجوان، على يمنة من دخل من رأى الحارة، و كانت من حقوق دار المظفر المظفر ابن أمير

الجيوش، ثم صارت بعد زوال الدولة الفاطمية من جملة ما أوقفه الملك العادل أبو بكر ابن أيوب على رباطه الذى كان بخط النخالين من فسطاط مصر، ثم وضع بنو الكويك أصهار قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة أيديهم عليها فى جملة ما وضعوا أيديهم عليه من الأوقاف بحارة ابن جماعة، و انتفعوا بريعها مدّة سنين، ثم خربوها بعد سنة أربعين و سبعمائة، و موضعها الآن بجوار دار قاضى القضاة شمس الدين محمد الطرابلسى، و بعضها داخل فى الدار المذكورة، و بئرها بجوار القبو الذى يسلك من تحته إلى حمّام الرومى داخل حارة برجوان، و يعلو هذا العقد حاصل الماء الذى للحمام، و يمرّ على مجراه من حجرة مركّبة على جدار بجوار القبر إلى الحمام المذكورة، و آثار هذا الجدار باقية إلى اليوم، و كان قد استأجر هذه البئر و القبور بعد تعطل الحمّام القاضى أبو الفداء تاج الدين إسماعيل بن أحمد بن الخطباء المخزومىّ، من مباشرى أوقاف رباط العادل، و بنى على البئر و بجوارها دارا سكنها مدّة أعوام، و أنشأ بابا على حاصل الماء المركب على القبور مشرفا عاليا، تأنّق فى ترخيمه و دهانه و كتب بدائره:

مشترف كم شبهوه الأدبالحسنه إذ جاء شيئا عجبا

فقال قوم قلعة مبنيةو آخرون شبهوه مرقبا

و شاعر أعجبه ترخيمهفقال تلك روضة فوق الربا

و قائل ما ذا ترى تشبيههفقلت هذا منبر ابن الخطبا

ثم خربت هذه الدار بعد موت ابن الخطباء و احترقت فى سنة تسع و ثمانمائة، و آثارها باقية و ما زال ابن الخطباء يدفع حكر هذه البئر و هذا القبو لجهة الرباط العادلى حتى خرب، و عفى أثره و جهل مكانه، و قد رأيته فى سنة أربع و تسعين و سبعمائة عامرا.

حمّام الرومى: هذه الحمّام بجوار حارة برجوان، عرفت بالأمير سنقر الرومى الصالحىّ أحد الأمراء فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، أنشأها بجوار اسطبله الذى يعرف اليوم باسطبل ابن الكويك، و ذلك تجاه رحبة داره التى عرفت بدار مازان، و وقف هذه الدار و الإسطبل و الحمّام المذكورة فى سنة اثنين و ستين و ستمائة، فأما الدار فإنها صارت أخيرا بيد رجل من عامة الناس يعرف بعيسى البناء، فباعها انقاضا بعد ما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۱

خرّبها فى سنة سبع و ثمانمائة لرجل من المباشرين، فهدمها ليعمرها عمارة جليلة، فلم يمهل و عاجله القضاء فمات، و صارت خربة فابتاعها بعض الناس من ورثة المذكور و شرع فى عمارة شىء منها، و أما الإصطبل و الحمّام فوضع بنو الكويك أيديهم عليهما مدّة أعوام، حتى صارا ملكا لهم يورثان، و هما الآن بيد شرف الدين محمد بن محمد بن الكويك، و قد جعل ما يخصه من الحمّام وقفا على نفسه، ثم على اناس من بعده، و فى هذه الحمام حصة أيضا وقفها شيخنا برهان الدين إبراهيم الشامى الضرير على أمته و هى بيدها.

سنقر الرومى: الصالحىّ النجمىّ، أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب البحرية، ترقى عنده فى الخدم حتى صار جامدار، و كان من خوشداشية بيبرس البندقدارىّ و أصدقائه، فلما قتل الفارس أقطاى فى أيام الملك المعز أيبك التركمانى، و خرج البحرية من القاهرة إلى بلاد الشام، كان سنقر ممن خرج و رافق بيبرس و ارتفق بصحبته، و نال منه مالا- و ثيابا و غير ذلك، و تنقل معهم فى الكرك إلى أن كان من أمره فى الصيد مع صاحب الكرك، فطلب سنقر من بيبرس شيئا فلم يجبه و امتنع من إعطائه، فحنق و فارقه إلى مصر فأقام بها، ثم أن بيبرس قدم إلى مصر بعد ذلك و قد صار أميرا فلم يعبأ سنقر به و لا قدّم إليه شيئا كعادة الخواشداشية، فلما صار الأمر إلى بيبرس، و ملك بعد قطز، قدّم سنقر و أعطاه الإقطاعات الجليلة، و نوّه بقدره، فلم يرض، فصار إذا ورد عليه الإنعام السلطانىّ لا يأخذه بقبول، و يخلو كل وقت بجماعة بعد جماعة و يفرّق فيهم المال، فيبلغ ذلك السلطان و يغضى عنه، و ربما بعث إليه و حذره مع الأمير قلاوون و غيره فلم ينته، ثم أنه قتل مملوكين من مماليكه بغير ذنب، فعزّ قتلهما على السلطان فطلبه فى رابع عشرى ذى الحجة سنة ثلاث و ستين و ستمائة و اعتقله، فقال أريد أعرف ذنبى، فبعث إليه السلطان يعدّ ذنوبه. فتحسر و قال: أوّاه لو كنت

حاضرا قتل الملك المظفر قطز، حتى أعاند فى الذى جرى، و كان كثيرا ما يقول ذلك، و بلغ هذا القول هذه السلطان فى حال أمرته فقال: أنت أخى، و تتحسر كونك ما قدرت أن تعين علىّ.

حمّاما سويد: هاتان الحمامان بآخر سويقة أمير الجيوس، عرفتا بالأمير عز الدين معالى بن سويد، و قد خربت إحداهما، و يقال أنها غارت فى الأرض و هلك فيها جماعة، و بقيت الأخرى و هى الآن بيد الخليفة أبى الفضل العباسىّ بن محمد المتوكل.

حمام طغلق: هذه الحمام بجوار درب المنصورى من خط حارة الصالحية، صارت أخيرا بيد ورثة الأمير قطلوبغا المنصورىّ حاجب الحجاب فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين، و كانت معدّة لدخول الرجال، ثم تعطلت بعد سنة تسعين و سبعمائة، و أخذ حاصلها، و عهدى بها بعد سنة ثمانمائة أطلالا واهية.

حمّام ابن علكان: هذه الحمّام كانت بحارة الجودرية، أنشأها الأمير شجاع الدين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۲

عثمان بن علكان، صهر الأمير الكبير فخر الدين عثمان بن قزل، ثم انتقلت إلى الأمير علم الدين سنجر الصيرفىّ الصالحىّ النجمىّ، و ما زالت إلى أن خربت بعد سنة أربعين و سبعمائة، فعمر مكانها الأمير ازدمر الكاشف إسطبلا بعد سنة خمسين و سبعمائة.

حمّام الصاحب: هذه الحمام بخط طواحين الملحيين.

حمّام كتبغا الأسدى: هذه الحمام موضعها الآن المدرسة الناصرية بخط بين القصرين.

حمّام ألتطمش خان: هذه الحمّام كانت بجوار ميضاة الملك ركن الدين الظاهر بيبرس، المجاورة للمدرسة الظاهرية بخط بين القصرين، أنشأتها الخاتون التطمش خان زوجة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، ثم خربت و صار موضعها زقاقا، فلما ولى كمال الدين عمر بن العديم قضاء القضاة الحنفية بالديار المصرية، فى سلطنة الملك الناصر فرج، شرع فى عمارة هذا الزقاق، فمات و لم يكمله، فوضع الأمير جمال الدين يده فى العمارة و أنشأها فندقا جعله وقفا فيما وقف على مدرسته التى أنشأها برحبة باب العيد، فلما قتله الملك الناصر فرج و استولى على جميع ما تركه، جعل هذا الفندق من جملة ما أرصده للتربة التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر.

حمّام القاضى: هذه الحمام من جملة خط درب الأسوانى، و هى من الحمامات القديمة، كانت تعرف بإنشاء شهاب الدولة بدر الخاص، أحد رجال الدولة الفاطمية، ثم انتقلت إلى ملك القاضى السعيد أبى المعالى هبة اللّه بن فارس، و صارت بعده إلى ملك القاضى كمال الدين أبى حامد محمد ابن قاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس المارانى، فعرفت بحمّام القاضى إلى اليوم، ثم باع ورثة أبى حامد منها حصة للأمير عز الدين أيدمر الحلىّ نائب السلطنة فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، و صارت منها حصة إلى الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى، فجعلها وقفا على مدرسته المجاورة للجامع الأزهر.

حمّام الخرّاطين: هذه الحمّام أنشأها الأمير نور الدين أبو الحسن علىّ بن نجا بن راجح بن طلائع، فعرفت بحمام ابن طلائع و كان بجوارها، ثم حمّام أخرى تعرف بحمّام السوباشى فخربت، و مستوقد حمام ابن طلائع هذه إلى الآن من درب ابن طلائع، الشارع بسوق الفرّايين الآن، و لها منه أيضا باب، و صارت أخيرا فى وقف الأمير علم الدين سنجر السرورى المعروف بالخياط والى القاهرة، و توفى فى سنة ثمان و تسعين و ستمائة، فاغتصبها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى جملة ما اغتصب من الأوقاف و الأملاك و غيرها، و جعلها وقفا على مدرسته برحبة باب العيد و هى الآن موقوفة عليها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۳

حمّام الخشيبة: هذه الحمام بجوار درب السلسلة، كانت تعرف بحمام قوّام الدولة خير، ثم صارت حماما لدار الوزير المأمون ابن البطائحى، فلما قتل الخليفة الآمر بأحكام اللّه و عملت خشيبة تمنع الراكب أن يمرّ من تجاه المشهد الذى بنى هناك، عرفت هذه الحمّام بخشيبة، تصغير خشبة، و قد تقدّم ذلك مسبوطا عند ذكر الأخطاط من هذه الكتاب.

قال ابن عبد الظاهر: مدرسة السيوفيين وقفها الأمير عز الدين فرج شاه على الحنفية، و كانت هذه الدار قديما تعرف بدار المأمون بن البطائحى، و حمام الخشيبة كانت لها، فبيعت، و هذه الحمّام هى الآن فى أوقاف خوند طغاى أم أنوك ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون على تربتها التى فى الصحراء خارج باب البرقية.

حمام الكويك: هذه الحمّام فيما بين حارة زويلة و درس شمس الدولة، أنشأها الوزير عباس أحد وزراء الدولة الفاطمية، لداره التى موضعها الآن درب شمس الدولة، ثم جدّدها شخص من التجار يعرف بنور الدين علىّ بن محمد بن أحمد بن محمود بن الكويك الربعى التكريتى، فى سنة تسع و أربعين و سبعمائة، فعرفت به إلى اليوم.

حمّام الجوينى: هذه الحمّام بجوار حمام ابن الكويك، فيما بينها و بين البندقانيين، عرفت بالأمير عز الدين إبراهيم بن محمد بن الجوينى والى القاهرة فى أيام الملك العادل أبى بكر بن أيوب، توفى سلخ جمادى الأولى سنة إحدى و ستمائة، فإنه أنشأها بجوار داره، و العامّة تقول حمام الجهينىّ بهاء، و هو خطأ، و تنقلت إلى أن اشتراها القاضى أوحد الدين عبد الواحد بن ياسين كاتب السرّ الشريف فى أيام الملك الظاهر برقوق بطريق الوكالة عن الملك الظاهر، و جعلها وقفا على مدرسته العظمى بخط بين القصرين، و هى الآن فى جملة الموقوف عليها.

حمام القفاصين: هذه الحمام بالقرب من رأس حارة الديلم، أنشأها نجم الدين يوسف ابن المجاور وزير الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب.

حمّام الصغيرة: هذه الحمّام على يمنة من سلك من رأس حارة بهاء الدين، و هى تجاه دار قراسنقر، أنشأها الأمير فخر الدين بن رسول التركمانىّ. و رسول هذا جدّ ملوك اليمن الآن، و قد تعطلت هذه الحمام منذ كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة.

حمّام الأعسر: هذه الحمّام موضعها من جملة دار الوزارة، و هى الآن بجوار باب الجوانية، أنشأها الأمير شمس الدين سنقر المعزى الظاهرى المنصورى.

سنقر الأعسر: كان أحد مماليك الأمير عز الدين أيدمر الظاهرى نائب الشام، و جعله دواداره، فباشر الدوادارية لأستاذه بدمشق و نفسه تكبر عنها، فلما عزل أيدمر من نيابة الشام فى أيام الملك المنصور قلاوون و حضر إلى قلعة الجبل، اختار السلطان عدّة من مماليكه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۴

منهم سنقر الأعسر هذا، فاشتراه و ولّاه نيابة الاستادارية، ثم سيره فى سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة إلى دمشق، و أعطاه أمرة و ولاه شدّ الدواوين بها، و استادارا، فصارت له بالشام سمعة زائدة إلى أن مات قلاوون، و قام من بعده الأشرف خليل، و استوزر الوزير شمس الدين السلعوس، طلب سنقر إلى القاهرة و عاقبه و صادره، فتوصل حتى تزوّج بابنة الوزير على صداق مبلغه ألف و خمسمائة دينار، فأعاده إلى حالته و لم يزل إلى أن تسلطن الملك العادل كتبغا و استوزر الصاحب فخر الدين بن خليل، و قبض على سنقر و على سيف الدين استدمر و صادرهما، و أخذ من سنقر خمسمائة ألف درهم، و عزله عن شدّ الدواوين، و أحضره إلى القاهرة. فلما وثب الأمير حسام الدين لاجين على كتبغا و تسلطن، ولى سنقر الوزارة عوضا عن ابن خليل فى جمادى الأولى سنة ست و تسعين و سبعمائة، ثم قبض عليه فى ذى الحجة منها، و ذلك أنه تعاظم فى وزارته و قام بحق المنصب، يريد أن يتشبه بالشجاعى، و صار لا يقبل شفاعة أحد من الأمراء، و يخرق بنوابهم، و كان فى نفسه متعاظما و عنده شمم إلى الغاية مع سكون فى كلامه، بحيث أنه إذا فاوض السلطان فى مهمات الدولة كما هى عادة الوزراء لا يجيب السلطان بجواب شاف، و صار يتبين منه للسلطان قلة الاكتراث به، فأخذ فى ذمه و عيبه بما عنده من الكبر، و صادفه الغرض من الأمراء و شرعوا فى الحط عليه حتى صرف و قيد، فأرسل يسأل السلطان عن الذنب الذى أوجب هذه العقوبة، فقال: ماله عندى ذنب غير كبره، فإنى كنت إذا دخل إلىّ أحسب أنه هو السلطان و أنا الأعسر، فصدره منقام و حديثى معه كأنى أحدّث أستاذى، و قرّر من بعده فى الوزارة ابن الخليلى، فلما قتل لاجين و أعيد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الملك ثانيا أفرج عن سنقر الأعسر و عن جماعة من الأمراء، و أعاد الأعسر إلى الوزارة فى جمادى الأولى سنة

ثمان و تسعين و سبعمائة، و فى وزارته هذه كانت هزيمة الملك الناصر بعساكره من غازان، فتولى ناصر الدين الشيخى والى القاهرة جباية الأموال من التجار و أرباب الأموال، لأجل النفقة على العساكر، و قرّر فى وزارته على كل أردب غلة خروبة إذا طلع إلى الطحان، و قرّر أيضا نصف الشمسرة، و معناها أنه كان للمنادى على الثياب أجرة دلالته على كل ما مبلغه مائة درهم، درهمين، فيؤخذ منه درهم منهما و يفضل له درهم، و استخدم على هاتين الجهتين نحو مائتين من الأجناد البطالين، و تحصل فى بيت المال من أموال المصادرات مبلغ عظيم، ثم خرج الوزير بمائة من مماليك السلطان و توجه إلى بلاد الصعيد و قد وقعت له فى النفوس مهابة عظيمة، فكبس البلاد و أتلف كثيرا من المفسدين من أجل أنه لما حصلت وقعة غازان كثر طمع العربان فى المغل، و منعوا كثيرا من الخراج، و عصوا الولاة و قطعوا الطريق، و ما زال يسير إلى الأعمال القوصية، فلم يدع فرسا لفلاح، و لا قاض، و لا متعمم، حتى أخذه، و تتبع السلاح، ثم حضر بألف و ستين فرسا، و ثمانمائة و سبعين جملا، و ألف و ستمائة رمح، و ألف و مائتى سيف، و تسعمائة درقة، و ستة آلاف رأس غنم، و قتل عدّة من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۵

الناس، فتمهدت البلاد و قبض الناس مغلهم بتمامه، و اتفقت واقعة النصارى التى ذكرت عند ذكر كنائس النصارى من هذا الكتاب فى أيامه، فأمر بالتاج ابن سعيد الدولة أحد مستوفى الدولة، و كان فيه زهو و حمق عظيم، و له اختصاص بالأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى، فعرّى و ضرب بالمقارع ضربا مبرحا، فأظهر الإسلام و هو فى العقوبة، فأمسك عنه. و ألزمه بحمل مال، فالتجأ إلى زاوية الشيخ نصر المنيحى و ترامى على الشيخ فقام فى أمره حتى عفى عنه، فكره الأمراء الأعسر لكثرة شممه و تعاظمه، فكلّموا الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى، و إليه أمر الدولة فى ولاية الأمير عز الدين أيبك البغدادىّ الوزارة، و ساعدهم على ذلك الأمير سلار، فولى الأعسر كشف القلاع الشامية، و إصلاح أمورها، و ترتيب رجالها، و سائر ما يحتاج إليه. و خلع على الأمير أيبك خلع الوزارة فى آخر سنة سبعمائة، فلما عاد استقرّ أحد أمراء الألوف، و حج فى صحبة الأمير سلار و مات بالقاهرة بعد أمراض، فى سنة تسع و سبعمائة، و كان عارفا خيّرا مهابا، له سعادات طائلة، و مكارم مشهورة، و لحاشيته ثروة متسعة، و غالب مماليكه تأمّروا بعده، و ممن مدحه الوداعىّ و ابن الوكيل.

حمّام الحسام: هذه الحمّام بداخل باب الجوانية.

حمّام الصوفية: هذه الحمّام بجوار الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، أنشأها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لصوفية الخانقاه، و هى إلى الآن جارية فى أوقافهم و لا يدخلها يهودىّ و لا نصرانى.

حمّام بهادر: هذه الحمّام موضعها من حملة القصر، و هى بجوار دار جرجى، أنشأها الأمير بهادر استادار الملك الظاهر برقوق، و قد تعطلت.

حماد الدود: هذه الحمّام خارج باب زويلة فى الشارع تجاه زقاق خان حلب، بجوار حوض سعد الدين مسعود بن هنس، عرفت بالأمير سيف الدين الدود الجاشنكيرىّ، أحد أمراء الملك المعز أيبك التركمانىّ، و خال ولده الملك المنصور نور الدين علىّ بن الملك المعز أيبك، فلما وثب الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة بديار مصر على الملك المنصور علىّ بن الملك المعز أيبك و اعتقله و جلس على سرير المملكة قبض على الأمير الدود فى ذى الحجة سنة سبع و خمسين و ستمائة و اعتقله، و هذه الحمّام إلى اليوم بيد ذرية الدود من قبل بناته موقوفة عليهم.

حمام ابن أبى الحوافر: هذه الحمّام خارج مدينة مصر بجوار الجامع الجديد الناصرىّ، كان موضعها و ما حولها عامرا بماء النيل، ثم انحصر عنه الماء و صار جزيرة، فبنى الناس عليها بعد الخمسمائة من سنى الهجرة، كما ذكر عند ذكر ساحل مصر من هذا الكتاب، و عرفت هذه الحمّام بالقاضى فتح الدين أبى العباس أحمد بن الشيخ جمال الدين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۶

أبى عمرو و عثمان بن هبة اللّه بن أحمد بن عقيل بن محمد بن أبى الحوافر رئيس الأطباء بديار مصر، و مات ليلة الخميس الرابع عشر من شهر رمضان سنة سبع و خمسين و ستمائة و دفن بالقرافة.

حمّام قتّال السبع: هذه الحمّام خارج باب القوس من ظاهر القاهرة فى الشارع المسلوك فيه من باب زويلة إلى صليبة جامع ابن طولون، و موضعها اليوم بجوار جامع قوصون، عمّرها الأمير جمال الدين أقوش المنصورىّ، المعروف بقتّال السبع الموصلى، بجانب داره التى هى اليوم جامع قوصون، فلما أخذ قوصون الدار المذكورة و هدمها و عمر مكانها هذا الجامع، أراد أخذ الحمّام، و كانت وقفا، فبعث إلى قاضى القضاة شرف الدين الحنبلىّ الحرّانىّ يلتمس منه حل وقفها، فأخرب منها جانبا و أحضر شهود القيمة فكتبوا محضرا يتضمن أنّ الحمام المذكورة خراب، و كان فيهم شاهد امتنع من الكتابة فى المحضر و قال: ما يسعنى من اللّه أن أدخل بكرة النهار فى هذا الحمام و أطهّر فيها، ثم أخرج منها و هى عامرة و أشهد بعد ضحوة نهار من ذلك اليوم أنها خراب، فشهد غيره، و أثبت قاضى القضاة الحنبلىّ المحضر المذكور و حكم ببيعها، فاشتراها الأمير قوصون من ورثة قتال السبع، و هى اليوم عامرة بعمارة ما حولها.

حمّام لؤلؤ: هذه الحمام برأس رحبة الأيدمرىّ، ملاصقة لدار السنانىّ من القاهرة، أنشأها الأمير حسام الدين لؤلؤ الحاجب.

لؤلؤ الحاجب: كان أرمنىّ الأصل، و من جملة أجناد مصر فى أيام الخلفاء الفاطميين، فلما استولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر، خدم تقدمة الأسطول، و كان حيثما توجه فتح و انتصر و غنم، ثم ترك الجندية و زوّج بناته و كنّ أربعا بجهاز كاف، و أعطى ابنيه ما يكفيهما، ثم شرع يتصدّق بما بقى معه على الفقراء بترتيب لا خلل فيه، و دواما لا سآمة معه، و كان يفرّق فى كل يوم اثنى عشر ألف رغيف مع قدور الطعام، و إذا دخل شهر رمضان أضعف ذلك، و تبتل للتفرقة من الظهر فى كل يوم إلى نحو صلاة العشاء الآخرة، و يضع ثلاثة مراكب طول كل مركب أحد و عشرون ذراعا مملوءة طعاما، و يدخل الفقراء أفواجا و هو قائم مشدود الوسط كأنه راعى غنم، و فى يده مغرفة و فى الأخرى جرّة سمن، و هو يصلح صفوف الفقراء و يقرّب إليهم الطعام و الودك، و يبدأ بالرجال ثم النساء ثم الصبيان، و كان الفقراء مع كثرتهم لا يزدحمون، لعلمهم أنّ المعروف يعمهم، فإذا انتهت حاجة الفقراء بسط سماطا للأغنياء تعجز الملوك عن مثله، و كان له مع ذلك على الإسلام منة توجب أن يترحم عليه المسلمون كلهم، و هى أنّ فرنج الشوبك و الكرك توجهوا نحو مدينة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم لينبشوا قبره صلى اللّه عليه و سلم، و ينقلوه جسده الشريف المقدّس إلى بلادهم و يدفنوه عندهم، و لا يمكنوا المسلمين من زيارته إلّا بجعل، فأنشأ البرنس أرباط صاحب الكرك سفنا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۷

حملها على البرّ إلى بحر القلزم، و أركب فيها الرجال، و أوقف مركبين على جزيرة قلعة القلزم تمنع أهلها من استقاء الماء، فاسرت الفرنج نحو عيذاب فقتلوا و أسروا و مضوا يريدون المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة و التسليم، و ذلك فى سنة ثمان و تسعين و خمسمائة، و كان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على حران، فلما بلغه ذلك بعث إلى سيف الدولة ابن منقذ نائبه على مصر يأمره بتجهيز الحاجب لؤلؤ خلف العدوّ، فاستعدّ لذلك و أخذ معه قيودا و سار فى طلبهم إلى القلزم، و عمّر هناك مراكب و سار إلى أيلة، فوجد مراكب للفرنج فحرقها و أسر من فيها، و سار إلى عيذاب و تبع الفرنج حتى أدركهم، و لم يبق بينهم و بين المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة و التسليم إلا مسافة يوم، و كانوا ثلاثمائة و نيفا، و قد انضم إليهم عدّة من العربان المرتدّة، فعندما لحقهم لؤلؤ فرّت العربان فرقا من سطوته و رغبة فى عطيته، فإنه كان قد بذل الأموال حتى أنه علّق أكياس الفضة على رؤس الرماح، فلما فرّت العربان التجأ الفرنج إلى رأس جبل صعب المرتقى، فصعد إليهم فى عشرة أنفس و ضايقهم فيه، فخارت قواهم بعد ما كانوا معدودين من الشجعان و استسلموا، فقبض عليهم و قيّدهم و حملهم إلى القاهرة، فكان لدخولهم يوم مشهود، و تولى قتلهم الصوفية و الفقهاء و أرباب الديانة بعد ما ساق رجلين من أعيان الفرنج إلى منى و نحرهما هناك كما تنحر البدن التى تساق هديا إلى الكعبة، و لم يزل على فعل المعروف إلى أن مات رحمه اللّه فى صميم الفلا، و قد قرب منتهاه فى اليوم التاسع من جمادى الآخرة سنة ست و تسعين و

خمسمائة، و دفن بتربته من القرافة، و هى التى حفر فيها البئر و وجد فى قعرها عند الماء اسطام مركب، و هذه الحمّام تفتح تارة و تغلق كثيرا، و هى باقية إلى يومنا هذا من جملة أوقاف الملك، و اللّه تعالى أعلم بالصواب.

ذكر القياسر

ذكر ابن المتوّج قياسر مصر و هى: قيسارية المحلى، و قيسارية الضيافة، وقف المارستان المنصورى، و قيسارية شبل الدولة، و قيسارية ابن الأرسوفى، و قيسارية ورثة الملك الظاهر بيبرس، و قيساريتا ابن ميسر، و قد خربت كلها.

قيسارية ابن قريش: هذه القيسارية فى صدر سوق الجملون الكبير بجوار باب سوق الورّاقين، و يسلك إليها من الجملون و من سوق الأخفافيين، المسلوك إليه من البندقانيين، و بعضها الآن سكن الأرمنيين و بعضها سكن البزازين.

قال ابن عبد الظاهر: استجدّها القاضى المرتضى ابن قريش فى الأيام الناصرية الصلاحية، و كان مكانها اسطبلا انتهى.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۸

و هو القاضى المرتضى صفىّ الدين أبو المجد عبد الرحمن بن علىّ بن عبد العزيز بن على بن قريش المخزومى، أحد كتاب الإنشاء فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، قتل شهيدا على عكا فى يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى سنة ست و ثمانين و خمسمائة، و دفن بالقدس، و مولده فى سنة أربع و عشرين و خمسمائة، و سمع السلفىّ و غيره.

قيسارية الشرب: هذه القيسارية بشارع القاهرة تجاه قيسارية جهاركس. قال ابن عبد الظاهر: وقفها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على الجماعة الصوفية، يعنى بخانقاه سعيد السعداء، و كانت إسطبلا. انتهى. و ما برحت هذه القيسارية مرعية الجانب إكراما للصوفية إلى أن كانت أيام الملك الناصر فرج، و حدثت الفتن و كثرت مصادرات التجار، انخرق ذاك السياج و عومل سكانها بأنواع من العسف، و هى اليوم من أعمر أسواق القاهرة.

قيسارية ابن أبى أسامة: هذه القيسارية بجوار الجملون الكبير على يسرة من سلك إلى بين القصرين، يسكنها الآن الخرد فوشية، وقفها الشيخ الأجل أبو الحسن علىّ بن أحمد بن الحسن بن أبى أسامة، لصاحب ديوان الإنشاء فى أيام الخليفة الآمر بأحكام اللّه، و كانت له رتبة خطيرة و منزلة رفيعة، و ينعت بالشيخ الأجل كاتب الدست الشريف، و لم يكن أحد شاركه فى هذا النعت بديار مصر فى زمانه، و كان وقف هذه القيسارية فى سنة ثمان عشرة و خمسمائة، و توفى فى شوال سنة اثنين و عشرين و خمسمائة.

قيسارية سنقر الأشقر: هذه القيسارية على يسرة من يدخل من باب زويلة، فيما بين خزانة شمائل و درب الصغيرة، تجاه قيسارية الفاضل. أنشأها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الصالحىّ النجمىّ، أحد المماليك البحرية، و لم تزل إلى أن هدمت و أدخلت فى الجامع المؤيدى، لأيام من جمادى الأولى سنة ثمان عشرة و ثمانمائة.

قيسارية أمير على: هذه القيسارية بشارع القاهرة تجاه الجملون الكبير، بجوار قيسارية جهاركس، يفصل بينهما درب قيطون، عرفت بالأمير علىّ بن الملك المنصور قلاون الذى عهد له بالملك، و لقبه بالملك الصالح، و مات فى حياة أبيه، كما قد ذكر فى فندق الملك الصالح.

قيسارية رسلان: هذه القيسارية فيما بين درب الصغيرة و الحجارين، أنشأها الأمير بهاء الدين رسلان الدوادار، و جعلها وقفا على خانقاه له بمنشأة المهرّانىّ، و كانت من أحسن القياسر، فلما عزم الملك المؤيد شيخ على بناء مدرسته هدمها فى جمادى الأولى سنة ثمان عشرة و ثمانمائة، و عوّض أهل الخانقاه عنها خمسمائة دينار.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۵۹

قيسارية جهاركس: قال ابن عبد الظاهر: بناها الأمير فخر الدين جهاركس فى سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة، و كانت قبل ذلك يعرف مكانها بفندق الفراخ، و لم تزل فى يد ورثته، و انتقل إلى الأمير علم الدين أيتمش منها جزء بالميراث عن زوجته، و إلى بنت

شومان من أهل دمشق، ثم اشتريت لوالدة خليل المسماة بشجر الدرّ الصالحية، فى سنة خمس و خمسين و ستمائة، و هى مع حسنها و اتقان بنائها كلها، تجرّد من الغضب جميع ما فيها، و ذكر بعض المؤرخين أن صاحبها جهاركس نادى عليها حين فرغت، فبلغت خمسة و تسعين ألف دينار على الشريف فخر الدين إسماعيل بن ثعلب، و قال لصاحبها: أنا انقدك ثمنها، أى نقد شئت، إن شئت ذهبا و إن شئت فضة، و إن شئت عروض تجارة، و قيسارية جهاركس تجرى الآن فى وقف الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة بعد سلار على ورثته.

و قال القاضى شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان:

جهاركس: بن عبد اللّه فخر الدين أبو المنصور الناصرىّ الصلاحىّ، كان من أكبر أمراء الدولة الصلاحية، و كان كريما نبيل القدر علىّ الهمة، بنى بالقاهرة القيسارية الكبرى المنسوبة إليه، رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون: لم نر فى شىء من البلاد مثلها فى حسنها و عظمها و أحكام بنائها، و بنى بأعلاها مسجدا كبيرا و ربعا معلقا، و توفى فى بعض شهور سنة ثمان و ستمائة بدمشق، و دفن فى جبل الصالحية و تربته مشهورة هناك، رحمه اللّه، و جهاركس بفتح الجيم و الهاء و بعد الألف راء ثم كاف مفتوحة ثم سين مهملة.

و معناه بالعربىّ أربعة أنفس، و هو لفظ عجمىّ.

و قال الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمود اليغورىّ: سمعت الأمير الكبير الفاضل شرف الدين أبا الفتح عيسى بن الأمير بدر الدين محمد بن أبى القاسم بن محمد بن أحمد الهكارىّ البحترىّ الطائىّ المقدسىّ بالقاهرة، و مولده سنة ثلاث و تسعين و خمسمائة بالبيت المقدّس شرّفه اللّه تعالى، و توفى بدمشق فى ليلة الأحد تاسع عشرى ربيع الآخر سنة تسع و ستمائة، و دفن بسفح جبل قاسيون، رحمه اللّه. قال: حدّثنى الأمير صارم الدين خطلبا التبنينىّ صاحب الأمير فخر الدين أبى المنصور جهاركس بن عبد اللّه الناصرىّ الصلاحىّ رحمه اللّه. قال: بلغ الأمير فخر الدين، أن بعض الأجناد عنده فرس قد دفع له فيه ألف دينار و لم يسمح ببيعه، و هو فى غاية الحسن، فقال لى الأمير باخطلبا: إذا ركبنا و رأيت فى الموكب هذا الفرس نبهنى عليه حتى أبصره. فقلت: السمع و الطاعة.

فلما ركبنا فى الموكب مع الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر رحمه اللّه، رأيت الجندىّ على فرسه، فتقدّمت إلى الأمير فخر الدين و قلت له: هذا الجندىّ، و هذا الفرس راكبه، فنظر إليه و قال: إذا خرجنا من سماط السلطان فانظر أين الفرس و عرّفنى به. فلما دخلنا إلى سماط الملك العزيز، عجّل الأمير فخر الدين و خرج قبل الناس، فلما بلغ إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۰

الباب قال لى أين الفرس؟ قلت: ها هو مع الركاب. دار فقال لى: أدعه. فدعوته إليه، فلما وقف بين يديه و الفرس معه، أمره الأمير بأخذ الغاشية، و وضع الأمير رجله فى ركابه و ركبه و مضى به إلى داره و أخذ الفرس، فلما خرج صاحبه عرفه الركاب دار بما فعله الأمير فخر الدين، فسكت و مضى إلى بيته و بقى أياما و لم يطلب الفرس. فقال لى الأمير فخر الدين: يا خطلبا ما جاء صاحب الفرس و لا طلبه، اطلب لى صاحبه. قال: فاجتمعت به و أخبرته بأنّ الأمير يطلب الاجتماع به، فسارع إلى الحضور. فلما دخل عليه أكرمه الأمير و رفع مكانه و حدّثه و آنسه و بسطه و حضر سماطه فقرّبه و خصصه من طعامه، فلما فرغ من الأكل قال له الأمير: يا فلان، ما بالك ما طلبت فرسك و له عندنا مدّة؟ فقال: يا خوند، و ما عسى أن يكون من هذا الفرس و ما ركبه الأمير إلّا و هو قد صلح له، و كلما صلح للمولى فهو على العبد حرام، و لقد شرّفنى مولانا بأن جعلنى أهلا أن يتصرّف فى عبده، و المملوك يحسب أن هذا الفرس قد أصابه مرض فمات، و أما الآن فقد وقع فى محله، و عند أهله، و مولانا أحق به، و ما أسعد المملوك إذا صلح لمولانا عنده شىء. فقال له الأمير: بلغنى أنك أعطيت فيه ألف دينار. قال كذلك كان، قال: فلم لم تبعه؟ فقال: يا مولانا هذا الفرس جعلته للجهاد، و أحسن ما جاهد الإنسان على فرس يعرفه و يثق به، و ما مقدار هذا الفرس له أسوة.

فاستحسن الأمير همته و شكره، ثم أشار إلىّ فتقدّمت إليه فقال لى فى أذنى: إذا خرج هذا الرجل فاخلع عليه الخلعة الفلانية من أفخر

ملبوس الأمير، و أعطه ألف دينار و فرسه، فلما نهض الرجل أخذته إلى الفرش خاناه و خلعت عليه الخلعة و دفعت إليه الكيس و فيه ألف دينار، فخدم و شكر و خرج، فقدّم إليه فرسه و عليه سرج خاص من سروج الأمير، و عدّة فى غاية الجودة. فقيل: اركب فرسك. فقال: كيف أركبه و قد أخذت ثمنه، و هذه الخلعة زيادة على ثمنه. ثم رجع إلى الأمير فقبّل الأرض و قال: يا خوند، تشريف مولانا لا يردّ، و هذا ثمن الفرس قد أحضره المملوك. فقال له الأمير فخر الدين: يا هذا نحن جرّبناك فوجدناك رجلا جيدا و لك همة، و أنت أحق بفرسك، خذ هذا ثمنه و لا تبعه لأحد، فخدمه و شكره و دعا له و أخذ الفرس و الخلعة و الألف دينار و انصرف.

و أخبرنى أيضا الأمير شرف الدين ابن أبى القاسم قال: أخبرنى صارم الدين التبنينى أيضا: أنّ الأمير فخر الدين خدم عنده بعض الأجناد، فعرض عليه فأعجبه شكله، و قال لديوانه: استخدموا هذا الرجل. فتكلموا معه و قدّروا له فى السنة اثنى عشر ألف درهم، فرضى الرجل و انتقل إلى حلقة الأمير قوصون و ضرب خيمته و أحضر بركه، فلما كان بعض الأيام رجع الأمير من الخدمة فعبر فى جنب خيمة هذا الرجل، فرأى خيمة حسنة و خيلا جيادا و جمالا و بغالا و بركا فى غاية الجودة. فقال: هذا البرك لمن؟ فقيل هذا برك فلان الذى خدم عند الأمير فى هذه الأيام. فقال: قولوا له ما لك عندنا شغل، تمضى فى حال سبيلك، فلما قيل للرجل ذلك أمر بأن تحط خيمته و أتى إلىّ و قال: يا مولانا، أنا رائح، و ها

أنا قد حملت بركى، و لكن أشتهى منك أن تسأل الأمير ما ذنبى.

قال: فدخلت إلى الأمير و أخبرته بما قال الرجل. فقال: و اللّه ما له عندى ذنب إلا أنّ هذا البرك و هذه الهمة يستحق بها أضعاف ما أعطى، فأنكرت عليه كيف رضى بهذا القدر اليسير و هو يستحق أن تكون أربعين ألف درهم، و تكون قليلة فى حقه، فإذا خدم بثلاثين ألف درهم يكون قد ترك لنا عشرة آلاف درهم، فهذا ذنبه عندى.

فرجعت إلى الرجل فأعلمته بما قال الأمير فقال: إنما خدمت عند الأمير و رضيت بهذا القدر لعلمى أن الأمير إذا عرف حالى فيما بعد لا يقنع لى بهذا الجارى، فكنت على ثقة من إحسان الأمير أبقاه اللّه، و أما الآن فلا أرضى أن أخدم إلا بثلاثين ألف درهم كما قال الأمير.

فرجعت إلى الأمير و أخبرته بما قال الرجل فقال: يجرى له ما طلب، و خلع عليه و أحسن إليه.

و كان الأمير فخر الدين جهاركس مقدّم الناصرية و الحاكم بديار مصر فى أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى أن مات العزيز، فمال الأمير فخر الدين جهاركس إلى ولاية ابن الملك العزيز، و فاوض فى ذلك الأمير سيف الدين يازكوج الأسدىّ، و هو يومئذ مقدّم الطائفة الأسدية، و كان الملك العزيز قد أوصى بالملك لولده محمد، و أن يكون الأمير الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدىّ مدبر أمره، فأشار يازكوج بإقامة الملك الأفضل علىّ بن صلاح الدين فى تدبير أمير ابن العزيز، فكره جهاركس ذلك، ثم أنهم أقاموا ابن العزيز و لقبوه بالملك المنصور و عمره نحو تسع سنين، و نصبوا قراقوش اتابكا، و هم فى الباطن يختلفون عليه، و ما زالوا يسعون عليه فى إبطال أمر قراقوش حتى اتفقوا على مكاتبة الأفضل المتقدّم ذكره، و حضوره إلى مصر و يعمل اتابكية المنصور مدّة سبع سنين حتى يتأهل بالاستبداد بالملك، بشرط أن لا يرفع فوق رأسه سنجق الملك، و لا يذكر اسمه فى خطبة، و لا سكة، فلما سار القاصد إلى الأفضل بكتب الأمراء، بعث جهاركس فى الباطن قصدا على لسانه و لسان الطائفة الصلاحية بكتبهم إلى الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و كتب إلى الأمير ميمون القصرىّ صاحب نابلس يأمره بأن لا يطيع الملك الأفضل، و لا يحلف له، فاتفق خروج الملك الأفضل من صرخد ، و لقاه قاصد فخر الدين جهاركس فأخذ منه الكتب و قال: له ارجع فقد قضيت الحاجة، و سار إلى القاهرة و معه القاصد، فلما خرج الأمراء من القاهرة إلى لقائه ببلبيس، فعمل له فخر الدين سماطا احتفل فيه احتفالا زائدا لينزل عنده، فنزل عند أخيه الملك المؤيد نجم الدين مسعود، فشق ذلك على جهاركس، و جاء إلى خدمته، فلما فرغ من طعام أخيه صار إلى خيمة جهاركس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۲

و قعد ليأكل، فرأى جهاركس قاصده الذى سيره فى خدمة الأفضل، فدهش و أيقن بالشر، فللحال استأذن الأفضل أن يتوجه إلى العرب المختلفين بأرض مصر ليصلح بينهم، فأذن له و قام من فوره و اجتمع بالأمير زين الدين قراجا، و الأمير أسد الدين قراسنقر، و حسّن لهما مفارقة الأفضل، فسارا معه إلى القدس و غلبوا عليه، و وافقهم الأمير عز الدين أسامة، و الأمير ميمون القصرى، فقدم عليهم فى سبعمائة فارس، و لما صاروا كلمة واحدة كتبوا إلى الملك العادل يستدعونه للقيام باتابكية الملك المنصور محمد بن العزيز بمصر.

و أما الأفضل فإنه لما دخل من بلبيس إلى القهرة، قام بتدبير الدولة، و أمر الملك بحيث لم يبق للمنصور معه سوى مجرّد الاسم فقط، و شرع فى القبض على الطائفة الصلاحية أصحاب جهاركس، ففرّوا منه إلى جهاركس بالقدس، فقبض على من قدر عليه منهم و نهب أموالهم، فلما زالت دولة الأفضل من مصر بقدوم الملك العادل أبى بكر بن أيوب، استولى فخر الدين جهاركس على بانياس بأمر العادل، ثم انحرف عنه و كانت له أنباء إلى أن مات، فانقضى أمر الطائفة الصلاحية بموته و موت الأمير قارجا و موت الأمير أسامة، كما انقضى أمر غيرهم.

قيسارية الفاضل: هذه القيسارية على يمنة من يدخل من باب زويلة، عرفت بالقاضى الفاضل عبد الرحيم بن علىّ البيسانىّ، و هى الآن فى أوقاف المارستان المنصورىّ، أخبرنى شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد العزيز العذرىّ البشبيشىّ رحمه اللّه قال: أخبرنى القاضى بدر الدين أبو إسحاق إبراهيم بن القاضى صدر الدين أبى البركات أحمد بن فخر الدين أبى الروح عيسى بن عمر بن خالد بن عبد المحسن المعروف بابن الخشاب: أن قيسارية الفاضل وقفت بضع عشرة مرّة، منها مرّتين أو أكثر زف كتاب وقفها بالأغانى فى شارع القاهرة، و هى الآن تشتمل على قيسارية ذات بحرة ماء للوضوء بوسطها، و أخرى بجانبها، يباع فيها جهاز النساء و شوارهنّ، و يعلوها ربع فيه عّدة مساكن.

قيسارية بيبرس: هذه القيسارية على رأس باب الجودرية من القاهرة، كان موضعها دارا تعرف بدار الأنماط، اشتراها و ما حولها الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرىّ قبل ولايته السلطنة، و هدمها و عمر موضعها هذه القيسارية و الربع فوقها، و تولى عمارة ذلك مجد الدين بن سالم الموقع، فلما كملت طلب سائر تجارة قيسارية جهاركس، و قيسارية الفاضل، و ألزمهم بإخلاء حوانيتهم من القيساريتين، و سكناهم بهذه القيسارية، و أكرههم على ذلك و جعل أجرة كل حانوت منها مائة و عشرين درهما نقرة، فلم يسع التجار إلا استئجار حوانيتها، و صار كثير منهم يقوم بأجرة الحانوت الذى ألزم به فى هذه القيسارية من غير أن يترك حانوته الذى هو معه بإحدى القيساريتين المذكورتين، و نقل أيضا صناع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۳

الأخفاف و أسكنهم فى الحوانيت التى خارجها، فعمرت من داخلها و خارجها بالناس فى يومين، و جاء إلى مخدومه الأمير بيبرس و كان قد ولى السلطنة و تقلب بالملك المظفر و قال: بسعادة السلطان أسكنت القيسارية فى يوم واحد، فنظر إليه طويلا و قال: يا قاضى إن كنت أسكنتها فى يوم واحد فهى تخلو فى ساعة واحدة. فجاء الأمر كما قال، و ذلك أنه لما فرّ بيبرس من قلعة الجبل لم يبت فى هذه القيسارية لأحد من سكانها قطعة قماش، بل نقلوا كل ما كان لهم فيها و خلت حوانيتها مدّة طويلة، ثم سكنها صنّاع الأخفاف، كل حانوت بعشرة دراهم، و فى حوانيتها ما أجرته ثمانية دراهم، و هى الآن جارية فى أوقاف الخانقاه الركنية بيبرس، و يسكنها صناع الأخفاف، و أكثر حوانيتها غير مسكون لخرابها و لقلة الاخفافيين، و يعرف الخط الذى هى فيه اليوم بالأخفافيين رأس الجودرية.

القيسارية الطويلة: هذه القيسارية فى شارع القاهرة بسوق الخردفوشيين، فيما بين سوق المهامزيين و سوق الجوخيين، و لها باب آخر عند باب سر حمّام الخرّاطين، كانت تعرف قديما بقيسارية السروج بناها ... .

قيسارية ... : هذه القيسارية تجاه قيسارية السروج المعروفة الآن بالقيسارية الطويلة، بعضها وقفه القاضى الأشرف بن القاضى الفاضل

عبد الرحيم بن عليّ البيسانيّ، على ملء الصهريج بدرب ملوخيا، و بعضها وقف الصالح طلائع بن رزيك الوزير، و قد هدمت هذه القيسارية و بناها الأمير جانى بك دوادار السلطان الملك الأشرف برسباى الدقاقيّ الظاهريّ، فى سنة ثمان و عشرين و ثمانمائة، تربيعة تتصل بالوراقين، و لها باب من الشارع، و جعل علوها طباقا، و على بابها حوانيت، فجاءت من أحسن المبانى.

قيسارية العصفر: هذه القيسارية بشارع القاهرة، لها باب من سوق المهامزيين، و باب من سوق الورّاقين، عرفت بذلك من أجل أن العصفر كان يدق بها. أنشأها الأمير علم الدين سنجر المسرورىّ المعروف بالخياط والى القاهرة، و وقفها فى سنة اثنتين و تسعين و ستمائة، و لم تزل باقية بيد ورثته إلى أن ولى القاضى ناصر الدين محمد بن البارزىّ الحمويّ كتابة السرّ فى أيام المؤيد شيخ، فاستأجرها مدّة أعوام من مستحقيها، و نقل إليها العنبريين، فصارت قيسارية عنبر، و ذلك فى سنة ست عشرة و ثمانمائة، ثم انتقل منها أهل العنبر إلى سوقهم فى سنة ثمانى عشرة و ثمانمائة.

قيسارية العنبر: قد تقدّم فى ذكر الأسواق أنها كانت سجنا، و أن الملك المنصور قلاون عمّرها فى سنة ثمانين و ستمائة، و جعلها سوق عنبر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۴

قيسارية الفائزى: هذه القيسارية كانت بأوّل الخرّاطين مما يلى المهامزيين، لها باب من المهامزيين، و باب من الخرّاطين. أنشأها الوزير الأسعد شرف الدين أبو القاسم هبة اللّه بن صاعد بن وهيب الفارسىّ، كان من جملة نصارى صعيد مصر، و كتب على مبايض ناحية سيوط بدرهم و ثلث فى كل يوم، ثم قدم إلى القاهرة و أسلم فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، و خدم عند الملك الفائز إبراهيم بن الملك العادل، فنسب إليه و تولى نظر الديوان فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب مدّة يسيرة، ثم ولى بعض أعمال ديار مصر، فنقل عنه ما أوجب الكشف عليه، فندب موفق الدين الأمديّ لذلك، فاستقرّ عوضه و سجنه مدّة، ثم أفرج عنه و سافر إلى دمشق و خدم بها الأمير جمال الدين يغمور نائب السلطنة بدمشق، فلما قدم الملك المعظم توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب من حصن كيفا إلى دمشق بعد موت أبيه ليأخذ مملكة مصر، سار معه إلى مصر فى شوال سنة سبع و أربعين و ستمائة، فلما قامت شجرة بتدبير المملكة بعد قتل المعظم، تعلق بخدمة الأمير عز الدين آيبك التركمانيّ مقدّم العساكر إلى أن تسلطن، و تلقب بالملك المعز، فولاه الوزارة فى سنة ثمان و أربعين و ستمائة، فأحدث مظالم كثيرة و قرّر على التجار و ذوى اليسار أموالا تجبى منهم، و أحدث التقويم و التصقيع على سائر الأملاك، و جبى منها مالا جزيلا، و رتّب مكوسا على الدواب من الخيل و الجمال و الحمير و غيرها، و على الرقيق من العبيد و الجوارى، و على سائر المبيعات، و ضمن المنكرات من الخمر و المزر و الحشيش و بيوت الزوانى بأموال، و سمى هذه الجهات بالحقوق السلطانية و المعاملات الديوانية، و تمكن من الدولة تمكنا زائدا إلى الغاية، بحيث أنه سار إلى بلاد الصعيد بعساكر لمحاربة بعض الأمراء، و كان الملك المعز أيبك يكاتبه بالمملوك، و كثر ماله و عقاره حتى أنه لم يبلغ صاحب قلم فى هذه الدول ما بلغه من ذلك، و اقتنى عدّة مماليك، منهم من بلغ ثمنه ألف دينار مصرية، و كان يركب فى سبعين مملوكا من مماليكه، سوى أرباب الأقلام و الأتباع، و خرج بنفسه إلى أعمال مصر و استخرج أموالها، و كان ينوب عنه فى الوزارة زين الدين يعقوب بن الزبير، و كان فاضلا يعرف اللسان التركيّ، فصار يضبط له مجالس الأمراء و يعرّفه ما يدور بينهم من الكلام، فلم يزل على تمكنه و بسط يده و عظم شأنه إلى أن قتل الملك المعز و قام من بعده ابنه الملك المنصور نور الدين عليّ، و هو صغير، فاستقرّ على عادته حتى شهد عليه الأمير سابق الدين بوزبا الصيرفيّ، و الأمير ناصر الدين محمد بن الأطروش الكردىّ أمير جاندار، أنه قال المملكة لا تقوم بالصبيان الصغار، و الرأى أن يكون الملك الناصر صاحب الشام ملك مصر، و أنه قد عزم على أن يسير إليه يستدعيه إلى مصر و يساعده على أخذ المملكة، فخافت أمّ السلطان منه و قبضت عليه و حبسته عندها بقلعة الجبل، و وكلت بعذابه الصارم أحمر عينه العمادىّ الصالحى، فعاقبه عقوبة عظيمة، و وقعت الحوطة على سائر أمواله و أسبابه و حواشيه، و أخذ خطه بمائة ألف دينار، ثم خنق لليال مضت من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۵

جمادى الأولى سنة خمس و خمسين و ستمائة، و لفّ فى نخ و دفن بالقرافة.

و استقرّ من بعده فى الوزارة قاضى القضاة بدر الدين السنجارىّ مع ما بيده من قضاء القضاة، و لم تزل هذه القيسارية باقية، و كانت تعرف بقيسارية النشاب إلى أن أخذها الأمير جمال الدين يوسف الاستادار، هى و الحوانيت على يمنة من سلك من الخرّاطين يريد الجامع الأزهر، و فيما بينهما كان باب هذه القيسارية، و كانت هذه الحوانيت تعرف بوقف تمرتاش، و هدم الجميع و شرع فى بنائه، فقتل قبل أن يكمل، و أخذه الملك الناصر فرح، فبنيت الحوانيت التى هى على الشارع بسوق المهامزيين، و صار ما بقى ساحة عمرها القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقى ناظر الجيش قيسارية يعلوها ربع، و بنى أيضا على حوانيت جمال الدين ربعا، و ذلك فى سنة خمس و عشرين و ثمانمائة. و قال الإمام عفيف الدين أبو الحسن علىّ بن عدلان يمدح الأسعد الفائزىّ رحمه اللّه ابن صاعد، و ابنه المرتضى:

مذ تولى أمورنالم أزل منه ذاهبه

و هو إن دام أمرهشدّة العيش ذاهبه

قيسارية بكتمر: هذه القيسارية بسوق الحريريين بالقرب من سوق الوراقين، كانت تعرف قديما بالصاغة، ثم صارت فندقا يقال له فندق حكم، و أصلها من جملة الدار العظمى التى تعرف بدار المأمون بن البطائحى، و بعضها المدرسة السيوفية. أنشأ هذه القيسارية الأمير بكتمر الساقى فى أيام الناصر محمد بن قلاوون.

قيسارية ابن يحيى: هذه القيسارية كانت تجاه باب قيسارية جهاركس، حيث سوق الطيور، و قاعات الحلوى، أنشأها القاضى المفضل هبة اللّه بن يحيى التميمىّ المعدّل، كان موثقا كاتبا فى الشروط الحكمية فى حدود سنة أربعين و خمسمائة فى الدولة الفاطمية، ثم صار من جملة العدول، و بقى إلى سنة ثمانين، و له ابن يقال له كمال الدين عبد المجيد القاضى المفضل، و لكمال الدين ابن يقال له جلال الدين محمد بن كمال الدين عبد المجيد بن القاضى المفضل هبة اللّه بن يحيى، مات فى آخر سنة ستين و سبعمائة، و قد خربت هذه القيسارية و لم يبق لها أثر.

قيسارية طاشتمر: هذه القيسارية بجوار الوراقين، لها باب كبير من سوق الحريريين، على يسرة من سلك إلى الزجاجين و باب من الوراقين. أنشأها الأمير طاشتمر فى أعوام بضع و ثلاثين و سبعمائة، و سكنها عقادوا الأزرار حتى غصت بهم مع كبرها و كثرة حوانيتها، و كان لهم منظر بهيج، فإنّ أكثرهم من بياض الناس، و تحت يد كل معلم منهم عدّة صبيان من أولاد الأتراك و غيرهم فطالما مررت منها إلى سوق الوراقين، و داخلنى حياء من كثرة من أمرّ به هناك، ثم لما حدثت المحن فى سنة ست و ثمانمائة تلاشى أمرها و خرب الربع الذى كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۶

علوها، و بيعت أنقاضه، و بقيت فيها اليوم بقية يسيرة.

قيسارية الفقراء: هذه القيسارية خارج باب زويلة بخط تحت الربع أنشأها .

قيسارية بشتاك: خارج باب زويلة بخط تحت الربع، أنشأها الأمير بشتاك الناصرىّ و هى الآن .

قيسارية المحسنى: خارج باب زويلة تحت الربع، أنشأها الأمير بدر الدين بيلبك المحسنى، والى الإسكندرية، ثم والى القاهرة، كان شجاعا مقداما، فأخرجه الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الشام و بها مات فى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، فأخذ ابنه الأمير ناصر الدين محمد بن بيلبك المحسنى إمرته، فلما مات الملك الناصر قدم إلى القاهرة و ولاه الأمير قوصون ولاية القاهرة فى سابع عشر صفر سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة، فلما قبض على قوصون فى يوم الثلاثاء آخر شهر رجب منها، أمسك ابن المحسنى و أعيد نجم الدين إلى ولاية القاهرة، ثم عزل من يومه و ولى الأمير جمال الدين يوسف والى الجيزة، فأقام أربعة أيام و عزل بطلب العامّة عزله و

رجمه، فأعيد نجم الدين.

قيسارية الجامع الطولونى: هذه القيسارية كان موضعها فى القديم من جملة قصر الإمارة الذى بناه الأمير أبو العباس أحمد بن طولون، و كان يخرج منه إلى الجامع من باب فى جداره القبلىّ، فلما خرب صار ساحة أرض، فعمر فيها القاضى تاج الدين المناوى خليفة الحكم عن قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة قيسارية فى سنة خمسين و سبعمائة من فائض مال الجامع الطولونى، فكمل فيها ثلاثون حانوتا، فلما كانت ليلة النصف من شهر رمضان من هذه السنة، رأى شخص من أهل الخير رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فى منامه و قد وقف على باب هذه القيسارية و هو يقول: بارك اللّه لمن يسكن هذه القيسارية، و كرّر هذا القول ثلاث مرّات. فلما قص هذه الرؤيا رغب الناس فى سكناها، و صارت إلى اليوم هى و جميع ذلك السوق فى غاية العمارة، و فى سنة ثمانى عشرة و ثمانمائة أنشأها قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن نصير بن رسلان البلقينىّ من مال الجامع المذكور قيسارية أخرى، فرغب الناس فى سكناها لوفور العمارة بذلك الخط.

قيسارية ابن ميسر الكبرى: هذه القيسارية أدركتها بمدينة مصر فى خط سويقة وردان، و هى عامرة يباع بها القماش الجديد من الكتان الأبيض و الأزرق و الطرح، و تمضى تجار القاهرة إليها فى يومى الأحد و الأربعاء لشراء الأصناف المذكورة، و ذكر ابن المتوّج أن لها المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۷

خمسة أبواب، و أنها وقف، ثم وقعت الحوطة عليها فجرت فى الديوان السلطانىّ، و قصدوا بيعها مرارا فلم يقدر أحد على شرائها، و كان بها عمد رخام، فأخذها الديوان و عوّضت بعمد كدان، و أنه شاهدها مسكونة جميعها، عامرة. انتهى. و قد خرب ما حولها بعد سنة ستين و سبعمائة، و تزايد الخراب حتى لم يبق حولها سوى كيمان، فعمل لها باب واحد، و تردّد الناس إليها فى اليومين المذكورين لا غير، فلما كانت الحوادث منذ سنة ست و ثمانمائة و استولى الخراب على أقليم مصر تعطلت هذه القيسارية ثم هدمت فى سنة ست عشرة و ثمانمائة.

قيسارية عبد الباسط: هذه القيسارية برأس الخرّاطين من القاهرة، كان موضعها يعرف قديما بعقبة الصباغين، ثم عرف بالقشاشين، ثم عرف بالخرّاطين، و كان هناك مارستان و وكالة فى الدولة الفاطمية، و أدركنا بها حوانيت تعرف بوقف تمرتاش المعظمىّ، فأخذها الأمير جمال الدين الأستادار فيما أخذ من الأوقاف، فلما قتل أخذ الناصر فرج جانبا منها و جدّد عمارتها و وقفها على تربة أبيه الظاهر برقوق، ثم أخذها زين الدين عبد الباسط بن خليل فى أيام المؤيد شيخ، و عمل فى بعضها هذه القيسارية و علوها، و وقفها على مدرسته و جامعه، ثم أخذ السلطان الملك الأشرف برسباى بقية الحوانيت من وقف جمال الدين و جدّد عمارتها فى سنة سبع و عشرين و ثمانمائة.

ذكر الخانات و الفنادق

خان مسرور: خان مسرور مكانان، أحدهما كبير و الآخر صغير، فالكبير على يسرة من سلك من سوق باب الزهومة إلى الحريريين، كان موضعه خزانة الدرق التى تقدّم ذكرها فى خزائن القصر، و الصغير على يمنة من سلك من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر، كان ساحة يباع فيها الرقيق، بعد ما كان موضع المدرسة الكاملية هو سوق الرقيق.

قال ابن الطوير: خزانة الدرق كانت فى المكان الذى هو خان مسرور، و هى برسم استعمالات الأساطيل من الكبورة الخرجية و الخود الجلودية و غير ذلك.

و قال ابن عبد الظاهر فندق مسرور؛ مسرور هذا من خدّام القصر، خدم الدولة المصرية و اختص بالسلطان صلاح الدين رحمه اللّه، و قدّمه على حلقته، و لم يزل مقدّما فى كل وقت، و له برّ و إحسان و معروف، و يقصد فى كل حسنة و أجر و برّ، و بطل الخدمة فى الأيام الكاملية، و انقطع إلى اللّه تعالى و لزم داره، ثم بنى الفندق الصغير إلى جانبه، و كان قبل بنائه ساحة يباع فيها الرقيق، اشترى

ثلثها من والـدى رحمه اللّه، و الثلثين من ورثـة ابن عنتر، و كان قـد ملك الفنـدق الكبير لغلامه ريحان و حبسه عليه، ثم من بعده على الأسرى و الفقراء بالحرمين، و هو مائة بيت إلّا بيتا، و به مسجد تقام فيه الجماعة و الجمع، و لمسرور

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۸

المـذكور برّ كثير بالشام و بمصـر، و كان قـد وصـى أن تعمل داره و هى بخط حارة الأمراء مدرسـة، و يوقف الفندق الصـغير عليها، و كانت له ضيعة بالشام بيعت للأمير سيف الدين أبى الحسن القيمرىّ بجملة كبيرة، و عمرت المدرسة المذكورة بعد وفاته. انتهى.

و قـد أدركت فنـدق مسـرور الكبير فى غايـة العمـارة، تنزله أعيـان التجـار الشاميين بتجاراتهم، و كان فيه أيضا مودع الحكم الـذى فيه أموال اليتـامى و الغيـاب، و كـان من أجـلّ الخانـات و أعظمها، فلما كثرت المحن بخراب بلاد الشام منـذ سـنة تيمورلنك، و تلاشـت أحوال إقليم مصـر، قـلّ التجـار و بطل مودع الحكم، فقلّت مهابـة هـذا الخان و زالت حرمته و تهـدّمت عـدّة أماكن منه، و هو الآن بيد القضاة.

فنـدق بلالـ المغيثى: هـذا الفنـدق فيمـا بين خـط حمّام خشـيبة و حارة العدويـة، أنشأه الأمير الطواشـى أبو المناقب حسام الـدين بلال المغيثى، أحد خدّام الملك المغيث صاحب الكرك، كان حبشىّ الجنس، حالك السواد، خدم عدّة من الملوك، و استقرّ لالا الملك الصالح علىّ بن الملك المنصور قلاوون، و كان معظما إلى الغاية، يجلس فوق جميع أمراء الدولة، و كان الملك المنصور قلاوون إذا رآه يقول: رحم اللّه أستاذنا الملـك الصالـح نجم الـدين أيوب، أنا كنت أحمل شارموزة هـذا الطواشـى حسام الـدين كلما دخل إلى السـلطان الملك الصالح حتى يخرج من عنده، فأقدّمها له، و كان كثير البرّ و الصدقات و له أموال جزيلة، و مدحه عدّة من الشـعراء، و أجاز على المديح، و تجاوز عمره ثمانين سـنة، فلما خرج الملك الناصـر محمد بن قلاون لقتال التتر فى سـنة تسع و تسـعين و سـتمائة سافر معه، فمات بالسوادة و دفن بها، ثم نقل منها بعـد وقعـة شـقحب إلى تربته بالقرافـة فـدفن هناك، و ما برح هـذا الفنـدق يودع فيه التجـار و أربـاب الأـموال صـناديق المال، و لقـد كنت أدخل فيه فإذا بـدائرة صـناديق مصـطفة ما بين صـغير و كبير، لا يفضل عنها من الفندق غير ساحة صغيرة بوسطه، و تشتمل هذه الصناديق من الذهب و الفضة على ما يجلّ وصفه، فلما أنشأ الأمير الطواشى زين الدين مقبل الزمام الفنـدق بالقرب منه، و أنشأ الأمير قلمطاى الفندق بالزجاجين، و أخذ الأمير يلبغا السالمىّ أموال الناس فى واقعة تيمورلنك فى سنة ثلاث و ثمانمائة، تلاشى أمر هذا الفندق و فيه إلى الآن بقية.

فنـدق الصالـح: هذا الفندق بجوار باب القوس الذى كان أحد بابى زويلة، فمن سـلك اليوم من المسـجد المعروف بسام بن نوح يريد باب زويلة، صار هذا الفندق على يساره، و أنشأه هو و ما يعلوه من الربع، الملك الصالح علاء الدين علىّ بن السلطان الملك المنصور قلاون، و كان أبوه لما عزم على المسير إلى محاربة التتر ببلاد الشام، سـلطنه و أركبه بشعار السلطنة من قلعة الجبل فى شهر رجب سنة تسع و سبعين و ستمائة، و شق به شارع القاهرة من باب النصر إلى أن عاد إلى قلعة الجبل، و أجلسه على مرتبته، و جلس إلى جانبه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۶۹

فمرض عقيب ذلـك و مـات ليلـة الجمعـة الرابع من شـعبان، فأظهر السـلطان لموته جزعا مفرطا و حزنا زائـدا، و صـرخ بأعلى صوته و اولـداه، و رمى كلوته عن رأسه إلى الأـرض و بقى مكشوف الرأس إلى أن دخل الأمراء إليه و هو مكشوف الرأس يصـرخ و اولـداه، فعنـدما عـاينوه كـذلك ألقوا كلوتـاتهم عن رؤوسـهم و بكوا ساعـة، ثم أخـذ الأمير طرنطاى النائب شاش السـلطان من الأرض و ناوله للأمير سـنقر الأشـقر، فأخـذه و مشـى و هو مكشوف الرأس، و باس الأرض و ناول الشاش للسـلطان، فدفعه و قال: ايش أعمل بالملك بعد ولدى، و امتنع من لبسه، فقبّل الأمراء الأرض يسألون السلطان فى لبس شاشه، و يخضعون له فى السؤال ساعة حتى أجابهم و غطى رأسه، فلما أصبح خرجت جنازته من القلعـة و معها الأمراء من غير حضور السـلطان، و صاروا بها إلى تربـة أمه المعروفـة خاتون، قريبا من المشهد النفيسىّ، فواروه و انصرفوا، فلما كان يوم السبت ثانية، نزل السلطان من القلعة و عليه البياض تحزنا على ولده، و سار و معه الأمراء بثياب الحزن إلى قبر ابنه و أقيم العزاء لموته عدّة أيام.

خان السبيل: هذا الخان خارج باب الفتوح، قال ابن عبد الظاهر: خان السبيل بناه الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش بن عبد اللّه الأسدىّ خادم أسد الدين شيركوه، و عتيقه لأبناء السبيل و المسافرين بغير أجرة، و به بئر ساقية و حوض.

و

قراقوش هذا: هو الذى بنى السور المحيط بالقاهرة و مصر و ما بينهما، و بنى قلعة الجبل، و بنى القناطر التى بالجيزة على طريق الأهرام، و عمر بالمقس رباطا، و أسره الفرنج فى عكا و هو واليها، فافتكه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بعشرة آلاف دينار، و توفى مستهل رجب سنة سبع و سبعين و خمسمائة، و دفن بسفح الجبل المقطم من القرافة.

خان منكورش: هذا الخان بخط سوق الخيميين بالقرب من الجامع الأزهر. قال ابن عبد الظاهر: خان منكورش بناه الأمير ركن الدين منكورش زوج أمّ الأوحد بن العادل، ثم انتقل إلى ورثته، ثم انتقل إلى الأمير صلاح الدين أحمد بن شعبان الأبلى. فوقفه، ثم تحيل ولده فى إبطال وقفه، فاشتراه منه الملك الصالح بعشرة آلاف دينار مصرية، و جعله مرصدا لوالدة خليل، ثم انتقل عنها. انتهى.

قال مؤلفه: و منكورش هذا كان أحد مماليك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و تقدّم حتى صار أحد الأمراء الصالحية، و عرف بالشجاعة و النجدة، و إصابة الرأى و جودة الرمى و ثبات الجأش، فلما مات فى شوّال سنة سبع و سبعين و خمسمائة، أخذ إقطاعه الأمير ياركوج الأسدىّ، و هذا الخان الآن يعرف بخان النشارين، على يسرة من سلك من الخراطين إلى الخيميين، و هو وقف على جهات برّ.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۰

فندق ابن قريش: هذا الفندق، قال ابن عبد الظاهر: فندق ابن قريش استجدّه القاضى شرف الدين إبراهيم بن قريش، كاتب الإنشاء، و انتقل إلى ورثته. انتهى.

إبراهيم بن عبد الرحمن بن علىّ بن عبد العزيز بن علىّ بن قريش: أبو إسحاق القرشىّ المخزومىّ المصرىّ الكاتب شرف الدين، أحد الكتاب المجيدين خطا و إنشاء، خدم فى دولة الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و فى دولة ابنه الملك الكامل محمد بديوان الإنشاء، و سمع الحديث بمكة و مصر، و حدّث، و كانت ولادته بالقاهرة فى أوّل يوم من ذى القعدة سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة، و قرأ القرآن و حفظ كثيرا من كتاب المهذب فى الفقه على مذهب الإمام الشافعىّ، و برع فى الأدب، و كتب بخطه ما يزيد على أربعمائة مجلد، و مات فى الخامس و العشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث و أربعين و ستمائة.

وكالة قوصون: هذه الوكالة فى معنى الفنادق و الخانات، ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت و الشيرج و الصابون و الدبس و الفستق و الجوز و اللوز و الخرنوب و الرب و نحو ذلك، و موضعها فيما بين الجامع الحاكمىّ و دار سعيد السعداء، كانت أخيرا دارا تعرف بدار تعويل البوعانى، فأخربها و ما جاورها الأمير قوصون، و جعلها فندقا كبيرا إلى الغاية، و بدائره عدة مخازن، و شرط أن لا يؤجر كل مخزن إلا بخمسة دراهم من غير زيادة على ذلك، و لا يخرج أحد من مخزنه، فصارت هذه المخازن تتوارث لقلة أجرتها و كثرة فوائدها، و قد أدركنا هذه الوكالة، و أن رؤيتها من داخلها و خارجها لتدهش لكثرة ما هنالك من أصناف البضائع و ازدحام الناس و شدّة أصوات العتالين عند حمل البضائع و نقلها لمن يبتاعها، ثم تلاشى أمرها منذ خربت الشام فى سنة ثلاث و ثمانمائة على يد تيمورلنك، و فيها إلى الآن بقية، و يعلو هذه الوكالة رباع تشتمل على ثلثمائة و ستين بيتا، أدركناها عامرة كلها، و يحزر أنها تحوى نحو أربعة آلاف نفس ما بين رجل و امرأة و صغير و كبير، فلما كانت هذه المحن فى سنة ست و ثمانمائة، خرب كثير من هذه البيوت و كثير منها عامر آهل.

فندق دار التفاح: هذه الدار هى فندق تجاه باب زويلة، يرد إليه الفواكه على اختلاف أصنافها مما ينبت فى بساتين ضواحى القاهرة، و من التفاح و الكمثرى و السفرجل الواصل من البلاد الشامية، إنما يباع فى وكالة قوصون إذا قدم، و منها ينقل إلى سائر أسواق القاهرة و مصر و نواحيهما، و كان موضع دار التفاح هذه فى القديم من جملة حارة السودان التى عملت بستانا فى أيام السلطان صلاح الدين

يوسف بن أيوب. و أنشأ هذه الدار الأمير طقوزدمر بعد سنة أربعين و سبعمائة، و وقفها على خانقاه بالقرافة، و بظاهر هذه الدار عدّة حوانيت تباع فيها الفاكهة تذكر رؤيتها و شمّ عرفها الجنة لطيبها و حسن منظرها، و تأنق الباعة فى تنضيدها، و احتفافها بالرياحين و الأزهار، و ما بين الحوانيت مسقوف حتى لا يصل إلى الفواكه حرّ الشمس، و لا يزال ذلك الموضع غضا طريا إلّا أنه قد اختل منذ سنة ست

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۱

و ثمانمائة، و فيه بقية ليست بذاك، و لم تزل إلى أن هدم علو الفندق و ما بظاهره من الحوانيت فى يوم السبت سادس عشر شعبان، سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة، و ذلك أن الجامع المؤيدىّ جاءت شبابيكه الغربية من جهة دار التفاح، فعمل فيها كما صار يعمل فى الأوقاف، و حكم باستبدالها و دفع فى ثمن نقضها ألف دينار إفريقية، عنها مبلغ ثلاثين ألف مؤيدىّ فضة، و يتحصل من أجرتها إلى أن ابتدئ بهدمها فى كل شهر سبعة آلاف درهم فلوسا، عنها ألف مؤيدى، فاستشنع هذا الفعل و مات الملك المؤيد و لم تكمل عمارة الفندق.

وكالة باب الجوّانية: هذه الوكالة تجاه باب الجوّانية من القاهرة، فيما بين درب الرشيدى و وكالة قوصون، كان موضعها عدّة مساكن، فابتدأ الأمير جمال الدين محمود بن علىّ الأستادار بهدمها فى يوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الأولى سنة ثلاث و تسعين و سبعمائة، و بناها فندقا و ربعا بأعلاه، فلما كملت رسم الملك الظاهر برقوق أن تكون دار وكالة يرد إليها ما يصل إلى القاهرة و ما يرد من صنف متجر الشام فى البحر، كالزيت و الرب و الدبس، و يصير ما يرد فى البرّ يدخل به على عادته إلى وكالة قوصون، و جعلها وقفا على المدرسة الخانقاه التى أنشأها بخط بين القصرين، فاستمرّ الأمر على ذلك إلى اليوم.

خان الخليلى: هذا الخان بخط الزراكشة العتيق، كان موضعه تربة القصر التى فيها قبور الخلفاء الفاطميين المعروفة بتربة الزعفران، و قد تقدّم ذكرها عند ذكر القصر من هذا الكتاب. أنشأه الأمير جهاركس الخليلىّ أميراخور الملك الظاهر برقوق، و أخرج منها عظام الأموات فى المزابل على الحمير و ألقاها بكيمان البرقية، هوانا بها، فإنه كان يلوذ به شمس الدين محمد بن أحمد القليجى الذى تقدّم ذكره فى ذكر الدور من هذا الكتاب و قال له: إن هذه عظام الفاطميين، و كانوا كفارا رفضة، فاتفق للخليلىّ فى موته أمر فيه عبرة لأولى الألباب، و هو أنه لما ورد الخبر بخروج الأمير بلبغا الناصرىّ نائب حلب، و مجيء الأمير منطاش نائب ملطية إليه، و مسيرهما بالعساكر إلى دمشق، أخرج الملك الظاهر برقوق خمسمائة من المماليك، و تقدّم لعدّة من الأمراء بالمسير بهم، فخرج الأمير الكبير ايتمش الناصرىّ و الأمير جهاركس الخليل هذا، و الأمير يونس الدوادار، و الأمير أحمد بن بلبغا الخاصكىّ، و الأمير ندكار الحاجب، و ساروا إلى دمشق، فلقيهم الناصرى ظاهر دمشق، فانكسر عسكر السلطان لمخامرة ابن بلبغا و ندكار، و فرّ أيتمش إلى قلعة دمشق، و قتل الخليلىّ فى يوم الاثنين حادى عشر شهر ربيع الآخر سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، و ترك على الأرض عاريا و سوءته مكشوفة، و قد انتفخ و كان طويلا عريضا إلى أن تمزق و بلى عقوبة من اللّه تعالى بما هتك من رمم الأئمة و أبنائهم، و لقد كان عفا اللّه عنه عارفا خبيرا بأمر دنياه، كثير الصدقة، و وقف هذا الخان و غيره على عمل خبز يفرّق بمكة على كل فقير، منه فى اليوم رغيفان، فعمل ذلك مدّة سنين، ثم لما عظمت الأسعار بمصر و تغيرت نقودها، من سنة ست و ثمانمائة، صار يحمل إلى مكة مال و يفرّق بها على الفقراء.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۲

فندق طرنطاى: هذا الفندق كان بخارج باب البحر ظاهر المقس، و كان ينزل فيه تجار الزيت الواردون من الشام، و كان فيه ستة عشر عمودا من رخام طول، كل عمود ستة أذرع بذراع العمل، فى دور ذراعين، و يعلوه ربع كبير، فلما كان فى واقعة هدم الكنائس و حريق القاهرة و مصر فى سنة إحدى و عشرين و سبعمائة، قدم تاجر بعد العصر بزيت، وزن فى مكسه عشرين ألف درهم نقرة، سوى أصناف أخر قيمتها مبلغ تسعين ألف درهم نقرة، فلم يتهيأ له الفراغ من نقل الزيت إلى داخل هذا الفندق إلّا بعد العشاء الآخرة، فلما

كان نصف الليل، وقع الحريق بهذا الفندق فى ليلة من شهر ربيع الآخر منها، كما كان يقع فى غير موضع من فعل النصارى، فأصبح و قد احترق جميعه حتى الحجارة التى كان مبنيا بها، و حتى الأعمدة المذكورة، و صارت كلها جيرا و احترق علوه، و أصبح التاجر يستعطى الناس و موضع هذا الفندق.

ذكر الأسواق

قال ابن سيدة: و السوق التى يتعامل فيها تذكر و تؤنث، و الجمع أسواق، و فى التنزيل:
إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ و السوقة لغة فيها، و السوقة من الناس من لم يكن ذا سلطان، الذكر و الأنثى فى ذلك سواء.

و قد كان بمدينة مصر و القاهرة و ظواهرها من الأسواق شىء كثير جدّا، قد باد أكثرها، و كفاك دليلا على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق إلى باب البحر بالمقص، اثنان و خمسون سوقا، أدركناها عامرة، فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتا، و هذه الخطة من جملة ظاهر القاهرة الغربىّ، فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة و مصر، و سأذكر من أخبار الأسواق ما أجد سبيلا إلى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

القصبة: قال ابن سيدة: قصبة البلد، مدينته، و قيل معظمه. و القصبة هى أعظم أسواق مصر، و سمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول: أنّ القصبة تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت، كأنهم يعنون ما بين أوّل الحسينية مما يلى الرمل إلى المشهد النفيسىّ، و من اعتبر هذه المسافة اعتبارا جيدا لا يكاد أن ينكر هذا الخبر. و قد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الحوانيت غاصة بأنواع المآكل و المشارب و الأمتعة، تبهج رؤيتها و يعجب الناظر هيئتها، و يعجز العادّ عن إحصاء ما فيها من الأنواع، فضلا عن إحصاء ما فيها من الأشخاص، و سمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد و يقولون: يرمى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهبا على الكيمان و المزابل، يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون و الجبانون و الطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن، و التى يوضع فيها الجبن، و التى تأكل فيها الفقراء الطغام بحوانيت الطباخين، و ما يستعمله بياعوا الجبن من الخيط و الحصر التى تعمل تحت الجبن فى الشقاف، و ما يستعمله العطارون من القراطيس و الورق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۳

الفوىّ، و الخيوط التى تشدّ بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب و الأفاوية و غيرها، فإن هذه الأصناف المذكورة إذا حملت من الأسواق و أخذ ما فيها ألقيت إلى المزابل، و من أدرك الناس قبل هذه المحن و أمعن النظر فيما كانوا عليه من أنواع الحضارة و الترف لم يستكثر ما ذكرناه.

و قد اختلّ حال القصبة و خرب و تعطل أكثر ما تشتمل عليه من الحوانيت بعد ما كانت مع سعتها تضيق بالباعة، فيجلسون على الأرض فى طول القصبة بأطباق الخبز و أصناف المعايش. و يقال لهم أصحاب المقاعد، و كل قليل يتعرّض الحكام لمنعهم و إقامتهم من الأسواق لما يحصل بهم من تضييق الشوارع و قلة بيع أرباب الحوانيت، و قد ذهب و اللّه ما هناك و لم يبق إلا القليل، و فى القصبة عدّة أسواق، منها ما خرب، و منها ما هو باق، و سأذكر منها ما يتيسر إن شاء اللّه تعالى.

سوق باب الفتوح: هذا السوق فى داخل باب الفتوح، من حدّ باب الفتوح الآن إلى رأس حارة بهاء الدين. معمور الجانبين بحوانيت اللحامين و الخضريين و الفاميين و الشرايحية و غيرهم، و هو من أجلّ أسواق القاهرة و أعمرها، يقصده الناس من أقطار البلاد لشراء أنواع اللحمان الضأن و البقر و المعز، و لشراء أصناف الخضراوات، و ليس هو من الأسواق القديمة، و إنما حدث بعد زوال الدولة الفاطمية عند ما سكن قراقوش فى موضعه المعروف بحارة بهاء الدين، و قد تناقص عما كان فيه منذ عهد الحوادث، و فيه إلى الآن بقية صالحة.

سوق المرحلين: هذا السوق أدركته من رأس حارة بهاء الدين إلى بحرى المدرسة الصيرمية معمور الجانبين بالحوانيت المملوءة بر حالات الجمال و أقتابها، و سائر ما تحتاج إليه، يقصد من سائر إقليم مصر، خصوصا فى مواسم الحج. فلو أراد الإنسان تجهيز مائة جمل و أكثر فى يوم لما شق عليه وجود ما يطلبه من ذلك لكثرة ذلك عند التجار فى الحوانيت بهذا السوق و فى المخازن.

فلما كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة و كثر سفر الملك الناصر فرج بن برقوق إلى محاربة الأمير شيخ و الأمير نوروز بالبلاد الشامية، صار الوزراء يستدعون ما يحتاج إليه الجمال من الرحال و الأقتاب و غيرها، فإما لا يدفع ثمنها أو يدفع فيها الشىء اليسير من الثمن، فاختلّ من ذلك حال المرحلين و قلت أموالهم بعد ما كانوا مشتهرين بالغناء الوافر و السعادة الطائلة، و خرب معظم حوانيت هذا السوق، و تعطل أكثر ما بقى منها، و لم يتأخر فيه سوى القليل.

سوق خان الروّاسين: هذا السوق على رأس سويقة أمير الجيوش، قيل له ذلك من أجل أن هناك خانا تعمل فيه الرءوس المغمومة، و كان من أحسن أسواق القاهرة فيه عدّة من البياعين، و يشتمل على نحو العشرين حانوتا مملوءة بأصناف المآكل، و قد اختلّ و تلاشى أمره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۴

سوق حارة برجوان: هذا السوق من الأسواق القديمة، و كان يعرف فى القديم أيام الخلفاء الفاطميين بسوق أمير الجيوش، و ذلك أنّ أمير الجيوش بدر الجمالى لما قدم إلى مصر فى زمن الخليفة المستنصر، و قد كانت الشدّة العظمى، بنى بحارة برجوان الدار التى عرفت بدار المظفر، و أقام هذا السوق برأس حارة برجوان. قال ابن عبد الظاهر: و السويقة المعروفة بأمير الجيوش معروفة بأمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر، و هى من باب حارة برجوان إلى قريب الجامع الحاكمى، و هكذا تشهد مكاتيب دور حارة برجوان القديمة، فإنّ فيها و الحدّ القبلىّ ينتهى إلى سويقة أمير الجيوش، و سوق حارة برجوان هو فى الحدّ القبلىّ من حارة برجوان، و أدركت سوق حارة برجوان أعظم أسواق القاهرة، ما برحنا و نحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة فنقول: بحارة برجوان حمّامات، يعنى حمامى الرومى و حمام سويد فإنه كان يدخل إليها من داخل الحارة، و بها فرنان، و لها السوق الذى لا يحتاج ساكنها إلى غيره، و كان هذا السوق من سوق خان الروّاسين إلى سوق الشماعين، معمور الجانبين بالعدّة الوافرة من بياعى لحم الضأن السليخ، و بياعى اللحم السميط، و بياعى اللحم البقرى، و به عدّة كثيرة من الزياتين، و كثير من الجبانين و الخبازين و اللبانين و الطباخين و الشوّايين و البواردية و العطارين و الخضريين، و كثير من بياعى الأمتعة، حتى أنه كان به حانوت لا يباع فيه إلّا حوائج المائدة و هى: البقل و الكرّاث و الشمار و النعناع، و حانوت لا يباع فيه إلا الشيرج و القطن فقط برسم تعمير القناديل التى تسرج فى الليل. و سمعت من أدركت أنه كان يشترى من هذا الحانوت فى كل ليلة شيرج مما يوضع فى القناديل بثلاثين درهما فضة، عنها يومئذ دينار و نصف.

و كان يوجد بهذا السوق لحم الضأن النىء و المطبوخ إلى ثلث الليل الأوّل، و من قبل طلوع الفجر بساعة، و قد خرب أكثر حوانيت هذا السوق، و لم يبق لها أثر، و تعطل بأسره بعد سنة ست و ثمانمائة، و صار أوحش من وتد فى قاع بعد أن كان الإنسان لا يستطيع أن يمرّ فيه من ازدحام الناس ليلا و نهارا إلّا بمشقة، و كان فيه قبانىّ برسم وزن الأمتعة و المال و البضائع، لا يتفرّغ من الوزن و لا يزال مشغولا به، و معه من يستحثه ليزن له. فلما كان بعد سنة عشر و ثمانمائة أنشأ الأمير طوغان الدوادار بهذا السوق مدرسة و عمّر ربعا و حوانيت، فتحابى بعض الشىء و قبض على طوغان فى سنة ست عشرة و ثمانمائة، و لم تكمل عمارة السوق و فيه الآن بقية يسيرة.

سوق الشماعين: هذا السوق من الجامع الأقمر إلى سوق الدجاجين، كان يعرف فى الدولة الفاطمية بسوق القماحين، و عنده بنى المأمون بن البطائحى الجامع الأقمر باسم الخليفة الآمر بأحكام اللّه، و بنى تحت الجامع دكاكين و مخازن من جهة باب الفتوح،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۵

و أدركت سوق الشماعين من الجانبين معمور الحوانيت بالشموع الموكبية و الفانوسية و الطوافات، لا تزال حوانيته مفتحة إلى نصف

الليل، و كان يجلس به فى الليل بغايا يقال لهنّ زعيرات الشماعين، لهنّ سيما يعرفن بها، و زىّ يتميزن به، و هو لبس الملاءات الطرح و فى أرجلهنّ سراويل من أديم أحمر، و كنّ يعانين الزعارة و يقفن مع الرجال المشالقين فى وقت لعبهم، و فيهنّ من تحمل الحديد معها. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۳ ؛ ص۱۷۵

كان يباع فى هذا السوق فى كل ليلة من الشمع بمال جزيل، و قد خرب و لم يبق به إلّا نحو الخمس حوانيت بعد ما أدركتها تزيد على عشرين حانوتا، و ذلك لقلة ترف الناس و تركهم استعمال الشمع، و كان يعلق بهذا السوق الفوانيس فى موسم الغطاس، فتصير رؤيته فى الليل من أنزه الأشياء، و كان به فى شهر رمضان موسم عظيم لكثرة ما يشترى و يكتى من الشموع الموكبية التى تزن الواحدة منهنّ عشرة أرطال فما دونها، و من المزهرات العجيبة الزىّ المليحة الصنعة، و من الشمع الذى يحمل على العجل و يبلغ وزن الواحدة منها القنطار و ما فوقه، كل ذلك برسم ركوب الصبيان لصلاة التراويح، فيمرّ فى ليالى شهر رمضان من ذلك ما يعجز البليغ عن حكاية وصفه، و قد تلاشى الحال فى جميع ما قلنا لفقر الناس و عجزهم.

سوق الدجاجين: هذا السوق كان مما يلى سوق الشماعين إلى سوق قبو الخرشتف، كان يباع فيه من الدجاج و الأوز شىء كثير جليل إلى الغاية، و فيه حانوت فيه العصافير التى يبتاعها ولدان الناس ليعتقوها، فيباع منها فى كل يوم عدد كثير جدّا، و يباع العصفور منها بفلس، و يخدع الصبىّ بأنه يسبح، فمن أعتقه دخل الجنة، و لكل واحد حينئذ رغبة فى فعل الخير، و كان يوجد فى كل وقت بهذه الحوانيت من الأقفاص التى بها هذه العصافير آلاف، و يباع بهذا السوق عدّة أنواع من الطير، و فى كل يوم جمعة يباع فيه بكرة أصناف القمارى و الهزارات و الشحارير و اللبغاء و السّمّان، و كنا نسمع أن من السّمّان ما يبلغ ثمنه المئات من الدراهم، و كذلك بقية طيور المسموع يبلغ الواحد منها نحو الألف، لتنافس الناس فيها و توفر عدد المعتنين بها، و كان يقال لهم غواة طيور المسموع سيما الطواشية، فإنه كان يبلغ بهم الترف أن يقتنوا السّمّان و يتأنقوا فى أقفاصه و يتغالوا فى أثمانه حتى بلغنا أنه بيع طائر من السمان بألف درهم فضة، عنها يومئذ نحو الخمسين دينارا من الذهب، كل ذلك لإعجابهم بصوته، و كان صوته على وزن قول القائل: «طقطلق وعوع» و كلما كثر صياحه كانت المغالاة فى ثمنه، فاعتبر بما قصصته عليك حال الترف الذى كان فيه أهل مصر، و لا تتخذ حكاية ذلك هزؤا تسخر به، فتكون ممن لا تنفعه المواعظ بل يمرّ بالآيات معرضا غافلا فتحرم الخير.

و كان بهذا السوق قيسارية عملت مرّة سوقا للكتبيين، و لها باب من وسط سوق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۶

الدجاجين، و باب من الشارع الذى يسلك فيه من بين القصرين إلى الركن المخلق، فاتفق أن ولى نيابة النظر فى المارستان المنصورى عن الأمير الكبير ايتمش النحاسى الظاهرىّ أمير يعرف بالأمير خضر ابن التنكزية، فهدم هذا السوق و القيسارية و ما يعلوها، و أنشأ هذه الحوانيت و الرباع التى فوقها تجاه ربع الكامل الذى يعلو ما بين درب الخضيرى و قبو الخرشتف، فلما كمل أسكن فى الحوانيت عدّة من الزياتين و غيرهم، و بقى من الدجاجين بهذا السوق بقية قليلة.

سوق بين القصرين: هذا السوق أعظم أسواق الدنيا فيما بلغنا، و كان فى الدولة الفاطمية براحا واسعا يقف فيه عشرة آلاف ما بين فارس و راجل، ثم لما زالت الدولة ابتذل و صار سوقا يعجز الواصف عن حكاية ما كان فيه، و قد تقدّم ذكره فى الخطط من هذا الكتاب، و فيه إلى الآن بقية تحزننى رؤيتها إذ صارت إلى هذه القلة.

سوق السلاح: هذا السوق فيما بين المدرسة الظاهرية بيبرس و بين باب قصر بشتاك، استجدّ فيما بعد الدولة الفاطمية فى خط بين القصرين. و جعل لبيع القسىّ و النشاب و الزرديات و غير ذلك من آلات السلاح، و كان تجاهه خان يقابل الخان الذى هو الآن بوسط سوق السلاح، و على بابه من الجانبين حوانيت تجلس فيها الصيارف طول النهار، فإذا كان عصريات كل يوم جلس أرباب المقاعد تجاه حوانيت الصيارف لبيع أنواع من المآكل، و يقابلهم تجاه حوانيت سوق السلاح أرباب المقاعد أيضا، فإذا أقبل الليل أشعلت السرج من الجانبين و أخذ الناس فى التمشى بينهما على سبيل الاسترواح و التنزه، فيمرّ هنالك من الخلاعات و المجون ما لا

يعبر عنه بوصف، فلما أنشأ الملك الظاهر برقوق المدرسة الظاهرية المستجدّة صارت فى موضع الخان و حوانيت الصرف تجاه سوق السلاح، و قلّ ما كان هناك من المقاعد و بقى منها شىء يسير.

سوق القفيصات: بصيغة الجمع، و التصغير هكذا يعرف كأنه جمع قفيص، فإنه كله معدّ لجلوس أناس على تخوت تجاه شبابيك القبة المنصورية، و فوق تلك التخوت أقفاص صغار من حديد مشبك فيها الطرائف من الخواتيم و الفصوص و أساور النسوان و خلاخيلهنّ و غير ذلك، و هذه الأقفاص يأخذ أجرة الأرض التى هى عليها مباشر المارستان المنصورى، و أصل هذه الأرض كانت من حقوق أرض موقوفة على جامع المقس، فدخل بعضها فى القبة المنصورية، و صار بعضها كما ذكرنا و إلى اليوم يدفع من وقف المارستان حكر هذه الأرض لجامع المقس، و لما ولى نظر المارستان الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك فى سنة ست و عشرين و سبعمائة، عمل فيه أشياء من ماله، منها خيمة ذرعها مائة ذراع، نشرها من أوّل جدار القبة المنصورية بحذاء المدرسة الناصرية إلى آخر حدّ المدرسة المنصورية بجوار الصاغة، فصارت فوق مقاعد الأقفاص تظلهم من حرّ الشمس، و عمل لها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۷

حبالا تمدّ بها عند الحرّ و تجمع بها إذا امتدّ الظل، و جعلها مرتفعة فى الجوّ حتى ينحرف الهواء، ثم لما كان شهر جمادى الأولى سنة ثلاث و ثلاثين و ثمانمائة نقلت الأقفاص منه إلى القيسارية التى استجدّت تجاه الصاغة.

سوق باب الزهومة: هذا السوق عرف بذلك من أجل أنه كان هناك فى الأيام الفاطمية باب من أبواب القصر يقال له باب الزهومة، تقدّم ذكره فى ذكر أبواب القصر من هذا الكتاب. و كان موضع هذا السوق فى الدولة الفاطمية سوق الصيارف، و يقابله سوق السيوفيين، من حيث الخشيبة إلى نحو رأس سوق الحريريين اليوم، و سوق العنبر الذى كان إذ ذاك سجنا يعرف بالمعونة، و يقابل السيوفيين إذ ذاك سوق الزجاجين، و ينتهى إلى سوق القشاشين الذى يعرف اليوم بالخرّاطين، فلما زالت الدولة الفاطمية تغير ذلك كله، فصار سوق السيوفيين من جوار الصاغة إلى درب السلسلة، و بنى فيما بين المدرسة الصالحية و بين الصاغة سوق فيه حوانيت مما يلى المدرسة الصالحية، يباع فيها الأمشاط بسوق الأمشاطيين، و فيه حوانيت فيما بين الحوانيت التى يباع فيها الأمشاط و بين الصاغة، بعضها سكن الصيارف، و بعضها سكن النقليين، و هم الذين يبيعون الفستق و اللوز و الزبيب و نحوه، و فى وسط هذا البناء سوق الكتبيين، يحيط به سوق الأمشاطيين و سوق النقليين، و جميع ذلك جار فى أوقاف المارستان المنصورى.

و كان سوق باب الزهومة من أجلّ أسواق القاهرة أفخرها، موصوفا بحسن المآكل و طيبها، و اتفق فى هذا السوق أمر يستحسن ذكره لغرابته فى زمننا، و هو أنه عبر متولى الحسبة بالقاهرة فى يوم السبت سادس عشر شهر رمضان سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة على رجل بواردىّ بهذا السوق، يقال له محمد بن خلف، عنده مخزن فيه حمام وزرازير متغيرة الرائحة، لها نحو خمسين يوما، فكشف عنها فبلغت عدّتها أربعة و ثلاثين ألفا و مائة و ستة و تسعين طائرا، من ذلك حمام ألف و مائة و ستة و تسعون، و زرازير ثلاثة و ثلاثون ألفا كلها متغيرة اللون و الريح، فأدبه و شهره و فيه إلى الآن بقايا.

سوق المهامزيين: هذا السوق مما استجدّ بعد زوال الدولة الفاطمية، و كان بأوّله حبس المعونة، الذى عمله الملك المنصور قلاوون سوق العنبر، و يقابله المارستان و الوكالة و دار الضرب، فى الموضع الذى يعرف اليوم بدرب الشمسىّ، و ما بحذائه من الحوانيت إلى حمّام الخرّاطين، و ما تجاه ذلك. و هذا السوق معدّ لبيع المهاميز، و أدركت الناس و هم يتخذون المهماز كله قالبه و سقطه من الذهب الخالص، و من الفضة الخالصة، و لا يترك ذلك إلا من يتورع و يتدين فيتخذ القالب من الحديد و يطليه بالذهب أو الفضة، و يتخذ السقط من الفضة، و قد اضطرّ الناس إلى ترك هذا، فقلّ من بقى سقط مهمازه فضة، و لا يكاد يوجد اليوم مهماز من ذهب، و كان يباع بهذا السوق البدلات الفضة التى كانت برسم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۸

لجم الخيل، و تعمل تارة من الفضة المجراة بالمينا، و تارة بالفضة المطلية بالذهب، فيبلغ زنة ما فى البدلة من خمسمائة درهم فضة إلى

ما دونها، و قد بطل ذلك. و كان يباع به أيضا سلاسل الفضة و مخاطم الفضة المطلية، تجعل تحت لجم الحجور من الخيل خاصة، فيركب بها أعيان الموقعين و أكابر الكتاب من القبط و رؤساء التجار، و قد بطل ذلك أيضا.

و يباع فيه أيضا الدوى و الطرف التى فيها الفضة و الذهب كسكاكين الأقلام و نحوها، و كانت تجار هذا السوق تعدّ من بياض العامّة، و يتصل بسوق المهامزيين هذا.

سوق اللجميين: و يباع فيه آلات اللجم و نحوها مما يتخذ من الجلد، و فى هذا السوق أيضا عدّة وافرة من الطلائين و صناع الكفت برسم اللجم و الركب و المهاميز و نحو ذلك.

و عدّة من صناع مياتر السروج و قرابسها، و أدركت السروج تعمل ملوّنة ما بين أصفر و أزرق، و منها ما يعمل من الدبل، و منها ما يعمل سيورا من الجلد البلغارى الأسود، و يركب بهذه السروج السود القضاة و مشايخ العلم اقتداء بعادة بنى العباس فى استعمال السواد، على ما جدّده بديار مصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد زوال الدولة الفاطمية.

و أدركت السروج التى تركب بها الأجناد و الكتاب، يعمل للسرج فى قربوسه ستة أطواق من فضة مقبلة مطلية بالذهب، و معقربات من فضة، و لا يكاد أحد يركب فرسا بسرج سادج إلا أن يكون من القضاة و مشايخ العلم و أهل الورع، فلما تسلطن الملك الظاهر برقوق اتخذ سائر الأجناد السروج المغرقة، و هى التى جميع قرابسها من ذهب أو فضة، إما مطلية أو سادجة، و كثر عمل ذلك حتى لم يبق من العسكر فارس إلا و سرجه كما ذكرنا. و بطل السرج المسقط، فلما كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة غلب على الناس الفقر، و كثرت الفتن، فقلّت سروج الذهب و الفضة، و بقى منها إلى اليوم بقايا يركب بها أعيان الأمراء و أماثل المماليك.

سوق الجوخيين: هذا السوق يلى سوق اللجميين، و هو معدّ لبيع الجوخ المجلوب من بلاد الفرنج لعمل المقاعد و الستائر و ثياب السروج و غواشيها، و أدركت الناس و قلما تجد فيهم من يلبس الجوخ، و إنما يكون من جملة ثياب الأكابر، جوخ لا يلبس إلا فى يوم المطر، و إنما يلبس الجوخ من يرد من بلاد المغرب و الفرنج و أهل الإسكندرية و بعض عوام مصر، فأما الرؤساء و الأكابر و الأعيان فلا يكاد يوجد فيهم من يلبسه إلّا فى وقت المطر، فإذا ارتفع المطر نزع الجوخ.

و أخبرنى القاضى الرئيس تاج الدين أبو الفداء إسماعيل بن أحمد بن عبد الوهاب بن الخطبا المخزومى، خال أبى رحمه اللّه، قال: كنت أنوب فى حسبة القاهرة عن القاضى ضياء الدين المحتسب، فدخلت عليه يوما و أنا لابس جوخة لها وجه صوف مربع فقال لى: و كيف ترضى أن تلبس الجوخ، و هل الجوخ إلّا لأجل البغلة؟! ثم أقسم علىّ أن أخلعها،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۷۹

و ما زال بى حتى عرّفته أنى اشتريتها من بعض تجار قيساريه الفاضل، فاستدعاه فى الحال و دفعها إليه و أمره بإحضار ثمنها. ثم قال لى: لا تعد إلى لبس الجوخ، استهجانا له. فلما كانت هذه الحوادث و غلت الملابس دعت الضرورة أهل مصر إلى ترك أشياء مما كانوا فيه من الترفه، و صار معظم الناس يلبسون الجوخ، فتجد الأمير و الوزير و القاضى و من دونهم ممن ذكرنا لباسهم الجوخ، و لقد كان الملك الناصر فرج ينزل أحيانا إلى الإصطبل و عليه قجون من جوخ، و هو ثوب قصير الكمين و البدن، يخاط من الجوخ بغير بطانة من تحته و لا غشاء من فوقه، فتداول الناس لبسه، و اجتلب الفرنج منه شيئا كثيرا لا توصف كثرته و محل بيعه بهذا السوق، و يلى سوق الجوخيين هذا:

سوق الشرابشيين: و هذا السوق مما أحدث بعد الدولة الفاطمية، و يباع فيها الخلع التى يلبسها السلطان للأمراء و الوزراء و القضاة و غيرهم، و إنما قيل له سوق الشرابشيين لأنه كان من الرسم فى الدولة التركية أنّ السلطان و الأمراء و سائر العساكر إنما يلبسون على رؤوسهم كلوتة صفراء مضرّبة تضريبا عريضا، و لها كلاليب بغير عمامة فوقها، و تكون شعورهم مضفورة مدلاة بدبوقة، و هى فى كيس حرير إمّا أحمر أو أصفر، و أوساطهم مشدودة ببنود من قطن بعلبكىّ مصبوغ، عوضا عن الحوائص، و عليهم أقبية إمّا بيض أو مشجرة أحمر و أزرق، و هى ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الفرنج اليوم، و إخفافهم من جلد بلغارىّ أسود، و فى أرجلهم من فوق

الخف سقمان، و هو خف ثان، و من فوق القبا كمران بحلق و أبزيم و صوالق بلغارى كبار يسع الواحد منها أكثر من نصف ويبة غلة، مغروز فيه منديل طوله ثلاثة أذرع، فلم يزل هذا زيهم منذ استولوا بديار مصر على الملك، من سنة ثمان و أربعين و ستمائة، إلى أن قام فى المملكة الملك المنصور قلاوون، فغيّر هذا الزىّ بأحسن منه، و لبسوا الشاشات، و أبطلوا لبس الكم الضيق، و اقترح كل أحد من المنصورية ملابس حسنة، فلما ملك ابنه الأشرف خليل، جمع خاصكيته و مماليكه و تخير لهم الملابس الحسنة، و بدّل الكلوتات الجوخ و الصفر، و رسم لجميع الأمراء أن يركبوا بين مماليكهم بالكلوتات الزركش و الطرازات الزركش و الكنابيش الزركش و الأقبية الأطلس المعدنى، حتى يميز الأمير بلبسه عن غيره، و كذلك فى الملبوس الأبيض أن يكون رفيعا، و اتخذ السروج المرصعة و الأكوار المرصعة، فعرفت بالأشرفية، و كانت قبل ذلك سروجهم بقرابيس كبار شنعة، و ركب كبار بشعة، فلما ملك ديار مصر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، استجدّ العمائم الناصرية، و هى صغار.

فلما قام الأمير يلبغا العمرىّ الخاصكىّ عمل الكلوتات اليلبغاوية، و كانت كبارا، و استجدّ الأمير سلار فى أيام الملك الناصر محمد القباء الذى يعرف بالسلارى، و كان قبل ذلك يعرف ببغلو طاق، فلما تملك الملك الظاهر برقوق عمل هذه الكلوتات الجركسية، و هى أكبر من اليلبغاوية، و فيها عوج. و أما الخلع، فإن السلطان كان إذا أمّر أحدا من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۰

الأتراك ألبسه الشربوش، و هو شىء يشبه التاج، كأنه شكل مثلث يجعل على الرأس بغير عمامة، و يلبس معه على قدر رتبته، إمّا ثوب بخ، أو طرد وحش، أو غيره، فعرف هذا السوق بالشرابشيين نسبة إلى الشرابيش المذكورة، و قد بطل الشربوش فى الدولة الجركسية.

و كان بهذا السوق عدّة تجار لشراء التشاريف و الخلع و بيعها على السلطان فى ديوان الخاص و على الأمراء، و ينال الناس من ذلك فوائد جليلة، و يقتنون بالمتجر فى هذا الصنف سعادات طائلة، فلما كانت هذه الحوادث منع الناس من بيع هذا الصنف إلّا للسلطان، و صار يجلس به قوم من عمال ناظر الخاص لشراء سائر ما يحتاج إليه، و من اشترى من ذلك شيئا سوى عمال السلطان فله من العقاب ما قدّر عليه، و الأمر على هذا إلى يومنا الذى نحن فيه.

و أوّل من عملته خلع عليه من أهل الدول جعفر بن يحيى البرمكىّ، و ذلك أنّ أمير المؤمنين هارون الرشيد قال فى اليوم الذى انعقد له فيه الملك: يا أخى يا جعفر، قد أمرت لك بمقصورة فى دارى، و ما يصلح لها من الفراش، و عشر جوارتكن فيها ليلة مبيتك عندنا.

فقال: يا أمير المؤمنين ما من نعمة متواترة، و لا فضل متظاهر إلّا و رأى أمير المؤمنين أجمل و أتم، ثم انصرف و قد خلع عليه الرشيد، و حمل بين يديه مائة بدرة دراهم و دنانير، و أمر الناس فركبوا إليه حتى سلموا عليه، و أعطاه خاتم الملك ليختم به على ما يريد، فبلغ بذلك صيته أقطار الأرض، و وصل إلى ما لم يصل إليه كاتب بعده، فاقتدى بالرشيد من بعده، و خلعوا على أولياء دولتهم و ولاة أعمالهم، و استمرّ ذلك إلى اليوم.

و أوّل ما عرف شدّ السيوف فى أوساط الجند: أنّ سيف الدين غازى بن عماد الدين أتابك زنكى بن أق سنقر صاحب الموصل، أمر الأجناد أن لا يركبوا إلا بالسيوف فى أوساطهم، و الدبابيس تحت ركبهم، فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف، و هو أيضا أوّل من حمل على رأسه الصنجق فى ركوبه، و غازى هذا هو أخو الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى، و مات فى آخر جمادى الآخرة سنة أربع و أربعين و خمسمائة، و ولى الموصل بعده أخوه قطب الدين مودود.

سوق الحوائصيين: هذا السوق يتصل بوسق الشرابشيين، و تباع فيه الحوائص، و هى التى كانت تعرف بالمنطقة فى القديم، فكانت حوائص الأجناد أوّلا أربعمائة درهم فضة و نحوها، ثم عمل المنصور قلاوون حوائص الأمراء الكبار ثلثمائة دينار، و أمراء الطبلخانات مائتى دينار، و مقدّمى الحلقة من مائة و سبعين إلى مائة و خمسين دينارا، ثم صار الأمراء و الخاصكية فى الأيام الناصرية و ما بعدها يتخذون الحياصة من الذهب، و منها ما هو مرصع بالجوهر، و يفرّق السلطان فى كل سنة على المماليك من حوائص الذهب و الفضة

شيئا كثيرا، و ما زال الأمر على ذلك إلى أن ولى الناصر فرج، فلما كان فى أيام الملك المؤيد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۱

شيخ، قلّ ذلك، و وجد فى تركة الوزير الصاحب علم الدين عبد اللّه بن زنبور لما قبض عليه ستة آلاف حياصة، و ستة آلاف كلوتة جهاركس، و ما برح تجار هذا السوق من بياض العامة، و قد قلّ تجار هذا السوق فى زمننا و صار أكثر حوانيته يباع فيها الطواقى التى يلبسها الصبيان، و صارت الآن من ملابس الأجناد.

سوق الحلاويين: هذا السوق معدّ لبيع ما يتخذ من السكر حلوى، و إنما يعرف اليوم بحلاوة منوّعة، و كان من أبهج الأسواق لما يشاهد فى الحوانيت التى بها من الأوانى و آلات النحاس الثقيلة الوزن البديعة الصنعة ذات القيم الكبيرة، و من الحلاوات المصنعة عدّة ألوان، و تسمى المجمعة، و شاهدت بهذا السوق السكّر ينادى عليه كل قنطار بمائة و سبعين درهما، فلما حدثت المحن و غلا السكر لخراب الدواليب التى كانت بالوجه القبلىّ، و خراب مطابخ السكر التى كانت بمدينة مصر، قلّ عمل الحلوى، و مات أكثر صناعها، و لقد رأيت مرّة طبقا فيه نقل و عدّة شقاف من خزف أحمر فى بعضها لبن و فى بعضها أنواع الأجبان، و فيما بين الشقاف الخيار و الموز و كل ذلك من السكر المعمول بالصناعة، و كانت أيضا لهم عدّة أعمال من هذا النوع يحير الناظر حسنها، و كان هذا السوق فى موسم شهر رجب من أحسن الأشياء منظرا، فإنه كان يصنع فيه من السكر أمثال خيول و سباع و قطاط و غيرها، تسمى العلاليق، واحدها علاقة ترفع بخيوط على الحوانيت، فمنها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل، تشترى للأطفال، فلا يبقى جليل و لا حقير حتى يبتاع منها لأهله و أولاده، و تمتلىء أسواق البلدين مصر و القاهرة و أريافهما من هذا الصنف، و كذلك يعمل فى موسم نصف شعبان، و قد بقى من ذلك إلى اليوم بقية غير طائلة، و كذلك كانت تروق رؤية هذا السوق فى موسم عيد الفطر لكثرة ما يوضع فيه من حب الخشكنانج. و قطع البسندود و المشاش، و يشرع فى عمل ذلك من نصف شهر رمضان فتملأ منه أسواق القاهرة و مصر و الأرياف، و لم ير فى موسم سنة سبع عشرة و ثمانمائة من ذلك شىء بالأسواق البتة، فسبحان محيل الأحوال لا إله إلا هو.

سوق الشوّايين: هذا السوق أوّل سوق وضع بالقاهرة، و كان يعرف بسوق الشرايحيين، و هو من باب حارة الروم إلى سوق الحلاويين، و ما زال يعرف بسوق الشرايحيين إلى أن سكن فيه عدّة من بياعى الشواء، فى حدود السبعمائة من سنى الهجرة، فزالت عنه النسبة إلى الشرايحيين و عرف بالشوّايين، و هو الآن سكن المتعيشين، و انتقل سوق الشرايحيين فى زماننا إلى خارج باب زويلة و عرف بالبسطيين، كما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى. قال ابن زولاق فى كتاب سيرة المعز، و فى شهر صفر من سنة خمس و ستين و ثلاثمائة أنشئ سوق الشرايحيين بالقاهرة، و ذكر ذلك ابن عبد الظاهر فى كتاب خطط القاهرة. و كان فى القديم باب زويلة الذى وضعه القائد جوهر عند رأس حارة الروم، حيث العقد المجاور الآن للمسجد الذى عرف اليوم بسام بن نوح، و كان بجواره باب آخر موضعه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۲

الآن سوق الماطيين، فلما نقل أمير الجيوش باب زويلة إلى حيث هو الآن، اتسع ما بين سوق الشرايحيين المذكور و بين باب زويلة الكبير، و صار الآن فيه سوق الغرابليين، و فيه عدّة حوانيت تعمل مناخل الدقيق و الغرابيل، و يقابلهم عدّة حوانيت يصنع فيها الأغلاق المعروفة بالضبب، و ما بعد ذلك إلى باب زويلة، فيه كثير من الحوانيت يجلس ببعضها عدّة من الجبانين لبيع أنواع الجبن المجلوب من البلاد الشامية، و أدركنا هناك إلى أن حدثت المحن من ذلك شيئا كثيرا يتجاوز الحد فى الكثرة، و فى بعض تلك الحوانيت قوم يجلسون لعلاج من عساه ينصدع له عظم أو ينكسر أو يصيبه جرح يعرفون بالمجبرين، و هناك منهم بقية إلى يومنا هذا، و بقية الحوانيت ما بين صيارفة و بياعى طرف و متعيشين فى المآكل و غيرها.

فهذه قصبة القاهرة، و ما فى ظاهر باب زويلة فإنه خارج القاهرة و اللّه تعالى أعلم.

الشارع خارج باب زويلة

هـذا الشارع هو تجاه من خرج من باب زويلـة، و يمتـدّ فيما بين الطريق السالك ذات اليمين إلى الخليج ، و بين الطريق المسـلوك فيه ذات اليسار إلى قلعة الجبل. و لم يكن هذا الشارع موجودا على ما هو عليه الآن عند وضع القاهرة، و إنما حدث بعد وضعها بعدّة أعوم على غير هذه الهيئة، فلما كثرت العمائر خارج باب زويلة بعد سنة سـبعمائة من سـنى الهجرة صار على ما هو عليه الآن، فأما أوّل أمره: فإن الخليفة الحاكم بأمر اللّه أنشأ الباب الجديد على يسـرة الخارج من باب زويلة، على شاطىء بركة الفيل، و هذا الباب أدركت عقده عنـد رأس المنجيبة بجوار سوق الطيور، ثم لما اختطت حارة اليانسـية و حارة الهلالية صار ساحل بركة الفيل قبالتها، و اتصـلت العمائر من الباب الجديد إلى الفضاء الذى هو الآن خارج المشـهد النفيسىّ، فلما كانت الشدّة العظمى فى خلافة المستنصر و خربت القطائع و العسـكر، صارت مواضعها خرابا إلى خلافة الآمر بأحكام اللّه، فعمر الناس حتى صارت مصر و القاهرة لا يتخللهما خراب، و بنى الناس فى الشـارع من البـاب الجديـد إلى الجبـل عرضـا حيث قلعـة الجبـل الآـن، و بنى حائط يستر خراب القطائع و العسـكر، فعمر من الباب الجديد طولا إلى باب الصفا بمدينة مصر، حتى صار المتعيشون بالقاهرة و المستخدمون يصلون العشاء الآخرة بالقاهرة و يتوجهون إلى سكنهم فى مصـر و لاـ يزالون فى ضوء و سـرج و سوق موقود من البـاب الجديـد خـارج بـاب زويلـة إلى باب الصـفا، حيث الآن كوم الجارح، و المعاش مستمرّ فى الليل و النهار.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۳

و وقف القاضـى الرئيس المختار العدل زكىّ الدين أبو العباس أحمد بن مرتضـى بن سـيد الأهل بن يوسف، حصة من البسـتان الكبير المعروف يومئذ بالمخاريق الكبرى، الكائن فيما بين القاهرة و مصر بعدوة الخليج على الفربات، و شرط أنّ الناظر يشترى فى كل فصل من فصول الشـتاء من قمـاش الكتان الخام أو القطن ما يراه، و يعمل ذلك جبابا و بغالطيقا محشوّة قطنا، و تفرّق على الأيتام الـذكور و الإنـاث الفقراء غير البـالغين بالشارع الأعظم، خارج باب زويلـة، فيـدفع لكل واحـد جبـة واحـدة أو بغلطاقا، فإن تعـذر ذلك كان على الأيتام المتصفين بالصفات المذكورة بالقاهرة و مصر و قرافتيهما، و كان هذا الوقف فى سنة ستين و ستمائة.

فلما كثرت العمائر خارج باب زويلة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون بعد سنة سبعمائة، صار هذا الشارع أوّله تجاه باب زويلة و آخره فى الطـول الصـليبة الـتى تنتهى إلى جـامع ابن طولـون و غيره، لكنهم لاـ يريـدون بالشـارع سـوى إلى بـاب القوس الـذى بسوق الطيـوريين، و هـو البـاب الجديـد، و بعـد بـاب القـوس سوق الطيوريين، ثم سوق جـامع قوصون و سوق حوض ابن هنس و سوق ربع طفجى، و هـذه أسواق بهـا عـدّة حوانيت، لكنهـا لاـ تنتهى إلى عظم أسواق القـاهرة، بل تكون أبـدا دونها بكثير، فهـذا حال القصـبة و الشـارع خـارج بـاب زويلـة، و قـد بقيت عـدّة أسواق فى جـانبى القصـبة، و لها أبواب شارعـة و فيها أسواق أخر فى نواحى القاهرة، و مسالكها سيأتى ذكرها بحسب القدرة إن شاء اللّه تعالى.

سويقـة أمير الجيوش: هذه السويقة الآن فيما بين حارة برجوان و حارة بهاء الدين، كانت تعرف بسوق الخروقيين فيما بعد زوال الدولة الفاطميـة، و فى هـذا السوق عمر الأمير مازكوج الأسـدى مدرسـته المعروفة الآن بالأكجية، و أدركت الناس إلى هذا الزمن الذى نحن فيه لا يعرفون هـذا السوق إلّا بسوق أمير الجيوش، و يعبّرون عنه بصـيغة التصـغير، و لا أعرف لهم مسـتندا فى ذلك، و الـذى تشـهد به الأخبار أن سوق أمير الجيوش هو السوق الـذى برأس حارة برجوان، و يمتـدّ إلى رأس سويقـة أمير الجيوش الآن، و هـذه السويقـة من أكبر أسواق القاهرة، بها عـدّة حوانيت، فيها الرفاءون و الحباكون، و عـدّة حوانيت للرسامين، و عـدّة حوانيت للفرّايين، و عـدّة حوانيت للخياطين، و معظمها لسـكن البزازين و الخلعيين، و فيها عدّة من بياعى الأقباع، و يباع فى هذا السوق سائر الثياب المخيطة و الأمتعة من الفرش و نحوهـا. و هو شـارع من شوارع القاهرة، يسـلك فيه من باب الفتوح و بين القصـرين و باب النصـر إلى باب القنطرة و شاطىء النيل و غيره، و كان ما بعـد هـذا السوق إلى باب القنطرة معمور الجانبين بالحوانيت المعـدّة لبيع الظرائف و المغازل و الكتان و الأنواع من المأكل و العطر و غيره، و قـد خرب أكثر هذه الحوانيت فى سـنى المحنة و ما بعدها، و لسويقة أمير الجيوش عدّة قياسـر و فنادق و

اللّه أعلم.

سوق الجملون الصغير: هذا السوق يسلك فيه من رأس سويقة أمير الجيوش إلى باب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۴

الجوانيـة و باب النصـر و رحبة باب العيد، و هو مجاور لدرب الفرحية، و فيه المدرسة الصـيرمية، و باب زيادة الجامع الحاكمى، و كان أوّلا يعرف بالأمراء القرشـيين بنى النورى، ثم عرف بالجملون الصـغير، و بجملون ابن صيرم، و هو الأمير جمال الدين شويخ بن صيرم، أحـد الأمـراء فى أيـام الملك الكامل محمـد بن العادل أبى بكر بن أيوب، و إليه تنسب المدرسـة الصـيرمية، و الخط المعروف خارج بـاب الفتوح ببسـتان ابن صـيرم، و أدركت هـذا الجملون معمور الجـانبين من أوّله إلى آخره بـالحوانيت، ففى أوّله كـثير من الـبزازين الـذين يبيعون ثياب الكتان من الخام و الأزرق و أنواع الطرح و أصـناف ثياب القطن، و ينادى فيه على الثياب بحراج حراج، و فيه عدّة من الخياطين، و عدّة من البابية المعدّين لغسل الثياب و صقالها، و بآخره كثير من الضبيين بحيث لو أراد أحد أن يشترى منه ألف ضبة فى يوم لما عسـر عليه ذلك، فلما حدثت المحن خرب هذا السوق بخلوّ حوانيته، و صار مقفرا من ساكنيه، ثم إنه عمر بعد سـنة عشر و ثمانمائة، و فيه الآن نفر من البزازين و قليل ممن سواهم.

سوق المحايريين: هذا السوق فيما بين الجامع الأقمر و بين جملون ابن صـيرم، يسلك فيه من سوق حارة برجوان و من سوق الشماعين إلى الركن المخلق و رحبة باب العيد، و هو من شوارع القاهرة المسلوكة، و فيه عدّة حوانيت لعمل المحاير التى يسافر فيها إلى الحجاز و غيره، و كان فيه تاجران قد تراضيا على ما يشتريانه من المحاير المعرّضة للبيع، و لهذا السوق موسم عظيم عند سفر الحاج و عند سفر الناس إلى القدس.

و بلغنى عن شـيخ كان بهذا السوق أنه أوصـى بعض صبيانه فقال له: يا بنىّ لا تراع أحدا فى بيع، فإنه لا يحتاج إليك إلّا مرّة فى عمره، فخـذ عدلك فى ثمن المحارة، فإنك لا تخشـى من عوده مرّة أخرى إليك، و سوف إذا عاد من سـفره إما إلى الحجاز أو القدس فإنه يحتاج إلى بيعها، فتراقد عليه فى ثمنها و اشترها بالرخيص.

و كـذلك يفعـل أهـل هـذا السوق إلى اليوم، فـإنهم لا يراعون بائعا و لا مشتريا، إلا أن سوقهم لم يبق كما أدركناه، فإنه حـدث سوق آخر يبـاع فيه المحـاير بسوق الجـامع الطولونى، و صـار بسوق الخيميين أيضا صـناع للمحاير، و بلغنى أنّ بالمحايريين هـذا أوقف أهل مصـر امرأة من جريـد مؤتزرة، بيـدها ورقـة فيها سب الخليفة الحاكم بأمر اللّه و لعنه، عندما منع النساء من الخروج فى الطرقات، فعندما مرّ من هناك حسـبها امرأة تسأله حاجة. فأمر بأخذ الورقة منها، فإذا فيها من السب ما أغضـبه، فأمر بها أن تؤخذ، فإذا هى من جريد قد ألبس ثيابا و عمل كهيئة امرأة، فاشـتدّ عند ذلك غضـبه و أمر العبيد بإحراق مدينة مصـر فأضـرموا فيها النار. و لم أقف على هذا الخبر مسطورا، و قد ذكر المسبحىّ حريق الحاكم بأمر اللّه لمصر و لم يذكر قصة المرأة.

الصاغة: هذا المكان تجاه المدارس الصالحية بخط بين القصرين. قال ابن عبد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۵

الظاهر: الصاغـة بالقاهرة كانت مطبخا للقصـر، يخرج إليه من باب الزهومـة، و هو الباب الذى هدم و بنى مكانه قاعة شـيخ الحنابلة من المـدارس الصالحيـة، و كان يخرج من المطبـخ المذكور مدّة شـهر رمضان ألف و مائتا قدر من جميع الألوان فى كل يوم، تفرّق على أرباب الرسوم و الضعفاء، و سمّى باب الزهومة، أى باب الزفر، لأنه لا يدخل باللحم و غيره إلا منه، فاختص بذلك. انتهى.

و الصاغـة الآن وقف على المـدارس الصالحية، وقفها الملك السـعيد بركة خان المسـمى بناصـر الدين محمد ولد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى على الفقهاء المقرّرين بالمدارس الصالحية.

سوق الكتبيين: هذا السوق فيما بين الصاغة و المدرسة الصالحية، أحدث فيما أظن بعد سـنة سـبعمائة، و هو جار فى أوقاف المارسـتان المنصورى، و كان سوق الكتب قبل ذلك بمدينة مصـر تجاه الجانب الشرقى من جامع عمرو بن العاص فى أوّل زقاق القناديل، بجوار

دار عمرو، و أدركته و فيه بقية بعد سنة ثمانين و سبعمائة، و قد دثر الآن فلا يعرف موضعه، و كان قد نقل سوق الكتبيين من موضعه الآن بالقاهرة إلى قيسارية كانت فيما بين سوق الدجاجين المجاور للجامع الأقمر، و بين سوق الحصريين المجاور للركن المخلق، و كان يعلو هذه القيسارية ربع فيه عدّة مساكن، فتضرّرت الكتب من نداوة أقبية البيوت و فسد بعضها، فعادوا إلى سوق الكتب الأوّل حيث هو الآن، و ما برح هذا السوق مجمعا لأهل العلم يتردّدون إليه. و قد أنشدت قديما لبعضهم:

مجالسة السوق مذمومةو منها مجالس قد تحتسب

فلا تقربنّ غير سوق الجيادو سوق السلاح و سوق الكتب

فهاتيك آلة أهل الوغىو هاتيك آلة أهل الأدب

سوق الصنادقيين: هذا السوق تجاه المدرسة السيوفية، كان موضعه فى القديم من جملة المارستان، ثم عرف بفندق الدبابليين، و قيل له الآن سوق الصنادقيين، و فيه تباع الصناديق و الخزائن و الأسرّة مما يعمل من الخشب، و كان ما بظاهرها قديما يعرف بسكن الدجاجين، و أدركناه يعرف بسوق السيوفيين، و كان فيه عدّة طباخين لا يزال دخان كوانينهم منعقدا لكثرته. حتى قال لى شيخنا قاضى القضاة مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم الحنفى:

أن قاضى القضاة جلال الدين جاد اللّه قال له: هذا السوق قطب دائرة الدخان، و فى سوق الصنادقيين إلى الآن بقية.

سوق الحريريين: هذا السوق من باب قيسارية العنبر إلى خط البندقانيين، كان يعرف قديما بسقيفة العداس، ثم عمل صاغة القاهرة، ثم سكن هناك الأساكفة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۶

قال ابن عبد الظاهر: و كانت الصاغة قديما فيما تقدّم مكان الأساكفة الآن، و هو إلى الآن معروف بالصاغة القديمة، و كان يعرف بسقيفة العداس، كذا رأيت فى كتب الأملاك، و عرف هذا السوق فى زماننا بالحريريين الشراربيين، و عرف بعضه بسوق الزجاجين، و كان يسكن فيه أيضا الأساكفة، فلما أنشأ الأمير يونس الدوادار القيسارية على بئر زويلة بخط البندقانيين فى أعوام بضع و ثمانين و سبعمائة، نقل الأساكفة من هذا الخط، و نقل منه أيضا بياعى أخفاف النساء إلى قيساريته و حوانيته المذكورة.

سوق العنبريين: هذا السوق فيما بين سوق الحريريين الشراربيين و بين قيسارية العصفر، و هو تجاه الخرّاطين، كان فى الدولة الفاطمية مكانه سجنا لأرباب الجرائم يعرف بحبس المعونة، و كان شنيع المنظر ضيقا لا يزال من يجتاز عليه يجد منه رائحة منكرة، فلما كان فى الدولة التركية و صار قلاوون من جملة الأمراء الظاهرية ببيبرس، صار يمرّ من داره إلى قلعة الجبل على حبس المعونة هذا فيشمّ منه رائحة رديئة و يسمع منه صراخ المسجونين و شكواهم الجوع و العرى و القمل، فجعل على نفسه أنّ اللّه تعالى جعل له من الأمر شيئا أن يبنى هذا الحبس مكانا حسنا، فلما صار إليه ملك ديار مصر و الشام هدم حبس المعونة و بناه سوقا ليسكنه بياعى العنبر، و كان للعنبر إذ ذاك بديار مصر نفاق، و للناس فيه رغبة زائدة، لا يكاد يوجد بأرض مصر امرأة و إن سفلت إلّا و لها قلادة من عنبر، و كان يتّخذ منه المخادّ و الكلل و الستور و غيرها، و تجار العنبر يعدّون من بياض الناس، و لهم أموال جزيلة، و فيه رؤساء و أجلّاء، فلما صار الملك إلى الملك الناصر محمد بن قلاون جعل هذا السوق و ما فوقه من المساكن وقفا على الجامع الذى أنشأه بظاهر مصر جوار موردة الخلفاء المعروف بالجامع الجديد الناصرى، و هو جار فى أوقافه إلى يومنا هذا، إلّا أن العنبر من بعد سنة سبعين و سبعمائة كثر فيه الغش حتى صار اسما لا معنى له، و قلّت رغبة الناس فى استعماله، فتلاشى أمر هذا السوق بالسنة لما كان، ثم لما حدثت المحن بعد سنة ست و ثمانمائة قلّ ترفّه أهل مصر عن استعمال الكثير من العنبر، فطرق هذا السوق ما طرق غيره من أسواق البلد، و بقيت فيه بقية يسيرة إلى أن خلع الخليفة المستعين بالله العباسى بن محمد فى سنة خمس عشرة و ثمانمائة، و كان نظر الجامع الجديد بيده و بيد أبيه الخليفة المتوكل على اللّه محمد، فقصد بعض سفهاء العامّة يكاتبه بتعطيل هذا السوق، فاستأجر قيسارية العصفر و نقل سوق العنبر إليها، و صار معطلا نحو سنتين، ثم عاد أهل العنبر إلى هذا السوق على عادتهم فى سنة ثمان عشرة و ثمانمائة.

سوق الخرّاطين: هذا السوق يسلك فيه من سوق المهامزيين إلى الجامع الأزهر و غيره، و كان قديما يعرف بعقبة الصباغين، ثم عرف بسوق القشاشين، و كان فيما بين دار الضرب و الوكالة الآمرية و بين المارستان، ثم عرف الآن بسوق الخرّاطين، و كان سوقا كبيرا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۷

معمورا لجانبين بالحوانيت المعدّة لبيع المهد الذى يربى فيه الأطفال، و حوانيت الخرّاطين، و حوانيت صناع السكاكين، و صناع الدوى، يشتمل على نحو الخمسين حانوتا، فلما حدثت المحن تلاشى هذا السوق، و اغتصب الأمير جمال الدين يوسف الاستادار منه عدّة حوانيت، من أوّله إلى الحمام التى تعرف بحمام الخرّاطين، و شرع فى عمارتها، فعوجل بالقتل قبل إتمامها، و قبض عليها الملك الناصر فرج فيما أحاط به من أمواله و أدخلها فى الديوان.

فقام بعمارة الحوانيت التى تجاه قيسارية العصفر من درب الشمسى إلى أوّل الخرّاطين القاضى الرئيس تقيّ الدين عبد الوهاب بن أبى شاكر، فلما كملت جعلها الملك الناصر فيما هو موقوف على ترتبته التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر، و أفرد الحمّام و بعض الحوانيت القديمة للمدرسة التى أنشأها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار برحبة باب العيد، و ما يقابل هذه الحوانيت هو و ما فوقه وقف على المدرسة القراسنقرية و غيرها، و هو متخرّب متهدّم.

سوق الجملون الكبير: هذا السوق بوسط سوق الشرابشيين، يتوصل منه إلى البندقانيين و إلى حارة الجودرية و غيرها، أنشئ فيه حوانيت سكنها البزازون، وقفه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون على تربة مملوكه بلبغا التركمانىّ عند ما مات فى سنة سبع و سبعمائة، ثم عمل عليه بابان بطرفيه بعد سنة تسعين و سبعمائة، فصارت تغلق فى الليل، و كان فيما أدركناه شارعا مسلوكا طول الليل، يجلس تجاه صاحب العسس، الذى عرفته العامة فى زماننا بوالى الطوف، من بعد صلاة العشاء فى كل ليلة، و ينصب قدّامه مشعل يشعل بالنار طول الليل، و حوله عدّة من الأعوان و كثير من السقائين و النجارين و القصارين و الهدّادين بنوب مقرّرة لهم، خوفا من أن يحدث بالقاهرة فى الليل حريق فيتداركون إطفاءه، و من حدث منه فى الليل خصومة، أو وجد سكران، أو قبض عليه من السرّاق، تولى أمره والى الطوف و حكم فيه بما يقتضيه الحال. فلما كانت الحوادث بطل هذا الرسم فى جملة ما بطل، و هذا السوق الآن جار فى وقف ... .

سوق الفرّايين: هذا السوق يسلك فيه من سوق الشرابشيين إلى الأكفانيين و الجامع الأزهر و غير ذلك. كان قديما يعرف بسوق الخروقيين، ثم سكن فيه صناع الفراء و تجّاره، فعرف بهم، و صار بهذا السوق فى أيام الملك الظاهر برقوق من أنواع الفراء ما يجلّ أثمانها و تتضاعف قيمها، لكثرة استعمال رجال الدولة من الأمراء و المماليك لبس السمور و الوشق و القماقم و السنجاب، بعد ما كان ذلك فى الدولة التركية من أعز الأشياء التى لا يستطيع أحد أن يلبسها، و لقد أخبرنى الطواشى الفقيه الكاتب الحاسب الصوفىّ زين الدين مقبل الرومىّ الجنس المعروف بالشامى، عتيق السلطان الملك الناصر الحسين بن محمد بن قلاون: أنه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۸

وجب فى تركة بعض أمراء السلطان حسن قباء بفرو قاقم، فاستكثر ذلك عليه و تعجب منه، و صار يحكى ذلك مدّة لعزّة هذا الصنف و احترامه، لكونه من ملابس السلطان و ملابس نسائه، ثم تبذلت الأصناف المذكورة حتى صار يلبس السمور آحاد الأجناد و آحاد الكتاب، و كثير من العوام، و لا تكاد امرأة من نساء بياض الناس تخلو من لبس السمور و نحوه، و إلى الآن عند الناس من هذا الصنف و غيره من الفرو شىء كثير.

سوق البخانقيين: هذا السوق فيما بين سوق الجملون الكبير و بين قيسارية الشرب الآتى ذكرها إن شاء اللّه تعالى عند ذكر القياسر. و باب هذا السوق شارع من القصبة، و يعرف بسوق الخشيبة تصغير خشبة، فإنه عمل على بابه المذكور خشبة تمنع الراكب من التوصل إليه، و يسلك من هذا السوك إلى قيسارية الشرب و غيرها. و هو معمور الجانبين بالحوانيت المعدّة لبيع الكوافى و الطواقى التى تلبسها الصبيان و البنات، و بظاهر هذا السوق أيضا فى القصبة عدّة حوانيت لبيع الطواقى و عملها، و قد كثر لبس رجال الدولة من

الأمراء و المماليك و الأجناد و من يتشبه بهم للطواقى فى الدولة الجركسية، و صاروا يلبسون الطاقية على رؤوسهم بغير عمامة، و يمرّون كذلك فى الشوارع و الأسواق و الجوامع و المواكب لا يرون بذلك بأسا بعد ما كان نزع العمامة عن الرأس عارا و فضيحة، و نوّعوا هذه الطواقى ما بين أخضر و أحمر و أزرق و غيره من الألفوان، و كانت أوّلا ترتفع نحو سدس ذراع، و يعمل أعلاها مدوّرا مسطحا، فحدث فى أيام الملك الناصر فرج منها شىء عرف بالطواقى الجركسية، يكون ارتفاع عصابة الطاقية منها نحو ثلثى ذراع، و أعلاها مدوّر مقبب، و بالغوا فى تبطين الطاقية بالورق و الكتيرة، فيما بين البطانة المباشرة للرأس و الوجه الظاهر للناس، و جعلوا من أسفل العصابة المذكورة زيقا من فرو القرض الأسود يقال له القندس، فى عرض نحو ثمن ذراع، يصير دائرا بجبهة الرجل و أعلى عنقه، و هم على استعمال هذا الزىّ إلى اليوم، و هو من أسمج ما عانوه، و يشبه الرجال فى لبس ذلك بالنساب لمعنيين، أحدهما أنه فشا فى أهل الدولة محبة الذكران، ليستملن قلوب رجالهنّ، فاقتدى بفعلهنّ فى ذلك عامة نساء البلد. و ثانيهما ما حدث بالناس من الفقر و نزل بهم من الفاقة، فاضطرّ حال نساء أهل مصر إلى ترك ما أدركنا فيه النساء من لبس الذهب و الفضة و الجواهر و لبس الحرير، حتى لبسن هذه الطواقى و بالغن فى عملها من الذهب و الحرير و غيره، و تواصين على لبسها، و من تأمل أحوال الوجود عرف كيف تنشأ أمور الناس فى عاداتهم و أخلاقهم و مذاهبهم.

سوق الخلعيين: هذا السوق فيما بين قيسارية الفاضل الآتى ذكرها إن شاء اللّه تعالى، و بين باب زويلة الكبير، و كان يعرف قديما بالخشابين، و عرف اليوم بالزقيق تصغير زقاق، و عرف أيضا بسوق الخلعيين، كأنه جمع خلعىّ، و الخلعىّ فى زماننا هو الذى يتعاطى بيع الثياب الخليع، و هى التى قد لبست، و هذا السوق اليوم من أعمر أسواق القاهرة لكثرة ما يباع فيه من ملابس أهل الدولة و غيرهم، و أكثر ما يباع فيه الثياب المخيطة، و هو معمور

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۸۹

الجوانب بالحوانيت، و يسلك فيه من القصبة ليلا و نهارا إلى حارة الباطلية. و خوخة أيدغمش و غير ذلك، و فى داخل القاهرة أيضا عدّة أسواق و قد خرب الآن أكثرها.

سويقة الصاحب: هذه السويقة يسلك إليها من خط البندقانيين و من باب الخوخة و غير ذلك، و هى من الأسواق القديمة كانت فى الدولة الفاطمية تعرف بسويقة الوزير، يعنى أبا الفرج يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز الذى تنسب إليه حارة الوزيرية، فإنها كانت على باب داره التى عرفت بعده فى الدولة الفاطمية بدار الديباج، و صار موضعها الآن المدرسة الصاحبية، ثم صارت تعرف بسويقة دار الديباج يعنى دار الطراز، ينسج فيها الديباج الذى هو الحرير، و قيل لذلك الموضع كله خط دار الديباج، ثم عرف هذا السوق بالسوق الكبير فى أخريات الدولة الفاطمية، فلما ولى صفىّ الدين عبد اللّه بن شكر الدميرى وزارة الملك العادل أبى بكر بن أيوب سكن فى هذا الخط، و أنشأ به مدرسته التى تعرف إلى اليوم بالمدرسة الصاحبية، و أنشأ به أيضا رباطه و حمامه المجاورين للمدرسة المذكورة، عرفت من حينئذ هذه السويقة بسويقة الصاحب المذكور، و استمرّت تعرف بذلك إلى يومنا هذا، و لم تزل من الأسواق المعتبرة، يوجد فيها أكثر ما يحتاج إليه من المآكل، لوفور نعم من يسكن هنالك من الوزراء و أعيان الكتاب، فلما حدثت المحن طرقها ما طرق غيرها من أسواق القاهرة فاختلت عما كانت و فيها بقية.

سوق البندقانيين: هذا السوق يسلك إليه من سوق الزجاجين و من سويقة الصاحب و من سوق الأبزاريين و غيره، و كان يعرف قديما بسوق بئر زويلة، و كان هناك بئر قديمة تعرف ببئر زويلة برسم اصطبل الجميزة الذى كان فيه خيول الخلفاء الفاطميين، و صار موضعه خط البندقانيين بعد ذلك كما ذكر عند اصطبلات الخلفاء الفاطميين من هذا الكتاب، و موضع هذه البئر اليوم قيسارية يونس و الربع الذى يعلوها، و بقى منها موضع ركب عليه حجر و أعدّت لملء السقائين منها، فلما زالت الدولة و اختط موضع اصطبل الجميزة الدور و غيرها، و عرف موضع الاصطبل بالبندقانيين، قيل لهذا السوق سوق البندقانيين، و أدركته سوقا كبيرا معمور الجانبين بالحوانيت التى قد تهدّم أعلاها منذ كان الحريق بالبندقانيين فى سنة إحدى و خمسين و سبعمائة، كما ذكر فى خط البندقانيين عند

ذكر الأخطاط من هذا الكتاب، و فى هذا السوق كثير من أرباب المعاش المعدّين لبيع المأكولات من الشواء و الطعام المطبوخ و أنواع الأجبان و الألبان و البوارد و الخبز و الفواكه، و عدّة كثيرة من صناع قسىّ البندق، و كثير من الرسامين، و كثير من بياعى الفقاع. فلما حدثت المحن بعد سنة ست و ثمانمائة اختلّ هذا السوق خللا كبيرا و تلاشى أمره.

سوق الأخفافيين: هذا السوق بجوار سوق البندقانيين، يباع فيه الآن خفاف النسوان و نعالهنّ، و هو سوق مستجدّ أنشأه الأمير يونس النوروزىّ دوادار الملك الظاهر برقوق فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۰

سنة بضع و ثمانين و سبعمائة، و نقل إليه الأخفافيين بياعى أخفاف النساء من خط الحريريين و الزجاجين، و كان مكانه مما خرب فى حريق البندقانيين، فركب بعض القيسارية على بئر زويلة و جعل بابها تجاه درب الأنجب، و بنى بأعلاها ربعا كبيرا فيه عدّة مساكن، و جعل الحوانيت بظاهرها و بظاهر درب الأنجب، و بنى فوقها أيضا عدّة مساكن، فعمر ذلك الخط بعمارة هذه الأماكن، و به إلى الآن سكن بياعى أخفاف النساء و نعالهنّ، التى يقال للنعل منها سر موزه، و هو لفظ فارسىّ معناه رأس الخف، فإن سر رأس و موزه خف.

سوق الكفتيين: هذا السوق يسلك إليه من البندقانيين و من حارة الجودرية و من الجملون الكبير و غيره، و يشتمل على عدّة حوانيت لعمل الكفت، و هو ما تطعّم به أوانى النحاس من الذهب و الفضة، و كان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم، و للناس فى النحاس المكفت رغبة عظيمة، أدركنا من ذلك شيئا لا يبلغ وصفه واصف لكثرته، فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة و مصر من عدّة قطع نحاس مكفت، و لا بدّ أن يكون فى شورة العروس دكة نحاس مكفت.

و الدكة: عبارة عن شىء شبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج و الأبنوس، أو من خشب مدهون، و فوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة، و عدّة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض، تبلغ كبراها ما يسع نحو الأردب من القمح، و طول الأكفات التى نقشت بظاهرها من الفضة نحو الثلث ذراع فى عرض إصبعين، و مثل ذلك دست أطباق عدّتها سبعة بعضها فى جوف بعض، و يفتح أكبرها نحو الذراعين و أكثر، و غير ذلك من المنابر و السرج و أحقاق الأشنان و الطشت و الإبريق و المبخرة، فتبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت زيادة على مائتى دينار ذهبا، و كانت العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب أو أماثل التجار تجهز فى شورتها عند بناء الزوج عليها سبع دكك، دكة من فضة، و دكة من كفت، و دكة من نحاس أبيض، و دكة من خشب مدهون، و دكة من صينى، و دكة من بلور، و دكة كداهى: و هى آلات من ورق مدهون تحمل من الصين، أدركنا منها فى الدور شيئا كثيرا، و قد عدم هذا الصنف من مصر إلّا شيئا يسيرا. حدثنى القاضى الفاضل الرئيس تاج الدين أبو الفداء إسماعيل أحمد بن عبد الوهاب ابن الخطباء المخزومىّ رحمه اللّه قال: تزوّج القاضى علاء الدين بن عرب محتسب القاهرة بامرأة من بنات التجار، تعرف بست العمائم، فلما قارب البناء عليها و الدخول بها، حضر إليه فى يوم وكيلها و أنا عنده، فبلّغه سلامها عليه و أخبره أنها بعثت إليه بمائة ألف درهم فضة خالصة ليصلح بها لها ما عساه اختلّ من الدكة الفضة، فأجابه إلى ما سأل و أمره باحضار الفضة، فاستدعى الخدم من الباب فدخلوا بالفضة فى الحال، و بالوقت أمر المحتسب بصناع الفضة و طلائها، فاحضروا و شرعوا فى إصلاح ما أرسلته ست العمائم من أوانى الفضة و إعادة طلائها بالذهب، فشاهدنا من ذلك منظرا بديعا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۱

و أخبرنى من شاهد جهاز بعض بنات السلطان حسن بن محمد بن قلاوون و قد حمل فى القاهرة عند ما زفت على بعض الأمراء فى دولة الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، فكان شيئا عظيما، من جملته دكة من بلور تشتمل على عجائب، منها زير من بلور قد نقش بظاهره صور ثابتة على شبه الوحوش و الطيور، و قدر هذا الزير ما يسع قربة ماء، و قد قلّ استعمال الناس فى زمننا هذا للنحاس المكفت، و عزّ وجوده، فإن قوما لهم عدّة سنين قد تصدّوا لشراء ما يباع منه و تنحية الكفت عنه طلبا للفائدة، و بقى بهذا السوق إلى يومنا هذا بقية من صناع الكفت قليلة.

سوق الأقباعيين: بخط تحت الربع خارج باب زويلة، مما يلى الشارع المسلوك فيه إلى قنطرة الخرق، ما كان منه على يمنة السالك إلى قنطرة الخرق، فإنه جار فى وقف الملك الظاهر بيبرس، هو و ما فوقه على المدرسة الظاهرية بخط بين القصرين، و على أولاده. و لم يزل إلى يوم السبت خامس شهر رمضان سنة عشرين و ثمانمائة، فوقع الهدم فيه ليضاف إلى عمارة الملك المؤيد شيخ المجاورة لباب زويلة، و ما كان من هذا السوق على يسرة من سلك إلى القنطرة، فإنه جار فى وقف اقبغا عبد الواحد على مدرسته المجاورة للجامع الأزهر، و بعضه وقف امرأة تعرف بدنيا.

سويقة السقطيين: هذا السوق خارج باب زويلة بجوار دار التفاح، أنشأه الأمير اقبغا عبد الواحد و هو جار فى وقفه.

سويق خزانة البنود: هذه السويقة على باب درب راشد، و تمتدّ إلى خزانة البنود، و كانت تعرف أوّلا بسويقة ريدان الصقلبى المنسوب إليه الريدانية خارج باب النصر.

سويقة المسعودى: هذه السويقة من حقوق حارة زويلة بالقاهرة، تنسب إلى الأمير صارم الدين قايماز المسعودىّ، مملوك الملك المسعود أقسيس بن الملك الكامل. و ولى المسعودى هذا ولاية القاهرة، و كان ظالما غاشما جبارا، من أجل أنه كان فى دار ابن فرقة التى من جملتها جامع ابن المغربى، و بيت الوزير ابن أبى شاكر، ثم إن فتح الدين بن معتصم الداودى التبريزى كاتب السر جدّدها فى سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة، لأنه كان يسكن هناك.

و مات المسعودىّ فى يوم الاثنين النصف من ذى الحجة سنة أربع و ستين و ستمائة، ضربه شخص فى دار العدل بسكين، كان يريد أن يقتل بها الأمير عز الدين الحلى نائب السلطنة، فوقعت فى فؤاد المسعودىّ فمات لوقته.

سويقة طغلق: هذه السويقة على رأس الحارة الصالحية مما يلى الجامع الأزهر، عرفت بالأمير سيف الدين طغلق السلاح دار، صاحب حمام طغلق التى بالقرب من الجامع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۲

الأزهر على باب درب المنصورى، و صاحب دار طغلق التى عرفت اليوم بدار المنصورى فى الدرب المذكور، و أوّل ما عمرت هذه السويقة لم يكن فيها غير أربع حوانيت، ثم عمرت عمارة كبيرة لمّا خربت سويقة الصالحية التى كانت مما يلى باب البرقية فى حدود سنة ثمانين و سبعمائة، ثم تلاشت من سنة ست و ثمانمائة كما تلاشى غيرها من الأسواق، و بقى فيها يسير جدّا.

سويقة الصوّانى: هذه السويقة خارج باب النصر و باب الفتوح، بخط بستان ابن صيرم، عرفت بالأمير علاء الدين أبى الحسن علىّ بن مسعود الصوّانىّ، مشدّ الدواوين فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى، و قيل بل قراجا الصوّانى، أحد مقدّمى الحلقة فى أيام الملك المنصور قلاوون، و كان فى حدود سنة إحدى و ثمانين و ستمائة موجودا، و كانت داره هناك، و كان أيضا فى أيام الملك المنصور قلاون، الأمير زين الدين أبو المعالى أحمد بن شرف الدين أبى المفاخر محمد الصوّانى شادّ الدواوين، و كان يسكن بمدينة مصر، و الأمير علم الدين سنجر الصوّانى أحد الأمراء المقدّمين الألوف فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، و الملك المظفر بيبرس، و هو صاحب البئر التى بالباطلية المعروفة ببئر الدرابزين، و عز الدين أيبك الصوّانى.

سويقة البلشون: هذه السويقة خارج باب الفتوح، عرفت بسابق الدين سنقر البلشون، أحد مماليك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب و سلاح درايته، و كان له أيضا بستان بالمقس خارج القاهرة من جوار الدكة يعرف ببستان البلشون.

سويقة اللفت: هذه السويقة كانت خارج باب النصر من ظاهر القاهرة، حيث البئر التى فى شمال مصلى الأموات، المعروف ببئر اللفت. تجاه دار ابن الحاجب، كانت تشتمل على عدّة حوانيت يباع فيها اللفت و الكرنب، و يحمل منها إلى سائر أسواق القاهرة، و يباع اليوم فى بعض هذه الحوانيت الدريس لعلف الدواب.

سويقة زاوية الخدّام: هذه السويقة خارج باب النصر بحرىّ سويقة اللفت، كان فيها عدّة حوانيت يباع فيها أنواع المآكل، فلما كانت سن ست و ثمانمائة خربت، و لم يبق فيها سوى حوانيت لا طائل بها.

سويقة الرملة: هذه السويقة كانت فيما بين سويقة زاوية الخدّام و جامع آل ملك حيث مصلى الأموات، التى هناك كان فيها عدّة حوانيت مملوءة بأصناف المآكل، قد خرب سائرها و لم يبق لها أثر البتة.

سويقة جامع آل ملك: أدركتها إلى سنة ست و ثمانمائة، و هى من الأسواق الكبار، فيها غالب ما يحتاج إليه من الإدام، و قد خربت لخراب ما يجاورها.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۳

سويقة أبى ظهير: كانت تلى سويقة جامع آل ملك أدركتها عامرة.

سويقة السنابطة: كانت هناك، عرفت بقوم من أهل سنباط سكنوا بها، أدركتها أيضا عامرة.

سويقة العرب: هذه السويقة كانت تتصل بالريدانية، خربت فى الغلاء الكائن فى سنة ست و سبعين و سبعمائة، و أدركت حوانيت هذه السويقة، و هى خالية من السكان إلّا يسيرا، و عقودها من اللبن، و يقال له و ما وراءه خراب الحسينية، و كانت فى غاية العمارة، و كان بأوّلها مما يلى الحسينية فرن، أدركته عامر إلى ما بعد سنة تسعين و سبعمائة، بلغنى أنه كان قبل ذلك فى أعوام ستين و سبعمائة يخبز فيه كل يوم نحو سبعة آلاف رغيف، لكثرة من حوله من السكان، و تلك الأماكن اليوم لا ساكن فيها إلّا اليوم، و لا يسمع بها إلّا الصدى.

سويقة العزى: هذه السويقة خارج باب زويلة قريبا من قلعة الجبل، كانت من جملة المقابر التى خارج القاهرة، فيما بين الباب الحديد و الحارات و بركة الفيل، و بين الجبل الذى عليه الآن قلعة الجبل، فلما اختطت هذه الجهة كما تقدّم ذكره عند ذكر ظواهر القاهرة، عرفت هذه السويقة بالأمير عز الدين أيبك العزى نقيب الجيوش، و استشهد على عكا عند ما فتحها الأشرف خليل بن قلاوون فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسعين و ستمائة، و هذه السويقة عامرة بعمارة ما حولها.

سويقة العياطين: هذه السويقة بخط المقس بالقرب من باب البحر، عرفت بالفقير المعتقد مسعود بن محمد بن سالم العياط لسكنه بالقرب منها، و له هناك مسجد بناه فى سنة ثمان و عشرين و سبعمائة، و أخبرنى الشيخ المعمر حسام الدين حسن بن عمر الشهرزورىّ وكيل أبى رحمه اللّه: أن النشو ناظر الخاص فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، طرح على أهل هذه السويقة عدّة أمطار عسل قصب، و ألزمهم فى ثمن كل قنطار بعشرين درهما، فوقفوا إلى السلطان و عيطوا حتى أعفاهم من ذلك، فقيل لها من حينئذ سويقة العياطين، و لفظة عياط عند أهل مصر بمعنى صيّاح، و العياط الصيّاح، و أصل ذلك فى اللغة أن العطعطة تتابع الأصوات و اختلافها فى الحرب، و هى أيضا حكاية أصوات المجان إذا قالوا عيط محيط، و ذلك إذا غلبوا قوما، و قد عطعطوا أو عطعط بالذئب إذا قال له عاط عاط، فحرّف عامّة مصر ذلك و جعلوا العياط الصيّاح، و اشتقوا منه الفعل فأعرف ذلك.

سويقة العراقيين: هذه السويقة بمدينة مصر الفسطاط، و إنما عرفت بذلك لأن قريبا الأزدىّ و زحافا الطائىّ، و كانا من الخوارج، خرجا على زياد ابن أمية بالبصرة، فاتهم زياد بهما جماعة من الأزد، و كتب إلى معاوية بن أبى سفيان يستأذنه فى قتلهم، فأمر بتغريبهم عن أوطانهم، فسيّرهم إلى مصر و أميرها مسلمة بن مخلد، و ذلك فى سنة ثلاث و خمسين،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۴

و كان عددهم نحوا من مائتين و ثلاثين، فأنزلوا بالظاهر أحد خطط مصر، و كان إذ ذاك طرقا، أراد أن يسدّ بهم ذلك الموضع، فنزلوا فى الموضع المعروف بكوم سراج، و كان فضاء، فبنوا لهم مسجدا و اتخذوا سوقا لأنفسهم، فسمى سويقة العراقيين.

ذكر العوائد التى كانت بقصبة القاهرة

إعلم أن قصبة القاهرة ما برحت محترمة، بحيث أنه كان فى الدولة الفاطمية إذا قدم رسول متملّك الروم، ينزل من باب الفتوح و يقبل الأرض و هو ماش إلى أن يصل إلى القصر، و كذلك كان يفعل كل من غضب عليه الخليفة، فإنه يخرج إلى باب الفتوح و يكشف

رأسه و يستغيث بعفو أمير المؤمنين حتى يؤذن له بالمصير إلى القصر، و كان لها عوايد منها:

أن السلطان من ملوك بنى أيوب و من قام بعدهم من ملوك الترك، لا بدّ إذا استقرّ فى سلطنة ديار مصر أن يلبس خلعة السلطان بظاهر القاهرة، و يدخل إليها راكبا و الوزير بين يديه على فرس، و هو حامل عهد السلطان الذى كتبه له الخليفة بسلطنة مصر على رأسهم، و قد أمسكه بيديه، و جميع الأمراء و رجال العساكر مشاة بين يديه منذ يدخل إلى القاهرة من باب الفتوح، أو من باب النصر، إلى أن يخرج من باب زويلة. فإذا خرج السلطان من باب زويلة ركب حينئذ الأمراء و بقية العسكر.

و منها أنه لا يمرّ بقصبة القاهرة حمل تبن، و لا حمل حطب، و لا يسوق أحد فرسا بها، و لا يمرّ بها سقّاء إلّا و راويته مغطاة.

و من رسم أرباب الحوانيت أن يعدّوا عند كل حانوت زيرا مملوءا بالماء مخافة أن يحدث الحريق فى مكان فيطفأ بسرعة، و يلزم صاحب كل حانوت أن يعلق على حانوته قنديلا طول الليل يسرج إلى الصباح، و يقام فى القصبة قوم يكنسون الأزبال و الأتربة و نحوها، و يرشون كل يوم، و يجعل فى القصبة طول الليل عدّة من الخفراء يطوفون بها لحراسة الحوانيت و غيرها، و يتعاهد كل قليل بقطع ما عساه تربى من الأوساخ فى الطرقات حتى لا تعلو الشوارع.

و أوّل من ركب بخلع الخليفة فى القاهرة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. قال القاضى الفاضل فى متجدّدات سنة سبع و ستين و خمسمائة، تاسع شهر رجب وصلت الخلع التى كانت نفذت إلى السلطان الملك العادل نور الدين محمد بن زنكى من الخليفة ببغداد، و هى جبة سوداء و طوق ذهب، فلبسها نور الدين بدمشق إظهارا لشعارها، و سيّرها إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ليلبسها، و كانت أنفذت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۵

له خلعة ذكر أنه استقصرها و استزراها و استصغرها دون قدره، و استقرّ السلطان صلاح الدين بداره، و باتت الخلع مع الواصل بها شاه ملك برأس الطابية، فلما كان العاشر منه خرج قاضى القضاة و الشهود و المقرئون و الخطباء إلى خيمته، و استقرّ المسير بالخلعة، و هو من الأصحاب النجمية، و زينت البلد ابتهاجا بها، و فيه ضربت النوب الثلاث بالباب الناصرى على الرسم النورى فى كل يوم، فأما دمشق فالنوب المضروبة بها خمس على رسم قديم، لأن الأتابكية لها قواعد و رسوم مستقرّة بينهم فى بلادهم. و فى حادى عشرة ركب السلطان بالخلع و شق بين القصرين و القاهرة، و لما بلغ باب زويلة نزع الخلع و أعادها إلى داره، ثم شمّر للعب الأكرة، و لم يزل الرسم كذلك فى ملوك بنى أيوب حتى انقضت أيامهم و قام من بعدهم مماليكهم الأتراك، فجروا فى ذلك على عادة ملوك بنى أيوب إلى أن قام فى مملكة مصر السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ و قتل هولاكو الخليفة المستعصم بالله، و هو آخر خلفاء بنى العباس ببغداد، و قدم على الملك الظاهر أبو العباس، أحمد بن الخليفة الظاهر بالله بن الخليفة الناصر، فى شهر رجب سنة تسع و خمسين و ستمائة، فتلقاه و أكرمه و بايعه و لقبه بالخليفة المستنصر بالله، و خطب باسمه على المنابر، و نقش السكة باسمه، فلما كان فى يوم الاثنين الرابع من شعبان، ركب السلطان إلى خيمة ضربت له بالبستان الكبير من ظاهر القاهرة، و لبس خلعة الخليفة، و هى جبة سوداء و عمامة بنفسجية و طوق من ذهب و سيف بدّاوىّ، و جلس مجلسا عاما حضر فيه الخليفة و الوزير القضاة و الأمراء و الشهود، و صعد القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان كاتب السرّ منبرا نصب له و قرأ تقليد السلطان الذى عهد به إليه الخليفة، و كان بخط ابن لقمان و من إنشائه، ثم ركب السلطان بالخلعة و الطوق و دخل من باب النصر و شق القاهرة، و قد زينت له، و حمل الوزير الصاحب بهاء الدين محمد بن علىّ بن حنا التقليد على رأسه قدّام السلطان، و الأمراء و من دونهم مشاة بين يديه حتى خرج من باب زويلة إلى قلعة الجبل، فكان يوما مشهودا.

و فى ثالث شوّال سنة اثنتين و ستين و ستمائة، سلطن الملك الظاهر بيبرس ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان، و أركبه بشعار السلطنة و مشى قدّامه و شق القاهرة كما تقدّم و سائر الأمراء مشاة من باب النصر إلى قلعة الجبل، و قد زينت القاهرة، و آخر من ركب بشعار السلطنة و خلعة الخلافة و التقليد، السلطان الناصر محمد بن قلاوون، عند دخوله إلى القاهرة من البلاد الشامية بعد قتل

السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين، و استيلائه على المملكة، فى ثامن جمادى الأولى سنة ثمان و تسعين و ستمائة.

و قال المسبّحى فى حوادث سنة اثنتين و ثمانين و ثلاثمائة نودى فى السقائين أن يغطوا روايا الجمال و البغال لئلا تصيب ثياب الناس.

و قال: فى سنة ثلاث و ثمانين و ثلاثمائة أمر العزيز بالله أمير المؤمنين بنصب أزيار الماء مملوءة ماء على الحوانيت، و وقود المصابيح على الدور و فى الأسواق. و فى ثالث ذى الحجة سنة إحدى و تسعين و ثلاثمائة أمر أمير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۶

المؤمنين الحاكم بأمر اللّه الناس بأن يقدوا القناديل فى سائر البلد على جميع الحوانيت، و أبواب الدور، و المحال و السكك الشارعة. و غير الشارعة، ففعل ذلك، و لازم الحاكم بأمر اللّه الركوب فى الليل، و كان ينزل كل ليلة إلى موضع موضع، و إلى شارع شارع، و إلى زقاق زقاق، و كان قد ألزم الناس بالوقيد، فتناظر وافية و استكثروا منه فى الشوارع و الأزقة و زينت القياسر و الأسواق بأنواع الزينة، و صار الناس فى القاهرة و مصر طول الليل فى بيع و شراء، و أكثروا أيضا من وقود الشموع العظيمة، و أنفقوا فى ذلك أموالا عظيمة جللة لأجل التلاهى، و تبسطوا فى المآكل و المشارب و سماع الأغانى، و منع الحاكم الرجال المشاة بين يديه من المشى بقربة، و زجرهم و انتهرهم و قال: لا- تمنعوا أحدا منى، فأحدق الناس به و أكثروا من الدعاء له، و زينت الصاغة و خرج سائر الناس بالليل للتفرّج، و غلب النساء الرجال على الخروج بالليل، و عظم الازدحام فى الشوارع و الطرقات، و أظهر الناس اللهو و الغناء و شرب المسكرات فى الحوانيت و بالشوارع من أوّل المحرّم سنة إحدى و تسعين و ثلاثمائة، و كان معظم ذلك من ليلة الأربعاء تاسع عشرة إلى ليلة الاثنين رابع عشرية، فلما تزايد الأمر و شنع أمر الحاكم بأمر اللّه أن لا تخرج امرأة من العشاء، و متى ظهرت امرأة بعد العشاء نكّل بها، ثم منع الناس من الجلوس فى الحوانيت فامتنعوا، و لم يزل الحاكم على الركوب فى الليل إلى آخر شهر رجب، ثم نودى فى شهر رجب سنة خمس و تسعين و ثلاثمائة أن لا يخرج أحد بعد عشاء الآخرة، و لا يظهر لبيع و لا شراء، فامتنع الناس.

و فى سنة خمس و أربعمائة تزايد فى المحرّم منها وقوع النار فى البلد و كثر الحريق فى عدّة أماكن، فأمر الحاكم بأمر اللّه الناس باتخاذ القناديل على الحوانيت و أزيار الماء مملوءة ماء، و بطرح السقائف التى على أبواب الحوانيت، و الرواشن التى تظلّ الباعة، فأزيل جميع ذلك من مصر و القاهرة.

ذكر ظواهر القاهرة المعزية

اعلم أن القاهرة المعزية يحصرها أربع جهات و هى: الجهة الشرقية، و الجهة الغربية، و الجهة الشمالية التى تسميها أهل مصر البحرية، و الجهة الجنوبية التى تعرف فى أرض مصر بالقبلية.

فأما الجهة الشرقية فإنها من سور القاهرة الذى فيه الآن باب البرقية و الباب الجديد و الباب المحروق، و تنتهى هذه الجهة إلى الجبل المقطم. و أما الجهة الغربية فإنها من سور القاهرة الذى فيه باب القنطرة و باب الخوخة و باب سعادة، و تنتهى هذه الجهة إلى شاطىء النيل. و أما الجهة القبلية فإنها من سور القاهرة الذى فيه باب زويلة، و تنتهى هذه الجهة إلى حدّ مدينة مصر. و أما الجهة البحرية فإنها من سور القاهرة الذى فيه باب النصر و باب الفتوح، و تنتهى هذه الجهة إلى بركة الجب التى تعرف اليوم ببركة الحاج، و قد كانت هذه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۷

الجهة الشرقية عند ما وضعت القاهرة فضاء فيما بين السوروبين الجبل لا بنيان فيه البتة، و ما زال على هذا إلى أن كانت الدولة التركية، فقيل لهذا الفضاء الميدان الأسود، و ميدان القبق، و سيرد ذكر هذا الميدان إن شاء اللّه تعالى.

فلما كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون، عمل هذا الميدان مقبرة لأموات المسلمين، و بنيت فيه الترب الموجودة الآن كما ذكر عند ذكر المقابر من هذا الكتاب، و كانت الجهة الغربية تنقسم قسمين، أحدهما برّ الخليج الشرقىّ، و الآخر برّ الخليج الغربىّ، فأما

برّ الخليج الشرقى، فكان عليه بستان الأمير أبى بكر محمد بن طغج الإخشيد و ميدانه، و عرف هذا البستان بالكافورى، فلما اختط القائد جوهر القاهرة أدخل هذا البستان فى سور القاهرة، و جعل بجانبه الميدان الذى يعرف اليوم بالخرشتف، فصارت القاهرة تشرف من غربيها على الخليج، و بنيت على هذا الخليج مناظر و هى: منظرة اللؤلؤة، و منظرة دار الذهب، و منظرة غزالة، كما ذكر عند ذكر المناظر من هذا الكتاب. و كان فيما بين البستان الكافورى و المناظر المذكورة و بين الخليج، شارع تجلس فيه عامة الناس للتفرّج على الخليج و ما وراءه من البساتين و البرك، و يقال لهذا الشارع اليوم بين السورين، و يتصل بالبستان الكافورى و ميدان الإخشيد بركة الفيل، و بركة قارون، و يشرف على بركة قارون الدور التى كانت متصلة بالعسكر ظاهر مدينة فسطاط مصر، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، عند ذكر البرك و عند ذكر العسكر. و أما برّ الخليج الغربىّ، فإن أوّله الآن من موردة الخلفاء فيما بين خط الجامع الجديد خارج مصر و بين منشأة المهرانىّ، و آخره أرض التاج و الخمس وجوه و ما بعدها من بحرىّ القاهرة، و كان أوّل هذا الخليج عند وضع القاهرة بجانب خط السبع سقايات، و كان ما بين خط السبع سقايات و بين المعاريج بمدينة مصر غامرا بماء النيل، كما ذكر فى ساحل مصر من هذا الكتاب، و كانت القنطرة التى يفتح سدّها عند وفاء النيل ست عشرة ذراعا خلف السبع سقايات، كما ذكر عند ذكر القناطر من هذا الكتاب، و كان هناك منظرة السكرة التى يجلس فيها الخليفة يوم فتح الخليج، و لها بستان عظيم، و يعرف موضعه اليوم بالمريس، و يتصل ببستان منظرة السكرة جنان الزهرى، و هى من خط قناطر السباع الموجودة الآن بحذاء خط السبع سقايات إلى أراضى اللوق، و يتصل بالزهرى عدّة بساتين إلى المقس، و قد صار موضع الزهرى و ما كان بجواره على برّ الخليج من البساتين يعرف بالحكورة، من أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى وقتنا هذا، كما ذكر عند ذكر الأحكار من هذا الكتاب.

و كان الزهرىّ و ما بجواره من البساتين التى على برّ الخليج الغربى و المقس، كل ذلك مطلّ على النيل، و ليس لبرّ الخليج الغربىّ كبير عرض، و إنما يمرّ النيل فى غربىّ البساتين على الموضع الذى يعرف اليوم باللوق إلى المقس، فيصير المقس هو ساحل القاهرة، و تنتهى المراكب إلى موضع جامع المقس الذى يعرف اليوم بجامع المقسى، فكان ما بين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۸

الجامع المذكور و منية عقبة التى ببرّ الجيزة بحر النيل، و لم يزل الأمر على ذلك إلى ما بعد سنة سبعمائة. إلّا أنه كان قد انحسر ماء النيل بعد الخمسمائة من سنى الهجرة عن أرض بالقرب من الزهرىّ، و انحسر أيضا عن أرض تجاه البعل الذى فى بحرى القاهرة، عرفت هذه الأرض بجزيرة الفيل، و ما برح ماء النيل ينحسر عن شىء بعد شىء إلى ما بعد سنة سبعمائة، فبقيت عدّة رمال فيما بين منشأة المهرانىّ و بين جزيرة الفيل، و فيما بين المقس و ساحل النيل، عمر الناس فيها الأملاك و المناظر و البساتين من بعد سنة اثنتى عشرة و سبعمائة، و حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون فيها الخليج المعروف اليوم بالخليج الناصرىّ، فصار برّ الخليج الغربىّ بعد ذلك أضعاف ما كان أوّلا من أجل انطراد ماء النيل عن برّ مصر الشرقىّ، و عرف هذا البرّ اليوم بعدّة مواضع، و هى فى الجملة خط منشأة المهرانىّ، و خط المريس، و خط منشأة الكتبة، و خط قناطر السباع، و خط ميدان السلطان، و خط البركة الناصرية، و خط الحكورة، و خط الجامع الطبرسى، و ربع بكتمر، و زريبة السلطان، و خط باب اللوق، و قنطرة الخرق، و خط بستان العدّة، و خط زريبة قوصون، و خط حكر ابن الأثير، و فم الخور، و خط الخليج الناصرى، و خط بولاق، و خط جزيرة الفيل، و خط الدكة، و خط المقس، و خط بركة قرموط، و خط أرض الطبالة، و خط الجرف، و أرض البعل، و كوم الريش، و ميدان القمح، و خط باب القنطرة، و خط باب الشعرية، و خط باب البحر، و غير ذلك. و سيأتى من ذكر هذه المواضع ما يكفى و يشفى إن شاء اللّه تعالى.

و كانت جهة القاهرة القبلية من ظاهرها ليس فيها سوى بركة الفيل و بركة قارون، و هى فضاء يرى من خرج من باب زويلة عن يمينه الخليج و موردة السقائين، و كانت تجاه باب الفتوح، و يرى عن يساره الجبل، و يرى تجاهه قطائع ابن طولون التى تتصل بالعسكر، و يرى جامع ابن طولون و ساحل الحمراء الذى يشرف عليه جنان الزهرىّ، و يرى بركة الفيل التى كان يشرف عليها الشرف الذى فوقه قبة الهواء، و يعرف اليوم هذا الشرف بقلعة الجبل، و كان من خرج من مصلى العيد بظاهر مصر يرى بركتى الفيل و قارون و النيل.

فلما كانت أيام الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبى على منصور بن العزيز بالله أبى منصور نزار بن الإمام المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، عمل خارج باب زويلة بابا عرف بالباب الجديد، و اختط خارج باب زويلة عدّة من أصحاب السلطان، فاختطت المصامدة حارة المصامدة، و اختطت اليانسية و المنجبية و غيرهما كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، فلما كانت الشدّة العظمى فى خلافة المستنصر بالله، اختلت أحوال مصر و خربت خرابا شنيعا، ثم عمر خارج باب زويلة فى أيام الخليفة الآمر بأحكام اللّه، و وزارة المأمون محمد بن فاتك بن البطائحىّ بعد سنة خمسمائة، فلما زالت الدولة الفاطمية، هدم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حارة المنصورة التى كانت سكن العبيد خارج باب زويلة، و عملها بستانا،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۱۹۹

فصار ما خرج عن باب زويلة بساتين إلى المشهد النفيسىّ، و بجانب البساتين طريق يسلك منها إلى قلعة الجبل التى أنشأها السلطان صلاح الدين المذكور على يد الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدىّ، و صار من يقف على باب جامع ابن طولون يرى باب زويلة، ثم حدثت العمائر التى هى الآن خارج باب زويلة بعد سنة سبعمائة، و صار خارج باب زويلة الآن ثلاثة شوارع، أحدها ذات اليمين، و الآخر ذات الشمال، و الشارع الثالث تجاه من خرج من باب زويلة، و هذه الشوارع الثلاثة تشتمل على عدّة أخطاط.

فأما ذات اليمين فإن من خرج من باب زويلة الآن يجد عن يمينه شارعا سالكا ينتهى به فى العرض إلى الخليج، حيث القنطرة التى تعرف بقنطرة الخرق، و ينتهى به فى الطول من باب زويلة إلى خط الجامع الطولونى، و جميع ما فى هذا الطول و العرض من الأماكن كان بساتين إلى ما بعد السبعمائة. و فى هذه الجهة اليمنى، خط دار التفاح، و سوق السقطيين، و خط تحت الربع، و خط القشاشين، و خط قنطرة الخرق، و خط شق الثعبان، و خط قنطرة آقسنقر، و خط الحبانية، و بركة الفيل، و خط قبو الكرمانىّ، و خط قنطرة طقزدمر، و المسجد المعلق، و خط قنطرة عمر شاه، و خط قناطر السباع، و خط الجسر الأعظم، و خط الكبش، و الجامع الطولونى، و خط الصليبة، و خط الشارع، و ما هناك من الحارات التى ذكرت عند ذكر الحارات من هذا الكتاب.

و أما ذات اليسار، فإن من خرج من باب زويلة الآن يجد عن يساره شارعا ينتهى به فى العرض إلى الجبل، و ينتهى به فى الطول إلى القرافة، و جميع ما فى هذه الجهة اليسرى كان فضاء لا عمارة فيه البتة، إلى ما بعد سنة خمسمائة من الهجرة، فلما عمر الوزير الصالح طلائع بن رزيك جامع الصالح الموجود الآن خارج باب زويلة، صار ما وراءه إلى نحو قطائع ابن طولون مقبرة لأهل القاهرة، إلى أن زالت دولة الخلفاء الفاطميين، و أنشأ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قلعة الجبل على رأس الشرف المطلّ على القطائع، و صار يسلك إلى القلعة من هذه الجهة اليسرى فيما بين المقابر و الجبل، ثم حدثت بعد المحن هذه العمائر الموجودة هناك شيئا بعد شىء، من سنة سبعمائة، و صار فى هذه الشقة خط سوق البسطيين، و خط الدرب الأحمر، و خط جامع المارديني، و خط سوق الغنم، و خط التبانة، و خط باب الوزير، و قلعة الجبل، و الرميلة، و خط القبيبات، و خط باب القرافة.

و أما ما هو تجاه من خرج من باب زويلة فيعرف بالشارع، و قد تقدّم ذكره عند ذكر الأسواق من هذا الكتاب، و هو ينتهى بالسالك إلى خط الصليبة المذكورة آنفا، و إلى خط الجامع الطولونىّ، و خط المشهد النفيسى، و إلى العسكر، و كوم الجارح، و غير ذلك من بقية خطط ظواهر القاهرة و مصر، و كانت جهة القاهرة البحرية من ظاهرها فضاء ينتهى إلى بركة الجب، و إلى منية الاصبغ التى عرفت بالخندق، و إلى منية مطر التى تعرف بالمطرية،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۰

و إلى عين شمس، و ما وراء ذلك، إلّا أنه كان تجاه القاهرة بستان ريدان، و يعرف اليوم بالريدانية، و عند مصلّى العيد خارج باب النصر حيث يصلى الآن على الأموات، كان ينزل هناك من يسافر إلى الشام.

فلما كان قبل سنة خمسمائة، و مات أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة سبع و ثمانين و أربعمائة، بنى خارج باب النصر له تربة دفن فيها و بنى أيضا خارج باب الفتوح منظرة قد ذكر خبرها عند ذكر المناظر من هذا الكتاب، و صار أيضا فيما بين باب الفتوح و المطرية

بساتين قد تقدّم خبرها، ثم عمرت الطائفة الحسينية بعد سنة خمسمائة خارج باب الفتوح عدّة منازل، اتصلت بالخندق، و صار خارج باب النصر مقبرة إلى ما بعد سنة سبعمائة، فعمر الناس به حتى اتصلت العمائر من باب النصر إلى الريدانية، و بلغت الغاية من العمارة، ثم تناقصت من بعد سنة تسع و أربعين و سبعمائة إلى أن فحش خرابها من حين حدثت المحن فى سنة ست و ثمانمائة، فهذا حال ظواهر القاهرة منذ اختطت و إلى يومنا هذا، و يحتاج ما ذكر هنا إلى مزيد بيان و اللّه أعلم.

ذكر ميدان القبق

هذا الموضع خارج القاهرة من شرقيها، فيما بين النقرة التى ينزل من قلعة الجبل إليها، و بين قبة النصر التى تحت الجبل الأحمر، و يقال له أيضا الميدان الأسود، و ميدان العيد، و الميدان الأخضر، و ميدان السباق، و هو ميدان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداريّ الصالحيّ النجميّ، بنى به مصطبة فى المحرّم من سنة ست و ستين و ستمائة، عند ما احتفل برمى النشاب و أمور الحرب، و حثّ الناس على لعب الرمح و رمى النشاب و نحو ذلك، و صار ينزل كل يوم إلى هذه المصطبة من الظهر، فلا يركب منها إلى العشاء الآخرة، و هو يرمى و يحرّض الناس على الرمى و النضال و الرهان، فما بقى أمير و لا مملوك إلّا و هذا شغله، و توفر الناس على لعب الرمح و رمى النشاب، و ما برح من بعده من أولاده و الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفىّ الصالحيّ النجميّ، و الملك الأشرف خليل بن قلاوون يركبون فى الموكب لهذا الميدان، و تقف الأمراء و المماليك السلطانية تسابق بالخيل فيه قدّامهم، و تنزل العساكر فيه لرمى القبق.

و القبق عبارة عن خشبة عالية جدّا، تنصب فى براح من الأرض، و يعمل بأعلاها دائرة من خشب، و تقف الرماة بقسيّها و ترمى بالسهام جوف الدائرة لكى تمرّ من داخلها إلى غرض هناك، تمرينا لهم على إحكام الرمى. و يعبّر عن هذا بالقبق، فى لغة الترك.

قال جامع السيرة الظاهرية: و فى سابع عشر المحرّم من سنة سبع و ستين و ستمائة، حثّ السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداريّ جميع الناس على رمى النشاب و لعب الرمح، خصوصا خواصه و مماليكه، و نزل إلى الفضاء بباب النصر ظاهر القاهرة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۱

و يعرف بميدان العيد، و بنى مصطبة هناك، و أقام ينزل فى كل يوم من الظهر، و يركب منها عشاء الآخرة، و هو واقف فى الشمس يرمى و يحرّض الناس على الرمى و الرهان، فما بقى أمير و لا مملوك إلا و هذا شغله، و استمرّ الحال فى كل يوم على ذلك حتى صارت تلك الأمكنة لا تسع الناس، و ما بقى لأحد شغل إلّا لعب الرمح و رمى النشاب. و فى شهر رمضان سنة اثنتين و سبعين و ستمائة، تقدّم السلطان الملك الظاهر إلى عساكره بالتأهب للركوب و اللعب بالقبق و رمى النشاب، و اتفقت نادرة غريبة، و هو أنه أمر برش الميدان الأسود تحت القلعة لأجل الملعب، فشرع الناس فى ذلك، و كان يوما شديد الحرّ، فأمر السلطان بتبطيل الرش رحمة للناس، و قال: الناس صيام و هذا يوم شديد الحرّ، فبطل الرش، و أرسل اللّه تعالى مطرا جودا استمرّ ليلتين و يوما حتى كثر الوحل و تلبدت الأرض و سكن العجاج و برد الجوّ و لطف الهواء، فوكل السلطان من يحفظه من السوق فيه يوم اللعب، و هو يوم الخميس السادس و العشرون من شهر رمضان، و أمر بركوب جماعة لطيفة من كل عشرة اثنان، و كذلك من كل أمير، و من كل مقدّم لئلا تضيق الدنيا بهم. فركبوا فى أحسن زىّ، و أجمل لباس، و أكمل شكل، و أبهى منظر، و ركب السلطان و معه من خواصه و مماليكه ألوف، و دخلوا فى الطعان بالرماح، فكل من أصاب خلع عليه السلطان، ثم ساق فى مماليكه الخواص خاصة، و رتبهم أجمل ترتيب، و اندفق بهم اندفاق البحر، فشاهد الناس أبهة عظيمة، ثم أقيم القبق و دخل الناس لرمى النشاب، و جعل لمن أصاب من المفاردة رجال الحلقة و البحرية الصالحية و غيرهم بغلطاقا بسنجاب، و للأمراء فرسا من خيله الخاص بتشاهيره و مراواته الفضية و الذهبية و مزاخمه، و ما زال فى هذه الأيام على هذه الصورة يتنوّع فى دخوله و خروجه، تارة بالرماح، و تارة بالنشاب، و تارة بالدبابيس، و تارة بالسيوف مسلولة، و ذلك أنه ساق على عادته فى اللعب و سلّ سيفه، و سلّ مماليكه سيوفهم، و حمل هو و مماليكه حملة رجل واحد، فرأى

الناس منظرا عجيبا، و أقام على ذلك كل يوم من بكرة النهار إلى قريب المغرب، و قد ضربت الخيام للنزول للوضوء و الصلاة، و تنوّع الناس فى تبديل العدد و الآلات، و تفاخروا و تكاثروا، فكانت هذه الأيام من الأيام المشهودة، و لم يبق أحد من أبناء الملوك، و لا وزير، و لا أمير كبير و لا صغير، و لا مفردى، و لا مقدّم من مقدّمى الحلقة، و مقدّمى البحرية الصالحية، و مقدّمى المماليك الظاهرية البحرية، و لا صاحب شغل، و لا حامل عصا فى خدمة السلطان على بابه، و لا حامل طير فى ركاب السلطان، و لا أحد من خواص كتاب السلطان، إلّا و شرّف بما يليق به على قدر منصبه، ثم تعدّى إحسان السلطان لقضاة الإسلام و الأئمة و شهود خزانة السلطان، فشرّفهم جميعهم، ثم الولاة كلهم، و أصبحوا بكرة يوم الأحد ثامن عشرى شهر رمضان لابسين الخلع جميعهم فى أحسن صورة و أبهج زى و أبهى شكل و أجمل زينة، بالكلوتات الزركش بالذهب، و الملابس التى ما سمع بأن أحدا جاد بمثلها، و هى ألوف، و خدم الناس جميعهم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۲

و قبلوا الأرض و عليهم الخلع، و ركبوا و لعبوا نهارهم على العادة، و الأموال تفرّق و الأسمطة تصف، و الصدقات تنفق، و الرقاب تعتق. و ما زال إلى أن أهلّ هلال شوّال، فقام الناس و طلعوا للهناء، فجلس لهم، و عليهم خلعه، ثم ركب يوم العيد إلى مصلاه فى خيمة بشعار السلطنة و أبّهة الملك، فصلى ثم طلع قلعة الجبل و جلس على الأسمطة، و كان الاحتفال بها كبيرا، و أكل الناس، ثم انتهبه الفقراء، و قام إلى مقرّ سلطانه بالقبة السعيدة، و قد غلقت و فرشت بأنواع الستور و الكلل و الفرش، و كان قد تقدّم إلى الأمراء بإحضار أولادهم، فأحضروا، و خلع عليهم الخلع المفصلة على قدرهم، فلما كان هذا اليوم أحضروا و ختنوا بأجمعهم بين يدى السلطان، و أخرجوا فحملوا فى المحفات إلى بيوتهم، و عمّ الهناء كل دار، ثم أحضر الأمير نجم الدين خضر ولد السلطان، فختن و رمى للناس جملة من الأموال اجتمع منها خزانة ملك كبير، فرّقت على من باشر الختان من الحكماء و المزينين و غيرهم.

و انقضت هذه الأيام، و جرى السلطان فيها على عادته كما كان، من كونه لم يكلّف أحدا من خلق اللّه تعالى بهدية يهديها، و لا تحفة يتحفه بها فى مثل هذه المسرّة، كما جرت عادة من تقدّمه من الملوك، و لم يبق من لا شمله إحسانه غير أرباب الملاهى و الأغانى، فإنه كان فى أيامه لم ينفق لهم مبلغ البتة.

و ممن لعب بهذا الميدان القبق، السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون، و عمل فيه المهمّ الذى لم يعمل فى دولة ملوك الترك بمصر مثله، و ذلك أن خوندار دوتكين ابنة نوكيه، و يقال نوغية السلحدارية، اشتملت من السلطان الملك الأشرف على حمل، فظنّ أنها تلد ابنا ذكرا يرث الملك من بعده، فأخذ عند ما قاربت الوضع فى الاحتفال، و رسم لوزيره الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس أن يكتب إلى دمشق بعمل مائة شمعدان نحاس مكفت بألقاب السلطان، و مائة شمعدان أخر، منها خمسون من ذهب، و خمسون من فضة، و خمسين سرجا من سروج الزركش، و مائة و خمسين سرجا من المخيش، و ألف شمعة و أشياء كثيرة غير ذلك، فقدّر اللّه تعالى أنها ولدت بنتا، فانقبض لذلك و كره إبطال ما قد اشتهر عنه عمله، فأظهر أنه يريد ختان أخيه محمد، و ابن أخيه مظفر الدين موسى بن الملك الصالح علىّ بن قلاوون، فرسم لنقيب الجيش و الحجاب بإعلام الأمراء و العسكر أن يلبسوا كلهم آلة الحرب من السلاح الكامل، هم و خيولهم، و يصيروا بأجمعهم كذلك فى الميدان الأسود خارج باب النصر، فاهتم الأمراء و العسكر اهتماما كبيرا لذلك، و أخذوا فى تحسين العدد و بالغوا فى التأنق، و تنافسوا فى إظهار التجمل الزائد، و خرج فى اليوم الرابع من إعلام الأمراء السوقة، و نصبوا عدّة صواوين فيها سائر البقول و المآكل، فصار بالميدان سوق عظيم، و نزل السلطان من قلعة الجبل بعساكره و عليهم لامة الحرب، و قد خرج سائر من فى القاهرة و مصر من الرجال و النساء إلّا من خلفه العذر لرؤية السلطان، فأقام السلطان يومه، و حصل فى ذلك اليوم للناس بهذا الاجتماع من السرور ما يعزّ وجود مثله، و أصبح السلطان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۳

و قد استعدّ العسكر بأجمعه لرمى القبق، و رسم للحجاب بأن لا يمنعوا أحدا من الجند، و لا من المماليك، و لا من غيرهم من الرمى،

و رسم للأمير بيسرى و الأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ أمير سلاح، أن يتقدّما الناس فى الرمى، فاستقبل الأمير بيسرى القبق و تحته سرج قد صنع قربوسه الذى من خلفه وطيئا، فصار مستلقيا على قفاه، و هو يرمى و يصيب يمنة و يسرة، و الناس بأسرهم قد اجتمعوا للنظر حتى ضاق بهم الفضاء، فلما فرغ دخل أمير سلاح من بعده، و تلاه الأمراء على قدر منازلهم واحدا واحدا، فرموا. ثم دخل بعد الأمراء مقدّموا الحلقة، ثم الأجناد و السلطان يعجب برميهم، و تزايد سروره حتى فرغ الرمى، فعاد إلى مخيّمه و دار السقاة على الأمراء بأوانى الذهب و الفضة و البلور يسقون السكّر المذاب، و شرب الأجناد من أحواض قد ملئت من ذلك، و كانت عدّتها مائة حوض، فشربوا و لهوا و استمرّوا على ذلك يومين، و فى اليوم الثالث ركب السلطان و استدعى الأمير بيسرى و أمره بالرمى، فسأل السلطان أن يعفيه من الرمى، و يمنّ عليه بالتفرّج فى رمى النشاب من الأمراء و غيرهم، فأعفاه و وقف مع السلطان فى منزلته، و تقدّم طفج، و عين الغزال، و أمير عمر، و كيلكدى، و قشتمر العجمى، و برلغى، و أعناق الحسامى، و بكتوت، و نحو الخمسين من أمراء السلطان الشبان الذين أنشأهم من خاصكيته، و عليهم تتريات حرير أطلس بطرازات زركش و كلوتات زركش و حوائص ذهب، و كانوا من الجمال البارع بحيث يذهب حسنهم الناظر، و يدهش جمالهم الخاطر، فتعاظمت مسرّة السلطان برؤيتهم، و كثر إعجابه، و داخله العجب و استخفه الطرب، و ارتجب الدنيا بكثرة من حضر هناك من أرباب الملاهى و الأغانى و أصحاب الملعوب.

فلما انقضى اللعب، عاد السلطان إلى دهليزه فى زينته، و مرح فى مشيته تيها و صلفا، فما هو إلّا أنّ عبر الدهليز و الناس من الطرب و السرور فى أحسن شىء يقع فى العالم، و إذا بالجوّ قد أظلم، و ثار ريح عاصف أسود إلى أن طبق الأرض و السماء، و قلع سائر تلك الخيم، و ألقى الدهليز السلطانىّ، و تزايد حتى أن الرجل لا يرى من بجانبه، فاختلط الناس و ماجوا و لم يعرف الأمير من الحقير، و أقبلت السوقة و العامّة تنهب، و ركب السلطان يريد النجاة بنفسه إلى القلعة، و تلاحق العسكر به و اختلفوا فى الطرق لشدّة الهول، فلم يعبر إلى القلعة حتى أشرف على التلف، و حصل فى هذا اليوم من نهب الأموال و انتهاك الحرم و النساء ما لا يمكن وصفه، و ما ظنّ كل أحد إلّا أنّ الساعة قد قامت، فتنغص سرور الناس و ذهب ما كان هناك، و ما استقرّ السلطان بالقلعة حتى سكن الريح و ظهرت الشمس و كأن ما كان لم يكن، فأصبح السلطان و طلب أرباب الملاهى بأجمعهم، و حضر الأمراء الختان أخيه و ابن أخيه، و عمل مهمّ عظيم فى القاعة التى أنشأها بالقلعة، و عرفت بالأشرفية، و قد ذكر خبر هذا المهمّ عند ذكر القلعة من هذا الكتاب.

و ما برح هذا الميدان فضاء من قلعة الجبل إلى قبة النصر ليس فيه بنيان، و للملوك فيه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۴

من الأعمال ما تقدّم ذكره إلى أن كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون، فترك النزول إليه و بنى مسطبة برسم طعم طيور الصيد بالقرب من بركة الحبش، و صار ينزل هنالك، ثم ترك تلك المسطبة فى سنة عشرين و سبعمائة، و عاد إلى ميدان القبق هذا و ركب إليه على عادة من تقدّمه من الملوك، إلى أن بنيت فيه الترب شيئا بعد شىء حتى انسدّت طريقه، و اتصلت المبانى من ميدان القبق إلى تربة الروضة خارج باب البرقية، و بطل السباق منه، و رمى القبق فيه، من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، كما ذكر عند ذكر المقابر من هذا الكتاب، و أنا أدركت عواميد من رخام قائمة بهذا الفضاء تعرف بين الناس بعواميد السباق، بين كل عمودين مسافة بعيدة، و ما برحت قائمة هنالك إلى ما بعد سنة ثمانين و سبعمائة، فهدمت عند ما عمّر الأمير يونس الدوادار الظاهرىّ تربته تجاه قبة النصر، ثم عمّر أيضا الأمير قجماس ابن عمّ الملك الظاهر برقوق تربة هنالك، و تتابع الناس فى البنيان إلى أن صار كما هو الآن و اللّه أعلم.

ذكر برّ الخليج الغربى

اشارة

قد تقدّم أنّ هذا الخليج حفر قبل الإسلام بدهر، و أن عمرو بن العاص رضى اللّه عنه جدّد حفره فى عام الرمادة، بإشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، حتى صبّ ماء النيل فى بحر القلزم ، و جرت فيه السفن بالغلال و غيرها حتى عبرت منه إلى البحر الملح، و أنه ما برح على ذلك إلى سنة خمسين و مائة، فطمّ و لم يبق منه إلا ما هو موجود الآن، إلّا أنّ فم هذا الخليج الذى يصبّ فيه الماء من بحر النيل، لم يكن عند حفره هذا الفم الموجود الآن، و لست أدرى أين كان فمه عند ابتداء حفره فى الجاهلية، فإن مصر فتحت و ماء النيل عند الموضع الذى فيه الآن جامع عمرو بن العاص بمصر، و جميع ما بين الجامع و ساحل النيل الآن انحسر عنه الماء بعد الفتح، و آخر ما كان ساحل مصر من عند سوق المعاريج الذى هو الآن بمصر إلى تجاه الكبش من غربيه، و جميع ما هو الآن موجود من الأرض التى فيما بين خط السبع سقايات إلى سوق المعاريج انحسر عنه الماء شيئا بعد شىء، و غرس بساتين، فعمل عبد العزيز بن مروان أمير مصر قنطرة على فم هذا الخليج فى سنة تسع و ستين من الهجرة بأوّله، عند ساحل الحمراء، ليتوصل من فوق هذه القنطرة إلى جنان الزهرىّ الآتى ذكرها إن شاء اللّه تعالى. و موضع هذه القنطرة بداخل حكر أقبغا المجاور لخط السبع سقايات، و ما برحت هذه القنطرة عندها السدّ الذى يفتح عند الوفاء إلى ما بعد الخمسمائة من الهجرة، فانحسر ماء النيل عن الأرض، و غرست بساتين، فعمل الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى هذه القنطرة التى تعرف اليوم بقنطرة السدّ، خارج مصر، ليتوصل من فوقها إلى بستان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۵

الخشاب، و زيد فى طول الخليج ما بين قنطرة السباع الآن و بين قنطرة السدّ المذكورة، و صار ما فى شرقيه مما انحصر عنه الماء بستانا عرف ببستان الحارة، و ما فى غربيه يعرف ببستان المحلىّ، و كان بطرف خط السبع سقايات كنيسة الحمراء، و عدّة كنائس أخر، بعضها الآن بحكر أقبغا، تعرف بزاوية الشيخ يوسف العجمىّ، لسكناه بها عند ما هدمت بعد سنة عشرين و سبعمائة، و ما برحت هذه البساتين موجودة إلى أن استولى عليها الأمير أقبغا عبد الواحد استدار الملك الناصر محمد بن قلاون، و قلع أخشابها و أذن للناس فى عمارتها، فحكرها الناس و بنوا فيها الآدر و غيرها، فعرفت بحكر أقبغا.

و بأوّل هذا الخليج الآن من غربيه منشأة المهرانىّ، و قد تقدّم خبرها فى هذا الكتاب عند ذكر مدينة مصر، و يجاور منشأة المهرانىّ بستان الخشاب، و بعضه الآن يعرف بالمريس، و بعضه عمله الملك الناصر محمد بن قلاون ميدانا يشرف على النيل من غربيه، و يعرف ساحل النيل هناك بموردة الجبس، كما ذكر عند ذكر الميادين من هذا الكتاب، و يجاور بستان الخشاب جنان الزهرىّ، و هذه المواضع التى ذكرت كلها مما انحسر عنه النيل، ما خلا جنان الزهرىّ، فإنها من قبل ذلك، و ستقف على خبرها و خبر ما يجاورها من الأحكار إن شاء اللّه تعالى.

ذكر الأحكار التى فى غربىّ الخليج

قال ابن سيده: الاحتكار، جمع الطعام و نحوه مما يؤكل و احتباسه انتظار وقت الغلاء به. و الحكرة و الحكر جميعا: ما احتكر و حكره يحكره حكرا ظلمه و تنقصه و أساء معاشرته.

انتهى.

فالتحكير على هذا: المنع. فقول أهل مصر: حكر فلان أرض فلان، يعنون منع غيره من البناء عليها.

حكر الزهرىّ: هذا الحكر يدخل فيه جميع برّ ابن التبان الآتى ذكره إن شاء اللّه تعالى، و شق الثعبان، و بطن البقرة، و سويقة القيمرىّ، و سويقة صفية، و بركة الشقاف، و بركة السباعين، و قنطرة الخرق، و حدرة المرادنيين، و حكر الحلبىّ، و حكر البواشقىّ، و حكر كرجى و ما بجانبه إلى قناطر السباع، و ميدان المهارى إلى الميدان الكبير السلطانىّ بموردة الجبس. و كان هذا قديما يعرف بجنان الزهرىّ، ثم عرف ببستان الزهرى.

قال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس فى تاريخ الغرباء: عبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف الزهرىّ، يكنى أبا العباس، و أمّه أم عثمان بنت عثمان بن العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، مدنىّ قدم مصر، و ولى الشرط بفسطاط مصر، و حدّث يروى عن مالك بن أنس و سفيان بن عيينة، روى عنه من أهل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۶

مصر أصبغ بن الفرج، و سعيد بن أبى مريم، و عثمان بن صالح، و سعيد بن عفير، و غيرهم. و هو صاحب الجنان التى بالقنطرة، قنطرة عبد العزيز بن مروان، تعرف بجنان الزهرىّ، و هو حبس على ولده إلى اليوم. و كان كتاب حبس الجنان عند جدّى يونس بن عبد الأعلى وديعة عليه، مكتوب وديعة لولد ابن العباس الزهرىّ لا يدفع لأحد إلّا أن يغرى به سلطان، و الكتاب عندى إلى الآن. توفى عبد الوهاب بن موسى بمصر فى رمضان سنة عشرة و مائتين.

و قال القاضى أبو عبد اللّه محمد بن سلامة بن جعفر القضاعىّ فى كتاب معرفة الخطط و الآثار: حبس الزهرىّ هو الجنان التى عند القنطرة بالحمراء، و هو عبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز الزهرىّ، قدم مصر و ولى الشرط بها، و الجنان حبس على ولده.

و قال القاضى تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوّج فى كتاب إيقاظ المتغفل و اتعاظ المتأمّل: حبس الزهرىّ فذكره ثم قال: و هذا الحبس أكثر الآن أحكار، ما بين بركة الشقاف و خليج شق الثعبان و قد استولى وكيل بيت المال على بعضه، و باع من أرضه و آجرّ منها، و اجتمع هو و محبسه بين يدى اللّه عز و جلّ. انتهى.

و لما طال الأمد صار للزهرىّ عدّة بساتين، منها بستان أبى اليمان، و بستان السراج، و بستان الحبانية، و بستان عزاز، و بستان تاج الدولة قيماز، و بستان الفرغانىّ، و بستان أرض الطيلسان، و بستان البطرك، و غيط الكردىّ، و غيط الصفار، ثم عرف ببرّ ابن التبان بعد ذلك.

قال القاضى محيى الدين عبد اللّه بن عبد الظاهر فى كتاب الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة: شاطىء الخليج المعروف ببرّ التبان.

ابن التبان المذكور: هو رئيس المراكب فى الدولة المصرية، و كان له قدر و أبهة فى الأيام الآمرية و غيرها، و لما كان فى الأيام الآمرية، تقدّم إلى الناس بالعمارة قبالة الخرق غربىّ الخليج، فأوّل من ابتدأ و عمر الرئيس ابن التبان، فإنه أنشأ مسجدا و بستانا و دارا، فعرفت تلك الخطة به إلى الآن، ثم بنى سعد الدولة والى القاهرة، و ناهض الدولة علىّ، و عدىّ الدولة أبو البركات محمد بن عثمان، و جماعة من فراشى الخاص. و اتصلت العمارة بالآجرّ و السقوف النقية و الأبواب المنظومة من باب البستان، المعروف بالعدّة على شاطىء الخليج الغربىّ، إلى البستان المعروف بأبى اليمن. ثم ابتنى جماعة غيرهم ممن يرغب فى الأجرة و الفرجة على التراع التى تتصرّف من الخليج إلى الزهرىّ و البساتين من المنازل و الدكاكين شيئا كثيرا، و هى الناحية المعروفة الآن بشق الثعبان و سويقة القيمرىّ، إلى أن وصل البناء إلى قبالة البستان المعروف بنور الدولة الربعىّ، و هذا البستان معروف فى هذا الوقت بالخطة المذكورة، و هو متلاشى الحال بسبب ملوحة بئره، و بستان نور الدولة هو

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۷

الآن الميدان الظاهرىّ و المناظر به، و تفرّقت الشوارع و الطرق، و سكنت الدكاكين و الدور، و كثر المترّددون إليه و المعاش فيه، إلى أن استناب والى القاهرة بها نائبا عنه، ثم تلاشت تلك الأحوال و تغيرت إلى أن صارت أطلالا، و عفت تلك الآثار. ثم بعد ذلك حكر آدر أو بساتين، و بنى على غير تلك الصفة المقدّم ذكرها، و بنى على ما هو عليه، ثم حكر بستان الزهرىّ آدرا، و لم يبق منه إلّا قطعة كبيرة بستانا، و هو الآن أحكار تعرف بالزهرىّ، و يعرف البرّ جميعه ببرّ ابن التبان إلى هذا الوقت، و ولايته تعرف بولاية الحكمر، و بنى به حمام الشيخ نجم الدين بن الرفعة، و حمام تعرف بالقيمرى، و حمام تعرف بحمّام الداية انتهى.

و بستان أبى اليمان يعرف اليوم مكانه بحكر أقبغا، و فيه جامع الست مسكة، و سويقة السباعين. و بستان السراج فى أرض باب اللوق،

يعرف موضعه الآن بحكر الخليليّ، و يأتى ذكرهما إن شاء اللّه تعالى. و قيماز هو تاج الدولة، صهر الأمير بهرام الأرمنيّ، وزير الخليفة الحافظ لدين اللّه، و قتل عند دخول الصالح طلائع بن رزيك إلى القاهرة فى سنة تسع و أربعين و خمسمائة، و عزاز هو غلام الوزير شاور بن مجير السعديّ، وزير الخليفة العاضد لدين اللّه.

حكر الخليلى: هذا الحكر هو الخط الذى بقرب سويقة السباعين و جامع الست مسكة، و هو بجوار حكر الزهريّ، و كان بستانا يعرف ببستان أبى اليمان، و منهم من يكتب بستان أبى اليمن بغير ألف بعد الميم، ثم عرف ببستان ابن جن حلوان، و هو الجمال محمد بن الزكى يحيى بن عبد المنعم بن منصور التاجر. فى ثمرة البساتين عرف بابن جن حلوان، فى سنة إحدى و تسعين و ستمائة، و حدّ هذا البستان القبلىّ إلى الخليج، و كان فيه بابه و الهماليا و الحدّ البحرىّ ينتهى إلى غيظ قيماز، و الشرقىّ إلى الآدر المحتكرة، و الغربىّ ينتهى إلى قطعة تعرف قديما بابن أبى التاج. ثم عرف ببستان ابن السراج، و استأجره ابن جن حلوان من الشيخ نجم الدين بن الرفعة الفقيه المشهور فى سنة ثمان و ثمانين و ستمائة، فعرف به. ثم إن هذا البستان حكر بعد ذلك فعرف بحكر الخليلىّ و هو ... .

حكر قوصون: هذا الحكر مجاور لقناطر السباع، كان بساتين، أحدهما يعرف بالمخاريق الكبرى، و الآخر يعرف بالمخاريق الصغرى، فأمّا المخاريق الكبرى: فإن القاضى الرئيس الأجل المختار العدل الأمين زكىّ الدين أبا العباس أحمد بن مرتضى بن سيد الأهل بن يوسف، وقف حصة من جميع البستان المذكور الكبير، المعروف بالمخاريق الكبرى، الذى بين القاهرة و مصر بعدوة الخليج، فيما بين البستانين المعروف أحدهما بالمخاريق الصغرى، و يعرف قديما بالشيخ الأجل ابن أبى أسامة، ثم عرف بغيره، و البستان الذى يعرف بدويرة دينار، يفصل بينهما الطريق بخط بستان الزهريّ، و بستان أبى اليمن،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۸

و كنائس النصارى قبالة جماميز السعدية و السبع سقايات، و لهذا البستان حدود أربعة: القبلىّ ينتهى إلى الخليج الفاصل بينه و بين المواضع المعروفة بجماميز السعدية و السبع سقايات، و الحدّ الشرقىّ ينتهى إلى البستان المعروف بالمخاريق الصغرى المقابل للمجنونة، و البحرىّ ينتهى إلى البستان المعروف قديما بابن أبى أسامة، الفاصل بينه و بين بستان أبى اليمن المجاور للزهريّ، و الحدّ الغربىّ ينتهى إلى الطريق.

و جعل هذا البستان على القربات بعد عمارته، و شرط أن الناظر يشترى فى كل فصل من فصول الشتاء ما يراه من قماش الكتان الخام أو القطن، و يصنع ذلك جبابا و بغالطيق محشوّة قطنا، و يفرّقها على الأيتام الذكور و الإناث الفقراء غير البالغين بالشارع الأعظم، خارج باب زويلة، لكل واحد جبة أو بغلطاق، فإن تعذر ذلك كان على الأيتام المتصفين بالصفة المذكورة بالقاهرة و مصر و قرافتيهما، فإن تعذر ذلك كان للفقراء و المساكين أينما وجدوا. و تاريخ كتاب هذا الوقف فى ذى الحجة سنة ستين و ستمائة، و أما المخاريق الصغرى فإنه بعدوة الخليج قبالة المجنونة بالقرب من بستان أبى اليمن، ثم عرف أخيرا ببستان بهادر رأس نوبة، و مساحته خمسة عشر فدّانا، فاشتراه الأمير قوصون و قلع غروسه، و أذن للناس فى البناء عليه، فحكروه و بنوا فيه الآدر و غيرها، و عرف بحكر قوصون.

حكر الحلبىّ: هذا الحكر الآن يعرف بحكر بيبرس الحاجب، و هو مجاور للزهرى، و لبركة الشقاف من غربيها، و أصله من جملة أراضى الزهرى، اقتطع منه و باعه القاضى مجد الدين ابن الخشاب وكيل بيت المال لابنتى السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاون، فى سنة أربع و تسعين و ستمائة، و كان يعرف حين هذا البيع ببستان الجمال بن جن حلوان، و بغيط الكردىّ، و ببستان الطيلسان، و ببستان الفرغانىّ، و حدّ هذه القطعة القبلىّ إلى بركة الطوّابين، و إلى الهدير الصغير. و الحدّ البحرىّ ينتهى إلى بستان الفرغانىّ و إلى بستان البواشقىّ. و الحدّ الشرقىّ إلى بركة الشقاف و إلى الطريق الموصلة إلى الهدير الصغير.

و الحدّ الغربىّ إلى بستان الفرغانىّ. ثم انتقل هذا البستان إلى الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون و حكره فعرف به.

حكر البواشقيّ: عرف بالأمير أزدمر البواشقيّ مملوك الرشيديّ الكبير، أحد المماليك البحرية الصالحية، و ممن قام على الملك المعز أيبك عند ما قتل الأمير فارس الدين أقطاى فى ذى القعدة سنة إحدى و خمسين و ستمائة، و خرج إلى بلاد الروم، ثم عرف الآن بحكر كرجى، و هو بجوار حكر الحلبيّ المعروف بحكر بيبرس.

حكر أقبغا: هذا الحكر بجوار السبع سقايات، بعضه بجانب الخليج الغربيّ، و بعضه بجانب الخليج الشرقيّ، كان بستانا يعرف قديما بجنان الحارة، و يسلك إليه من خط قناطر السباع على يمنة السالك طالبا السبع سقايات، بالقرب من كنيسة الحمراء، و كان بعضه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۰۹

بستانا يعرف ببستان المحلى، و هو الذى فى غربيّ الخليج، و كان بستان جنان الحارة بجوار بركة قارون، و ينتهى إلى حوض الدمياطيّ الموجود الآن على يمنة من سلك من خط السبع سقايات إلى قنطرة السدّ، فاستولى عليه الأمير أقبغا عبد الواحد استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون، و أذن للناس فى تحكيره، فحكر و بنى فيه عدّة مساكن. و إلى يومنا هذا يجبى حكره و يصرف فى مصارف المدرسة الأقبغاوية المجاورة للجامع الأزهر بالقاهرة، و أوّل من عمر فى حكر أقبغا هذا أستادار الأمير جنكل بن البابا، فتبعه الناس. و فى موضع هذا الحكر كانت كنيسة الحمراء التى هدمها العامّة فى أيام الملك الناصر، محمد بن قلاون كما ذكر عند ذكر الكنائس من هذا الكتاب.

و هى اليوم زاوية تعرف بزاوية الشيخ يوسف العجمى، و قد ذكرت فى الزوايا أيضا، و هذا الحكر لما بنى الناس فيه عرف بالآدر لكثرة من سكن فيه من التتر و الوافدية من أصحاب الأمير جنكل بن البابا، و عمر تجاه هذا الحكر الأمير جنكل حمامين هما هنالك إلى اليوم، و انتشأ بعمارة هذا الحكر بظاهره سوق و جامع، و عمر ما على البركة أيضا، و اتصلت العمارة منه فى الجانبين إلى مدينة مصر، و اتصلت به عمائر أيضا ظاهر القاهرة بعد ما كان موضع هذا الحكر مخوفا، يقطع فيه الزعار الطريق على المارّة من القاهرة إلى مصر، و كان والى مصر يحتاج إلى أن يركز جماعة من أعوانه بهذا المكان لحفظ من يمرّ من المفسدين، فصار لما حكر كأنه مدينة كبيرة، و هو إلى الآن عامر و أكثر من يسكنه الأمراء و الأجناد، و هذا الحكر كان يعرف قديما بالحمراء الدنيا، و قد ذكر خبر الحمراوات الثلاث عند ذكر خطط مدينة فسطاط مصر من هذا الكتاب، و فى هذا الحكر أيضا كانت قنطرة عبد العزيز بن مروان التى بناها على الخليج ليتوصل منها إلى جنان الزهريّ، و بعض هذا الحكر مما انحسر عنه النيل، و هى القطعة التى تلى قنطرة السدّ.

حكر الست حدق: هذا الحكر يعرف اليوم بالمريس، و كان بساتين، من بعضها بستان الخشاب، فعرف بالست حدق من أجل أنها أنشأت هناك جامعا كان موضعه منظرة السكرة، فبنى الناس حوله، و أكثر من كان يسكن هناك السودان، و به يتخذ المزور مأوى أهل الفواحش و القاذورات، و صار به عدّة مساكن و سوق كبير، يحتاج محتسب القاهرة أن يقيم به نائبا عنه للكشف عما يباع فيه من المعايش، و قد أدركنا المريس على غاية من العمارة، إلّا أنه قد اختلّ منذ حدثت الحوادث من سنة ست و ثمانمائة، و به إلى الآن بقية من فساد كبير.

حكر الست مسكة: هذا الحكر بسويقة السباعين بقرب جوار حكر الست، حدق، عرف بالست مسكة لأنها أنشأت به جامعا، و هذا الحكر كان من جملة الزهريّ، ثم أفرد و صار بستانا تنقل إلى جماعة كثيرة، فلما عمرت الست مسكة فى هذا الحكر الجامع بنى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۰

الناس حوله حتى صار متصلا بالعمارة من سائر جهاته، و سكنه الأمراء و الأعيان و أنشأوا به الحمّامات و الأسواق و غير ذلك.

و كانت حدق و مسكة من جوارى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، نشأتا فى داره و صارتا قهرمانتين لبيت السلطان يقتدى برأيهما فى عمل الأعراس السلطانية و المهمات الجليلة التى تعمل فى الأعياد و المواسم، و ترتيب شؤون الحريم السلطانيّ، و تربية أولاد السلطان، و طال عمرهما و صار لهما من الأموال الكثيرة، و السعادات العظيمة ما يجلّ وصفه، و صنعا برّا و معروفا كبيرا، و اشتهرتا و بعد صيتهما و انتشر ذكر هما.

حكر طقزدمر: هذا الحكر كان بستانا مساحته نحو الثلاثين فدّانا، فاشتراه الأمير طقزدمر الحمويّ نائب السلطنة بديار مصر و دمشق، و قلع أخشابه و أذن للناس فى البناء عليه، فحركوه و أنشأوا به الدور الجليلة، و اتصلت عمارة الناس فيه بسائر العمائر من جهاته، و أنشأ الأمير طقزدمر فيه أيضا على الخليج قنطرة ليمرّ عليها من خط المسجد المعلق إلى هذا الحكر، و صار هذا الحكر مسكن الأمراء و الأجناد، و به السوق و الحمّامات و المساجد و غيرها، و هو مما عمر فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، و مات طقز دمر فى ليلة الخميس مستهلّ جمادى الآخرة سنة ست و أربعين و سبعمائة.

اللوق: يقال لاق الشيء يلوقه لوقا و لوّقه، لتينه. و فى الحديث الشريف لا آكل إلّا ما لوّق لى، و لواق أرض معروفة. قاله ابن سيده: فكأن هذه الأرض لما انحسر عنها ماء النيل كانت أرضا لينة، و إلى الآن فى أراضى مصر ما إذا نزل عنها ماء النيل لا تحتاج إلى الحرث للينها، بل تلاق لوقا، فصواب هذا المكان أن يقال فيه أراضى اللوق بفتح اللام، إلّا أن الناس إنما عهدناهم يقولون قديما باب اللوق و أراضى باب اللوق بضم اللام، و يجوز أن يكون من اللق بضم اللام و تشديد القاف. قال ابن سيده: و اللق كل أرض ضيقة مستطيلة، و اللق الأرض المرتفعة، و منه كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج لا تدع خقا و لا لقا إلا زرعته، حكاه الهوريّ، فى الغريبين. انتهى. و الخقّ بضم الخاء المعجمة و تشديد القاف، الغدير إذا جفّ. و قيل الخق ما اطمأنّ من الأرض، و اللق ما ارتفع منها، و أراضى اللوق هذه كانت بساتين و مزروعات، و لم يكن بها فى القديم بناء البتة، ثم لما انحسر الماء عن منشأة الفاضل عمر فيها كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، و يطلق اللوق فى زمننا على المكان الذى يعرف اليوم بباب اللوق، المجاور لجامع الطباخ المطلّ على بركة الشقاف، و ما يسامته إلى الخليج الذى يعرف اليوم بخليج فم الخور، و ينتهى اللوق من الجانب الغربيّ إلى منشأة المهرانيّ، و من الجانب الشرقيّ إلى الدكة بجوار المقس، و كان القاضى الفاضل قد اشترى قطعة كبيرة من أراضى اللوق هذه من بيت المال و غيره بجمل كبيرة من المال، و وقفها على العين الزرقاء بالمدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۱

و التسليم، و عرفت هذه الأرض ببستان ابن قريش، و بعضها دخل فى الميدان الظاهريّ، و عوّض عنها أراض بأكثر من قيمتها، و كان متحصل هذا الوقف يحمل فى كل سنة إلى المدينة لتنظيف العين و تنظيف مجاريها، و أما الجانب الغربيّ من خليج فم الخور المعروف اليوم بحكر ابن الأثير، و بسويقة الموفق، و موردة الملح، و ساحل بولاق، كله فإنه محدث، عمّر بعد سنة سبعمائة كما ستقف عليه إن شاء اللّه تعالى قريبا.

فإنّ النيل كان يمرّ من ساحر الحمراء بغربيّ الزهرى على الأراضى التى لما انحسر عنها عرفت بأراضى اللوق، إلى أن ينتهى إلى ساحل المقس، و كانت طاقات المناظر التى بالدكة تشرف على النيل الأعظم، و لا يحول بنيها و بين رؤية برّ الجيزة شيء، و يمرّ النيل من الكدة إلى المقس، و يمتدّ إلى زريبة جامع المقس الذى هو الآن على الخليج الناصريّ. فلما انحسر ماء النيل عن أراضى اللوق، اتصلت بالمقس و صارت عدّة أماكن تعرف بظاهر اللوق، و هى بستان ابن ثعلب، و منشأة ابن ثعلب، و باب اللوق، و حكر قردمية، و حكر كريم الدين، و رحبة التبن، و بستان السعيديّ، و بركة قرموط، و خور الصعبيّ، و صار بين اللوق و بين منشأة المهرانيّ التى هى بأوّل برّ الخليج الغربيّ منشأة الفاضل، و المنشأة المستجدّة، و حكر الخليليّ، و حكر الساباط، و يعرف بحكر بستان القاصد، و حكر كريم الدين الصغير، و حكر المطوع، و حكر العين الزرقاء. و فى غربيّ هذه المواضع على شاطىء النيل زريبة قوصون، و موردة البلاط، و موردة الجبس، و خط الجامع الطيبرسيّ، و زريبة السلطان، و ربع بكتمر.

و أوّل ما بنيت الدور للسكن فى اللوق أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداريّ، و ذلك أنه جهز كشافه من خواصه مع الأمير جمال الدين الرومى السلاح دار، و الأمير علاء الدين أق سنقر الناصريّ، ليعرف أخبار هولاكو، و معهم عدّة من العربان، فوجدوا طائفة من التتر مستأمنين و قد عزموا على قصد السلطان بمصر، و ذلك أن الملك بركة خان ملك التتر كان قد بعثهم نجدة لهولاكو، فلما وقع بينهما، كتب إليهم بركة يأمرهم بمفارقة هولاكو و المصير إليه، فإن تعذر عليهم ذلك صاروا إلى عسكر مصر، فإنه

كان قد ركن إلى الملك الظاهر، و تردّدت القصّاد بينهم بعد واقعة بغداد و رحيل هولاكو عن حلب، فاختلف هولاكو مع ابن عمه بركة خان و تواقعا، فقتل ولد هولاكو فى المصاف، و انهزم عسكره و فرّ إلى قلعة فى بحيرة أذربيجان، فلما وردت الأخبار بذلك إلى مصر، كتب السلطان إلى نوّاب الشام بإكرامهم و تجهيز الإقامات لهم، و بعث إليهم بالخلع و الإنعامات، فوصلوا إلى ظاهر القاهرة و هم نيف على مائتى فارس بنسائهم و أولادهم فى يوم الخميس رابع عشرى ذى الحجة سنة ستين و ستمائة، فخرج السلطان يوم السبت سادس عشرية إلى لقائهم بنفسه و معه العساكر، فلم يبق أحد حتى خرج لمشاهدتهم، فاجتمع عالم عظيم تبهر رؤيتهم العقول، و كان يوما مشهودا. فأنزلهم السلطان فى دور كان قد أمر بعمارتها من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۲

أجلهم فى أراضى اللوق، و عمل لهم دعوة عظيمة هناك، و حمل إليهم الخلع و الخيول و الأموال، و ركب السلطان إلى الميدان و أركبهم معه للعب الأكرة، و أعطى كبراءهم أمريات، فمنهم من عمله أمير مائة، و منهم دون ذلك، و نزل بقيتهم من جملة البحرية، و صار كل منهم من سعة الحال كالأمير، فى خدمته الأجناد و الغلمان، و أفرد لهم عدّة جهات برسم مرتبهم، و كثرت نعمهم، و تظاهروا بدين الإسلام، فلما بلغ التتار ما فعله السلطان مع هؤلاء، وفد عليه منهم جماعة بعد جماعة، و هو يقابلهم بمزيد الأحسان، فتكاثروا بديار مصر، و تزايدت العمائر فى اللوق و ما حوله، و صار هناك عدّة أحكار عامرة آهلة إلى أن خربت شيئا بعد شىء، و صارت كيمانا، و فيها ما هو عامر إلى يومنا هذا، و لما قدمت رسل القان بركة فى سنة إحدى و ستين و سبعمائة، أنزلهم السلطان الملك الظاهر باللوق، و عمل لهم فيه مهما، و صار يركب فى كل سبت و ثلاثاء للعب الأكرة باللوق فى الميدان. و فى سادس ذى الحجة من سنة إحدى و ستين قدم من المغل و البهادرية زيادة على ألف و ثلثمائة فارس، فأنزلوا فى مساكن عمرت لهم باللوق بأهاليهم و أولادهم، و فى شهر رجب سنة إحدى و ستين و سبعمائة قدمت رسل الملك بركة، و رسل الأشكرى، فعملت لهم دعوة عظيمة باللوق.

فأما

بستان ابن ثعلب فإنه كان بستانا عظيم القدر، مساحته خمسة و سبعون فدانا، فيه سائر الفواكه بأسرها، و جميع ما يزدرع من الأشجار و النخل و الكروم، و النرجس و الهليون و الورد، و النسرين و الياسمين و الخوخ، و الكمثرى و النارنج و الليمون التفاحىّ، و الليمون الراكب، و المختن و الجميز و القراصيا، و الرمان و الزيتون و التوت الشامىّ و المصرىّ، و المرسين و التامر حنا و ألبان تعرف اليوم ببركة قرموط، و الأرض التى تعرف اليوم بالخور، قبالة الأرض المعروفة بالبيضاء بجوار بستان السراج، و بستان الزهرىّ، و بستان البورجى، فيما بين هذه البساتين و بين خليج الدكة و المقس، و كان على بستان ابن ثعلب سور مبنىّ، و له باب جليل. و حدّه القبلىّ إلى منشأة ابن ثعلب، و حدّه البحرىّ إلى الأرض المجاورة للميدان السلطانىّ الصالحىّ، و إلى أرض الجزائر، و فى هذا الحدّ أرض الخور، و هى من حقوقه. و حدّه الشرقىّ إلى بستان الدكة، و بستان الأمير قراقوش، و حدّه الغربىّ إلى الطريق المسلوك فيها إلى موردة السقائين قبالة بستان السراج، و موردة السقائين هذه موضع قنطرة الخرق الآن.

و ابن ثعلب هذا هو الشريف الأمير الكبير فخر الدين إسماعيل بن ثعلب الجعفرىّ الزينبىّ، أحد أمراء مصر فى أيام الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب و غيره، و صاحب المدرسة الشريفية بجوار درب كركامة، على رأس حارة الجودرية من القاهرة، و انتقل من بعده إلى ابنه الأمير حصن الدين ثعلب، فاشتراه منه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى بثلاثة آلاف دينار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۳

مصرية، فى شهر رجب سنة ثلاث و أربعين و ستمائة، و كان باب هذا البستان فى الموضع الذى يقال له اليوم باب اللوق، و كان هذا البستان ينتهى إلى خليج الخور، و آخره من المشرق ينتهى إلى الدكة بجوار المقس، ثم انقسم بعد ذلك قطعا و حكرت أكثر أرضه،

و بنى الناس عليها الدور و غيرها، و بقيت منه إلى الآن قطعة عرفت ببستان الأمير أرغون، النائب بديار مصر أيام الملك الناصر، ثم عرف بعد ذلك ببستان ابن غراب، و هو الآن على شاطىء الخليج الناصرىّ، على يمنة من سلك من قنطرة قدادار بشاطئ الخليج من جانبه الشرقى، إلى بركة قرموط، و بقيت من بستان ابن ثعلب قطعة تعرف ببستان بنت الأمير بيبرس إلى الآن، و هو وقف، و من جملة بستان ابن ثعلب أيضا الموضع الذى يعرف ببركة قرموط، و الموضع المعروف بفم الخور.

و أما

منشأة ابن ثعلب: فإنها بالقرب من باب اللوق، و حكرت فى أيام الشريف فخر الدين بن ثعلب المذكور، فعرفت به، و هى تعرف اليوم بمنشأة الجوّانية، لأنّ جوّانية الفم.

كانوا يسكنون فيها، فعرفت بهم، و أدركتها فى غاية العمارة بالناس و المساكن و الحوانيت و غيرها، و قد اختلت بعد سنة ست و ثمانمائة، و أكثرها الآن زرائب للبقر.

و أما باب اللوق: فإنه كان هناك إلى ما بعد سنة أربعين و سبعمائة بمدّة، باب كبير عليه طوارق حربية مدهونة، على ما كانت العادة فى أبواب القاهرة و أبواب القلعة و أبواب بيوت الأمراء، و كان يقال له باب اللوق، فلما أنشأ القاضى صلاح الدين بن المغربىّ قيساريته التى بباب اللوق، و جعلها البيع غزل الكتان، هدم هذا الباب و جعله فى الركن من جدار القيسارية القبلىّ، مما يلى الغربىّ، و هذا هو باب الميدان الذى أنشأه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل لما اشترى بستان ابن ثعلب، و قد ذكر خبر هذا الميدان عند ذكر الميادين من هذا الكتاب.

و أما

حكر قردمية: فإنه على يمنة من سلك من باب اللوق المذكور إلى قنطرة قدادار، و كان من جملة بستان ابن ثعلبة، فحكر و صار أخيرا بيد ورثة الأمير قوصون، و كان حكرا عامرا إلى ما بعد سنة تسع و أربعين و سبعمائة، فخرب عند وقوع الوباء الكبير بمصر، و حفرت أراضيه و أخذ طينها، فصارت بركة ماء عليها كيمان، خلف الدور التى على الشارع المسلوك فيه إلى قنطرة قدادار.

و أما

حكر كريم الدين: فإنه على يسرة من سلك من باب اللوق إلى رحبة التبن، و إلى الدكة، و كان يعرف قبل كريم الدين بحكر الصهيونىّ، و هذا الحكر الآن آيل إلى الدثور.

و أما

رحبة التبن: فإنها فى بحرى منشأة الجوانية، شارعة فى الطريق العظمى التى يسلك فيها إلى قنطرة الدكة من رحبة باب اللوق، عرفت بذلك لأنه كانت أحمال التبن تقف بها لتباع هناك، فإن القاهرة كانت توقر من مرور أحمال التبن و الحطب و نحو هما بها، ثم

اختطت من جملة ما اختط فى غربىّ الخليج، و صار بها عدّة مساكن و سوق كبير، و قد أدركته غاصا بالعمارة، و إنما اختلّ هذا الخط من سنة ست و ثمانمائة.

و أما

بستان السعيدىّ: فإنه يشرف على الخليج الناصرىّ فى هذا الوقت، و أدركنا ما حوله عامرا، و قد خربت الدور التى كانت هناك من جهة الطريق الشارع من باب اللوق إلى الدكة، و بها بقية آثلة إلى الدثور.

و أما

بركة قرموط: فإنها من حقوق بستان ابن ثعلب، و لما حفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصرىّ، رمى فيها ما خرج عند حفره من الطين، و أدركناها من أعمر بقعة فى أرض مصر، و هى الآن خراب، كما ذكر عند ذكر البرك من هذا الكتاب.

و أما

الخور: فإن الخور فى اللغة مصبّ الماء، و هو هنا اسم للأرض التى ما بين الخليج الناصرىّ و الخليج الذى يعرف بفم الخور، و جميع هذه الأرض من جملة بستان ابن ثعلبة، و كان يعرف بالخور الصعبىّ، لأنه كانت به مناظر تعرف بمناظر الصعبىّ، تشرف على النيل، و كان على شاطىء الخليج الكبير فى هذا الجانب الغربىّ الذى نحن فى ذكره، بجوار بستان الخشاب الذى كان يتوصل إليه من قنطرة السدّ، و بعضه الآن الميدان السلطانىّ، بستان يعرف بالجزيرة، يعنى بستان الجزيرة المعروف بالصعبىّ، و كان من البساتين الجليلة.

و هذا الصعبىّ: هو الشيخ كريم الدولة، عبد الواحد بن محمد بن علىّ الصعبىّ، مات فى شهر رمضان سنة ثلاث و ستمائة بمصر، و كان له أخ يعرف بعبد العظيم بن محمد الصعبىّ.

و لما انحسر ماء النيل عن الرملة التى قيل لها منية بولاق، تجاه المقس، و عمرت هناك الدور، اتصلت من قبليها بالخور، و أنشئ بشاطئ النيل الذى بالخور دور تجلّ عن الوصف، و انتظمت صفا واحدا من بولاق إلى منشأة المهرانىّ و موردة الحلفاء، و من موردة الحلفاء على ساحل مصر الجديد إلى دير الطين غربىّ بركة الحبش، لو أحصى ما أنفق على بناء هذه الدور لقام بخراج مصر أيام كانت عامرة، و قد خرب معظمها من سنة ست و ثمانمائة، و قد تقدّم ذكر منشأة الفاضل.

و أما

حكر الساباط، و حكر كريم الدين الصغير، و حكر المطوع، و حكر المطوع، و حكر العين الزرقاء، فإنها بالقرب من الميدان الكبير السلطانىّ، و قد خربت بعد ما كانت عامرة بالدور و المنتزهات.

بستان العدّة: هذا المكان من جملة الأحكار التى فى غربىّ الخليج، و هو بجوار قنطرة الخرق، و بجوار حكر النوبىّ، قريب من باب اللوق تجاه الدور المطلة على الخليج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۵

من شرقيه، المقابلة، لباب سعادة و حارة الوزيرية. كان بستانا جليلا، وقفه الأمير فارس المسلمين بدر بن رزيك، أخو الصالح طلائع بن رزيك، صاحب جامع الصالح، خارج باب زويلة، ثم أنه خرب فحكر و بنى عليه عدّة مساكن، و حكره يتعاطاه ورثة فارس المسلمين.

حكر جوهر النوبى: هذا الحكر تجاه الحارة الوزيرية من برّ الخليج الغربىّ، فى شرقىّ بستان العدّة، و يسلك منه إلى قنطرة أمير حسين من طريق تجاه باب جامع أمير حسين، الذى تعلوه المئذنة، و ما زال بستانا إلى نحو سنة ستين و ستمائة، فحكر و بنى فيه الدور فى أيام الظاهر بيبرس، و عرف بجوهر النوبىّ أحد الأمراء فى الأيام الكاملية، و قد تقدّم بديار مصر تقدّما زائدا. و كان خصيا، و هو ممن ثار على الملك العادل أبى بكر بن الكامل و خلعه، فلما كان ملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بعد أخيه العادل، قبض على جوهر فى سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة.

حكر خزائن السلاح: هذا الحكر كان يعرف قديما بحكر الأوسية، و هو فيما بين الدكة و قنطرة الموسكى، وقفه السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب على مصالح خزائن السلاح، و هو و عدّة أماكن بمدينة مصر مع مدينة قليوب و أراضيها، فى جمادى الآخرة سنة أربع عشرة و ستمائة، و ظهر كتاب الوقف المذكور من الخزائن السلطانية فى جمادى الأولى سنة خمس عشرة و سبعمائة، فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، و قد خرب أكثر هذا الحكر و صار كيمانا.

حكر تكان: هذا الحكر بجوار سويقة العجمىّ الفاصلة بينه و بين حكر خزائن السلاح، و كان يعرف قديما بحكر كوبيج. و حدّه القبلىّ ينتهى إلى حكر ابن الأسد جفريل، و الحدّ البحرى ينتهى إلى حكر العلائىّ، و الحدّ الشرقىّ ينتهى إلى حكر البغدادية، و الحدّ الغربىّ ينتهى إلى حكر خزائن السلاح و سويقة العجمىّ.

و تكان هو الأمير سيف الدين تكان، و يقال تكام بالميم عوضا عن النون، و هذا الحكر استقرّ أخيرا فى أوقاف خوندارد و تكين ابنه نوكيه السلاح دار، زوجة الملك الأشرف خليل بن قلاون، على تربتها التى أنشأتها خارج باب القرافة، التى تعرف اليوم بتربة الست، و

قد خرب هذا الحكر و بيعت أنقاضه فى أعوام بضع و تسعين و سبعمائة، و جعل بعضه بستانا فى سنة ست و تسعين و سبعمائة.

حكر ابن الأسد جفريل: هذا الحكر فى قبلىّ حكر تكان، كان بستانا فحكر و عرف بالأمير شمس الدين موسى بن الأمير أسد الدين جفريل، أحد أمراء الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بمصر.

حكر البغدادية: هذا الحكر بجوار خليج الذكر، كان من أعظم البساتين فى الدولة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۶

الفاطمية، فأزال الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب أشجاره و نخله، و جعله ميدانا. ثم حكر و صارت فيه عدّة مساكن، و هو الآن خراب يباب، لا يأويه إلّا البوم و الرخم.

حكر خطلبا: هذا الحكر حدّه القبلىّ إلى الخليج، و حدّه البحرىّ إلى الكوم الفاصل بينه و بين حكر الأوسية، المعروف بالجاولىّ، و حدّه الشرقىّ إلى بستان الجليس الذى عرف بابن منقذ، و الحدّ الغربىّ إلى زقاق هناك. و كان هذا الحكر بستانا اشتراه جمال الدين الطواشىّ ، من جمال الدين عمر بن ناصح الدين داود بن إسماعيل الملكىّ الكاملىّ، فى سنة ست عشرة و ستمائة. ثم ابتاعه منه الطواشىّ محى الدين صندل الكاملىّ فى سنة عشرين و ستمائة، و باعه الأمير الفارس صارم الدين خطلبا الكاملىّ فى سنة إحدى و عشرين و ستمائة فعرف به.

و هو خطلبا بن موسى الأمير صارم الدين الفارسىّ التبتى الموصلىّ الكاملىّ، استقرّ فى ولاية القاهرة سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم أضيفت له ولاية الفيوم فى سنة سبع و سبعين و خمسمائة، ثم صرف عنها و سار متسلمة إلى اليمن ليتسلمها، فتسلمها فى جمادى الأولى، و سار هو فى سادس شوال منها واليا على مدينة زبيد باليمن، و معه خمسمائة رجل، و رفيقه الأمير باخل، فبلغت النفقة عليه عشرين ألف دينار، و كتب للطواشية بنفقة عشرة دنانير لكل منهم على اليمن، فأقام باليمن مدّة، ثم قدم إلى القاهرة و صار من أصحاب الأمير فخر الدين جهاركس، و تأخر إلى أيام الملك الكامل، و صار من أمرائه بالقاهرة إلى أن مات فى ثالث شعبان سنة خمس و ثلاثين و ستمائة.

حكر ابن منقذ: هذا الحكر خارج باب القنطرة بعدوة خليج الذكر، و كان بستانا يعرف ببستان الشريف الجليس، و يعرف أيضا بالبطائحىّ، ثم عرف بالأمير سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، نائب الملك المعز سيف الإسلام ظهير الدين طفتكين بن نجم الدين أيوب بن شادى على مملكة اليمن، و انتقل بعد ابن منقذ إلى الشيخ عبد المحسن بن عبد العزيز بن علىّ المخزومىّ، المعروف بابن الصيرفىّ، فوقفه على جهات تؤول أخيرا إلى الفقراء و المساكين المقيمين بمشهد السيدة نفيسة، و الفقراء و المساكين المعتقلين فى حبوس القاهرة، فى سنة ثلاث و أربعين و ستمائة، ثم أزيلت أنشاب هذا البستان و حكرت أرضه و بنيت الدور و المساكن عليها، و هو الآن خراب.

حكر فارس المسلمين بدر بن رزيك: هذا الحكر تجاه منظرة اللؤلؤة، كان من جملة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۷

البركة المعروفة ببطن البقرة، ثم حكر و بنى فيه و أكثره الآن خراب.

حكر شمس الخواص مسرور: هذا الحكر فيما بين خليج الذكر و حكر ابن منقذ، كان بستانا لشمس الخواص مسرور الطواشى، أحد الخدّام الصالحية، مات فى نصف شوال سنة سبع و أربعين و ستمائة بالقاهرة، ثم حكر و بنى فيه الدور، و موضعه الآن كيمان.

حكر العلائى: هذا الحكر يجاور حكر تكان من بحريه، و كان بستانا جليل القدر، ثم حكر و صار بعضه وقف تذكارية خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس، وقفته فى سنة أربع و ثلاثين و سبعمائة على نفسها، ثم من بعدها على الرباط الذى أنشأته داخل الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس، و هو الرباط المعروف برواق البغدادية، و على المسجد الذى بحكر سيف الإسلام خارج باب زويلة، و على تربتها التى بجوار جامع ابن عبد الظاهر بالقرافة، و صار بعض هذا الحكر فى وقف الأمير سيف الدين بهادر العلائىّ متولى البهنساء، و كان

وقفه فى سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، فعرف بالحكر العلائى المذكور، و أدركت هذا الحكر و هو من أعمر الأحكار، و فيه درب الأمير عز الدين أيدمر الزرّاق، أمير جاندار و والى القاهرة، و داره العظيمة و مساكنه الكثيرة، فلما حدثت المحن منذ سنة ست و ثمانمائة خرب هذا الحكر و أخذت أنقاضه، و بقيت دار الزرّاق إلى سنة سبع عشرة و ثمانمائة، فشرع فى الهدم فيها لأجل أنقاضها الجليلة.

حكر الحريرى: هذا الحكر بجوار حكر العلائىّ المذكور من حدّه البحرىّ، و هو من جملة الأرض المعروفة بالأرض البيضاء، و كان بستانا، ثم حكر و صار فى وقف خزائن السلاح، و أدركناه عامرا و فيه سوق يعرف بالسويقة البيضاء، كانت بها عدّة حوانيت، و قد خرب هذا الحكر، و هذا الحريرىّ هو الصاحب محيى الدين.

حكر المساح: عرف بالأمير شمس الدين سنقر المساح، أحد أمراء الظاهر بيبرس، قبض عليه فى عدّة من الأمراء فى ذى الحجة سنة تسع و ستين و ستمائة.

الدكة: هذا المكان كان بستانا من أعظم بساتين القاهرة، فيما بين أراضى اللوق و المقس، و به منظرة للخلفاء الفاطميين تشرف طاقاتها على بحر النيل العظيم، و لا يحول بينها و بنى برّ الجيزة شىء، فلما زالت الدولة الفاطمية تلاشى أمر هذا البستان و خرب، فحكر موضعه و بنى الناس فيه، فصار خطة كبيرة كأنه بلد جليل، و صار به سوق عظيم، و سكنه الكتاب و غيرهم من الناس، و أدركته عامرا، ثم إنه خرب منذ سنة ست و ثمانمائة، و به الآن بقية عما قليل تدثر كما دثر ما هنالك و صار كيمانا.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۸

ذكر المقس و فيه الكلام على المكس و كيف كان أصله فى أوّل الإسلام

اعلم أن المقس قديم، و كان فى الجاهلية قرية تعرف بأمّ دنين، و هى الآن محلة بظاهر القاهرة فى برّ الخليج الغربىّ، و كان عند وضع القاهرة هو ساحل النيل، و به أنشأ الإمام المعز لدين اللّه أبو معدّ الصناعة التى ذكرت عند ذكر الصناعات من هذا الكتاب، و به أيضا أنشأ الإمام الحاكم بأمر اللّه أبو علىّ منصور جامع المقس الذى تسميه عامّة أهل مصر فى زمننا بجامع المقسىّ، و هو الآن يطلّ على الخليج الناصرىّ. قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم فى كتاب فتوح مصر، و قد ذكر مسير عمرو بن العاص رضى اللّه عنه إلى فتح مصر: فتقدّم عمرو بن العاص رضى اللّه عنه لا يدافع إلّا بالأمر الخفيف، حتى أتى بلبيس، فقاتلوه بها نحوا من شهر، حتى فتح اللّه سبحانه و تعالى عليه، ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أمّ دنين، فقاتلوه بها قتالا شديدا، و أبطأ عليه الفتح، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه تعالى عنه يستمدّه، فأمدّه بأربعة آلاف، تمام ثمانية آلاف، فقاتلهم، و ذكر تمام الخبر. و قال القاضى أبو عبد اللّه القضاعىّ: المقس كانت ضيعة تعرف بأمّ دنين، و إنما سمّيت المقس لأنّ العاشر كان يقعد بها، و صاحب المكس، فقيل المكس، فقلب فقيل المقس. قال المؤلف رحمه اللّه: الماكس هو العشار، و أصل المكس فى اللغة الجباية. قال ابن سيدة فى كتاب المحكم: المكس الجباية، مكسه يمكسه مكسا، و المكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق فى الجاهلية، و يقال للعشار صاحب مكس، و المكس انتقاص الثمن فى البياعة. قال الشاعر:

أفى كلّ أسواق العراق أتاوةو فى كلّ ما باع امرؤ مكس درهم

ألا ينتهى عنا رجال و تتّقىمحارمنا لا يدرأ الدّم بالدّمّ

الأتاوة الخراج و مكس درهم أى نقص درهم فى بيع و نحوه. قال: و عشر القوم يعشرهم عشرا و عشورا، و عشرهم أخذ عشر أموالهم، و عشر المال نفسه، و عشره كذلك، و العشّار قابض العشر. و منه قول عيسى بن عمرو لابن هبيرة و هو يضرب بين يديه بالسياط:

تاللّه إن كانت إلّا ثيابا فى أسفاط قبضها عشّاروك. و قال الجاحظ: ترك الناس مما كان مستعملا فى الجاهلية أمورا كثيرة، فمن ذلك تسميتهم للأتاوة بالخراج، و تسميتهم لما يأخذه السلطان من الحلوان و المكس بالرشوة، و قال الخارجىّ: أفى كلّ أسواق العراق أتاوة.

البيت و كما قال العبدىّ فى الجارود:

اكابن المعلى خلتنا أما حسبتناصوارىّ نعطى الماكسين مكوسا

الصوارىّ: الملاحون، و المكس: ما يأخذ العشار انتهى.

و يقال أن قوم شعيب عليه السلام، كانوا مكاسين، لا يدعون شيئا إلا مكّسوه. و منه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۱۹

قيل للمكس النجس، لقوله تعالى: وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ و ذكر أحمد بن يحيى البلاذرىّ، عن سفيان الثورىّ، عن إبراهيم بن مهاجر، قال: سمعت زياد بن جرير يقول: أنا أوّل من عشّر فى الإسلام. و عن سفيان عن عبد اللّه بن خالد عن عبد الرحمن بن معقل قال:

سألت زياد بن جرير من كنتم تعشرون؟ فقال: ما كنا نعشر مسلما و لا معاهدا، بل كنا نعشر تجار أهل الحرب كما كانوا يعشرونا إذا أتيناهم. و قال عبد الملك بن حبيب السلمىّ فى كتاب سيرة الإمام العدل. فى مال اللّه، عن السائب بن يزيد أنه قال: كنت على سوق المدينة فى زمن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فكنا نأخذ من القبط العشر. و قال ابن شهاب: كان ذلك يؤخذ منهم فى الجاهلية، فألزمهم ذلك عمر بن الخطاب، و عن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما قال: إن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه كان يأخذ بالمدينة من القبط من الحنطة و الزبيب نصف العشر، يريد بذلك أن يكثر الحمل إلى المدينة من الحنطة و الزبيب، و كان يأخذ من القطنية العشر. و قال مالك رحمه اللّه: و السّنّة أنّ ما أقام الذمّىّ فى بلادهم التى صالحوا عليها فليس عليهم فيها إلّا الجزية، إلّا أن يتجروا فى بلاد المسلمين و يختلفوا فيها، فيؤخذ منهم العشر فيما يديرون من التجارة، و إن اختلفوا فى العام الواحد مرارا إلى بلاد المسلمين، فعليهم كلما اختلفوا العشر، و إذا اتجر الذمىّ فى بلاده من أعلاها إلى أسفلها و لم يخرج منها إلى غيرها فليس عليه شىء، مثل أن يتجر الذمىّ الشامى فى جميع الشام أو الذمىّ المصرىّ فى جميع مصر، أو الذمىّ العراقىّ فى جميع العراق، و ليس العمل عندنا على قول عمر بن عبد العزيز لزريق بن حيان: و اكتب لهم بما يؤخذ منهم كتابا إلى مثله من الحول، و من مرّ بك من أهل الذمّة فخذ مما يديرون من التجارات من كل عشرين دينارا دينارا، فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير، فإن نقص منها ثلث دينار، فدعها و لا تأخذ منها شيئا، و العمل على أن يأخذ منهم العشر و إن خرجوا فى السنة مرارا من كلّ ما أتجروا به قل أو كثر، و هذا قول ربيعة و ابن هرمز.

و قال القاضى أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الحضرمىّ أحد أصحاب الإمام أبى حنيفة رضى اللّه عنه فى كتاب الرسالة إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد، و هو كتاب جليل القدر، حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم بن المهاجر قال: سمعت أبى يذكر قال: سمعت زياد بن جرير قال: أوّل من بعث عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه منا على العشور أنا، فأمرنى أن لا أفتش أحدا، و ما مرّ علىّ من شىء أخذت من حساب أربعين درهما درهما من المسلمين، و أخذت من أهل الذمّة من عشرين واحدا، و ممن لا ذمّة له العشر، و أمرنى أن أغلّظ على نصارى بنى تغلب قال: إنهم قوم من العرب و ليسوا من أهل الكتاب، فلعلهم يسلمون.

قال: و كان عمر رضى اللّه عنه قد اشترط على نصارى بنى تغلب أن لا ينصّروا أولادهم.

و حدّثنا أبو حنيفة عن الهيثم عن أنس بن سيرين عن أنس بن مالك رضى اللّه عنه قال:

بعثنى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه على العشور، و كتب لى عهدا أن آخذ من المسلمين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۰

مما اختلفوا به لتجاراتهم ربع العشر، و من أهل الذمّة نصف العشر، و من أهل الحرب العشر.

و حدّثنا عاصم بن سليمان الأحول عن الحسن قال: كتب أبو موسى الأشعرىّ إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما، أنّ تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أهل الحرب فيأخذون منهم العشر، فكتب إليه عمر رضى اللّه عنه فخذ أنت منهم كما يأخذون من تجار

المسلمين، و خذ من أهل الذمّة نصف العشر، و من المسلمين من كلّ أربعين درهما درهما، و ليس فيما دون المائتين شيء، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم، فما زاد فبحسابه.

و حدّثنا عبد الملك بن جريج عن عمرو بن شعيب قال: إنّ أهل منبج قوما من أهل الشرك وراء البحر، كتبوا إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، دعنا ندخل أرضك تجارا و تعشرنا، قال فشاور عمر رضى اللّه عنه أصحاب النبى صلى اللّه عليه و سلم فى ذلك، فأشاروا عليه به، فكانوا أول من عشره من أهل الحرب.

و حدّثنا السدّىّ بن إسماعيل عن عامر الشعبىّ عن زياد بن جرير الأسدىّ قال: إن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه بعثه على عشور العراق و الشام، و أمره أن يأخذ من المسلمين ربع العشر، و من أهل الذمّة نصف العشر، و من أهل الحرب العشر، فمرّ عليه رجل من بنى تغلب من نصارى العرب و معه فرس فقوّمها بعشرين ألفا، فقال أمسك الفرس و أعطنى ألفا، أو خذ منى تسعة عشر ألفا و أعطنى الفرس. قال: فأعطاه ألفا و أمسك الفرس. قال: ثم مرّ عليه راجعا فى سنته فقال: أعطنى ألفا أخرى فقال له التغلبىّ: كلّما مررت بك تأخذ منى ألفا؟ قال نعم، فرجع التغلبىّ إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فوافاه بمكة و هو فى بيت له، فاستأذن عليه، فقال: من أنت فقال: أنا رجل من نصارى العرب، و قصّ عليه قصته.

فقال له عمر رضى اللّه عنه كفيت و لم يزده على ذلك. قال: فرجع الرجل إلى زياد بن جرير و قد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا، فوجد كتاب عمر رضى اللّه عنه قد سبق إليه: من مرّ عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئا إلى مثل ذلك اليوم من قابل إلّا أن تجد فضلا.

قال: فقال الرجل قد و اللّه كانت نفسى طيبة أن أعطيك ألفا، و أنى أشهد اللّه تعالى أنى برىء من النصرانية، و أنى على دين الرجل الذى كتب إليك هذا الكتاب.

و حدّثنى يحيى بن سعيد عن زريق بن حيان، و كان على مكس مصر، فذكر أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه أن أنظر من مرّ عليك من المسلمين فخذ مما ظهر من أموالهم، و ما ظهر لك من التجارات من كلّ أربعين دينارا دينارا، فما نقص فبحسابه حتى تبلغ عشرين دينارا، فإن نقصت فدعها و لا تأخذ منها، و إذا مرّ عليك أهل الذمة فخذ مما يديرون من تجاراتهم من كل عشرين دينارا دينارا، فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ثم دعها لا تأخذ منها شيئا، و اكتب لهم كتابا بما تأخذ منهم إلى مثلها من الحول.

و حدّثنى أبو حنيفة عن حماد عن إبراهيم أنه قال: إذا مرّ أهل الذمّة بالخمر للتجارة

أخذ من قيمتها نصف العشر و لا يقبل قول الذمىّ فى قيمتها حتى يؤتى برجلين من أهل الذمّة يقوّمانها عليه، فيؤخذ نصف العشر من الذمىّ.

و حدّثنا قيس بن الربيع عن أبى فزارة عن يزيد بن الأصم عن عبد اللّه بن الزبير رضى اللّه عنهما أنه قال: إن هذه المعاصر و القناطر سحت لا يحلّ أخذها. فبعث عمّالا إلى اليمن و نهاهم أن يأخذوا من عاصر أو قنطرة أو طريق شيئا. فقدموا فاستقلّ المال فقالوا: نهيتنا. فقال: خذوا كما كنتم تأخذون.

و حدّثنا محمد بن عبيد اللّه عن أنس بن سيرين قال: أرادوا أن يستعملونى على عشور الأبلة فأبيت، فلقينى أنس بن مالك رضى اللّه عنه فقال: ما يمنعك قلت العشور أخبث ما عمل عليه الناس. قال: فقال لى لم لا تفعل؟ عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه صنعه، فجعل على أهل الإسلام ربع العشر، و على أهل الذمّة نصف العشر، و على أهل المنزل ممن ليس له ذمة العشر.

و قال أبو الحسن المسعودىّ أنّ كيقباذ أحد ملوك الفرس أوّل من أخذ العشر من الأرض و عمر بلاد بابل و مملكة الفرس، و رأيت فى التوراة التى فى يد اليهود أنّ أوّل من أخرج العشر من مواشيه و زروعه و جميع ما له خليل اللّه إبراهيم عليه السلام، و كان يدفع ذلك إلى ملك أورشليم التى هى أرض القدس، و اسمه ملكى صادق، فلما مات الخليل إبراهيم صلوات اللّه عليه و سلامه، اقتدى به

بنوه فى ذلك من بعده، و صاروا يدفعون العشر من أموالهم إلى أن بعث اللّه تعالى موسى عليه السلام، فأوجب على بنى إسرائيل إخراج العشر فى كل ما ملكت أيمانهم من جميع أموالهم بأنواعها، و جعل ذلك حقا لسبط لاوى الذين هم قرابة موسى عليه السلام.

و قال ابن يونس فى تاريخ مصر: كان ربيعة بن شرحبيل بن حسنة رضى اللّه عنه أحد من شهد فتح مصر من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم واليا لعمرو بن العاص رضى اللّه عنه على المكس، و كان زريق بن حيان على مكس إبلة فى خلافة عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه.

قال مؤلفه رحمه اللّه: و مع ذلك فقد كان أهل الورع من السلف يكرهون هذا العمل.

روى ابن قتيبة فى كتاب الغريب أن النبى صلى اللّه عليه و سلم قال: «لعن اللّه سهيلا، كان عشارا باليمن فمسخه اللّه شهابا».

و روى ابن لهيعة عن عبد الرحمن بن ميمون عن أبى إبراهيم المعافرىّ عن خالد بن ثابت: أنّ كعبا أوصاه و تقدّم إليه حين مخرجه مع عمرو بن العاص أن لا يقرب المكس.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۲

فهذا أعزّك اللّه معنى المكس عند أهل الإسلام، لا ما أحدثه الظالم هبة اللّه بن صاعد الفائزىّ، وزير الملك المعز ايبك التركمانىّ، أوّل من أقام من ملوك الترك بقلعة الجبل من المظالم التى سمّاها الحقوق السلطانية و المعاملات الديوانية، و تعرف اليوم بالمكوس، فذلك الرجس النجس الذى هو أقبح المعاصى و الذنوب الموبقات، لكثرة مطالبات الناس له و ظلاماتهم عنده، و تكرّر ذلك منه و انتهاكه للناس و أخذ أموالهم بغير حقها، و صرفها فى غير وجهها، و ذلك الذى لا يقرّ به متق. و على آخذه لعنة اللّه و الملائكة و الناس أجمعين.

و لنرجع إلى الكلام فى المقس فنقول: من الناس من يسميه المقسم بالميم بعد السين.

قال ابن عبد الظاهر فى كتاب خطط القاهرة: و سمعت من يقول أنه المقسم، قيل لأن قسمة الغنائم عند الفتوح كانت به، و لم أره مسطورا. و قال العماد محمد بن أبى الفرج محمد بن حامد الكاتب الأصفهانىّ فى كتاب سنا البرق الشامىّ: و جلس الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى البرج الذى بجوار جامع المقس فى السابع و العشرين من شوال سنة ست و تسعين و خمسمائة، و هذا المقسم على شاطىء النيل يزار، و هناك مسجد يتبرّك به الأبرار، و هو المكان الذى قسمت فيه الغنائم عند استيلاء الصحابة رضى اللّه عنهم على مصر، فلما أمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بإدارة السور على مصر و القاهرة، تولى ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش، و جعل نهايته التى تلى القاهرة عند المقسم، و بنى فيه برجا مشرفا على النيل، و بنى مسجدا جامعا، و اتصلت العمارة منه إلى البلد، و جامعه تقام فيه الجمعة و الجماعات، و هذا البرج عرف بقلعة قراقوش، و ما برح هنالك إلى أن هدمه الصاحب الوزير شمس الدين عبد اللّه المقسىّ وزير الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون، فى سنة بضع و سبعين و سبعمائة، عندما جدّد جامع المقس الذى أنشأه الخليفة الحاكم بأمر اللّه، فصار يعرف بجامع المقسىّ، هذا إلى اليوم، و ما برح جامع المقس هذا يشرف على النيل الأعظم إلى ما بعد سنة سبعمائة بعدّة أعوام.

قال جامع السيرة الطولونية: و ركب أحمد بن طولون فى غداة باردة إلى المقس، فأصاب بشاطئ النيل صيادا عليه خلق لا يواريه منه شىء، و معه صبىّ له فى مثل حاله و قد ألقى شبكته فى البحر، فلما رآه رقّ لحاله و قال: يا نسيم ادفع إلى هذا عشرين دينارا، فدفعها إليه و لحق ابن طولون، فسار أحمد بن طولون و لم يبعد و رجع فوجد الصياد ميتا و الصبىّ يبكى و يصيح، فظن ابن طولون أن بعض سودانه قتله و أخذ الدنانير منه، فوقف بنفسه عليه و سأل الصبىّ عن أبيه فقال له: هذا الغلام، و أشار إلى نسيم الخادم، دفع إلى أبى شيئا فلم يزل يقلّبه حتى وقع ميتا. فقال: فتشه يا نسيم، فنزل و فتشه فوجد الدنانير معه بحالها، فحرّض الصبىّ أن يأخذها فأبى و قال: هذه قتلت أبى، و إن أخذتها قتلتنى، فأحضر ابن طولون قاضى المقس و شيوخه و أمرهم أن يشتروا للصبىّ دارا بخمسمائة دينار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۳

تكون لها غلة، و أن تحبس عليه، و كتب اسمه فى أصحاب الجرايات و قال: أنا قتلت أباه لأنّ الغنى يحتاج إلى تدريج و إلّا قتل صاحبه، هذا كان يجب أن يدفع إليه دينارا بعد دينار حتى تأتيه هذه الحملة على تفرقة فلا تكثر فى عينه.

و قال القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانىّ رحمه اللّه فى تعلق المتجدّدات لسنة سبع و سبعين و خمسمائة، و فيه يعنى يوم الثلاثاء لست بقين من المحرّم، ركب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أعز اللّه نصره لمشاهدة ساحل النيل، و كان قد انحسر و تشمر عن المقس و ما يليه، و بعد عن السور و القلعة المستجدّين بالمقس، و أحضر أرباب الخبرة و استشارهم، فأشير عليه بإقامة الجراريف لرفع الرمال التى قد عارضت جزائرها طريق الماء و سدّته و وقفت فيه، و كان الأفضل بن أمير الجيوش لما تربى قدّام دار الملك جزيرة رمل كما هى اليوم، أراد أن يقرب البحر و ينقل الجزيرة، فأشير عليه بأن يبنى مما يلى الجزيرة أنفا خارجا فى البحر ليلقى التيار و ينقل الرمل، فعسر هذا و عظمت غرامته، فأشار عليه ابن سيد بأن يأخذ قصارى فخار تثقب و يعمل تحتها رؤوس برابخ و تلطخ بالزفت و تكبّ القصارى عليها و تدفن فى الرمل، فإذا أراد النيل و ركبها، نزل من خروق القصارى إلى الرءوس، فأدارها الماء و منعتها القصارى أن تنحدر، و دامت حركة الرمل بتحريك الماء للرؤوس، فانتقل الرمل، و ذكر أنّ للزفت خاصية فى تحويل الرمل قال: و فى هذا الوقت احترق النيل و صار البحر مخايض يقطعها الراجل، و توحل فيه المراكب، و تشمر الماء عن ساحل المقس و مصر، و ربّى جزائر رملية أشفق منها على المقياس لئلا يتقلص النيل عنه، و يحتاج إلى عمل غيره، و خشى منها أيضا على ساحل المقس لكون بنيان السور كان اتصل بالماء، و قد تباعد الآن عن السور، و صار المدّقوّته من برّ الغرب، و وقع النظر فى إقامة جراريف لقطع الجزائر التى رباها البحر، و عمر أنوف خارجة فى بر الجيزة ليميل بها الماء إلى هذا الجانب، و لم يتم شىء من ذلك.

و قال ابن المتوّج فى سنة خمسين و ستمائة: انتهى النيل فى احتراقه إلى أربعة أذرع و سبعة عشر أصبعا، و انتهى فى زيادته إلى ثمانية عشر ذراعا، و كان مثل ذلك فى دولة الملك الأشرف خليل بن قلاون، و كان نيلا عظيما سدّ فيه باب المقس، يعنى الباب الذى يعرف اليوم بباب البحر عند المقس، و فى سنة اثنتين و ستين و ستمائة أحضر إلى الملك الظاهر بيبرس طفل وجد ميتا بساحل المقس، له رأسان و أربعة أعين و أربعة أرجل و أربعة أيد، و أخبرنى وكيل أبى الشيخ المعمر حسام الدين حسن بن عمر السهروردىّ رحمه اللّه، و مولده سنة اثنتين و سبعمائة بالمقس، أنه يعرف باب البحر هذا، إذا خرج منه الإنسان فإنه يرى برّ الجيزة، لا يحول بينه و بينها حائل، فإذا زاد ماء النيل صار الماء عند الوكالة التى هى الآن خارج باب البحر المعروفة بوكالة الجبن، و إذا كان أيام احتراق النيل بقيت الرمال تجاه باب البحر، و ذلك قبل أن يحفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصرىّ، فلما حفر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۴

الخليج المذكور، أنشأ الناس البساتين و الدور كما يجىء إن شاء اللّه تعالى ذكره، و أدركنا المقس خطة فى غاية العمارة بها عدّة أسواق، و يسكنها أمم من الأكراد و الأجناد و الكتاب و غيرهم، و قد تلاشت من بعد سنة سبع و سبعين و سبعمائة، عند حدوث الغلاء بمصر فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين، فلما كانت المحن منذ سنة ست و ثمانمائة خربت الأحكار و المقس و غيره، و فيه إلى الآن بقية صالحة، و به خمسة جوامع تقام بها الجمعة، و عدّة أسواق، و معظمه خراب.

ذكر ميدان القمح

هذا المكان خارج باب القنطرة، يتصل من شرقية بعدوة الخليج، و من غربيه بالمقس، و بعضهم يسميه ميدان الغلة، و كان موضعا للغلال أيام كان المقس ساحل القاهرة، و كانت صبر القمح و غيره من الغلال توضع من جانب المقس إلى باب القنطرة عرضا، و تقف المراكب من جامع المقس إلى منية الشيرج طولا و يصير عند باب القنطرة فى أيام النيل من مراكب الغلة و غيرها ما يستر الساحل كله.

قال ابن عبد الظاهر: المكان المعروف بميدان الغلة و ما جاوره إلى ما وراء الخليج، لما ضعف أمر الخلافة و هجرت الرسوم القديمة

من التفرّج فى اللؤلؤة و غيرها، بنت الطائفة الفرحية الساكنون بالمقس، لأنهم ضاق بهم المقس، قبالة اللؤلؤة حارة سميت بحارة اللصوص، بسبب تعدّيهم فيها مع غيرهم إلى أن غيروا تلك المعالم، و قد كان ذلك قديما بستانا سلطانيا يسمّى بالمقسى، أمر الظاهر بن الحاكم بنقل أنشابه و حفره و جعله بركة قدّام اللؤلؤة مختلطة بالخليج، و كان للبستان المقدّم ذكره ترعة من البحر يدخل منها الماء إليه، و هو خليج الذكر الآن، فأمر بإبقائها على حالها مسلطة على البركة و الخليج يستنقع الماء فيها، فلما نسى ذلك على ما ذكرناه، عمد المذكورون و غيرهم إلى اقتطاع البركة من الخليج و جعلوا بينها و بين الخليج جسرا، و صار الماء يصل إليها من الترعة دون الخليج، و صارت منتزها للسودان المذكورين فى أيام النيل و الربيع، و لما كانت الأيام الآمرية أحبّ إعادة النزهة، فتقدّم وزيره المأمون بن البطائحىّ بإحضار عرفاء السودان المذكورين و أنكر عليهم، ذلك، فاعتذروا بكثرة الرمال، فأمر بنقل ذلك و أعطاهم أنعاما، فبنوا حارة بالقرب من دار كافور التى أسكنت بها الطائفة المأمونية قبالة بستان الوزير، و من المساجد الثلاثة المعلقة فى شرقيها، ثم أحضر الأبقار من البساتين و العدد و الآلات و نقض الجسر الذى بين البركة و الخليج، و عمّق البركة إلى أن صار الخليج مسلطا عليها. قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى، هذه البركة عرفت ببطن البقرة، و قد ذكر خبرها عند ذكر البرك من هذا الكتاب، و قد صار هذا الميدان اليوم سوقا تباع فيه القشة من النحاس العتيق و الحصر و غير ذلك، و فى بعضه سوق الغزل و به جامع يشرف على الخليج، و سكن هناك طائفة من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۵

المشارقة الحياك، و فيه سوق عامر بالمعايش.

ذكر أرض الطبالة

هذه الأرض على جانب الخليج الغربىّ بجوار المقس، كانت من أحسن منتزهات القاهرة، يمرّ النيل الأعظم من غربيها عندما يندفع من ساحل المقس، حيث جامع المقس الآن، إلى أن ينتهى إلى الموضع الذى يعرف بالجرف على جانب الخليج الناصرىّ، بالقرب من بركة الرطلىّ، و يمرّ من الجرف إلى غربىّ البعل، فتصير أرض الطبالة نقطة وسط، من غربيها النيل الأعظم، و من شرقيها الخليج، و من قبليها البركة المعروفة ببطن البقرة، و البساتين التى آخرها حيث الآن باب مصر بجوار الكبارة، و حيث المشهد النفيسىّ، و من بحريها أرض البعل و منظرة البعل و منظرة التاج و الخمس وجوه و قبة الهواء، فكانت رؤية هذه الأرض شيئا عجيبا فى أيام الربيع، و فيها يقول سيف الدين على بن قزل المشدّ:

إلى طبالة يعزون أرضالها من سندس الريحان بسط

و قد كتب الشقيق بها سطوراو أحسن شكلها للطل نقط

رياض كالعرائس حين تجلىيزين وجهها تاج و قرط

و إنما قيل لها أرض الطبالة: لأنّ الأمير أبا الحارث أرسلان البساسيرى، لما غاضب الخليفة القائم بأمر اللّه العباسىّ و خرج من بغداد يريد، الانتماء إلى الدولة الفاطمية بالقاهرة، أمدّه الخليفة المستنصر باللّه و وزيره الناصر لدين اللّه عبد الرحمن البازورىّ حتى استولى على بغداد، و أخذ قصر الخلافة، و أزال دولة بنى العباس منها، و أقام الدولة الفاطمية هناك، و سيّر عمامة القائم و ثيابه و شباكه الذى كان إذا جلس يستند إليه، و غير ذلك من الأموال و التحف إلى القاهرة فى سنة خمسين و أربعمائة، فلما وصل ذلك إلى القاهرة سرّ الخليفة المستنصر سرورا عظيما، و زينت القاهرة و القصور و مدينة مصر و الجزيرة، فوقفت نسب طبالة المستنصر، و كانت امرأة مرجلة تقف تحت القصر فى المواسم و الأعياد و تسير أيام الموكب و حولها طائفتها و هى تضرب بالطبل، و تنشد، فأنشدت و هى واقفة تحت القصر:

يا بنى العباس ردّواملك الأمر معدّ

ملّككم ملك معارو العوارى تستردّ

فأعجب المستنصر ذلك منها و قال لها تمنى، فسألت أن تقطع الأرض المجاورة للمقس، فأقطعها هذه الأرض. و قيل لها من حينئذ أرض الطبالة، و أنشأت هذه الطبالة تربة بالقرافة الكبرى تعرف بتربة نسب. قال ابن عبد الظاهر: أرض الطبالة منسوبة إلى امرأة مغنية تعرف بنسب، و قيل بطرب، مغنية المستنصر. قال: فوهبها هذه الأرض المعروفة بأرض الطبالة، و حكرت و بنيت آدرا و بيوتا، و كانت من ملح القاهرة و بهجتها، انتهى. ثم أن أرض

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۶

الطبالة خربت فى سنة ست و تسعين و ستمائة عند حدوث الغلاء و الوباء فى سلطنة الملك العادل كتبغا، حتى لم يبق فيها إنسان يلوح، و بقيت خرابا إلى ما بعد سنة إحدى عشرة و سبعمائة، فشرع الناس فى سكناها قليلا قليلا، فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصرىّ فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، كانت هذه الأرض بيد الأمير بكتمر الحاجب، فما زال بالمهندسين حتى مرّوا بالخليج من عند الجرف على بركة الطوّابين التى تعرف اليوم ببركة الحاجب، و ببركة الرطلىّ، فمرّوا به من هناك حتى صبّ فى الخليج الكبير من آخر أرض الطبالة، فعمر الأمير بكتمر المذكور هناك القنطرة التى تعرف بقنطرة الحاجب على الخليج الناصرىّ، و أقام جسرا من القنطرة المذكورة إلى قريب من الجرف، فصار هذا الجسر فاصلا بين بركة الحاجب و الخليج الناصرىّ، و أذن للناس فى تحكيره فبنوا عليه و على البركة الدور، و عمرت بسبب ذلك أرض الطبالة، و صار بها عدّة حارات منها: حارة العرب، و حارة الأكراد، و حارة البزازرة، و حارة العياطين، و غير ذلك. و بقى فيها عدّة أسواق و حمّام و جوامع تقام بها الجمعة، و أقبل الناس على التنزه بها أيام النيل و الربيع، و كثرت الرغبات فيها لقربها من القاهرة، و ما برحت على غاية من العمارة إلى أن حدث الغلاء فى سنة سبع و سبعين و سبعمائة أيام الأشرف شعبان بن حسين، فخرب كثير من حارات أرض الطبالة، و بقيت منها بقية إلى أن دثرت منذ سنة ست و ثمانمائة، و صارت كيمانا، و بقى فيها من العامر الآن الاملاك المطلة على البركة التى ذكرت عند ذكر البرك من هذا الكاتب، و فيها بقعة تعرف بالجنينة تصغير جنة من أخبث بقاع الأرض، يعمل فيها بمعاصى اللّه عز و جلّ، و تعرف ببيع الحشيشة التى يبتلعها اراذل الناس، و قد فشت هذه الشجرة الخبيثة فى وقتنا هذا فشوّا زائدا، و ولع بها أهل الخلاعة و السخف ولوعا كثيرا، و تظاهروا بها من غير احتشام بعدما أدركناها تعدّ من أرذل الخبائث و أقبح القاذورات، و ما شىء فى الحقيقة أفسد لطباع البشر منها، و لاشتهارها فى وقتنا هذا، عند الخاص و العام بمصر و الشام و العراق و الروم، تعين ذكرها، و اللّه تعالى أعلم.

ذكر حشيشة الفقراء

قال الحسن بن محمد فى كتاب السوانح الأدبية فى مدائح القنبية: سألت الشيخ جعفر بن محمد الشيرازىّ الحيدرىّ ببلدة تستر فى سنة ثمان و خمسين و ستمائة، عن السبب فى الوقوف على هذا العقار و وصوله إلى الفقراء خاصة، و تعدّيه إلى العوام عامّة، فذكر لى أن شيخه شيخ الشيوخ حيدرا رحمه اللّه، كان كثير الرياضة و المجاهدة، قليل الاستعمال للغذاء، قد فاق فى الزهادة و برز فى العبادة، و كان مولده بنشاور من بلاد خراسان، و مقامه بجبل بين نشاور و مارماه و كان قد اتخذ بهذا الجبل زاوية و فى صحبته جماعة من الفقراء، و انقطع فى موضع منها و مكث بها أكثر من عشر سنين لا يخرج منها، و لا يدخل عليه أحد غيرى للقيام بخدمته. قال: ثم أن الشيخ طلع ذات يوم و قد اشتدّ الحرّ وقت القائلة منفردا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۲۷

بنفسه إلى الصحراء، ثم عاد و قد علا وجهه نشاط و سرور، بخلاف ما كنا نعهده من حاله قبل، و أذن لأصحابه فى الدخول عليه، و أخذ يحادثهم، فلما رأينا الشيخ على هذه الحالة من المؤانسة بعد إقامته تلك المدّة الطويلة فى الخلوة و العزلة، سألناه عن ذلك فقال: بينما أنا فى خلوتى إذ خطر ببالى الخروج إلى الصحراء منفردا، فخرجت فوجدت كل شىء من النبات ساكنا لا يتحرّك لعدم الريح و

شدّة القيظ، و مررت بنبات له ورق، فرأيته فى تلك الحال يميس بلطف و يتحرّك من غير عنف، كالثمل النشوان، فجعلت أقطف منه أوراقا و آكلها، فحدث عندى من الارتياح ما شاهدتموه، و قوموا بنا حتى أوقفكم عليه لتعرفوا شكله.

قال: فخرجنا إلى الصحراء، فأوقفنا على النبات، فلما رأيناه قلنا هذا نبات يعرف بالقنب، فأمرنا أن نأخذ من ورقه و نأكله، ففعلنا، ثم عدنا إلى الزاوية فوجدنا فى قلوبنا من السرور و الفرح ما عجزنا عن كتمانه، فلما رآنا الشيخ على الحالة التى وصفنا، أمرنا بصيانة هذا العقار، و أخذ علينا الأيمان أن لا نعلم به أحدا من عوامّ الناس، و أوصانا أن لا نخفيه عن الفقراء، و قال إن اللّه تعالى قد خصكم بسرّ هذا الورق ليذهب بأكله همومكم الكثيفة، و يجلو بفعله أفكاركم الشريفة، فراقبوه فيما أودعكم، و راعوه فيما استرعاكم. قال الشيخ جعفر: فزرعتها بزاوية الشيخ حيدر بعد أن وقفنا على هذا السرّ فى حياته، و أمرنا بزرعها حول ضريحه بعد وفاته، و عاش الشيخ حيدر بعد ذلك عشر سنين و أنا فى خدمته لم أره يقطع أكلها فى كل يوم، و كان يأمرنا بتقليل الغذاء و أكل هذه الحشيشة، و توفى الشيخ حيدر سنة ثمان عشرة بزاويته فى الجبل، و عمل على ضريحه قبة عظيمة، و أتته النذور الوافرة من أهل خراسان و عظموا قدره و زاروا قبره، و احترموا أصحابه، و كان قد أوصى أصحابه عند وفاته أن يوقفوا ظرفاء أهل خراسان و كبراءهم على هذا العقار و سرّه، فاستعملوه.

قال: و لم تزل الحشيشة شائعة ذائعة فى بلاد خراسان و معاملات فارس، و لم يكن يعرف أكلها أهل العراق حتى ورد إليها صاحب هرمز، و محمد بن محمد صاحب البحرين، و هما من ملوك سيف البحر المجاور لبلاد فارس فى أيام الملك الإمام المستنصر باللّه، و ذلك فى سنة ثمان و عشرين و ستمائة، فحملها أصحابهما معهم و أظهروا للناس أكلها، فاشتهرت بالعراق و وصل خبرها إلى أهل الشام و مصر و الروم فاستعملوها. قال: و فى هذه السنة ظهرت الدراهم ببغداد، و كان الناس ينفقون القراضة، و قد نسب إظهار الحشيشة إلى الشيخ حيدر الأديب محمد بن علىّ بن الأعمى الدمشقىّ فى أبيات و هى:

دع الخمر و اشرب من مدامة حيدرمعنبرة خضراء مثل الزبرجد

يعاطيكها ظبى من الترك أغيديميس على غصن من البان أملد

فنحسبها فى كفه إذ يديرهاكرقم عذار فوق خدّ مورّد

 يرنحها أدنى نسيم تنسّمتفتهفو إلى برد النسيم المردّد

و تشدو على أغصانها الورق فى الضحىفيطربها سجع الحمام المغرّد

و فيها معان ليس فى الخمر مثلهافلا تستمع فيها مقالا مفند

هى البكر لم تنكح بماء سحابةو لا عصرت يوما برجل و لا يد

و لا عبث القسيس يوما بكأسهاو لا قرّبوا من دنها كل مقعد

و لا نصّ فى تحريمها عند مالكو لا حدّ عند الشافعىّ و أحمد

و لا أثبت النعمان تنجيس عينهافخذها بحدّ المشرفىّ المهند

و كف أكفّ الهمّ بالكف و استرحو لا تطرح يوم السرور إلى غد

و كذلك نسب إظهارها إلى الشيخ حيدر الأديب أحمد بن محمد بن الرسّام الحلبىّ فقال:

و مهفهف بادى النفار عهدتهلا ألتقيه قط غير معبس

فرأيته بعض الليالى ضاحكاسهل العريكة ريضا فى المجلس

فقضيت منه مآربى و شكرتهإذ صار من بعد التنافر مؤنسى

فأجابنى لا تشكرنّ خلائقىو اشكر شفيعك فهو خمر المفلس

فحشيشة الأفراح تشفع عندناللعاشقين ببسطها للأنفس

و إذا هممت بصيد ظبى نافرفاجهد بأن يرعى حشيش القنبس

و اشكر عصابة حيدر إذ أظهروالذوى الخلاعة مذهب المتخمّس

ودع المعطّل للسرور و خلنىمن حسن ظنّ الناس بالمتنمّس

و قد حدّثنى الشيخ محمد الشيرازىّ القلندرى أنّ الشيخ حيدرا لم يأكل الحشيشة فى عمره البتة، و إنما عامّة أهل خراسان نسبوها إليه لاشتهار أصحابه بها، و أن إظهارها كان قبل وجوده بزمان طويل، و ذلك أنه كان بالهند شيخ يسمى بيررطن، هو أوّل من أظهر لأهل الهند أكلها، و لم يكونوا يعرفونها قبل ذلك، ثم شاع أمرها فى بلاد الهند حتى ذاع خبرها ببلاد اليمن، ثم فشا إلى أهل فارس، ثم ورد خبرها إلى أهل العراق و الروم و الشام و مصر، فى السنة التى قدّمت ذكرها. قال: و كان بيررطن فى زمن الأكاسرة، و أدرك الإسلام و أسلم، و أنّ الناس من ذلك الوقت يستعملونها، و قد نسب إظهارها إلى أهل الهند علىّ بن مكىّ فى أبيات أنشدنيها من لفظه و هى:

ألا فاكفف الأحزان عنى مع الضرّبعذراء زفّت فى ملاحفها الخضر

تجلت لنا لما تحلّت بسندسفجلّت عن التشبيه فى النظم و النثر

بدت تملأ الأبصار نورا بحسنهافأخجل نور الروض و الزهر بالزهر

عروس يسرّ النفس مكنون سرّهاو تصبح فى كل الحواس إذا تسرى

فللذوق منها مطعم الشهد رائقاو للشم منها فائق المسك بالنشر

و فى لونها للطرف أحسن نزهةيميل إلى رؤياه من سائر الزهر

تركّب من قان و أبيض فانثنتتيه على الأزهار عالية القدر

فيكسف نور الشمس حمرة لونهاو تخجل من مبيضّه طلعة البدر

علت رتبة فى حسنها و كأنهازبرجد روض جاده وابل القطر

تبدّت فأبدت ما أجنّ من الهوىو جاءت فولت جند همى و الفكر

جميلة أوصاف جليلة رتبةتغالت فغالى فى مدائحها شعرى

فقم فانف جيش الهمّ و اكفف يد العنابهندية أمضى من البيض و السمر

بهندية فى أصل إظهار أكلهاإلى الناس لا هندية اللون كالسّمر

تزيل لهيب الهمّ عنّا بأكلهاو تهدى لنا الأفراح فى السرّ و الجهر

قال: و أنا أقول إنه قديم معروف منذ أوجد اللّه تعالى الدنيا، و قد كان على عهد اليونانيين، و الدليل على ذلك ما نقله الأطباء فى كتبهم عن بقراط و جالينوس من مزاج هذا العقار و خواصه، و منافعه و مضارّه، قال ابن جزلة فى كتاب منهاج البيان: القنب الذى هو ورق الشهدانج، منه بستانىّ و منه برّىّ، و البستانىّ أجوده، و هو حار يابس فى الدرجة الثالثة، و قيل حرارته فى الدرجة الأولى، و يقال أنه بارد يابس فى الدرجة الأولى، و البرىّ منه حار يابس فى الدرجة الرابعة. قال: و يسمى بالكفّ. أنشدنى تقىّ الدين الموصلى:

كف كفّ الهموم بالكفّ فالكفّ شفاء للعاشق المهموم

بابنة القنّب الكريمة لا بابنة كرم بعد البنت الكروم

قال: و الفقراء إنما يقصدون استعماله مع ما يجدون من اللذة تجفيفا للمنىّ، و فى إبطاله قطع لشهوة الجماع كى لا تميل نفوسهم إلى ما يوقع فى الزنا. و قال بعض الأطباء:

ينبغى لمن يأكل الشهدانج أو ورقه، أن يأكله مع اللوز أو الفستق أو السكر أو العسل أو الخشخاش، و يشرب بعده السكنجبين ليدفع ضرره، و إذا قلى كان أقلّ لضرره، و لذلك جرت العادة قبل أكله أن يقلى، و إذا أكل غير مقلىّ كان كثير الضرر، و أمزجة الناس تختلف فى أكله، فمنهم من لا يقدر أن يأكله مضافا إلى غيره، و منهم من يضيف إليه السكر أو العسل أو غيره من الحلاوات. و قرأت

فى بعض الكتب أن جالينوس قال إنها تبرىء من التخمة، و هى جيدة للهضم، و ذكر ابن جزلة فى كتاب المنهاج أن بزر شجر القنب البستانىّ هو الشهدانج، و ثمره يشبه حب السمنة، و هو حب يعصر منه الدهن. و حكى عن حنين بن إسحاق أنّ شجرة البرى تخرج فى القفار المنقطعة على قدر ذراع، و ورقه يغلب عليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۰

البياض. و قال يحيى بن ماسويه فى كتاب تدبير أبدان الأصحاء: أنّ من غلب على بدنه البلغم ينبغى أن تكون أغذيته مسخنة مجففة، كالزبيب و الشهدانج.

و قال صاحب كتاب إصلاح الأدوية: أنّ الشهدانج يدرّ البول، و هو عسر الانهضام، ردىء الخلط للمعدة. قال: و لم أجد لإزالة الزفر من اليد أبلغ من غسلها بالحشيشة، و رأيت من خواصها أن كثيرا من ذوات السموم كالحية و نحوها إذا شمت ريحها هربت، و رأيت أن الإنسان إذا أكلها و وجد فعلها فى نفسه، و أحبّ أن يفارقه فعلها قطر فى منخريه شيئا من الزيت، و أكل من اللبن الحامض. و مما يكسر قوّة فعلها و يضعفه السباحة فى الماء الجارى، و النوم يبطله.

قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى: دع نزاهة القوم، فما بلى الناس بأفسد من هذه الشجرة لأخلاقهم، و لقد حدّثنى القاضى الرئيس تاج الدين إسماعيل بن عبد الوهاب بن الخطباء المخزومىّ، قبل اختلاطه، عن الرئيس علاء الدين بن نفيس: أنه سئل عن هذه الحشيشة فقال: اعتبرتها فوجدتها تورث السفالة و الرذالة، و كذلك جرّبنا فى طول عمرنا من عاناها فإنه ينحط فى سائر أخلاقه إلى ما لا يكاد أن يبقى له من الإنسانية شىء البتة.

و قد قال ابن البيطار فى كتاب المفردات: و من القنب نوع ثالث يقال له القنب الهندىّ، و لم أره بغير مصر، و يزرع فى البساتين و يقال له الحشيشة عندهم أيضا، و هو يسكر جدّا إذا تناول منه الإنسان قدر درهم أو درهمين، حتى أنّ من أكثر منه يخرجه إلى حدّ الرعونة، و قد استعمله قوم فاختلت عقولهم، و أدّى بهم الحال إلى الجنون، و ربما قتلت.

و رأيت الفقراء يستعملونها على أنحاء شتى، فمنهم من يطبخ الورق طبخا بليغا و يدعكه باليد دعكا جيدا، حتى يتعجن، و يعمل منه أقراصا، و منهم من يجففه قليلا- ثم يحمصه و يفركه باليد، و يخلط به قليل سمسم مقشور و سكّر و يستفه و يطيل مضغه، فإنهم يطربون عليه و يفرحون كثيرا، و ربما أسكرهم فيخرجون به إلى الجنون أو قريب منه، و هذا ما شاهدته من فعلها، و إذا خيف من الإكثار منه فليبادر إلى القىء بسمن و ماء سخن، حتى تنقى منه المعدة، و شراب الحماض لهم فى غاية النفع، فانظر كلام العارف فيها و احذر من إفساد بشريّتك و تلاف أخلاقك باستعمالها، و لقد عهدناها و ما يرمى بتعاطيها إلّا أراذل الناس، و مع ذلك فيأنفون من انتسابهم لها لما فيها من الشنعة، و كان قد تتبع الأمير سودون الشيخونىّ رحمه اللّه الموضع الذى يعرف بالجنينة من أرض الطبالة و باب اللوق و حكر و اصل ببولاق، و أتلف ما هنالك من هذه الشجرة الملعونة، و قبض على من كان يبتلعها من أطراف الناس و رذلائهم و عاقب على فعلها بقلع الأضراس، فقلع أضراس كثير من العامّة فى نحو سنة ثمانين و سبعمائة، و ما برحت هذه الخبيثة تعدّ من القاذورات حتى قدم سلطان بغداد أحمد بن أويس فارا من تيمورلنك إلى القاهرة فى سنة خمس و تسعين و سبعمائة، فتظاهر أصحابه بأكلها، و شنع الناس عليهم و استقبحوا ذلك من فعلهم و عابوه عليهم، فلما سافر من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۱

القاهرة إلى بغداد و خرج منها ثانيا و أقام بدمشق مدّة، تعلم أهل دمشق من أصحابه التظاهر بها. و قدم إلى القاهرة شخص من ملاحدة العجم صنع الحشيشة بعسل، خلط فيها عدّة أجزاء مجففة، كعرف اللفاح و نحوه، و سمّاها العقدة و باعها بخفية، فشاع أكلها و فشا فى كثير من الناس مدّة أعوام، فلما كان فى سنة خمس عشرة و ثمانمائة شنع التجاهر بالشجرة الملعونة، فظهر أمرها و اشتهر أكلها و ارتفع الاحتشام من الكلام بها، حتى لقد كادت أن تكون من تحف المترفين، و بهذا السبب غلبت السفالة على الأخلاق، و ارتفع ستر الحياء و الحشمة من بين الناس، و جهروا بالسوء من القول، و تفاخروا بالمعايب، و انحطوا عن كل شرف و فضيلة، و تحلوا بكل ذميمة من

الأخلاق و رذيلة، فلولا الشكل لم تقض لهم بالإنسانية، و لو لا الحس لما حكمت عليهم بالحيوانية، و قد بدأ المسخ فى الشمائل و الأخلاق المنذر بظهوره على الصور و الذوات، عافانا اللّه تبارك و تعالى من بلائه، و أرض الطبالة الآن بيد ورثة الحاجب.

ذكر أرض البعل و التاج

اشارة

قال ابن سيده: البعل، الأرض المرتفعة التى لا يصيبها المطر إلّا مرّة واحدة فى السنة.

و قيل: البعل، كلّ شجر أو زرع لا يسقى. و قيل: البعل: ما سقته السماء، و قد استبعل الموضع.

و البعل: من النخل ما شرب بعروقه من غير سقى و لا ماء سماء. و قيل هو ما اكتفى بماء السماء، و البعل ما أعطى من الأتاوة على سقى النخل، و استبعل الموضع و النخل صار بعلا. و أرض البعل هذه بجانب الخليج، تتصل بأرض الطبالة، كانت بستانا يعرف بالبعل، و فيه منظرة أنشأه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالىّ، و جعل على هذا البستان سورا، و إلى جانب بستان البعل هذا بستان التاج، و بستان الخمس وجوه، و قد ذكرت مناظر هذه البساتين و ما كان فيها للخلفاء الفاطميين من الرسوم عند ذكر المناظر من هذا الكتاب.

و أرض البعل فى هذا الوقت مزرعة تجاه قنطرة الأوز التى على الخليج. يخرج الناس للتنزه هناك أيام النيل و أيام الربيع، و كذلك أرض التاج فإنها اليوم قد زالت منها الأشجار و استقرّت من أراضى المنية الخراجية، و فى أيام النيل ينبت فيها نبات يعرف بالبشنين، له ساق طويل و زهره شبه اللينوفر، و إذا أشرقت الشمس انفتح فصار منظرا أنيقا، و إذا غربت الشمس انضم. و يذكر أنّ من العصافير نوعا صغيرا يجلس العصفور منه فى دار البشنينة، فإذا أقبل الليل انضمت عليه و غطست فى الماء فبات فى جوفها آمنا إلى أن تشرق الشمس، فتصعد البشنينة و تنفتح فيطير العصفور، و هو شىء ما برحنا نسمعه. و هذا البشنين يصنع من زهره دهن يعالج به فى البرسام و ترطيب الدماغ فينجع، و أصله يعرف بالبيارون، يجمعه الأعراب و يأكلونه نيئا و مطبوخا، و هو يميل إلى الحرارة يسيرا، و يزيد فى الباه، و يسخّن المعدة و يقوّيها، و يقطع الزحير، ذكر ذلك ابن البيطار فى كتاب المفردات، و فى أيام الربيع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۲

تزرع هذه الأراضى فتذكّر بحسنها و نضارتها جنة الخلد التى وعد المتقون. و أدركت بهذه الأرض بقايا نخل و أشجار و قد تلفت.

ذكر ضواحى القاهرة

قال ابن سيده: ضواحى كل شىء نواحيه البارزة للشمس، و الضواحى من النخيل ما كان خارج السور على صفة عالية لأنها تضحى للشمس. و فى كتاب النبىّ صلى اللّه عليه و سلم لأهل بدر:

«لكم الصامتة من النخل و لنا الضاحية من البعل» يعنى بالصامتة: ما أطاف به سور المدينة، و ضواحى الروم ما ظهر من بلادهم و برز. و يقال فى زماننا لما خرج عن القاهرة مما هو فى جنبتى الخليج من القرى ضواحى القاهرة، و قد عرفت أصل ذلك من اللغة، و تعرف البلاد التى من الضواحى فى غربىّ الخليج من القرى ضواحى القاهرة، و قد عرفت أصل ذلك من اللغة، و تعرف البلاد التى من الضواحى فى غربىّ الخليج بالحبس الجيوشىّ، و هى: بهتين، و الأميرية، و المنية. و كان أيضا بناحية الجيزة من جملة الحبس الجيوشىّ ناحية سفط و نهيا و وسيم، حبس هذه البلاد أمير الجيوش بدر الجمالىّ على عقبه. فلما زالت الدولة الفاطمية جعل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر الأسطول لأخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و سلّمه له فى سنة سبع و ثمانين و خمسمائة، و أفرد لديوان الأسطول من الأبواب الديوانية الزكاة التى كانت تجبى من الناس بمصر، و الحبس الجيوشى بالبرّين و النطرون و الخراج، و ما معه من ثمن القرظ، و ساحل السنط، و المراكب الديوانية، و أشنأ و طنتدى و أحيل ورثة أمير الجيوش على غير الحبس الذى لهم، ثم

أفتى الفقهاء ببطلان الحبس، و قبضت النواحى و صارت من جملة أموال الخراج، فعرفت ببلاد الملك، و هذه الضواحى الآن منها ما هو وقف و منها ما هو فى الديوان السلطانىّ، و خراجها يتميز على غيرها من النواحى، و يزرع أكثرها من الكتان و المقاثى و غيرها.

ذكر منية الأمراء

قال ياقوت فى كتاب المشترك: المنية ثلاثة و أربعون موضعا، و جميعها بمصر غير واحدة، و بمصر من القرى المسماة بهذا الاسم ما يقارب المائتين. قال: و منية الشيرج، و يقال لها منية الأمير و منية الأمراء، بليدة فيها أسواق على فرسخ من القاهرة فى طريق الإسكندرية. و ذكر الشريف محمد بن أسعد الجوانىّ النسابة: أن قتلى أهل الشام الذين قتلوا فى وقعة الخندق، بين مروان بن الحكم و عبد الرحمن بن جحدم أمير مصر، فى سنة خمس و ستين من الهجرة، دفنوا حيث موضع منية الشيرج هذه، و كانوا نحوا من الثمانمائة.

و قال ابن عبد الظاهر: منية الأمراء من الحبس الجيوشىّ الشرقىّ الذى كان حبسه أمير الجيوش، ثم ارتجع. و فى كل سنة يأكل البحر منها جانبا، و يجدّد جامعها و دورها حتى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۳

صار جامعها القديم و دورها فى برّ الجيزة، و غلب البحر عليها، و هذه المنية من محاسن منتزهات القاهرة، و كانت قد كثرت العمائر بها و اتخذها الناس منزل قصف و دار لعب و لهو و مغنى صبابات، و بها كان يعمل عيد الشهيد الذى تقدّم ذكره عند ذكر النيل من هذا الكتاب، لقربها من ناحية شبرا، و بها سوق فى كل يوم أحد يباع فيه البقر و الغنم و الغلال، و هو من أسواق مصر المشهورة، و أكثر من كان يسكن بها النصارى، و كانت تعرف بعصر الخمر و بيعه، حتى أنه لما عظمت زيادة ماء النيل فى سنة ثمان عشرة و سبعمائة، و كانت الغرقة المشهورة و غرقت شبرا و المنية، تلف فيها من جرار الخمر ما ينيف على ثمانين ألف جرّة مملوءة بالخمر، و باع نصرانىّ واحد مرّة فى يوم عيد الشهيد بها خمرا باثنى عشر ألف درهم فضة، عنها يومئذ نحو الستمائة دينار، و كسر منها الأمير بلبغا السالمىّ فى صفر سنة ثلاث و ثمانمائة ما ينيف على أربعين ألف جرّة مملوءة بالخمر.

و ما برحت تغرق فى الأنيال العالية إلى أن عمل الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة الجسر من بولاق إلى المنية، كما ذكر عند ذكر الجسور من هذا الكتاب. فأمن أهلها من الغرق، و أدركناها عامرة بكثرة المساكن و الناس و الأسواق و المناظر، و تقصد للنزهة بها أيام النيل و الربيع، لا سيما فى يومى الجمعة و الأحد، فإنه كان للناس بها فى هذين اليومين مجتمع ينفق فيه مال كثير، ثم لما حدثت المحن من سنة ست و ثمانمائة، الحّ المناسر بالهجوم عليها فى الليل و قتلوا من أهلها عدّة، فارتحل الناس منها و خلت أكثر دورها، و تعطلت حتى لم يبق بها سوى طاحون واحدة لطحن القمح، بعد ما كان بها ما ينيف على ثمانين طاحونة، و بها الآن بقية و هى جارية فى الديوان السلطانى المعروف بالمفرد.

ذكر كوم الريش

هذا اسم لبلد فيما بين أرض البعل و منية الشيرج. كان النيل يمرّ بغربيها بعد مروره بغربىّ أرض البعل، و أدركت آثار الجروف باقية من غربىّ البعل، و غربىّ كوم الريش إلى أطراف المنية، حتى تغيرت الأحوال من بعد سنة ست و ثمانمائة، ففاض ماء النيل فى أيام الزيادة و نزل فى الدرب الذى كان يسلك فيه من أرض الطبالة إلى المنية، فانقطع هذا الدرب و ترك الناس سلوكه، و كان كوم الريش من أجلّ منتزهات القاهرة، و رغب أعيان الناس فى سكناها للتنزه بها.

و أخبرنى شيخنا قاضى القضاة مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم الحنفى، و خال أبى تاج الدين إسماعيل بن أحمد بن الخطباء، أنهما أدركا بكوم الريش عدّة أمراء يسكنون فيها دائما، و أنه كان من جملة من يسكن فيها دائما نحو الثمانمائة من الجند السلطانى، و أنا

أدركت بها سوقا عامرا بالمعايش بأنواعها من المآكل، لا أعرف اليوم بالقاهرة مثله فى كثرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۴

المآكل، و أدركت بها حمّاما و جامعين تقام بهما الجمعة، و موقف مكارية، و منارة لا يقدر الواصف أن يعبر عن حسنها لما اشتملت عليه من كل معنى رائق بهج، و ما برحت على ذلك إلى أن حدثت المحن من سنة ست و ثمانمائة، فطرقها أنواع الرزايا حتى صارت بلاقع ، و جهلت طرقها و تغيرت معاهدها و نزل بها من الوحشة ما أبكانى، و أنشدت فى رؤيتها عندما شاهدتها خرابا:

قفرا كأنك لم تكن تلهو بهافى نعمة و أوانس أتراب

و كذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى و هى ظالمة، إنّ أخذه أليم شديد.

ذكر بولاق

اشارة

قد تقدّم فى غير موضع من هذا الكتاب أن ساحل النيل كان بالمقس، و أن الماء انحسر بعد سنة سبعين و خمسمائة عن جزيرة عرفت بجزيرة الفيل، و تقلص ماء النيل عن سور القاهرة الذى ينتهى إلى المقس، و صارت هناك رمال و جزائر، ما من سنة إلّا و هى تكثر، حتى بقى ماء النيل لا يمرّ بها إلا أيام الزيادة فقط. و فى طول السنة ينبت هناك البوص و الحلفاء، و تنزل المماليك السلطانية لرمى النشاب فى تلك التلال الرمل. فلما كان سنة ثلاث عشرة و سبعمائة رغب الناس فى العمارة بديار مصر، لشغف السلطان الملك الناصر بها و مواظبته عليها، فكأنما نودى فى القاهرة و مصر أن لا يتأخر أحد من الناس عن إنشاء عمارة، وجدّ الأمراء و الجند و الكتّاب و التجّار و العامّة فى البناء، و صارت بولاق حينئذ تجاه بولاق التكرور، يزرع فيها القصب و القلقاس على ساقية تنقل الماء من النيل، حيث جامع الخطيرى الآن، فعمّر هناك رجل من التجار منظرة، و أحاط جدارا على قطعة أرض غرس فيها عدّة أشجار و تردّد إليها للنزهة.

فلما مات انتقلت إلى ناصر الدين محمد بن الجوكندار، فعمر الناس بجانبها دورا على النيل و سكنوا و رغبوا فى السكنى هناك، فامتدّت المناظر على النيل من الدار المذكورة إلى جزيرة الفيل، و تفاخروا فى إنشاء القصور العظيمة هناك، و غرسوا من ورائها البساتين العظيمة، و أنشأ القاضى ابن المغربىّ رئيس الأطباء بستانا، اشتراه منه القاضى كريم الدين ناظر الخاص للأمير سيف الدين طشتمر الساقى، بنحو مائة ألف درهم فضة. و كثر التنافس بين الناس فى هذه الناحية، و عمروها حتى انتظمت العمارة فى الطول على حافة النيل، من منية الشيرج إلى موردة الحلفاء، بجوار الجامع الجديد خارج مصر، و عمر فى العرض على حافة النيل الغربية، من تجاه الخندق بحرىّ القاهرة، إلى منشأة المهرانىّ. و بقيت هذه المسافة العظيمة كلها بساتين و أحكارا عامرة بالدور و الأسواق و الحمّامات و المساجد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۵

و الجوامع و غيرها، و بلغت بساتين جزيرة الفيل خاصة ما ينيف على مائة و خمسين بستانا، بعد ما كانت فى سنة إحدى عشرة و سبعمائة نحو العشرين بستانا.

و أنشأ القاضى الفاضل جلال الدين القزوينىّ، و ولده عبد اللّه، دارا عظيمة على شاطىء النيل بجزيرة الفيل، عند بستان الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب. و أنشأ الأمير عز الدين الخطيرىّ جامعة ببولاق على النيل، و أنشأ بجواره ربعين. و أنشأ القاضى شرف الدين بن زنبور بستانا، و أنشأ القاضى فخر الدين المعروف بالفخر ناظر الجيش بستانا، و حكر الناس حول هذه البساتين و سكنوا هناك، ثم حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرىّ سنة خمس و عشرين و سبعمائة، فعمر الناس على جانبى هذا الخليج، و كان

أوّل من عمر بعد حفر الخليج الناصرىّ المهاميزى، أنشأ بستانا و مسجدا هما موجودان إلى اليوم، و تبعه الناس فى العمارة حتى لم يبق فى جميع هذه المواضع مكان بغير عمارة، و بقى من يمرّ بها يتعجب، إذ ما بالعهد من قدم، بينما هى تلال رمل و حلافى، إذ صارت بساتين و مناظر و قصورا و مساجد و أسواقا و حمامات و أزقة و شوارع، و فى ناحية بولاق هذه كان خص الكيالة الذى يؤخذ فيه مكس الغلة إلى أن أبطله الملك الناصر محمد بن قلاوون، كما ذكر فى الروك الناصرىّ من هذا الكتاب. و لما كانت سنة ست و ثمانمائة انحسر ماء النيل عن ساحل بولاق، و لم يزل يبعد حتى صار على ما هو عليه الآن، و ناحية بولاق الآن عامرة، و تزايدت العمائر بها، و تجدّد فيها عدّة جوامع و حمّامات و رباع و غيرها.

ذكر ما بين بولاق و منشأة المهرانى

و كان فيما بين بولاق و منشأة المهرانى خط فم الخور، و خط حكر ابن الأثير، و خط زريبة قوصون، و خط الميدان السلطانىّ بموردة الملح، و خط منشأة الكتبة.

فأمّا

فم الخور، فكان فيه من المناظر الجليلة الوصف عدّة تشرف على النيل، و من ورائها البساتين، و يفصل بين البساتين و الدور المطلة على النيل شارع مسلوك، و أنشئ هناك حمّام و جامع و سوق، و قد تقدّم ذكر الخور، و أنشأ هناك القاضى علاء الدين بن الأثير دارا على النيل، و كان إذ ذاك كاتب السرّ، و بنى الناس بجواره، فعرف ذلك الخط بحكر ابن الأثير، و اتصلت العمارة من بولاق إلى فم الخور، و من فم الخور إلى حكر ابن الأثير، و ما برح فيه من مساكن الأكابر من الوزراء و الأعيان، و من الدور العظيمة ما يتجاوز الوصف.

و أما

الزريبة فإن الملك الناصر محمد بن قلاوون، لما وهب البستان الذى كان بالميدان الظاهرىّ للأمير قوصون أنشأ قدّامه على النيل زريبة، و وقفها، فعمر الناس هناك حتى انتظمت العمارة من حكر ابن الأثير إلى الزريبة، و عمر هناك حمّام و سوق كبير، و طواحين و عدّة مساكن اتصلت باللوق.

و أما

زريبة السلطان، فإن الملك الناصر محمد بن قلاوون لما عمر ميدان المهارى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۶

المجاور لقناطر السباع الآن، أنشأ زريبة فى قبلىّ الجامع الطيبرسىّ، و حفر لأجل بناء هذه الزريبة البركة المعروفة الآن بالبركة الناصرية، حتى استعمل طينها فى البناء، و أنشأ فوق هذه الزريبة دار وكالة و ربعين عظيمين، جعل أحدهما وقفا على الخانقاه التى أنشأها بناحية سرياقوس، و أنعم بالآخر على الأمير بكتمر الساقى، فأنشأ الأمير بكتمر بجواره حمّامين، إحداهما برسم الرجال و الأخرى برسم النساء، فكثر بناء الناس فيما هنالك حتى اتصلت العمارة من بحرىّ الجامع الطيبرسىّ بزريبة قوصون، و صار هناك أزقة و شوارع و دروب و مساكن، من وراء المناظر المطلة على النيل، تتصل بالخليج. و أكثر الناس من البناء فى طريق الميدان السلطانىّ، فصارت العمائر منتظمة من قناطر السباع إلى الميدان، من جهاته كلها، و تنافس الناس فى تلك الأماكن و تغالوا فى أجرها.

و عمر المكين إبراهيم بن قزوينة ناظر الجيش فى قبلىّ زريبة السلطان، حيث كان بستان الخشاب، دارا جليلة. و عمر أيضا صلاح الدين الكحال، و الصاحب أمين الدين عبد اللّه بن الغنام، و عدّة من الكتاب، فقيل لهذه الخطة منشأة الكتاب، و أنشأ فيها الصاحب أمين الدين خانقاه بجوار داره، و عمر أيضا كريم الدين الصغير، حتى اتصلت العمارة بمنشأة المهرانى، فصار ساحل النيل من خط دير الطين قبلىّ مدينة مصر إلى منية الشيرج بحرىّ القاهرة، مسافة لا تقصر عن أزيد من نصف بريد بكثير، كلها منتظمة بالمناظر العظيمة، و

المساكن الجليلة، و الجوامع، و المساجد، و الخوانك، و الحمامات، و غيرها من البساتين، لا تجد فيما بين ذلك خرابا البتة، و انتظمت العمارة من وراء الدور المطلة على النيل حتى أشرفت على الخليج.

فبلغ هذا البرّ الغربيّ من وفور العمارة و كثرة الناس و تنافسهم فى الإقبال على اللذات و تأنقهم فى الانهماك فى المسرّات ما لا يمكن وصفه، و لا يتأتى شرحه، حتى إذا بلغ الكتاب أجله و حدثت المحن من سنة ست و ثمانمائة، و تقلص ماء النيل عن البرّ الشرقيّ، و كثرت حاجات الناس و ضروراتهم، و تساهل قضاة المسلمين فى الاستبدال فى الأوقاف و بيع نقضها، اشترى شخص الربعين و الحمامين و دار الوكالة التى ذكرت على زريبة السلطان بجوار الجامع الطيبرسيّ، فى سنة سبع و ثمانمائة، و هدم ذلك كله و باع أنقاضه، و حفر الأساسات و استخرج ما فيها من الحجر و عمله جيرا، فنال من ذلك ربحا كثيرا، و تتابع الهدم فى شاطىء النيل و باع الناس أنقاض الدور، فرغب فى شرائها الأمراء و الأعيان و طلاب الفوائد من العامة، حتى زال جميع ما هنالك من الدور العظيمة و المناظر الجليلة، و صار الساحل من منشأة المهرانيّ إلى قريب من بولاق كيمانا موحشة، و خرائب مقفرة، كأن لم تكن مغنى صبابات، و موطن أفراح، و ملعب أتراب، و مرتع غزلان تفتن النساك هناك، و تعيد الحليم سفيها سنة اللّه فى الذين خلوا من قبل، و إنى إذا تذكرت ما صارت إليه أنشد قول عبد اللّه بن المعتز:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۷ سلام على تلك المعاهد و الرباسلام وداع لا سلام قدوم

و صار بهذا العهد ما بين أوّل بولاق من قبليه، إلى أطراف جزيرة الفيل عامرا، من غربيه المفضى إلى النيل، و من شرقيه الذى ينتهى إلى الخليج، إلّا أنّ النيل قد نشأت فيه جزائر و رمال بعد بها الماء عن البرّ الشرقيّ، و كثر العناء لبعده، و فى كل عام تكثر الرمال و يبعد الماء عن البرّ، و للّه عاقبة الأمور. فهذا حال الجهة الغربية من ظواهر القاهرة فى ابتداء وضعها، و إلى وقتنا هذا، و بقى من ظواهر القاهرة الجهة القبلية و الجهة البحرية، و فيهما أيضا عدّة أخطاط تحتاج إلى شرح و تبيان، و اللّه تعالى أعلم بالصواب.

ذكر خارج باب زويلة

اعلم أنّ خارج باب زويلة جهتان، جهة تلى الخليج، و جهة تلى الجبل. فأما الجهة التى تلى الخليج، فقد كانت عند وضع القاهرة بساتين كلها، فيما بين القاهرة إلى مصر.

و عندى فيما ظهر لى، أنّ هذه الجهة كانت فى القديم غامرة بماء النيل، و ذلك أنه لا خلاف بين أهل مصر قاطبة أنّ الأراضى التى هى من طين أبليز لا- تكون إلّا من أرض ماء النيل، فإنّ أرض مصر تربة رملة سبخة، و ما فيها من الطين طرح بعلوها عند زيادة ماء النيل، مما يحمله من البلاد الجنوبية من مسيل الأودية، فلذلك يكون لون الماء عند الزيادة متغيرا، فإذا مكث على الأرض قعد ما كان فى الماء من الطين على الأرض، فسماه أهل مصر إبليز، و عليه تزرع الغلال و غيرها، و ما لا يشمله ماء النيل من الأرض لا يوجد فيه هذا الطين البتة، و أنت إن عرفت أخبار مصر بتأمّلك ما تضمنه هذا الكتاب، ظهر لك أن موضع جامع عمرو بن العاص رضى اللّه عنه كان كروما مشرفة على النيل، و أن النيل انحسر بعد الفتح عما كان تجاه الحصن الذى يقال له قصر الشمع، و عما هو الآن تجاه الجامع، و ما زال ينحسر شيئا بعد شىء حتى صار الساحل بمصر من عند سوق المعاريج الآن إلى قريب من السبع سقايات، و جميع الأراضى التى فيها الآن المراغة خارج مصر إلى نحو السبع سقايات، و ما يقابل ذلك من برّ الخليج الغربيّ كان غامرا بالماء كما تقدّم، و كان فى الموضع الذى تجاه المشهد المعروف بزيد، و تسميه العامة الآن مشهد زين العابدين، بساتين، شرقيها عند المشهد النفيسيّ، و غربيها عند السبع سقايات، منها بساتين عرفت بجنان بنى مسكين، و عندها بنى كافور الإخشيدى داره على البركة التى تجاه الكبش، و تعرف اليوم ببركة قارون، و منها بستان يعرف ببستان ابن كيسان، ثم صار صاغة، و هو الآن يعرف ببستان الطواشى، و منها بستان عرف آخرا بجنان الحارة، و هو من حوض الدمياطى الذى بقرب قنطرة السدّ الآن إلى السبع سقايات، و بقرب السبع سقايات بركة الفيل، و يشرف على بركة الفيل بساتين من دائرها، و إلى وقتنا هذا عليها بستان يعرف بالحبانية، و هم بطن من درما بن عمرو بن

عوف بن ثعلبة بن سلامان بن بعل بن عمرو بن الغوث بن طى، فدرما فخذ من طيّ،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۸

و الحبانيون بطن من درما، و بستان الحبانية فصل الناس بينه و بين البركة بطريق تسلك فيها المارة، و كان من شرقيّ بركة الفيل أيضا بساتين، منها بستان سيف الإسلام، فيما بين البركة و الجبل الذى عليه الآن قلعة الجبل، و موضعه الآن المساكن التى من جملتها درب ابن البابا إلى زقاق حلب، و حوض ابن هنس، و عدّة بساتين أخر إلى باب زويلة.

و كذلك شقة القاهرة الغربية كانت أيضا بساتين، فوضع حارة الوزيرية إلى الكافوريّ كان ميدان الإخشيد، و بجانب الميدان بستانه الذى يقال له اليوم الكافورى، و ما خرج عن باب الفتوح إلى منية الأصبغ الذى يعرف اليوم بالخندق، كان ذلك كله بساتين على حافة الخليج الشرقية، و قد ذكرت هذه المواضع فى هذا الكتاب مبينة، و عند التأمل يظهر أن الخليج الكبير عند ابتداء حفره كان أوّله إمّا عند مدينة عين شمس، أو من بحريها، لأجل أن القطعة التى بجانب هذا الخليج من غربيه، و القطعة التى هى بشرقيه، فيما بين عين شمس و موردة الحلفاء خارج مدينة فسطاط مصر، جميعهما طين إبليز، و الطين المذكور لا يكون إلا من حيث يمرّ ماء النيل، فتعين أنّ ماء النيل كان فى القديم على هذه الأرض التى بجانبى الخليج، فينتج أن أوّل الخليج كان عند آخر النيل من من الجهة البحرية، و ينتهى الطين إلى نحو مدينة عين شمس من الجانب الشرقيّ، و يصير ما بعد الخندق فى الجهة البحرية رملا لا طين فيه، و هذا بين لمن تأمله و تدبره، و فى هذه الجهة التى تلى الخليج خارج باب زويلة حارات قد ذكرت عند ذكر الحارات من هذا الكتاب، و بقيت هناك أشياء نحتاج أن نعرّف بها و هى:

حوض ابن هنس: و هو حوض ترده الدواب، و ينقل إليه الماء من بئر، و به صارت تلك الخطة تعرف، و هى تلى حارة حلب، و يسلك إليها من جانبه، و هو وقف الأمير سعد الدين مسعود بن الأمير بدر الدين هنس بن عبد اللّه، أحد الحجاب الخاص فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سلخ شعبان سنة سبع و أربعين و ستمائة، و عمل بأعلاه مسجدا مرتفعا و ساقية ماء على بئر معين، و مات يوم السبت عاشر شوّال سنة سبع و أربعين و ستمائة، و دفن بجوار الحوض، و كان هذا الحوض قد تعطل فى عصرنا، فجدّده الأمير تتر أحد الأمراء الكبار فى الدولة المؤيدية، فى سنة إحدى و عشرين و ثمانمائة، و مات هنس أمير جندار السلطان الملك العزيز عثمان فى سنة إحدى و تسعين و خمسمائة.

مناظر الكبش: هذه المناظر آثارها الآن على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونيّ، مشرفة على البركة التى تعرف اليوم ببركة قارون عند الجسر الأعظم، الفاصل بين بركة الفيل و بركة قارون، أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى أعوام بضع و أربعين و ستمائة. و كان حينئذ ليس على بركة الفيل بناء، و لا فى المواضع التى فى برّ الخليج الغربيّ من قنطرة السباع إلى المقس سوى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۳۹

البساتين، و كانت الأرض التى من صليبة جامع ابن طولون إلى باب زويلة بساتين، و كذلك الأرض التى من قناطر السباع إلى باب مصر بجوار الكبارة ليس فيها إلّا البساتين، و هذه المناظر تشرف على ذلك كله من أعلى جبل يشكر، و ترى باب زويلة و القاهرة، و ترى باب مصر و مدينة مصر، و ترى قلعة الروضة و جزيرة الروضة، و ترى بحر النيل العظيم و برّ الجيزة. فكانت من أجلّ منتزهات مصر، و تأنق فى بنائها أو سماها الكبش، فعرفت بذلك إلى اليوم. و ما زالت بعد الملك الصالح من المنازل الملوكية، و بها أنزل الخليفة الحاكم بأمر اللّه أبو العباس أحمد العباسيّ، لما وصل من بغداد إلى قلعة الجبل و بايعه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بالخلافة، فأقام بها مدّة ثم تحوّل منها إلى قلعة الجبل، و سكن بمناظر الكبش أيضا الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان فى أوّل خلافته، و فيها أيضا كانت ملوك حماه من بنى أيوب تنزل عند قدومهم إلى الديار المصرية، و أوّل من نزل منهم فيها الملك المنصور لما قدم على الملك الظاهر بيبرس فى المحرّم سنة ثلاث و سبعين و ستمائة، و معه ابنه الملك الأفضل نور الدين علىّ، و ابنه

الملك المظفر تقيّ الدين محمود، فعندما حلّ بالكبش أتاه الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى بالسماط فمدّه بين يديه، و وقف كما يفعل بين يدى الملك الظاهر، فامتنع الملك المنصور من الرضى بقيامه على السماط، و ما زال به حتى جلس. ثم وصلت الخلع و المواهب إليه و إلى ولده و خواصه.

و فى سنة ثلاث و تسعين و ستمائة أنزل بهذه المناظر نحو ثلاثمائة من مماليك الأشرف خليل بن قلاوون، عندما قبض عليهم بعد قتل الأشرف المذكور، ثم إن الملك الناصر محمد بن قلاوون هدم هذه المناظر المذكورة، فى سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة، و بناها بناء آخر، و أجرى الماء إليها و جدّد بها عدّة مواضع، و زاد فى سعتها، و أنشأ بها اصطبلا تربط فيه الخيول، و عمل زفاف ابنته على ولد الأمير أرغون نائب السلطنة بديار مصر، بعدما جهزها جهازا عظيما منه: بشخاناه، و داير بيت، و ستارات طرّز ذلك بثمانين ألف مثقال ذهب مصرىّ، سوى ما فيه من الحرير و أجرة الصناع، و عمل سائر الأوانى من ذهب و فضة، فبلغت زنة الأوانى المذكورة ما ينيف على عشرة آلاف مثقال من الذهب، و تناهى فى هذا الجهاز و بالغ فى الإنفاق عليه حتى خرج عن الحدّ فى الكثرة، فإنها كانت أوّل بناته، و لما نصب جهازها بالكبش نزل من قلعة الجبل و صعد إلى الكبش، و عاينه و رتبه بنفسه، و اهتم فى عمل العرس اهتماما ملوكيا، و ألزم الأمراء بحضوره فلم يتأخر أحد منهم عن الحضور، و نقط الأمراء الأغانى على مراتبهم، من أربعمائة دينار كل أمير إلى مائتى دينار، سوى الشقق الحرير، و استمرّ الفرح ثلاثة أيام بلياليها، فذكر الناس حينئذ أنه لم يعمل فيما سلف عرس أعظم منه، حتى حصل لكل جوقة من جوق الأغانى اللاتى كنّ فيه خمسمائة دينار مصرية، و مائة و خمسون شقة حرير، و كان عدّة جوق الأغانى التى قسم عليهنّ ثمان جوق من أغانى القاهرة، سوى جوق الأغانى السلطانية و أغانى الأمراء، و عدّتهن عشرون جوقة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۰

لم يعرف ما حصل لهذه العشرين جوقة من كثرة ما حصل و لما انقضت أيام العرس أنعم السلطان لكل امرأة من نساء الأمراء بتعبية قماش على مقدارها، و خلع على سائر أرباب الوظائف من الأمراء و الكتاب و غيرهم، فكان مهما عظيما تجاوز المصروف فيه حدّ الكثرة.

و سكن هذه المناظر أيضا الأمير صرغتمش فى أيام السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، و عمر الباب الذى هو موجود الآن و بدنتى الحجر اللتين بجانبى باب الكبش بالحدرة، ثم أن الأمير بلبغا العمرى المعروف بالخاصكىّ سكنه إلى أن قتل فى سنة ثمان و ستين و سبعمائة، فسكنه من بعده الأمير استدمر إلى أن قبض عليه الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون و أمر بهدم الكبش فهدم، و أقام خرابا لا ساكن فيه إلى سنة خمس و سبعين و سبعمائة، فحكره الناس و بنوا فيه مساكن و هو على ذلك إلى اليوم.

خط درب ابن البابا: هذا الخط يتوصل إليه من تجاه المدرسة البندقدارية بجوار حمام الفارقانى، و يسلك فيه إلى خط واسع يشتمل على عدّة مساكن جليلة، و يتوصل منه إلى الجامع الطولونىّ و قناطر السباع و غير ذلك، و كان هذا الخط بستانا يعرف ببستان أبى الحسين بن مرشد الطائىّ، ثم عرف ببستان تامش، ثم عرف أخيرا ببستان سيف الإسلام طفتكين بن أيوب، و كان يشرف على بركة الفيل، و له دهاليز واسعة عليها جواسق تنظر إلى الجهات الأربع، و يقابله حيث الدرب الآن المدرسة البندقدارية و ما فى صفها إلى الصليبة بستان، يعرف ببستان الوزير ابن المغربىّ، و فيه حمّام مليحة، و يتصل ببستان ابن المغربىّ بستان عرف أخيرا ببستان شجر الدر، و هو حيث الآن سكن الخلفاء بالقرب من المشهد النفيسىّ، و يتصل ببستان شجر الدر بساتين إلى حيث الموضع المعروف اليوم بالبكارة من مصر، ثم أن بستان سيف الإسلام حكره أمير يعرف بعلم الدين الغتمى، فبنى الناس فيه الدور فى الدولة التركية، و صار يعرف الغتمى، و هو الآن يعرف بدرب ابن البابا، و هو الأمير الجليل الكبير جنكلى بن محمد بن البابا بن جنكلى بن خليل بن عبد اللّه بدر الدين العجلىّ، رأس الميمنة و كبير الأمراء الناصرية محمد بن قلاون بعد الأمير جمال الدين نائب الكرك، قدم إلى مصر فى أوائل سنة أربع و سبعمائة بعد ما طلبه الملك الأشرف خليل بن قلاوون، و رغبه فى الحضور إلى الديار المصرية، و كتب له منشورا

باقطاع جيد، و جهزه إليه فلم يتفق حضوره إلا في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، و كان مقامه بالقرب من آمد، فاكرمه و عظمه و أعطاه أمرة، و لم يزل مكرّما معظما، و في آخر وقته بعد خروج الأمير أرغون النائب من مصر كان السلطان يبعث إليه الذهب مع الأمير بكتمر الساقي و غيره، و يقول له لا تبس الأرض على هذا، و لا تنزله في ديوانك، و كان أوّلا يجلس رأس الميمنة ثاني نائب الكرك، فلما سار نائب الكرك لنيابة طرابلس جلس الأمير جنكلي رأس الميمنة، و زوّج السلطان ابنه إبراهيم بن محمد بن قلاوون بابنة الأمير بدر الدين، و ما زال معظما في كل دولة، بحيث أن الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون كتب له عنه الأتابكي الوالدي

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۱

البدري، و زادت و جاعته في أيامه إلى أن مات، يوم الاثنين سابع عشر ذي الحجة، سنة ست و أربعين و سبعمائة. و كان شكلا مليحا حليما، كثير المعروف و الجود، عفيفا لا يستخدم مملوكا أمرد البتة، و اقتصر من النساء على امرأته التي قدمت معه إلى مصر، و منها أولاده، و كان يحب العلم و أهله و يطارح بمسائل علمية، و يعرف ربع العبادات، و يجيده و يتكلم على الخلاف فيه، و يميل إلى الشيخ تقيّ الدين أحمد بن تيمية، و يعادي من يعاديه، و يكرم أصحابه و يكتب كلامه، مع كثرة الإحسان إلى الناس بماله و جاهه، و كان ينتسب إلى إبراهيم بن أدهم، و هو من محاسن الدولة التركية رحمه اللّه.

حكر الخازن: هذا المكان فيما بين بركة الفيل و خط الجامع الطولوني، كان من جملة البساتين ثم صار إصطبلا للجوق الذي فيه خيول المماليك السلطانية، فلما تسلطن الملك العادل كتبغا اخرج منه الخيول و عمله ميدانا يشرف على بركة الفيل، في سنة خمس و تسعين و ستمائة، و نزل إليه و لعب فيه بالاكرة أيام سلطنته كلها إلى أن خلعه الملك المنصور لاجين، و قام في الملك من بعده، فأهمل أمره و عمر فيه الأمير علم الدين سنجر الخازن و إلى القاهرة بيتا، فعرف من حينئذ بحكر الخازن، و تبعه الناس في البناء هناك، و أنشأوا فيه الدور الجليلة، فصار من أجلّ الأخطاط و أعمرها، و أكثر من يسكن به الأمراء و المماليك.

سنجر الخازن: الأمير علم الدين الأشرفيّ، أحد مماليك الملك المنصور قلاوون، و تنقل في أيام ابنه الملك الأشرف خليل، و صار أحد الخزان، فعرف بالخازن. ثم ولي شدّ الدواوين مع الصاحب أمين الدين، و انتقل منها إلى ولاية البهنسا، ثم إلى ولاية القاهرة، و شدّ الجهات. فباشر ذلك بعقل و سياسة و حسن خلق و قلة ظلم و محبة للستر، و تغافل عن مساوىء الناس، و إقالة عثرات ذوي الهيآت مع العصبية و المعرفة و كثرة المال وسعة الحال و اقتناء الأملاك الكثيرة، ثم أنه صرف عن ولاية القاهرة بالأمير قدادار في شهر رمضان سنة أربع و عشرين و سبعمائة، فوجد الناس من عزله بقدادار شدّة، و ما زال بالقاهرة إلى أن مات ليلة السبت ثامن جمادى الأولى سنة خمس و ثلاثين و سبعمائة، فوجد له أربعة عشر ألف أردب غلة عتيقة و أموال كثيرة، و له من الآثار مسجد بناه فوق درب استجدّه بحكر الخازن، و خانقاه بالقرافة، دفن فيها عفا اللّه عنه.

ربع البزادرة: هذا الربع تحت قلعة الجبل بسوق الخيل، عمر بعد سنة ثلاث عشرة و سبعمائة، و كان مكانه لا عمارة فيه، فبنى الأجناد بجواره عدّة مساكن و استجدّوا حكرين من جواره، فامتدّت العمائر إلى تربة شجر الدر حيث كان البستان المعروف بشجر الدر، و هناك الآن سكن الخلفاء، و امتدّت العمائر من تربة شجر الدر إلى المشهد النفيسيّ، و مرّوا من تجاه المشهد بالعمائر إلى أن اتصلت بعمائر مصر و باب القرافة.

خط قناطر السباع: كان هذا الخط في أوّل الإسلام يعرف بالحمراء، نزل فيه طائفة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۲

تعرف ببني الأزرق و بني روبيل، ثم دثرت هذه الخطة و بقيت صحراء فيها ديارات و كنائس للنصارى تعرف بكنائس الحمراء، فلما زالت دولة بني أمية و دخل أصحاب بني العباس إلى مصر في سنة اثنتين و ثلاثين و مائة، نزلوا في هذه الخطة و عمروا بها فصارت تتصل بالعسكر، و قد تقدّم خبر العسكر في هذا الكتاب، فلما خرب العسكر و صار هذا المكان بساتين و غيرها إلى أن حفر الملك

الناصر محمد بن قلاوون البركة الناصرية، و انشأ ميدان المهارى و الزريبة و الربعين بجوار الجامع الطيبرسىّ على شاطىء النيل؛ بنى الناس فى حكر أقبغا و اتصلت العمائر من خط السبع سقايات و خط قناطر السباع حتى اتصلت بالقاهرة و مصر و القرافة، و ذلك كله من بعد سنة عشرين و سبعمائة.

بئر الوطاويط: هذه البئر أنشأها الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات، المعروف بابن خترابه، لينقل منها الماء إلى السبع سقايات التى أنشأها و حبسها لجميع المسلمين، التى كانت بخط الحمراء، و كتب عليها بسم اللّه الرحم الرحيم، للّه الأمر من قبل و من بعد، و له الشكر و له الحمد، و منه المن على عبده جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات، و ما وفقه له من البناء لهذه البئر و جريانها إلى السبع سقايات، التى أنشأها و حبسها لجميع المسلمين، و حبسه و سبله وقفا مؤبدا لا يحل تغييره و لا العدول بشىء من مائه، و لا ينقل و لا يبطل و لا يساق إلّا إلى حيث مجراه، إلى السقايات المسبلة، فمن بدّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدّلونه، إن اللّه سميع عليم. و ذلك فى سنة خمس و خمسين و ثلاثمائة، و صلى اللّه على نبيه محمد و آله و سلم، فلما طال الأمر خربت السقايات، و إلى اليوم، يعرف موضعها بخط السبع سقايات، و بنى فوق البئر المذكورة و تولد فيها كثرة من الوطاويط، فعرفت ببئر الوطاويط، و لما أكثر الناس من بناء الأماكن فى أيام الناصر محمد بن قلاوون، عمر هذا المكان و عرف إلى اليوم بخط بئر الوطاويط، و هو خط عامر، فهذا ما فى جهة الخليج مما خرج عن باب زويلة.

و أما جهة الجبل فإنها كانت عند وضع القاهرة صحراء، و أوّل من أعلم أنه عمر خارج باب زويلة من هذه الجهة الصالح طلائع بن رزيك، فإنه أنشأ الجامع الذى يقال له جامع الصالح، و لم يكن بين هذا الجامع و بين هذا الشرف الذى عليه الآن قلعة الجبل بناء البتة، إلّا أن هذا الموضع الآن عمل الناس فيه مقبرة، فيما بين جامع الصالح و بين هذا الشرف من حين بنيت الحارات خارج باب زويلة، فلما عمرت قلعة الجبل عمر الناس بهذه شيئا بعد شىء، و ما برح من بنى هناك يجد عند الحفر رمم الأموات، و قد صارت هذه الجهة فى الدولة التركية لا سيما بعد سنة ثلاث عشرة و سبعمائة من أعمر الأخطاط، و أنشأ فيها الأمراء الجوامع و الدور الملوكية، و تحدّدت هناك عدّة أسواق، و صار الشارع خارج باب زويلة يفصل بين هذه الجهة و بين الجهة التى من حدّ الخليج، و كلتا هاتين الجهتين الآن عامرة، و فى جهة الجبل خط البسطيين، و خط الدرب الأحمر، و خط سوق الغنم، و خط جامع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۳

المارديني، و خط التبانة، و خط باب الوزير، و خط المصنع، و خط سويقة العزى، و خط مدرسة الجابى، و خط الرميلة، و خط القبيبات، و خط باب القرافة.

ذكر خارج باب الفتوح

اشارة

اعلم أن خارج باب الفتوح إلى الخندق كان كله بساتين، و تمتدّ البساتين من الخندق بحافتى الخليج إلى عين شمس، فيقابل باب الفتوح من خارجه المنظرة المقدّم ذكرها عند ذكر المناظر التى كانت للخلفاء من هذا الكتاب، ويلى هذه المنظرة بستان كبير عرف بالبستان الجيوشىّ، أوّله من عند زقاق الكحل إلى المطرية، و يقابله فى برّ الخليج الغربىّ بستان آخر يتوصل إليه من باب القنطرة، و ينتهى إلى الخندق، و قد ذكر خبر هذين البستانين عند ذكر مناظر الخلفاء، و كان بين هذين البستانين بستان الخندق، و كان على حافة الخليج من شرقيه فيما بين زقاق الكحل و باب القنطرة، حيث المواضع التى تعرف اليوم ببركة جناق و بالكداسين إلى قريب من حارة بهاء الدين، حارة تعرف بحارة البيازرة، اختطت فى نحو من سنة عشرين و خمسمائة، و كانت مناظرها تشرف على الخليج، و بجوارها بستان مختار الصقلبىّ، و عرف بعد ذلك ببستان ابن صيرم الذى حكر و بنيت فيه المساكن الكثيرة بعد ذلك، و كان أيضا

خارج باب الفتوح حارة الحسينية، و هم الريحانية إحدى طوائف عسكر الخلفاء الفاطميين، و هذه الحارة اختطت بعد الشدّة العظمى التى كانت بمصر فى خلافة المستنصر، فصارت على يمين من خرج من باب الفتوح إلى صحراء الهليلج، و يقابلها حارة أخرى تنتهى إلى بركة الأرمن التى عند الخندق، و تعرف اليوم ببركة قراجا، و قد ذكرت هذه الحارات عند ذكر حارات القاهرة و ظواهرها من هذا الكتاب.

ذكر الخندق

هذا الموضع قرية خارج باب الفتوح كانت تعرف أوّلا بمنية الأصبغ، ثم لما اختط القائد جوهر القاهرة أمر المغاربة أن يحفروا خندقا من جهة الشام، من الجبل إلى الإبليز، عرضه عشرة أذرع فى عمق مثلها، فبدىء به يوم السبت حادى عشرى شعبان سنة ستين و ثلاثمائة، و فرغ فى أيام يسيرة، و حفر خندقا آخر قدّامه و عمقه، و نصب عليه باب يدخل منه، و هو الباب الذى كان على ميدان البستان الذى للأخشيد، و قصد أن يقاتل القرامطة من وراء هذا الخندق، فقيل له من حينئذ الخندق، و خندق العبيد، و الحفرة، ثم صار بستانا جليلا من جملة البساتين السلطانية فى أيام الخلفاء الفاطميين، و أدركناها من منتزهات القاهرة البهجة إلى أن خربت.

قال ابن عبد الحكم: و كان عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه قد أقطع ابن سندر منية الأصبغ، فحاز لنفسه منها ألف فدّان، كما حدّثنا يحيى بن خالد عن الليث بن سعد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۴

رضى اللّه عنه، و لم يبلغنا أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أقطع أحدا من الناس شيئا من أرض مصر، إلّا ابن سندر، فإنه أقطعه منية الأصبغ، فلم تزل له حتى مات، فاشتراها الأصبغ بن عبد العزيز من ورثته، فليس بمصر قطيعة أقدم منها و لا أفضل، و كان سبب إقطاع عمر رضى اللّه عنه ما أقطعه من ذلك كما حدّثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن عمرو بن شعيبة عن أبيه عن جدّه، أنه كان لزنباع بن روح الجذامىّ غلام يقال له سندر، فوجده يقبل جارية له، فجبه وجدع أنفه و أذنه، فأتى سندر رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فأرسل إلى زنباع فقال: «لا- تحملوهم من العمل ما لا- يطيقون، و أطعموهم مما تأكلون، و ألبسوهم مما تلبسون، فإن رضيتم فامسكوا، و إن كرهتم فبيعوا و لا- تعذبوا خلق اللّه، و من مثّل به أو أحرق بالنار فهو حرّ، و هو مولى اللّه و رسوله، فأعتق سندر فقال: أوص بى يا رسول اللّه. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «أوصى بك كل مسلم» فلما توفى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أتى سندر أبا بكر رضى اللّه عنه فقال: احفظ فىّ وصية رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم. فعاله أبو بكر رضى اللّه عنه حتى توفى. ثم أتى عمر رضى اللّه عنه فقال: احفظ فى وصية رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، فقال عمر رضى اللّه عنه: نعم إن رضيت أن تقيم عندى أجريت عليك ما كان يجرى عليك أبو بكر رضى اللّه عنه، و إلا فانظر أىّ موضع أكتب لك. فقال سندر: مصر، لأنها أرض ريف، فكتب له إلى عمرو بن العاص: احفظ فيه وصية رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم. فلما قدم إلى عمرو رضى اللّه عنه، أقطع له أرضا واسعة و دارا، فجعل سندر يعيش فيها، فلما مات قبضت فى مال اللّه تعالى.

قال عمرو بن شعيب: ثم اقطعها عبد العزيز بن مروان الأصبغ بعد، فهى من خير أموالهم. قال: و يقال سندر و ابن سندر، و قال ابن يونس مسروح بن سندر الخصىّ مولى زنباع بن روح بن سلامة الجذامىّ، يكنّى أبا الأسود، له صحبة قدم مصر بعد الفتح بكتاب عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه بالوصاة، فأقطع منية الأصبغ بن عبد العزيز. روى عنه أهل مصر حديثين، روى عنه مزيد بن عبد اللّه البرنىّ، و ربيعة بن لقيط التجيبىّ، و يقال سندر الخصىّ، و ابن سندر أثبت، توفى بمصر فى أيام عبد العزيز بن مروان.

و يقال كان مولاه وجده يقبّل جارية له فجبه وجدع أنفه و أذنيه، فأتى إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فشكا ذلك إليه، فأرسل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم إلى زنباع فقال: لا- تحملوهم يعنى العبيد، ما لا يطيقون، و أطعموهم مما تأكلون. فذكر الحديث بطوله، و ذكر عن عثمان بن سويد بن سندر، أنه أدرك مسروح بن سندر الذى جدعه زنباع بن روح، و كان جدّه لأمه، فقال: كان

ربما تغدّى معى بموضع من قرية عثمان و اسمها سمسم، و كان لابن سندر إلى جانبها قرية يقال لها قلون، قطيعة، و كان له مال كثير من رقيق و غير ذلك، و كان ذا دهاء منكرا جسيما، و عمر حتى أدرك زمان عبد الملك بن مروان، و كان لروح بن سلامة أبى زنباع، فورثه أهل التعدد بروح يوم مات، و قال القضاعىّ: مسروح بن سندر الخصىّ، و يكنى أبا الأسود، له صحبة، و يقال له سندر، و دخل مصر بعد الفتح سنة اثنتين و عشرين.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۵

و قال الكندىّ فى كتاب الموالى، قال: أقبل عمرو بن العاص رضى اللّه عنه يوما يسير و ابن سندر معه، فكان ابن سندر و نفر معه يسيرون بين يدى عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، و أثاروا الغبار، فجعل عمرو عمامته على طرف أنفه ثم قال: اتقوا الغبار فإنه أوشك شىء دخولا و أبعده خروجا، و إذا وقع على الرثة صار نسمة. فقال بعضهم لأولئك النفر تنحوا، ففعلوا إلّا ابن سندر، فقيل له ألا تتنحى يا ابن سندر؟ فقال عمرو: دعوه فإن غبار الخصى لا يضرّ، فسمعها ابن سندر فغضب و قال: أما و اللّه لو كنت من المؤمنين ما آذيتنى. فقال عمرو: يغفر اللّه لك، أنا بحمد اللّه من المؤمنين. فقال ابن سندر: لقد علمت أنى سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم أن يوصى بى فقال: أوصى بك كل مؤمن.

و قال ابن يونس: اصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم يكنى أبا ريان، حكى عنه أبو حبرة عبد اللّه بن عباد المغافرىّ، و عون بن عبد اللّه و غيره، توفى ليلة الجمعة لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست و ثمانين، قبل أبيه. و قال أبو الفجر علىّ بن الحسين الأصبهانىّ فى كتاب الأغانى الكبير عن الرياشىّ أنه قال عن سكينة بنت الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليهم السلام، أن أبا عذرتها عبد اللّه بن الحسين بن علىّ، ثم خلفه عليها العثمانى، ثم مصعب بن الزبير، ثم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان. قال: و كان يتولى مصر، فكتبت إليه سكينة أنّ مصر أرض و خمة، فبنى لها مدينة تسمى بمدينة الأصبغ، و بلغ عبد الملك تزوّجه أباها، فنفس بها عليه و كتب إليه: اختصر مصرا و سكينة، فبعث إليه بطلاقها و لم يدخل بها، و متعها بعشرين ألف دينار. قلت فى هذا الخبر أوهام، منها أن الأصبغ لم يل مصر، و إنما كان مع أبيه عبد العزيز بن مروان، و منها أنّ الذى بناه الأصبغ لسكينة، منية الأصبغ هذه و ليست مدينة، و منها أن الأصبغ لم يطلّق سكينة، و إنما مات عنها قبل أن يدخل عليها. و قال ابن زولاق فى كتاب إتمام كتاب الكندىّ فى أخبار أمراء مصر:

و فى شوّال، يعنى من سنة ستين و ثلاثمائة كثر الأرجاف بوصول القرامطة إلى الشام، و رئيسهم الحسن بن محمد الأعسم، و فى هذا الوقت ورد الخبر بقتل جعفر بن فلاح، قتله القرامطة بدمشق، و لما قتل ملكت القرامطة دمشق و صاروا إلى الرملة، فانحاز معاذ بن حيان إلى يافا متحصنا بها، و فى هذا الوقت تأهب جوهر القائد لقتال القرامطة، و حفر خندقا و عمل عليه بابا، و نصب عليه بابى الحديد اللذين كانا على ميدان الإخشيد، و بنى القنطرة على الخليج، و حفر خندق السرى بن الحكم و فرّق السلاح على رجال المغاربة و المصريين، و وكل بأبى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات خادما يبيت معه فى داره و يركب معه حيث كان، و أنفذ إلى ناحية الحجاز فتعرّف خبر القرامطة، و فى ذى الحجة كبس القرامط القلزم و أخذوا و اليها، ثم دخلت سنة إحدى و ستين و ثلاثمائة، و فى المحرّم بلغت القرامطة عين شمس، فاستعدّ جوهر للقتال لشعر بقين من صفر، و غلق أبواب الطابية و ضبط الداخل و الخارج، و أمر الناس بالخروج إليه و أن يخرج الأشراف كلهم، فخرج إليه أبو جعفر مسلم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۶

و غيره بالمضارب، و فى مستهلّ ربيع الأول التحم القتال مع القرامطة على باب القاهرة، و كان يوم جمعة، فقتل من الفريقين جماعة و أسر جماعة و أصبحوا يوم السبت متكافئين، ثم غدوا يوم الأحد للقتال و سار الحسن الأعسم بجميع عساكره و مشى للقتال على الخندق و الباب مغلق، فلما زالت الشمس فتح جوهر الباب و اقتتلوا قتالا شديدا، و قتل خلق كثير، ثم ولى الأعسم منهزما و لم يتبعه القائد جوهر و نهب سواد الأعسم بالجب، و وجدت صناديقه و كتبه، و انصرف فى الليل على طريق القلزم، و نهب بنو عقيل و بنو طىّ

كثيرا من سواده. و هو مشغول بالقتال، و كان جميع ما جرى على القرمطى بتدبير جوهر و جوائز انفذها، و لو أراد أخذ الأعسم فى انهزامه لأخذه، و لكن الليل حجز فكره جوهر اتباعه خوفا من الحيلة و المكيدة، و حضر القتال خلق من رعية مصر و أمر جوهر بالنداء فى المدينة، من جاء بالقرمطىّ أو برأسه فله ثلاثمائة ألف درهم، و خمسون خلعة، و خمسون سرجا محلى على دوابها، و ثلاث جوائز، و مدح بعضهم القائد جوهرا بأبيات منها:

كأنّ طراز النصر فوق جبينهيلوح و أرواح الورى بيمينه

و لم يتفق على القرامطة منذ ابتداء أمرهم كسرة أقبح من هذه الكسرة، و منها فارقهم من كان قد اجتمع إليهم من الكافورية و الإخشيدية، فقبض جوهر على نحو الألف منهم و سجنهم مقيدين.

و قال ابن زولاق فى كتاب سيرة الإمام المعز لدين اللّه، و من خطّه نقلت، و فى هذا الشهر يعنى المحرّم، سنة ثلاث و ستين و ثلاثمائة، تبسطت المغاربة فى نواحى القرافة و المغاير و ما قابرها، فنزلوا فى الدور و أخرجوا الناس من دورهم، و نقلوا السكان و شرعوا فى السكنى فى المدينة، و كان المعز قد أمرهم أن يسكنوا أطراف المدينة، فخرج الناس و استغاثوا بالمعز، فأمرهم أن يسكنوا نواحى عين شمس، و ركب المعز بنفسه حتى شاهد المواضع التى ينزلون فيها، و أمر لهم بمال يبنون به، و هو الموضع الذى يعرف اليوم بالخندق و الحفرة و خندق العبيد، و جعل لهم واليا و قاضيا، ثم سكن أكثرهم بالمدينة مخالطين لأهل مصر، و لم يكن القائد جوهر يبيحهم سكنى المدينة و لا المبيت بها، و حظر ذلك عليهم، و كان مناديه ينادى كل عشية لا يبيتن أحد فى المدينة من المغاربة.

و قال ياقوت: منية الأصبغ تنسب إلى الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان، و لا يعرف اليوم بمصر موضع يعرف بهذا الاسم، و زعموا أنها القرية المعروفة بالخندق قريبا من شرقىّ القاهرة. و قال ابن عبد الظاهر: الخندق هو منية الأصبغ، و هو الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان. قال مؤلفه رحمه اللّه: و قد و هم ابن عبد الظاهر فجعل أن الخندق احتفره العزيز بالله، و إنما احتفره جوهر كما تقدّم، و أدركت الخندق قرية لطيفة يبرز الناس من القاهرة إليها ليتنزهوا بها فى أيام النيل و الربيع، و يسكنها طائفة كبيرة، و فيها بساتين عامرة بالنخيل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۷

الفخر و الثمار، و بها سوق و جامع تقام به الجمعة، و عليه قطعة أرض من أرض الخندق يتولاها خطيبة، فلما كانت الحوادث و المحن من سنة ست و ثنمانمائة، خربت قرية الخندق و رحل أهلها منها و نقلت الخطبة من جامعة إلى جامع بالحسينية، و بقى معطلا من ذكر اللّه تعالى و إقامة الصلاة مدّة، ثم فى شعبان سنة خمس عشرة و ثمانمائة، هدمه الأمير طوغان الدوادار و أخذ عمده و خشبه، فلم يبق إلا بقية أطلاله، و كانت قرية الخندق كأنها م حسنها ضرّة لكوم الريش، و كانت تجاهها من شرقيها فخربتا جميعا.

صحراء الإهليلج: هذه البقعة شرقىّ الخندق فى الرمل، و إليها كانت تنتهى عمارة الحسينية من جهة باب الفتوح، و كان بها شجر الإهليلج الهندىّ، فعرفت بذلك، و أظن أن هذا الإهليلج كان من جملة بستان ريدان الذى يعرف اليوم موضعه بالريدانية.

ذكر خارج باب النصر

أما خارج القاهرة من جهة باب النصر، فإنه عند ما وضع القائد جوهر القاهرة، كان فضاء ليس فيه سوى مصلّى العيد الذى بناه جوهر، و هذا المصلّى اليوم يصلّى على من مات فيه، و ما برح ما بين هذا المصلى و بستان ريدان الذى يعرف اليوم بالريدانية لا عمارة فيه، إلى أن مات أمير الجيوش بدر الجمالىّ فى سنة سبع و ثمانين و أربعمائة، فدفن خارج باب النصر بحرىّ المصلى، و بنى على قبره تربة جليلة، و هى باقية إلى اليوم هناك، فتتابع بناء الترب من حينئذ خارج باب النصر، فيما بين التربة الجيوشية و الريدانية، و قبر الناس موتاهم هناك لا سيما أهل الحارات التى عرفت خارج باب الفتوح بالحسينية، و هى الريدانية، و حارة البزادرة و غيرها، و لم تزل هذه الجهة مقبرة إلى ما بعد السبعمائة بمدّة، فرغب الأمير سيف الدين الحاج آل ملك فى البناء هناك، و أنشأ الجامع المعروف به فى سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة، و عمر دارا و حمّاما، فاقتدى الناس به و عمروا هناك، و كان قد بنى تجاه المصلى قبل ذلك الأمير سيف

الدين كهرداس المنصورى دارا تعرف اليوم بدار الحاجب، فسكن فى هذه الجهة أمراء الدولة و عملوا فيما بين الريدانية و الخندق مناخات الجمال، و هى باقية هناك، فصارت هذه الجهة فى غاية العمارة، و فيها من باب النصر إلى الريدانية سبعة أسواق جليلة، يشتمل كل سوق منها على عدّة حوانيت كثيرة، فمنها: سوق اللفت، و هو تجاه باب بيت الحاجب الآن، عند البئر، كان فيه من جانبيه حوانيت يباع فيها اللفت، و من هذا السوق يشترى أهل القاهرة هذا الصنف و الكرنب، و تعرف هذه البئر إلى اليوم ببئر اللفت، و يليها سويقة زاوية الخدّام، و أدركت بهذه السويقة بقية صالحة، و يلى ذلك سوق جامع آل ملك، و كان سوقا عامرا فيه غالب ما يحتاج إليه من المآكل و الأدوية و الفواكه و الخضر و غيرها، و أدركته عامرا. و يليه سويقة السنابطة، عرفت بقوم من أهل ناحية سنباط سكنوا بها، و كانت سوقا كبيرا، و أدركته عامرا. و يليها سويقة أبى ظهير، و أدركتها عامرة، و يليها سويقة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۸

العرب، و كانت تتصل بالريدانية، و تشتمل على حوانيت كثيرة جدّا أدركتها عامرة، و ليس فيها سكان، و كانت كلها من لبن معقود عقودا، و كان بأوّل سويقة العرب هذه فرن أدركته عامرا آهلا، بلغنى أنه كان يخبز فيه أيام عمارة هذا السوق و ما حوله كل يوم نحو السبعة آلاف رغيف، و كان من وراء هذا السوق أحواش فيها قباب معقودة من لبن، أدركتها قائمة و ليس فيها سكان، و كان من جملة هذه الأحواش حوش فيه أربعمائة قبة يسكن فيها البزادرة و المكارية، أجرة كل قبة در همان فى كل شهر، فيتحصل من هذا الحوش فى كل شهر مبلغ ثمانمائة درهم فضة، و كان يعرف بحوش الأحمدىّ. فلما كان الغلاء فى زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين سنة سبع و سبعين و سبعمائة، خرب كثير مما كان بالقرب من الريدانية، و اختلّت أحوال هذه الجهة إلى أن كانت المحن من سنة ست و ثمانمائة، فتلاشت و هدمت دورها و بيعت أنقاضها، و فيها بقية آثلة إلى الدثور.

الريدانية

كانت بستانا لريدان الصقلبىّ، أحد خدّام العزيز بالله نزار بن المعز، كان يحمل المظلة على رأس الخليفة، و اختص بالحاكم، ثم قتله فى يوم الثلاثاء لعشر بقين من ذى الحجة سنة ثلاث و تسعين و ثلاثمائة وريدان إن كان اسما عربيا، فإنه من قولهم ريح ريدة، ورادة، و ريدانة، أى لينة الهبوب، و قيل ريح ريدة كثيرة الهبوب.

ذكر الخلجان التى بظاهر القاهرة

اشارة

اعلم أن الخليج جمعه خلجان، و هو نهر صغير يختلج من نهر كبير أو من بحر، و أصل الخلج الانتزاع. خلجت الشىء من الشىء إذا انتزعته، و بأرض مصر عدّة خلجان، منها بظاهر القاهرة خليج مصر، و خليج فم الخور، و خليج الذكر، و الخليج الناصرىّ، و خليج قنطرة الفخر، و سترى من أخبارها ما فيه كفاية إن شاء اللّه تعالى.

ذكر خليج مصر

هذا الخليج بظاهر مدينة فسطاط مصر، و يمرّ من غربىّ القاهرة، و هو خليج قديم احتفره بعض قدماء ملوك مصر، بسبب هاجر أم إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات اللّه و سلامه عليهما، حين أسكنها و ابنها إسماعيل خليل اللّه إبراهيم عليهما الصلاة و السلام بمكة، ثم تمادت الدهور و الأعوام فجدّد حفره ثانيا بعض من ملك مصر من ملوك الروم بعد الإسكندر، فلما جاء اللّه سبحانه بالإسلام، و له الحمد و المنة، و فتحت أرض مصر على يد عمرو بن العاص، جدّد حفره بإشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى

اللّه عنه، فى عام الرمادة، و كان يصب فى بحر القلزم فتسير فيه السفن إلى البحر الملح، و تمرّ فى البحر إلى الحجاز و اليمن و الهند، و لم يزل على ذلك إلى أن قام محمد بن عبد اللّه بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۴۹

حسن بن حسن بن علىّ بن أبى طالب بالمدينة النبوية، و الخليفة حينئذ بالعراق أبو جعفر عبد اللّه بن محمد المنصور، فكتب إلى عامله على مصر يأمره بطمّ خليج القلزم حتى لا تحمل الميرة من مصر إلى المدينة، فطمّه و انقطع من حينئذ اتصاله ببحر القلزم و صار على ما هو عليه الآن، و كان هذا الخليج أوّلا يعرف بخليج مصر، فلما أنشأ جوهر القائد القاهرة بجانب هذا الخليج من شرقيه، صار يعرف بخليج القاهرة، و كان يقال له أيضا خليج أمير المؤمنين، يعنى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، لأنه الذى أشار بتجديد حفره، و الآن تسميه العامة بالخليج الحاكمىّ، و تزعم أن الحاكم بأمر اللّه أبا علىّ منصورا احتفره، و ليس هذا بصحيح. فقد كان هذا الخليج قبل الحاكم بمدد متطاولة، و من العامة من يسميه خليج اللؤلؤة أيضا.

و سأقص عليك من أخبار هذا الخليج ما وقفت عليه من الأنباء.

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه فى أخبار طيطوس بن ماليا بن كلكن بن خربتا بن ماليق بن تدراس بن صابن مرقونس بن صابن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح، و جلس على سرير الملك بعد أبيه ماليا، و كان جبارا جريئا شديد البأس مهابا، فدخل عليه الأشراف و هنوه و دعوا له، فأمرهم بالإقبال على مصالحهم و ما يعنيهم، و وعدهم بالإحسان، و القبط تزعم أنه أوّل الفراعنة بمصر، و هو فرعون إبراهيم عليه السلام، و أن الفراعنة سبعة هو أوّلهم، و أنه استخف بأمر الهياكل و الكهنة، و كان من خبر إبراهيم عليه السلام معه، أن إبراهيم لما فارق قومه أشفق من المقام بالشام، لئلا يتبعه قومه و يردّوه إلى النمرود، لأنه كان من أهل كونا من سواد العراق، فخرج إلى مصر و معه سارّة امرأته و ترك لوطا بالشام.

و سار إلى مصر، و كانت سارّة أحسن نساء وقتها، و يقال أنّ يوسف عليه السلام ورث جزأ من جمالها، فلما سار إلى مصر، رأى الحرس المقيمون على أبواب المدينة سارة، فعجبوا من حسنها، و رفعوا خبرها إلى طيطوس الملك و قالوا: دخل إلى البلد رجل من أهل الشرق معه امرأة لم ير أحسن منها و لا أجمل.

فوجّه الملك إلى وزيره فأحضر إبراهيم صلوات اللّه عليه و سأله عن بلده، فأخبره.

و قال: ما هذه المرأة منك؟ فقال أختى. فعرّف الملك بذلك فقال: مره أن يجئنى بالمرأة حتى أراها. فعرّفه ذلك، فامتعض منه و لم تمكنه مخالفته، و علم أن اللّه تعالى لا يسوؤه فى أهله، فقال لسارة: قومى إلى الملك، فإنه قد طلبك منى. قالت: و ما يصنع بى الملك و ما رآنى قبل قال: أرجو أن يكون لخير. فقامت معه حتى أتوا قصر الملك، فأدخلت عليه، فنظر منها منظرا راعه و فتنته، فأمر بإخراج إبراهيم عليه السلام فأخرج، و ندم على قوله إنها أخته، و إنما أراد أنها أخته فى الدين، و وقع فى قلب إبراهيم عليه السلام ما يقع فى قلب الرجل على أهله، و تمنى أنه لم يدخل مصر فقال: اللهم لا تفضح نبيك فى أهله. فراودها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۰

الملك عن نفسها فامتنعت عليه، فذهب ليمدّ يده إليها فقالت: إنك إن وضعت يدك علىّ أهلكت نفسك، لأنّ لى ربا يمنعنى منك. فلم يلتفت إلى قولها و مدّ يده إليها، فجفت يده و بقى حائرا. فقال لها: أزيلى عنى ما قد أصابنى. فقالت: على أن لا تعاود مثل ما أتيت.

قال: نعم. فدعت اللّه سبحانه و تعالى فزال عنه و رجعت يده إلى حالها. فلما وثق بالصحة راودها و مناها و وعدها بالإحسان، فامتنعت و قالت: قد عرفت ما جرى. ثم مدّ يده إليها فجفت و ضربت عليه أعضاؤه و عصبه، فاستغاث بها و أقسم بالآلهة أنها إن أزالت عنه ذلك فإنه لا يعاودها. فسألت اللّه تعالى، فزال عنه ذلك و رجع إلى حاله فقال: إنّ لك لربا عظيما لا يضيعك، فأعظم قدرها و سألها عن إبراهيم فقالت: هو قريبى و زوجى. قال: فإنه قد ذكر أنك أخته. قالت: صدق، أنا أخته فى الدين، و كل من كان على ديننا فهو

أخ لنا. قال: نعم الدين دينكم.

و وجه إلى ابنته جوريا، و كانت من الكمال و العقل بمكان كبير، فألقى اللّه تعالى محبة سارة فى قلبها، فكانت تعظمها و أضافتها أحسن ضيافة، و وهبت لها جوهرا و مالا- فأتت به إبراهيم عليه السلام فقال لها: ردّيه فلا حاجة لنا به. فردّته، و ذكرت ذلك جوريا لأبيها.

فعجب منهما و قال: هذا كريم من أهل بيت الطهارة، فتحيلى فى برّها بكل حيلة، فوهبت لها جارية قبطية من أحسن الجوارى يقال لها آجر، و هى هاجر أم إسماعيل عليه السلام، و جعلت لها سلالا من الجلود، و جعلت فيها زاد و حلوى و قالت: يكون هذا الزاد معك، و جعلت تحت الحلوى جوهرا نفيسا و حليا مكللا- فقالت سارة: أشاور صاحبى. فأتت إبراهيم عليه السلام و استأذنته فقال: إذا كان مأكولا فخذيه. فقبلته منها.

و خرج إبراهيم، فلما مضى و أمعنوا فى السير، أخرجت سارة بعض تلك السلال فأصابت الجوهر و الحلى، فعرّفت إبراهيم عليه السلام ذلك، فباع بعضه و حفر من ثمنه البئر التى جعلها للسبيل، و فرّق بعضه فى وجوه البرّ، و كان يضيف كل من مرّ به، و عاش طيطوس إلى أو وجهت هاجر من مكة تعرّفه أنها بمكان جدب و تستغيثه، فأمر بحفر نهر فى شرقىّ مصر بسفح الجبل حتى ينتهى إلى مرقى السفن فى البحر الملح، فكان يحمل إليها الحنطة و أصناف الغلات، فتصل إلى جدّة و تحمل من هناك على المطايا، فأحيا بلد الحجاز مدّة، و يقال إنما حلّيت الكعبة فى ذلك العصر مما أهداه ملك مصر، و قيل أنه لكثرة ما كان يحمله طوطيس إلى الحجاز سمته العرب و جرهم الصادوق، و يقال أنه سأل إبراهيم عليه السلام أن يبارك له فى بلده فدعا بالبركة لمصر، و عرّفه أن ولده سيملكها و يصير أمرها إليهم قرنا بعد قرن.

و طوطيس أوّل فرعون كان بمصر، و ذلك أنه أكثر من القتل حتى قتل قراباته و أهل بيته و بنى عمه و خدمه و نساءه، و كثيرا من الكهنة و الحكماء، و كان حريصا على الولد فلم يرزق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۱

ولدا غير ابنته جوريا، أو جورياق، و كانت حكيمة عاقلة تأخذ على يده كثيرا و تمنعه من سفك الدماء، فأبغضته ابنته و أبغضه جميع الخاصة و العامة، فلما رأت أمره يزيد خافت على ذهاب ملكهم فسمته و هلك، و كان ملكه سبعين سنة، و اختلفوا فيمن يملك بعده، و أرادوا أن يقيموا واحدا من ولد اتريب، فقال بعض الوزراء و دعا لجورياق، فتمّ لها الأمر و ملكت.

فهذا كان أوّل أمر هذا الخليج.

ثم حفره مرّة ثانية أدريان قيصر، أحد ملوك الروم، و من الناس من يسميه أندرويانوس، و منهم من يقول هوريانوس، قال فى تاريخ مدينة رومة، و ولى الملك أدريان قيصر أحد ملوك الروم، و كانت ولايته إحدى و عشرين سنة، و هو الذى درس اليهود مرّة ثانية إذ كانوا راموا النفاق عليه، و هو الذى جدّد مدينة يروشالم، يعنى مدينة القدس، و أمر بتبديل اسمها و أن تسمى إيليا. و قال علماء أهل الكتاب عن أدريان هذا: و غزا القدس و أخربه فى الثانية من ملكه، و كان ملكه فى سنة تسع و ثلاثين و أربعمائة من سنى الإسكندر، و قتل عامة أهل القدس، و بنى على باب مدينة القدس منارا و كتب عليه: هذه مدينة إيليا، و يسمى موضع هذا العمود الآن محراب داود. ثم سار من القدس إلى باب فحارب ملكها و هزمه و عاد إلى مصر، فحفر خليجا من النيل إلى بحر القلزم، و سارت فيه السفن و بقى رسمه عند الفتح الإسلامىّ، فحفره عمرو بن العاص، و أصاب أهل مصر منه شدائد و ألزمهم بعبادة الأصنام، ثم عاد إلى بلاده بممالك الروم فابتلى بمرض أعيى الأطباء، فخرج يسير فى البلاد يبتغى من يداويه، فمرّ على بيت المقدس و كان خرابا ليس فيه غير كنيسة للنصارى، فأمر ببناء المدينة و حصنها و أعاد إليها اليهود، فأقاموا بها و ملّكوا عليهم رجلا منهم.

فبلغ ذلك أدريان قيصر فبعث إليهم جيشا لم يزل يحاصرهم حتى مات اكثرهم جوعا و عطشا و أخذها عنوة، فقتل من اليهود ما لا يحصى كثرة، و أخرب المدينة حتى صارت تلالا عامرة فيها البتة، و تتبع اليهود يريد أن لا يدع منهم على وجه الأرض أحدا، ثم أمر

طائفة من اليونانيين فتحوّلوا إلى مدينة القدس و سكنوا فيها، فكان بين خراب القدس الخراب الثانى على يد طيطوس و بين هذا الخراب ثلاث و خمسون سنة، فعمرت القدس باليونان، و لم يزل قيصر هذا ملكا حتى مات، فهذا خبر حفر هذا الخليج فى المرّة الثانية، فلما جاء الإسلام جدّد عمرو بن العاص حفره.

قال ابن عبد الحكم ذكر حفر خليج أمير المؤمنين رضى اللّه عنه: حدّثنا عبد اللّه بن صالح عن الليث بن سعد قال: إنّ الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فى سنة الرمادة، فكتب رضى اللّه عنه إلى عمرو بن العاص و هو بمصر، من عبد اللّه عمر أمير المؤمنين، إلى العاصى ابن العاصى سلام. أما بعد: فلعمرى يا عمرو ما تبالى إذا شبعت أنت و من معك، أن أهلك أنا و من معى، فيا غوثاه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۲

ثم يا غوثاه يردّد ذلك. فكتب إليه عمرو: من عبد اللّه عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين، أما بعد: فيا لبيك ثم يا لبيك، قد بعثت إليك بعير أوّلها عندك و آخرها عندى، و السلام عليك و رحمة اللّه و بركاته.

فبعث إليه بعير عظيمة، فكان أوّلها بالمدينة و آخرها بمصر يتبع بعضها بعضا. فلما قدمت على عمر رضى اللّه عنه، وسّع بها على الناس، و دفع إلى أهل كل بيت بالمدينة و ما حولها بعيرا بما عليه من الطعام، و بعث عبد الرحمن بن عوف و الزبير بن العوّام و سعد بن أبى وقاص يقسّمونها على الناس، فدفعوا إلى أهل كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام، ليأكلوا الطعام، و يأتدموا بلحمه، و يحتذوا بجلده، و ينتفعوا بالوعاء الذى كان فيه الطعام فيما أرادوا من لحاف أو غيره. فوسّع اللّه بذلك على الناس، فلما رأى ذلك عمر رضى اللّه عنه، حمد اللّه و كتب إلى عمرو بن العاص أن يقدم عليه هو و جماعة من أهل مصر معه، فقدموا عليه. فقال عمر: يا عمرو، إنّ اللّه قد فتح على المسلمين مصر، و هى كثيرة الخير و الطعام، و قد ألقى فى روعى لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين و التوسعة عليهم حين فتح اللّه عليهم مصر، و جعلها قوّة لهم و لجميع المسلمين، أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل فى البحر، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة و مكة، فإن حمله الظهر يبعد، و لا نبلغ به ما نريد، فانطلق أنت و أصحابك فتشاوروا فى ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم، فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر، فثقل ذلك عليهم و قالوا: نتخوف أن يدخل من هذا ضرر على مصر، فنرى أن تعظّم ذلك على أمير المؤمنين و تقول له: إنّ هذا أمر لا يعتدل و لا يكون و لا نجد إليه سبيلا. فرجع عمرو بذلك إلى عمر فضحك عمر رضى اللّه عنه حين رآه و قال:

و الذى نفسى بيده لكأنى أنظر إليك يا عمرو و إلى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرنا به من حفر الخليج، فثقل ذلك عليهم و قالوا يدخل من هذا ضرر على أهل مصر، فنرى أن تعظّم ذلك على أمير المؤمنين و تقول له، إنّ هذا أمر لا يعتدل و لا يكون، و لا نجد إليه سبيلا.

فعجب عمرو من قول عمرو قال: صدقت و اللّه يا أمير المؤمنين، لقد كان الأمر على ما ذكرت. فقال له عمر رضى اللّه عنه: انطلق بعزيمة منى حتى تجدّ فى ذلك، و لا يأتى عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء اللّه تعالى.

فانصرف عمرو و جمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد، ثم احتفر الخليج فى حاشية الفسطاط الذى يقال له خليج أمير المؤمنين، فساقه من النيل إلى القلزم، فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن، فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة و مكة، فنفع اللّه بذلك أهل الحرمين، و سمى خليج أمير المؤمنين، ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه بعد عمر بن عبد العزيز، ثم ضيعه الولاة بعد ذلك فتركه و غلب عليه الرمل فانقطع، فصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۳

قال: و يقال إنّ عمر رضى اللّه عنه قال لعمرو حين قدم عليه: يا عمرو إنّ العرب قد تشاءمت بى وكادت أن تغلب على رحلى، و قد عرفت الذى أصابها، و ليس جند من الأجناد أرجى عندى أن يغيث اللّه بهم أهل الحجاز من جندك، فإن استطعت أن تحتال لهم

حيلة حتى يغيثهم اللّه تعالى. فقال عمرو: ما شئت يا أمير المؤمنين، قد عرفت أنه كانت تأتينا سفن فيها تجار من أهل مصر قبل الإسلام، فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج و استدّ و تركه التجار، فإن شئت أن نحفره فننشىء فيه سفنا يحمل فيها الطعام إلى الحجاز فعلته. فقال عمر رضى اللّه عنه: نعم فافعل.

فلما خرج عمرو من عند عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، ذكر ذلك لرؤساء أهل أرضه من قبط مصر فقالوا له: ما ذا جئت به، أصلح اللّه الأمير، تريد أن تخرج طعام أرضك و خصبها إلى الحجاز و تخرب هذه، فإن استطعت فاستقل من ذلك. فلما ودّع عمر رضى اللّه عنه قال له: يا عمرو انظر إلى ذلك الخليج و لا تنسين حفره. فقال له: يا أمير المؤمنين إنه قد انسدّ، و تدخل فيه نفقات عظيمة. فقال له: أمّا و الذى نفسى بيده إنى لأظنك حين خرجت من عندى حدّثت بذلك أهل أرضك فعظموه عليك و كرهوا ذلك، أعزم عليك إلّا ما حفرته و جعلت فيه سفنا. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين إنه متى ما يجد أهل الحجاز طعام مصر و خصبها مع صحة الحجاز لا يخفوا إلى الجهاد. قال: فإنى سأجعل من ذلك أمرا، لا يحمل فى هذا البحر إلّا رزق أهل المدينة و أهل مكة. فحفره عمرو و عالجه و جعل فيه السفن. قال: و يقال أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه كتب إلى عمرو بن العاص: إلى العاصى ابن العاصى، فإنك لعمرى لا تبالى إذا سمنت أنت و من معك أن أعجف أنا و من معى، فيا غوثاه و يا غوثاه. فكتب إليه عمرو: أما بعد فيا لبيك ثم يا لبيك، أتتك عير أوّلها عندك و آخرها عندى، مع أنى أرجو أن أجد السبيل إلى أن أحمل إليك فى البحر، ثم إن عمرا ندم على كتابه فى الحمل إلى المدينة فى البحر. و قال: إن أمكنت عمر من هذا خرّب مصر و نقلها إلى المدينة. فكتب إليه: إنى نظرت فى أمر البحر فإذا هو عسر و لا يلتأم و لا يستطاع. فكتب إليه عمر رضى اللّه عنه: إلى العاصى ابن العاصى، قد بلغنى كتابك، تعتلّ فى الذى كنت كتبت إلىّ به من أمر البحر، و أيم اللّه لتفعلنّ أو لأقلعن بأذنك و لأبعثن من يفعل ذلك. فعرف عمرو أنه الجدّ من عمر رضى اللّه عنه، ففعل. فبعث إليه عمر رضى اللّه عنه أن لا ندع بمصر شيئا من طعامها و كسوتها و بصلها و عدسها و خلها إلّا بعثت إلينا منه.

قال: و يقال إن الذى دل عمرو بن العاص على الخليج رجل من القبط، فقال لعمرو:

أ رأيت إن دللتك على مكان تجرى فيه السفن حتى تنتهى إلى مكة و المدينة، أ تضع عنى الجزية و عن أهل بيتى؟ فقال: نعم. فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه. فكتب إليه أن أفعل، فلما قدمت السفن خرج عمر رضى اللّه عنه حاجا أو معتمرا فقال للناس:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۴

سيروا بنا ننظر إلى السفن التى سيرها اللّه تعالى إلينا من أرض فرعون حتى أتتنا. فأتى الجار و قال: اغتسلوا من ماء البحر فإنه مبارك، فلما قدمت السفن الجار و فيها الطعام، صك عمر رضى اللّه عنه للناس بذلك الطعام صكوكا، فتبايع التجار الصكوك بينهم قبل أن يقبضوها، فلقى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه العلاء بن الأسود رضى اللّه عنه فقال: كم ربح حكيم بن حزام؟ فقال: ابتاع من صكوك الجار بمائة ألف درهم و ربح عليها مائة ألف، فلقيه عمر رضى اللّه عنه فقال له: يا حكيم كم ربحت؟ فأخبره بمثل خبر العلاء. قال عمر رضى اللّه عنه: فبعته قبل أن تقبضه؟ قال نعم. قال عمر رضى اللّه عنه: فإنّ هذا بيع لا يصح فارددّه.

فقال حكيم: ما علمت أن هذا بيع لا يصح، و ما أقدر على ردّه. فقال عمر رضى اللّه عنه: لا بدّ. فقال حكيم: و اللّه ما أقدر على ذلك، و قد تفرّق و ذهب، و لكن رأس مالى و ربحى صدقة.

و قال القضاعىّ فى ذكر الخليج: أمر عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه عمرو بن العاص عام الرمادة بحفر الخليج الذى بحاشية الفسطاط الذى يقال له خليج أمير المؤمنين، فساقه من النيل إلى القلزم، فلم يأت عليه الحول حتى جرت فيه السفن، و حمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة و مكة، فنفع اللّه تعالى بذلك أهل الحرمين، فسمى خليج أمير المؤمنين.

و ذكر الكندىّ فى كتاب الجند العربىّ أن عمرا حفره فى سنة ثلاث و عشرين، و فرغ منه فى ستة أشهر، و جرت فيه السفن و وصلت إلى الحجاز فى الشهر السابع، ثم بنى عليه عبد العزيز بن مروان قنطرة فى ولايته على مصر. قال: و لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل

فيه عمر بن عبد العزيز، ثم أضاعته الولاة بعد ذلك فترك و غلب عليه الرمل، فانقطع و صار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم.

و قال ابن قديد: أمر أبو جعفر المنصور بسدّ الخليج حين خرج عليه محمد بن عبد اللّه بن حسن بالمدينة ليقطع عنه الطعام، فسدّ إلى الآن.

و ذكر البلاذرى أن أبا جعفر المنصور لما ورد عليه قيام محمد بن عبد اللّه قال: يكتب الساعة إلى مصر أن تقطع الميرة عن أهل الحرمين، فإنهم فى مثل الحرجة إذا لم تأتهم الميرة من مصر.

و قال ابن الطوير و قد ذكر ركوب الخليفة لفتح الخليج، و هذا الخليج هو الذى حفره عمرو بن العاص لما ولى على مصر فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه من بحر فسطاط مصر الحلو، و ألحقه بالقلزم بشاطئ البحر الملح، فكانت مسافته خمسة أيام، لتقرب معونة الحجاز من ديار مصر فى أيام النيل، فالمراكب النيلية تفرّغ ما تحمله من ديار مصر بالقلزم، فإذا فرغت حملت ما فى القلزم مما وصل من الحجاز و غيره إلى مصر، و كان مسلكا للتجار و غيرهم فى وقته المعلوم، و كان أوّل هذا الخليج من مصر يشق الطريق

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۵

الشارع المسلوك منه اليوم إلى القاهرة، حافا بالقريوص الذى عليه البستان المعروف بابن كيسان مادا، و آثاره اليوم مادة باقية إلى الحوض المعروف بسيف الدين حسين صار ابن رزيك، و البستان المعروف بالمشتهى، و فيه آثار المنظرة التى كانت معدّة لجلوس الخليفة لفتح الخليج من هذا الطريق، و لم تكن الآدر المبنية على الخليج، و لا شىء منها هناك، و ما برح هذا الخليج منتزها لأهل القاهرة يعبرون فيه بالمراكب للنزهة، إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف الآن بالخليج الناصرىّ.

قال المسبحىّ: و فى هذا الشهر، يعنى المحرّم، سنة إحدى و أربعمائة، منع الحاكم بأمر اللّه من الركوب فى القوارب إلى القاهرة فى الخليج، و شدّد فى المنع، و سدّت أبواب القاهرة التى يتطرّق منها إلى الخليج، و أبواب الطاقات من الدور التى تشرف على الخليج، و كذلك أبواب الدور و الخوخ التى على الخليج.

قال القاضى الفاضل فى متجدّدات حوادث سنة أربع و تسعين و خمسمائة: و نهى عن ركوب المتفرّجين فى المراكب فى الخليج، و عن إظهار المنكر، و عن ركوب النساء مع الرجال، و علّق جماعة من رؤساء المراكب بأيديهم. قال: و فى يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان، ظهر فى هذه المدّة من المنكرات ما لم يعهد فى مصر فى وقت من الأوقات، و من الفواحش ما خرج من الدور إلى الطرقات، و جرى الماء فى الخليج بنعمة اللّه تعالى بعد القنوط، و وقوف الزيادة فى الذراع السادس عشر، فركب أهل الخلاعة و ذوو البطالة فى مراكب فى نهار شهر رمضان و معهم النساء الفواجر، و بأيديهنّ المزاهر يضربن بها، و تسمع أصواتهنّ و وجوههنّ مكشوفة، و حرفاؤهنّ من الرجال معهنّ فى المراكب لا- يمنعون عنهنّ الأيدى و لا- الأبصار، و لا- يخافون من أمير و لا مأمور شيئا من أسباب الإنكار، و توقع أهل المراقبة، ما يتلو هذا الخطب من المعاقبة.

و قال جامع سيرة الناصر محمد بن قلاوون: و فى سنة ست و سبعمائة، رسم الأميران بيبرس و سلار بمنع الشخاتير و المراكب من دخول الخليج الحاكمىّ و التفرّج فيه، بسبب ما يحصل من الفساد و التظاهر بالمنكرات اللاتى تجمع الخمر آلات الملاهى، و النساء المكشوفات الوجوه المتزينات بأفخر زينة، من كوافى الزركش و القنابيز و الحلى العظيم، و يصرف على ذلك الأموال الكثيرة، و يقتل فيه جماعة عديدة، و رسم الأميران المذكوران لمتولى الصناعة بمصر، أن يمنع المراكب من دخول الخليج المذكور إلّا ما كان فيه غلة أو متجرا و ما ناسب ذلك، فكان هذا معدودا من حسناتهما، و مسطورا فى صحائفهما.

قال مؤلفه رحمه اللّه تعالى: أخبرنى شيخ معمر ولد بعد سنة سبعمائة يعرف بمحمد المسعودى، أنه أدرك هذا الخليج و المراكب تمرّ فيه بالناس للنزهة، و أنها كانت تعبر من تحت باب القنطرة غادية و رائحة، و الآن لا يمرّ بهذا الخليج من المراكب إلّا ما يحمل متاعا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۶

من متجر أو نحوه، و صارت مراكب النزهة و التفرج إنما تمرّ فى الخليج الناصرىّ فقط، و على هذا الخليج الكبير فى زماننا هذا أربع عشرة قنطرة، يأتى ذكرها إن شاء اللّه تعالى فى القناطر، و حافتا هذا الخليج الآن معمورتان بالدور، و سيأتى إن شاء اللّه ذكر ذلك فى مواضعه من هذا الكتاب.

و قال ابن سعد: و فيها خليج لا يزال يضعف بين خضرتها حتى يصير كما قال الرصافى:

ما زالت الأنحاء تأخذهحتى غدا كذؤابة النجم

و قلت فى نور الكتان الذى على جانبى هذا الخليج:

انظر إلى النهر و الكتان يرمقهمن جانبيه بأجفان لها حدق

قد سلّ سيفا عليه للصبا شطبفقابلته بأحداق بها أرق

و أصبحت فى يد الأرواح تنسجهاحتى غدت حلقا من فوقها حلق

فقم نزرها و وجه الأرض متضحأو عند صفرته إن كنت تغتبق

قال و قد ذكر مصر و لا ينكر فيها إظهار أوانى الخمر و لا آلات الطرب ذوات الأوتار، و لا تبرّج النساء العواهر، و لا غير ذلك مما ينكر فى غيرها، و قد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة و مصر، و معظم عمارته فيما يلى القاهرة، فرأيت فيه من ذلك العجائب، و ربما وقع فيه قتل بسبب السكر، فيمنع فيه الشرب، و ذلك فى بعض الأحيان، و هو ضيق و عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطرب و التحكم و المجانة، حتى أن المحتشمين و الرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب، و للسرج فى جانبيه بالليل منظر فتّان و كثيرا ما يتفرّج فيه أهل الستر، و فى ذلك أقول:

لا تركبنّ فى خليج مصرإلّا إذا يسدل الظلام

فقد علمت الذى عليهمن عالم كلهم طغام

صفان للحرب قد أظلّاسلاح ما بينهم كلام

يا سيدى لا تسر إليهإلّا إذا هوّم النيام

و الليل ستر على التصابىعليه من فضله لثام

و السرج قد بدّدت عليهمنها دنانير لا ترام

و هو قد امتدّ و المبانىعليه فى خدمة قيام

للّه كم دوحة جنيناهناك أثمارها الآثام

و قال ابن عبد الظاهر عن مختصر تاريخ ابن المأمون، أنّ أوّل من رتب حفر خليج القاهرة على الناس المأمون بن البطائحىّ، و كذلك على أصحاب البساتين فى دولة الأفضل،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۷

و جعل عليه واليا بمفرده، و للّه در الأسعد بن خطير المماتى حيث يقول:

خليج كالحسام له صقالو لكن فيه للرائى مسرّه

رأيت به الملاح تجيد عوماكأنهم نجوم فى مجرّه

و قال بهاء الدين أبو الحسن علىّ بن الساعاتى فى يوم كسر الخليج:

إنّ يوم الخليج يوم من الحسن بديع المرئىّ و المسموع

كم لديه من ليث غاب صؤولو مهاة مثل الغزال المروع

و على السدّ عزة قبل أن تملكه ذلة المحب الخضوع
كسروا جسره هناك فحاكى كسر قلب يتلوه فيض دموع

ذكر خليج فم الخور و خليج الذكر

قال ابن سيده فى كتاب المحكم. فى اللغة الخور مصب الماء فى البحر، و قيل هو خليج من البحر، و الخور المطمئن من الأرض، و خليج فم الخور يخرج الآن من بحر النيل و يصب فى الخليج الناصرىّ ليقوّى جرى الماء فيه و يغزره، و كان قبل أن يحفر الخليج الناصرىّ يمدّ خليج الذكر، و كان أصله ترعة يدخل منها ماء النيل للبستان الذى عرف بالمقسى ثم وسّع.
قال ابن عبد الظاهر: و كان يخرج من البحر للمقسىّ الماء فى البرابخ، فوسّعه الملك الكامل، و هو خليج الذكر. و يقال أنّ خليج الذكر حفره كافور الإخشيدى، فلما زال البستان المقسىّ فى أيام الخليفة الظاهر بن الحاكم و جعله بركة قدّام المنظرة المعروفة باللؤلؤة، صار يدخل الماء إليها من هذا الخليج، و كان يفتح هذا الخليج قبل الخليج الكبير، و لم يزل حتى أمر الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة أربع و عشرين و سبعمائة بحفره فحفر و أوصل بالخليج الكبير، و شرع الأمراء و الجند فى حفره من أخريات جمادى الآخرة، فلما فتح كادت القاهرة أن تغرق، فسدّت القنطرة التى عليه فهدمها الماء، و من حينئذ عزم السلطان على حفر الخليج الناصرى، و أنا أدركت آثاره، و فيه ينبت القصب المسمى بالفارسىّ.
و أخبرنى الشيخ المعمر حسام الدين حسين بن عمر الشهرزورىّ أنه يعرف خليج الذكر هذا و فيه الماء، و سبح فيه غير مرّة، و أرانى آثاره، و كان الماء يدخل إليه من تحت قنطرة الدكة الآتى ذكرها فى القناطر إن شاء اللّه تعالى، و على خليج فم الخور الآن قنطرة، و على خليج الذكر قنطرة يأتى ذكرهما إن شاء اللّه تعالى عند ذكر القناطر، و إنما قيل له خليج الذكر لأن بعض أمراء الملك الظاهر ركن الدين بيبرس كان يعرف بشمس الدين الذكر الكركىّ، كان له فيه أثر من حفره، فعرف به، و كان للناس عند هذا الخليج مجتمع يكثر فيه لهوهم و لعبهم.
قال المسبحىّ و فى يوم الثلاثاء لخمس بقين منه، يعنى المحرّم، سنة خمس عشرة
المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۸
و أربعمائة، كان ثالث الفتح، فاجتمع بقنطرة المقس عند كنيسة المقس من النصارى و المسلمين فى الخيام المنصوبة و غيرها خلق كثير للأكل و الشرب و اللهو، و لم يزالوا هناك إلى أن انقضى ذلك اليوم، و ركب أمير المؤمنين، يعنى الظاهر لاعزاز دين اللّه أبا الحسن علىّ بن الحاكم بأمر اللّه، فى مركبه إلى المقس، و عليه عمامة شرب مفوّطة بسواد، و ثوب ديبقى من شكل العمامة، و دار هناك طويلا- و عاد إلى قصره سالما، و شوهد من سكر النساء و تهتكهن و حملهن فى قفاف الحمالين سكارى، و اجتماعهن مع الرجال أمر يقبح ذكره.

ذكر الخليج الناصرىّ

هذا الخليج يخرج من بحر النيل و يصب فى الخليج الكبير، و كان سبب حفره أنّ الملك الناصر محمد بن قولان، لما أنشأ القصور و الخانقاه بناحية سرياقوس، و جعل هناك ميدانا يسرح إليه، و أبطل ميدان القبق المعروف بالميدان الأسود ظاهر باب النصر من القاهر، و ترك المسطبة التى بناها بالقرب من بركة الحبش لمطعم الطيور و الجوارح، اختار أن يحفر خليجا من بحر النيل لتمرّ فيه المراكب إلى ناحية سر ياقوس، لحمل ما يحتاج إليه من الغلال و غيرها، فتقدّم إلى الأمير سيف الدين أرغون نائب السلطنة بديار مصر بالكشف عن عمل ذلك، فنزل من قلعة الجبل بالمهندسين و أرباب الخبرة إلى شاطىء النيل، و ركب النيل، فلم يزل القوم فى فحص و تفتيش

إلى أن وصلوا بالمراكب إلى موردة البلاط من أراضى بستان الخشاب، فوجدوا ذلك الموضع أوطأ مكان يمكن أن يحفر، إلّا أن فيه عدّة دور، فاعتبروا فم الخليج من موردة البلاط، و قدّروا أنه إذا حفر مرّ الماء فيه من موردة البلاط إلى الميدان الظاهرىّ الذى أنشأه الملك الناصر بستانا، و يمرّ من البستان إلى بركة قرموط حتى ينتهى إلى ظاهر باب البحر، و يمرّ من هناك على أرض الطبالة فيصب فى الخليج الكبير، فلما تعين لهم ذلك، عاد النائب إلى القلعة و طالعه بما تقرّر، فبرز أمره لسائر أمراء الدولة بإحضاء الفلاحين من البلاد الجارية فى إقطاعاتهم، و كتب إلى ولاة الأعمال بجمع الرجال لحفر الخليج، فلم يمض سوى أيام قلائل حتى حضر الرجال من الأعمال، و تقدّم إلى النائب بالنزول للحفر و معه الحجاب، فنزل لعمل ذلك، وقاس المهندسون طول الحفر من موردة البلاط حيث تعين فم الخليج إلى أن يصب فى الخليج الكبير، و ألزم كل أمير من الأمراء بعمل أقصاب فرضت له، فلما أهلّ شهر جمادى الأولى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، وقع الشروع فى العمل، فبدأوا بهدم ما كان هناك من الأملاك التى من جهة باب اللوق إلى بركة قرموط، و حصل الحفر فى البستان الذى كان للنائب، فأخذوا منه قطعة، و رسم أن يعطى أرباب الأملاك أثمانها، فمنهم من باع ملكه و أخذ ثمنه من مال السلطان، و منهم من هدم داره و نقل أنقاضها، فهدمت عدّة دور و مساكن جليلة، و حفر فى عدّة بساتين، فانتهى العمل فى سلخ جمادى الآخرة على رأس شهرين، و جرى الماء فيه عند زيادة النيل، فأنشأ الناس عدّة سواق و جرت فيه السفن بالغلال و غيرها،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۵۹

فسّر السلطان بذلك، و حصل للناس رفق، و قويت رغبتهم فيه، فاشتروا عدّة أراض من بيت المال غرست فيها الأشجار و صارت بساتين جليلة، و أخذ الناس فى العمارة على حافتى الخليج، فعمر ما بين المقس و ساحل النيل ببولاق، و كثرت العمائر على الخليج حتى اتصلت من أوّله بموردة البلاط إلى حيث يصب فى الخليج الكبير بأرض الطبالة، و صارت البساتين من وراء الأملاك المطلة على الخليج، و تنافس الناس فى السكنى هناك، و أنشأوا الحمّامات و المساجد و الأسواق، و صار هذا الخليج مواطن أفراح و منازل لهو و مغنى صبابات و ملعب أتراب و محل تيه و قصف، فيما يمرّ فيه من المراكب و فيما عليه من الدور، و ما برحت مراكب النزهة تمرّ فيه بأنواع الناس على سبيل اللهو إلى أن منعت المراكب منه بعد قتل الأشرف، كما يرد عند ذكر القناطر إن شاء اللّه تعالى.

ذكر خليج قنطرة الفخر

هذا الخليج يبتدئ من الموضع الذى كان ساحل النيل ببولاق، و ينتهى إلى حيث يصب فى الخليج الناصرىّ، و يصب أيضا فى خليج لطيف تسقى منه عدّة بساتين، و كل من هذين الخليجين معمور الجانبين بالأملاك المطلق عليه، و البساتين و جميع المواضع التى يمرّ فيها الخليج الناصرىّ، و أرض هذين الخليجين كانت غامرة بالماء، ثم انحسر عنها الماء شيئا بعد شىء، كما ذكر فى ظواهر القاهرة، و هذا الخليج حفر بعد الخليج الناصرىّ.

ذكر القناطر

اشارة

اعلم أن قناطر الخليج الكبير عدّتها الآن أربع عشرة قنطرة، و على خليج فم الخور قنطرة واحدة، و على خليج الذكر قنطرة واحدة، و على الخليج الناصرىّ خمس قناطر، و على بحر أبى المنجا قنطرة عظيمة، و بالجيزة عدّة قناطر.

ذكر قناطر الخليج الكبير

قال القضاعى: القنطرتان اللتان على هذا الخليج، يعنى خليج مصر الكبير، أما التى فى طرف الفسطاط بالحمراء القصوى، فإن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بناها فى سنة تسع و ستين، و كتب عليها اسمه، و ابتنى قناطر غيرها، و كتب على هذه القنطرة المذكورة، هذه القنطرة أمر بها عبد العزيز بن مروان الأمير، اللهمّ بارك له فى أمره كله، و ثبت سلطانه على ما ترضى، و أقرّ عينه فى نفسه و حشمه أمين. و قام ببنائها سعد أبو عثمان، و كتب عبد الرحمن فى صفر سنة تسع و ستين، ثم زاد فيها تكين أمير مصر فى سنة عثمان عشرة و ثلثمائة، و رفع سمكها، ثم زاد عليها الإخشيد فى سنة إحدى و ثلاثين و ثلثمائة، ثم عمرت فى أيام العزيز بالله.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۰

و قال ابن عبد الظاهر: و هذه القنطرة ليس لها أثر فى هذا الزمان، قلت موضعها الآن خلف خط السبع سقايات، و هذه القنطرة هى التى كانت تفتح عند وفاء النيل فى زمن الخلفاء، فلما انحسر النيل عن ساحل مصر اليوم، أهملت هذه القنطرة، و عملت قنطرة السدّ عند فم بحر النيل، فإن النيل كان قد ربى الجرف، حيث غيط الجرف الذى على يمنة من سلك من المراغة إلى باب مصر بجوار الكبارة.

قنطرة السد: هذه القنطرة موضعها مما كان غامرا بماء النيل قديما، و هى الآن يتوصل من فوقها إلى منشأة المهرانىّ و غيرها من برّ الخليج الغربىّ، و كان النيل عند إنشائها يصل إلى الكوم الأحمر الذى هو جانب الخليج الغربىّ الآن، تجاه خط بين الزقاقين، فإن النيل كان قد ربى جرفا قدّام الساحل القديم، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، فأهملت القنطرة الأولى لبعد النيل، و قدّمت هذه القنطرة إلى حيث كان النيل ينتهى، و صار يتوصل منها إلى بستان الخشاب الذى موضعه اليوم يعرف بالمريس و ما حوله، و كان الذى أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، فى أعوام بضع و أربعين و ستمائة، و لها قوسان، و عرفت الآن بقنطرة السدّ، من أجل أن النيل لما انحسر عن الجانب الشرقىّ و انكشفت الأراضى التى عليها الآن، خط بين الزقاقين إلى موردة الحلفاء، و موضع الجامع الجديد إلى دار النحاس، و ما وراء هذه الأماكن إلى المراغة و باب مصر بجوار الكبارة، و انكشف من أراضى النيل أيضا الموضع الذى يعرف اليوم بمنشأة المهرانىّ، و صار ماء النيل إذا بدت زيادته يجعل عند هذه القنطرة سدّ من التراب حتى يسند الماء إليه إلى أن تنتهى الزيادة إلى ست عشرة ذراعا، فيفتح السدّ حينئذ و يمرّ الماء فى الخليج الكبير كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، و الأمر على هذا إلى اليوم.

قناطر السباع: هذه القناطر جانبها الذى يلى خط السبع سقايات من جهة الحمراء القصوى، و جانبها الآخر من جهة جنان الزهرىّ، و أوّل من أنشأها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، و نصب عليها سباعا من الحجارة، فإن رنكه كان على شكل سبع، فقيل لها قناطر السباع من أجل ذلك، و كانت عالية مرتفعة، فلما أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاون الميدان السلطانىّ فى موضع بستان الخشاب، حيث موردة البلاط، و تردّد إليه كثيرا، و صار لا يمرّ إليه من قلعة الجبل حتى يركب قناطر السباع، فتضرّر من علوّها و قال لومراء أنّ هذه القنطرة حين أركب إلى الميدان و أركب عليها يتألم ظهرى من علوّها، و يقال أنه أشاع هذا، و القصد إنما هو كراهته لنظر أثر أحد من الملوك قبله، و بغضه أن يذكر لأحد غيره شىء يعرف به، و هو كلما يمرّ بها يرى السباع التى هى رنك الملك الظاهر، فأحب أن يزيلها لتبقى القنطرة منسوبة إليه و معروفة به، كما كان يفعل دائما فى محو آثار من تقدّمه و تخليد ذكره، و معرفة الآثار به و نسبتها له، فاستدعى الأمير علاء الدين علىّ بن حسن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۱

المروانىّ والى القاهرة و شادّ الجهات، و أمره بهدم قناطر السباع، و عمارتها أوسع مما كانت بعشرة أذرع، و أقصر من ارتفاعها الأوّل، فنزل ابن المروانىّ و أحضر الصناع و وقف بنفسه حتى انتهى فى جمادى الأولى سنة خمس و ثلاثين و سبعمائة فى أحسن قالب على ما هى عليه الآن، و لم يضع سباع الحجر عليها، و كان الأمير الطنبغا المارديني قد مرض و نزل إلى الميدان السلطانىّ، فأقام به و نزل إليه السلطان مرارا، فبلغ المارديني ما يتحدّث به العامّة من أن السلطان لم يخرّب قناطر السباع إلا حتى تبقى باسمه، و أنه رسم لابن المروانىّ أن يكسر سباع الحجر و يرميها فى البحر، و اتفق أنه عوفى عقيب الفراغ من بناء القنطرة، و ركب إلى القلعة، فسرّبه السلطان،

و كان قد شغفه حبا، فسأله عن حاله و حادثه إلى أن جرى ذكر القنطرة، فقال له السلطان: أعجبتك عمارتها، فقال و اللّه يا خوند: لم يعمل مثلها، و لكن ما كملت. فقال كيف، قال السباع التى كانت عليها لم توضع مكانها، و الناس يتحدّثون أن السلطان له عرض فى إزالتها لكونها رنك سلطان غيره، فامتغص لذلك و أمر فى الحال بإحضار ابن المروانىّ و ألزمه بإعادة السباع على ما كانت عليه، فبادر إلى تركيبها فى أماكنها، و هى باقية هناك إلى يومنا هذا إلّا أنّ الشيخ محمدا المعروف بصائم الدهر شوّه صورها كما فعل بوجه أبى الهول، ظنا منه أن هذا الفعل من جملة القربات و للّه در القائل:

و إنما غاية كلّ من وصل صيدا بنى الدنيا بأنواع الحيل

قنطرة عمر شاه: هذه القنطرة على الخليج الكبير، يتوصل منها إلى برّ الخليج الغربىّ.

قنطرة طقزدمر: هذه القنطرة على الخليج الكبير بخط المسجد المعلق، يتوصل منها إلى برّ الخليج الغربىّ، و حكر قوصون و غيره.

قنطرة اق سنقر: هذه القنطرة على الخليج الكبير، يتوصل إليها من خط قبو الكرمانىّ، و من حارة البديعيين التى تعرف اليوم بالحبانية، و يمرّ من فوقها إلى برّ الخليج الغربىّ، و عرفت بالأميراق سنقرشادّ العمائر السلطانية فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، عمرها لما أنشأ الجامع بالبركة الناصرية، و مات بدمشق سنة أربعين و سبعمائة.

قنطرة باب الخرق: يقال للأرض البعيدة التى تخرقها الريح لاستوائها، الخرق. و هذه القنطرة على الخليج الكبير، كان موضعها ساحلا و موردة للسقائين فى أيام الخلفاء الفاطميين، فلما أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب الميدان السلطانىّ بأرض اللوق، و عمريه المناظر فى سنة تسع و ثلاثين و ستمائة، أنشأ هذه القنطرة ليمرّ عليها إلى الميدان المذكور، و قيل قنطرة باب الخرق.

قنطرة الموسكى: هذه القنطرة على الخليج الكبير، يتوصل إليها من باب الخوخة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۲

و باب القنطرة، و يمرّ فوقها إلى برّ الخليج الغربىّ، أنشأها الأمير عز الدين موسك، قريب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و كان خيّرا يحفظ القرآن الكريم و يواظب على تلاوته، و يحب أهل العلم و الصلاح، و يؤثرهم، و مات بدمشق يوم الأربعاء ثامن عشرى شعبان سنة أربع و ثمانين و خمسمائة.

قنطرة الأمير حسين: هذه القنطرة على الخليج الكبير، و يتوصل منها إلى برّ الخليج الغربىّ، فلما أنشأ الأمير سيف الدين حسين بن أبى بكر بن إسماعيل بن حيدر بك الرومىّ الجامع المعروف بجامع الأمير حسين فى حكر جوهر النوبىّ، أنشأ هذه القنطرة ليصل من فوقها إلى الجامع المذكور، و كن يتوصل إليها من باب القنطرة، فثقل عليه ذلك و احتاج إلى أن فتح فى السور الخوخة المعروفة بخوخة الأمير حسين من الوزيرية، فصارت تجاه هذه القنطرة، و قد ذكر خبرها عند ذكر الخوخ من هذا الكتاب، و اللّه تعالى أعلم.

قنطرة باب القنطرة: هذه القنطرة على الخليج الكبير، يتوصل إليها من القاهرة، و يمرّ فوقها إلى المقس و أرض الطبالة، و أوّل من بناها القائد جوهر لما نزل بمناخه و أدار السور عليه و بنى القاهرة، ثم قدم عليه القرطمىّ، فاحتاج إلى الاستعداد لمحاربته، فحفر الخندق و بنى هذه القنطرة على الخليج عند باب جنان أبى المسك كافور الإخشيدىّ، الملاصق للميدان و البستان الذى للأمير أبى بكر محمد الإخشيد، ليتوصل من القاهرة إلى المقس، و ذلك فى سنة ثنتين و ستين و ثلثمائة، و بها تسمى باب القنطرة، و كانت مرتفعة بحيث تمرّ المراكب من تحتها و قد صارت فى هذا الوقت قريبة من أرض الخليج لا يمكن المراكب العبور من تحتها، و تسدّ بأبواب خوفا من دخول الزعار إلى القاهرة.

قنطرة باب الشعرية: هذه القنطرة على الخليج الكبير، يسلك إليها من باب الفتوح، و يمشى من فوقها إلى أرض الطبالة، و تعرف اليوم بقنطرة الخرّوبىّ.

القنطرة الجديدة: هذه القنطرة على الخليج الكبير، يتوصل إليها من زقاق الكحل و خط جامع الظاهر، و يتوصل منها إلى أرض الطبالة و إلى منية الشيرج و غير ذلك، أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة عند ما انتهى حفر الخليج

الناصريّ، و كان ما على جانبى الخليج من القنطرة الجديدة هذه إلى قناطر الإوز عامرا بالأملاك، ثم خربت شيئا بعد شيء من حين حدث فصل الباردة بعد سنة ستين و سبعمائة، و فحش الخراب، هناك منذ كانت سنة الشراقى فى زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين فى سنة سبع و سبعين و سبعمائة، فلما غرقت الحسينية بعد سنة الشراقى خربت المساكن التى كانت فى شرقيّ الخليج، ما بين القنطرة الجديدة و قناطر الإوز، و أخذت أنقاضها و صارت هذه البرك الموجودة الآن.

قناطر الإوز: هذه القناطر على الخليج الكبير، يتوصل إليها من الحسينية، و يسلك من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۳

فوقها إلى أراضى البعل و غيرها، و هى أيضا مما أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و أدركت هناك أملاكا مطلّة على الخليج بعد سنة ثمانين و سبعمائة، و هذه القناطر من أحسن منتزهات أهل القاهرة أيام الخليج، لما يصير فيه من الماء، و لما على حافته الشرقية من البساتين الأنيقة، إلّا أنها الآن قد خربت. و تجاه هذه القنطرة منظرة البعل التى تقدّم ذكرها عند ذكر مناظر الخلفاء، و بقيت آثارها إلى الآن، أدركناها يعطن فيها الكتان، و بها عرفت الأرض التى هناك، فسميت إلى الآن بأرض البعل، و كان هناك صف من شجر السنط قد امتدّ من تجاه قناطر الإوز إلى منظرة البعل، و صار فاصلا بين مزرعتين يجلس الناس تحته فى يومى الأحد و الجمعة للنزهة، فيكون هناك من أصناف الناس رجالهم و نسائهم ما لا يقع عليه بصر، و يباع هناك مآكل كثيرة، و كان هناك حانوت من طين تجاه القنطرة يباع فيها السمك، أدركتها و قد استؤجرت بخمس آلاف درهم فى السنة، عنها يومئذ نحو مائتين و خمسين مثقالا من الذهب، على أنه لا يباع فيما السمك إلّا نحو ثلاثة أشهر أو دون ذلك، و لم يزل هذا السنط إلى نحو سنة تسعين و سبعمائة، فقطع. و إلى اليوم تجتمع الناس هناك، و لكن شتان بين ما أدركنا و بين ما هو الآن، و قيل لها قناطر الإوز.

قناطر بنى وائل: هذه القناطر على الخليج الكبير تجاه التاج، أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و عرفت بقناطر بنى وائل من أجل أنه كان بجانبها عدّة منازل يسكنها عرب ضعاف بالجانب الشرقيّ، يقال لهم بنو وائل، و لم يزالوا هناك إلى نحو سنة تسعين و سبعمائة، و كان بجانب هذه القناطر من الجانب الغربيّ مقعد أحدثه الوزير الصاحب سعد الدين نصر اللّه بن البقرىّ لأخذ المكوس، و استمرّ مدّة ثم خرب، و لم ير أحسن منظرا من هذه القنطرة فى أيام النيل و زمن الربيع.

قنطرة الأميرية: هذه القنطرة هى آخر ما على الخليج الكبير من القناطر بضواحى القاهرة، و هى تجاه الناحية المعروفة بالأميرية، فيما بينها و بين المطرية، أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و عند هذه القنطرة ينسدّ ماء النيل إذا فتح الخليج عند وفاء زيادة النيل ست عشرة ذراعا، فلا يزال الماء عند سدّ الأميرية هذا إلى يوم النوروز، فيخرج والى القاهرة، إليه و يشهد على مشايخ أهل الضواحى بتغليق أراضى نواحيهم بالرىّ، ثم يفتح هذا السدّ فيمرّ الماء إلى جسر شيبين القصر، و يسدّ عليه حتى يروى ما على جانبى الخليج من البلاد، فلا يزال الماء واقفا عند سدّ شيبين إلى يوم عيد الصليب، و هو اليوم السابع عشر من النوروز، فيفتح حينئذ بعد شمول الرىّ جميع تلك الأراضى، و ليس بعد قنطرة الأميرية هذه قنطرة سوى قنطرة ناحية سرياقوس، و هى أيضا إنشاء الملك الناصر محمد بن قلاون، و بعد قنطرة سرياقوس جسر شيبين القصر، و سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى عند ذكر الجسور من هذا الكتاب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۴

قنطرة الفخر: هذه القنطرة بجوار موردة البلاط من أراضى بستان الخشاب برأس الميدان، و هى أوّل قنطرة عمرت على الخليج الناصريّ على فمه، أنشأها القاضى فخر الدين محمد بن فضل اللّه بن خروف القبطيّ، المعروف بالفخر ناظر الجيش فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، عند انتهاء حفر الخليج الناصريّ، و مات فى رجب سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة، و قد أناف على السبعين سنة، و تمكن فى الرياسة تمكنا كبيرا.

قنطرة قدادار: هذه القنطرة على الخليج الناصرىّ، يتوصل إليها من اللوق، و يمشى فوقها إلى برّ الخليج الناصرىّ مما يلى الفيل، و أوّل ما وضعت كانت تجاه البستان الذى كان ميدانا فى زمن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، إلى أن أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاون الميدان الموجود الآن بموردة البلاط من جملة أراضى بستان الخشاب، فغرس فى الميدان الظاهرىّ الأشجار و صار بستانا عظيما، كما ذكر ذلك فى موضعه من هذا الكتاب، و عرفت هذه القنطرة بالأمير سيف الدين قدادار مملوك الأمير برلغى، و كان من خبره أنه تنقل فى الخدم حتى ولىّ الغربية من أراضى مصر فى سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة، فلقى أهل البلاد منه شرّا كثيرا، ثم انتقل إلى ولاية البحيرة، فلما كان فى سنة أربع و عشرين كثرت الشناعة فى القاهرة بسبب الفلوس، و تعنت الناس فيها، و امتنعوا من أخذها حتى وقف الحال و تحسن السعر، و كان حينئذ يتقلد الوزارة الأمير علاء الدين مغلطاى الجمالىّ، و يتقلد ولاية القاهرة الأمير علم الدين سنجر الخازن، فلما توجه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون من قلعة الجبل إلى السرحة بناحية سرياقوس، بلغه توقف الحال و طمع السوقة فى الناس، و أن متولى القاهرة فيه لين و انه قليل الحرمة على السوقة، و كان السلطان كثير النفور من العامّة، شديد البغض لهم، و يريد كل وقت من الخازن أن يبطش بالحرافيش و يؤثر فيهم آثارا قبيحة، و يشهر منهم جماعة، فلم يبلغ من ذلك غرضه، فكرهه و استدعى الأمير أرغون نائب السلطنة و تقدّم إليه بالأغلاظ فى القول على الخازن بسبب فساد حال الناس، و همّ ببروز أمره بالقبض عليه و أخذ ماله، فما زال به النائب حتى عفا عنه. و قال السلطان يعزله و يولى من ينفع فى مثل هذا الأمر، فاختار ولاية قدادار عوضه، لما يعرف من يقظته و شهامته و جراءته على سفك الدماء، فاستدعاه من البحيرة و ولاه ولاية القاهرة فى أوّل شهر رمضان من السنة المذكورة.

فأوّل ما بدأ به أن أحضر الخبازين و الباعة و ضرب كثيرا منهم بالمقارع ضربا مبرّحا، و سمر عدّة منهم فى دراريب حوانيتهم، و نادى فى البلد من ردّ فلسا سمّر، ثم عرض أهل السجن و وسط جماعة من المفسدين عند باب زويلة، فهابته العامّة و ذعروا منه، و أخذ يتتبع من عصر خمرا، و أحضر عريف الحمالين و ألزمه بإحضار من كان يحمل العنب، فلما حضروا عنده استملاهم أسماء من يشترى العنب و مواضع مساكنهم، ثم أحضر خفراء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۵

الحارات و الأخطاط، و لم يزل بهم حتى دلوه على سائر من عصر الخمر، فاشتهر ذلك بين الناس و خافوه، فحوّل أهل حارة زويلة و أهل حارتى الروم و الديلم و غير ذلك من الأماكن ما عندهم من الخمر و صبوها فى البلاليع و الأقنية، و ألقوها فى الأزقة، و بذلوا المال لمن يأخذها منهم، فحصل لكثير من العامّة و الأطراف منها شىء كثير، حتى صارت تباع كل جرّة خمر بدرهم، و يمرّ الناس بأبواب الدور و الأزقة فترى من جرار الخمر شيئا كثيرا، و لا يقدر أحد أن يتعرّض لشىء منها، ثم ركب و كبس خط باب اللوق و أخذ منه شيئا كثيرا من الحشيش، و أحرقه عند باب زويلة، و استمرّ الحال مدّة شهر، ما من يوم إلّا و يهرق فيه خمر عند باب زويلة، و يحرق حشيش، فطهر اللّه به البلد من ذلك جميعه، و تتبع الزعّار و أهل الفساد فخافوه و فرّوا من البلد، فصار السلطان يشكره و يثنى عليه لما يبلغه من ذلك، و أما العامّة فإنه ثقل عليها و كرهته، حتى أنه لما تأمّر ابن الأمير بكتمر الساقى و ركب إلى القبة المنصورية على العادة، و معه أبوه النائب و سائر الأمراء، صاحت العامّة للأمير بكتمر الساقى يا أمير بكتمر بحياة ولدك أعزل هذا الظالم، ورد علينا و إلينا، يعنون الخازن، فلما عرّف بكتمر السلطان ذلك أعجبه و قال: يا أمير ما تخشى العامّة و السوقة، إلّا ظالما مثل هذا، ما يخاف اللّه تعالى، و زاد إعجاب السلطان به حتى قال له: لا تشاور فى أمر المفسدين، فلم يغترّ بذلك، و رفع إليه جميع ما يتفق له و شاوره فى كل جليل و حقير، و قال له إن جماعة من الكتاب و التجار قد عصر و الخمر، و استأذنه فى طلبهم و مصادرتهم، فتقدّم له بمشاورة النائب فى ذلك و إعلامه أن السلطان قد رسم بالكشف عمن عصر من الكتاب و التجار الخمر، فلما صار إلى النائب و عرّفه الخبر، أهانه و قال: إن السلطان لا يرضى بكبس بيوت الناس و هتك حرمهم و سترهم و إقامة الشناعات، و قام من فوره إلى السلطان و عرّفه ما يكون فى فعل ذلك من الفساد الكبير، و ما زال به حتى صرف رأيه عما أشار به قدادار من كبس الدور، و أخذ الناس فى

مماقته و الإخراق به فى كل وقت، فإنه كان يعنى بالخازن و لم يعجبه عزله عن الولايـة، فكثر جورقـدادار و زاد تتبعه للناس، و نادى أن لا يعمل أحد حلقة فيما بين القصرين و لا يسمر هناك، و أمر أن لا يخرج أحد من بيته بعد عشاء الآخرة، و أقام عنه نائبا من بطالى الحسينية ضمن المسطبة، منه فى كل يوم بثلاثمائة درهم، و انحصر الناس منه و ضاقوا به ذرعا لكثرة ما هتك أستارهم، و خرق بكثير من المستورين، و تسلطت المستصنعة و أرباب المظالم على الناس، و كانوا إذا رأوا سكران أوشموا منه رائحة خمر أحضروه» إليه، فتوقى الناس شرّه و شكاه الأمراء غير مرّة إلى السلطان، فلم يلتفت لما يقال فيه، و النائب مستمرّ على الإخراق به إلى أن قبض عليه السلطان، فخلا الجوّ لقدادار، و أكثر من سفك الدماء و إتلاف النفوس و التسلط على العامّة لبغضهم إياه، و السلطان يعجبه منه ذلك بحيث أنه أبرز مرسوما لسائر عماله و ولاته إن أحدا منهم لا يقتص ممن وجب عليه القصاص فى النفس أو القطع إلا أن يشاور فيه و يطالع بأمره، ما خلا قدادار مستولى القاهرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۶

فإنه لا يشاور على مفسد و لا غيره و يده مطلقة فى سائر الناس، فدهى الناس منه بعظائم، و شرع فى كبس بيوت السعداء، و مشت جماعة من المستصنعين فى البلد و كتبوا الأوراق و رموها فى بيوت الناس بالتهديد، فكثرت أسباب الضرر و كثر بلاء الناس به، و تعنت على الباعة، و نادى أن لا يفتح أحد حانوته بعد عشاء الآخرة، فامتنع الناس من الخروج بالليل حتى كانت المدينة فى الليل موحشة، و استجدّ على كل حارة دربا، و ألزم الناس بعمل ذلك، فجبيت بهذا السبب دراهم كثيرة، و صار الخفراء فى الليل يدورون معهم الطبول فى كل خط، فظفر بإنسان قد سرق شيئا من بيت فى الليل و تزيا بزى النساء، فسمّره على باب زويلة، و ما زال على ذلك حتى كثرت الشناعة، فعزله السلطان فى سنة تسع و عشرين بناصر الدين بن الحسنىّ، فأقام إلى أيام الحج و سافر إلى الحجاز و رجع و هو ضعيف، فمات فى سادس عشر صفر سنة ثلاثين و سبعمائة.

قنطرة الكتبة: هذه القنطرة على الخليج الناصرىّ بخط بركة قرموط، عرفت بذلك لكثرة من كان يسكن هناك من الكتاب، أنشأها القاضى شمس الدين عبد اللّه بن أبى سعيد بن أبى السرور الشهير بغبريال بن سعيد ناظر الدولة، و ولى نظر الدواوين بدمشق فى سنة ثلاث عشرة و سبعمائة، إليها من نظر البيوت بديار مصر، ثم استدعى من دمشق و قرر فى وظيفة ناظر النظار شريكا للقاضى شهاب الدين الأقفهسىّ، و استقرّ كريم الدين الصغير مكانه ناظرا بدمشق، و ذلك فى شهر رمضان سنة أربع و عشرين و سبعمائة، ثم صرف غبريال من النظر بديار مصر و سفر إلى دمشق فى ثامن عشر صفر سنة ست و عشرين، و طلب كريم الدين الصغير من دمشق، ثم قرّر فى مكان غبريال فى وظيفة النظر بديار مصر الخطير، كاتب أرغون أخو الموفق و أعيد غبريال إلى نظر دمشق و مات بدمشق بعد ما صودر و أخذ منه نحو ألفى درهم، فى سنة اثنتين و ثلاثين و سبعمائة، و ادركنا الأملاك منتظمة بجانبى هذا الخليج من أوّله بموردة البلاط إلى هذه القنطرة، و من هذه القنطرة إلى حيث يصب فى الخليج الكبير، فلما كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة، شرع الناس فى هدم ما على هذا الخليج من المناظر البهجة و المساكن الجليلة، و بيع أنقاضها، حتى ذهب ما كان على هذا الخليج من المنازل ما بين قنطرة الفخر التى تقدّم ذكرها، و آخر خط بركة قرموط، و أصبحت موحشة قفراء، بعد ما كانت مواطن أفراح و مغنى صبابات، لا يأويها إلّا الغربان و البوم، سنة اللّه فى الذين خلوا من قبل.

قنطرة المقسىّ: هذه القنطرة على خليج فم الخور، و هو الذى يخرج من بحر النيل و يلتقى مع الخليج الناصرىّ عند الدكة، فيصيران خليجا واحدا يصب فى الخليج الكبير، كان موضعها جسرا يستند عليه الماء إذا بدت الزيادة إلى أن تكمل أربعة عشر ذراعا، فيفتح و يمرّ الماء فيه إلى الخليج الناصرىّ و بركة الرطلىّ، و يتأخر فتح الخليج الكبير حتى يرقى الماء ستة عشر ذراعا، فلما انطرد ماء النيل عن البرّ الشرقىّ، بقى تاجه هذا الخليج فى أيام

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۷

احتراق النيل رملة لا يصل إليها الماء إلّا عند الزيادة، و صار يتأخر دخول الماء فى الخليج مدّة، و إذا كسر سدّ الخليج الكبير عند

الوفاء، مرّ الماء هـذا الخليـج مرورا قليلا، و ما زال موضع هذه القنطرة سدّا إلى أن كانت وزارة الصاحب شـمس الدين أبى الفرج عبد اللّه المقسـىّ، فى أيام السـلطان الملك الأشـرف شعبان بن حسين، فأنشأ بهذا المكان القنطرة فعرفت به، و اتصلت العمائر أيضا بجانبى هذا الخليج من حيث يبتدئ إلى أن يلتقى مع الخليج الناصـرىّ، ثم خرب أكثر ما عليه من العمائر و المساكن بعد سنة ست و ثمانمائة، و كان للناس بهـذا الخليـج مع الخليج الناصـرىّ فى أيام النيل مرور فى المراكب للنزهة، يخرجون فيه عن الجدّ بكثرة التهتك و التمتع بكل ما يلهى، إلى أن ولى أمر الدولة بعد قتل الملك الأشـرف شـعبان بن حسين، الأميران برقوق و بركة، فقام الشيخ محمد المعروف بصائم الدهر فى منع المراكب من المرور بالمتفرّجين فى الخليج، و اسـتفتى شـيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينىّ، فكتب له بوجوب منعهم لكثرة ما ينتهك فى المراكب من الحرمات و يتجاهر به من الفواحش و المنكرات، فبرز مرسوم الأميرين المذكورين بمنع المراكب من الدخول إلى الخليج، و ركّبت سلسـلة على قنطرة المقسـىّ هذه فى شـهر ربيع الأول سنة إحدى و ثمانين و سبعمائة، فامتنعت المراكب بأسـرها من عبور هذا الخليج إلّا أن يكون فيها غلة أو متاع، فقلق الناس لذلك و شق عليهم و قال الشهاب أحمد بن العطار الدنيسرىّ فى ذلك:

حديث فم الخور المسلسل ماؤه‌بقنطرة المقسىّ قد سار فى الخلق

ألا فاعجبوا من مطلق و مسلسل‌يقول لقد أوقفتم الماء فى حلقى

و قال:

تسلسلت قنطرة المقسىّ مما قد جرى و المنع أضحى شاملا

و قال أهل طبنة فى مجنهم‌قوموا بنا نقطع السلاسلا

و لم تزل مراكب الفرجـة ممتنعـة من عبور الخليـج إلى أن زالت دولـة الظـاهر برقوق، فى سـنة إحـدى و تسـعين و سـبعمائة، فأذن فى دخولها و هى مستمرّة إلى وقتنا هذا.

قنطرة بـاب البحر: هـذه القنطرة على الخليـج الناصـرى، يتوصل إليها من باب البحر و يمرّ الناس من فوقها إلى بولاق و غيره، و هى مما أنشأه الملك الناصـر محمد بن قلاوون عند انتهاء حفر الخليج الناصـرىّ، فى سـنة خمس و عشـرين و سـبعمائة، و قد كان موضعها فى القـديم غامرا بالماء عند ما كان جامع المقس مطلا على النيل، فلما انحسـر الماء عن برّ القاهرة صار ما قدّام باب البحر رملة، فإذا وقف الإنسان عند باب البحر رأى البرّ الغربىّ، لا يحول بينه و بين رؤيته بنيان و لا غيره، فإذا كان أوان زيادة ماء النيل صار الماء إلى باب

البحر، و ربما جلفط فى بعض السنين خوفا من غرق المقس، ثم لما طال المدى غرق خارج باب البحر بأرض باطن اللوق، و غرس فيه الأشـجار فصـار بساتين و مزارع، و بقى موضع هـذه القنطرة جرفا، و رمى الناس عليه التراب فصار كوما يشـنق عليه أرباب الجرائم، ثم نقـل ما هنالك من التراب و أنشـئت هـذه القنطرة و نودى فى الناس بالعمارة، فأوّل ما بنى فى غربىّ هـذه القنطرة مسـجد المهاميزىّ و بسـتانه، ثم تتـابع النـاس فى العمارة حتى انتظم ما بين شاطىء النيل ببولاق و باب البحر عرضا، و ما بين منشأة المهرانى و منيـة الشـيرج طولا، و صار ما بجانبى الخليـج معمورا بالـدور و من ورائها البساتين و الأسواق و الحمّامات و المساجـد، و تقسـمت الطرق و تعـدّدت الشوارع و صار خارج القاهرة من الجهة الغربية عدّة مدائن.

قنطرة الحاجب: هذه القنطرة على الخليج الناصرى، يتوصل إليها من أرض الطبالة، و يسير الناس عليها إلى منية الشيرج و غيرها، أنشأها الأمير سـيف الدين بكتمر الحاجب فى سـنة ست و عشرين و سبعمائة، و ذلك أنه كانت أرض الطبالة بيده، فلما شرع السلطان الملك الناصـر محمد بن قلاوون فى حفر الخليج الناصرىّ، التمس بكتمر من المهندسين إذا وصلوا بالحفر إلى حيث الجرف أن يمرّوا به على بركـة الطوّابين التى تعرف اليوم ببركـة الرطلىّ، و ينتهوا من هنـاك إلى الخليـج الكبير، ففعلوا ذلك و كان قصـدهم أولا أنه إذا انتهى الحفر إلى الجرف مرّوا فيه إلى الخليـج الكبير من طرف البعـل، فلمـا تهيأ لبكتمر ذلك عمرت له أراضـى الطبالـة كما يأتى ذكرها إن

شاء اللّه تعالى عند ذكر البرك، فعمرت هذه القنطرة فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، و أسند إليها جسرا عمله حاجزا بين بركة الحاجب المعروفة ببركة الرطلىّ و بين الخليج الناصرىّ، و سيرد ذكره إن شاء اللّه تعالى عند ذكر الجسور، و لما عمرت هذه القنطرة اتصلت العمائر فيما بينها و بين كوم الريش، و عمر قبالتها ربع عرف بربع الزيتىّ، و كان على ظهر القنطرة صفان من حوانيت، و عليها سقيفة تقى حرّ الشمس و غيره، فلما غرق كوم الريش فى سنة بضع و ستين و سبعمائة صار هذا الكوم الذى خارج القنطرة، و من تحت هذه القنطرة يصب الخليج الناصرىّ فى الخليج الكبير، و يمرّ إلى حيث القنطرة الجديدة و قناطر الأوز و غيرها، كما تقدّم ذكره.

قنطرة الدكة: هذه القنطرة كانت تعرف بقنطرة الدكة، ثم عرفت بقنطرة التركمانىّ من أجل أن الأمير بدر الدين التركمانىّ عمرها، و هذه القنطرة كانت على خليج الذكر، و قد انطم ما تحتها و صارت معقودة على التراب لتلاف خليج الذكر، و للّه در ابراهيم المعمار حيث يقول:

يا طالب الدّكّة نلت المنىو فزت منها ببلوغ الوطر

قنطرة من فوقها دكّةمن تحتها تلقى خليج الذكر

قناطر بحر أبى المنجا: هذه القناطر من أعظم قناطر مصر و أكبرها، أنشأها السلطان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۶۹

الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى فى سنة خمس و ستين و ستمائة، و تولى عمارتها الأمير عز الدين أيبك الأقرم.

قناطر الجيزة: قال فى كتاب عجائب البنيان: أن القناطر الموجودة اليوم فى الجيزة من الأبنية العجيبة. و من أعمال الجبارين، و هى نيف و أربعون قنطرة، عمرها الأمير قراقوش الأسدىّ، و كان على العمائر فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، بما هدمه من الأهرام التى كانت بالجيزة، و أخذ حجرها فبنى منه هذه القناطر و بنى سور القاهرة و مصر و ما بينهما، و بنى قلعة الجبل، و كان خصيا روميا سامى الهمة، و هو صاحب الأحكام المشهورة و الحكايات المذكورة، و فيه صنف الكتاب المشهور المسمى بالفاشوش فى أحكام قراقوش، و فى سنة تسع و تسعين و خمسمائة تولى أمر هذه القناطر من لا بصيرة عنده، فسدّها رجاء أن يحبس الماء، فقويت عليها جرية الماء، فقويت عليها جرية الماء فزلزلت منها ثلاث قناطر و انشقت، و مع ذلك فما روى ما رجا أن يروى، و فى سنة ثمان و سبعمائة رسم الملك المظفر بيبرس الجاشنكير برمّها، فعمر ما خرب منها و أصلح ما فسد فيها، فحصل النفع بها. و كان قراقوش لما أراد بناء هذه القناطر بنى رصيفا من حجارة، ابتدأ به من حيز النيل بإزاء مدينة مصر، كأنه جبل ممتدّ على الأرض مسيرة ستة أميال، حتى يتصل بالقناطر.

ذكر البرك

قال ابن سيده: البركة مستنقع الماء، و البركة شبه حوض يحفر فى الأرض. انتهى.

و قد رأيت بخط معتبر ما مثاله: و ملؤا البركة ماء، فنصب الماء و كسر الراء و فتح الكاف و التاء.

بركة الحبش: هذه البركة كانت تعرف ببركة المغافر، و تعرف أيضا ببركة حمير، و تعرف أيضا باصطبل قرّة، و عرفت أيضا باصطبل قامش، و هى من أشهر برك مصر، و هى فى ظاهر مدينة الفسطاط من قبليها، فيما بين الجبل و النيل، و كانت من الموات، فاستنبطها قرّة بن شريك العنبسىّ أمير مصر و أحياها و غرسها قصبا، فعرفت باصطبل قرّة، و عرفت أيضا باصطبل قامش، و تنقلت حتى صارت تعرف ببركة الحبش. و دخلت فى ملك أبى بكر المارداني فجعلها وقفا، ثم أرصدت لبنى حسن و بنى حسين ابنى علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنهم، فلم تزل جارية فى الأوقاف عليهم إلى وقتنا هذا.

قال أبو بكر الكندىّ فى كتاب الأمراء: و قدم قرّة بن شريك من وفادته فى سنة ثلاث و تسعين فاستنبط الإصطبل لنفسه من الموات و أحياه و غرسه قصبا، فكان يسمى اصطبل قرّة، و يسمى أيضا اصطبل القامش، يعنون القصب، كما يقولون قامش مروان.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۰

و قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم فى كتاب فتوح مصر. و كان الإصطبل للأزد فاشتراه منهم الحكم بن أبى بكر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، فبناه و كان يجرى على الذى يقرأ فى المصحف الذى وضعوه فى المسجد الذى يقال له مصحف أسماء، من كراه فى كل شهر ثلاثة دنانير، فلما حيزت أموالهم، يعنى أموال بنى أمية، و ضمت إلى مال اللّه، حيز الإصطبل فيما حيز و كتب بأمر المصحف إلى أمير المؤمنين أبى العباس السفاح، فكتب أن أقرّوا مصحفهم فى مسجدهم على حاله، و أجروا على الذى يقرأ فيه ثلاثة دنانير فى كل شهر من مال اللّه تعالى.

و قال القضاعىّ: بركة الحبش كانت تعرف ببركة المغافر و حمير، و تعرف باصطبل قامش، و كانت فى ملك أبى بكر محمد بن علىّ المارداني، بجميع ما تشتمل عليه من المزارع و الجنان خلا الجنان التى فى شرقيها، و أظنها الجنان المنسوبة إلى وهب بن صدقة، و تعرف بالحبش، فإنى رأيت فى شرط هذه البركة أن الحدّ الشرقىّ ينتهى إلى الفضاء الفاصل بينها و بين الجنان المعروفة بالحبش، فدلّ على أن الجنان خارجة عنها.

و ذكر ابن يونس فى تاريخه: أن فى قبلىّ بركة الحبش جنانا تعرف بقتادة بن قيس بن حبشىّ الصدفىّ شهد فتح مصر، و الجنان تعرف بالحبش، و به تعرف بركة الحبش، و ذكر بعض هذا الشرط أنّ الحدّ البحرى ينتهى إلى البئر الطولونية و إلى البئر المعروفة بموسى بن أبى خليد، و هذه البئر هى البير المعروفة بالنعش. و رأيت فى كتاب شرط هذه البركة أنها محبسة على البئرين اللتين استنبطهما أبو بكر المارداني فى بنى وائل بحضرة الخليج و القنطرة المعروفة، أحدهما بالفندق و الأخرى بالعتيق، و على السرب الذى يدخل منه الماء إلى البئر الحجارة المعروفة بالروا، التى فى بنى وائل، ذات القناطر التى يجرى فيها الماء إلى المصنعة التى بحضرة العقبة التى يصار منها إلى يحصب، و هى المصنعة المعروفة بدليله، و على القنوات المتصلة بها التى تصب إلى المصنعة ذات العمد الرخام القائمة فيها، المعروفة بسمينة، و هى التى فى وسط يحصب. و يقال أن هناك كانت سوق ليحصب، و ذكر فى هذا الشرط دارا له فى موضع السقاية المعروفة بسقاية زوف، و شرط أن تنشأ هذه الدار مصنعة على مثل هذه المصنعة المقدّم ذكرها، المعروفة بسمينة، و هى سقاية زوف اليوم، و على القناة التى يجرى فيها الماء إلى مصنعة ذكر أنّه كان أنشأها عند البئر المعروفة اليوم ببئر القبة، و الحوض الذى هناك بحضرة المسجد المعروف بمسجد القبة، و كانت هذه المصنعة تسمى ريا، و جعل هذا الحبس أيضا على البئر التى له بالحبانية بحضرة الخندق، و ذكر أنها تعرف بالقبانية، و أن ماءها يجرى إلى المصنعة المقابلة للميدان من دار الإمارة فى طريق المصلى القديم، ثم إلى المصنعة التى تحت مسجده المقابل لدار عبد العزيز، ثم إلى المصنعة المقابلة لمسجد التربة المجاورة لمسجد الأخضر، و تاريخ هذا الشرط شهر رمضان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۱

سنة سبع و ثلاثمائة، و جعل ما يفضل عن جميع ذلك مصروفا فى ابتياع بقر و كباش تذبح و يطبخ لحمها، و يبتاع أيضا معها خبز برّ و دراهم و أكسية و أعبية و يتصدّق بذلك على الفقراء و المساكين بالمغافر و غيرها من القبائل بمصر، و كان بناؤه السقايتين اللتين بالموقف و السقايات التى بالمغافر و بزوف و بيحصب و بنى وائل، و عمل المجارى فى سنة أربع، و قيل فى سنة ثلاثمائة و قد حبس أبو بكر على الحرمين ضياعا كان ارتفاعها نحو مائة و ألف دينار، و منها سيوط و أعمالها و غيرها. انتهى.

و فى تواريخ النصارى: أن الأمير أحمد بن طولون صادر البطريق ميخائيل بطرك اليعاقبة على عشرين ألف دينار، فباع النصارى رباع الكنائس بالاسكندرية و أرض الحبش بظاهر مصر و الكنيسة المجاورة للمعلقة بقصر الشمع بمصر لليهود. قلت هكذا فى تواريخهم، و لا أعلم كيف ملكوا أرض الحبش، فلعلّ المارداني هو الذى اشتراها، ثم وقفها.

و قال ابن المتوج: بركة الحبش هذه البركة مشهورة فى مكانها، و قد اتصل ثبوت وقفها عند قاضى القضاة بدر الدين أبى عبد اللّه محمد بن سعد اللّه بن جماعة رحمة اللّه عليه، على أنها وقف على الأشراف الأقارب و الطالبيين نصيف، بينهما بالسوية، النصف الأوّل

على الأقارب و النصف الآخر على الطالبيين، و ثبت قبله عند قاضى القضاة بدر الدين أبى المحاسن يوسف بن الحسن السنجارىّ أن النصف منها وقف على الأشراف الأقارب بالاستفاضة، بتاريخ ثالث عشر ربيع الأوّل سنة أربعين و ستمائة، و هم الأقارب الحسينيون، و هو إذ ذاك قاضى القضاة بالقاهرة و الوجه البحرىّ، و ما مع ذلك من البلاد الشامية المضافة إلى ملك الملك الصالح نجم الدين أيوب، و ثبت عند قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام رحمه اللّه تعالى، و كان قاضى القضاة بمصر و الوجه القبلىّ، و خطيب مصر بالاستفاضة أيضا، أن البركة المذكورة وقف على الأشراف الطالبيين بتاريخ التاسع و العشرين من شهر ربيع الآخر سنة أربعين و ستمائة، و بعدهما قاضى القضاة وجيه الدين البهنسىّ فى ولايته، ثم نفذهما بعد تنفيذ وجيه الدين المذكور فى شعبان سنة ثلاث عشرة و سبعمائة قاضى القضاة بدر الدين أبو عبد اللّه محمد بن جماعة، و هو حاكم الديار المصرية، خلا ثغر الإسكندرية، و يأتى أصل خبر هذه البركة مبينا مشروحا من أصلها فى مكانه إن شاء اللّه تعالى.

قال: فمن جملة الأوقاف بركة الأشراف المشهورة ببركة الحبش، و هذه البركة حدودها أربعة، الحدّ القبلىّ ينتهى بعضه إلى أرض العدوية، يفصل بينهما جسر هناك و باقية إلى غيطان بساتين الوزير، و الحدّ البحرىّ ينتهى بضعه إلى أبنية الآدر التى هناك المطلة عليها، و إلى الطريق، و إلى الجسر الفاصل بينها، و بين بركة الشعيبية. و الحدّ الشرقىّ إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۲

حدّ بساتين الوزير المذكورة، و الحدّ الغربىّ ينتهى إلى بعضه إلى بحر النيل و إلى أراضى دير الدين و إلى بعض حقوق جزيرة ابن الصابونىّ و جسر بستان المعشوق الذى هو من حقوق الجزيرة المذكورة، و هذه البركة وقف الأشراف الأقارب و الطالبيين نصفين بينهما بالسوية، و الذى شاهدته من أمرها أنى وقفت على أسجال قاضى القضاة بدر الدين أبى المحاسن يوسف السنجارىّ رحمة اللّه تعالى تعالى عليه تاريخه ثانى عشر ربيع الآخر سنة أربعين و ستمائة، و هو حين ذاك حاكم القاهرة و الوجه البحرىّ على محضر شهد فيه بالاستفاضة، أن نصف هذه البركة وقف على الأشراف الأقارب الحسينيين، و ثبت ذلك عنده، و رأيت أسجال الشيخ قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام رحمه اللّه على محضر شهد فيه بالاستفاضة، و هو حين ذلك قاضى مصر و الوجه القبلىّ، و أشهد عليه أن ثبت عنده أن البركة المذكورة جميعها وقف على الأشراف الطالبيين، و تاريخ اسجالة التاسع و العشرون من شهر ربيع الآخر سنة أربعين و ستمائة، ثم نفذهما جميعا فى تاريخ واحد قاضى القضاة وجيه الدين البهنسىّ، و هو قاضى القضاة حين ذاك، ثم نفذهما قاضى القضاة بدر الدين أبو عبد اللّه محمد بن جماعة، و هو قاضى القضاة بالديار المصرية، و استقرّ النصف من ربع هذه البركة على الأشراف الأقارب مع قلتهم، و النصف على الأشراف الطالبيين مع كثرتهم، و تنازعوا غير مرّة على أن تكون بينهم الجميع بالسوية، فلم يقدروا على ذلك، و عقد لهم مجل غير مرّة فلم يقدروا على تغييره، و أحسن ما وصفت به بركة الحبش قول عيسى بن موسى الهاشمىّ أمير مصر و قد خرج إلى الميدان الذى بطرف المقابر فقال لمن معه: أ تتأملون الذى أرى، قالوا و ما الذى يرى الأمير؟ قال: أرى ميدان رهان و جنان نخل و بستان شجر و منازل سكنى و ذروة جبل و جبانة أموات و نهر أعجاجا و أرض زرع و مراعى ماشية و مرتع خيل و ساحل بحر و صائد نهر و قانص وحش و ملاح سفينة و حادى إبل و مفازة رمل و سهلا و جبلا، فهذه ثمانية عشر منتزها فى أقلّ من ميل فى ميل، و أين هذه الأوقاف من وصف بعضهم قصر أنس بالبصرة فى قوله:

زر وادى القصر نعم القصر و الوادىلا بدّ من زورة من غير ميعاد

زره فليس له شىء يشاكلهمن منزل حاضر إن شئت أوبادى

تلقى به السفن و الأعياس حاضرةو الضب و النون و الملاح و الحادى

و قال:

زر وادى القصر نعم القصر و الوادىو حبذا أهله من حاضر بادى

تلقى قراقرة و العيس واقفةو الضب و النون و الملاح و الحادى

هكذا أنشدهما أبو الفرج الأصبهانيّ رحمه اللّه تعالى فى كتاب الأغانى، و نسبهما لابن عيينة بن المنهال بن محمد بن أبى عيينة بن المهلب بن أبى صفرة، شاعر من ساكنى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۳

البصرة، و قيل أن اسمه عذرة، و قيل اسمه أبو عيينة، و كنيته أبو المنهال، و كان بعد المائتين، و أنشد أبو العلاء المعرّى فى رسالة الصاهل و الساحج:

يا صاح ألمم بأهل القصر و الوادىو حبذا أهله من حاضر بادى

ترى قراقرة و العيس واقفةو الضب و النون و الملاح و الحادى

و قال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسىّ. و فى هذا الوقت من السنة يعنى أيام النيل، تكون أرض مصر أحسن شىء منظرا، و لا سيما منتزهاتها المشهورة و دياراتها المطروقة، كالجزيرة و الجيزة و بركة الحبش و ما جرى مجراها من المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة و القصف، و يتناوبها ذوو الآداب و الظرف، و اتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش و افترشنا من زهرها أحسن بساط، و استظللنا من دوحها بأوفى رواق، فظللنا نتعاطى من زجاجات الأقدام شموسا فى خلع بدور، و جسوم نار فى غلائل نور إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء. و نشبت نار الشفق بفحمة الظلماء، فقال بعضهم: و هو أمية المذكور من قوله المشهور:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۳ ؛ ص۲۷۳

للّه يومى ببركة الحبشو اوفق بين الضياء و الغبش

و النيل تحت الرياح مضطرب كصارم فى يمين مرتعش

و نحن فى روضة مفوّفةدبّج بالنّور عطفها و وشى

قد نسجتها يد الغمام لنافنحن من نسجها على فرش

فعاطنى الراح إنّ تاركهامن سورة الهمّ غير منتعش

و أثقل الناس كلهم رجلدعاه داعى الهوى فلم يطش

فأسقنى بالكبار مترعةفهنّ أشفى لشدّة العطش

و قال أيضا:

علل فؤادك باللذات و الطربو باكر الرّاح بالبانات و النخب

أما ترى البركة الغناء لابسةو شيا من النور حاكته يد السحب

و أصبحت من جديد الروض فى حلل قد أبرز القطر منها كل محتجب

من سوسن شرق بالطلّ محجرهو أقحوان شهىّ الظلم و الشنب

فانظر إلى الورد يحكى خدّ محتشمو نرجس ظلّ يبدى لحظ مرتقب

و النيل من ذهب يطفو على ورقو الرامح من ورق يطفو على ذهب

و ربّ يوم نقعنا فيه غلتنابحاجم من فم الإبريق ملتهب

شمس من الرّاح حيانا بها قمرموف على غصن يهتز فى كثب

أرخى ذؤابه و انهزّ منعطفاكصعدة الرمح فى مسودة العذب

فاطرب و دونكها فاشرب فقد بعثتعلى التصابى دواعى اللهو و الطرب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۴

و قال:

يا نزهة الرصد المصرى قد جمعت‌من كلّ شيء حلا فى جانب الوادى

فذا غدير و ذا روض و ذا جبل‌و الضب و النون و الملاح و الحادى

و قال ابراهيم بن الرفيق فى تاريخه: حدّثنى محمد الكهينىّ، و كان أديبا فاضلا، قد سافر و رأى بلدان المشرق قال: ما رأيت قطّ أجمل من أيام النوروز، و الغيطاس، و الميلاد، و المهرجان، و عيد الشعانين، و غير ذلك من أيام اللهو التى كانوا يسخون فيها بأموالهم، رغبة فى القصف و العزف، و ذلك أنه لا يبقى صغير و لا كبير إلّا خرج إلى بركة الحبش متنزها، فيضربون عليها المضارب الجليلة، و السرادقات و القباب، و الشراعات، و يخرجون بالأهل و الولد، و منهم من يخرج بالقينات المسمعات المماليك و المحرّرات، فيأكلون و يشربون و يسمعون و يتفكهون و ينعمون، فإذا جاء الليل أمر الأمير تميم بن المعز مائتى فارس من عبيده بالعسس عليهم فى كل ليلة، إلى أن يقضوا من اللهو و النزهة إربهم و ينصرفوا فيسكرون و ينامون كما ينام الإنسان فى بيته، و لا يضيع لأحد منهم ما قيمته حبة واحدة، و يركب الأمير تميم فى عشارى و يتبعه أربعة زواريق مملوءة فاكهة و طعاما و مشروبا، فإن كانت الليالى مقمرة، و إلّا كان معه من الشموع ما يعيد الليل نهارا، فإذا مرج على طائفة و استحسن من غنائهم صوتا، أمرهم بإعادته و سألهم عما عز عليهم، فيأمر لهم به، و يأمر لمن يغنى لهم. و ينتقل منهم إلى غيرهم بمثل هذا الفعل عامّة ليله، ثم ينصرف إلى قصوره و بساتينه التى على هذه البركة، فلا يزال على هذه الحال حتى تنقضى هذه الأيام، و يتفرّق الناس.

و قال محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى الحنفىّ، و توفى بدمشق سنة إحدى و خمسين و ستمائة، يصف بركة الحبش فى أيام الربيع:

إذا زيّن الحسناء قرط فهذه‌يزينها من كلّ ناحية قرط

ترقرق فيها أدمع الطلّ غدوة‌فقلت لآل قد تضمنها قرط

و قال ابن سعيد فى كتاب المغرب: و خرجت مرّة حيث بركة الحبش التى يقول فيها أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسىّ عفا اللّه عنه:

للّه يومى ببركة الحبش‌و الأفق بين الضياء و الغبش

و النيل تحت الرياح مضطرب‌كصارم فى يمين مرتعش

و عاينت من هذه البركة أيام فيض النيل عليها أبهج منظر، ثم زرتها أيام غاص الماء، و بقيت فيها مقطعات بين خضر من القرط و الكتان تفتن الناظر، و فيها أقول:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۵ يا بركة الحبش التى يومى بهاطول الزمان مبارك و سعيد

حتى كأنك فى البسيطة جنة‌و كأن دهرى كله بك عيد

يا حسن ما يبدو بك الكتان فى‌نواره أوزرّه معقود

و الماء منك سيوفه مسلولة‌و القرط فيك رواقه ممدود

و كأنّ أبراجا عليك عرائس‌جليت و طيرك حولها غرّيد

يا ليت شعرى هل زمانك عائدفالشوق فيه مبدئ و معيد

و كان ماء النيل يدخل إلى بركة الحبش من خليج بنى وائل، و كان خليج بنى وائل مما يلى باب مصر من الجهة القبلية، الذى يعرف إلى يومنا هذا بباب القنطرة، من أجل أن هذه القنطرة كانت هناك. قال ابن المتوج: و رأيت ماء النيل فى زمن النيل يدخل من تحته إلى خليج بنى وائل. قلت و فى أيام الناصر محمد بن قلاون استولى النشو ناظر الخاص على بركة الحبش، و صار يدفع إلى الأشراف من بيت المال مالا فى كل سنة، فلما مات الناصر و قام من بعده ابنه المنصور أبو بكر أعيدت لهم.

ذكر الماردانىّ

هو أبو بكر محمد بن علىّ بن محمد بن رستم بن أحمد. و قيل محمد بن علىّ بن أحمد بن عيسى بن رستم. و قيل محمد بن علىّ بن أحمد بن إبراهيم بن الحسين بن عيسى بن رستم الماردانىّ، أحد عظماء الدنيا. ولد بنصيبين لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الأوّل سنة ثمان و خمسين و مائتين، و قدم إلى مصر فى سنة اثنتين و سبعين و مائتين، و خلف أباه علىّ بن أحمد الماردانىّ أيام نظره فى أمور أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، و سنّه يومئذ خمس عشرة سنة، و كان معتدل الكتابة ضعيف الحظ من النحو و اللغة، و مع ذلك فكان يكتب الكتب إلى الخليفة، فمن دونه على البديهة من غير نسخة، فيخرج الكتاب سليما من الخلل. و لما قتل أبوه فى سنة ثمانين و مائتين، استوزره هارون بن خمارويه، فدبّر أمر مصر إلى أن قدم محمد بن سليمان الكاتب من بغداد إلى مصر، و أزال دولة بنى طولون، و حمل رجالهم إلى العراق، فكان أبو بكر ممن حمله، فأقام ببغداد إلى أن قدم صحبة العساكر لقتال خباسة، فدبر أمر البلد و أمر و نهى، و حدّث بمصر عن أحمد بن عبد الجبار العطاردىّ و غيره، بسماعه منهم فى بغداد، و كان قليل الطلب للعلم، تغلب عليه محبة الملك و طلب السيادة، و مع ذلك كان يلازم تلاوة القرآن الكريم و يكثر من الصلاة و يواظب على الحج، و ملك بمصر من الضياع الكبار ما لم يملكه أحد قبله، و بلغ ارتفاعه فى كل سنة أربعمائة ألف دينار سوى الخراج، و وهب و أعطى و ولى و صرف و أفضل و منع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۶

و رفع و وضع، و حج سبعا و عشرين حجة، أنفق فى كل حجة منها مائة و خمسين ألف دينار، و كان تكين أمير مصر يشيعه إذا خرج للحج و يتلقاه إذا قدم، و كان يحمل إلى الحجاز جميع ما يحتاج إليه، و يفرّق بالحرمين الذهب و الفضة و الثياب و الحلوى و الطيب و الحبوب، و لا يفارق أهل الحجاز إلّا و قد أغناهم. و قيل مرّة و هو بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة و السلام، ما بات فى هذه الليلة أحد بمكة و المدينة و أعمالهما إلّا و هو شبعان من طعام أبى بكر الماردانىّ.

و لما قدم الأمير محمد بن طغج الإخشيد إلى مصر استتر منه، فإنه كان منعه من دخول مصر، و جمع العساكر لقتاله، فاجتمع له زيادة على ثلاثين ألف مقاتل، و حارب بهم بعد موت تكين أمير مصر، و مرّت به خطوب لكثرة فتن مصر إذ ذاك، و أحرقت دوره و دور أهله و مجاوريه، و أخذت أمواله و استتر فقبض على خليفته و عماله، فكتب إلى بغداد يسأل إمارة مصر، و كتب محمد بن تكين بالقدس يسأل ذلك، فعاد الجواب بإمارة ابن تكين، و أن يكون الماردانىّ يدبر أمر مصر و يولى من شاء، فظهر عند ذلك من الاستتار و أمر و نهى و دبر أمر البلد، و صار الجيش بأسره يغدو إلى بابه، فأنفق فى جماعة، و اصطنع قوما، و قتل عدّة من أصحاب ابن تكين، و كان محمد بن تكين بالقدس، و أمر مصر كله للماردانىّ بمفرده و معه أحمد بن كيغلغ، و قد قدم من بغداد بولاية ابن تكين على مصر، و ولاية أبى بكر الماردانىّ تدبير الأمور، فاستمال أبو بكر أحمد بن كيغلغ حتى صار معه على ابن تكين و حاربه، و كان من أمره ما كان إلى أن قدمت عساكر الإخشيد، فقام أبو بكر لمحاربتهم، و منع الإخشيد من مصر، فكان الإخشيد غالبا له و دخل البلد فاستتر منه أبو بكر إلى أن دلّ عليه فأخذ و سلمه إلى الفضل بن جعفر بن الفرات، فلما صار إلى ابن الفرات قال له: إيش هذا الاستيحاش و التستر، و أنت تعلم أن الحج قد أظلّ و يحتاج لإقامة الحج، فقال به أبو بكر: إن كان إلىّ فخمسة عشر ألف دينار، فقال ابن الفرات: أيش، خمسة عشر ألف دينار؟ قال ما عندى غير هذا، فقال ابن الفرات: بهذا ضربت وجه السلطان بالسيف، و منعت أمير البلد من الدخول.

ثم صاح يا شاذن خذه إليك فأقيم و أدخل إلى بيت، و كان يومئذ صائما، فامتنع من تناول الطعام و الشراب و لزم تلاوة القرآن و الصلاة طول يومه و ليلته، و أصبح فامتنع ابن الفرات من الأكل إجلالا له، فلما كان وقت الفطر من الليلة الثانية، امتنع أبو بكر من الفطر كما امتنع فى الليلة الأولى، فامتنع ابن الفرات أيضا من الأكل و قال: لا آكل أبدا أو يأكل أبو بكر، فلما بلغ ذلك أبا بكر أكل، فأخذ ابن الفرات فى مصادرته و قبض على ضياعه التى بالشام و مصر، و تتبع أسبابه. ثم خرج به معه إلى الشام و عاد به إلى مصر، ثم خرج

به ثانيا إلى الشام، فمات الفضل بن الفرات بالرملة، و رجع أبو بكر إلى مصر فردّ إليه الإخشيد أمور مصر كلها، و خلع على ابنه، و تقلد السيف، و لبس المنطقة، و لبس أبو بكر الدراعة تنزها، ثم تنكر عليه الإخشيد و قبضه فى سنة إحدى و ثلاثين و ثلاثمائة، و جعله فى دار و أعدّ له فيها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۷

من الفرض و الآلات و الأوانى و الملبوس و الطيب و الطرائف و أنواع المآكل و المشارب ما بلغ فيه الغاية، و تفقدها بنفسه و طافها كلها، فقيل له عملت هذا كله لمحمد بن علىّ الماردانىّ؟

فقال: نعم، هذا ملك و أردت أن لا يحتقر بشىء لنا، و لا يحتاج أن يطلب حاجة إلّا وجدها، فإنه إن فقد عندنا شيئا مما يريده استدعى به من داره، فنسقط نحن من عينيه عند ذلك، فلم يزل معتقلا حتى خرج الإخشيد إلى لقاء أمير المؤمنين المتقى للّه، فحمله معه، و لما مات الإخشيد بدمشق كان أبو بكر بمصر، فقام بأمر أونوجور بن الإخشيد و قبض على محمد بن مقاتل وزير الإخشيد، و أمر و نهى و صرّف الأور إلى أن كانت واقعة غلبون و اتصال أبى بكر به، فلما عادت الإخشيدية قبض على أبى بكر و نهبت دوره و أحرق بعضها و أخذ ابنه، و قام أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات بأمر الوزارة، فعند ما قدم كافور الإخشيدى من الشام بالعساكر التى كانت مع الإخشيد أطلق أبا بكر و أكرمه و ردّ ضياعه و ضياع ابنه، فلما ماتت أمّ ولده لحقه كافور و معه الأمير أونوجور عند المقابر و ترجلا له و عزياه، ثم ركبا معه حتى صليا عليها، فلما مرض مرض موته، عاده كافور مرارا إلى أن مات فى شهر شوال سنة خمس و أربعين و ثلاثمائة، فدفن بداره. ثم نقل إلى المقابر، و كانت فضائله جمة منها:

أنه أقام أربعين سنة يصوم الدهر كله، و يركب كل يوم إلى المقابر بكرة و عشية، فيقف له الموكب حتى يمضى إلى تربة أولاده و أهله فيقرأ عندهم و يدعو لهم، و ينصرف إلى المساجد فى الصحراء فيصلى بها و الناس وقوف له، إلّا أنه كان فى غاية العجلة لا يراجع فيما يريده و لو كان ما كان، و لما أراد المقتدر أن يقيم وزيرا كتبت رقعة فيها أسماء جماعة، و أنفذت إلى علىّ بن عيسى ليشير بواحد منهم، و كان أبو بكر ممن كتب معهم اسمه، فكتب تحت كل اسم واحد منهم ما يستحقه من الوصف، و كتب تحت اسم أبى بكر محمد بن علىّ الماردانىّ: مترف عجول، و بنى أبو بكر السقايات و المساجد فى المغافر و فى يحصب و بنى وائل، و ليس لشىء منها اليوم أثر يعرف، و مرّت به فى هذا الكتاب أخبار، و قد أفرد له ابن زولاق سيرة كبيرة، و هذا منها و اللّه أعلم.

ذكر بساتين الوزير

هذه البساتين فى الجهة القبلية من بركة الحبش، و هى قرية فيها عدّة مساكن و بساتين كثيرة، و بها جامع تقام فيه الجمعة، و عرفت بالوزير أبى الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن محمد المغربىّ، و بنو المغربىّ أصلهم من البصرة، و صاروا إلى بغداد، و كان أبو الحسن علىّ بن محمد تخلف على ديوان المغرب ببغداد، فنسب به إلى المغرب، و ولد ابنه الحسين بن علىّ ببغداد فتقلد أعمالا كثيرة منها: تدبير محمد بن ياقوت عند استيلائه على أمر الدولة ببغداد، و كان خال ولده علىّ، و هو أبو علىّ هارون بن عبد العزيز الأوراجىّ، الذى مدحه أبو الطيب المتنبى من أصحاب أبى بكر محمد بن رائق، فلما لحق ابن رائق ما لحقه بالموصل، صار الحسين بن علىّ بن المغربى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۸

إلى الشام، و لقى الإخشيد و أقام عنده و صار ابنه أبو الحسن علىّ بن الحسين ببغداد، فأنفذ الإخشيد غلامه فاتك المجنون فحمله و من يليه إلى مصر، ثم خرج ابن المغربىّ من مصر إلى حلب و لحق به سائر أهله و نزلوا عند سيف الدولة أبى الحسن علىّ بن عبد اللّه بن حمدان مدّة حياته، و تخصص به الحسين بن علىّ بن محمد المغربىّ، و مدحه أبو نصر بن نباتة، و تخصص أيضا علىّ بن الحسين بسعد الدولة بن حمدان، و مدحه أبو العباس النامى، ثم شجر بينه و بين ابن حمدان ففارقه و صار إلى بكجور بالرقة، فحسن له مكاتبة

العزيز بالله نزار و التحيز إليه، فلما وردت على العزيز مكاتبة بكجور قبله و استدعاه، و خرج من الرقة يريد دمشق، فوافاه عبد العزيز بولاية دمشق و خلفه فتسلمها و خرج لمحاربة ابن حمدان بحلب بمشورة علىّ بن المغربىّ، فلم يتم له أمر و تأخر عنه من كاتبه فقال لابن المغربىّ:

غررتنى فيما أشرت به علىّ. و تنكر له ففرّ منه إلى الرقة، و كانت بين بكجور و بين ابن حمدان خطوب آلت إلى قتل ابن بكجور، و مسير ابن حمدان إلى الرقة، ففرّ ابن المغربىّ منها إلى الكوفة و كاتب العزيز بالله يستأذنه فى القدوم، فأذن له، و قدم إلى مصر فى جمادى الأولى سنة إحدى و ثمانين و ثلاثمائة، و خدم بها و تقدّم فى الخدم، فحرّض العزيز على أخذ حلب، فقلد ينجوتكين بلاد الشام و ضم إليه أبا الحسن بن المغربىّ ليقوم بكتابته و نظر الشام و تدبير الرجال و الأموال، فسار إلى دمشق فى سنة ثلاث و ثمانين و ثلاثمائة، و خرج إلى حلب و حارب أبا الفضائل بن حمدان و غلامه لؤلؤ، فكاتب لؤلؤ أبا الحسن بن المغربىّ و استماله حتى صرف ينجوتكين عن محاربة حلب و عاد إلى دمشق، و بلغ ذلك العزيز بالله فاشتدّ حنقه على ابن المغربىّ و صرفه بصالح بن علىّ الروذبادىّ، و استقدم ابن المغربىّ إلى مصر، و لم يزل بها حتى مات العزيز بالله و قام من بعده ابنه الحاكم بأمر اللّه أبو علىّ منصور، فكان هو و ولده أبو القاسم حسين من جلسائه، فلما شرع الحاكم بأمر اللّه فى قتل رجال الدولة من القوّاد و الكتاب و القضاة، قبض على علىّ و محمد ابنى المغربىّ و قتلهما، ففرّ منه أبو القاسم حسين بن علىّ بن المغربىّ إلى حسان بن مفرّج بن الجرّاح، فأجاره و قلد الحاكم يارجتكين الشام، فخافه ابن جرّاح لكثرة عساكره، فحسن له ابن المغربىّ مهاجمته، فطرق يارجتكين فى مسيره على غفلة و أسره و عاد إلى الرملة، فشن الغارات على رساتيقها، و خرج العسكر الذى بالرملة فقاتل العرب قتالا شديدا كادت العرب أن تنهزم لولا ثبتها ابن المغربىّ، و أشار عليهم بإشهار النداء بإباحة النهب و الغنيمة، فثبتوا و نادوا فى الناس فاجتمع لهم خلق كثير، و زحفوا إلى الرملة فملكوها و بالغوا فى النهب و الهتك و القتل، فانزعج الحاكم لذلك انزعاجا عظيما، و كتب إلى مفرّج بن جرّاح يحذره سوء العاقبة و يلزمه بإطلاق يارجتكين من يد حسان ابنه. و إرساله إلى القاهرة، و وعده على ذلك بخمسين ألف دينار، فبادر ابن المغربىّ لما بلغه ذلك إلى حسان و ما زال يغريه بقتل يارجتكين حتى أحضره و ضرب عنقه، فشق ذلك على مفرّج، و علم أنه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۷۹

فسد ما بينهم و بين الحاكم، فأخذ ابن المغربىّ يحسن لمفرّج خلع طاعة الحاكم و الدعاء لغيره إلى أن استجاب له، فراسل أبا الفتوح الحسن بن جعفر العلوىّ أمير مكة يدعوه إلى الخلافة، و سهل له الأمر و سير إليه بابن المغربىّ يحثه على المسير، و جرّأه على أخذ مال تركه بعض المياسير، و نزع المحاريب الذهب و الفضة المنصوبة على الكعبة و ضربها دنانير و دراهم و سماها الكعبية، و خرج ابن المغربىّ من مكة فدعا العرب من سليم و هلال و عوف بن عامر، ثم سار به و بمن اجتمع عليه من العرب حتى نزل الرملة، فتلقاه بنو الجرّاح و قبلوا له الأرض و سلموا عليه بإمرة المؤمنين، و نادى فى الناس بالأمان، و صلّى بالناس الجمعة فامتغص الحاكم لذلك و أخذ فى استمالة حسان و مفرّج و غير هما، و بذل لهم الأموال، فتنكروا على أبى الفتوح، و قلد أيضا مكة بعض بنى عمّ أبى الفتوح فضعف أمره و أحسن من حسان بالغدر، فرجع إلى مكة و كاتب الحاكم و اعتذر إليه فقبل عذره و أما ابن المغربىّ فإنه لما انحلّ أمر أبى الفتوح و رأى ميل بنى الجرّاح إلى الحاكم كتب إليه:

و أنت و حسبى أنت تعلم أنّ لى‌لسانا أمام المجد يبنى و يهدم

و ليس حليما من تباس يمينه‌فيرضى و لكن من تعض فيحلم

فسير إليه أمانا بخطه، و توجه ابن المغربىّ قبل وصول أمان الحاكم إليه إلى بغداد، و بلغ القادر بالله خبره فاتهمه بأنه قدم فى فساد الدولة العباسية، فخرج إلى واسط و استعطف القادر فعطف عليه، و عاد إلى بغداد ثم مضى إلى قرواش بن المقلد أمير العرب و سار معه إلى الموصل، فأقام بها مدّة، و خافه وزير قرواش فأخرجه إلى ديار بكر فأقام عند أميرها نصير الدولة أبى نصر أحمد بن مروان الكردىّ، و تصرّف له و كان يلبس فى هذه المدّة المرقعة و الصوف، فلما تصرّف غير لباسه و انكشف حاله فصار كمن قيل فيه و قد

ابتاع غلاما تركيا كان يهواه قبل أن يبتاعه:

تبدّل من مرقعة و نسكبأنواع الممسّك و الشفوف

و عنّ له غزال ليس يحوىهواه و لا رضاه بلبس صوف

فعاد أشدّ ما كان انتهاكاكذاك الدهر مختلف الصروف

و أقام هناك مدّة طويلة فى أعلى حال و أجل رتبة و أعظم منزلة، ثم كوتب بالمسير إلى الموصل ليستوزره صاحبها، فسار عن ميافارقين و ديار بكر إلى الموصل، فتقلد وزارتها و تردّد إلى بغداد فى الوساطة بين صاحب الموصل و بين السلطان أبى علىّ بن سلطان الدولة أبى شجاع بن بهاء الدولة أبى نصر بن عضد الدولة أبى شجاع بن ركن الدولة أبى علىّ بن بويه، و اجتمع برؤساء الديلم و الأتراك، و تحدّث فى وزارة الحضرة حتى تقلدها بغير خلع و لا لقب و لا مفارقة الدراعة، فى شهر رمضان سنة خمس عشرة و أربعمائة، فأقام شهورا و أغرى رجال الدولة بعضهم ببعض، و كانت أمور طويلة آلت إلى خروجه من الحضرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۰

إلى قرواش، فتجدّد للقادر بالله فيه سوء ظنّ بسبب ما أثاره من الفتنة العظيمة بالكوفة، حتى ذهبت فيها عدّة نفوس و أموال، ففرّ إلى أبى نصر بن مروان فأكره و أقطعه ضياعا و أقام عنده، فكوتب من بغداد بالعود إليها، فبرز عن ميافارقين يريد المسير إلى بغداد، فسمّ هناك و عاد إلى المدينة فمات بها، لأيام خلت من شهر رمضان سنة ثمان عشرة و أربعمائة، و مولده بمصر ليلة الثالث عشر من ذى الحجة سنة سبعين و ثلاثمائة.

و كان أسمر شديد السمرة، بساطا عالما بليغا مترسلا متفننا فى كثير من العلوم الدينية و الأدبية و النحوية، مشارا إليه فى قوّة الذكاء و الفطنة و سرعة الخاطر و البديهة، عظيم القدر صاحب سياسة و تدبير و حيل كثيرة و أمور عظام، دوّخ الممالك و قلّب الدول، و سمع الحديث و روى و صنف عدّة تصانيف، و كان ملولا حقودا لا تلين كبده و لا تنحلّ عقده. و لا يحنى عوده و لا ترجى و عوده، و له رأى يزين له العقوق و يبغض إليه رعاية الحقوق، كأنه من كبره قد ركب الفلك و استولى على ذات الحبك، و كان بمصر من بنى المغربىّ أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين المغربىّ، قد قتل الحاكم جدّه محمدا مع أبيه علىّ بن الحسين كما تقدّم، فلما نشأ أبو جعفر سار إلى العراق و خدم هناك و تنقلت به الأحوال، ثم عاد إلى مصر و اصطنعه الوزير البارزىّ و ولاه ديوان الجيش، و كانت السيدة أم المستنصر بالله تعنى به، فلما مات الوزير البارزىّ و ولى بعده الوزير أبو الفرج عبد اللّه بن محمد البابلىّ، قبض عليه فى جملة أصحاب البارزىّ و اعتقله، فتقرّرت له الوزارة و هو فى الاعتقال، و خلع عليه فى الخامس و العشرين من شهر ربيع الآخر سنة خمسين و أربعمائة، و لقب بالوزير الأجل الكامل الأوحد، صفىّ أمير المؤمنين و خالصته، فما تعرّض لأحد و لا فعل فى البابلىّ ما فعله البابلىّ فيه و فى أصحاب البارزىّ، فأقام سنتين و شهورا و صرف فى تاسع شهر رمضان سنة اثنتين و خمسين و أربعمائة، و كان الوزراء إذا صرفوا لم يتصرّفوا، فاقترح أبو الفرج بن المغربىّ لما صرف أن يتولى بعض الدواوين، فولى ديوان الإنشاء الذى يعرف اليوم بوظيفة كتابة السرّ، و هو الذى استنبط هذه الوظيفة بديار مصر و استحدث استخدام الوزراء بعد صرفهم عن الوزارة، و لم يزل نابه القدر إلى أن توفى سنة ثمان و سبعين و أربعمائة.

بركة الشعيبية: هذه البركة موضعها خلف جسر الأفرم، فيما بينه و بين الجرف الذى يعرف اليوم بالرصد، و كانت تجاور بركة الحبش من بحريها، و قد انقطع عنها الماء و صارت بساتين و مزارع و غير ذلك. قال ابن المتوّج: بركة الشعيبية بظاهر مصر، كان يدخل إليها ماء النيل، و كان لها خليجان أحدهما من قبليها و هو الآن بجوار منظرة الصاحب تاج الدين بن حنا، المعروفة بمنظرة المعشوق، و الثانى من بحريها، و يقال له خليج بنى وائل، عليه قنطرة بها عرف باب القنطرة بمصر، و كان يجرى فيهما الماء من النيل إليها، فكان الماء يدخل إليها فى كل سنة و يعمها و يدخل إليها الشخاتير، و كان بدائرها من جانبها الشرقىّ أدر كثيرة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۱

و كانت نزهة المصريين، فلما استأجرها الأمير عز الدين أيبك الأفرم من الناظر عليها من جهة الحكم العزيزى، حازها بالجسور عن الماء و غرس فيها الأشجار و الكروم و حفر الآبار، و هذه البركة مساحتها أربعة و خمسون فدّانا، و لها حدود أربعة، الحدّ القبلىّ، ينتهى بعضه إلى بعض أرض المعشوق الجارى فى وقف ابن الصابونى، و إلى الجسر الفاصل بينها و بين بركة الحبش، و فى هذا الجسر الآن قنطرة يدخل إليها الماء من خليج بركة الأشراف، و الحدّ البحرىّ: كان ينتهى بعضه إلى منظرة قاضى القضاة بدر الدين السنجارىّ، و إلى جسره.

و الحدّ الشرقىّ: ينتهى إلى الآدر التى كانت مطلة عليها، و قد خرب أكثرها، و كانت مسكن أعيان المصريين من القضاة و الكتاب. و الحدّ الغربىّ: ينتهى إلى جرف النيل، و لما استأجرها الأفرم شرط له خمسة أفدنة يعمر عليها و يؤجرها لمن يعمر عليها، منها فدّان واحد من بحريها، و فدّانان من غربيها ملاصقان لجدار البساتين، و فدّانان بالجرف الذى من حقوقها.

فلما مات الأفرم طمع الأمير علم الدين الشجاعى فى ورثته و فى الوقف و أربابه، فغضب أرض الجرف و جملتها فدّانان، ثم تركها، فلما كان فى أثناء دولة الناصر محمد بن قلاون و وزارة الأعسر بيعت أرضها لأرباب الأبنية التى عليها، و هذه البركة وقفها الخطير بن مماتى، و دخل معهم بنو الشعيبية لاختلاط أنسابهم بالتناسل. و قال فى موضع آخر: و من جملة الأوقاف بركة الخطير بن مماتى المشهورة ببركة الشعيبية، و مساحة أرضها أربعون و خمسون فدّانا و ربع، و لها حدود أربعة، القبلىّ: من البركة الصغرى منها إلى الجسر الفاصل بينها و بين بركة الحبش، و فيه قنطرة يمرّ منها الماء إلى هذه البركة، و باقى هذا الحدّ إلى بعض أبنية مناظر المعشوق، و من جملة حقوق هذا الوقف المجاز المستطيل المسلوك فيه إلى المنظرة المذكورة، و منه دهليزها الإيوان البحرى، و هذا جميعه رأيته ترعة من تراع هذه البركة المذكورة، يمرّ الماء فيها فى زمن النيل إليها، و كان باقى هذه المنظرة دارا مطلة على بحر النيل من شرقيها، و على هذه الترعة من بحريها، ثم ملكها الصاحب تاج الدين بن حنا و هدمها و ردم الخليج و عمر المنظرة و الحمام و البيوت الموجودة الآن، و باقى ذلك كله فى أرض ابن الصابونىّ. و حدّ هذه البركة من الجهة البحرية: إلى الطريق الآن، و كان فيه جسر يعرف بجسر الحيات، كان يفصل بين هذه البركة و بين بركة شطا، و كان فيه قنطرة يجرى الماء فيها من هذه البركة إلى بركة شطا، و كان فى هذا الحدّ ترعة أخرى يجرى الماء فيها فى زمن النيل من البحر إلى هذه البركة، و رأيته يجرى فيها، و رأيت الشخاتير تدخل فيها إلى هذه البركة، و أما حدّها الشرقىّ: فإنه كان إلى أبنية الآدر المطلة على هذه البركة، و أمّا حدّها الغربى فإنه كان إلى بحر النيل، و لم تزل كذلك إلى أن استأجرها الأمير عز الدين أيبك الأفرم، فردم هذه الترعة و بنى حيطان هذا البستان و جسر عليه و زرع فيه الشتول و الخضراوات، و أقام على ذلك عدّة سنين، ثم استأجره إجارة ثانية، و اشترط البناء على

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۲

ثلاثة أفدنة فى جانبه الغربىّ، و فدّان فى جانبه البحرىّ، فعمر الناس و استغنى عن الجسور و رخص على الناس حتى رغبوا فى العمارة، و آجر كل مائة ذراع من ذلك بعشرة دراهم نقرة، و عمر البئر المشهورة ببئر السواقى، فعمرت أحسن عمارة، فلما توفى توفى الأفرم طمع الشجاعىّ فى أرباب الوقف و فى ورثته، و نزع منهم الفدادين المطلة على بحر النيل، و ابتاع ذلك من وكيل بيت المال، و أعانه عليه قوم آخرون يجتمعون عند اللّه تعالى.

ذكر المعشوق

اعلم أنّ المعشوق اسم لمكان فيه أشجار بظاهر مصر، من جملة خطة راشدة، عرف أوّلا- بجنان كهمس بن معمر، ثم عرف بجنان المارداني، ثم عرف بجنان الأمير تميم بن المعز لدين اللّه، ثم جدّده الأفضل بن أمير الجيوش فعرف به، و أجرا صار من وقف ابن الصابونىّ، فأخذه الصاحب تاج الدين محمد بن حنا، و عمر به مناظر و أوصى بعمارة رباط للآثار النبوية، و أن توقف عليه. فلما أنشئ الرباط المذكور أرصد لمصالحه. و هو الآن وقف عليه، و أرض هذا البستان مما وقفه ابن الصابونىّ على بنيه و على رباطه المجاور،

لقيه الإمام الشافعيّ رضى اللّه تعالى عنه بالقرافة، و بنو الصابونيّ يستأدون من المتحدّث على رباط الآثار شيئا فى كل سنة عن حكر أرض بستان المعشوق. قال القضاعيّ فى ذكر خطة راشدة: و منها المقبرة المعروفة بمقبرة راشدة، و الجنان المعروفة كانت تعرف بكهمس بن معمر، ثم عرفت بالماردانيّ، و هو المعروف الآن بالأمير تميم بن المعز.

هذا و قد بنى المعتمد على اللّه أحمد بن المتوكل فى الجانب الشرقيّ من سرّ من رأى قصر أسماه المعشوق، و أقام به، و بين بغداد و تكريت منزلة فيها آثار بناء و قصور تسمى العاشق و المعشوق، و فيه أنشد الشريف زهرة بن عليّ بن زهرة بن الحسن الحسينيّ، و قد اجتاز به يريد الحج:

قد رأيت المعشوق و هو من الهجر بحال تنبو النواظر عنه

أثّر الدهر فيه آثار سوءقد أدالت يد الحوادث منه

و قال ابن يونس: كهمس بن معمر بن محمد بن معمر بن حبيب، يكنّى أبا القاسم، كان أبوه بصريا، و ولد هو بمصر، و كان عاقلا، و كانت القضاة تقبله، حدّث عن محمد بن رمح، و عيسى بن حماد زغبة، و سلمة بن شبيب و نحوهم، توفى فى يوم الاثنين لأربع خلون من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة و ثلاثمائة.

و قال ابن خلكان: تميم بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهديّ، كان أبوه صاحب الديار المصرية و المغرب، و هو الذى بنى القاهرة المعزية، و كان تميم فاضلا شاعرا ماهرا لطيفا ظريفا، و لم يل المملكة، لأنّ ولاية العهد كانت لأخيه العزيز، فوليها بعد أبيه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۳

و أشعاره كلها حسنة، و كانت وفاته فى ذى القعدة سنة أربع و سبعين و ثلاثمائة، و قد ذكر كلا من الماردانيّ و ابن حنا و الأفضل. و أما ابن مماتى فإنه أسعد بن مهذب بن زكريا بن قدامة بن نينا شرف الدين مماتى أبى المكارم بن سعيد بن أبى المليح الكاتب المصرى، فأصله من نصارى أسيوط من صعيد مصر، و اتصل جدّه أبو المليح بأمير الجيوش بدر الجماليّ وزير مصر فى أيام الخليفة المستنصر بالله، و كتب فى ديوان مصر، و ولى استيفاء الديوان، و كان جوادا ممدوحا انقطع إليه أبو الطاهر إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكيسة الشاعر، فمن قوله فيه لما مات:

طويت سماء المكرمات و كوّرت شمس المديح

و تناثرت شهب العلامن بعد موت أبى المليح

ما كان بالنكس الدنىء من الرجال و لا الشحيح

كفر النصارى بعد ماعذروا به دون المسيح

و رثاه جماعة من الشعراء، و لما مات ولى ابنه المهذب بن أبى المليح زكريا ديوان الجيش بمصر فى آخر الدولة الفاطمية، فلما قدم الأمير أسد الدين شيركوه و تقلد وزارة الخليفة العاضد شدّد على النصارى و أمرهم بشدّ الزنانير على أوساطهم، و منعهم من إرخاء الذؤابة التى تسمى اليوم بالعذبة، فكتب لأسد الدين:

يا أسد الدين و من عدلهيحفظ فينا سنّة المصطفى

كفى غيارا شدّ أوساطنافما الذى أوجب كشف القفا

فلم يسعفه بطلبته، و لا مكنه من إرخاء الذؤابة، و عند ما آيس من ذلك أسلم، فقدّم على الدواوين حتى مات، فخلفه ابنه أبو المكارم أسعد بن مهذب الملقب بالخطير على ديوان الجيش، و استمرّ فى ذلك مدّة أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و أيام ابنه الملك العزيز عثمان، و ولى نظر الدواوين أيضا، و اختص بالقاضى الفاضل، و حظى عنده، و كان يسميه بلبل المجلس لما يرى من حسن خطابه، و صنف عدّة مصنفات منها: تلقين اليقين فيه الكلام على حديث بنى الإسلام على خمس. و كتاب حجة الحق على الخلق فى التحذير من سوء عاقبة الظلم. و هو كبير، و كان السلطان صلاح الدين يكثر النظر فيه، و قال فيه القاضى الفاضل: وقفت من

الكتب على ما لا- تحصى عدّته، فما رأيت و اللّه كتابا يكون قبالة باب منه، و إنه و اللّه من أهمّ ما طالعه الملوك و كتاب قوانين الدواوين، صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر و رسومها و أصولها و أحوالها و ما يجرى فيها، و هو أربعة أجزاء ضخمة، و الذى يقع فى أيدى الناس جزء واحد اختصره منه غير المصنف، فإنّ ابن مماتى ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر، و مساحة كل ضيعة، و قانون ريها و متحصلها من عين و غلة، و نظّم سيرة السلطان صلاح الدين يوسف، و نظم كليلة و دمنة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۴

و له ديوان شعر، و لم يزل بمصر حتى ملك السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب، و وزر له صفىّ الدين علىّ بن عبد اللّه بن شكر، فخافه الأسعد لما كان يصدر منه فى حقه من الإهانة، و شرع الوزير ابن شكر فى العمل عليه، و رتب له مؤامرات و نكبه و أحال عليه الأجناد، ففرّ من القاهرة و سقط فى حلب، فخدم بها حتى مات فى يوم الأحد سلخ جمادى الأولى سنة ست و ستمائة، عن اثنتين و ستين سنة.

و كان سبب تلقيب أبى مليح بمماتى، أنه كان عنده فى غلاء مصر فى أيام المستنصر قمح كثير، و كان يتصدّق على صغار المسلمين و هو إذ ذاك نصرانىّ، و كان الصغار إذا رأوه قالوا مماتى فلقب بها و من شعره:

تعاتبنى و تنهى عن أمورسبيل الناس أن ينهوك عنها

أ تقدر أن تكون كمثل عينىو حقك ما علىّ أضرّ منها

و قال فى اترجة كانت بين يدى القاضى الفاضل و هو معنى بديع:

للّه بل للحسن أترجة تذكر الناس بأمر النعيم

كأنها قد جمعت نفسهامن هيبة الفاضل عبد الرحيم

بركة شطا: هذه البركة موضعها الآن كيمان، على يسرة من يخرج من باب القنطرة بمدينة مصر طالبا جسر الأفرم و رباط الآثار، كان الماء يعبر إليها من خليج بنى وائل، و موضعه على يمنة من يخرج من باب القنطرة المذكورة، و كان عليه قنطرة بناها العزيز بالله بن المعز، و بها سمى باب القنطرة هذا.

قال ابن المتوج: بركة شطا بظاهر مصر على يسرة من مرّ من باب القنطرة، و كان الماء يدخل إليها من خليج بنى وائل من برابخ بالسور المستجدّ، و من بركة الشعيبة من قنطرة فى وسط الجسر المعروف بجسر الحيات، الذى كان يفصل بين البركتين المذكورتين، و كان بوسطها مسجد يعرف بمسجد الجلالة، بقناطر بوسطها، كان يسلك عليها إليه، و كان يطلّ على بركة شطا آدر خربت بانقطاع الماء عنها، و كان إلى جانبها بستان فيه منظرة و درابة و طاحون و حمّام، و بظاهر بابه حوض سبيل، وقف ذلك المخلص الموقع و قد خرب.

بركة قارون: هذه البركة موضعها الآن فيما بين حدرة ابن قميحة خلف جامع ابن طولون، و بين الجسر الأعظم الفاصل بين هذه البركة و بركة الفيل، و عليها الآن عدّة آدر، و تعرف ببركة قراجا، و كان عليها عدّة عمائر جليلة فى قديم الزمان عند ما عمّر العسكر و القطائع، فلما خرب العسكر و القطائع كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، خرب ما كان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۵

من الدور على هذه البركة أيضا، حتى أنه كان من خرج من مصلى مصر القديم، و موضعه الآن الكوم الذى يطلّ على قبر القاضى بكار بالقرافة الكبرى، يرى بركة الفيل و قارون و النيل، و لم يزل ما حول هذه البركة خرابا إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاون البركة الناصرية فى أراضى الزهرى، و كانت واقعة الكنائس فى سنة إحدى و عشرين و سبعمائة، فصار جانب هذه البركة الذى يلى خط السبع سقايات مقطع طريق، فيه مركز يقيم فيه من جهة متولى مصر من يحرس المارة من القاهرة إلى مصر، و لم يكن هناك شىء من الدور، و إنما كان هناك بستان بجوار حوض الدمياطىّ الموجود الآن تجاه كوم الأسارى على يمنة من خرج و سلك من

السبع سقايات إلى قنطرة السدّ، و يشرف هذا البستان على هذه البركة، فحكر أقبغا عبد الواحد مكانه، و صارت فيه الدور الموجودة الآن كما ذكر عند حكر أقبغا فى ذكر الأحكار.

قال القضاعىّ: دار الفيل هى الدار التى على بركة قارون، ذكر بنو مسكين أنها من حبس جدّهم، و كان كافور أمير مصر اشتراها و بنى فيها دارا ذكر أنه أنفق عليها مائة ألف دينار، ثم سكنها فى رجب سنة ست و أربعين و ثلاثمائة، و ذكر اليمنىّ أنه انتقل إليها فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة، و أنه كان أدخل فيها عدّة مساجد و مواضع اغتصبها من أربابها، و لم يقم فيها غير أيام قلائل، ثم أرسل إلى أبى جعفر مسلم الحسينىّ ليلا فقال له:

امض بى إلى داركَ، فمضى به، فمرّ على دار فقال: لمن هذه؟ فقال: لغلامك نحرير التربية، فدخلها و أقام فيها شهورا إلى أن عمروا له دار خمارويه المعروفة بدار الحرم، و سكنها، و قيل أن سبب انتقاله من جنان بنى مسكين بخار البركة. و قيل و باء وقع فى غلمانه، و قيل ظهر له بهاجان. و كانت دار الفيل هذه ينظر منها جزيرة مصر التى تعرف اليوم بالروضة.

قال أبو عمر الكندىّ فى كتاب الموالى: و منهم أبو غنيم مولى مسلمة بن مخلد الأنصارىّ، كان شريفا فى الموالى، و ولاه عبد العزيز بن مروان الجزيرة، ثم عزله عنها، و كان يجلس فى داره التى يقال لها دار الفيل فينظر إلى الجزيرة فيقول لإخوانه: أخبرونى بأعجب شىء فى الدنيا. قالوا: منارة الإسكندرية. قال: ما أصبتم شيئا. قال: فيقولون له فقناة قرطاجنة. فيقول: ما صنعتم شيئا. قالوا: فما تقول أنت؟ قال: العجب أنى أنظر إلى الجزيرة و لا أقدر أدخلها، و على هذه البركة الآن عدّة آدر جليلة و جامع و حمام و غير ذلك، و اللّه تعالى أعلم بالصواب.

بركة الفيل: هذه البركة فيما بين مصر و القاهرة، و هى كبيرة جدّا، و لم يكن فى القديم عليها بنيان، و لما وضع جوهر القائد مدينة القاهرة كانت تجاه القاهرة، ثم حدثت حارة السودان و غيرها خارج باب زويلة، و كان ما بين حارة السودان و حارة اليانسية و بين بركة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۶

الفيل فضاء، ثم عمر الناس حول بركة الفيل بعد الستمائة حتى صارت مساكنها أجلّ مساكن مصر كلها.

قال ابن سعيد و قد ذكر القاهرة: و أعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر، و المناظر فوقها كالنجوم، و عادة السلطان أن يركب فيها بالليل، و تسرج أصحاب المناظر على قدر هممهم و قدرتهم، فيكون بذلك لها منظر عجيب. و فيها أقول:

انظر إلى بركة الفيل التى اكتنفتبها المناظر كالأهداب للبصر

كأنما هى و الأبصار ترمقهاكواكب قد أداروها على القمر

و نظرت إليها و قد قابلتها الشمس بالغدوّ فقلت:

انظر إلى بركة الفيل التى نحرتلها الغزالة نحرا من مطالعها

و خلّ طرفك محفوفا ببهجتهاتهيم وجدا و حبا فى بدائعها

و ماء النيل يدخل إلى بركة الفيل من الموضع الذى يعرف اليوم بالجسر الأعظم تجاه الكبش، و بلغنى أنه كان هناك قنطرة كبيرة فهدمت و عمل مكانها هذه المجاديل الحجر التى يمرّ عليها الناس، و يعبر ماء النيل إلى هذه البركة أيضا من الخليج الكبير من تحت قنطرة تعرف قديما و حديثا بالمجنونة، و هى الآن لا تشبه القناطر، و كأنها سرب يعبر منه الماء، و فوقه بقية عقد من ناحية الخليج، كان قد عقده الأمير الطيبرس و بنى فوقها منتزها، فقال فيه علم الدين بن الصاحب:

و لقد عجبت من الطبرس و صحبهو عقولهم بعقوده مفتونه

عقدوا عقودا لا تصحّ لأنهمعقدوا لمجنون على مجنونه

و كان الطيبرس هذا يعتريه الجنون، و اتفق أنّ هذا العقد لم يصح و هدم، و آثاره باقية إلى اليوم.

برکة الشقاف: هذه البرکة فی برّ الخلیج الغربیّ بجوار اللوق، و علیها الجامع المعروف بجامع الطباخ، فی خط باب اللوق، و کانت هذه البرکة من جملة أراضی الزهریّ، کما ذکر فی حکر الزهریّ عند ذکر الأحکار، و کان علیها فی القدیم عدّة مناظر منها: منظرة الأمیر جمال الدین موسی بن یغمور، و ذلک أیام کانت أراضی اللوق مواضع نزهة قبل أن تحتکر و تبنی دورا، و ذلک بعد سنة ستمائة. و اللّه تعالی أعلم.

برکة السباعین: عرفت بذلک لأنه اتخذ علیها دار للسباع، و هی موجودة هناک إلی یومنا هذا، و هی من جملة حکر الزهریّ، و علیها الآن دور. و لم تحدث بها العمارة إلا بعد سنة سبعمائة، و إنما کان جمیع ذلک الخط و ما حوله من منشأة

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۳، ص: ۲۸۷

المهرانیّ إلی المقس بساتین ثم حکرت.

برکة الرطلی: هذه البرکة من جملة أرض الطبالة، عرفت ببرکة الطوّابین، من أجل أنه کان یعمل فیها الطوب، فلما حفر الملک الناصر محمد بن قلاون الخلیج الناصریّ، التمس الأمیر بکتمر الحاجب من المهندسین أن یجعلوا حفر الخلیج علی الجرف إلی أن یمرّ بجانب برکة الطوّابین هذه، و یصب من بحریّ أرض الطبالة فی الخلیج الکبیر، فوافقوه علی ذلک، و مرّ الخلیج من ظاهر هذه البرکة کما هو الیوم، فلما جری ماء النیل فیه روی أرض البرکة، فعرفت ببرکة الحاجب.

فإنها کانت بید الأمیر بکتمر الحاجب المذکور، و کان فی شرقیّ هذه البرکة زاویة بها نخل کثیر و فیها شخص یصنع الأرطال الحدید التی تزن بها الباعة، فسماها الناس برکة الرطلیّ نسبة لصانع الأرطال، و بقیت نخیل الزاویة قائمة بالبرکة إلی ما بعد سنة تسعین و سبعمائة، فلما جری الماء فی الخلیج الناصریّ و دخل منه إلی هذه البرکة، عمل الجسر بین البرکة و الخلیج، فحکره الناس و بنوا فوقه الدور، ثم تتابعوا فی البناء حول البرکة حتی لم یبق بدائرها خلو، و صارت المراکب تعبر إلیها من الخلیج الناصریّ فتدورها تحت البیوت و هی مشحونة بالناس، فتمرّ هنالک للناس أحوال من اللهو یقصر عنها الوصف، و تظاهر الناس فی المراکب بأنواع المنکرات من شرب المسکرات و تبرّج النساء الفاجرات و اختلاطهنّ بالرجال من غیر إنکار، فإذا نضب ماء النیل زرعت هذه البرکة بالقرط و غیره، فیجتمع فیها من الناس فی یومی الأحد و الجمعة عالم لا یحصی لهم عدد، و أدرکت بهذه البرکة من بعد سنة سبعین و سبعمائة إلی سنة ثمانمائة أوقاتا انکفت فیها عمن کان بها أیدی الغیر، و رقدت عن أهالیها أعین الحوادث، و ساعدهم الوقت إذ الناس ناس و الزمان زمان، ثم لما تکدّر جوّ المسرّات و تقلص ظل الرفاهة، و انهلت سحائب المحن من سنة ست و ثمانمائة، تلاشی أمرها، و فیها إلی الآن بقیة صبابة و معالم أنس و آثار تنبیء عن حسن عهد، و للّه در القائل:

فی أرض طبالتنا برکةمدهشة للعین و العقل

ترجح فی میزان عقلی علی کلّ بحار الأرض بالرطل

البرکة المعروفة

ببطن البقرة: هذه البرکة کانت فیما بین أرض الطبالة و أراضی اللوق، یصل إلیها ماء النیل من الخور فیعبر فی خلیج الذکر إلیها، و کانت تجاه قصر اللؤلؤة و دار الذهب فی برّ الخلیج الغربیّ، و أوّل ما عرفت من خبر هذه البرکة أنها کانت بستانا کبیرا فیما بین المقس و جنان الزهریّ، عرف بالبستان المقسیّ نسبة إلی المقس، و یشرف علی بحر النیل من غربیه، و علی الخلیج الکبیر من شرقیه، فلما کان فی أیام الخلیفة الظاهر لاعزاز دین اللّه أبی هاشم علیّ بن الحاکم بأمر اللّه، أمر بعد سنة عشر و أربعمائة بإزالة إنشاب هذا

المواعظ و الإعتبار بذکر الخطط و الآثار، بیروت، ج۳، ص: ۲۸۸

البستان، و أن یعمل برکة قدّام المنظرة التی تعرف باللؤلؤة، فلما کانت الشدّة العظمی فی زمن الخلیفة المستنصر باللّه، هجرت البرکة و بنی فی موضعها عدّة أماکن عرفت بحارة اللصوص إذ ذاک، فلما کان فی أیام الخلیفة الآمر بأحکام اللّه و وزارة الأجل المأمون محمد بن فاتک البطائحیّ، د أزیلت الأبنیة و عمق حفر الأرض و سلط علیها ماء النیل من خلیج الذکر، فصارت برکة عرفت ببطن

البقرة، و ما برحت إلى ما بعد سنة سبعمائة، و كان قد تلاشى أمرها منذ كانت الغلوة فى زمن الملك العادل كتبغا، سنة سبع و تسعين و ستمائة، فكان من خرج من باب القنطرة يجد عن يمينه أرض الطبالة من جانب الخليج الغربىّ إلى حدّ المقس، و يجد بطن البقرة عن يساره من جانب الخليج الغربىّ إلى حدّ المقس، و بحر النيل الأعظم يجرى فى غربىّ بطن البقرة على حافة المقس إلى غربىّ أرض الطبالة، و يمرّ من حيث الموضع المعروف اليوم بالجرف إلى غربىّ البعل، و يجرى إلى منية الشيرج، فكان خارج القاهرة أحسن منتزه فى مصر من الأمصار، و موضع بطن البقرة يعرف اليوم بكوم الجاكى، المجاور لميدان القمح، و ما جاور تلك الكيمان و الخراب إلى نحو باب اللوق، و حدّثنى غير واحد ممن لقيت من شيوخ المقس عن مشاهدة آثار هذه البركة، و أخبرنى عمن شاهد فيها الماء، و إلى زمننا هذا موضع من غربىّ الخليج فيما يلى ميدان القمح يعرف ببطن البقرة، بقية من تلك البركة يجتمع فيه الناس للنزهة.

بركة جناق: هذه البركة خارج باب الفتوح، كانت بالقرب من منظرة باب الفتوح التى تقدّم ذكرها فى المناظر، و كان ما حولها بساتين، و لم يكن خارج باب الفتوح شىء من هذه الأبنية، و إنما كان هناك بساتين، فكانت هذه البركة فيما بين الخليج الكبير و بستان ابن صيرم، فلما حكر بستان ابن صيرم و عمر فى مكانه الآدر و غيرها، و عمر الناس خارج ابن الفتوح، عمر ما حول هذه البركة بالدور، و سكنها الناس و هى إلى الآن عامرة، و تعرف ببركة جناق.

بركة الحجاج: هذه البركة فى الجهة البحرية من القاهرة، على نحو بريد منها، عرفت أوّلا بجب عميرة، ثم قيل لها أرض الجب، و عرفت إلى اليوم ببركة الحجاج من أجل نزول حجاج البرّ بها عند مسيرهم من القاهرة، و عند عودهم، و بعض من لا معرفة له بأحوال أرض مصر يقول: جب يوسف عليه السلام، و هو خطأ لا أصل له، و ما برحت هذه البركة منتزها لملوك القاهرة.

قال ابن يونس عميرة ابن تميم بن جزىء التجيبىّ: من بنى القرناء صاحب الجب المعروف بجب عميرة فى الموضع الذى يبرز إليه الحاج من مصر لخروجهم إلى مكة، و قال أبو عمر الكندىّ فى كتاب الخندق: أن فرسان الخندق من جب عميرة بن تميم بن جزء، و صاحب جب عميرة من بنى القرناء طعن فى تلك الأيام فارتث فمات بعد ذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۸۹

و قال فى كتاب الأمراء: ثم أن أهل الحوف خرجوا على ليث بن الفضل أمير مصر، و كان السبب فى ذلك أن ليثا بعث بمساح يمسحون عليهم أراضى زرعهم، فانتقصوا من القصب أصابع، فتظلم الناس إلى ليث فلم يسمع منهم، فعسكروا و ساروا إلى الفسطاط، فخرج إليهم ليث فى أربعة آلاف من جند مصر، ليومين بقيا من شعبان، سنة ست و ثمانين و مائة، فالتقى مع أهل الحوف لاثنتى عشرة خلت من شهر رمضان، فانهزم الجيش عن ليث و بقى فى مائتين أو نحوها، فحمل عليهم بمن معه فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة، و كان التقاؤهم فى أرض جب عميرة، و بعث ليث إلى الفسطاط بثمانين رأسا، و رجع إلى الفسطاط. و قال: المسبحىّ و لاثنتى عشرة خلت من ذى القعدة سنة أربع و ثمانين و ثلاثمائة، عرض أمير المؤمنين العزيز بالله عساكره بظاهر القاهرة عند سطح الجب، فنصب له مضرب ديباج رومىّ فيه ألف ثوب مفوّفة فضة، و نصبت له فازة مستقلة و قبة مثقلة بالجوهر، و ضرب لابنه المنصور مضرب آخر، و عرضت العساكر فكانت عدّتها مائة عسكر، و أقبلت أسارى الروم و عدّتها مائتان و خمسون، فطيف بهم، و كان يوما عظيما حسنا لم تزل العساكر تسير بين يديه من ضحوة النهار إلى صلاة المغرب.

و قال ابن ميسر: كان من عادة أمير المؤمنين المستنصر بالله أن يركب فى كل سنة على النجب مع النساء و الحشم إلى جب عميرة، و هو موضع نزهة بهيئة، أنه خارج للحج على سبيل الهزء و المجانة و معه الخمر فى الروايا عوضا عن الماء، و يسقيه الناس. و قال أبو الخطاب بن دحية، و خطب لبنى عبيد ببغداد أربعين جمعة، و ذلك للمستنصر، بل للبطال المستهتر، أنشده العقيلىّ صبيحة يوم عرفة:

قم فانحر الراح يوم النحر بالماءو لا تضحّى ضحى إلّا بصهباء

و أدرك حجيج الندامى قبل نفرهمإلى منى قصفهم مع كلّ هيفاء

و وصل ألف القطع للضرورة، و هو جائز، فخرج فى ساعته بروايا الخمر تزجى بنغمات حداة الملاهى و تساق، حتى أناخ بعين شمس فى كبكبة من الفساق، فأقام بها سوق الفسوق على ساق، و فى ذلك العام أخذ اللّه و أخذ أهل مصر بالسنين، حتى بيع القرص فى أيا من بالثمن الثمين.

و قال القاضى الفاضل فى حوادث المحرّم سنة سبع و سبعين و خمسمائة، و فيه خرج السلطان يعنى صلاح الدين يوسف بن أيوب، إلى بركة لجب للصيد و لعب الأكرة، و عاد إلى القاهرة فى سادس يوم من خروجه، و ذكر من ذلك كثيرا عن السلطان صلاح الدين و ابنه الملك العزيز عثمان.

و قال جامع سيرة الناصر محمد بن قلاون: و فى حوادث صفر سنة اثنتين و عشرين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۰

و سبعمائة، و فهى ركب السلطان إلى بركة الحجاج للرمى على الكراكى، و طلب كريم الدين ناظر الخاص، و رسم أن يعمل فيها أحواشا للخيل و الجمال، و ميدانا، و للأمير بكتمر الساقى مثله، فأقام كريم الدين بنفسه فى هذا العمل، و لم يدع أحدا من جميع الصناع المحتاج إليهم يعمل فى القاهرة عملا فكان فيها نحو الألفى رجل، و مائة زوج بقر، حتى تمت المواضع فى مدّة قريبة، و ركب السلطان إليها و أمر بعمل ميدان لنتاج الخيل، فعمل، و ما برح الملوك يركبون إلى هذه البركة لرمى الكراكى، و هم على ذلك إلى هذا الوقت، و قد خربت المبانى التى أنشأها الملك الناصر و أدركنا بهذه البركة مراحا عظيما للأغنام التى يعلفها التركمانىّ حب القطن و غيره من العلف، فتبلغ الغاية فى السمن، حتى أنه يدخل بها إلى القاهرة محمولة على العجل لعظم جنتها و ثقلها و عجزها عن المشى، و كان يقال كبش بركاوىّ نسبة إلى هذه البركة، و شاهدت مرّة كبشا من كباش هذه البركة، و زنت شقته اليمنى فبلغت زنتها خمسة و سبعين رطلا سوى الأليّة، و بلغنى عن كبش أنه وزن ما فى بطنه من الشحم خاصة، فبلغ أربعين رطلا، و كانت ألايا تلك الكباش تبلغ الغاية فى الكبر، و قد بطل هذا من القاهرة منذ كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة، حتى لا يكاد يعرفه اليوم إلا أفراد من الناس.

و بركة الحجاج اليوم أرباب دركها قوم من العرب يعرفون ببنى صبرة، و قال الشريف محمد بن أسعد الجوانىّ فى كتاب الجوهر المكنون فى معرفة القبائل و البطون: بنو بطيخ بطن من لخم، و هم ولد بطيخ بن مغالة بن دعجمان بن عميث بن كليب بن أبى الحارث بن عمرو بن رميمة بن جدس بن أريش بن أراش بن جديلة بن لخم، و فخذها بنو صبرة بن بطيخ، و لهم حارة مجاورة للخطمة المعروفة اليوم بكوم دينار السايس، و صبرة فى خندف و فى قيس و نزار و يمن، فالتى فى خندف فى بنى جعفر الطيار، بنو صبرة بن جعفر بن داود بن محمد بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علىّ بن عبد اللّه بن جعفر بن أبى طالب فخذ، و التى فى قيس، بنو صبرة بن بكر بن أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان فخذ، و أما التى فى نزار ففى شيبان، بنو صبرة بن عوف بن محكم بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علىّ بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار فخذ، و ما التى فى يمن ففى لخم و جذام، فأما التى فى لخم: فبنو صبرة بن بطيخ بن مغالة بن دعجان بن عميث بن كليب بن أبى الحارث بن عمرو بن رميمة بن جدس بن أريش بن أراش بن جديلة بن لخم، و أما التى فى جذام فبنو صبرة بن نصيرة بن عطفان بن سعد بن إياس بن حرام بن جذام، و إليه يرجع الصبريون، و هم بالشام و اللّه تعالى أعلم.

بركة قرموط: هذه البركة فيما بين اللوق و المقس، كانت من جملة بستان ابن ثعلب، فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصرى من موردة البلاط، رمى ما خرج من الطين فى هذه البركة، و بنى الناس الدور على الخليج، فصارت البركة من ورائها،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۱

و عرفت تلك الخطة كلها ببركة قرموط، و أدركنا بها ديارا جليلة تناهى أربابها فى أحكام بنائها و تحسين سقوفها، و بالغوا فى زخرفتها بالرخام و الدهان، و غرسوا بها الأشجار و أجروا إليها المياه من الآبار، فكانت تعدّ من المساكن البديعة النزهة، و أكثر من

كان يسكنها الكتاب مسلموهم و نصاراهم، و هم فى الحقيقة المترفون أولو النعمة، فكم حوت تلك الديار من حسن و مستحسن، و أنى لأذكرها و ما مررت بها قد إلّا و تبين لى من كل دار هناك آثار النعم، أما روائح تقالى المطابخ أو عبير بخور العود و النّد، أو نفحات الخمر، أو صوت غناء، أو دقّ هاون و نحو ذلك مما يبين عن ترف سكان تلك الديار و رفاهة عيشهم و غضارة نعمهم، ثم هى الآن موحشة خراب، قد هدمت تلك المنازل و بيعت أنقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست و ثمانمائة، فزالت الطرق و جهلت الأزقة و انكشفت البركة، و بقى حولها بساتين خراب، و بلغنى أن المراكب كانت تعبر إلى هذه البركة للتنزه، و ما أحسب ذلك كان، فإنها كانت من جملة البستان، و لم ينقل إنه كان يقربها خليج سوى الخور، و يبعد أن يصل إليها، و اللّه أعلم.

و قرموط هذا هو أمين الدين قرموط مستوفى الخزانة السلطانية.

بركة قراجا: هذه البركة خارج الحسينية، قريبا من الخندق، عرفت بالأمير زين الدين قراجا التركمانى، أحد أمراء مصر، أنعم عليه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون بالإمرة فى سنة سبع عشرة و سبعمائة.

البركة الناصرية: هذه البركة من جملة جنان الزهرىّ، فلما خربت جنان الزهرىّ صار موضعها كوم تراب إلى أن أنشأ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون ميدان المهارى، فى سنة عشرين و سبعمائة، و أراد بناء الزريبة بجانب الجامع الطبرسىّ، احتاج فى بنائها إلى طين، فركب و عين مكان هذه البركة، و أمر الفخر ناظر الجيش فكتب أوراقا بأسماء الأمراء، و انتدب الأمير بيبرس الحاجب فنزل بالمهندسين فقاسوا دور البركة و وزع على الأمراء بالأقصاب، فنزل كل أمير و ضرب خيمة لعمل ما يخصه، فابتدؤا العمل فى يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر ربيع الأول سنة إحدى و عشرين و سبعمائة، فتمادى الحفر إلى جانب كنيسة الزهرىّ، و كان إذ ذاك فى تلك الأرض عدّة كنائس، و لم يكن هناك شىء من العمائر التى هى اليوم حول البركة الناصرية، و لا من العمائر التى فى خط قناطر السباع و لا فى خط السبع سقايات إلى قنطرة السدّ، و إنما كانت بساتين و كنائس و ديورة للنصارى، فاستولى الحفر على ما حول كنيسة الزهرىّ و صارت فى وسط الحفر، حتى تعلقت، و كان القصد أن تسقط من غير تعمد هدمها، فأراد اللّه تعالى هدمها على يد العامّة كما ذكر فى خبرها عند ذكر كنائس النصارى من هذا الكتاب، فلما تمّ حفر البركة نقل ما خرج منها من الطين إلى الزريبة، و أجرى إليها الماء من جوار الميدان السلطانىّ الكائن بأراضى بستان الخشاب عند

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۲

موردة البلاط، فلما امتلأتا بالماء صارت مساحتها سبعة أفدنة، فحكر الناس ما حولها و بنوا عليها الدور العظيمة، و ما برح خط البركة الناصرية عامرا إلى أن كانت الحوادث من سنة ست و ثمانمائة، فشرع الناس فى هدم ما عليها من الدور، فهدم كثيرا مما كان هناك، و الهدم مستمرّ إلى يومنا هذا.

ذكر الجسور

الجسر بفتح الجيم، الذى تسميه العامّة جسرا، عن ابن دريد، و قال الخليل: الجسر و الجسر لغتان، و هو القنطرة و نحوها مما يعبر عليه.

و قال ابن سيده: و الجسر الذى يعبر عليه، و الجمع القليل أجسر. قال:

إنّ فراخا كفراخ الأوكربأرض بغداد وراء الأجسر

و الكثير جسور.

جسر الأفرم: هذا الجسر بظاهر مدينة مصر، فيما بين المدرسة المعزية برحبة الحناء قبلىّ مصر، و بين رباط الآثار النبوية، كان موضعه فى أوّل الإسلام غامرا بماء النيل، ثم انحسر عنه الماء فصار فضاء إلى بحرىّ خليج بنى وائل، ثم ابتنى الناس فيه مواضع، و كان هناك الهرى قريبا من الخليج، ثم صار موضع جسر الأفرم هذا ترعة يدخل منها ماء النيل إلى البركة الشعيبية، فلما استأجر الأمير عز الدين أيبك الأفرم بركة الشعيبية و جعلها بستانا، كما تقدّم ذكره فى البرك، ردم هذه الترعة و بنى حيطان البستان و جسر عليه، فأقام على

ذلك سنين، ثم لما استأجر أرض البركة بعد ما غرسها بالأشجار إجارة ثانية، اشترط البناء على ثلاثة أفدنة فى جانب البستان الغربىّ، و فدّان فى جانبه البحرىّ، و نادى فى الناس بتحكيره، و أرخص سعر الحكر، و جعل حكر كلّ مائة ذراع عشرة دراهم، فهرع الناس إليه و احتكروا منه المواضع، و بنوا فيها الدور المطلة على النيل، فاستغنى بالعمائر عن عمر الجسر فى كلّ سنة بين البحر و البستان الذى أنشأه، و بقى اسم الجسر عليه إلى يومنا هذا، إلا أن الآدر التى كانت هناك خربت منذ انطرد النيل عن البرّ الغربىّ، بعد ما بلغ ذلك الخط الغاية فى العمارة، و كان سكن الوزراء و الأعيان من الكتاب و غيرهم.

الجسر الأعظم: هذا الجسر فى زماننا هذا قد صار شارعا مسلوكا يمشى فيه من الكبش إلى قناطر السباع، و أصله جسر يفصل بين بركة قارون و بركة الفيل، و بينهما سرب يدخل منه الماء، و عليه أحجار يراها من يمرّ هناك، و بلغنى أنه كان من قنطرة مرتفعة، فلما أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاون الميدان السلطانىّ عند موردة البلاط، أمر بهدم القنطرة فهدمت، و لم يكن إذ ذاك على بركة الفيل من جهة الجسر الأعظم مبان، و إنما كانت ظاهرة يراها المارّ، ثم أمر السلطان بعمل حائط قصير بطولها، فأقيم الحائط و صفر بالطين الأصفر،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۳

ثم حدثت الدور هناك.

الجسر بأرض الطبالة: هذا الجسر يفصل بين بركة الرطلىّ و بين الخليج الناصرىّ، أقامه الأمير الوزير سيف الدين بكتمر الحاجب فى سنة خمس و عشرين و سبعمائة، لما انتهى حفر الخليج الناصرىّ، و أذن للناس فى البناء عليه، فحكر و بنيت فوقه الدور، فصارت تشرف على بركة الرطلىّ و على الخليج، و تجتمع العامّة تحت مناظر الجسر و تمرّ بحافة الخليج للنزهة، فكثر اغتياظ غوغاء الناس و فساقهم بهذا الجسر إلى اليوم، و هو من أنزه فرج القاهرة لولا ما عرف به من القاذورات الفاحشة.

الجسر من بولاق إلى منية الشيرج: كان السبب فى عمل هذا الجسر أن ماء النيل قويت زيادته فى سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة، حتى أخرق من ناحية بستان الخشاب، و دخل الماء إلى جهة بولاق، و فاض إلى باب اللوق حتى اتصل بباب البحر و بساتين الخور، فهدمت عدّة دور كانت مطلة على البحر، و كثير من بيوت الحكورة، و امتدّ الماء إلى ناحية منية الشيرج، فقام الفخر ناظر الجيش بهذا الأمر، و عرّف السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون أن متى غفل دخل الماء إلى القاهرة و غرق أهلها و مساكنها، فركب السلطان إلى البحر و معه الأمراء، فرأى ما هاله، و فكر فيما يدفع ضرر النيل عن القاهرة، فاقتضى رأيه عمل جسر عند نزول الماء، و انصرف، فقويت الزيادة و فاض الماء على منشأة المهرانىّ و منشأة الكتبة، و غرّق بساتين بولاق و الجزيرة حتى صار ما بين ذلك ملقة واحدة، و ركب الناس المراكب للفرجة، و مرّوا بها تحت الأشجار و صاروا يتناولون الثمار بأيديهم و هم فى المراكب، فتقدّم السلطان المتولى القاهرة و متولى مصر يبث الأعوان فى القاهرة و مصر لردّ الحمير و الجمال التى تنقل التراب إلى الكيمان، و ألزمهم بإلقاء التراب بناحية بولاق، و نودى فى القاهرة و مصر، من كان عنده تراب فليرمه بناحية بولاق و فى الأماكن التى قد علا عليها الماء، فاهتمّ الناس من جهة زيادة الماء اهتماما كبيرا خوفا أن يخرق الماء و يدخل إلى القاهرة، و ألزم أرباب الأملاك التى ببولاق و الخور و المناشئ أن يقف كلّ واحد على إصلاح مكانه، و يحترس من عبور الماء على غفلة، فتطلب كلّ أحد من الناس الفعلة من غوغاء الناس لنقل التراب، حتى عدمت الحرافيش، و لم تكن توجد لكثرة ما أخذهم الناس لنقل التراب و رميه، و تضرّرت الآدر القريبة من البحر بنزولها، و غرقت الأقصاب و القلقاس و النيلة و سائر الدواليب التى بأعمال مصر، فلما انقضت أيام الزيادة ثبت الماء و لم ينزل فى أيام نزوله، ففسدت مطامير الغلات و مخازنها و شونها، و تحسن سعر السكّر و العسل، و تأخر الزرع عن أوانه لكثرة ما مكث الماء، فكتب لولاة الأعمال بكسر الترع و الجسور كى ينصرف الماء عن أراضى الزرع إلى البحر الملح، و احتاج الناس إلى وضع الخراج عن بساتين بولاق و الجزيرة، و مسامحتهم بنظير ما فسد من الغرق، و فسدت عدّة بساتين إلى أن أذن اللّه تعالى بنزول الماء، فسقط كثير من الدور، و أخذ السلطان فى عمل الجسور، و استدعى المهندسين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۴

و أمرهم بإقامة جسر يصدج الماء عن القاهرة خشية أن يكون نيل مثل هذا، و كتب بإحضار خولة البلاد، فلما تكاملوا أمرهم فساروا إلى النيل و كشفوا الساحل كله، فوجدوا ناحية الجزيرة مما يلى المنية قد صارت أرضها وطيئة، و من هناك يخاف على البلد من الماء، فلما عرّفوا السلطان بذلك أمر بإلزام من له دار على النيل بمصر أو منشأة المهرانىّ أو منشأة الكتاب أو بولاق أن يعمر قدّامها على البحر زريبة، و أنه لا يطلب منهم عليها حكر، و نودى بذلك، و كتب مرسوم بمسامحتهم من الحكر عن ذلك، فشرع الناس فى عمل الزرابى، و تقدّم إلى الأمراء بطلب فلاحى بلادهم و إحضارهم بالبقر و الجراريف لعمل الجسر من بولاق إلى منية الشيرج، و نزل المهندسون فقاسوا الأرض و فرضوا لكل أمير أقصابا معينة، و ضرب كلّ أمير خيمته و خرج لمباشرة ما عليه من العمل، فأقاموا فى عمله عشرين يوما حتى فرغ، و نصبت عندهم الأسواق، فجاء ارتفاعه من الأرض أربع قصبات فى عرض ثمانى قصبات، فانتفع الناس به انتفاعا كبيرا، و قدّر اللّه سبحانه و تعالى أن الزرع فى تلك السنة حسن إلى الغاية، و أفلح فلاحا عجيبا، و انحط السعر لكثرة ما زرع من الأراضى، و خصب السنة، و كان قد اتفق فى سنة سبع عشرة و سبعمائة غرق ظاهر القاهرة أيضا، و ذلك أن النيل و فى ستة عشر ذراعا فى ثالث عشر جمادى الأولى و هو التاسع و العشرون من شهر أبيب أحد شهور القبط، و لم يعهد مثل ذلك، فإن الأنيال البدرية يكون و فاؤها فى العشر الأول من مسرى، فلما كسر سدّ الخليج توقفت الزيادة مدّة أيام، ثم زاد و توقف إلى أن دخل تاسع توت، و الماء على سبعة عشر ذراعا و ستة أصابع، ثم زاد فى يوم تسعة أصابع، و استمرّت الزيادة حتى صار على ثانية عشر ذراعا و ستة أصابع، ففاض الماء و انقطع طريق الناس فيما بين القاهرة و مصر، و فيما بين كوم الريش و المنية، و خرج من جانب المنية و غرّقها، فكتب بفتح جميع الترع و الجسور بسائر الوجه القبلىّ و البحرىّ، و كسر بحر أبى المنجا و فتح سدّ بلبيس و غيره قبل عيد الصليب، و غرقت الأقصاب و الزراعات الصيفية، و عمّ الماء ناحية منية الشيرج، و ناحية شبر، فخربت الدور التى هناك، و تلف للناس مال كثير، من جملته زيادة على ثمانين ألف جرّة خمر فارغة تكسرت فى نايحة المنية و شبرا عند هجوم الماء، و تلفت مطامير الغلة من الماء، حتى بيع قدح القمح بفلس، و الفلس يومئذ جزء من ثمانية و أربعين جزأ من درهم، و صار من بولاق إلى شبرا بحرا واحدا تمرّ فيه المراكب للنزهة فى بساتين الجزيرة إلى شبرا، و تلفت الفواكه و المشمومات، و قلت الخضر التى يحتاج إليها فى الطعام، و غرقت منشأة المهرانىّ، و فاض الماء من عند خانقاه رسلان، و أفسد بستان الخشاب و اتصل الماء بالجزيرة التى تعرف بجزيرة الفيل إلى شبرا، و غرقت الأقصاب التى فى الصعيد، فإن الماء أقام عليها ستة و خمسين يوما، فعصرت كلها عسلا فقط، و خربت سائر الجسور و علاها الماء، و تأخر هبوطه عن الوقت المعتاد، فسقطت عدّة دور بالقاهرة و مصر، و فسدت منشأة الكتاب المجاورة لمنشأة المهرانىّ، فلذلك عمل السلطان الجسر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۵

المذكور خوفا على القاهرة من الغرق.

الجسر بوسط النيل: و كان سبب عمل هذا الجسر، أن ماء النيل قوى رميه على ناحية بولاق، و هدم جامع الخطيرى، ثم جدّد و قوّيت عمارته و تيار البحر لا يزداد من ناحية البرّ الشرقىّ إلّا قوة، فأهمّ الملك الناصر أمره و كتب فى سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة بطلب المهندسين من دمشق و حلب و البلاد الفراتية، و جمع المهندسين من أعمال مصر كلها قبليها و بحريها، فلما تكاملوا عنده ركب بعساكره من قلعة الجبل إلى شاطىء النيل، و نزل فى الحراقة و بين يديه الأمراء و سائر أرباب الخبرة من المهندسين، و جولة الجسور، و كشف أمر شطوط النيل، فاقتضى الحال أن يعمل جسرا فيما بين بولاق و ناحية أنبوبه من البرّ الغربى، ليردّ قوّة التيار عن البرّ الشرقىّ إلى البرّ الغربىّ، و عاد إلى القلعة فكتبت مراسيم إلى ولاة الأعمال بإحضار الرجال صحبة المشدّين، و استدعى شادّ العمائر السلطانية و أمره بطلب الحجارين، و قطع الحجر من الجبل، و طلب رئيس البحر و شادّ الصناعة لإحضار المراكب، فلم يمض سوى عشرة أيام حتى تكامل حضور الرجال مع الشادّين من الأقاليم، و ندب السلطان لهذا العمل الأمير أقبغا عبد الواحد، و الأمير برصبغا الحاجب،

فبرز لذلك و أحضر والى القاهرة و والى مصر، و أمرا بجمع الناس و تسخير كل أحد للعمل، فركبا و أخذا الحرافيش من الأماكن المعروفة بهم، و قبضا على من وجد فى الطرقات و فى المساجد و الجوامع، و تتبعاهم فى الأسحار، و وقع الاهتمام الكبير فى العمل من يوم الأحد عاشر ذى القعدة، و كانت أيام القيظ، فهلك فيه عدّة من الناس، و الأمير أقبغا فى الحراقة يستحث الناس على إنجاز العمل، و المراكب تحمل الحجر من الفص الكبير إلى موضع الجسر، و فى كل قليل يركب السلطان من القلعة و يقف على العمل، و يهين أقبغا و يسبه و يستحثه حتى تمّ العمل للنصف من ذى الحجة، و كانت عدّة المراكب التى غرقت فيه و هى مشحونة بالحجارة اثنى عشر مركبا، كل مركب منها تحمل ألف أردب غلة، و عدّة المراكب التى ملئت بالحجر حتى ردم و صار جسرا، ثلاثة و عشرون ألف مركب، سوى ما عمل فيه من آلات الخشب و السرياقات، و حفر فى الجزيرة خليج وطئ، فلما جرى النيل فى أيام الزيادة مرّ فى ذلك الخليج و لم يتأثر الجسر من قوّة التيار، و صارت قوّة جرى النيل من ناحية أنبوبة بالبرّ الغربىّ و من ناحية التكرورىّ أيضا، فسرّ السلطان بذلك و أعجبه إعجابا كثيرا، و كان هذا الجسر سبب انطراد الماء عن برج القاهرة حتى صار إلى ما صار إليه الآن.

الجسر فيما بين الجيزة و الروضة: كان السبب المقتضى لعمل هذا الجسر، أن الملك الناصر لما عمل الجسر فيما بين بولاق و ناحية أنبوبة و ناحية التكرورىّ، انطرد ماء النيل عن برّ القاهرة، و انكشفت أراض كثيرة، و صار الماء يحاض من برّ مصر إلى المقياس، و انكشف من قبالة منشأة المهرانىّ إلى جزيرة الفيل و إلى منية الشيرج، و صار الناس يجدون مشقّة لبعد الماء عن القاهرة، و غلت روايا الماء حتى بيعت كلّ راوية بدر همين بعد ما كانت بنصف و ربع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۶

درهم، فشكا الناس ذلك إلى الأمير أرغون العلائىّ والى السلطان الملك الكامل شعبان بن الملك الناصر محمد بن قلاون، فطلب المهندسين و رئيس البحر، و ركب السلطان بأمرائه من القلعة إلى شاطىء النيل، فلم يتهيأ عمل لما كان من ابتداء زيادة النيل، إلّا أنّ الرأى اقتضى نقل التراب و الشقاف من مطابخ السكّر التى كانت بمصر و إلقاء ذلك بالروضة. لعمل الجسر، فنقل شىء عظيم من التراب فى المراكب إلى الروضة، و عمل جسر من الجزيرة إلى نحو المقياس، فى طول نحو ثلثى ما بينهما من المسافة، فعاد الماء إلى جهة مصر عودا يسيرا و عجزوا عن إيصال الجسر إلى المقياس لقلة التراب، و قويت الزيادة حتى علا الماء الجسر بأسره، و اتفق قتل الملك الكامل بعد ذلك، و سلطنة أخيه الملك المظفر حاجى بن محمد بن قلاون أول جمادى الآخرة سنة سبع و أربعين و سبعمائة.

فلما دخلت سنة ثمان و أربعين، وقف جماعة من الناس للسلطان فى أمر البحر و استغاثوا من بعد الماء و انكشاف الأراضى من تحت البيوت، و غلاء الماء فى المدينة، فأمر بالكشف عن ذلك، فنزل المهندسون و اتفقوا على إقامة جسر ليرجع الماء عن برّ الجيزة إلى برّ مصر و القاهرة، و كتبوا تقدير ما يصرف فيه مائة و عشرين ألف درهم فضة، فأمر بجبايتها من أرباب الأملاك التى على شط النيل، و أن يتولى القاضى ضياء الدين يوسف بن أبى بكر المحتسب جبايتها و استخراجها، فقيست الدور و أخذ عن كل ذراع من أراضيها خمسة عشر درهما، و تولى قياسها أيضا المحتسب و والى الصناعة، فبلغ قياسها سبعة آلاف و ستمائة ذراع، و جبى نحو السبعين ألف درهم، فاتفق عزل الضيّاء عن الحسبة، و نظر المارستان المنصورىّ، و نظر الجوالى، و ولاية ابن الأطروش مكانه، ثم قتل الملك المظفر و ولاية أخيه الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون سلطنة مصر بعده، فى شهر رمضان منها، فلما كانت فى سنة تسع و أربعين و سبعمائة وقع الاهتمام بعمل الجسر، فنزل الأمير بلبغا أروس نائب السلطنة، و الأمير منجك الاستادار، و كان قد عزل من الوزارة، و الأمير قيلاى الحاجب، و جماعة من الأمراء و معهم عدّة من المهندسين إلى البحر فى الحراريق، و المراكب إلى برّ الجيزة، و قاسوا ما بين برّ الجيزة و المقياس، و كتب تقدير المصروف نحو المائة و الخمسين ألف درهم، و ألف خشبة من الخشب، و خمسمائة صار، و ألف حجر فى طول ذراعين و عرض ذراعين، و خمسة آلاف شنفة، و غير ذلك من أشياء كثيرة.

فركب النائب و الوزير و الأمير شيخو و الأمراء إلى الجيزة، و أعادوا النظر فى أمر الجسر و معهم أرباب الخبرة، فالتزم الأمير منجك بعمل الجسر، و أن يتولى جباية المصروف عليه من سائر الأمراء و الأجناد و الكتاب و أرباب الأملاك، بحيث أنه لا يبقى أحد حتى

يؤخذ منه، فرسم لكتاب الجيش بكتابة أسماء الجند، و قرّر على كلّ مائة دينار من الإقطاعات درهم واحد، و على كلّ أمير من خمسة آلاف درهم إلى أربعة آلاف درهم، و على كلّ كاتب أمير ألف، مائتا درهم، و كاتب أمير الطبلخانات مائة درهم، و على كلّ حانوت من حوانيت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۷

التجار درهم، و على كلّ دار در همان، و على كلّ بستان الفدّان من عشرين درهما إلى عشرة دراهم، و على كلّ طاحون خمسة دراهم. عن الحجر، و على كلّ صهريج فى تربة بالقرافة أو فى ظاهر القاهرة أو فى مدرسة من عشرة دراهم إلى خمسة دراهم، و على كل تربة من ثلاثة دراهم إلى در همين، و على أصحاب المقاعد و المتعيشين فى الطرقات شىء، و كشفت البساتين و الدور التى استجدّت من بولاق إلى منية الشيرج، و التى استجدّت فى الحكورة، و التى استجدّت على الخليج الناصرىّ، و على بركة الحاجب، و فى حكر أخى صاروجا، و قيست أراضيها كلها، و أخذ عن كلّ ذراع منها خمسة عشر درهما، و أخذ عن كلّ قمين من أقمنة الطوب شىء، و عن كلّ فاخورة من الفواخير شىء، و فرض على كلّ وقف بالقاهرة و مصر و القرافتين من الجوامع و المساجد و الخوانك و الزوايا و الربط شىء، و كتب إلى ولاة الأعمال بالجباية من ديورة النصارى و كنائسهم من مائتى درهم إلى مائة درهم، و قرّر على الفنادق و الخانات التى بالقاهرة و مصر شىء، و قرّر على ضامنة الأغانى مبلغ خمسين ألف درهم، و أقيم لكل جهة شادّ و صيرفى و كتّاب و غير ذلك من المستحثين من الأعوان، فنزل من ذلك بالناس بلاء كبير و شدّة عظيمة، فإنه أخذ حتى من الشيخ و العجوز و الأرملة، و جبى المال منهم بالعسف، و أبطل كثير منهم سببه لسعيه فى الغرامة و دهى الناس مع الغرامة، يتسلط الظلمة من العرفاء و الضمان و الرسل، فكان يغرم كلّ أحد للقابض و الشادّ و الصيرفىّ و الشهود سوى ما قرّر عليه جملة دراهم، فكثر كلام الناس فى الوزير حتى صاروا يلهجون بقولهم هذه سخطة مرصص نزلت من السماء على أهل مصر، و قاسوا شدّة أخرى فى تحصيل الأصناف التى يحتاج إليها، و نزل الوزير منجك و ضرب له خيمة على جانب الروضة، و نادى فى الحرافيش و الفعلة، من أراد العمل يحضر و يأخذ أجرته درهما و نصفا و ثلاثة أرغفة، فاجتمع إليه عالم كثير، و جعل لهم شيئا يستظلون به من حرّ الشمس، و أحسن إليهم، و رتب عدّة مراكب لنقل الحجر، و أقام عدة من الحجارين فى لجبل لقطع الحجر، و جمالا- و حميرا تنقلها من الجبل إلى البحر، ثم تحمل من البرّ فى المراكب إلى برّ الجيزة، و ابتدأ بعمل الجسر من الروضة إلى ساقية علم الدين بن زنبور، و عارضه بجسر آخر من بستان التاج إسحاق إلى ساقية ابن زنبور، و أقام أخشابا من الجهتين، وردم بينهما بالتراب و الحجر و الحلفاء، و رتب الجمال السلطانية لقطع الطين من برّ الروضة و حمله إلى وسط الجسر، و أمر أن لا يبقى بالقاهرة و مصر صانع إلا حضر العمل، و ألزم من كان بالقرب من داره كوم تراب أن ينقله إلى الجسر، فغرم كل واحد من الناس فى نقل التراب من ألف درهم درهم إلى خمسمائة درهم، و كان كلّ ما ينقل فى المراكب من الحجر و غيره يرمى فى وسط جسر المقياس، و تحمله الجمال إلى الجسر، ثم اقتضى الرأى حفر خليج يجرى الماء فيه عند زيادة النيل لتضعف قوّة التيار عن الجسر، فأحضرت الأبقار و الجراريف و الرجال لأجل ذلك، و ابتدؤوا حفره من رأس موردة الحلفاء تحت الدور إلى بولاق، و كانت الزيادة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۸

قد قرب أوانها فما انتهى الحفر حتى زاد ماء النيل و جرى فيه، فسرّ الناس به سرورا كبيرا، و انتهى عمل الجسر فى أربعة أشهر.

إلا أنّ الشناعة قويت على الوزير، و بلّغ الأمراء النائب ما يقال عن منجك من كثرة جباية الأموال، فحدّثه فى ذلك و منعه، فاعتذر بأنه لم يسخر أحدا و لا استعمل الناس إلّا بالأجرة، و أن فى هذا العمل للناس عدّة منافع، و ما علىّ من قول أصحاب الأغراض الفاسدة، و نحو ذلك، و تمادى على ما هو عليه، فلما جرى الماء فى الخليج الذى حفر تحت البيوت من موردة الحلفاء إلى بولاق، مرّت فيه المراكب بالناس للفرجة، و احتاج منجك إلى نقل خيمته من برّ الروضة إلى برّ الجيزة، و أحضر المراكب الكبار و ملأها بالحجارة، و غرّق منها عشرة مراكب فى البحر، و ردم التراب عليها إلى أن كمل نحو ثلثى العمل، فقويت زيادة الماء و بطل العمل.

فلما كثرت الزيادة جمع منجك الحرافيش و الأسرى، و ردم على الجسر التراب و قوّاه، فتحامل الماء عن البرّ الغربيّ إلى البرّ الشرقيّ و مرّ من تحت الميدان السلطانيّ و زريبة قوصون إلى بولاق، فصار معظمه من هذه المواضع، و حصل الغرض بكون الماء بالقرب من القاهرة، و انتهى طول جسر منجك إلى مائتين و تسعين قصبة فى عرض ثمان قصبات، و ارتفاع أربع قصبات، و الجسر الذى من الروضة إلى المقياس طوله مائتان و ثلاثون قصبة، و عدّة ما رمى فى هذا العمل من المراكب المشحونة بالحجر اثنا عشر ألف مركب سوى التراب. و غير ذلك، و كان ابتداء العمل فى مستهل المحرّم و انتهاؤه فى سلخ ربيع الآخر، و لم تنحصر الأموال التى جبيت بسببه، فإنه لم يبق بالقاهرة و مصر دار و لا فندق و لا حمّام و لا طاحون و لا وقف جامع أو مدرسة أو مسجد أو زاوية و لا رزقة و لا كنيسة إلّا وجبى منه، فكان الرجل الواحد يغرم العشرة دراهم، و من خصه درهمان يحتاج إلى غرامة أمثالهما و أضعافهما، و ناهيك بمال يجبى من الديار المصرية على هذا الحكم كثرة، و قد بقيت من جسر منجك هذا بقية هى معروفة اليوم فى طرف الجزيرة الوسطى.

جسر الخليلى: هذا الجسر فيما بين الروضة من طرفها البحرىّ و بين جزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطى، تجاه الخور، و كان سبب عمله أن النيل لما قوى رمى تياره على برّ القاهرة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون، و قام فى عمل الجسر ليصير رمى التيار من جهة البرّ الغربيّ كما تقدّم ذكره، انطرد الماء عن برّ القاهرة و انكشف ما تحت الدور من منشأة المهرانيّ إلى منية الشيرج، و عمل منجك الجسر الذى مرّ ذكره ليعود الماء فى طول السنة إلى برّ القاهرة، فلم يتهيأ كما كان أوّلا، و جرى فى الخليج الذى احتفره تحت الدور من موردة الحلفاء بمصر إلى بولاق، و صار تجاه هذا الخليج جزيرة، و الماء لا يزال ينطرد فى كلّ سنة عن برّ القاهرة إلى أن استبدّ بتدبير مصر الأمير الكبير برقوق.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۲۹۹

فلما دخلت سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، قصد الأمير جهاركس الخليلىّ عمل جسر ليعود الماء إلى برّ القاهرة و يصير فى طول السنة هناك، و يكثر النفع به فيرخص الماء المحمول فى الروايا و يقرب مرسى المراكب من البلد و غير ذلك من وجوه النفع، فشرع فى العمل أوّل شهر ربيع الأوّل، و أقام الخوازيق من خشب السنط، طول كلّ خازوق منها ثمانية أذرع، و جعلها صفين فى طول ثلاثمائة قصبة و عرض عشر قصبات، و سمر فيها أفلاق النخل الممتدّة، و ألقى بين الخوازيق ترابا كثيرا، و انتصب هناك بنفسه و مماليكه، و لم يجب من أحد مالا البتة، فانتهى عمله فى أخريات شهر ربيع الآخر، و حفر فى وسط البحر خليجا من الجسر إلى زريبة قوصون، و قال شعراء العصر فى ذلك شعرا كثيرا، منهم عيسى بن حجاج:

جسر الخليلىّ المقرّ لقد رساكالطود وسط النيل كيف يريد

فإذا سألتم عنهما قلنا لكمذا ثابت دهرا و ذاك يزيد

و قال الأديب شهاب الدين أحمد بن العطار:

شكت النيل أرضهللخليلى فأحصره

و رأى الماء خائفاأن يطاها فجسره

و قال:

رأى الخليلىّ قلب الماء حين طغىبنى على قلبه جسرا و حيّره

رأى ترمّل أرضيه و وحدتهاو النيل قد خاف يغشاها فجسّره

و مع ذلك ما ازداد الماء إلّا انطرادا عن برّ القاهرة و مصر، حتى لقد انكشف بعد عمل هذا الجسر شىء كثير من الأراضى التى كانت عامرة بماء النيل، و بعد النيل عن القاهرة بعدا لم يعهد فى الإسلام مثله قط.

جسر شيبين: أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، بسبب أنّ أقليم الشرقية كانت له سدود كلها

موقوفة على فتح بحر أبى المنجا، و فى بعض السنين تشرّق ناحية شيبين و ناحية مرصفا و غير ذلك من النواحى التى أراضيها عالية، فشكا الأمير بشتاك من تشريق بعض بلاده التى فى تلك النواحى، فركب السلطان من قلعة الجبل و معه المهندسون و خولة البلاد، و كانت له معرفة بأمور العمائر، و حدس جيد، و نظر سعيد و رأى مصيب، فسار لكشف تلك النواحى حتى اتفق الرأى على عمل الجسر من عند شيبين القصر إلى بنها العسل، فوقع الشروع فى عمله و جمع له من رجال البلاد اثنى عشر ألف رجل، و مائتى قطعة جرّافة، و أقام فيه القناطر فصار محبسا لتلك البلاد، و إذا فتح بحر أبى المنجا امتلأت الاملاق بالماء، و أسند على هذا الجسر، و فى أوّل سنة عمل هذا الجسر أبطل فتح بحر أبى المنجا تلك السنة، فتح من جسر شيبين هذا، و حصل هذا الجسر نفع كبير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۰

لبلاد العلو، و استبحر منه عدّة بلاد وطيئة، و العمل على هذا الجسر إلى يومنا هذا. و اللّه أعلم.

جسرا مصر و الجيزة: اعلم أن الماء فى القديم كان محيطا بجزيرة مصر التى تعرف اليوم بالروضة طول السنة، و كان فيما بين ساحل مصر و بين الروضة جسر من خشب، و كذلك فيما بين الروضة و برّ الجيزة جسر من خشب يمرّ عليهما الناس و الدواب، من مصر إلى الروضة، و من الروضة إلى الجيزة، و كان هذان الجسران من مراكب مصطفة بعضها بحذاء بعض و هى موثقة، و من فوق المراكب أخشاب ممتدّة فوقها تراب، و كان عرض الجسر ثلاث قصبات.

قال القضاعىّ: و أما الجسر فقال بعضهم رأيت فى كتاب، ذكر أنه خط أبى عبد اللّه بن فضالة، صفة الجسر و تعطيلة و إزالته، و أنه لم يزل قائما إلى أن قدم المأمون مصر، و كان غريبا، ثم أحدث المأمون هذا الجسر الموجود اليوم الذى تمرّ عليه المارّة و ترجع من الجسر القديم، فبعد أن خرج المأمون عن البلد أتت ريح عاصفة فقطعت الجسر الغربىّ، فصدمت سفنه الجسر المحدث، فذهبا جميعا، فبطل الجسر القديم و أثبت الجديد، و معالم الجسر القديم معروفة إلى هذه الغاية.

و قال ابن زولاق فى كتاب إتمام أمراء مصر: و لعشر خلون من شعبان سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة سارت العساكر لقتال القائد جوهر، و نزلوا الجزيرة بالرجال و السلاح و العدّة، و ضبطوا الجسرين، و ذكر ما كان منهم إلى أن قال فى عبور جوهر: أقبلت العساكر فعبرت الجسر أفواجا أفواجا، و أقبل جوهر فى فرسانه إلى المناخ موضع القاهرة. و قال فى كتاب سيرة المعز لدين اللّه: و فى مستهلّ رجب سنة أربع و ستين و ثلاثمائة صلح جسر الفسطاط، و منع الناس من ركوبه، و كان قد أقام سنين معطلا. و قال ابن سعيد فى كتاب المغرب: و ذكر ابن حوقل الجسر الذى يكون ممتدّا من الفسطاط إلى الجزيرة، و هو غير طويل، و من الجانب الآخر إلى البرّ الغربىّ، المعروف ببرّ الجيزة، جسر آخر من الجزيرة إليه، و أكثر جواز الناس بأنفسهم و دوابهم فى المراكب، لأنّ هذين الجسرين قد احترما بحصولهما فى حيز قلعة السلطان، و لا يجوز أحد على الجسر الذى بين الفسطاط و الجزيرة راكبا احتراما لموضع السلطان، يعنى الملك الصالح نجم الدين أيوب، و كان رأس هذا الجسر الذى ذكره ابن سعيد حيث المدرسة الخرّوبية، من إنشاء البدر أحمد بن محمد الخرّوبىّ التاجر، على ساحل مصر قبلىّ خط دار النحاس، و ما برح هذا الجسر إلى أن خرّب الملك المعز ايبك التركمانىّ قلعة الروضة، بعد سنة ثمان و أربعين و ستمائة، فأهمل.

ثم عمره الملك الظاهر ركن الدين بيبرس على المراكب، و عمله من ساحل مصر إلى الروضة، و من الروضة إلى الجيزة، لأجل عبور العسكر عليه لما بلغه حركة الفرنج، فعمل ذلك.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۱

الجسر من قليوب إلى دمياط: هذا الجسر أنشأه السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصورىّ، المعروف بالجاشنكير، فى أخريات سنة ثمان و سبعمائة، و كان من خبره: أنه ورد القصاد بموافقة صاحب قبرس عدّة من ملوك الفرنج على غزو دمياط، و أنهم أخذوا ستين قطعة، فاجتمع الأمراء و اتفقوا على إنشاء جسر من القاهرة إلى دمياط خوفا من حركة الفرنج فى أيام النيل، فيتعذر الوصول إلى دمياط، و عين لعمل ذلك الأمير أقوش الورمىّ الحسامىّ، و كتب الأمراء إلى بلادهم بخروج الرجال و الأبقار، و رسم

للولاة بمساعدة أقوش، و أن يخرج كلّ وال إلى العمل برجال عمله و أبقارهم، فما وصل أقوش إلى ناحية فارسكور حتى وجد ولاة الأعمال قد حضروا بالرجال و الأبقار، فرتب الأمور. فعمل فيه ثلاثمائة جرّافة بستمائة رأس بقر، و ثلاثين ألف رجل، و أقام أقوش الحرمة، و كان عبوسا قليل الكلام مهابا إلى الغاية، فجدّ الناس فى العمل لكثرة من ضربه بالمقارع، أو خزم أنفه، أو قطع أذنه، أو أخرق به، إلى أن فرغ فى نحو شهر واحد، فجاء من قليوب إلى دمياط مسافة يومين فى عرض أربع قصبات من أعلاه، و ست قصبات من أسفله، و مشى عليه ستة رؤوس من الخيل صفا واحدا، فعمّ النفع به و سلك عليه المسافرون بعد ما كان يتعذر السلوك أيام النيل، لعموم الماء الأراضى. و اللّه تعالى أعلم.

و قد وجد بخط المصنف رحمه اللّه فى أصله هنا ما صورته

أمراء الغرب ببيروت بيت حشمة و مكارم، و مقامهم بجبال الغرب من بلاد بيروت، و لهم خدم على الناس و تفضيل، و هم ينسبون إلى الحسين بن إسحاق بن محمد التنوخىّ الذى مدحه أبو الطيب المتنبى بقوله:

سدوا بابن إسحاق الحسين فصافحتو قاربها كيزانها و النّمارق

ثم كان كرامة بن بجير بن علىّ بن إبراهيم بن الحسين بن إسحاق بن محمد التنوخىّ، فهاجر إلى الملك العادل نور الدين الشهيد محمود بن زنكى، فأقطعه الغرب و ما معه بإمرته، فسمّى أمير الغرب، و كان منشوره بخط العماد الأصفهانىّ الكاتب، فتحضر الأمير كرامة بعد البداوة، و سكن حصن بلجمور من نواحى إقطاعه، و يعلو على تل أعمال بغير بناء، ثم أنشأ أولاده هناك حصنا و ما زالوا به، و كان كرامة ثقيلا على صاحب بيروت، و ذلك أيام الفرنج، فأراد أخذه مرارا فلم يجد إليه سبيلا، فأخذ فى الحيلة عليه، و هادن أولاده و سألهم حتى نزلوا إلى الساحل و ألفوا الصيد بالطير و غيره، فراسلهم حتى صار يصطاد معهم و أكرمهم و حباهم و كساهم، و ما زال يستدرجهم مرّة بعد، مرّة، ثم أخرج ابنه معه و هو شاب و قال:

قد عزمت على زواجه، ثم دعا ملوك الساحل و أولاد كرامة الثلاثة، فأتوه و تأخر أصغر أولاد كرامة مع أمّه بالحصن فى عدّة قليلة، فامتلأ الساحل بالشوانى و المدينة بالفرنج، و تلقوهم بالشمع و الأغانى، فلما صاروا فى القلعة و جلسوا مع الملوك غدر بهم و أمسكهم و أمسك غلمانهم و غرّقهم، و ركب بجموعه ليلا إلى الحصن، فأجفل الفلاحون و الحريم و الصبيان إلى الجبال و الشعر و الكوف، و بلغ من بالحصن أن أولاد كرامة الثلاثة قد غرقوا، ففتحوه و خرجت أمّهم و معها ابنها حجى بن كرامة و عمره سبع سنين، و لم يبق من بينهم سواه، فأدرك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب و توجه إليه، لما فتح صيدا و بيروت، و باس رجله فى ركابه، فلمس بيده رأسه و قال له: أخذنا ناركَ، طيّب قلبكَ، انت مكان أبيكَ.

و أمر له بكتابة أملاك أبيه بستين فارسا.

فلما كانت أيام المنصور قلاون، ذكر أولاد تغلب بن مسعر الشجاعىّ أن بيد الخليفة أملا كاعظيمة بغير استحقاق، و من جملتهم أمراء الغرب، فحملوا إلى مصر، و رسم السلطان باقطاع أملاكَ الجبلية مع بلاد طرابلس لأمرائها و جندها، فأقطعت لعشرين فارسا من طرابلس، فلما كانت أيام الأشرف خليل بن قلاون، قدموا مصر و سألوا أن يخدموا على أملاكهم بالعدّة، فرسم لهم و أن يزيدوها عشرة أرماح، فلما كان الروك الناصرىّ و نيابة الأمير تنكر بالشام، و ولاية علاء الدين بن سعيد، كشف تلك الجهات، رسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون أن يستمرّ عليها بستين فارسا، فاستمرّت على ذلك. ثم كان منهم الأمير ناصر الدين الحسين بن خضر بن محمد بن حجى بن كرامة بن بجير بن علىّ، المعروف بابن أمير الغرب، فكثرت مكارمه و إحسانه و خدمته كلّ من يتوجه إلى تلك الناحية، و كانت إقامته بقرية أعبية بالجبل، و له دار حسنة فى بيروت، و اتصلت خدمته إلى كل غادورائح، و باد الأكابر و الأعيان مع رياسة كبيرة و معرفة عدّة صنائع يتقنها، و كتابة جيدة، و ترسل عدّة قصائد، و مولده فى محرّم سنة ثمان و ستين و ستمائة،

و توفى للنصف من شوال سنة إحدى و خمسين و سبعمائة. انتهى.

و وجد بخطه أيضا من أخبار اليمن ما مثاله: كان ابتداء دولة بنى زياد، أن محمد بن إبراهيم بن عبد اللّه بن زياد سلمه المأمون مع عدّة من بنى أمية إلى الفضل بن سهل بن ذى الرياستين، فورد على المأمون اختلال اليمن، فثنى الفضل على محمد هذا، فبعثه المأمون أميرا على اليمن، فحج و مضى إلى اليمن، و نتج بها من بعد محاربته العرب، و ملك اليمن و بنى مدينة زبيد فى سنة ثلاث و مائتين، و بعث مولاه جعفرا بهدية جليلة إلى المأمون فى سنة خمس، و عاد إليه فى سنة ست و معه من جهة المأمون ألفا فارس، فقوى ابن زياد و ملك جميع اليمن، و قلد جعفر الجبال، و بنى بها مدينة الدمجرة، فظهرت كفاءة جعفر لكثرة دهائه، فقتله ابن زياد، ثم مات محمد بن زياد، فملك بعده ابنه إبراهيم، ثم ملك بعده ابنه أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم، و طالت مدّته و مات سنة إحدى و سبعين و ثلاثمائة و ترك طفلا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۳

اسمه زياد، فأقيم بعده و كفلته أخته هند ابنة إسحاق، و تولى معها رشد عبد أبى الجيش حتى مات، فولى بعد رشد عبده حسين بن سلامة، و كان عفيفا، فوزر لهند و لأخيها حتى ماتا، ثم انتقل الملك إلى طفل من آل زياد، و قام بأمره عمته و عبد الحسين بن سلامة اسمه مرجان، و كان لمرجان عبدان قد تغلبا على أمره يقال لأحدهما قيس و للآخر نجاح، فتنافسا على الوزارة، و كان قيس عسوفا، و نجاح رقيقا، و كان مرجان سيدهما يميل إلى قيس، و عمة الطفل تميل إلى نجاح، فشكا قيس ذلك إلى مرجان، فقبض على الملك الطفل إبراهيم و على عمته تملك، فبنى قيس عليهما جدارا، فكان إبراهيم آخر ملوك اليمن من آل زياد، و كان القبض عليه و على عمته سنة سبع و أربعمائة، فكانت مدّة بنى زياد مائتى سنة و أربعا و ستين سنة، فعظم قتل إبراهيم و عمته تملك على نجاح و جمع الناس، و حارب قيسا بزبيد حتى قتل قيس، و ملك نجاح المدينة فى ذى القعدة سنة اثنتى عشرة، و قال لسيده مرجان: ما فعلت بموالينا؟ فقال: هم فى ذلك الجدار، فأخرجهما و صلى عليهما و دفنهما و بنى عليهما مسجدا، و جعل سيده مرجان موضعهما فى الجدار، و وضع معه جثة قيس و بنى عليهما الجدار، و استبدّ نجاح بمملكة اليمن، و ركب بالمظلة و ضربت السكة باسمه، و نجاح مولى مرجان، و مرجان مولى حسين بن سلامة، و حسين مولى رشد، و رشد مولى بنى زياد، و لم يزل نجاح ملكا حتى مات سنة اثنتين و خمسين و أربعمائة، سمته جارية أهداها إليه الصليحىّ و ترك من الأولاد عدّة.

فملك منهم سعيد الأحوال و إخوته عدّة سنين حتى استولى عليهم الصليحىّ فهربوا إلى دهلك، ثم قدم منهم جياش بن نجاح إلى زبيد متنكرا، و أخذ منها وديعة و عاد إلى دهلك، فقدمها أخوه سعيد الأحوق بعد ذلك و اختفى بها، و استدعى أخاه جياشا و سارا فى سبعين رجلا يوم التاسع من ذى القعدة سنة ثلاث و سبعين، و قصدوا الصليحىّ و قد سار إلى الحج، فوافوه عند بئر أمّ معبد و قتلوه فى ثانى عشرى ذى القعدة المذكور، و قتل معه ابنه عبد اللّه، و احتز سعيد رأسيهما، و احتاط على امرأته أسماء بنت شهاب، و عاد إلى زبيد و معه أخوه جياش و الرأسان بين أيديهما على هودج أسماء، و ملك اليمن، فجمع المكرم ابن أسماء فى سنة خمس و سبعين و سار من الجبال إلى زبيد و قاتل سعيدا، ففرّ سعيد، و ملك المكرم و اسمه أحمد، و أنزل رأس الصليحىّ و أخيه و دفنهما، و ولى زبيد خاله أسعد بن شهاب، و ماتت أسماء أمّه بعد ذلك فى صنعاء سنة سبع و سبعين.

ثم عاد ابنا نجاح إلى زبيد و ملكاها فى سنة تسع و سبعين، ففرّ أسعد بن سهاب، ثم غلبهما أحمد المكرم بن علىّ الصليحىّ، و قتل سعيد بن نجاح فى سنة إحدى و ثمانين، و فرّ أخوه جياش إلى الهند، ثم عاد و ملك زبيد فى سنة إحدى و ثمانين المذكورة، فولدت له جاريته الهندية ابنه الفاتك بن جياش، و بقى المكرم فى الجبال يغير على بلاد جياش، و جياش يملك تهامة حتى مات آخر سنة ثمان و تسعين، فملك بعده ابنه فاتك، و خالف عليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۴

أخوه إبراهيم، و مات فاتك سنة ثلاث و خمسمائة، فملك بعده ابنه منصور بن فاتك، و هو صغير فثار عليه عمه إبراهيم فلم يظفر، و

ثار بزبيد عبد الواحد بن جياش و ملكها، فسار إليه عبد فاتك و استعادها، ثم مات منصور و ملك بعده ابنه فاتك بن منصور، ثم ملك بعده ابن عمه فاتك بن محمد بن فاتك بن جياش فى سنة إحدى و ثلاثين و خمسمائة، حتى قتل سنة ثلاث و خمسين و خمسمائة، و هو آخر ملوك بنى نجاح، فتغلب على اليمن علىّ بن مهدىّ فى سنة أربع و خمسين.

و أما الصليحىّ: فإنه علىّ بن القاضى محمد بن على، كان أبوه فى طاعته أربعون ألفا فأخذ ابنه التشيع عن عامر بن عبد اللّه الرواحىّ، أحد دعاة المستضىء، و صحبه حتى مات، و قد أسند إليه أمر الدعوة، فقام بها و صار دليلا لحاج اليمن عدّة سنين، ثم ترك الدلالة فى سنة تسع و عشرين و أربعمائة، و صعد رأس جبل مسار فى ستين رجلا، و جمع حتى ملك اليمن فى سنة خمس و خمسين، و أقام على زبيد أسعد بن شهاب بن علىّ الصليحىّ، و هو أخو زوجته و ابن عمه، ثم انه حج فقتله بنو نجاح فى ذى القعدة سنة ثلاث و سبعين، و استقرّت التهائم لبنى نجاح، و استقرّت صنعاء لأحمد بن علىّ الصليحىّ المقتول، و تلقب بالملك المكرم. ثم جمع و قصد سعيد بن نجاح بزبيد و قاتله و هزمه إلى دهلك، و ملك زبيد فى سنة خمس و سبعين، فعاد سعيد و ملك زبيد فى سنة تسع و سبعين، فأتاه المكرم فقتله فى سنة إحدى و ثمانين، فملك جياش أخو سعيد و مات المكرم بصنعاء سنة أربعة و ثمانين، فملك بعده أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر بن علىّ الصليحىّ فى سنة أربع و ثمانين حتى مات سنة خمس و تسعين، و هو آخر الصليحيين، فملك بعده علىّ بن إبراهيم بن نجيب الدولة، فقدم من مصر إلى جبال اليمن فى سنة ثلاث عشرة و خمسمائة، و قام بأمر الدعوة و المملكة التى كانت بيد سبأ، ثم قبض عليه بأمر الخليفة الآمر بأحكام اللّه الفاطمىّ بعد سنة عشرين و خمسمائة، و انتقل الملك و الدعوة إلى الزريع بن عباس بن المكرم، و آل الزريع من إل عدن، و هم من حمدان، ثم من جشم، و بنوا المكرم يعرفون بآل الذنب. و كانت عدن للزريع بن عباس و أحمد بن مسعود بن المكرم، فقتلا على زبيد، و ولى بعدهما ولداهما أبو السعود بن زريع و أبو الغارات بن مسعود، ثم استولى على الملك و الدعوة سبأ بن أبى السعود بن زريع حتى مات سنة ثلاث و ثلاثين و خمسمائة، فولى بعده ولده الأعز علىّ بن سبأ، و كان مقامه بالرمادة، فمات بالسل، و ملك أخوه المعظم محمد فى سنة ثمان و ثلاثين.

و ولى من الصليحيين أيضا المملكة السيدة سنة بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحىّ، زوجة أحمد المكرم، و لقبت بالحرّز، و مولدها سنة أربعين و أربعمائة، و ربتها أسماء بنت شهاب، و تزوّجها الملك المكرم أحمد بن أسماء، و هو ابن على الصليحىّ، سنة إحدى و ستين، و ولاها الأمر فى حياته، فقامت بتدبير المملكة و الحروب، و أقبل زوجها على لذاته حتى مات، و تولى ابن عمه سبأ، فاستمرّت فى الملك حتى مات سبأ، و تولى ابن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۵

نجيب الدولة حتى ماتت سنة اثنتين و ثلاثين و خمسمائة، و شاركه فى الملك المفضل أبو البركات بن الوليد الحميرىّ، و كان يحكم بين يدى الملكة الحرّة، و هى من وراء الحجاب، و مات المفضل فى رمضان سنة أربع و ثلاثين و خمسمائة، و ملك بلاده ابنه الملك المنصور، و منصور بن المفضل، حتى ابتاع منه محمد بن سبأ بن أبى السعود معاقل الصليحيين، و عدّتها ثمانية و عشرون حصنا بمائة ألف دينار، فى سنة سبع و أربعين و خمسمائة، و بقى المنصور بعد حتى مات بعد ما ملك نحو ثمانين سنة.

و أما علىّ بن مهدىّ: فإنه حميرىّ من سواحل زبيد، كان أبوه مهدىّ رجلا صالحا، و نشأ ابنه على طريقة حسنة، و حج و وعظ، و كان فصيحا حسن الصوت عالما بالتفسير و غيره، يتحدّث بالمغيبات فتكون كما يقول، و له عدّة أتباع كثيرة و جموع عديدة، ثم قصد الجبال و أقام بها إلى سنة إحدى و أربعين و خمسمائة، ثم عاد إلى أملاكه و وعظ، ثم عاد إلى الجبال و دعا إلى نفسه فأجابه بطن من خولان فسماهم الأنصارى، و سمّى من صعد معه من تهامة المهاجرين، و ولّى على خولان سبأ، و على المهاجرين رجلا آخر، و سمّى كلا منهما شيخ الإسلام، و جعلهما نقيبين على طائفتيهما فلا يخاطبه أحد غيرهما و هما يوصلان كلامه إلى من تحت أيديهما، و أخذ يغادى الغارات و يراوحها على التهائم حتى أجلى البوادى، ثم حاصر زبيد حتى قتل فاتك بن محمد آخر ملوك بنى نجاح، فحارب ابن مهدىّ عبد فاتك حتى غلبهم و ملك زبيد يوم الجمعة رابع عشر رجب سنة أربع و خمسين و خمسمائة، فبقى على الملك شهرين

و أحدا و عشرين يوما و مات.

فملك بعده ابنه مهدىّ ثم عبد الغنىّ بن مهدىّ، و خرجت المملكة عن عبد الغنىّ إلى أخيه عبد اللّه، ثم عادت إلى عبد الغنىّ، و استقرّ حتى سار إليه توران شاه بن أيوب من مصر فى سنة تسع و ستين و خمسمائة و فتح اليمن و أسر عبد الغنىّ، و هو آخر ملوك بنى مهدىّ، يكفر بالمعاصى و يقتل من يخالف اعتقاده و يستبيح وطء نسائهم و استرقاق أولادهم، و كان حنفى الفروع، و لأصحابه فيه غلوّ زائد، و من مذهبه قتل من شرب الخمر و من سمع الغناء.

ثم ملك توران شاه بن أيوب عدن من ياسر، و ملك بلاد اليمن كلها و استقرّت فى ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و عاد شمس الدولة توازن شاه بن أيوب إلى مصر فى شعبان سنة ست و سبعين، و استخلف على عدم عز الدين عثمان بن الزنجيلى، و على زبيد حطان بن كليل بن منقد الكافى، فمات شمس الدولة بالإسكندرية، فاختلف نوّابه، فبعث السلطان صلاح الدين يوسف جيشا فاستولى على اليمن، ثم بعث فى سنة ثمان و سبعين أخاه سيف الإسلام ظهير الدين طفتكين بن أيوب، فقدم إليها و قبض على حطان بن كليل بن منقد و أخذ أمواله و فيها سبعون غلاف زردية مملوءة ذهبا عينا، و سجنه فكان آخر العهد به، و نجا عثمان بن الزنجيلىّ بأمواله إلى الشام فظفر بها سيف الإسلام، و صفت له

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۶

مملكة اليمن حتى مات بها فى شوال سنة ثلاث و تسعين. فأقيم بعده ابنه الملك المعز اسماعيل بن طفتكين بن أيوب، فجعظ و ادّعى أنه أموىّ، و خطب لنفسه بالخلافة و عمل طول كمه عشرين ذراعا، فثار عليه مماليكه و قتلوه فى سنة تسع و تسعين، و أقاموا بعده أخاه الناصر، و مات بعد أربع سنين فقام من بعده زوج أمّه غازى بن حزيل أحد الأمراء، فقتله جماعة من العرب، و بقى اليمن بغير سلطان، فتغلبت أمّ الناصر على زبيد، فقدم سليمان بن سعد الدين شاهنشاه بن أيوب إلى اليمن، فعبر يحمل ركوته على كتفه فملكته أم الناصر البلاد و تزوّجت به، فاشتدّ ظلمه و عتوّه إلى أن قدم الملك المسعود أقسيس بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب من مصر فى سنة اثنتى عشرة و ستمائة، فقبض عليه و حمله إلى مصر فأجرى له الكامل ما يقوم به إلى أن استشهد على المنصورة سنة سبع و أربعين و ستمائة، و أقام المسعود باليمن و حج ملك مكة أيضا فى شهر ربيع الأوّل سنة عشرين و ستمائة، و عاد إلى اليمن ثم خرج عنها و استخلف عليها استاداره علىّ بن رسول، فمات بمكة سنة ست و عشرين، فقام علىّ بن رسول على ملك اليمن حتى مات فى سنة تسع و عشرين، و استقرّ عوضه ابنه عمر بن علىّ بن رسول و تلقب بالمنصور حتى قتل سنة ثمان و أربعين، و استقرّ بعده ابنه المظفر يوسف بن عمر بن علىّ بن رسول و صفا له اليمن و طالت أيامه انتهى ما ذكره المصنف بخطه فى تاريخه، عفا اللّه عنه و أرضاه و جعل الجنة مقرّه و مثواه.

و وجد بخطه أيضا ما مثاله: السلطان محمد بن طغلق شاه، و طغلق يلقب غياث الدين، و هو مملوك السلطان علاء الدين محمود بن شهاب الدين مسعود ملك الهند، مقرّ ملكه مدينة دهلى و جميع البلاد برّا و بحرا بيده، إلّا الجزائر المغلغلة فى البحر، و أما الساحل فلم يبق منه قيد شبر إلا و هو بيده، و أوّل ما فتح مملكة تكنك، عدّة قراها مائة ألف قرية و تسعمائة قرية، فتح بلاد حاجنكيز، و بها سبعون مدينة جليلة كلها بنادر على البحر، فتح بلاد لنكوتى و هى كرسىّ تسعة ملوك، ثم فتح بلاد دواكير و بها أربع و ثمانون قلعة كلها جليلات المقدار، و بها ألف ألف قرية و مائتا ألف قرية، ثم فتح بلاد و رسمند و كان بها ستة ملوك، ثم فتح بلاد المعبر و هم أقليم جليل له سبعون مدينة بنادر على البحر، و جملة ما بيده ثلاثة و عشرون إقليما، و هى: أقليم دهلى، و أقليم الدواكير، و إقليم الملثان، و إقليم كهران، و إقليم سامان، و إقليم سوستان، و إقليم وجا، و إقليم هاسى، و إقليم سرسينى، و إقليم المعبر، و إقليم تكنك كحرات، و إقليم بداون، و إقليم عوض، و إقليم التيوج، و إقليم لنكوتى، و إقليم بهار، و إقليك كره، و إقليم ملاوه، و إقليم بهادر، و إقليم كلافور، و إقليم حاجنكيز، و إقليم بليخ، و إقليم و رسمند. و هذه الأقاليم تشتمل على ألف مدينة، و مائتى مدينة دهلى دور عمرانها أربعون ميلا، و جملة ما يطلق عليه اسم دهلى إحدى و عشرون مدينة، و فى دهلى ألف مدرسة كلها للحنفية إلّا واحدة فإنها للشافعية،

و نحو سبعين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۷

مارستان، و فى بلادها من الخوانك و الربط نحو ألفين، و بها جامع ارتفاع مئذنته ستمائة ذراع فى الهواء، و للسلطان خدمة مرّتين فى كلّ يوم بكرة و بعد العصر، و رتب الأمراء على هذه الأنواع، أعلاهم قدرا الخانات ثم الملوك ثم الأمراء ثم الأسفهسلارية ثم اجلند، و فى خدمته ثمانون خانا، و عسكره تسعمائة ألف فارس، و له ثلاثة آلاف فيل تلبس فى الحروب البرك اصطونات الحديد المذهب، و تلبس فى أيام السلم جلال الديباج و أنواع الحرير و تزين بالقصور و الأسرّة المصفحة و يشدّ عليها بروج الخشب يركب فيها الرجال للحرب، فيكون على الفيل من عشرة رجال إلى ستة، و له عشرون ألف مملوك أتراك، و عشرة آلاف خادم خصىّ، و ألف خازندار، و ألف مشبقدار، و مائتا ألف عبد ركابية تلبس السلاح و تمشى بركابه و تقاتل رجالة بين يديه، و الاسفهسلارية لا يؤهل منهم أحد لقرب السلطان، و إنما يكون منهم نوع الولاة، و الخان يكون له عشرة آلاف فارس، و للملك ألف، و للأمير مائة فارس، و للاسفسلار دون ذلك، و لكلّ خان عبرة لكّين كلّ لك مائة ألف تنكة، كلّ تنكة ثمانية دراهم، و لكلّ ملك من ستين ألف تنكة إلى خمسين ألف تنكة، و لكل أمير من أربعين ألف تنكة إلى ثلاثين ألف تنكة، و لكلّ اسفهسلار من عشرين ألف تنكة إلى ما حولها، و لكلّ جندىّ من عشرة آلاف تنكة إلى ألف تنكة، و لكلّ مملوك من خمسة آلاف تنكة إلى ألف تنكة، سوى طعامهم و كساويهم و عليقهم، و لكلّ عبد فى الشهر منان من الحنطة و الأرز، فى كلّ يوم ثلاثة أستار لحم و ما يحتاج إليه، و فى كلّ شهر عشر تنكات بيضاء، و فى كلّ سنة أربع كساو. و للسلطان دار طراز فيها أربعة آلاف قزّاز لعمل أنواع القماش، سوى ما يحمل له من الصين و العراق و الإسكندرية، و يفرّق كلّ سنة مائتى ألف كسوة كاملة، فى فصل الربيع مائة ألف، و فى فصل الخريف مائة ألف، ففى الربيع غالب الكسوة من عمل الإسكندرية، و فى الخريف كلها حرير من عمل دار الطراز بدهلى و قماش الصين و العراق، و يفرّق على الخوانك و الربط الكساوى، و له أربعة آلاف زركشىّ تعمل الزركش، و يفرّق كلّ سنة عشرة آلاف فرس مسرجة و غير مسرجة سوى ما يعطى الأجناد من البراذين، فإنه بلا حساب يعطى جشارات، و مع هذا فالخيل عنده غالية مطلوبة، و للسلطان نائب من الخانات يسمى ابريت، اقطاعه قدر إقليم بحر العراق، و وزير إقطاعه كذلك، و له أربعة نوّاب مسمى كلّ واحد منهم من أربعين ألف تنكة إلى عشرين ألف تنكة، و له أربعة ربيسان أى كتاب سرّ، لكلّ واحد منهم ثلاثمائة كاتب، و لكل كاتب إقليم عشرة آلاف تنكة، و لصدر جهان و هو قاضى القضاة قرى يتحصل منها نحو ستين ألف تنكة، و لصدر الإسلام و هو أكبر نوّاب القاضى، و لشيخ الإسلام و هو شيخ الشيوخ مثل ذلك، و للمحتسب ثمانية آلاف تنكة، و له ألف طبيب و مائتا طبيب، و عشرة آلاف بزدار تركب الخيل و تحمل طيور الصيد، و له ثلاثة آلاف سوّاق لتحصيل الصيد، و خمسمائة نديم، و ألفان و مائتان للملاهى سوى مماليكه، و هم ألف مملوك، و ألف شاعر باللغات العربية و الفارسية و الهندية، يجرى عليهم ديوانه،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۸

و متى غنى أحد منهم لغيره قتله، و لكلّ نديم قريتان أو قرية، و من أربعين ألف تنكة إلى ثلاثين ألف تنكة إلى عشرين ألف تنكة، سوى الخلع و الكساوى و الافتقادات، و يمدّ فى وقت كلّ خدمة فى المرتين من كلّ يوم سماط يأكل منه عشرون ألفا مثل الخانات و الملوك و الأمراء و الاسفهسلارية و أعيان الأجناد، و له طعام خاص، يأكل معه الفقهاء و عدّتهم مائتا فقيه فى الغداء و العشاء، فيأكلون و يتباحثون بين يديه، و يذبح فى مطابخه كلّ يوم ألفان و خمسمائة رأس من البقر، و ألفا رأس من الغنم، سوى الخيل و أنواع الطير، و لا يحضر مجلسه من الجند إلّا الأعيان، و من دعته ضرورة إلى الحضور، و الندماء و أرباب الأغانى يحضرون بالنوبة، و كذلك الربيسان و الأطباء و نحوهم لكلّ طائفة نوبة تحضر فيها للخدمة، و الشعراء تحضر فى العيدين و المواسم و أوّل شهر رمضان، و إذا تجدّد نصر على عدوّ أو فتوح و نحو ذلك مما يهنّى به السلطان.

و أمور الجند و العامّة مرجعها إلى ابريت، و أمر القضاة كلهم مرجعه إلى صدر جهان، و أمر الفقهاء إلى شيخ الإسلام، و أمر الواردين

و الوافدين و الأدباء و الشعراء إلى الربيسان، و هم كتاب السرّ. و جهز هذا السلطان مرّة أحد كتاب سرّه إلى السلطان أبى سعيد رسولا، و بعث معه ألف ألف تنكة ليتصدّق بها فى مشاهد العراق، و خمسمائة فرس، فقدم بغداد و قد مات أبو سعيد، و كان هذا السلطان ترعد الفرائض لمهابته و تزلزل الأرض لموكبه، يجلس بنفسه لإنصاف رعيته و لقراءة القصص عليه جلوسا عامّا، و لا يدخل أحد عليه و معه سلاح و لو السكين و يجلس، و عنده سلاح كامل لا يفارقه أبدا، و إذا ركب فى الحرب فلا يمكن وصف هيبته، و له أعلام سود فى أوساطها تبابين من ذهب تسير عن يمينه، و أعلام حمر فيها تبابين من ذهب تسير عن يساره، و معه مائتا جمل نقارات، و أربعون جملا كوسات كبارا، و عشرون بوقا، و عشرة صنوج، و يدق له خمس نوب كلّ يوم، و إذا خرج إلى الصيد كان فى جف و عدّة من معه زيادة على مائة ألف فارس و مائتى فيل و أربعة قصور خشب على ثمانمائة جمل، كلّ قصر منها على مائتى جمل كلها ملبسة حريرا مذهبا، كلّ قصر طبقتان، سوى الخيم و الجركاوات، و إذا انتقل من مكان إلى مكان للنزهة يكون معه نحو ثلاثين ألف فارس و ألف جنيب مسرجة ملجمة بالذهب المرصع بالجوهر و الياقوت، و إذا خرج فى قصره من موضع إلى آخر يمرّ راكبا و على رأسه الحبر، و السلاح دارية وراءه بأيديهم السلاح، و حوله نحو اثنا عشر ألف مملوك مشاة، لا يركب منهم إلّا حامل الحبر و السلاح دارية و الجمدارية حملة القماش، و إذا خرج للحرب أو سفر طويل حمل على رأسه سبع حبورة، منها اثنان مرصعان ليس لهما قيمة، و له فخامة عظيمة و قوانين و أوضاع جليلة، و الخانات و الملوك و الأمراء لا يركب أحد منهم فى السفر و الحضر إلّا بالأعلام، و أكثر ما يحمل الخان سبعة أعلام، و أكثر ما يحمل الأمير ثلاثة، و أكثر ما يجرّه الخان فى الحضر عشرة جنائب، و أكثر ما يجرّ الأمير فى الحضر جنيبان، و أما فى السفر فحسبما يختار.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۰۹

و كان للسلطان برّ و إحسان، و فيه تواضع، و لقد مات عنده رجل فقير فشهد جنازته و حمل نعشه على عنقه، و كان يحفظ القرآن العزيز العظيم و الهداية فى فقه الحنفية، و يجيد علم المعقول، و يكتب خطا حسنا، و لذته فى الرياضة و تأديب النفس، و يقول الشعر و يباحث العلماء و يؤاخذ الشعراء و يأخذ بأطراف الكلام على كلّ من حضر على كثرة العلماء عنده، و العلماء تحضر عنده و تفطر فى رمضان معه بتعيين صدر جهان لهم فى كلّ ليلة، و كان لا يترخص فى محذور و لا يقرّ على منكر و لا يتجاسر أحد فى بلاده أن يتظاهر بمحرّم، و كان يشدّد فى الخمر و يبالغ فى العقوبة على من يتعاطاه من المقرّبين منه، و عاقب بعض أكابر الخانات على شرب الخمر و قبض عليه و أخذ أمواله و جملتها أربعمائة ألف ألف مثقال و سبعة و ثلاثون ألف ألف مثقال ذهبا أحمر، زنتها ألف و سبعمائة قنطار بالمصرىّ، و له وجوه برّ كثيرة منها: أنه يتصدّق فى كلّ يوم بلكّين، عنهما من نقد مصر ألف و ستمائة ألف درهم، و ربما بلغت صدقته فى يوم واحد خمسين لكّا، و يتصدّق عند كلّ رؤية هلال شهر بلكين دائما، و عليه راتب لأربعين ألف فقير، كلّ واحد منهم درهم فى كلّ يوم، و خمسة أرطال برّ و أرز، و قرّر ألف فقيه فى مكاتب لتعليم الأطفال القرآن، و أجرى عليهم الأرزاق، و كان لا يدعى بدهلى سائلا بل يجرى على الجميع الأرزاق، و يبالغ فى الإحسان إلى الغرباء، و قدم عليه رسول من أبى سعيد مرّة بالسلام و التودّد، فخلع عليه و أعطاه حملا من المال، فلما أراد الانصراف أمره أن يدخل الخزانة و يأخذ ما يختار، فلم يأخذ غير مصحف، فسأله عن ذلك فقال: قد أغنانى السلطان بفضله، و لم أجد أشرف من كتاب اللّه، فزاد إعجابه به و أعطاه مالا جملته ثمانمائة تومان، و التومان عشرة آلاف دينار، و كلّ دينار ستة دراهم، تكون جملة ذلك ثمانية آلاف ألف دينار، عنها ثمانية و أربعون ألف ألف درهم.

و قصده شخص من بلاد فارس و قدّم له كتبا فى الحكمة منها كتاب الشفاء لابن سينا، فأعطاه جوهرا بعشرين ألف مثقال من الذهب، و قصده آخر من بخارى بحملى بطيخ أصفر فتلف غالبه حتى لم يبق منه إلا اثنتان و عشرون بطيخة، فأعطاه ثلاثة آلاف مثقال ذهبا، و كان قد التزم أن لا ينطق فى إطلاقاته بأقل من ثلاثة آلاف مثقال ذهبا، و بعث ثلاث لكوك ذهبا إلى بلاد ما وراء النهر ليفرّق على العلماء لكّ، و على الفقراء لكّ، و يبتاع له حوائج بلك، و بعث للبرهان الضياء عزه جى شيخ سمرقند بأربعين ألف تنكة، و كان لا

يفارق العلماء سفرا و حضرا، و منار الشرع فى أيامه قائم، و الجهاد مستمرّ، فبلغ مبلغا عظيما فى إعلاء كلمة الإيمان، فنشر الإسلام فى تلك الأقطار و هدم بيوت النيران و كسر الندود و الأصنام و اتصل به الإسلام إلى أقصى الشرق، و عمر الجوامع و المساجد، و أبطل التثويب فى الآذان و لم يخل له يوم من الأيام من بيع آلاف من الرقيق لكثرة السبى، حتى أن الجارية لا يتعدّى ثمنها بمدينة دهلى ثمان تنكات، و السرّية خمس عشرة تنكة، و العبد المراهق أربعة دراهم، و مع رخص قيمة الرقيق فإنه تبلغ قيمة الجارية الهندية عشرين ألف تنكة، لحسنها و لطف خلقها،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۰

و حفظها القرآن و كتابتها الخط، و روايتها الأشعار و الأخبار، و جودة غنائها و ضربها بالعود و لعبها بالشطرنج، و هن يتفاخرن فتقول الواحدة آخذ قلب سيدى فى ثلاثة أيام، فتقول الأخرى أنا آخذ قلبه فى يوم، فتقول الأخرى أنا أخذ قلبه فى ساعة، فتقول الأخرى أنا آخذ قلبه فى طرفة عين، و كان ينعم على جميع من فى خدمته من أرباب السيوف و الأقلام بكلّ جليل من البلاد و الأموال و الجواهر و الخيول المجللة بالذهب و غير ذلك، إلّا الفيلة فإنه لا يشاركه فيها أحد، و للثلاثة آلاف فيل راتب عظيم، فأكثرها مؤنة له فى كلّ يوم أربعون رطلا من أرز، و ستون رطلا من شعير، و عشرون رطلا من سمن، و نصف حمل من حشيش، و قيّمها جليل القدر، إقطاعه مثل إقليم العراق، و إذا وقف السلطان للحرب كان أهل العلم حوله و الرماة قدّامه و خلفه، و أمامه الفيلة كما تقدّم عليها الفيالة، و قدّامها العبيد المشاة، و الخيل فى الميمنة و الميسرة، فتهيأ له من النصر ما لا تهيأ لأحد ممن تقدّمه، ففتح الممالك و هدم قواعد الكفار و محا صور معابدهم، و أبطل فخرهم، و كان يجلس كلّ يوم ثلاثاء جلوسا عامّا على تخت مصفح بالذهب، و على رأسه حبر فى موكب عظيم، و ينادى مناديه من له شكوى فى شخص، فينظر فى ظلامات الناس، و كان لا يوجد بدهلى فى أيامه خمر البتة.

و أوّل من ملك مدينة دهلى قطب الدين أيبك، و ذلك أن شهاب الدين محمد بن سالم بن الحسين، أحد الملوك الغورية، فتح الهند بعد عدّة حروب، و أقطع مملوكه أيبك هذا مدينة دهلى، فبعث أيبك عسكرا عليه محمد بن بختيار، فأخذ إلى تخوم الصين، و ذلك كله فى سنة سبع و أربعين و خمسمائة، ثم ولى بعده ايتمش بن أيبك أربعين سنة، فقام بعده ابنه علاء الدين علىّ بن ايتمش بن أيبك، ثم أخوه معز الدين بن أيتمش، ثم أخته رضية خاتون فأقامت ثلاث سنين، ثم أخوها ناصر الدين بن ايتمش فأقام أربعا و عشرين سنة، ثم قام بعده مملوكه غياث الدين بليان سبعا و عشرين سنة، ثم بعده معز الدين نيابا خمس سنين، ثم ابنه شمس الدين كيمورس سبعة أشهر، ثم خرج الملك عن بيت السلطان شمس الدين ايتمش، و قويت التركمان العلجية و كانوا أمراء يقال للواحد منهم خان، و استبدّ كبيرهم جلال الدين فيروز سبع سنين، ثم ابن أخيه علاء الدين محمود بن شهاب مسعود اثنتين و عشرين سنة، و مات سنة خمس عشرة و سبعمائة، ثم ابنه شهاب الدين عمر بن محمود بن مسعود سنة واحدة، و لقب غياث الدين، ثم أخوه قطب الدين مبارك بن محمود أربع سنين و قتل سنة عشرين و سبعمائة، ثم علاء الدين خسر و مملوك علاء الدين محمود سبعة أشهر، و ملك غياث الدين طغلق شاه مملوك السلطان علاء الدين محمود بن مسعود فى أوّل شعبان سنة عشرين و سبعمائة، ثم ملك بعده ابنه محمد بن طغلق شاه صاحب الترجمة. هذا آخر ما وجد بخطه رحمه اللّه تعالى.

و وجد بخطه أيضا رحمه اللّه تعالى: ما أحسن قول الأديب محمد بن حسن بن شاور النقيب:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۱ مشت أيامكم لا بل نراهاجرت جريا على غير اعتياد

و ما عقدت نواصيها بخيرو لا كانت تعدّ من الجياد

بخشان: مدينة فيما وراء النهر بها معدن اللعل البدخشانىّ، و هو المسمى بالبلخش، و بها معدن اللازورد الفائق، و هما فى جبل بها يحفر عليهما فى معادنهما، فيوجد اللازورد بسهولة، و لا يوجد اللعل إلا بتعب كبير و إنفاق زائد، و قد لا يوجد بعد التعب الشديد و النفقة الكثيرة، و لهذا عز وجوده و غلت قيمته.

و أقصر ليل بلغار بالبحرين أربع ساعات و نصف، و أقصر ليل أفتكون ثلاث ساعات و نصف، فهو أقصر من ليل بلغار بساعة واحدة، و

بين بلغار و أفتكون مسافة عشرين يوما بالسير المعتاد. انتهى.

السلطانية من عراق العجم، بناها السلطان محمد خدابنده أوكانيق بن أرغون بن ابغا بن هولاكو، و خدابنده ملك بعد أخيه محمود غازان، و ملك بعد خدابنده ابنه السلطان أبو سعيد بهادر خان، و كان الشيخ حسن بن حسين بن أقبغا مع قائد السلطان محمد بن طشتمر بن استيمر بن عترجي، و مذ مات أبو سعيد لم يجمع بعده على طاعة ملك، بل تفرّقوا و قام فى كلّ ناحية قائم. انتهى.

و وجد بخطه أيضا ما نصه: و للّه در أبى إسحاق الأديب حيث قال:

إذا كنت قد أيقنت أنك هالكفمالك مما دون ذلك تشفق

و مما يشين المرء ذا الحلم أنّهيرى الأمر حتما واقعا ثم يقلق

و حيث يقول:

و من طوى الخمسين من عمرهلاقى أمورا فيه مستنكرة

و إن تخطاها رأى بعدهامن حادثات الدهر ما لم يره

انتهى ما وجد بخطه فى أصله.

ذكر الجزائر

اشارة

اعلم أن الجزائر التى هى الآن فى بحر النيل كلها حادثة فى الملة الإسلامية، ما عدا الجزيرة التى تعرف اليوم بالروضة تجاه مدينة مصر، فإن العرب لما دخلوا مع عمرو بن العاص إلى مصر، و حاصروا الحصن الذى يعرف اليوم بقصر الشمع فى مصر، حتى فتحه اللّه تعالى عنوة على المسلمين، كانت هذه الجزيرة حينئذ تجاه القصر، و لم يبلغنى إلى الآن متى حدثت، و أما غيرها من الجزائر فكلها قد تجدّدت بعد فتح مصر.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۲

و يقال و اللّه أعلم، أنّ بلهيت الذى يعرف اليوم بأبى الهول، طلسم وضعه القدماء لقلب الرمل عن برّ مصر الغربىّ الذى يعرف اليوم ببرّ الجيزة، و أنه كان فى البرّ الشرقىّ بجوار قصر الشمع صنم من حجارة على مسامتة أبى الهول، بحيث لو امتدّ خيط من رأس أبى الهول و خرج على استواء، لسقط على رأس هذا الصنم، و كان مستقبل المشرق، و أنه وضع أيضا لقلب الرمل عن البرّ الشرقىّ، فقدّر اللّه سبحانه و تعالى أن كسر هذا الصنم على يد بعض أمراء الملك الناصر محمد بن قلاون، فى سنة إحدى عشرة و سبعمائة، و حفر تحته حتى بلغ الحفر إلى الماء، ظنا أنه يكون هناك كنز، فلم يوجد شىء، و كان هذا الصنم يعرف عند أهل مصر بسريّة أبى الهول، فكان عقيب ذلك غلبة النيل على البرّ الشرقىّ، و صارت هذه الجزائر الموجودة اليوم، و كذلك قام شخص من صوفية الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر فى تغيير المنكر أعوام بضع و ثمانين و سبعمائة، فشوّه وجوه سباع الحجر التى على قناطر السباع خارج القاهرة، و شوّه وجه أبى الهول، فغلب الرمل على أراضى الجيزة، و لا ينكر ذلك، فللّه فى خليقته أسرار يطلع عليها من يشاء من عباده، و الكلّ بخلقه و تقديره.

و قد ذكر الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه فى كتاب أخبار مصر، فى خبر الواحات الداخلة، أن فى تلك الصحارى كانت أكثر مدن ملوك مصر العجيبة و كنوزهم، إلا أن الرمال غلبت عليها. قال: و لم يبق بمصر ملك إلّا و قد عمل للرمال طلسما لدفعها، ففسدت طلسماتها لقدم الزمان.

و ذكر ابن يونس عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنه قال: إنى لأعلم السنة التى تخرجون فيها من مصر، قال ابن سالم: فقلت له ما

يخرجنا منها يا أبا محمد أ عدوّ؟ قال:

لا و لكنكم يخرجكم منها نيلكم، هذا يغور فلا تبقى منه قطرة، حتى تكون فيه الكثبان من الرمل، و تأكل سباع الأرض حيتانه.

و قال الليث عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير قال: إنّ الصحابىّ حدّثه أنه سمع كعبا يقول: ستعرك العراق عرك الأديم، و تفت مصر فت البعرة. قال الليث: و حدّثنى رجل عن وهب المعافرىّ أنه قال: و تشق الشام شق الشعرة، و سأذكر من خبر هذه الجزائر المشهورة ما وصلت إلى معرفته إن شاء اللّه تعالى.

ذكر الروضة

اشارة

اعلم أنّ الروضة تطلق فى زماننا هذا على الجزيرة التى بين مدينة مصر و مدينة الجيزة، و عرفت فى أوّل الإسلام بالجزيرة، و بجزيرة مصر، ثم قيل لها جزيرة الحصن، و عرفت إلى اليوم بالروضة، و إلى هذه الجزيرة انتقل المقوقس لما فتح اللّه تعالى على المسلمين القصر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۳

و صار بها هو و من معه من جموع الروم و القبط، و بها أيضا بنى أحمد بن طولون الحصن، و بها كانت الصناعة، يعنى صناعة السفن الحربية، أى كانت بها دار الصناعة، و بها كان الجنان و المختار، و بها كان الهودج الذى بناه الخليفة الآمر بأحكام اللّه لمحبوبته البدوية، و بها بنى الملك الصالح نجم الدين أيوب القلعة الصالحية، و بها إلى اليوم مقياس النيل، و سأورد من أخبار الروضة هنا ما لا تجده مجتمعا فى غير هذا الكتاب.

قال ابن عبد الحكم و قد ذكر محاصرة المسلمين للحصن: فلما رأى القوم الجدّ من المسلمين على فتح الحصن و الحرص، و رأوا صبرهم على القتال و رغبتهم فيه، خافوا أن يظهروا عليهم، فتنحى المقوقس و جماعة من أكابر القبط و خرجوا من باب الحصن القبلىّ، و دونهم جماعة يقاتلون العرب، فلحقوا بالجزيرة موضع الصناعة اليوم و أمروا بقطع الجسر، و ذلك فى جرى النيل، و تخلف فى الحصن بعد المقوقس الأعرج، فلما خاف فتح باب الحصن خرج هو و أهل القوّة و الشرف و كانت سفنهم ملصقة بالحصن، ثم لحقوا بالمقوقس بالجزيرة.

قال: و كان بالجزيرة يعنى بعد فتح مصر فى أيام عبد العزيز بن مروان أمير مصر، خمسمائة فاعل معدّة لحريق يكون فى البلد أو هدم.

و قال القضاعىّ جزيرة فسطاط مصر. قال الكندىّ: بنيت بالجزيرة الصناعة فى سنة أربع و خمسين، و حصن الجزيرة بناه أحمد بن طولون فى سنة ثلاث و ستين و مائتين ليحرز فيه حرمه و ماله، و كان سبب ذلك مسير موسى بن بغا العراقىّ من العراق واليا على مصر، و جميع أعمال ابن طولون، و ذلك فى خلافة المعتمد على اللّه. فلما بلغ أحمد بن طولون مسيرة، استعدّ لحربه و منعه من دخول أعماله، فلما بلغ موسى بن بغا إلى الرقة تثاقل عن المسير لعظم شأن ابن طولون و قوّته، ثم عرضت لموسى علة طالت به و كان بها موته، و ثاوره الغلمان و طلبوا منه الأرزاق، و كان ذلك سبب تركه المسير، فلم يلبث موسى بن بغا أن مات و كفى ابن طولون أمره، و لم يزل هذا الحصن على الجزيرة حتى أخذه النيل شيئا بعد شىء، و قد بقيت منه بقايا متقطعة إلى الآن، و قد اختصر القاضى القضاعىّ رحمه اللّه فى ذكر سبب بناء ابن طولون حصن الجزيرة.

و قد ذكر جامع سيرة ابن طولون أن صاحب الزنج لما قدم البصرة فى سنة أربع و خمسين و مائتين، و استعجل أمره، أنفذ إليه أمير المؤمنين المعتمد على اللّه تعالى، أبو العباس أحمد ابن أمير المؤمنين، المتوكل على اللّه جعفر بن المعتصم بن الرشيد رسولا فى

حمل أخيه الموفق بالله أبى أحمد طلحة من مكة إليه، و كان الخليفة المهتدى بالله محمد بن الواثق بن المعتصم نفاه إليها، فلما وصل إليه جعل العهد بالخلافة من بعده لابنه المفوّض، و بعد المفوّض تكون الخلافة للموفق طلحة، و جعل غرب الممالك الإسلامية للمفوّض،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۴

و شرقها للموفق، و كتب بينهما بذلك كتابا ارتهن فيه أيمانهما بالوفاء بما قد وقعت عليه الشروط، و كان الموفق يحسد أخاه المعتمد على الخلافة و لا- يراه أهلا- لها، فلما جعل المعتمد الخلافة من بعده لابنه ثم للموفق بعده، شق ذلك عليه و زاد فى حقده، و كان المعتمد متشاغلا بملاذّ نفسه من الصيد و اللعب و التفرّد بجواريه، فضاعت الأمور و فسد تدبير الأحوال و فاز كلّ من كان متقلدا عملا بما تقلده، و كان فى الشروط التى كتبها المعتمد بين المفوّض و الموفق، أنه ما حدث فى عمل كلّ واحد منهما من حدث كانت النفقة عليه من مال خراج قسمه، و استخلف على قسم ابنه المفوّض موسى بن بغا، فاستكتب موسى بن بغا عبيد اللّه بن سليمان بن وهب، و انفرد الموفق بقسمه من ممالك الشرق، و تقدّم إلى كلّ منهما أن لا ينظر فى عمل الآخر، و خلد كتاب الشروط بالكعبة، و أفرد الموفق لمحاربة صاحب الزنج و أخرجه إليه و ضم معه الجيوش، فلما كبر أمره و طالت محاربته أياه، و انقطعت موادّ خراج المشرق عن الموفق، و تقاعد الناس عن حمل المال الذى كان يحمل فى كلّ عام، و احتجوا بأشياء، دعت الضرورة الموفق إلى أن كتب إلى أحمد بن طولون، و هو يومئذ أمير مصر، فى حمل ما يستعين به فى حروب صاحب الزنج، و كانت مصر فى قسم المفوّض، لأنها من الممالك الغربية، إلّا أن الموفق شكا فى كتابه إلى ابن طولون شدّة حاجته إلى المال بسبب ما هو بسبيله، و أنفذ مع الكتاب تحريرا خادم المتوكل ليقبض منه المال، فما هو إلّا أن ورد تحرير على ابن طولون بمصر، و إذا بكتاب المعتمد قد ورد عليه، يأمره فيه بحمل المال إليه على رسمه مع ما جرى الرسم بحمله مع المال فى كلّ سنة، من الطراز و الرقيق و الخيل و الشمع و غير ذلك، و كتب أيضا إلى أحمد بن طولون كتابا فى السرّ، أنّ الموفق إنما أنفذ تحريرا إليك عينا و مستقصيا على أخبارك، و أنه قد كاتب بعض أصحابك فاحترس منه و احمل المال إلينا و عجل إنفاذه، و كان تحرير لما قدم إلى مصر أنزله أحمد بن طولون معه فى داره بالميدان، و منعه من الركوب و لم يمكنه من الخروج من الدار التى أنزله بها حتى سار من مصر، و تلطف فى الكتب التى أجاب بها الموفق، و لم يزل بتحرير حتى أخذ جميع ما كان معه من الكتب التى وردت من العراق إلى مصر، و بعث معه إلى الموفق ألف ألف دينار و مائتى ألف دينار، و ما جرى الرسم بحمله من مصر، و أخرج معه العدول و سار بنفسه صحبته حتى بلغ به العريش، و أرسل إلى ماخور متولى الشام، فقدم عليه بالعريش، و سلّمه إليه هو و المال و أشهد عليه بتسليم ذلك و رجع إلى مصر، و نظر فى الكتب التى أخذها من تحرير، فإذا هى إلى جماعة من قوّاده باستمالتهم إلى الموفق، فقبض على أربابها و عاقبهم حتى هلكوا فى عقوبته، فلما وصل جواب ابن طولون إلى الموفق و معه المال، كتب إليه كتابا ثانيا يستقل فيه المال و يقول: إن الحساب يوجب أضعاف ما حملت، و بسط لسانه بالقول، و التمس فيمن معه من يخرج إلى مصر و يتقلدها عوضا عن ابن طولون فلم يجد أحدا عوضه، لما كان من كيس أحمد بن طولون و ملاطفته وجوه الدولة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۵

فلما ورد كتاب الموفق على ابن طولون قال: و أىّ حساب بينى و بينه، أو حال توجب مكاتبتى بهذا أو غيره، و كتب إليه بعد البسملة: وصل كتاب الأمير أيده اللّه تعالى و فهمته، و كان، أسعده اللّه، حقيقا بحسن التخير لمثلى و تصييره إياى عمدته التى يعتمد عليها، و سيفه الذى يصول به، و سنانه الذى يتقى الأعداء بحدّه، لأنى دائب فى ذلك و جعلته و كدى، و احتملت الكلف العظام و المؤن الثقال باستجذاب كل موصوف بشجاعة، و استدعاء كلّ منعوت بغنى و كفاية، بالتوسعة عليهم و تواصل الصلات، و المعاون لهم، صيانة لهذه الدولة و ذبا عنها، و حسما لأطماع المتشوّفين لها و المنحرفين عنها، و من كانت هذه سبيله فى الموالاة، و منهجه فى المناصحة، فهو حرىّ أن يعرف له حقه و يوفر من الإعظام قدره، و من كلّ حال جليلة حظه و منزلته، فعو ملت بضدّ ذلك من المطالبة

بحمل ما أمر به و الجفاء فى المخاطبة بغير حال توجب ذلك، ثم أكلف على الطاعة جعلا، و ألزم فى المناصحة ثمنا، و عهدى بمن أستدعى ما استدعاه الأمير من طاعته، أن يستدعيه بالبذل و الإعطاء و الإرغاب و الإرضاء و الإكرام، لا أن يكلّف و يحمل من الطاعة مؤنة و ثقلا، و إنى لا أعرف السبب الذى يوجب الوحشة و يوقعها بينى و بين الأمير أيده اللّه تعالى، و لا ثم معاملة تقتضى معاملة أو تحدث منافرة، لأن العمل الذى أنا بسبيله لغيره، و المكاتبة فى أموره إلى من سواه، و لا أنا من قبله، فإنه و الأمير جعفر المفوّض أيده اللّه تعالى، قد اقتسما الأعمال و صار لكلّ واحد منهما قسم قد انفرد به دون صاحبه، و أخذت عليه البيعة فيه أنه من نقض عهده أو أخفر ذمّته و لم يف لصاحبه بما أكد على نفسه، فالأمّة بريئة منه و من بيعته، و فى حلّ وسعة من خلفه، و الذى عاملنى به الأمير من محاولة صرفى مرّة و إسقاط رسمى أخرى، و ما يأتيه و يسومنيه ناقض لشرطه مفسد لعهده، و قد التمس أوليائى و أكثروا الطلب فى إسقاط اسمه و إزالة رسمه، فآثرت الإبقاء و إن لم يؤثره، و استعملت الأناة إذ لم تستعمل معى، و رأيت الاحتمال و الكظم أشبه بذوى المعرفة و الفهم، فصبرت نفسى على أحرّ من الجمر، و أمرّ من الصبر، و على ما لا يتسع به الصدر. و الأمير أيده اللّه تعالى أولى من أعاننى على ما أوثره من لزوم عهده، و أتوخاه من تأكيد عقده بحسن العشرة و الإنصاف و كف الأذى و المضرّة، و أن لا يضطرّنى إلى ما يعلم اللّه عزّ و جلّ كرهى له، أن أجعل ما قد أعددته لحياطة الدولة من الجيوش المتكاثفة و العساكر المتضاعفة التى قد ضرّست رجالها من الحروب و جرت عليهم محن الخطوب مصر وفا إلى نقضها، فعندنا و فى حيزنا من يرى أنه أحق بهذا الأمر و أولى من الأمير، و لو أمنونى على أنفسهم، فضلا عن أن يعثروا منى على ميل، أو قيام بنصرتهم، لاشتدّت شوكتهم و لصعب على السلطان معاركتهم، و الأمير يعلم أن بإزائه منهم واحدا قد كبر عليه و فض كلّ جيش أنهضه إليه، على أنه لا ناصر له إلّا لفيف البصرة و أوباش عامّتها، فكيف من يجدر كنا منيعا و ناصرا مطيعا، و ما مثل الأمير فى أصالة رأيه يصرف مائة ألف عنان عدّة له، فيجعلها عليه بغير ما سبب يوجب ذلك، فإن يكن من الأمير أعتاب أو رجوع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۶

إلى ما هو أشبه به و أولى، و إلّا رجوت من اللّه عز و جلّ كفاية أمره و حسم مادّة شرّه، و أجراءنا فى الحياطة على أجمل عادته عندنا و السلام.

فلما وصل الكتاب إلى الموفق أقلقه و بلغ منه مبلغا عظيما، و أغاظه غيظا شديدا، و أحضر موسى بن بغا و كان عون الدولة و أشدّ أهلها بأسا و إقداما، فتقدّم إليه فى صرف أحمد بن طولون عن مصر و تقليدها ماخور، فامتثل ذلك و كتب إلى ماخور كتاب التقليد و أنفذه إليه، فلما وصل إليه الكتاب توقف عن إرساله إلى أحمد بن طولون لعجزه عن مناهضته، و خرج موسى بن بغا عن الحضرة مقدّرا أنه يدور عمل المفوّض ليحمل الأموال منه، و كتب إلى ماخور أمير الشام، و إلى أحمد بن طولون أمير مصر، لما بلغه من توقف ما خور عن مناهضته يأمرهما بحمل الأموال، و عزم على قصد مصر و الإيقاع بابن طولون و استخلاف ماخور عليها، فسار إلى الرقة و بلغ ذلك ابن طولون فأقلقه و غمه، لا لأنه يقصر عن موسى بن بغا، لكن لتحمله هتك الدولة، و أن يأتى سبيل من قاوم السلطان و حاربه و كسر جيوشه، إلّا أنه لم يجد بدّا من المحاربة ليدفع عن نفسه، و تأمّل مدينة فسطاط مصر فوجدها لا تؤخذ إلّا من جهة النيل، فأراد لكبر همته و كثرة فكره فى عواقب الأمور، أن يبنى حصنا على الجزيرة التى بين الفسطاط و الجيزة ليكون معقلا لحرمه و ذخائره. ثم يشتغل بعد ذلك بحرب من يأتى من البر، و قد زاد فذكره فيمن يقدم من النيل، فأمر ببناء الحصن على الجزيرة، و اتخذ مائة مركب حربية سوى ما ينضاف إليها من العلابيات و الحمائم و العشاريات و السنابيك و قوارب الخدمة، و عمد إلى سدّ وجه البحر الكبير، و أن يمنع ما يجىء إليه من مراكب طرسوس و غيرها من البحر الملح إلى النيل، بأن توقف هذه المراكب الحربية فى وجه البحر الكبير، خوفا مما سيجىء من مراكب طرسوس، كما فعل محمد بن سليمان من بعده بأولاده، كأنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، و جعل فيها من يذب عن هذه الجزيرة، و أنفذ إلى الصعيد و إلى أسفل الأرض بمنع من يحمل الغلال إلى البلاد، ليمنع من يأتى من البرّ الميرة، و أقام موسى بن بغا بالرقة عشرة أشهر، و قد اضطربت عليه الأتراك و طالبوه بأرزاقهم مطالبة شديدة، بحيث استتر

منهم كاتبه عبيد اللّه بن سليمان لتعذر المال عليه، و خوفه على نفسه منهم، فخاف موسى بن بغا عند ذلك ودعته ضرورة الحال إلى الرجوع، فعاد إلى الحضرة و لم يقم بها سوى شهرين و مات من علة، فى صفر سنة أربع و ستين و مائتين، هذا و أحمد بن طولون يجدّ فى بناء الحصن على الجزيرة، و قد ألزم قوّاده و ثقاته أمر الحصن، و فرّقه عليهم قطعا، قام كلّ واحد بما لزمه من ذلك، و كدّ نفسه فيه، و كان يتعاهدهم بنفسه فى كلّ يوم، و هو فى غفلة عما صنعه اللّه تعالى له من الكفاية و الغنى عما يعانيه، و من كثرة ما بذل فى هذا العمل، قدّر أنّ كلّ طوبة منه وقفت عليه بدرهم صحيح، و لما تواترت الأخبار بموت موسى بن بغا كف عن العمل، و تصدّق بمال كثير شكرا للّه تعالى على ما منّ به عليه من صيانته عما يقبح فيه عنه إلّا حدوثة، و ما رأى الناس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۷

شيئا كان أعظم من عظيم الجدّ فى بناء هذا الحصن، و مباكرة الصناع له فى الأسحار حتى فرغوا منه، فإنهم كان يخرجون إليه من منازلهم فى كلّ بكرة من تلقاء أنفسهم من غير استحثاث، لكثرة ما سخا به من بذل المال، فلما انقطع البناء لم ير أحد من الصناع التى كانت فيه مع كثرتها، كأنما هى نار صبّ عليها ماء فطفئت لوقتها، و وهب للصناع مالا جزيلا و ترك لهم جميع ما كان سلفا معهم، و بلغ مصروف هذا الحصن ثمانين ألف دينار ذهبا.

و كان مما حمل أحمد بن طولون على بناء الحصن، أن الموفق أراد أن يشغل قلبه، فسرقت نعله من بيت حظية لا يدخله إلّا ثقاته، و بعث الموفق إليه. فقال له الرسول: من قدر على أخذ هذه النعل من الموضع الذى تعرفه، أليس هو بقادر على أخذ روحك، فو اللّه أيها الأمير لقد قام عليه أخذ هذه النعل بخمسين ألف دينار، فعند ذلك أمر ببناء الحصن.

و قال أبو عمر الكندىّ فى كتاب أمراء مصر: و تقدّم أبو أحمد الموفق إلى موسى بن بغا فى صرف أحمد بن طولون عن مصر و تقليدها ماخور التركىّ، فكتب موسى بن بغا بذلك إلى ماخور و هو والى دمشق يومئذ، فتوقف لعجزه عن مقاومة أحمد بن طولون، فخرج موسى بن بغا فنزل الرقة، و بلغ ابن طولون أنه سائر إليه، و لم يجد بدّا من محاربته، فأخذ أحمد بن طولون فى الحذر منه و ابتدأ فى ابتناء الحصن الذى بالجزيرة التى بين الجسرين، و رأى أن يجعله معقلا لماله و حرمه، و ذلك فى سنة ثلاث و ستين و مائتين، و اجتهد أحمد بن طولون فى بناء المراكب الحربية، و أطافها بالجزيرة، و أظهر الامتناع من موسى بن بغا بكل ما قدر عليه، و أقام موسى بن بغا بالرقة عشرة أشهر، و أحمد بن طولون فى إحكام أموره، و اضطربت أصحاب موسى بن بغا عليه و ضاق بهم منزلهم، و طالبوا موسى بالمسير أو الرجوع إلى العراق، فبينا هو كذلك توفى موسى بن بغا فى سنة أربع و ستين و مائتين. و قال محمد بن داود لأحمد بن طولون و فين تحامل:

لما ثوى ابن بغا بالرقتين ملاساقيه زرقا إلى الكعبين و العقب

بنى الجزيرة حصنا يستجن بهبالعسف و الضرب و الصناع فى تعب

و راقب الجيزة القصوى فخندقهاو كاد يصعق من خوف و من رعب

له مراكب فوق النيل راكدةفما سوى القار للنظار و الخشب

ترى عليها لباس الذل مذ بنيتبالشطّ ممنوعة من عزّة الطلب

فما بناها لغزو الروم محتسبالكن بناها غداة الروع و العطب

و قال سعيد بن القاضى من أبيات:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۸ و إن جئت رأس الجسر فانظر تأمّلاـإلى الحصن أو فاعبر إليه على الجسر

ترى أثرا لم يبق من يستطيعهمن الناس فى بدو البلاد و لا حضر

مآثر لا تبلى و إن باد أهلهاو مجد يؤدّى وارثيه إلى الفخر

و ما زال حصن الجزيرة هذا عامرا أيام بنى طولون، و عملت فيه صناعة مصر التى تنشأ فيها المراكب الحربية، فاستمرّ صناعة إلى أن تقلد الأمير محمد بن طغج الإخشيد إمارة مصر من قبل أمير المؤمنين الراضى بالله، و سير مراكب من الشأم، عليها صاعد بن الكلكم، فدخل تنيس و سارت مقدّمته فى البر، و دخل صاعد دمياط و سار فهزم جيش مصر الذى جهزه أحمد بن كيغلغ إليه، بتدبير محمد بن علىّ الماردانىّ على بحيرة نوسا، و أقبل فى مراكبه إلى الفسطاط، فكان بالجزيرة، و قدم محمد بن طغج و تسلم البلد لست بقين من رمضان سنة ثلاث و عشرين و ثلاثمائة و فرّ منه جماعة إلى الفيوم، فخرج إليهم صاعد بن الكلكم فى مراكبه و واقعهم بالفيوم، فقتل فى عدّة من أصحابه، و قدمت الجماعة فى مراكب ابن كلكم فأرسوا بجزيرة الصناعة و حرّقوها، ثم مضوا إلى الإسكندرية و ساروا إلى برقة فقال محمد بن طغج الصناعة هنا خطأ و أمر بعمل صناعة فى برّ مصر.

و حكى ابن زولاق فى سيرة محمد بن طغج أنه قال: اذكر أنى كنت آكل مع أبى منصور تكين أمير مصر، و جرى ذكر الصناعة فقال تكين: صناعة يكون بيننا و بينها بحر خطأ، فأشارت الجماعة بنقلها فقال: إلى أىّ موضع؟ فأردت أن أشير عليه بدار خديجة بنت الفتح بن خاقان، ثم سكت و قلت أدع هذا الرأى لنفى إذا ملكت مصر، فبلغت ذلك و الحمد للّه وحده. و لما أخذ محمد بن طغج دار خديجة كان يتردّد إليها حتى عملت، فلما ابتدءوا بإنشاء المراكب فيها صاحت به امرأة فقال: خذوها، فساروا بها إلى داره، فأحضرها مسار و استخبرها عن أمرها فقالت: ابعث معى من يحمل المال، فأرسل معها جماعة إلى دار خديجة هذه، فدلتهم على مكان استخرجوا منه عينا و ورقا و حليا و ثيابا و عدّة ذخائر لم ير مثلها، و صاروا بها إلى محمد بن طغج، فطلب المرأة ليكافئها على ما كان منها فلم توجد، فكان هذا أوّل مال وصل إلى محمد بن طغج بمصر. قال: و استدعى محمد بن طغج الإخشيد صالح بن نافع و قال له: كان فى نفسى إذا ملكت مصر أن أجعل صناعة العمارة فى دار ابنة الفتح، و أجعل موضع الصناعة من الجزيرة بستانا أسميه المختار، فاركب و خط لى بستانا و دارا، و قدّر لى النفقة عليهما، فركب صالح بجماعة و خطوا بستانا فيه دار للغلمان و دار للنوبة و خزائن للكسوة و خزائن للطعام، و صوّروه و أتوا به فاستحسنه و قال: كم قدّرتم النفقة؟ قالوا ثلاثين ألف دينار. فاستكثرها، فلم يزالوا يضعون من التقدير حتى صار خمسة آلاف دينار، فأذن فى عمله.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۱۹

و لما شرعوا فيه ألزمهم المال من عندهم، فقسّط على جماعة، و فرغ من بنائه، فاتخذه الإخشيد منتزها له و صار يفاخر به أهل العراق، و كان نقل الصناعة من الجزيرة إلى ساحل النيل بمصر فى شعبان خمس و عشرين و ثلاثمائة، فلم يزل البستان المختار منتزها إلى أن زالت الدولة الإخشيدية و الكافورية، و قدمت الدولة الفاطمية من بلاد المغرب إلى مصر، فكان يتنزه فيه المعز لدين اللّه معدّ، و ابنه العزيز بالله نزار، و صارت الجزيرة مدينة عامرة بالناس، لها وال و قاض، و كان يقال القاهرة و مصر و الجزيرة، فلما كانت أيام استيلاء الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدرا الجمالى، و حجره على الخلفاء، أنشأ فى بحرىّ الجزيرة مكانا نزها سماه الروضة، و تردّد إليها تردّدا كثيرا، فكان يسير فى العشاريات الموكبيات من دار الملك التى كانت سكنه بمصر، إلى الروضة. و من حينئذ صارت الجزيرة كلها تعرف بالروضة، فلما قتل الأفضل بن أمير الجيوش، و استبدّ الخليفة الآمر بأحكام اللّه أبو علىّ منصور بن المستعلى بالله، أنشأ بجوار البستان المختار من جزيرة الروضة مكانا لمحبوبته العالية البدوية، سماه الهودج.

الهودج: قال ابن سعيد فى كتاب المحلّى بالأشعار عن تاريخ القرطبىّ: قد أكثر الناس فى حديث البدوية و ابن مياح من بنى عمها و ما يتعلق بذلك من ذكر الخليفة الآمر بأحكام اللّه، حتى صارت رواياتهم فى هذا الشأن كأحاديث البطال و ألف ليلة و ليلة و ما أشبه ذلك، و الاختصار منه أن يقال أنّ الخليفة الآمر كان قد ابتلى بعشق الجوارى العربيات، و صارت له عيون فى البوادى، فبلغه أن بالصعيد جارية من أكمل العرب و أظرف نسائهم، شاعرة جميلة، فيقال أنه تزيا بزىّ بداة الأعراب و صار يجول فى الأحياء إلى أن انتهى إلى حيها، و بات هناك فى ضائفة، و تحيل حتى عاينها، فما ملك صبره، و رجع إلى مقرّ ملكه و سرير خلافته، فأرسل إلى أهلها يخطبها فأجابوه إلى ذلك و زوّجوها منه، فلما صارت إلى القصور صعب عليها مفارقة ما اعتادت، و أحبت أن تسرّج طرفها فى

الفضاء و لا تقبض نفسها تحت حيطان المدينة، فبنى لها البناء المشهور فى جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج، و كان على شاطىء النيل فى شكل غريب، و كان بالإسكندرية القاضى مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد، قد استولى على أمورها و صار قاضيها و ناظرها، و لم يبق لأحد معه فيها كلام، و ضمن أموالها بحملة يحملها، و كان ذا مروءة عظيمة يحتذى أفعال البرامكة، و للشعراء فيه مدائح كثيرة، و ممن مدحه ظافر الحدّاد، و أمية بن أبى الصلت، و جماعة، و كان الأفضل بن أمير الجيوش إذا أراد الاعتناء بأحد كتب معه كتابا إلى ابن حديد هذا، فيغنيه بكثرة عطائه، و كان له بستان يتفرّج فيه، به جرن كبير من رخام قطعة واحدة، ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من سعته، و كان يجد فى نفسه برؤية هذا الجرن زيادة على أهل النعم، و يباهى به أهل عصره، فوشى به للبدوية محبوبة الخليفة، فطلبته من الخليفة، فأنفذ فى الحال بإحضاره، فلم يسع ابن حديد إلّا أن قلعه من مكانه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۰

و بعث به و فى نفسه حزازة من أخذه منه، و خدم البدوية و خدم جميع من يلوذ بها، حتى قالت: هذا الرجل أخجلنا بكثرة هداياه و تحفه، و لم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا، فلما بلغه ذلك عنها قال: ما لى حاجة بعد الدعاء للّه تعالى بحفظ مكانها و طول حياتها، غير ردّ الجرن الذى أخذ من دارى التى بنيتها فى أيامهم من نعمهم إلى مكانه، فلما سمعت هذا عنه تعجبت منه و أمرت بردّ الجرن إليه، فقيل له قد وصلت إلى حدّ أن خيرتك البدوية فى جميع المطالب، فنزلت همتك إلى قطعة حجر. فقال: أنا أعرف بنفسى، ما كان لها أمل سوى أن لا تغلب فى أخذ ذلك الجرن من مكانه، و قد بلغها اللّه أملها، و بقيت البدوية متعلقة الخاطر بابن عمّ لها ربيت معه يعرف بابن ميّاح، فكتبت إليه و هى بقصر الخليفة الآمر:

يا ابن ميّاح إليك المشتكىمالك من بعدكم قد ملك

كنت فى حيى مرأ مطلقانائلا ما شئت منكم مدركا

فأنا الآن بقصر مؤصدلا أرى إلّا حبيسا ممسكا

كم تثنينا بأغصان اللواحيث لا نخشى علينا دركا

و تلاعبنا بر ملات الحمىحيثما شاء طليق سلكا

فأجابها:

بنت عمى و التى غذيتهابالهوى حتّى علا و احتنكا

بحت بالشكوى و عندى ضعفهالو غدا ينفع منها المشتكى

ما لكك الأمر إليه يشتكىهالك و هو الذى قد هلكا

شأن داود غدا فى عصرنامبديا بالتيه ما قد ملكا

فبلغت الآمر فقال: لولا أنه أساء الأدب فى البيت الرابع لرددتها إلى حيه و زوّجتها به.

قال القرطبىّ و للناس فى طلب ابن ميّاح و اختفائه أخبار تطور، و كان من عرب طىء فى عصر الخليفة الآمر طراد بن مهلهل، فلما بلغه قضية الآمر مع العالية البدوية قال:

ألا أبلغوا الآمر المصطفىمقال طراد و نعم المقال

قطعت الأليفين عن إلفهبها سمر الحىّ بين الرجال

كذا كان آباؤك الأقدمونسألت فقل لى جواب السؤال

فلما بلغ الآمر شعره قال: جواب السؤال قطع لسانه على فضوله، و أمر بطلبه فى أحياء العرب ففرّ و لم يقدر على، فقالت العرب: ما أخسر صفقة طراد، باع أبيات الحىّ بثلاثة أبيات، و لم يزل الآمر يتردّد إلى الهودج بالروضة للنزهة فيه، إلى أن ركب من القصر

بالقاهرة يريد الهودج فى يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة سنة أربع و عشرين و خمسمائة، فلما

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۱

كان برأس الجسر وثب عليه قوم من النزارية قد كمنوا له فى فرن تجاه رأس الجسر بالروضة، و ضربوه بالسكاكين حتى أثخنوه و جرحوا جماعة من خدّامه، فحمل إلى منظرة اللؤلؤة بشاطئ الخليج و قد مات.

ذكر قلعة الروضة

اعلم أنه ما برحت جزيرة الروضة منتزها ملوكيا و مسكنا للناس كما تقدّم ذكره، إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب سلطنة مصر، فأنشأ القلعة بالروضة، فعرفت بقلعة المقياس، و بقلعة الروضة، و بقلعة الجزيرة، و بالقلعة الصالحية، و شرع فى حفر أساسها يوم الأربعاء خامس شعبان، و ابتدأ بنيانها فى آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة سادس عشرة، و فى عاشر ذى القعدة وقع الهدم فى الدور و القصور و المساجد التى كانت بجزيرة الروضة، و تحوّل الناس من مساكنهم التى كانوا بها، و هدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب المقياس و أدخلها فى القلعة، و أنفق فى عمارتها أموالا جمة، و بنى فيها الدور و القصور، و عمل لها ستين برجا، و بنى بها جامعا، و غرس بها جميع الأشجار، و نقل إليها عمد الصوّان من البرابى و عمد الرخام، و شحنها بالأسلحة و آلات الحرب، و ما يحتاج إليه من الغلال و الأزواد و الأقوات، خشية من محاصرة الفرنج، فإنهم كانوا حينئذ على عزم قصد بلاد مصر، و بالغ فى إتقانها مبالغة عظيمة، حتى قيل أنه استقام كل حجر فيها بدينار، و كل طوبة بدرهم، و كان الملك الصالح يقف بنفسه و يرتب ما يعمل، فصارت تدهش من كثرة زخرفتها، و تحير الناظر إليها من حسن سقوفها المزينة، و بديع رخامها.

و يقال أنه قطع من الموضع الذى أنشأ فيه هذه القلعة ألف نخلة مثمرة، كان رطبها يهدى إلى ملوك مصر لحسن منظره و طيب طعمه، و خرّب الهودج و البستان المختار و هدّم ثلاثة و ثلاثين مسجدا عمرها خلفاء مصر و سراة المصريين لذكر اللّه تعالى و إقامة الصلوات، و اتفق له فى عدم بعض هذه المسجد خبر غريب، قال الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمود بن أحمد الأسدى، الشهير باليغمورى: سمعت الأمير الكبير الجواد جمال الدين أبا الفتح موسى بن الأمير شرف الدين يغمور بن جلدك بن عبد اللّه قال: و من عجيب ما شاهدته من الملك الصالح أبى الفتوح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل رحمه اللّه تعالى أنه أمرنى أن أهدم مسجدا كان فى جوار داره بجزيرة مصر، فأخرت ذلك و كرهت أن يكون هدمه على يدىّ، فأعاد الأمر و أنا أكاسر عنه، و كأنه فهم منى ذلك، فاستدعى بعض خدمه من نوّابى و أنا غائب و أمره أن يهدم ذلك المسجد، و أنيبنى فى مكانه قاعة، و قدّر له صفتها، فهدم ذلك المسجد و عمر تلك القاعة مكانه، و كملت، و قدمت الفرنج إلى الديار المصرية، و خرج الملك الصالح مع عساكره إليهم، و لم يدخل تلك القاعة التى بنيت فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۲

المكان الذى كان مسجدا، فتوفى السلطان فى المنصورة، و جعل فى مركب و أتى به إلى الجزيرة، فجعل فى تلك القاعة التى بنيت مكان المسجد مدّة إلى أن بنيت له التربة التى فى جنب مدارسه بالقاهرة فى جانب القصر، عفا اللّه عنه، و كان النيل عند ما عزم الملك الصالح على عمارة قلعة الروضة من الجانب الغربىّ، فيما بين الروضة و برّ الجيزة، و قد انطرد عن برّ مصر و لا يحيط بالروضة إلا فى أيام الزيادة، فلم يزل يغرّق السفن فى البرّ الغربىّ، و يحفر فيما بين الروضة و مصر ما كان هناك من الرمال، حتى عاد ماء النيل إلى برّ مصر، و استمرّ هناك فأنشأ جسرا عظيما ممتدّا من برّ مصر إلى الروضة، و جعل عرضه ثلاث قصبات، و كان الأمراء إذا ركبوا من منازلهم يريدون الخدمة السلطانية بقلعة الروضة، و جعل عرضه ثلاث قصبات، و كان الأمراء إذا ركبوا من منازلهم يريدون الخدمة

السلطانية بقلعة الروضة يترجلون عن خيولهم عند البرّ، و يمشون فى طول هذا الجسر إلى القلعة، و لا يمكن أحد من العبور عليه راكبا سوى السلطان فقط، و لما كملت تحوّل إليها بأهله و حرمه، و اتخذها دار ملك، و أسكن فيها معه مماليكه البحرية، و كانت عدّتهم نحو الألف مملوك.

قال العلامة علىّ بن سعيد فى كتاب المغرب: و قد ذكر الروضة، هى أمام الفسطاط، فيما بينها و بين مناظر الجيزة، و بها مقياس النيل، و كانت منتزها لأهل مصر، فاختارها الصالح بن الكامل سرير السلطنة و بنى بها قلعة مسوّرة بسور ساطع اللون محكم البناء عالى السمك، لم ترعينى أحسن منه، و فى هذه الجزيرة كان الهودج الذى بناه الآمر خليفة مصر لزوجته البدوية التى هام فى حبها، و المختار بستان الإخشيد. و قصره، و له ذكر فى شعر تميم بن المعز و غيره، و لشعراء مصر فى هذه الجزيرة أشعار منها قول أبى الفتح بن قادوس الدمياطىّ:

أرى سرح الجزيرة من بعيدكأحداق تغازل فى المغازل

كانّ مجرّة الجوز أحاطتو أثبتت المنازل فى المنازل

و كنت أشق فى بعض الليالى بالفسطاط على ساحلها فيزدهينى ضحك البدر فى وجه النيل أمام سور هذه الجزيرة الدرىّ اللون، و لم انفصل عن مصر حتى كمل سور هذه القلعة، و فى داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت إليه همة بانيها، و هو من أعظم السلاطين همة فى البناء، و أبصرت فى هذه الجزيرة إيوانا لجلوسه لم ترعينى مثاله، و لا أقدّر ما أنفق عليه، و فيه من صفائح الذهب و الرخام الأبنوسىّ و الكافورىّ و المجزع ما يذهل الأفكار و يستوقف الأبصار و يفضل عما أحاط به السور، أرض طويلة، و فى بعضها حاظر حظر به على أصناف الوحوش التى يتفرّج عليها السلطان، و بعدها مروج ينقطع فيها مياه النيل فينظر بها أحسن منظر، و قد تفرّجت كثيرا فى طرف هذه الجزيرة مما يلى برّ القاهرة، فقطعت فيه عشيات مذهبات لم تزل لأحزان الغربة مذهبات، و إذا زاد النيل فصل ما بينها و بين الفسطاط

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۳

بالكلية، و فى أيام احتراق النيل يتصل برّها ببرّ الفسطاط من جهة خليج القاهرة، و يبقى موضع الجسر فيه مراكب، و ركبت مرّة هذا النيل أيام الزيادة مع الصاحب المحسن محيى الدين بن ندا وزير الجزيرة، و صعدنا إلى جهة الصعيد، ثم انحدرنا و استقبلنا هذه الجزيرة، و أبراجها تتلالأ و النيل قد انقسم عنها فقلت:

تأمّل لحسن الصالحية إذ بدتو أبراجها مثل النجوم تلالا

و للقلعة الغرّاء كالبدر طالعاتفرّج صدر الماء عنه هلالا

و وافى إليها النيل من بعد غايةكما زار مشغوف يروم وصالا

و عانقها من فرط شوق لحسنهافمدّ يمينا نحوها و شمالا

جرى قادما بالسعد فاختط حولهامن السعد أعلاما فزاد دلالا

و لم تزل هذه القلعة عامرة حتى زالت دولة بنى أيوب، فلما ملك السلطان الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى أوّل ملوك الترك بمصر أمر بهدمها، و عمر منها مدرسته المعروفة بالمعزية فى رحبة الحناء بمدينة مصر، و طمع فى القلعة من له جاه، فأخذ جماعة منها عدّة سقوف و شبابيك كثيرة و غير ذلك، و بيع من أخشابها و رخامها أشياء جليلة، فلما صارت مملكة مصر إلى السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى، اهتم بعمارة قلعة الروضة، و رسم للأمير جمال الدين موسى بن يغمور أن يتولى إعادتها كما كانت، فأصلح بعض ما تهدّم فيها، و رتب فيها الجاندارية، و أعادها إلى ما كانت عليه من الحرمة، و أمر بأبراجها ففرّقت على الأمراء، و أعطى برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاون الألفىّ، و البرج يليه للأمير عز الدين الحلىّ، و البرج الثالث من بروج الزاوية للأمير عز الدين أرغان، و أعطى برج الزاوية الغربىّ للأمير بدر الدين الشمسى، و فرّقت بقية الأبراج على سائر الأمراء، و رسم أن تكن بيتوتات

جميع الأمراء و اصطبلاتهم فيها، و سلم المفاتيح لهم.

فلما تسلطن الملك المنصور قلاون الألفىّ و شرع فى بناء المارستان و القبلة و المدرسة المنصورية، نقل من قلعة الروضة هذه ما يحتاج إليه من عمد الصوّان و عمد الرخام التى كانت قبل عمارة القلعة فى البرابى، و أخذ منها رخاما كثيرا و أعتابا جليلة مما كان فى البرابى و غير ذلك، ثم أخذ منها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون ما احتاج إليه من عمد الصوّان فى بناء الإيوان المعروف بدار العدل من قلعة الجبل، و الجامع الجديد الناصرى ظاهر مدينة مصر، و أخذ غير ذلك حتى ذهبت كأن لم تكن، و تأخر منها عقد جليل تسميه العامّة القوس، كان مما يلى جانبها الغربىّ، أدركناه باقيا إلى نحو سنة عشرين و ثنمانمائة، و بقى من أبراجها عدّة قد انقلب أكثرها، و بنى الناس فوقها دورهم المطلة على النيل.

قال ابن المتوّج: ثم اشترى الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب جزيرة مصر المعروفة اليوم بالروضة فى شعبان سنة ست و ستين و خمسمائة، و إنما سميت بالروضة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۴

لأنه لم يكن بالديار المصرية مثلها، و بحر النيل حائز لها و دائر عليها، و كانت حصينة، و فيها من البساتير و العمائر و الثمار ما لم يكن فى غيرها، و لما فتح عمرو بن العاص مصر تحصن الروم بها مدّة، فلما طال حصارها و هرب الروم منها خرّب عمرو بن العاص بعض أبراجها و أسوارها، و كانت مستديرة عليها، و استمرّت إلى أن عمر حصنها أحمد بن طولون فى سنة ثلاث و ستين و مائتين، و لم يزل هذا الحصن حتى خرّبه النيل، ثم اشتراها الملك المظفر تقىّ الدين عمر المذكور و بقيت على ملكه إلى أن سيّر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ولده الملك العزيز عثمان إلى مصر و معه عمه الملك العادل، و كتب إلى الملك المظفر بأن يسلم لهما البلاد و يقدم عليه إلى الشأم، فلما ورد عليه الكتاب و وصل ابن عمه الملك العزيز و عمه الملك العادل شق عليه خروجه من الديار المصرية، و تحقق أنه لا عود له إليها أبدا، فوقف هذه المدرسة التى تعرف اليوم فى مصر بالمدرسة التقوية، التى كانت تعرف بمنازل العزو، وقف عليها الجزيرة بكمالها، و سافر إلى عمه فملكه حماه، و لم يزل الحال كذلك إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاستأجر الجزيرة من القاضى فخر الدين أبى محمد، عبد العزيز بن قاضى القضاة عماد الدين أبى القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد العلىّ بن عبد القادر السكرىّ مدرّس المدرسة المذكورة لمدّة ستين سنة فى دفعتين، كل دفعة قطعة، فالقطعة الأولى من جامع غين إلى المناظر طولا- و عرضا، من البحر إلى البحر و استأجر القطعة الثانية و هى باقى أرض الجزيرة بما فيها من النخل و الجميز و الغروس، فإنه لما عمر الملك الصالح مناظر قلعة الجزيرة قطعت النخيل و دخلت فى العمائر، و أمّا الجميز، فإنه كان بشاطئ بحر النيل صف جميز يزيد على أربعين شجرة، و كان أهل مصر فرجهم تحتها فى زمن النيل و الربيع، قطعت جميعها فى الدولة الظاهرية، و عمر بها شوانى عوض الشوانى التى كان قد سيرها إلى جزيرة قبرس، ثم سلم المدرّس التقوية القطعة المستأجرة من الجزيرة أوّلا فى سنة ثمان و تسعين و ستمائة، و بقى بيد السلطان القطعة الثانية، و قد خربت قلعة الروضة و لم يبق منها سوى أبراج قد بنى الناس عليها، و بقى أيضا عقد باب من جهة الغرب يقال له باب الإصطبل، و عادت الروضة بعد هدم القلعة منها منتزها يشتمل على دور كثيرة و بساتين عدّة و جوامع تقام بها الجماعات و الأعياد و مساجد، و قد خرب أكثر مساكن الروضة، و بقى فيها إلى اليوم بقايا. و بطرف الروضة المقياس الذى يقاس فيه ماء النيل اليوم، و يقال له المقياس الهاشمىّ، و هو آخر مقياس بنى بديار مصر.

قال أبو عمر الكندىّ: و ورد كتاب المتوكل على اللّه بابتناء المقياس الهاشمىّ للنيل، و بعزل النصارى عن قياسه، فجعل يزيد بن عبد اللّه بن دينار أمير مصر، أبا الردّاد المعلم، و أجرى عليه سليمان بن وهب صاحب الخراج فى كل شهر سبعة دنانير، و ذلك فى سنة سبع و أربعين و مائتين، و علامة وفاء النيل ستة عشر ذراعا، أن يسبل أبو الردّاد قاضى البحر الستر الأسود الخليفىّ على شباك المقياس، فإذا شاهد الناس هذا الستر قد أسبل تباشروا بالوفاء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۵

و اجتمعوا على العادة للفرجة من كل صوب، و ما أحسن قول شهاب الدين بن العطار فى تهتك الناس يوم تخليق المقياس:

تهتك الخلق بالتخليق قلت لهم‌ما أحسن الستر قالوا العفو مأمول

ستر الإله علينا لا يزال فماأحلى تهتكنا و الستر مسبول

جزيرة الصابونى: هذه الجزيرة تجاه رباط الآثار، و الرباط من جملتها، وقفها أبو الملوك نجم الدين أيوب بن شادى و قطعة من بركة الحبش، فجعل نصف ذلك على الشيخ الصابونى و أولاده، و النصف الآخر على صوفية بمكان بجوار قبة الإمام الشافعىّ رضى اللّه تعالى عنه، يعرف اليوم بالصابونى.

جزيرة الفيل: هذه الجزيرة هى الآن بلد كبير خارج باب البحر من القاهرة، و تتصل بمنية الشيرج من بحريها، و يمرّ النيل من غربيها، و بها جامع تقام به الجمعة، و سوق كبير و عدّة بساتين جليلة، و موضعها كله مما كان غامرا بالماء فى الدولة الفاطمية. فلما كان بعد ذلك انكسر مركب كبير كان يعرف بالفيل، و ترك فى مكانه فربا عليه الرمل، و انطرد عنه الماء، فصارت جزيرة فيما بين المنية و أرض الطبالة سماها الناس جزيرة الفيل، و صار الماء يمرّ من جوانبها، فغربيها تجاه برّ مصر الغربىّ، و شرقيها تجاه البعل، و الماء فى بينها و بين البعل الذى هو الآن قبالة قناطر الأوز، فإنّ الماء كان يمرّ بالمقس من تحت زريبة جامع المقس الموجود الآن على الخليج الناصرىّ، و من جامع المقس على أرض الطبالة إلى غربىّ المصلى، حتى ينتهى من تجاه التاج إلى المنية، و صارت هذه الجزيرة فى وسط النيل، و ما برحت تتسع إلى أن زرعت فى أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فوقفها على المدرسة التى أنشأها بالقرافة بجوار قبر الشافعىّ رضى اللّه عنه، و كثرت أطيانها بانحسار النيل عنها فى كل سنة.

فلما كان فى أيام الملك المنصور قلاون الألفى تقرّب مجد الدين أبو الروح عيسى بن عمر بن خالد بن عبد المحسن بن الخشاب المتحدّث فى الأحباس، إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ، بأنّ فى أطياب هذه الجزيرة زيادة على ما وقفه السلطان صلاح الدين، فأمر بقياس ما تجدّد بها من الرمال و جعلها لجهة الوقف الصلاحىّ، و أقطع الأطياب القديمة التى كانت فى الوقف و جعلها هى التى زادت، فلما أمر الملك المنصور قلاون بعمل المارستان المنصورى وقف بقية الجزيرة عليه، فغرس الناس بها الغروس و صارت بساتين و سكن الناس من المزارعين هناك، فلما كانت أيام الملك الناصر محمد بن قلاون بعد عوده إلى قلعة الجبل من الكركل، و انحسر النيل عن جانب المقس الغربىّ و صار ما هنالك رمالا متصلة من بحريها بجزيرة الفيل المذكورة، و من قبليها بأراضى اللوق، افتتح الناس باب العمارة بالقاهرة و مصر فعمروا فى تلك الرمال المواضع التى تعرف اليوم ببولاق خارج

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۶

المقس، و أنشأوا بجزيرة الفيل البساتين و القصور، و استجدّا ابن المغربىّ الطبيب بستانا اشتراه منه القاضى كريم الدين ناظر الخاص للأمير سيف الدين طشتمر الساقى، بنحو المائة ألف درهم فضة، عنها زهاء خمسة آلاف مثقال ذهبا، و تتابع الناس فى إنشاء البساتين حتى لم يبق بها مكان بغير عمارة و حكر، ما كان منها وقفا على المدرسة المجاورة للشافعىّ رضى اللّه عنه، و ما كان فيها من وقف المارستان، و غرس ذلك كله بساتين، فصارت تنيف على مائة و خمسين بستانا إلى سنة وفاة الملك الناصر محمد بن قلاون، و نصب فيها سوق كبير يباع فيه أكثر ما يطلب من المآكل، و ابتنى الناس بها عدّة دور و جامعا فبقيت قرية كبيرة و ما زالت فى زيادة و نموّ، فأنشأ قاضى القضاة جلال الدين القزوينى رحمه اللّه الدار المجاورة لبستان الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب على النيل، فجاءت فى غاية من الحسن، فلما عزل عن قضاء القضاة و سار إلى دمشق اشتراها الأمير بشتاك بثلاثين ألف درهم، و خربها و أخذ منها رخاما و شبابيك و أبوابا، ثم باع باقى نقضها بمائة ألف درهم، فربح الباعة فى ذلك شيئا كثيرا، و نودى على زر بيتها فحكرت و عمر عليها الناس عدّة أملاك، و اتصلت العمارة بالأملاك من هذه الزريبة إلى منية الشيرج، ثم خربت شيئا بعد شىء، و بقى ما على هذه الزريبة من الأملاك، و هى تعرف اليوم بدار الطنبدىّ التاجر. و أما بساتين الجزيرة فلم تزل عجبا من عجائب الدنيا من حسن المنظر و كثرة المتحصل، إلى أن حدثت المحن من سنة ست و ثمانمائة، فتلاشت و خرب كثير منها لغلوّ العلوفات من الفول و التبن و شدّة ظلم

الدولة و تعطل معظم سوقها، و فيها إلى الآن بقية صالحة.

جزيرة أروى: هذه الجزيرة تعرف بالجزيرة الوسطى، لأنها فيما بين الروضة و بولاق، و فيما بين برّ القاهرة و برّ الجيزة، لم ينحسر عنها الماء إلا بعد سنة سبعمائة، و أخبرنى القاضى الرئيس تاج الدين أبو الفداء إسماعيل بن أحمد بن عبد الوهاب بن الخطباء المخزوميّ، عن الطبيب الفاضل شمس الدين محمد بن الأكفانى، أنه كان يمرّ بهذه الجزيرة أوّل ما انكشفت، و يقول هذه الجزيرة تصير مدينة، أو قال تصير بلدة، على الشك منى، فاتفق ذلك و بنى الناس فيها الدور الجليلة، و الأسواق و الجامع و الطاحون و الفرن، و غرسوا فيها البساتين و حفروا الآبار، و صارت من أحسن منتزهات مصر، يحف بها الماء، ثم صار ينكشف ما بينها و بين برّ القاهرة، فإذا كانت أيام زيادة ماء النيل أحاط الماء بها، و فى بعض السنين يركبها الماء فتمرّ المراكب بين دورها و فى أزقتها. ثم لما كثر الرمل فيما بينها و بين البرّ الشرقيّ، حيث كان خط الزريبة. و فم الخور، قلّ الماء هناك و تلاشت مساكن هذه الجزيرة، منذ كانت الحوادث فى سنة ست و ثمانمائة، و فيها إلى اليوم بقايا حسنة.

الجزيرة التى عرفت بحليمة: هذه الجزيرة خرجت فى ستة سبع و أربعين و سبعمائة، ما بين بولاق و الجزيرة الوسطى، سمتها العامّة بحليمة، و نصبوا فيها عدّة أخصاص، بلغ مصروف الخص الواحد منها ثلاثة آلاف درهم نقرة، فى ثمن رخام و دهان، فكان فيها من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۷

هذه الأخصاص عدّة وافرة، و زرع حول كل خص من المقائى و غيرها ما يستحسن، و أقام أهل الخلاعة و المجون هناك، و تهتكوا بأنواع المحرّمات، و تردّد إلى هذه الجزيرة أكثر الناس حتى كادت القاهرة أن لا يثبت بها أحد، و بلغ أجرة كل قصبة بالقياس فى هذه الجزيرة، و فى الجزيرة التى عرفت بالطمية فيما بين مصر و الجيزة، مبلغ عشرين درهما نقرة، فوقف الفدّان هناك بمبلغ ثمانية آلاف درهم نقرة، و نصبت فى هذه الأفدنة الأخصاص المذكورة، و كان الانتفاع بها فيما ذكر نحو ستة أشهر من السنة، فعلى ذلك يكون الفدّان فيها بمبلغ ستة عشر ألف درهم نقرة، و أتلف الناس هناك من الأموال ما يجل وصفه، فلما كثر تجاهرهم بالقبيح، قام الأمير أرغون العلائيّ مع الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاون فى هدم هذه الأخصاص التى بهذه الجزيرة قياما زائدا، حتى أذن له فى ذلك، فأمر والى مصر و القاهرة فنزلا- على حين غفلة، و كبسا الناس و أراقا الخمور و حرّقا الأخصاص، فتلف للناس فى النهب و الحريق، و غير ذلك شيء كثير إلى الغاية و النهاية. و فى هذه الجزيرة يقول الأديب إبراهيم المعمار:

جزيرة البحر جنّت‌بها عقول سليمة

لما حوت حسن مغنى‌ببسطة مستقيمة

و كم يخوضون فيهاو كم مشوا بنميمة

و لم تزل ذا احتمال‌ما تلك إلّا حليمة

ذكر السجون

قال ابن سيده: السجن، الحبس، و السجان صاحب السجن، و رجل سجين مسجون.

قال: و حبسه يحبسه حبسا فهو محبوس و حبيس، و احتبسه و حبسه أمسكه عن وجهه. و قال سيبويه: حبسه، ضبطه، و احتبسه، اتخذه حبسا، و المحبس و المحبسة و المحتبس، اسم الموضع. و قال بعضهم: المحبس يكون مصدرا كالحبس، و نظيره إلى اللّه مرجعكم، أى رجوعكم. و يسألونك عن المحيض أى الحيض. و روى الإمام أحمد و أبو داود من حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جدّه رضى اللّه عنهم قال: إنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم حبس فى تهمة يوما و ليلة» فالحبس الشرعيّ ليس هو السجن فى مكان ضيق، و إنما هو تعويض الشخص و منعه من التصرّف بنفسه، سواء كان فى بيت أو مسجد، أو كان يتولى نفس الخصم أو وكيله عليه، و ملازمته له، و لهذا سماه النبيّ صلى اللّه عليه و سلم أسيرا، كما روى أبو داود و ابن ماجه عن الهرماس بن حبيب عن أبيه رضى اللّه

عنهما. قال: «أتيت النبيّ صلى اللّه عليه و سلم بغريم لى فقال لى:

الزمه، ثم قال لى يا أخا بنى تميم ما تريد أن تفعل بأسيرك» و فى رواية ابن ماجه ثمّ مرّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم بى آخر النهار فقال: «ما فعل أسيرك يا أخا بنى تميم» و هذا كان هو الحبس على عهد النبيّ صلى اللّه عليه و سلم، و أبى بكر الصدّيق رضى اللّه عنه، و لم يكن له محبس معدّ لحبس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۸

الخصوم، و لكن لما انتشرت الرعية فى زمن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، ابتاع من صفوان بن أمية رضى اللّه عنه دارا بمكة بأربعة آلاف درهم، و جعلها سجنا يحبس فيها.

و لهذا تنازع العلماء، هل يتخذ الإمام حبسا على قولين؟ فمن قال لا يتخذ حبسا، احتج بأنه لم يكن لرسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و لا لخليفته من بعده حبس، و لكن يعوقه بمكان من الأمكنة، أو يقيم عليه حافظا، و هو الذى يسمى الترسيم، أو يأمر غريمه بملازمته. و من قال له أن يتخذ حبسا، احتج بفعل عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، و مضت السنة فى عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، و أبى بكر و عمر و عثمان و علىّ، رضى اللّه عنهم، أنه لا يحبس على الديون، و لكن يتلازم الخصمان.

و أوّل من حبس على الدين، شريح القاضى، و أمّا الحبس الذى هو الآن، فإنه لا يجوز عند أحد من المسلمين، و ذلك أنه يجمع الجمع الكثير فى موضع يضيق عنهم، غير متمكنين من الوضوء و الصلاة، و قد يرى بعضهم عورة بعض، و يؤذيهم الحرّ فى الصيف، و البرد فى الشتاء، و ربما يحبس أحدهم السنة و أكثر و لا جدة له، و أنّ أصل حبسه على ضمان، و أمّا سجون الولاة فلا يوصف ما يحلّ بأهلها من البلاء، و اشتهر أمرهم أنهم يخرجون مع الأعوان فى الحديد حتى يشحذوا و هم يصرخون فى الطرقات الجوع، فما تصدّق به عليهم لا ينالهم منه إلّا ما يدخل بطونهم، و جميع ما يجتمع لهم من صدقات الناس يأخذه السجان و أعوان الوالى، و من لم يرضهم بالغوا فى عقوبته، و هم مع ذلك يستعملون فى الحفر و فى العمائر و نحو ذلك من الأعمال الشاقة، و الأعوان تستحثهم، فإذا انقضى عملهم ردّوا إلى السجن فى حديدهم من غير أن يطعموا شيئا. إلى غير ذلك مما لا يسع حكايته هنا. و قد قيل أن أوّل من وضع السجن و الحرس معاوية. و قد كان فى مدينة مصر و فى القاهرة عدّة سجون، و هى حبس المعونة بمصر، و حبس الصيار بمصر، و خزانة البنود بالقاهرة، و حبس المعونة بالقاهرة، و خزانة شمائل، و حبس الديلم، و حبس الرحبة، و الجب بقلعة الجبل.

حبس المعونة بمصر: و يقال أيضا: دار المعونة، كانت أوّلا تعرف بالشرطة، و كانت قبلىّ جامع عمرو بن العاص، و أصله خطّه قيس بن سعد بن عبادة الأنصارىّ رضى اللّه عنهم، اختطها فى أول الإسلام، و قد كان موضعها فضاء. و أوصى فقال: إن كنت بنيت بمصر دارا و استعنت فيها بمعونة المسلمين فهى للمسلمين، ينزلها ولاتهم. و قيل بل كانت هى و دار إلى جانبها لنافع بن عبد قيس الفهرىّ، و أخذها منه قيس بن سعد و عوّضه دارا بزقاق القناديل. ثم عرفت بدار الفلفل لأنّ أسامة بن زيد التنوخىّ صاحب خراج مصر، ابتاع من موسى بن وردان فلفلا بعشرين ألف دينار، كان كتب فيه الوليد بن عبد الملك ليهديه إلى صاحب الروم، فخزّنه فيها، فشكا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه حين تولى الخلافة، فكتب أن تدفع إليه. ثم صارت شرطة و دار الصرف، فلما فرغ عيسى بن يزيد الجلودىّ من زيادة عبد اللّه بن طاهر فى الجامع بنى شرطة فى سنة ثلاث عشرة و مائتين، فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۲۹

خلافة المأمون، و نقش فى لوح كبير نصبه على باب الجامع الذى يدخل منه إلى الشرطة ما نصه: بركة من اللّه لعبده عبد اللّه الإمام المأمون أمير المؤمنين، أمر بإقامة هذه الدار الهاشمية المباركة على يد عيسى بن يزيد الجلودىّ، مولى أمير المؤمنين، سنة ثلاث عشرة و مائتين، و لم يزل هذا اللوح على باب الشرطة إلى صفر سنة إحدى و ثمانين و ثلاثمائة، فقلعه يانس العزيزى و صارت حبسا يعرف بالمعونة، إلى أن ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فجعله مدرسة، و هى التى تعرف اليوم بالشريفية.

حبس الصيّار: هذا الحبس كان بمصر يحبس فيه الولاة بعد ما عمل حبس المعونة مدرسة، و كان بأوّل الزقاق الذى فيه هذا الحبس

حانوت يسكنه شخص يقال له منصور الطويل، و يبيع فيه أصناف السوقة، و يعرف هذا الرجل بالصيار من أجل أنه كانت له فى هذا الزقاق قاعة يخزن فيها أنواع الصير المعروف بالملوحة، فقيل لهذا الحبس حبس الصيار، و نشأ لمنصور الصيار هذا ولد عرف بين الشهود بمصر بشرف الدين بن منصور الطويل، فلما أحدث الوزير شرف الدين هبة اللّه بن صاعد الفائزىّ المظالم فى سلطنة الملك المعز أيبك التركمانىّ، خدم شرف الدين هذا على المظالم فى جباية التسقيع و التقويم، ثم خدم بعد إبطال ذلك فى مكس القصب و الرمّان، فلما تولى قضاء القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، تأذى عنده بما باشره من هذه المظالم، و ما زال هذا الحبس موجودا إلى أن خربت مصر فى الزمان الذى ذكرناه، فخرب و بقى موضعه و ما حوله كيمانا.

خزانة البنود: هذه الخزانة بالقاهرة هى الآن زقاق يعرف بخط خزانة البنود، على يمنة من سلك من رحبة باب العيد يريد درب ملوخيا و غيره، و كانت أوّلا فى الدولة الفاطمية خزانة من جملة خزائن القصر يعمل فيها السلاح، يقال أن الخليفة الظاهر بن الحاكم أمر بها، ثم أنها احترقت فى سنة إحدى و ستين و أربعمائة، فعملت بعد حريقها سجنا يسجن فيه الأمراء و الأعيان، إلى أن انقرضت الدولة فأقرّها ملوك بنى أيوب سجنا، ثم عملت منزلا للأمراء من الفرنج يسكنون فيها بأهاليهم و أولادهم فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون بعد حضوره من الكرك، فلم يزالوا بها إلى أن هدمها الأمير الحاج آل ملك الجوكندار نائب السلطنة بديار مصر، فى سنة أربع و أربعين و سبعمائة، فاختط الناس موضعها دورا، و قد ذكرت فى هذا الكتاب عند ذكر خزائن القصر.

حبس المعونة من القاهرة: هذا المكان بالقاهرة، موضعه الآن قيسارية العنبر برأس الحريريين، كان يسجن فيه أرباب الجرائم من السرّاق و قطاع الطريق و نحوهم فى الدولة الفاطمية، و كان حبسا حرجا ضيقا شنيعا يشم من قربه رائحة كريهة، فلما ولى الملك الناصر محمد بن قلاون مملكة مصر هدمه و بناه قيسارية للعنبر، و قد ذكر عند ذكر الأسواق من هذا الكتاب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۰

خزانة شمائل: هذه الخزانة كانت بجوار باب زويلة، على يسرة من دخل منه بجوار السور، عرفت بالأمير علم الدين شمائل والى القاهرة فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، و كانت من أشنع السجون و أقبحها منظرا، يحبس فيها من وجب عليه القتل أو القطع من السرّاق و قطاع الطريق، و من يريد السلطان إهلاكه من المماليك و أصحاب الجرائم العظيمة، و كان السجان بها يوظف عليه والى القاهرة شيئا يحمله من المال له فى كل يوم، و بلغ ذلك فى أيام الناصر فرج مبلغا كبيرا، و ما زالت هذه الخزانة على ذلك إلى أن هدمها الملك المؤيد شيخ المحمودىّ فى يوم الأحد العاشر من شهر ربيع الأول، سنة ثمان عشرة و ثمانمائة، و أدخلها فى جملة ما هدمه من الدور التى عزم على عمارة أماكنها مدرسة.

و شمائل هذا: هو الأمير علم الدين، قدم إلى القاهرة و هو من فلاحى بعض قرى مدينة حماه فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل، فخدم جاندار فى الركاب السلطانى إلى أن نزل الفرنج على مدينة دمياط فى سنة خمس عشرة و ستمائة، و ملكوا البرّ و حصروا أهلها و حالوا بينهم و بين من يصل إليهم، فكان شمائل هذا يخاطر بنفسه و يسبح فى الماء بين المراكب و يردّ على السلطان الخبر، فتقدّم عند السلطان و حظى لديه حتى أقامه أمير جاندار، و جعله من أكبر أمرائه، و نصه سيف نقمته، و ولاه ولاية القاهرة، فباشر ذلك إلى أن مات السلطان و قام من بعده ابنه الملك العادل أبو بكر، فلما خلع بأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب نقم على شمائل.

المقشرة: هذا السجن بجوار باب الفتوح، فيما بينه و بين الجامع الحاكمى، كان يقشر فيه القمح، و من جملته برج من أبراج السور على يمنة الخارج من باب الفتوح، استجدّ بأعلاه دور لم تزل إلى أن هدمت خزانة شمائل، فعين هذا البرج و المقشرة لسجن أرباب الجرائم، و هدمت الدور التى كانت هناك فى شهر ربيع الأوّل سنة ثمان و عشرين و ثمانمائة، و عمل البرج و المقشرة سجنا و نقل إليه أرباب الجرائم، و هو من أشنع السجون و أضيقها، يقاسى فيه المسجونون من الغمّ و الكرب ما لا يوصف، عافانا اللّه من جميع بلائه.

الجب بقلعة الجبل: هذا الجب كان بقلعة الجبل يسجن فيه الأمراء، و ابتدئ عمله فى سنة إحدى و ثمانين و ستمائة، و السلطان حينئذ

الملك المنصور قلاون، و لم يزل إلى أن هدمه الملك الناصر محمد بن قلاون فى يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى، سنة تسع و عشرين و سبعمائة، و ذلك أنّ شادّ العمائر نزل إليه ليصلح عمارته فشاهد أمرا مهولا من الظلام و كثرة الوطاويط و الروائح الكريهة، و اتفق مع ذلك أن الأمير بكتمر الساقى كان عنده شخص يسخر به و يمازحه، فبعث به إلى الجب و دلى فيه، ثم أطلعه من بعد ما بات به ليلة، فلما حضر إلى بكتمر أخبره بما عاينه من شناعة الجب، و ذكر ما فيه من القبائح المهولة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۱

و كان شادّ العمائر فى المجلس فوصف ما فيه الأمراء الذين بالجب من الشدائد، فتحدّث بكتمر مع السلطان فى ذلك فأمر بإخراج الأمراء منه، و ردم و عمّر فوقه أطباق المماليك، و كان الذى ردم به هذا الجب، النقض الذى هدم من الإيوان الكبير المجاور للخزانة الكبرى، و اللّه أعلم بالصواب.

ذكر المواضع المعروفة بالصناعة

لفظ الصناعة بكسر الصاد مأخوذ من قولك صنعه يصنعه صنعا، فهو مصنوع، و صنيع عمله و اصطنعه اتخذه. و الصناعة ما يستصنع من أمر، هذا أصل الكلمة من حيث اللغة، و أمّا فى العرف فالصناعة اسم لمكان قد أعدّ لإنشاء المراكب البحرية التى يقال لها السفن، واحدتها سفينة، و هى بمصر على قسمين: نيلية و حربية.

فالحربية هى التى تنشأ لغزو العدوّ و تشحن بالسلاح و آلات الحرب و المقاتلة، فتمرّ من ثغر الإسكندرية و ثغر دمياط و تنيس و الفرما إلى جهاد أعداء اللّه من الروم و الفرنج، و كانت هذه المراكب الحربية يقال لها الأسطول، و لا أحسب هذا اللفظ عربيا.

و أمّا المراكب النيلية فإنها تنشأ لتمرّ فى النيل، صاعدة إلى أعلى الصعيد و منحدرة إلى أسفل الأرض، لحمل الغلال و غيرها، و لما جاء اللّه تعالى بالإسلام لم يكن البحر يركب للغزو فى حياة رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و خلافة أبى بكر و عمر رضى اللّه عنهما، و أوّل من ركب البحر فى الإسلام للغزو، العلاء بن الحضرمىّ رضى اللّه عنه، و كان على البحرين من قبل أبى بكر و عمر رضى اللّه عنهما، فأحب أن يؤثر فى الأعاجم أثرا يعز اللّه به الإسلام على يديه، فندب أهل البحرين إلى فارس فبادروا إلى ذلك، و فرّقهم أجنادا، على أحدها الجارود بن المعلى رضى اللّه عنه، و على الثانى سوار بن همام رضى اللّه عنه، و على الثالث خليد بن المنذر بن ساوى رضى اللّه عنه، و جعل خليدا على عامة الناس، فحملهم فى البحر إلى فارس بغير إذن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، و كان عمر رضى اللّه عنه لا يأذن لأحد فى ركوب البحر غازيا، كراهة للتغرير بجنده، اقتداء برسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و خليفته أبى بكر رضى اللّه عنه، فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس، فخرجوا فى اصطخر و بإزائهم أهل فارس عليهم الهربذ، فحالوا بين المسلمين و بين سفنهم، فقام خليد فى الناس فقال: أما بعد، فإنّ اللّه تعالى إذا قضى أمرا جرت المقادير على مطيته، و أنّ هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعوكم إلى حربهم، و إنما جئتم لمحاربتهم، و السفن و الأرض بعد الآن لمن غلب، فاستعينوا بالصبر و الصلاة و إنها لكبيرة إلّا على الخاشعين. فأجابوه إلى القتال و صلوا الظهر، ثم ناهزوهم فاقتتلوا قتالا شديدا فى موضع يدعى طاوس، فقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها قبلها، و خرج المسلمون يريدون البصرة إذ غرقت سفنهم و لم يجدوا فى الرجوع إلى البحر سبيلا، فإذا بهم و قد أخذت عليهم الطرق، فعسكروا و امتنعوا، و بلغ ذلك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۲

عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فاشتدّ غضبه على العلاء رضى اللّه عنه، و كتب إليه بعزله و توعده و أمره بأثقل الأشياء عليه و أبغض الوجوه إليه، بتأمير سعد بن أبى وقاص عليه و قال: الحق بسعد بن أبى وقاص بمن معك، فخرج رضى اللّه عنه من البحرين بمن معه نحو سعد رضى اللّه عنه، و هو يومئذ على الكوفة، و كان بينهما تباين و تباعد، و كتب عمر رضى اللّه عنه إلى عتبة بن غزوان بأنّ العلاء بن الحضرمىّ حمل جندا من المسلمين فى البحر فأقطعهم إلى فارس و عصانى، و أظنه لم يرد اللّه عز و جلّ بذلك، فخشيت

عليهم أن لا ينصروا و أن يغلبوا، فاندب لهم الناس و ضمهم إليك من قبل أن يجتاحوا، فندب عتبة رضى اللّه عنه الناس و أخبرهم بكتاب عمر رضى اللّه عنه، فانتدب عاصم بن عمرو، و عرفجة بن هرثمة، و حذيفة بن محصن، و مجراة بن ثور، و نهار بن الحارث، و الترجمان بن فلان، و الحصين بن أبى الحرّ، و الأحنف بن قيس، و سعد بن أبى العرجاء، و عبد الرحمن بن سهل، و صعصعة بن معاوية رضى اللّه تعالى عنهم. فساروا من البصرة فى اثنى عشر ألفا على البغال يجنبون الخيل، و عليهم أبو سبرة بن أبى رهم رضى اللّه عنهم، فساحل بهم حتى التقى أبو سبرة و خليد حيث أخذت عليهم الطرق، و قد استصرخ أهل اصطخر أهل فارس كلهم فأتوهم من كل وجه و كورة، فالتقوا هم و أبو سبرة فاقتتلوا، ففتح اللّه على المسلمين و قتل المشركون، و عاد المسلمون بالغنائم إلى البصرة، و رجع أهل البحرين إلى منازلهم.

فلما فتح اللّه تعالى الشأم ألح معاوية بن أبى سفيان و هو يومئذ على جند دمشق و الأردن، على عمر رضى اللّه عنه فى غزو البحر و قرب الروم من حمص. و قال: إنّ قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم و صياح دجاجهم، حتى إذا كاد ذلك يأخذ بقلب عمر رضى اللّه عنه اتهم معاوية لأنه المشير، و أحب عمر رضى اللّه عنه أن يردعه فكتب إلى عمرو بن العاص و هو على مصر، أن صف لى البحر و راكبه، فإنّ نفسى تنازعنى إليه و أنا أشتهى خلافها. فكتب إليه: يا أمير المؤمنين، إنى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير، ليس إلّا السماء و الماء، إن ركد حزّن القلوب، و إن زلّ أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، و الشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق و إن نجا برق.

فلما جاءه كتاب عمرو، كتب رضى اللّه عنه إلى معاوية: لا و الذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا، إنّا قد سمعنا أنّ بحر الشأم يشرف على أطول شىء فى الأرض، يستأذن اللّه تعالى فى كل يوم و ليلة أن يفيض على الأرض فيغرقها، فكيف أحمل الجنود فى هذا البحر الكافر المستصعب، و تاللّه لمسلم واحد أحب إلىّ مما حوته الروم، فإياك أن تعرض لى و قد تقدّمت إليك، و قد علمت ما لقى العلاء منى و لم أتقدّم إليه فى مثل ذلك.

و عن عمر رضى اللّه عنه أنه قال: لا يسألنى اللّه عز و جلّ عن ركوب المسلمين البحر أبدا.

و روى عنه ابنه عبد اللّه رضى اللّه عنهما أنه قال: لولا آية فى كتاب اللّه تعالى لعلوت راكب البحر بالدرة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۳

ثم لما كانت خلافة عثمان بن عفان رضى اللّه عنه، غزا المسلمون فى البحر، و كان أوّل من غزا فيه معاوية بن أبى سفيان، و ذلك أنه لم يزل بعثمان رضى اللّه عنه حتى عزم على ذلك، فأخره و قال: تنتخب الناس و لا تقرع بينهم، خيّرهم، فمن اختار الغزو طائعا فاحمله و أعنه. ففعل و استعمل على البحر عبد اللّه بن قيس الحاسى خليفة بنى فزارة، فغزا خمسين غزوة من بين شاتية و صائفة فى البرّ و البحر، و لم يغرق فيه أحد و لم ينكب، و كان يدعو اللّه تعالى أن يرزقه العافية فى جنده و لا يبتليه بمصاب أحد منهم، حتى إذا أراد اللّه عز و جلّ أن يصيبه فى جنده خرج فى قارب طليعته فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم، فثار به الروم و هجموا عليه فقاتلهم فأصيب وحده، ثم قاتل الروم أصحابه فأصيبوا.

و غزا عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح فى البحر لما أتاه قسطنطين بن هرقل سنة أربع و ثلاثين فى ألف مركب يريد الإسكندرية، فسار عبد اللّه فى مائتى مركب أو تزيد شيئا و حاربه، فكانت وقعة ذات الصوارى التى نصر اللّه تعالى فيها جنده و هزم قسطنطين و قتل جنده، و أغزى معاوية أيضا عقبة بن عامر الجهنىّ رضى اللّه عنه فى البحر، و أمره أن يتوجه إلى رودس، فسار إليها.

و نزل الروم على البرلس فى سنة ثلاث و خمسين فى إمارة مسلمة بن مخلد الأنصارىّ رضى اللّه عنه على مصر، فخرج إليهم المسلمون فى البرّ و البحر، فاستشهد وردان مولى عمرو بن العاص فى جمع كثير من المسلمين، و بعث عبد الملك بن مروان لما ولى الخلافة إلى عامله على إفريقية حسان بن النعمان يأمره باتخاذ صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية.

و منها كانت غزوة صقلية فى أيام زيادة اللّه الأوّل بن إبراهيم بن الأغلب على شيخ الفتيا أسد بن الفرات، و نزل الروم تنيس فى سنة

إحدى و مائة فى إمارة بشر بن صفوان الكلبىّ على مصر من قبل يزيد بن عبد الملك، فاستشهد جماعة من المسلمين، و قد ذكر فى أخبار الإسكندرية و دمياط و تنيس و الفرما من هذا الكتاب جملة من نزلات الروم و الفرنج عليها، و ما كان فى زمن الإنشاء، فانظره تجده إن شاء اللّه تعالى. و قد ذكر شيخنا العالم العلامة الأستاذ قاضى القضاة وليّ الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرميّ الإشبيلى، تعليل امتناع المسلمين من ركوب البحر للغزو فى أوّل الأمر فقال:

و السبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أوّل الأمر مهرة فى ثقافته و ركوبه، و الروم و الفرنجة لممارستهم أحواله و مرباهم فى التقلب على أعواده مرنوا عليه، و أحكموا الدربة بثقافته، فلما استقرّ الملك للعرب و شمخ سلطانهم، و صارت أمم العجم خولا لهم و تحت أيديهم، و تقرّب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته، و استخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما، و تكرّرت ممارستهم البحر و ثقافته، استحدثوا بصرا بها، فتاقت أنفسهم إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۴

الجهاد فيه، و أنشأوا السفن و الشوانى و شحنوا الأساطيل بالرجال و السلاح، و أمطوها العساكر و المقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، و اختصوا بذلك من ممالكهم و ثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر و على ضفته، مثل الشام و إفريقية و المغرب و الأندلس.

و أوّل ما أنشئ الأسطول بمصر فى خلافة أمير المؤمنين المتوكل على اللّه أبى الفضل جعفر بن المعتصم، عند ما نزل الروم دمياط فى يوم عرفة سنة ثمان و ثلاثين و مائتين، و أمير مصر يومئذ عنبسة بن إسحاق، فملكوها و قتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين، و سبوا النساء و الأطفال، و مضوا إلى تنيس فأقاموا باشتومها. فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول و صار من أهمّ ما يعمل بمصر، و أنشئت الشوانى برسم الأسطول، و جعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البرّ، و انتدب الأمراء له الرماة، فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية و جميع أنواع المحاربة، و انتخب له القوّاد العارفون بمحاربة العدوّ، و كان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم و لا جاهل بأمور الحرب، هذا و للناس إذ ذاك رغبة فى جهاد أعداء اللّه و إقامة دينه، لا جرم أنه كان لخدّام الأسطول حرمة و مكانة، و لكل أحد من الناس رغبة فى أنه يعدّ من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقرّ فيه، و كان من غزو الأسطول بلاد العدوّ ما قد شحنت به كتب التواريخ.

فكانت الحرب بين المسلمين و الروم سجالا، ينال المسلمون من العدوّ و ينال العدوّ منهم، و يأسر بعضهم بعضا لكثرة هجوم أساطيل الإسلام بلاد العدوّ، فإنها كانت تسير من مصر و من الشام و من أفريقية، فلذلك احتاج خلفاء الإسلام إلى الفداء، و كان أوّل فداء وقع بمال فى الإسلام أيام بنى العباس، و لم يقع فى أيام بنى أمية فداء مشهور، و إنما كان يفادى بالنفر بعد النفر فى سواحل الشأم و مصر و الإسكندرية و بلاد ملطية و بقية الثغور الخزرية، إلى أن كانت خلافة أمير المؤمنين هارون الرشيد.

الفداء الأوّل: باللامش من سواحل البحر الرومىّ قريبا من طرسوس فى سنة تسع و ثمانين و مائة، و ملك الروم يومئذ تقفور بن اشبراق، و كان ذلك على يد القاسم بن الرشيد و هو معسكر بمرج دابق من بلاد قنسرين فى أعمال حلب، ففودى بكل أسير كان ببلاد الروم من ذكر أو أنثى، و حضر هذا الفداء من أهل الثغور و غيرهم من أهل الأمصار نحو من خمسمائة ألف إنسان، بأحسن ما يكون من العدد و الخيل و السلاح و القوّة، قد أخذوا السهل و الجبل و ضاق بهم الفضاء، و حضرت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزىّ، معهم أسارى المسلمين، فكان عدّة من فودى به من المسلمين فى اثنى عشر يوما ثلاثة آلاف و سبعمائة أسير، و أقام ابن الرشيد باللامش أربعين يوما قبل الأيام التى وقع فيها الفداء و بعدها، و قال مروان بن أبى حفصة فى هذا الفداء يخاطب الرشيد من أبيات:

و فكّت بك الأسرى التى شيدت بهامحابس ما فيها حميم يزورها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۵ على حين أعيى المسلمين فكاكهاو قالوا سجون المشركين قبورها

الفداء الثانى: كان فى خلافة الرشيد أيضا باللامش فى سنة اثنتين و تسعين و مائة، و ملك الروم تقفور، و كان القائم به ثابت بن نصر

بن مالك الخزاعيّ أمير الثغور الشامية، حضره ألوف من الناس، و كانت عدّة من فودى به من المسلمين فى سبعة أيام ألفين و خمسمائة من ذكر و أنثى.

الفداء الثالث: وقع فى خلافة الواثق باللامش، فى المحرّم سنة إحدى و ثلاثين و مائتين، و ملك الروم ميخائيل بن نوفيل، و كان القائم به خاقان التركى، و عدّة من فودى به من المسلمين فى عشرة أيام أربعة آلاف و ثلاثمائة و اثنان و ستون من ذكر و أنثى، و حضر مع خاقان أبو رملة، من قبل قاضى القضاة أحمد بن أبى داود يمتحن الأسرى وقت المفاداة، فمن قال منهم بخلق القرآن فودى به و أحسن إليه، و من أبى ترك بأرض الروم، فاختار جماعة من الأسرى الرجوع إلى أرض النصرانية على القول بذلك، و خرج من الأسرى مسلم بن أبى مسلم الحرمى، و كان له محل فى الثغور، و كتب مصنفه فى أخبار الروم و ملوكهم و بلادهم، فنالته محن على القول بخلق القرآن ثم تخلص.

الفداء الرابع: فى خلافة المتوكل على اللّه باللامش أيضا، فى شوّال سنة إحدى و أربعين و مائتين، و الملك ميخائيل، و كان القائم به سيف خادم المتوكل، و حضر معه جعفر بن عبد الواحد الهاشمىّ القاضى، و علىّ بن يحيى الأرمنىّ أمير الثغور الشامية، و كانت عدّة من فودى به من المسلمين فى سبعة أيام ألفى رجل و مائة امرأة، و كان مع الروم من النصارى المأسورين من أرض الإسلام مائة رجل و نيف، فعوّضوا مكانهم عدّة أعلاج، إذ كان الفداء لا يقع على نصرانىّ و لا ينعقد.

الفداء الخامس: فى خلافة المتوكل، و ملك الروم ميخائيل أيضا باللامش، مستهل صفر سنة ست و أربعين و مائتين، و كان القائم به علىّ بن يحيى الأرمنىّ أمير الثغور، و معه نصر بن الأزهر الشيعىّ من شيعة بنى العباس، المرسل إلى الملك فى أمر الفداء من قبل المتوكل، و كانت عدّة من فودى به من المسلمين فى سبعة أيام ألفين و ثلاثمائة و سبعة و ستين من ذكر و أنثى.

الفداء السادس: كان فى أيام المعتز، و الملك على الروم بسيل، على يد شفيع الخادم فى سنة ثلاث و خمسين و مائتين.

الفداء السابع: فى خلافة المعتضد باللامش، فى شوّال سنة ثلاث و ثمانين و مائتين، و ملك الروم اليون بن بسيل، و كان القائم به أحمد بن طغان أمير الثغور الشامية و انطاكية، من قبل الأمير أبى الجيش خماوريه بن أحمد بن طولون، و كانت الهدنة لهذا الفداء وقعت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۶

فى سنة اثنتين و ثمانين و مائتين، فقتل أبو الجيش بدمشق فى ذى القعدة من هذه السنة، و تم الفداء فى إمارة ولده جيش بن خمارويه، و كانت عدّة من فودى به من المسلمين فى عشرة أيام ألفين و أربعمائة و خمسة و تسعين من ذكر و أنثى، و قيل ثلاثة آلاف.

الفداء الثامن: فى خلافة المكتفى باللامش، فى ذى القعدة سنة اثنتين و تسعين و مائتين، و ملك الروم اليون أيضا، و كان القائم به رستم بن نزدوى أمير الثغور الشامية، و كانت عدة من فودى به من المسلمين فى أربعة أيام ألفا و مائة و خمسة و خمسين من ذكر و أنثى، و عرف بفداء الغدر، و ذلك أن الروم غدروا و انصرفوا ببقية الأسارى.

الفداء التاسع: فى خلافة المكتفى، و ملك الروم أليون باللامش أيضا، فى شوّال سنة خمس و تسعين و مائتين، و القائم به رستم، و كانت عدّة من فودى به من المسلمين ألفين و ثمانمائة و اثنين و أربعين من ذكر و أنثى.

الفداء العاشر: فى خلافة المقتدر باللامش، فى شهر ربيع الآخر سنة خمس و ثلاثمائة، و ملك الروم قسطنطين بن اليون بن بسيل، و هو صغير فى حجر أرمانوس، و كان القائم بهذا الفداء مونس الخادم، و بشير الخادم الأفشينى أمير الثغور الشامية و انطاكية و المتوسط له، و المعاون عليه أبو عمير عدىّ بن أحمد بن عبد الباقى التميمىّ الأدنىّ من أهل أدنة، و عدّة من فودى به من المسلمين فى ثمانية أيام ثلاثة آلاف و ثلاثمائة و ستة و ثلاثون من ذكر و أنثى.

الفداء الحادى عشر: فى خلافة المقتدر، و ملك أرمانوس و قسنطيطين على الروم، و كان باللامش فى شهر رجب سنة ثلاث عشرة و

ثلاثمائة، و القائم به مفلح الخادم الأسود المقتدرى، و بشير خليفة شمل الخادم على الثغور الشامية، و عدّة من فودى به من المسلمين فى تسعة عشر يوما، ثلاثة آلاف و تسعمائة و ثلاثة و ثلاثون من ذكر و أنثى.

الفداء الثانى عشر: فى خلافة الراضى باللامش، فى سلخ ذى القعدة، و أيام من ذى الحجة، سنة ست و عشرين و ثلاثمائة و الملكان على الروم قسطنطين و أرمانوس، و القائم به ابن ورقاء الشيبانىّ، من قبل الوزير أبى الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات، و بشير الشملىّ أمير الثغور الشامية، و عدّة من فودى به من المسلمين فى ستة عشر يوما، ستة آلاف و ثلاثمائة و نيف من ذكر و أنثى، و بقى فى أيدى الروم من المسلمين الأسرى ثمانمائة رجل ردّوا، ففودى بهم فى عدّة مرار، و زيدوا فى الهدنة بعد انقضاء الفداء مدّة ستة أشهر لأجل من تخلف فى أيدى الروم من المسلمين، حتى جمع الأسارى منهم.

الفداء الثالث عشر: فى خلافة المطيع باللامش، فى شهر ربيع الأوّل سنة خمس و ثلاثين و ثلاثمائة و الملك على الروم قسطنطين، و القائم به نصر الشملى من قبل سيف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۷

الدولة أبى الحسن علىّ بن حمدان، صاحب جند حمس و جند قنسرين و ديار بكر و ديار مصر و الثغور الشامية و الخزرية، و كانت عدّة من فودى به من المسلمين ألفين و أربعمائة و اثنين و ثمانين من ذكر و أنثى، و فضل للروم على المسلمين قرضا مائتان و ثلاثون لكثرة من كان فى أيديهم، فوفاهم سيف الدولة ذلك و حمله إليهم، و كان الذى شرع فى هذا الفداء الأمير أبو بكر محمد بن طفج الإخشيد أمير مصر و الشام و الثغور الشامية، و كان أبو عمير عدىّ بن أحمد بن عبد الباقى الأدنىّ شيخ الثغور، قدم إليه و هو بدمشق فى ذى الحجة سنة أربع و ثلاثين و ثلاثمائة، و معه رسول ملك الروم فى إتمام هذا الفداء، و الإخشيد شديد العلة، فتوفى يوم الجمعة لثمان خلون من ذى الحجة منها، و سار أبو المسك كافور الإخشيدىّ بالجيش راجعا إلى مصر، و حمل معه أبا عمير و رسول ملك الروم إلى فلسطين، فدفع إليهما ثلاثين ألف دينار من مال الفداء، فسارا إلى مدينة صور و ركبا البحر إلى طرسوس، فلما وصلا كاتب نصر الشملى أمير الثغور سيف الدولة بن حمدان، و دعا له على منابر الثغور، فجدّ فى إتمام هذا الفداء، فنسب إليه. و وقعت أفدية أخرى ليس لها شهرة.

فمنها: فداء فى خلافة المهدى محمد، على يد النقاش الأنطاكى، و فداء فى أيام الرشيد فى شوّال سنة إحدى و ثمانين و مائة، على يد عياض بن سنان أمير الثغور الشامية، و فداء فى أيام الأمين، على يد ثابت بن نصر، فى ذى القعدة سنة أربع و تسعين و مائة، و فداء فى أيام الأمين، على يد ثابت بن نصر أيضا، فى ذى القعدة سنة إحدى و مائتين، و فداء فى أيام المتوكل سنة سبع و أربعين و مائتين، على يد محمد بن على، و فداء فى أيام المعتمد، على يد شفيع، فى شهر رمضان سنة ثمان و خمسين و مائتين، و فداء كان فى الإسكندرية فى شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و أربعين و ثلاثمائة، خرج فيه أبو بكر محمد بن علىّ الماردانىّ من مصر، و معه الشريف أبو القاسم الرئيس، و القاضى أبو حفص عمر بن الحسين العباسى، و حمزة بن محمد الكتانى فى جمع كبير، و كانت عدّة من فودى به من المسلمين ستين نفسا بين ذكر و أنثى.

فلما سار الروم إلى البلاد الشامية بعد سنة خمسين و ثلاثمائة، اشتدّ أمرهم بأخذهم البلاد، و قويت العناية بالأسطول فى مصر منذ قدم المعزل لدين اللّه، و أنشأ المراكب الحربية، و اقتدى به بنوه و كان لهم اهتمام بأمور الجهاد و اعتناء بالأسطول، و واصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر و اسكندرية و دمياط من الشوانى الحربية و الشلنديات و المسطحات، و تسييرها إلى بلاد الساحل مثل صور و عكا و عسقلان، و كانت جريدة قوّاد الأسطول فى آخر أمرهم تزيد على خمسة آلاف مدوّنة، منهم عشرة أعيان يقال لهم القوّاد، واحدهم قائد، و تصل جامكية كلّ واحد منهم إلى عشرين دينارا، ثم إلى خمسة عشر دينارا، ثم إلى عشرة دنانير، ثم إلى ثمانية، ثم إلى دنارين، و هى أقلها. و لهم إقطاعات تعرف بأبواب الغزاة بما فيها من النطرون، فيصل دينارهم بالمناسبة إلى نصف دينار، و كان يعين من القوّاد العشرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۸

واحد فيصير رئيس الأسطول، و يكون معه المقدم و القاوش، فإذا ساروا إلى الغزو كان هو الذى يقلع بهم، و به يقتضى الجميع، فيرسون بإرسائه و يقلعون بإقلاعه، و لا بدّ أن يقدم على الأسطول أمير كبير من أعيان أمراء الدولة و أقواهم نفسا، و يتولى النفقة فى غزاة الأسطول الخليفة بنفسه بحضور الوزير، فإذا أراد أراد النفقة فيما تعين من عدّة المراكب السائرة، و كانت فى أيام المعز لدين اللّه تزيد على ستمائة قطعة، و آخر ما صارت إليه فى آخر الدولة نحو الثمانين شونة، و عشر مسطحات، و عشر حمالة، فما تقصر عن مائة قطعة، فيتقدّم إلى النقباء بإحضار الرجال، و فيهم من كان يتمعش بمصر و القاهرة، و فيهم من هو خارج عنهما، فيجتمعون. و كانت لهم المشاهرة و الجرايات فى مدّة أيام سفرهم، و هم معروفون عند عشرين عريفا يقال لهم النقباء، واحدهم نقيب، و لا يكره أحد على السفر، فإذا اجتمعوا أعلم النقباء المقدّم، فأعلم بذلك الوزير، فطالع الوزير الخليفة بالحال، فقرّر يوما للنفقة، فحضر الوزير بالاستدعاء من ديوان الإنشاء على العادة، فيجلس الخليفة على هيئته فى مجلسه، و يجلس الوزير فى مكانه، و يحضر صاحبا ديوان الجيش، و هما المستوفى و الكاتب، و المستوفى هو أمير هما، فيجلس من داخل عتبة المجلس، و هذه رتبة له يتميز بها، و يجلس بجانبه من وراء العتبة كاتب الجيش فى قاعة الدار على حصر مفروشة، و شرط هذا المستوفى أن يكون عدلا و من أعيان الكتّاب، و يسمى اليوم فى زمننا ناظر الجيش، و أما كاتب الجيش فإنه كان فى غالب الأمر يهوديا، و للمجلس الذى فيه الخليفة و الوزير انطاع تصب عليها الدراهم، و يحضر الوزانون ببيت المال لذلك، فإذا تهيأ الإنفاق أدخل الغزاة مائة مائة، فيقفون فى أخريات من هو واقف فى الخدمة من جانب واحد، نقابة نقابة، و تكون أسماؤهم قد رتبت فى أوراق لاستدعائهم بين يدى الخليفة، فيستدعى مستوفى الجيش من تلك الأوراق المنفق عليهم واحدا واحدا، فإذا خرج اسمه عبر من الجانب الذى هو فيه إلى الجانب الآخر، فإذا تكملت عشرة، وزن الوزانون لهم النفقة، و كانت مقرّرة لكلّ واحد خمسة دنانير صرف ستة و ثلاثين درهما بدينار، فيسلمها لهم النقيب و تكتب باسمه و بيده، و تمضى النفقة هكذا إلى آخرها.

فإذا تم ذلك ركب الوزير من بين يدى الخليفة و انفضّ ذلك الجمع، فيحمل إلى الوزير من القصر مائدة يقال لها غداء الوزير، و هى سبع مجنقات أوساط، إحداها بلحم الدجاج و فستق، معمولة بصناعة محكمة، و البقية شواء، و هى مكمورة بالأزهار. فتكون النفقة على ذلك مدّة أيام متوالية مرّة و متفرّقة مرّة، فإذا تكاملت النفقة و تجهزت المراكب و تهيأت للسفر، ركب الخليفة و الوزير إلى ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة، و كان هناك على شاطىء النيل بالجامع منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداع الأسطول و لقائه إذا عاد، فإذا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۳۹

جلس للوداع جاءت القوّاد بالمراكب من مصر إلى هناك للحركات فى البحر بين يديه، و هى مزينة بأسلحتها و لبودها و ما فيها من المنجنيقات، فيرمى بها و تنحدر المراكب و تقلع، و تفعل سائر ما تفعله عند لقاء العدوّ، ثم يحضر المقدّم و الرئيس إلى بين يدى الخليفة فيودّعهما و يدعو للجماعة بالنصرة و السلامة، و يعطى للمقدم مائة دينار، و للرئيس عشرين دينارا، و ينحدر الأسطول إلى دمياط و من هناك يخرج إلى بحر الملح، فيكون له ببلاد العدوّ صيت عظيم و مهابة قوية، و العادة أنه إذا غنم الأسطول ما عسى أن يغنم، لا يتعرّض السلطان منه إلى شىء البتة إلّا ما كان من الأسرى و السلاح، فإنه للسلطان، و ما عداهما من المال و الثياب و نحو هما فإنه لغزاة الأسطول، لا يشاركهم فيه أحد، فإذا قدم الأسطول خرج الخليفة أيضا إلى منظرة المقس و جلس فيها للقائه، و قدم الأسطول مرّة بألف و خمسمائة أسير، و كانت العادة أن الأسرى ينزل بهم فى المناخ، و تضاف الرجال إلى من فيه من الأسرى، و يمضى بالنساء و الأطفال إلى القصر بعد ما يعطى منهم الوزير طائفة، و يفرّق ما بقى من النساء على الجهات و الأقارب، فيستخدمونهنّ و يربونهنّ حتى يتقنّ الصنائع، و يدفع الصغار من الأسرى إلى الاستادين فيربونهم و يتعلمون الكتابة و الرماية، و يقال لهم الترابى، و فيهم من صار أميرا من صبيان خاص الخليفة، من الأسرى من كان يستراب به فيقتل، و من كان منهم شيخا لا ينتفع به ضربت عنقه و ألقى فى

بئر كانت فى خرائب مصر، تعرف ببئر المنامة، و لم يعرف قط عن الدولة الفاطمية أنها فادت أسيرا من الفرنج بمال و لا بأسير مثله، و كان المنفق فى الأسطول كلّ سنة خارجا عن العدد و الآلات.

و لم يزل الأسطول على ذلك إلى أن كانت وزارة شاور، و نزل مرى ملك الفرنج على بركة الحبش، فأمر شاور بتحريق مصر و تحريق مراكب الأسطول، فحرّقت و نهبها العبيد فيما نهبوا، فلما كان زوال الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، اعتنى أيضا بأمر الأسطول و أفرد له ديوانا عرف بديوان الأسطول، و عين لهذا الديوان الفيوم بأعمالها، و الحبس الجيوشى فى البرّين الشرقىّ و الغربىّ، و هو من البرّ الشرقىّ بهتين و الأميريّة و المنية، و من البرّ الغربىّ ناحية سفط و نهيا و وسيم و البساتين خارج القاهرة، و عين له أيضا الخراج، و هو أشجار من سنط لا تحصى كثرة، فى البهنساوية و سفط ريشين و الأشمونين و الأسيوطية و الأخميمية و القوصية، لم تزل بهذه النواحى لا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه، و كان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار، و قد ذكر خبر هذا الخراج فى ذكر أقسام مال مصر من هذا الكتاب، و عين له أيضا النطرون، و كان قد بلغ ضمانه ثمانية آلاف دينار، ثم أفرد لديوان الأسطول مع ما ذكر الزكاة التى كانت تجبى بمصر، و بلغت فى سنة زيادة على خمسين ألف دينار، و أفرد له المراكب الديوانية و ناحية أشناى و طنبدى، و سلّم هذا الديوان لأخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب، فأقام فى مباشرته و عمالته صفىّ الدين عبد اللّه بن علىّ بن شكر، و تقرّر ديوان الأسطول الذى ينفق فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۰

رجاله نصف و ربع دينار، بعد ما كان نصف و ثمن دينار.

فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، استمرّ الحال فى الأسطول قليلا ثم قلّ الاهتمام به، و صار لا يفكر فى أمره إلا عند الحاجة إليه، فإذا دعت الضرورة إلى تجهيزه طلب له الرجا لو قبض عليهم من الطرقات و قيدوا فى السلاسل نهارا و سجنوا فى الليل حتى لا يهربوا، و لا يصرف لهم إلّا شىء قليل من الخبز و نحوه، و ربما أقاموا الأيام بغير شىء كما يفعل بالأسرى من العدوّ فصارت خدمة الأسطول عارا يسبّ به الرجال، و إذا قيل لرجل فى مصر يا أسطولىّ، غضب غضبا شديدا، بعد ما كان خدّام الأسطول يقال لهم المجاهدون فى سبيل اللّه، و الغزاة فى أعداء اللّه، و يتبرّك بدعائهم الناس.

ثم لما انقرضت دولة بنى أيوب و تملك الأتراك المماليك مصر، أهملوا أمر الأسطول إلى أن كانت أيام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، فنظر فى أمر الشوانى الحربية، و استدعى برجال الأسطول، و كان الأمراء قد استعملوهم فى الحراريق و غيرها، و ندبهم للسفر و أمر بمدّ الشوانى و قطع الأخشاب لعمارتها و إقامتها على ما كانت عليه فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، و احترز على الخراج و منع الناس من التصرّف فى أعواد العمل، و تقدّم بعمارة الشوانى فى ثغرى الإسكندرية و دمياط، و صار ينزل بنفسه إلى الصناعة بمصر و يرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشوانى و مصالحها، و استدعى بشوانى الثغور إلى مصر فبلغت زيادة على أربعين قطعة سوى الحراريق و الطرائد، فإنها كانت عدّة كثيرة، و ذلك فى شوال سنة تسع و ستين و ستمائة، ثم سارت تريد قبرس، و قد عمل ابن حسون رئيس الشوانى فى أعلامها الصلبان، يريد بذلك أنها تفى إذا عبرت البحر على الفرنج حتى تطرقهم على غفلة، فكره الناس منه ذلك، فلما قاربت قبرس تقدّم ابن حسون فى الليل ليهجهم المينا فصدم الشونة المقدّمة شعبا فانكسرت، و تبعتها بقية الشوانى فتكسرت الشوانى كلها، و علم بذلك متملك قبرس فأسر كلّ من فيها، و أحاط بما معهم و كتب إلى السلطان يقرّعه و يوبخه، و أن شوانيه قد تكسرت، و أخذ ما فيها و عدّتها إحدى عشرة شونة، و أسر رجالها.

فحمد السلطان اللّه تعالى و قال: الحمد للّه، منذ ملكنى اللّه تعالى ما خذل لى عكسر، و لا ذلّت لى راية، و ما زلت أخشى العين، فالحمد للّه تعالى، بهذا و لا بغيره، و أمر بإنشاء عشرين شونة، و أحضر خمس شوانى كانت على مدينة قوص من صعيد مصر، و لازم الركوب إلى صناعة العمارة بمصر كلّ يوم فى مدّة شهر المحرّم سنة سبعين و ستمائة إلى أن تنجزت، فلما كان فى نصف المحرّم سنة إحدى و سبعين و ستمائة، زاد النيل حتى لعبت الشوانى بين يديه، فكان يوما مشهودا، فى سنة اثنتين و تسعين و ستمائة تقدّم السلطان

الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاون إلى الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۱

بتجهيز أمير الشوانى، فنزل إلى الصناعة و استدعى الرئيس و هيأ جميع ما تحتاج إليه الشوانى حتى كملت عدّتها، نحو ستين شونة، و شحنها بالعدد و آلات الحرب، و رتب بها عدّة من المماليك السلطانية، و ألبسهم السلاح، فأقبل الناس لمشاهدتهم من كلّ أوب قبل ركوب السلطان بثلاثة أيام، و صنعوا لهم قصورا من خشب و أخصاص القش على شاطىء النيل خارج مدينة مصر و بالروضة، و اكتروا الساحات التى قدّام الدور و الزرابى بالمائتى درهم، كلّ زريبة ما دونها، بحيث لم يبق بيت بالقاهرة و مصر إلا و خرج أهله أو بعضهم لرؤية ذلك، فصار جمعا عظيما، و ركب السلطان من قلعة الجبل بكرة، و الناس قد ملأ و أما بين المقياس إلى بستان الخشاب إلى بلاق، و ونف السلطان و نائبه الأمير بيدر و بقية الأمراء قدّام دار النحاس، و منع الحجاب من التعرّض لطرد العامّة، فبرزت الشوانى واحدة بعد واحدة، و قد عمل فى كل شونة برج و قلعة تحاصر، و القتال عليها ملح، و النفط يرمى عليها، و عدّة من النقابين فى أعمال الحيلة، فى النقب، و ما منهم إلّا من أظهر فى شونته عملا معجبا و صناعة غريبة يفوق بها على صاحبه، و تقدّم ابن موسى الراعى و هو فى مركب نيلية فقرأ قوله تعالى: بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ [هود/ ۴۱] ثم تلاها بقراءة قوله تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ [آل عمران/ ۲۶] إلى آخر الآية، هذا و الشوانى تتواصل بمحاربة بعضها بعضا إلى أن أذن لصلاة الظهر، فمضى السلطان بعسكره عائد إلى القلعة، فأقام الناس بقية يومهم و تلك الليلة على ما هم عليه من اللهو فى اجتماعهم، و كان شيئا يجلّ وصفه، و أنفق فيه مال لا يعدّ، بحيث بلغت أجرة المركب فى هذا اليوم ستمائة درهم فما دونها، و كان الرجل الواحد يؤخذ منه أجرة ركوبه فى المركب خمسة دراهم، و حصل لعدّة من النواتية أجرة مراكبهم عن سنة فى هذا اليوم، و كان الخبز يباع اثنا عشر رطلا بدرهم، فلكثرة اجتماع الناس بمصر بيع سبعة أرطال بدرهم، فبلغ خبر الشوانى إلى بلاد الفرنج فبعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون الصلح.

فلما كان المحرّم سنة اثنتين و سبعمائة فى سلطنة الناصر محمد بن قلاون، جهزت الشوانى بالعدد و السلاح و النفطية و الأزودة، و عين لها جماعة من أجناد الحلقة، و ألزم كلّ أمير بإرسال رجلين من عدّته، و ألزم أمراء الطبلخاناه و العشروات بإخراج كلّ أمير من عدّته رجلا و ندب الأمير سيف الدين كهرداش المنصوريّ الزراق إلى السفر بهم و معه جماعة من مماليك السلطان الزراقين، و زينت الشوانى أحسن زينة، فخرج معظم الناس لرؤيتها و أقاموا يومين بلياليهما على الساحل بالبرّين، و كان جمعا عظيما إلى الغاية، و بلغت أجرة المركب الصغير مائة درهم لأجل الفرجة، ثم ركب السلطان بكرة يوم السبت ثانى عشر المحرّم و معه الأمير سلار النائب، و الأمير بيبرس الجاشنكير، و سائر الأمراء، و العسكر، فوقفت المماليك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۲

على البرّ نحو بستان الخشاب، و عدّى الأمراء فى الحراريق إلى الروضة، و خرجت الشوانى واحدة بعد واحدة، فلعبت منها ثلاثة و خرجت الرابعة و فيها الأمير أقوش القارى من مينا الصناعة حتى توسط البحر، فلعب بها الريح إلى أن مالت و انقلبت، فصار أعلاها أسفلها فتداركها الناس و رفعوا ما قدروا عليه من العدد و السلاح، و سلمت الرجال فلم يعدم منهم سوى أقوش وحده، فتنكد الناس و عاد الأمراء إلى القلعة بالسلطان، و جهز شونة عوضا عن التى غرقت و ساروا إلى مينا طرابلس، ثم ساروا و معهم عدّة من طرابلس فأشرقوا من الغد على جزيرة أرواد من أعمال قبرس، و قاتلوا أهلها و قتلوا أكثرهم و ملكوها فى يوم الجمعة ثامن عشرى صفر، و استولوا على ما فيها و هدموا أسوارها و عادوا إلى طرابلس، و أخرجوا من الغنائم الخمس للسلطان، و اقتسموا ما بقى منها، و كان معهم مائتان و ثمانون أسيرا، فسرّ السلطان بذلك سرورا كثيرا.

صناعة المقس: قال ابن أبى طيّ فى تاريخه عند ذكر وفاة المعز لدين اللّه، أنه أنشأ دار الصناعة التى بالمقس، و أنشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على ميناء. و قال المسبحى: أن العزيز بالله بن المعز هو الذى بنى دار الصناعة التى بالمقس، و عمل المراكب التى

لم ير مثلها فيما تقدم كبرا و وثاقة و حسنا. و قال فى حوادث سنة ست و ثمانين و ثلاثمائة: و وقعت نار فى الأسطول وقت صلاة الجمعة، لست بقين من شهر ربيع الآخر، فأحرقت خمس عشاريات و أتت على جميع ما فى الأسطول من العدّة و السلاح و اتهموا الروم النصارى، و كانوا مقيمين بدار ماتك بجوار الصناعة التى بالمقس، و حملوا على الروم هم و جموع من العامّة معهم، فنهبوا أمتعة الروم و قتلوا منهم مائة رجل و سبعة رجال، و طرحوا جثثهم فى الطرقات، و أخذ من بقى فحبس بصناعة المقس، ثم حضر عيسى بن نسطورس خليفة أمير المؤمنين العزيز بالله فى الأموال و وجوهها بديار مصر و الشام و الحجاز، و معه يانس الصقلبىّ، و هو يومئذ خليفة العزيز بالله على القاهرة عند مسيره إلى الشام، و معهما مسعود الصقلبىّ متولى الشرطة، و أحضروا الروم من الصناعة فاعترفوا بأنهم الذين أحرقوا الأسطول، فكتب بذلك إلى العزيز بالله و هو مبرّز يريد السفر إلى الشام، و ذكر له فى الكتاب خبر من قتل من الروم و ما نهب، و أنه ذهب فى النهب ما يبلغ تسعين ألف دينار، فطاف أصحاب الشرط فى الأسواق بسجل فيه الأمر برد ما نهب من دار ماتك و غيرها، و التوعد لمن ظهر عنده منه شىء، و حفظ أبو الحسن يانس البلد و ضبط الناس، و أمر عيسى بن نسطورس أن يمدّ للوقت عشرون مركبا، و طرح الخشب و طلب الصناع و بات فى الصناعة، و جدّ الصناع فى العمل، و أغلب أحداث الناس و عامّتهم يلعبون برءوس القتلى و يجرّون بأرجلهم فى الأسواق و الشوارع، ثم قرنوا بعضهم إلى بعض على ساحل النيل بالمقس و أحرقوا يوم السبت، و ضرب بالحرس على البلد، أن لا يتخلف أحد ممن نهب شيئا حتى يحضر ما نهبه و يردّه، و من علم عليه بشىء أو كتم شيئا أو جحده أو أخره، حلت به العقوبة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۳

الشديدة، و تتبع من نهب فقبض على عدّة قتل منهم عشرون رجلا ضربت أعناقهم، و ضرب ثلاثة و عشرون رجلا بالسياط، و طيف بهم و فى عنق كلّ واحد رأس رجل ممن قتل من الروم، و حبس عدّة أناس، و أمر بمن ضربت أعناقهم فصلبوا عند كوم دينار، و ردّ المصريون إلى المطبق، و كان ضرب من ضرب من النهابة و قتل من قتل منهم برقاع كتبت لهم، تناول كلّ واحد منهم رقعة فيها مكتوب إما بقتل أو ضرب، فأمضى فيهم بحسب ما كان فى رقاعهم من قتل أو ضرب، و اشتدّ الطلب على النهاية فكان الناس يدل بعضهم على بعض، فإذا أخذ أحد ممن اتهم بالنهب حلف بالأيمان المغلظة أنه ما بقى عنده شىء.

و جدّ عيسى بن نسطورس فى عمل الأسطول و طلب الخشب، فلم يدع عند أحد خشبا علم به إلّا أخذه منه، و تزايد إخراج النهابة لما نهبوه، فكانوا يطرحونه فى الأزقة و الشوارع خوفا من أن يعرفوا به، و حبس كثير ممن أحضر شيئا أو عرف عليه من النهب، فلما كان يوم الخميس ثامن جمادى الأولى ضربت أعناقهم كلهم على يد أبى أحمد جعفر صاحب يانس، فإنه قدم فى عسكر كثير من اليانسية حتى ضربت أعناق الجماعة، و أغلقت الأسواق يومئذ و طاف متولى الشرطة و بين يديه أرباب النفط بعددهم و النار مشتعلة، و اليانسية ركاب بالسلاح، و قد ضرب جماعة و شهرهم بين يديه و هم ينادى عليهم هذا جزاء من أثار الفتن و نهب حريم أمير المؤمنين، فمن نظر فليعتبر فما تقال لهم عثرة و لا ترحم لهم عبرة فى كلام كثير من هذا الجنس، فاشتدّ خوف الناس و عظم فزعهم، فلما كان من الغد نودى: معاشر الناس قد آمن اللّه من أخذ شيئا أو نهب شيئا على نفسه و ما له، فليردّ من بقى عنده شىء من النهب، و قد أجلناكم من اليوم إلى مثله، و فى سابع جمادى الآخرة نزل ابن نسطورس إلى الصناعة و طرح مركبين فى غاية الكبر من التى استعملها بعد حريق الأسطول، و فى غرّة شعبان نزل أيضا و طرح بين يديه أربعة مراكب كبارا من المنشأة بعد الحريق، و اتفق موت العزيز بالله و هو سائر إلى الشام فى مدينة بلبيس.

فلما قام من بعده ابنه الحاكم بأمر اللّه فى الخلافة أمر فى خامس شوال بحط الذين صلبهم ابن نسطورس، فتسلمهم أهلهم و أعطى لأهل كلّ مصلوب عشرة دنانير برسم كفنه و دفنه، و خلع على عيسى بن نسطورس و أقرّه فى ديوان الخاص، ثم قبض عليه فى ليلة الأربعاء سابع المحرّم سنة سبع و ثمانين و ثلاثمائة و اعتقله إلى ليلة الاثنين سابع عشريه، فأخرجه الأستاذ برجوان و هو يومئذ يتولى تدبير الدولة إلى المقس، و ضرب عنقه، فقال و هو ماض إلى المقس: كلّ شىء قد كنت أحسبه إلّا موت العزيز بالله، و لكن اللّه لا

يظلم أحدا، و اللّه إنى لأذكر و قد ألقيت السهام للقوم المأخوذين فى نهب دار ماتك، و فى بعضها مكتوب يقتل و فى أخرى يضرب، فأخذ شاب ممن قبض عليه رقعة منها فجاء فيها يقتل، فأمرت به إلى القتل، فصاحت أمّه و لطمت وجهها و حلفت أنها و هو ما كانا ليلة النهب فى شيء من أعمال مصر، و إنما ورد أمصر بعد النهب بثلاثة أيام، و ناشدتنى اللّه تعالى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۴

أن أجعله من جملة من يضرب بالسوط، و أن يعفى من القتل، فلم ألتفت إليها و أمرت بضرب عنقه، فقالت أمّه: إن كنت لا بدّ قاتله فاجعله آخر من يقتل لأتمتع به ساعة، فأمرت به فجعل أوّل من ضرب عنقه، فلطخت بدمه و جمهها و سبقتنى و هى منبوشة الشعر ذاهلة العقل إلى القصر، فلما وافيت قالت لى أقتلته؟ كذلك. يقتلك اللّه، فأمرت بها فضربت حتى سقطت إلى الأرض، ثم كان من الأمر ما ترون مما أنا صائر إليه، و كان خبره عبرة لمن اعتبر، و فى نصف شعبان سنة ثمان و تسعين و ثلاثمائة ركب الحاكم بأمر اللّه إلى صناعة المقس لتطرح المراكب بين يديه.

صناعة الجزيرة: هذه الصناعة كانت بجزيرة مصر التى تعرف اليوم بالروضة، و هى أوّل صناعة عملت بفسطاط مصر، بنيت فى سنة أربع و خمسين من الهجرة، و كان قبل بنائها هناك خمسمائة فاعل تكون مقيمة أبدا معدّة لحريق يكون فى البلاد أو هدم، ثم اعتنى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون بإنشاء المراكب الحربية فى هذه الصناعة و أطافها بالجزيرة، و لم تزل هذه الصناعة إلى أيام الملك الأمير أبى بكر محمد بن طغج الإخشيد، فأنشأ صناعة بساحل فسطاط مصر، و جعل موضع هذه الصناعة البستان المختار كما قد ذكر فى موضعه من هذا الكتاب،

صناعة مصر: هذه الصناعة كانت بساحل مصر القديم، يعرف موضعها بدار خديجة بنت الفتح بن خاقان، امرأة الأمير أحمد بن طولون، إلى أن قدم الأمير أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد أميرا على مصر من قبل الخليفة الراضى، عوضا عن أحمد بن كيغلغ فى سنة ثلاث و عشرين و ثلاثمائة، و قد كثرت الفتن، فلم يدخل عيسى بن أحمد السلمىّ أبو مالك كبير المغاربة فى طاعته، و مضى و معه بحكم و علىّ بن بدر و نظيف النوشرىّ و علىّ المغربىّ إلى الفيوم، فبعث إليهم الإخشيد صاعدين الكلكم بمراكبه، فقاتلوه و قتلوه و أخذوا مراكبه، و ركب فيها علىّ بن بدر و بحكم و قدموا مدينة مصر أوّل يوم من ذى القعدة، فأرسوا بجزيرة الصناعة، و ركب الإخشيد فى جيشه و وقف حيالهم، و النيل بينهم و بينه، فكره ذلك و قال:

صناعة يحول بينها و بين صاحبها الماء ليست بشيء، فأقام بحكم و علىّ بن بدر إلى آخر النهار و مضوا إلى جهة الإسكندرية و عاد الإخشيد إلى داره فأخذ فى تحويل الصناعة من موضعها بالجزيرة إلى دار خديجة بنت الفتح، فى شعبان سة خمس و عشرين و ثلاثمائة و كان إذ ذاك عندها سلّم ينزل منه إلى الماء، و عند ما ابتدأ فى إنشاء المراكب بها صاحت به امرأة فأمر بأخذها إليه، فسألته أن يبعث معها من يحمل المال، فسيّر معها طائفة، فأتت بهم إلى دار خديجة هذه و دلتهم على موضع منها فأخرجوا منه عينا و ورقا و حليا و غيره، و طلبت المرأة فلم توجد و لا عرف لها خبر، و كانت مراكب الأسطول مع ذلك تنشأ فى الجزيرة و فى صناعتها إلى أيام الخليفة الآمر بأحكام اللّه تعالى، فلما ولى المأمون بن البطائحىّ أنكر ذلك و أمر أن يكون إنشاء الشوانى و المراكب النيلية الديوانية بصناعة مصر هذه، و أضاف إليها دار

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۵

الزبيب، و أنشأ بها منظرة لجلوس الخليفة يوم تقدمة الأسطول ورميه، فأقرّ إنشاء الحربيات و الشلنديات بصناعة الجزيرة، و كان لهذه الصناعة دهليز ماد بمساطب مفروشة بالحصر العبدانية بسطا و تازيرا، و فيها محل ديوان الجهاد، و كان يعرف فى الدولة الفاطمية أن لا يدخل من باب هذه الصناعة أحد راكبا إلّا الخليفة و الوزير إذا ركبا فى يوم فتح الخليج عند وفاء النيل، فإن الخليفة كان يدخل من بابها و يشقّها راكبا و الوزير معه حتى يركب النيل إلى المقياس، كما قد ذكر فى موضعه من ذا الكتاب، و لم تزل هذه الصناعة عامرة إلى ما قبل سنة سبعمائة، ثم صارت بستانا عرف ببستان ابن كيسان، ثم عرف فى زمننا ببستان الطواشىّ، و كان فيما بين هذه الصناعة و

الروضة بحر، ثم تربى جرف عرف موضعه بالجرف، و أنشئ هناك بستان عرف ببستان الجرف، و صار فى جملة أوقاف خانقاه المواصلة، و قيل لهذا الجرف بين الزقاقين، و كان فيه عدّة دور و حمّام و طواحين و غير ذلك، ثم خرّب من بعد سنة ست و ثمانمائة، و خرب بستان الجرف أيضا، و إلى اليوم بستان الطواشى فيه بقية، و هو على يسرة من يريد مصر من طريق المراغة، و بظاهره حوض ماء ترده الدواب، و من وراء البستان كيمان فيها كنيسة للنصارى. قال ابن المتوّج: و كان مكان بستان ابن كيسان صناعة العمارة، و أدركت فيه بابها، و بستان الجرف المقابل لبستان ابن كيسان كان مكانه بحر النيل، و إن الجرف تربى به.

ذكر الميادين

ميدان ابن طولون: كان قد بناه و تأنق فيه تأنقا زائدا، و عمل فيه المناخ و بركة الزئبق و القبة الذهبية، و قد ذكر خبر هذا الميدان عند ذكر القطائع من هذا الكتاب.

ميدان الإخشيد: هذا الميدان أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد أمير مصر، بجوار بستانه الذى يعرف اليوم فى القاهرة بالكافورىّ، و يشبه أن يكون موضع هذا الميدان اليوم حيث المكان المعروف بالبندقانيين و حامة الوزيرية، و ما جاور ذلك. و كان لهذا البستان بابان من حديد قلعهما القائد جوهر عند ما قدم القرمطىّ إلى مصر يريد أخذها، و جعلهما على باب الخندق الذى حفره بظاهر القاهرة قريبا من مدينة عين شمس، و ذلك فى سنة ستين و ثلاثمائة و كان هذا الميدان من أعظم أماكن مصر، و كانت فيه الخيول السلطانية فى الدولة الإخشيدية.

ميدان القصر: هذا الميدان موضعه الآن فى القاهرة، يعرف بالخرنشف، عمل عند بناء القاهرة بجوار البستان الكافورىّ، و لم يزل ميدانا للخلفاء الفاطميين، يدخل إليه من باب التبانين الذى موضعه الآن يعرف بقبو الخرنشف، فلما زالت الدولة الفاطمية تعطل و بقى إلى أن بنى به الغز اصطبلات بالخرنشف، ثم حكر و بنى فيه، فصار من أخطاط القاهرة.

ميدان قراقوش: هذا الميدان خارج باب الفتوح.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۶

ميدان الملك العزيز: هذا الميدان كان بجوار خليج الدكر، و كان موضعه بستانا. قال القاضى الفاضل فى متجددات ثالث عشرى شهر رمضان، سنة أربع و تسعين و خمسمائة:

خرج أمر الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، بقطع النخل المثمر المستغل تحت اللؤلؤة بالبستان المعروف بالبغدادية، و هذا البستان كان من بساتين القاهرة الموصوفة، و كان منظره من المناظر المستحسنة، و كان له مستغل، و كان قد عنى الأوّلون به لمجاورته اللؤلؤة، و أطلال جميع مناظرها عليه، و جعل هذا البستان ميدانا و حرث أرضه و قطع ما فيه من الأصول. انتهى.

ثم حكر الناس أرض هذا البستان و بنوا عليها، و هو الآن داثر فيه كيمان و أتربة انتهى.

الميدان الصالحىّ: هذا الميدان كان بأراضى اللوق من برّ الخليج الغربىّ، و موضعه الآن من جامع المطباخ بباب اللوق إلى قنطرة قدادار التى على الخليج الناصرىّ، و من جملته الطريق المملوكة الآن من باب اللوق إلى القنطرة المذكورة، و كان أوّلا بستانا يعرف ببستان الشريف ابن ثعلب، فاشتراه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، بثلاثة آلاف دينار مصرية، من الأمير حصن الدين ثعلب بن الأمير فخر الدين إسماعيل بن ثعلب الجعفرىّ، فى شهر رجب سنة ثلاث و أربعين و ستمائة، و جعله ميدانا و أنشأ فيه مناظر جليلة تشرف على النيل الأعظم، و صار يركب إليه و يلعب فيه بالكرة، و كان عمل هذا الميدان سببا لبناء القنطرة التى يقال لها اليوم قنطرة الخرق على الخليج الكبير لجوازه عليها، و كان قبل بنائها موضعها موردة سقائى القاهرة، و ما برح هذا الميدان تلعب فيه الملوك بالكرة من بعد الملك الصالح إلى أن انحسر ماء النيل من تجاهه، و بعد عنه،

فأنشأ الملك الظاهر ميدانا على النيل.

و فى سلطنة الملك المعز عز الدين أيبك التركمانىّ الصالحىّ النجمىّ، قال له منجمه أنّ امرأة تكون سببا فى قتله، فأمر أن تخرب الدور و الحوانيت التى من قلعة الجبل بالتبانة إلى باب زويلة، و إلى باب الخرق و إلى باب اللوق إلى الميدان الصالحىّ، و أمر أن لا يترك باب مفتوح بالأماكن التى يمرّ عليها يوم ركوبه إلى الميدان، و لا تفتح أيضا طاقة، و ما زال باب هذا الميدان باقيا و عليه طوارق مدهونة إلى ما بعد سنة أربعين و سبعمائة، فأدخله صلاح الدين بن المغربىّ فى قيسارية الغزل التى أنشأ هناك، و لأجل هذا الباب قيل لذلك الخط باب اللوق، و لما خرب هذا الميدان حكر و بنى موضعه ما هنالك من المساكن، و من جملته حكر مرادى، و هو على يمنة من سلك من جامع الطباخ إلى قنطرة قدادار، و هو فى أوقاف خانقاه قوصون و جامع قوصون بالقرافة، و هذا الحكر اليوم قد صار كيمانا بعد كثرة العمارة به.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۷

الميدان الظاهرىّ: هذا الميدان كان بطرف أراضى اللوق يشرف على النيل الأعظم، و موضعه الآن تجاه قنطرة قدادار من جهة باب اللوق، أنشأه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ الصالحىّ، لما انحسر ماء النيل و بعد عن ميدان أستاذه الملك الصالح نجم الدين أيوب، و ما زال يلعب فيه بالكرة هو و من بعده من ملوك مصر، إلى أن كانت سنة أربع عشرة و سبعمائة، فنزل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون إليه و خرّب مناظره و عمله بستانا من أجل بعد البحر عنه، و أرسل إلى دمشق فحمل إليه منها سائر أصناف الشجر، و أحضر معها خولة الشام و المطعمين، فغرسوها فيه و طعموها، و ما زال بستانا عظيما، و منه تعلم الناس بمصر تطعيم الأشجار فى بساتين جزيرة الفيل، و جعل السلطان فواكه هذا البستان مع فواكه البستان الذى أنشأه بسرياقوس تحمل بأسرها إلى الشراب خاناه السلطانية بقلعة الجبل، و لا يباع منا شىء البتة، و تصرف كلفهما من الأموال الديوانية، فجادت فواكه هذين البستانين و كثرت حتى حاكت بحسنها فواكه الشام لشدجة العناية و الخدمة بهما، ثم إنّ السلطان لما اختص بالأمير قوصون أنعم بهذا البستان عليه، فعمر تجاهه الزريبة التى عرفت بزريبة قوصون على النيل، و بنى الناس الدور الكثيرة هناك سميا لما حفر الخليج الناصرى، فإن العمارة عظمت فيما بين هذا البستان و البحر و فيما بينه و بين القاهرة و مصر، ثم إنّ هذا البستان خرب لتلاشى أحواله بعد قوصون، و حكرت أرضه و بنى الناس فوقها الدور التى على يسرة من صعد القنطرة من جهة باب اللوق يريد الزريبة، ثم لما خرب خط الزريبة خرب ما عمر بأرض هذا البستان من الدور، منذ سنة ست و ثمانمائة و اللّه تعالى أعلم.

ميدان بركة الفيل: هذا الميدان كان مشرفا على بركة الفيل قبالة الكبش، و كان أوّلا اصطبل الجوق برسم خيول المماليك السلطانية، إلى أن جلس الأمير زين الدين كتبغا على تخت الملك و تلقب بالملك العادل، بعد خلعه الملك الناصر محمد بن قلاون فى المحرّم سنة أربع و تسعين و ستمائة، فلما دخلت سنة خمس و تسعين كان الناس فى أشدّ ما يكون من غلاء الأسعار و كثرة الموتان، و السلطان خائف على نفسه و متحرّز من وقوع فتنة، و هو مع ذلك ينزل من قلعة الجبل إلى الميدان الظاهرىّ بطرف اللوق، فحسن بخاطره أن يعمل إصطبل الجوق المذكور ميدانا عوضا عن ميدان اللوق، و ذكر ذلك للأمراء فأعجبهم ذلك، فأمر بإخراج الخيل منه و شرعه فى عمله ميدانا، و بادر الناس من حينئذ إلى بناء الدور بجانبه، و كان أوّل من أنشأ هناك الأمير علم الدين سنجر الخازن فى الموضع الذى عرف اليوم بحكر الخازن، و تلاه الناس فى العمارة و الأمراء، و صار السلطان ينزل إلى هذا الميدان من القلعة فلا يجد فى طريقه أحدا من الناس سوى أصحاب الدكاكين من الباعة لقلة الناس و شغلهم بما هم فيه من الغلاء و الوباء، و لقد رآه شخص من الناس و قد نزل إلى الميدان و الطرقات خالية فأنشد ما قيل فى الطبيب ابن زهر:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۸ قل للغلا أنت و ابن زهربلغتما الحدّ و النهايه

ترفقا بالورى قليلافى واحد منكما كفايه

و ما برح هذا الميدان باقيا إلى أن عمّر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون قصر الأمير بكتمر الساقى على بركة الفيل، فأدخل فيه

جميع أرض هذا الميدان، و جعله إصطبل الأمير بكتمر الساقى، فى سنة سبع عشرة و سبعمائة، و هو باق إلى وقتنا هذا.

ميدان المهارى: هذا الميدان بالقرب من قناطر السباع فى برّ الخليج الغربىّ، كان من جملة جنان الزهرىّ، أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة عشرين و سبعمائة، و من وراء هذا الميدان بركة ماء كان موضعها كرم القاضى الفاضل رحمة اللّه عليه.

قال جامع السيرة الناصرية: و كان الملك الناصر محمد بن قلاون له شغف عظيم بالخيل، فعمل ديوانا ينزل فيه كلّ فرس بشأنه و اسم صاحبه و تاريخ الوقت الذى حضر فيه، فإذا حملت فرس من خيول السلطان أعلم به و ترقب الوقت الذى تلد فيه، و استكثر من الخيل حتى احتاج إلى مكان برسم نتاجها، فركب من قلعة الجبل فى سنة عشرين و سبعمائة، و عين موضعا يعمله ميدانا برسم المهارى، فوقع اختياره على أرض بالقرب من قناطر السباع، و ما زال واقفا بفرسه حتى حدّد الموضع و شرع فى نقل الطين البليز إليه، و زرعه من النخل و غيره، و ركب على الآبار التى فيه السواقى، فلم يمض سوى أيام حتى ركب إليه و لعب فيه بالكرة مع الخاصكية، و رتب فيه عدّة حجور للنتاج و أعدّلها سوّاسا و أميرا خورية و سائر ما يحتاج إليه، و بنى فيه أماكن و لازم الدخول إليه فى ممرّه إلى الميدان الذى أنشأه على النيل بموردة الملح.

فلما كان بعد أيام و أشهر حسن فى نفسه أن يبنى تجاه هذا الميدان على النيل الأعظم بجوار جامع الطيبرسى زريبة، و يبرز بالمناظر التى ينشئها فى الميدان إلى قرب البحر، فنزل بنفسه و تحدّث فى ذلك، فكثّر المهندسون المصروف فى عينه و صعّبوا الأمر من جهة قلة الطين هناك، و كان قد أدركه السفر للصعيد، فترك ذلك و ما برحت الخيول فى هذا الميدان إلى أن مات الملك الظاهر برقوق فى سنة إحدى و ثمانمائة، و استمرّ بعده فى أيام ابنه الملك الناصر فرج، إلّا أنه تلاشى أمره عما كان قبل ذلك، ثم انقطعت منه الخيول و صار براحا خاليا.

ميدان سرياقوس: كان هذا الميدان شرقىّ ناحية سرياقوس بالقرب من الخانقاه، أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاون فى ذى الحجة سنة ثلاث و عشرين و سبعمائة، و بنى فيه قصورا جليلة و عدّة منازل للأمراء، و غرس فيه بستانا كبيرا نقل إليه من دمشق سائر الأشجار التى تحمل الفواكه، و أحضر معها خولة بلاد الشام حتى غرسوها و طعموا الأشجار، فأفلح

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۴۹

فيه الكرم و السفرجل و سائر الفواكه، فلما كمل فى سنة خمس و عشرين خرج و معه الأمراء و الأعيان و نزل القصور التى هناك، و نزل الأمراء و الأعيان على منازلهم فى الأماكن التى بنيت لهم، و استمرّ يتوجه إليه فى كلّ سنة و يقيم به الأيام و يلعب فيه بالكرة إلى أن مات، فعمل ذلك أولاده الذين ملكوا من بعده.

فكان السلطان يخرج فى كل سنة من قلعة الجبل بعد ما تنقضى أيام الركوب إلى الميدان الكبير الناصرىّ و على النيل، و معه جميع أهل الدولة من الأمراء و الكتاب و قاضى العسكر و سائر أرباب الرتب، و يسير إلى السرحة بناحية سرياقوس و ينزل بالقصور و يركب إلى الميدان هناك للعب الكرة، و يخلع الأمراء و سائر أهل الدولة، و يقيم فى هذه السرحة أياما، فيمرّ للناس فى إقامتهم بهذه السرحة أوقات لا يمكن وصف ما فيها من المسرّات، و لا حصر ما ينفق فيها من المآكل و الهبات من الأموال، و لم يزل هذا الرسم مستمرّ إلى سنة تسع و تسعين و سبعمائة، و هى آخر سرحة سار إليها السلطان بسرياقوس، و من هذه السنة انقطع السلطان الملك الظاهر برقوق عن الحركة لسرياقوس، فإنه اشتغل فى سنة ثمانمائة بتحرّك المماليك عليه من وقت قيام الأمير على باى إلى أن مات.

و قام من بعده ابنه الملك الناصر فرج، فما صفا الوقت فى أيامه من كثرة الفتن و تواتر الغلوات و المحن، إلى أن نسى ذلك و أهمل أمر الميدان و القصور و خرب، و فيه إلى اليوم بقية قائمة. ثم بيعت هذه القصور فى صفر سنة خمس و عشرين و ثمانمائة بمائة دينار، لينقض خشبها و شبابيكها و غيرها، فنقضت كلها، و كان من عادة السلطان إذا خرج إلى الصيد لسرياقوس أو شبرا أو البحيرة أنه ينعم على أكابر أمراء الدولة قدرا و سنّا، كلّ واحد بألف مثقال ذهبا، و برذون خاص مسرج و لمجم، و كنبوش مذهب، و كان من عادته إذا مرّ فى متصيدانه بإقطاع أمير كبير قدّم له من الغنم و الإوز و الدجاج و قصب السكر و الشعير ما تسمو همة مثله إليه، فيقبله السلطان

منه و ينعم بخلعة كاملة، و ربما أمر لبعضهم بمبلغ مال.

و كانت عادة الأمراء أن يركب الأمير منهم حيث يركب فى المدينة و خلفه جنيب، و أما أكابرهم فيركب بجنيبين، هذا فى المدينة و الحاضرة، و هكذا يكون إذا خرج إلى سرياقوس و غيرها من نواحى الصعيد، و يكون فى الخروج إلى سرياقوس و غيرها من الأسفار لكلّ أمير طلب يشتمل على أكثر مماليكه، و قدّامهم خزانة محمولة على جمل واحد يجرّه راكب آخر على جمل، و المال على جملين، و ربما زاد بعضهم على ذلك. و أمام الخزانة عدّة جنائب تجرّ على أيدى مماليك ركّاب خيل و هجن، و ركّاب من العرب على هجن، و أمامها الهجن بأكوارها مجنوبة، و للطبلخانات قطار واحد، و هو أربعة، و مركوب الهجان و المال قطاران، و ربما زاد بعضهم، و عدد الجنائب فى كثرتها و قلتها إلى رأى الأمير وسعة نفسه، و الجنائب منها ما هو مسرح ملجم، و منها ما هو بعباءة لا غير، و كان يضاهى بعضهم بعضا فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۰

الملابس الفاخرة و السروج المحلاة و العدد الملحية.

و كان من رسوم السلطان فى خروجه إلى سرياقوس و غيرها من الأسفار أن لا يتكلف إظهار كلّ شعار السلطنة، بل يكون الشعار فى موكبه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدّم عليهم و استاداره، و أمامهم الخزائن و الجنائب و الهجن، و أما هو نفسه فإنه يركب و معه عدّة كبيرة من الأمراء الكبار و الصغار من الغرباء و الخواص، و جملة من خواص مماليكه، و لا يركب فى السير برقبة و لا بعصائب، بل يتبعه جنائب خلفه، و يقصد فى الغالب تأخير النزول إلى الليل، فإذا جاء الليل حملت قدّامة فوانيس كثيرة و مشاعل، فإذا قارب مخيمه تلقى بشموع موكبية فى سمعدانات كفت، و صاحت الجاويشية بين يديه، و نزل الناس كافة إلّا حملة السلاح، فإنهم وراءه، و الوشاقية أيضا وراءه، و تمشى الطبر دارية حوله حتى إذا وصل القصور بسرياقوس أو الدهليز من المخيم نزل عن فرسه و دخل إلى الشقة، و هى خيمة مستديرة متسعة، ثم منها إلى شقة مختصرة، ثم منها إلى اللاجوق، و بدائر كلّ خيمة من جميع جوانبها من داخل سور خركاه، و فى صدر اللاجوق قصر صغير من خشب برسم المبيت فيه، و ينصب بإزاء الشقة الحمّام بقدور الرصاص، و الحوض على هيئة الحمام المبنىّ فى المدن، إلّا أنه مختصر. فإذا نام السلطان طافت به المماليك دائرة بعد دائرة، و طاف بالجميع الحرس، و تدور الزفة حول الدخليز فى كلّ ليلة، و تدور بسرياقوس حول القصر فى كلّ ليلة مرّتين، الأولى منذ يأوى إلى النوم، و الثانية عند قعوده من النوم، و كلّ زفة يدور بها أمير جاندار، و هو من أكابر الأمراء، و حوله الفوانيس و المشاعل و الطبول و البياتة، و ينام على باب الدهليز النقباء و أرباب النوب من الخدم، و يصحب السلطان فى السفر غالب ما تدعو الحاجة إليه حتى يكاد يكون معهم مارستان لكثرة من معه من الأطباء و أرباب الكحل و الجراح و الأشربة و العقاقير، و ما يجرى مجرى ذلك، و كل من عاده طبيب و وصف له ما يناسبه، يصرف له من الشراب خاناه أو الدواء خاناه المحمولين فى الصحبة.

و اللّه أعلم.

الميدان الناصرىّ: هذا الميدان من جملة أراضى بستان الخشاب، فيما بين مدينة مصر و القاهرة، و كان موضعه قديما غامرا بماء النيل، ثم عرف ببستان الخشاب، فلما كانت سنة أربع عشرة و سبعمائة هدم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون الميدان الظاهرىّ، و غرس فيه أشجارا كما تقدّم، و أنشأ هذا الميدان من أراضى بستان الخشاب، فإنه كان حينئذ مطلا على النيل، و تجهز فى سنة ثمان عشرة و سبعمائة للركوب إليه، و فرّق الخيول على جميع الأمراء و استجدّ ركوب الأوجاقية بكوا فى الزركس على صفة الطاسات فوق رؤوسهم، و سمّاهم الجفتاوات، فيركب منهم اثنان بثوبى حرير أطلس أصفر، و على رأس كلّ منهما كوفية الذهب، و تحت كل واحد فرس أبيض بحلية ذهب، و يسيران معا بين يدى السلطان فى ركوبه من قلعة الجبل، إلى الميدان، و فى عودته منه إلى القلعة، و كان السلطان إذا ركب

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۱

إلى هذا الميدان للعب الأكرة يفرّق حوائص ذهب على الأمراء المقدّمين، و ركوبه إلى هذا الميدان دائما يوم السبت فى قوّة الحرّ بعد وفاء النيل مدّة شهرين من السنة، فيفرّق فى كلّ ميدان على اثنين بالنوبة، فمنهم من تجىء نوبته بعد ثلاث سنين أو أربع سنين، و كان من مصطلح الملوك أن تكون تفرقة السلطان الخيول على الأمراء فى وقتين، أحدهما عند ما يخرج إلى مرابط خيله فى الربيع عند اكتمال تربيعها، و فى هذا الوقت يعطى أمراء المئين الخيول مسرجة ملجمة بكنابيش مذهبة، و يعطى أمراء الطبلخانات خيلا عريا. و الوقت الثانى يعطى الجميع خيولا مسرجة ملجمة بلا كنابيش، بفضة خفيفة، و ليس لأمراء العشروات خظ فى ذلك إلّا ما يتفقدهم به على سبيل الأنعام، و لخاصكية السلطان المقرّبين من أمراء المئين و أمراء الطبلخانات زيادة كثيرة من ذلك، بحيث يصل إلى بعضهم المائة فرس فى السنة.

و كان من شعار السلطان أن يركب إلى اليميدان و فى عنق الفرس رقبة حرير أطلس أصفر بزركش ذهب، فتستر من تحت أذنى الفرس إلى حيث السرج، و يكون قدّامه اثنان من الأوشاقية راكبين على حصانين اشهبين برقبتين نظير ما هو راكب به، كأنهما معدّان لأن يركبهما، و على الأوشاقيين المذكورين قبا آن اصفران من حرير بطراز مزركش بالذهب، و على رأسهما قبعان مزركشان، و غاشية السرج محمولة أمام السلطان، و هى أديم مزركش مذهب يحملها بعض الركابدارية قدّامة و هو ماش فى وسط الموكب، و يكون قدّامة فارس يشبب بشبابة لا يقصد بنغمها إلا طراب، بل ما يقرع بالمهابة سامعة، و من خلف السلطان الجنائب، و على رأسه العصائب السلطانية، و هى صفر مطرزة بذهب بألقابه و اسمه، و هذا لا يختص بالركوب إلى الميدان، بل يعمل هذا الشعار أيضا إذا ركب يوم العيد أو دخل إلى القاهرة أو إلى مدينة من مدن الشام، و يزداد هذا الشعار فى يوم العيدين و دخول المدينة برفع المظلة على رأسه، و يقال لها الحبر، و هو أطلس أصفر مزركش من أعلاه قبة و طائر من فضة مذهبة، يحملها يومئذ بعض أمراء المئين الأكابر، و هو راكب فرسه إلى جانب السلطان، و يكون أرباب الوظائف و السلاحدارية كلهم خلف السلطان، و يكون حوله و أمامه الطبردارية، و هم طائفة من الاكراد ذوى الإقطاعات و الأمرة، و يكونون مشاة و بأيديهم الأطباء المشهورة.

ذكر قلعة الجبل

اشارة

قال ابن سيده فى كتاب المحكم: القلعة بتحريك القاف و اللام و العين و فتحها، الحصن الممتنع فى جبل، و جمعها قلاع و قلع، و أقلعوا بهذه البلاد بنوها فجعلوها كالقلعة.

و قيل: القلعة بسكون اللام، حصن مشرف، و جمعه قلوع، و هذه القلعة على قطعة من الجبل و هى تتصل بجبل المقطم، و تشرف على القاهرة و مصر و النيل و القرافة، فتصير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۲

القاهرة فى الجهة البحرية منها، و مدينة مصر و القرافة الكبرى و بركة الحبش فى الجهة القبلية الغربية، و النيل الأعظم فى غربيها، و جبل المقطم من ورائها فى الجهة الشرقية. و كان موضعها أوّلا يعرف بقبة الهواء، ثم صار من تحته ميدان أحمد بن طولون، ثم صار موضعها مقبرة فيها عدّة مساجد، إلى أن أنشأها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، أوّل الملوك بديار مصر، على يدّ الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدىّ فى سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة، و صارت من بعده دار الملك بديار مصر إلى يومنا هذا، و هى ثامن موضع صار دار المملكة بديار مصر. و ذلك أن دار الملك كانت أوّلا قبل الطوفان مدينة أمسوس، ثم صار تخت الملك بعبد الطوفان بمدينة منف إلى أن خرّبها بخت نصر، ثم لما ملك الإسكندر بن فيليبس سار إلى مصر و جدّد بناء الإسكندرية فصارت دار المملكة من حينئذ بعد مدينة منف الإسكندرية، إلى أن جاء اللّه تعالى بالإسلام، و قدم عمرو بن العاص رضى اللّه عنه بجيوش

المسلمين إلى مصر و فتح الحصن و اختط مدينة فسطاط مصر، فصارت دار الإمارة من حينئذ بالفسطاط إلى أن زالت دولة بنى أمية، و قدمت عساكر بنى العباس إلى مصر و بنوا فى ظاهر الفسطاط العسكر، فصار الأمراء من حينئذ تارة ينزلون فى العسكر و تارة فى الفسطاط، إلى أن بنى أحمد بن طولون القصر و الميدان، و أنشأ القطائع بجانب العسكر، فصارت القطائع منازل الطولونية إلى أن زالت دولتهم، فسكن الأمراء بعد زوال دولة بنى طولون بالعسكر إلى أن قدم جوهر القائد من بلاذ المغرب بعساكر المعز لدين اللّه و بنى القاهرة المعزية، فصارت القاهرة من حينئذ دار الخلافة و مقرّ الإمامة و منزل الملك، إلى أن انقضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فلما استبدّ بعدهم بأمر سلطنة مصر بنى قلعة الجبل هذه و مات، فسكنها من بعده الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، و اقتدى به من ملك مصر من بعده من أولاده إلى أن انقرضوا على يد مماليكهم البحرية و ملكوا مصر من بعدهم، فاستقرّوا بقلعة الجبل إلى يومنا هذا، و سأجمع إن شاء اللّه تعالى من أخبار قلعة الجبل هذه و ذكر من ملكها ما فيه كفاية. و اللّه أعلم.

اعلم أن أوّل ما عرف من خبر موضع قلعة الجبل، أنه كان فيه قبة تعرف بقبة الهواء، قال أبو عمرو الكندىّ فى كتاب أمراء مصر: و ابتنى حاتم بن هرثمة القبة التى تعرف بقبة الهواء، و هو أوّل من ابتناها، و ولى مصر إلى أن صرف عنها فى جمادى الآخرة سنة خمس و تسعين و مائة. قال: ثم مات عيسى بن منصور أمير مصر فى قبة الهواء بعد عزله، لاحدى عشرة خلت من شهر ربيع الآخر، سنة ثلاث و ثلاثين و مائتين، و لما قدم أمير المؤمنين المأمون إلى مصر فى سنة سبع عشرة و مائتين، جلس بقبة الهواء هذه، و كان بحضرته سعيد بن عفير، فقال المأمون: لعن اللّه فرعون حيث يقول: أليس لى ملك مصر، فلو رأى العراق و خصبها. فقال سعيد بن عفير: يا أمير المؤمنين لا تقل هذا، فإن اللّه عز و جل قال:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۳

وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ [الأعراف/ ۱۳۷] فما ظنك يا أمير المؤمنين بشىء دمّره اللّه هذا بقيته ثم قال سعيد: لقد بلغنا أن أرضا لم تكن أعظم من مصر، و جميع أهل الأرض يحتاجون إليها، و كانت الأنهار بقناطر و جسور بتقدير، حتى أنّ الماء يجرى تحت منازلهم و أفنيتهم، يرسلونه متى شاؤوا و يحبسونه متى شاؤوا، و كانت البساتين متصلة لا تنقطع، و لقد كانت الأمة تضع المكتل على رأسها فيمتلىء مما يسقط من الشجر، و كانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج إلى خمار لكثرة الشجر، و فى قبة الهواء حبس المأمون الحارث بن مسكين. قال الكندىّ فى كتاب الموالى: قدم المأمون مصر و كان بها رجل يقال له الحضرمىّ، يتظلم من ابن أسباط و ابن تميم، فجلس الفضل بن مروان فى المسجد الجامع، و حضر مجلسه يحيى بن أكثم و ابن أبى داود، و حضر إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد، و كان على مظالم مصر، و حضر جماعة من فقهاء مصر و أصحاب الحديث، و أحضر الحارث بن مسكين ليولى قضاء مصر، فدعاه الفضل بن مروان، فبينما هو يكلمه إذ قال الحضرمىّ للفضل: سل أصلحك اللّه الحارث عن ابن أسباط و ابن تميم. قال: ليس لهذا أحضرناه. قال: أصلحك اللّه سله، فقال الفضل للحارث: ما تقول فى هذين الرجلين فقال: ظالمين غاشمين. قال: ليس لهذا أحضرناك، فاضطرب المسجد و كان الناس متوافرين، فقام الفضل و صار إلى المأمون بالخبر و قال:

خفت على نفسى من ثوران الناس مع الحارث، فأرسل المأمون إلى الحارث فدعاه، فابتدأه بالمسألة فقال: ما تقول فى هذين الرجلين؟ فقال: ظالمين غاشمين. قال: هل ظلماك بشىء؟ قال: لا. قال: فعاملتهما؟ قال: لا. قال: فكيف شهدت عليهما؟ قال: كما شهدت أنك أمير المؤمنين و لم أرك قط إلّا الساعة، و كما شهدت أنك غزوت و لم أحضر غزوك. قال: اخرج من هذه البلاد فليست لك ببلاد، و بع قليلك و كثيرك، فإنك لا تعاينها أبدا.

و حبسه فى رأس الجبل فى قبة ابن هرثمة، ثم انحدر المأمون إلى البشرود و أحضره معه، فلما فتح البشرود أحضر الحارث، فلما دخل عليه سأله عن المسألة التى سأله عنها بمصر، فردّ عليه الجواب بعينه، فقال: فأىّ شىء تقول فى خروجنا هذا؟ قال: أخبرنى عبد الرحمن بن القاسم عن مالك، أنّ الرشيد كتب إليه فى أهل دهلك يسأله عن قتالهم فقال: إن كانوا خرجوا عن ظلم من السلطان فلا يحلّ

قتالهم، و إن كانوا إنما شقوا العصا فقتالهم حلال. فقال المأمون: أنت تيس و مالك أتيس منك، ارجل عن مصر. قال: يا أمير المؤمنين إلى الثغور؟ قال الحق بمدينة السلام. فقال له أبو صالح الحرّانيّ: يا أمير المؤمنين تغفر زلته؟ قال: يا شيخ تشفعت فارتفع.

و لما بنى أحمد بن طولون القصر و الميدان تحت قبة الهواء هذه، كان كثيرا ما يقيم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۴

فيها، فإنها كانت تشرف على قصره، و اعتنى بها الأمير أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، و جعل لها الستور الجليلة و الفرش العظيمة، فى كلّ فصل ما يناسبه. فلما زالت دولة بنى طولون و خرب القصر و الميدان، كانت قبة الهواء مما خرب، كما تقدّم ذكره عند ذكر القطائع من هذا الكتاب، ثم عمل موضع قبة الهواء مقبرة و بنى فيها عدّة مساجد.

قال الشريف محمد بن أسعد الجوانيّ النسابة فى كتاب النقطة فى الخطط: و المساجد المبنية على الجبل، المتصلة باليحاميم المطلة على القاهرة المعزية التى فيها المسجد المعروف بسعد الدولة، و الترب التى هناك، تحتوى القلعة التى بناها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على الجميع، و هى التى نعتها بالقاهرة، و بنيت هذه القلعة فى مدّة يسيرة، و هذه المساجد هى مسجد سعد الدولة، و مسجد معز الدولة. والى مصر، و مسجد مقدّم بن عليان من بنى بويه الديلميّ، و مسجد العدّة بناه أحد الأستاذين الكبار المستنصرية، و هو عدّة الدولة، و كان بعد مسجد معز الدولة، و مسجد عبد الجبار بن عبد الرحمن بن شبل بن علىّ رئيس الرؤساء. و كافى الكفاة أبى يعقوب بن يوسف، الوزير بهمدان، ابن علىّ. بناه و انتقل بالإرث إلى ابن عمه القاضى الفقيه أبى الحجاج يوسف بن عبد الجبار بن شبل، و كان من أعيان السادة، و مسجد قسطة، و كان غلاما أرمنيا من غلمان المظفر بن أمير الجيوش، مات مسموما من أكلة هريسة.

و قال الحافظ أبو الطاهر السلفىّ: سمعت أبا منصور قسطة الأرمنىّ والى الاسكندرية يقول: كان عبد الرحمن خطيب ثغر عسقلان يخطب بظاهر البلد فى عيد من الأعياد، فقيل له: قد قرب منا العدو. فنزل عن المنبر و قطع الخطبة، فبلغه أن قوما من العسكرية عابوا عليه فعله، فخطب فى الجمعة الأخرى داخل البلد فى الجامع خطبة بليغة قال فيها: قد زعم قوم أن الخطيب فزع، و عن المنبر نزع، و ليس ذلك عارا على الخطيب، فإنما ترسه الطيلسان و حسامه اللسان، و فرسه خشب لا تجرى من الفرسان، و إنما العار على من تقلد الحسام و سنّ السنان، و ركب الجياد الحسان، و عند اللقاء يصيح إلى عسقلان.

و كان قسطة هذا من عقلاء الأمراء المائلين إلى العدل، المثابرين على مطالعة الكتب، و أكثر ميله إلى التواريخ و سير المتقدّمين، و كان مسجده بعد مسجد شقيق الملك، و مسجد الديلميّ، و كان على قرنة الجبل المقابل للقلعة من شرقيها إلى البحرىّ، و قبره قدّام الباب.

و تربة و لخشى الأمير والد السلطان رضوان بن ولخشى، المنعوت بالأفضل، كان من الأعيان الفضاء الأدباء، ضرب على طريقة ابن البوّاب، و أبى علىّ بن مقلة، و كتب عدّة ختمات، و كان كريما شجاعا يلقّب فحل الأمراء، و كانت هذه التربة آخر الصف، و مسجد شقيق الملك الأستاذ خسروان صاحب بيت المال أضيف إلى سور القلعة البحرى إلى المغرب قليلا، و مسجد أمين الملك صارم الدولة مفلح صاحب الملجس الحافظىّ كان بعد مسجد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۵

القاضى أبى الحجاج، المعروف بمسجد عبد الجبار، و هو فى وسط القلعة، بعده تربة لاون أخى يانس، و مسجد القاضى النبيه، كان لمام الدولة غنّام، و مات رسولا ببلاد الشام، و شراه منه و أنشأه القاضى النبيه، و قبره به، و كان القاضى من الأعيان.

و قال ابن عبد الظاهر: أخبرنى والدى قال: كنا نطلع إليها، يعنى إلى المساجد التى كانت موضع قلعة الجبل، قبل أن تسكن فى ليالى الجمع، نبيت متفرّجين كما نبيت فى جواسق الجبل و القرافة.

قال مؤلفه رحمه اللّه: و بالقلعة الآن مسجد الردينىّ، و هو أبو الحسن على بن مرزوق بن عبد اللّه الردينىّ الفقيه المحدّث المفسر، كان

معاصرا لأبى عمر و عثمان بن مرزوق الحوفىّ، و كان ينكر على أصحابه، و كانت كلمته مقبولة عند الملوك، و كان يأوى بمسجد سعد الدولة، ثم تحوّل منه إلى مسجد عرف بالردينىّ، و هو الموجود الآن بداخل قلعة الجبل، و عليه وقف بالإسكندرية، و فى هذا المسجد قبر يزعمون أنه قبره، و فى كتب المزارات بالقرافة، أنّه توفى و دفن بها فى سنة أربعين و خمسمائة، بخط سارية شرقىّ تربة الكيروانىّ، و اشتهر قبره بإجابة الدعاء عنده.

ذكر بناء قلعة الجبل

و كان سبب بنائها أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، لما أزال الدولة الفاطمية من مصر و استبدّ بالأمر، لم يتحوّل من دار الوزارة بالقاهرة، و لم يزل يخاف على نفسه من شيعة الخلفاء الفاطميين بمصر، و من الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى سلطان الشام، رحمة اللّه عليه، فامتنع أوّلا من نور الدين بأن سير أخاه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب فى سنة تسع و ستين و خمسمائة، إلى بلاد اليمن لتصير له مملكة تعصمه من نور الدين، فاستولى شمس الدولة على ممالك اليمن، و كفى اللّه تعالى صلاح الدين أمر نور الدين و مات فى تلك السنة، فحلاله الجوّ و أمن جانبه، و أحبّ أن يجعل لنفسه معقلا بمصر، فإنه كان قد قسم القصرين بين أمرائه و أنزلهم فيهما، فيقال أنّ السبب الذى دعاه إلى اختيار مكان قلعة الجبل، أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم و ليلة، فعلق لحم حيوان آخر فى موضع القلعة فلم يتغير إلا بعد يومين و ليلتين، فأمر حينئذ بإنشاء قلعة هناك، و أقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدىّ، فشرع فى بنائها و بنى سور القاهرة الذى زاده فى سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة، و هدم ما هنالك من المساجد و أزال القبور و هدم الأهرام الصغار التى كانت بالجيزة تجاه مصر، و كانت كثيرة العدد، و نقل ما وجد بها من الحجارة و بنى به السور و القلعة و قناطر الجيزة، و قصد أن يجعل السور يحيط بالقاهرة و القلعة و مصر، فمات السلطان قبل أن يتم الغرض من السور و القلعة، فأهمل العمل إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى قلعة الجبل

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۶

و استنابته فى مملكة مصر و جعله وليّ عهد، فأتم بناء القلعة و أنشأ بها الآدر السلطانية، و ذلك فى سنة أربع و ستمائة، و ما برح يسكنها حتى مات، فاستمرّت من بعده دار مملكة مصر إلى يومنا هذا، و قد كان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يقيم بها أياما، و سكنها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين فى أيام أبيه مدّة، ثم انتقل منها إلى دار الوزارة.

قال ابن عبد الظاهر: و سمعت حكاية تحكى عن صلاح الدين أنه طلعها و معه أخوه الملك العادل، فلما رآها التفت إلى أخيه و قال: يا سيف الدين، قد بنيت هذه القلعة لأولادك. فقال: يا خوند منّ اللّه عليك أنت و أولادك و أولاد أولادك بالدنيا. فقال: ما فهمت ما قلت لك، أنا نجيب ما يأتى لى أولاد نجباء، و أنت غير نجيب فأولادك يكونون نجباء، فسكت.

قال مؤلفه رحمه اللّه: و هذا الذى ذكره صلاح الدين يوسف من انتقال الملك عنه إلى أخيه و أولاد أخيه ليس هو خاصا بدولته، بل اعتبر ذلك فى الدول تجد الأمر ينتقل عن أولاد القائم بالدولة إلى بعض أقاربه، هذا رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم هو القائم بالملة الإسلامية، و لما توفى صلى اللّه عليه و سلم انتقل أمر القيام بالملة الإسلامية بعده إلى أبى بكر الصدّيق رضى اللّه عنه، و اسمه عبد اللّه بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرّة بن كعب بن لؤىّ، فهو رضى اللّه عنه يجتمع من النبى صلى اللّه عليه و سلم، فى مرّة بن كعب، ثم انتقل الأمر بعد الخلفاء الراشدين رضى اللّه عنهم إلى بنى أمية كان القائم بالدولة الأموية معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية، فلم تفلح أولاده و صارت الخلافة إلى مروان بن الحكم بن العاص بن أمية، فتوارثها بنو مروان حتى انقضت دولتهم بقيام بنى العباس رضى اللّه عنه، فكان أول من قام من بنى العباس عبد اللّه بن محمد السفاح، و لما مات انتقلت الخلافة من بعده إلى أخيه أبى جعفر عبد اللّه بن محمد المنصور، و استقرّت فى بنيه إلى أن انقرضت الدولة العباسية من بغداد.

و كذا وقع فى دول العجم أيضا، فأول ملوك بنى بوبه، عماد الدين أبو علىّ الحسن بن بويه، و القائم من بعده فى السلطنة أخوه حسن

بن بويه، و أوّل ملوك بنى سلجوق، طغريل، و القائم من بعده فى السلطنة ابن أخيه ألب‌أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق، و أوّل قائم بدولة بنى أيوب، السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، و لما مات اختلف أولاده فانتقل ملك مصر و الشام و ديار بكر و الحجاز و اليمن إلى أخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و استمرّ فيهم إلى أن انقرضت الدولة الأيوبية، فقام بمملكة مصر المماليك الأتراك، و أوّل من قام منهم بمصر الملك المعز أيبك، فلما مات لم يفلح ابنه علىّ فصارت المملكة إلى قطز، و أوّل من قام بالدولة الجركسية الملك الظاهر برقوق، و انتقلت المملكة من بعد ابنه الملك الناصر فرج إلى الملك المؤيد شيخ المحمودىّ الظاهرىّ، و قد جمعت فى هذا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۷

فصلا كبيرا، و قلما تجد الأمر بخلاف ما قلته لك و للّه عاقبة الأمور.

قال ابن عبد الظاهر: و الملك الكامل هو الذى اهتم بعمارتها و عمارة أبراجها، البرج الأحمر و غيره، فكملت فى سنة أربع و ستمائة، و تحوّل إليها من دار الوزارة و نقل إليها أولاد العاضد و أقاربه و سجنهم فى بيت فيها، فلم يزالوا فيه إلى أن حوّلوا منه فى سنة إحدى و سبعين و ستمائة. قال: و فى آخر سنة اثنتين و ثمانين و سنمائة شرع السلطان الملك المنصور قلاون فى عمارة برج عظيم على جانب باب السرّ الكبير، و بنى علوه مشرفات و قاعات مرخمة لم ير مثلها، و سكنها فى صفر سنة ثلاث و ثمانين و ستمائة، و يقال أن قراقوش كان يستعمل فى بناء القلعة و السور خمسين ألف أسير.

البئر التى بالقلعة: هذه البئر من العجائب، استنبطها قراقوش. قال ابن عبد الظاهر:

و هذه البئر من عجائب الأبنية، تدور البقر من أعلاها فتنقل الماء من نقالة فى وسطها، و تدور أبقار فى وسطها تنقل الماء من أسفلها، و لها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها فى مجاز، و جميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء، و قيل أن أرضها مسامّة أرض بركة الفيل و ماؤها عذب. سمعت من يحكى من المشايخ أنها لما نقرت جاء ماؤها حلوا، فأراد قراقوش أو نوّا به الزيادة فى مائها، فوسع نقر الجبل فخرجت منه عين مالحة غيرت حلاوتها. و ذكر القاضى ناصر الدين شافع بن علىّ فى كتاب عجائب البنيان، أنه ينزل إلى هذه البئر بدرج نحو ثلاثمائة درجة.

ذكر صفة القلعة

و صفة قلعة الجبل أنها بناء على نشزعال، يدور بها سور من حجر بأبراج و بدنات حتى تنتهى إلى القصر الأبلق، ثم من هناك تتصل بالدور السلطانية على غير أوضاع أبراج الغلال، و يدخل إلى القلعة من بابين، أحدهما بابها الأعظم المواجه للقاهرة، و يقال له الباب المدرّج، و بداخله يجلس والى القلعة، و من خارجه تدق الخليلية قبل المغرب. و الباب الثانى باب القرافة، و بين البابين ساحة فسيحة فى جانبها بيوت، و بجانبها القبلىّ سوق للمآكل، و يتوصل من هذه الساحة إلى دركاه جليلة كان يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول، و فى وسط الدركاه باب القلعة، و يدخل منه فى دهليز فسيح إلى ديار و بيوت و إلى الجامع الذى تقام به الجمعة، و يمشى من دهليز باب القلعة فى مداخل أبواب إلى رحبة فسيحة فى صدرها الإيوان الكبير المعدّ لجلوس السلطان فى يوم المواكب، و إقامة دار العدل. و بجانب هذه الرحبة ديار جليلة، و يمرّ منها إلى باب القصر الأبلق، و بين يدى باب القصر رحبة دون الأولى يجلس بها خواص الأمراء قبل دخولهم إلى الخدمة الدائمة بالقصر، و كان بجانب هذه الرحبة محاذيا لباب القصر خزانة القصر، و يدخل من باب القصر فى دهاليز خمسة إلى قصر عظيم، و يتوصل منه إلى الإيوان الكبير بباب خاص، و يدخل منه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۸

أيضا إلى قصور ثلاثة، ثم إلى دور الحرم السلطانية، و إلى البستان و الحمّام و الحوش، و باقى القلعة فيه دور و مساكن للمماليك السلطانية و خواص الأمراء بنسائهم و أولادهم و مماليكهم و دواوينهم و طشتخاناتهم و فرشخاناتهم و شربخاناتهم و مطابخهم و سائر

وظائفهم، و كانت أكابر أمراء الألوف و أعيان أمراء الطبلخاناه و العشراوات تسكن بالقلعة إلى آخر أيام الناصر محمد بن قلاون، و كان بها أيضا طباق المماليك السلطانية و دار الوزارة، و تعرف بقاعة الصاحب، و بها قاعة الإنشاء و ديوان الجيش و بيت المال و خزانة الخاص، و بها الدور السلطانية من الطشتخاناه و الركابخاناه و الحوائجخاناه و الزردخاناه، و كان بها الجب الشنيع لسجن الأمراء، و بها دار النيابة، و بها عدّة أبراج يحبس بها الأمراء و المماليك، و بها المساجد و الحوانيت و الأسواق، و بها مساكن تعرف بخرائب التتر، كانت قدر حارة خرّبها الملك الأشرف برسباى فى ذى القعدة سنة ثمان و عشرين و ثمانمائة، و من حقوق القلعة الإصطبل السلطانىّ، و كان ينزل إليه السلطان من جانب إيوان القصر، و من حقوقها أيضا الميدان، و هو فاصل بين الإصطبلات و سوق الخيل من غربيه، و هو فسيح المدى و فيه يصلى السلطان صلاة العيدين، و فيه يلعب بالأكرة مع خواصه، و فيه تعمل المدّات أوقات المهمات أحيانا، و من رأى القصور و الإيوان الكبير و الميدان الأخضر و الجامع يقرّ لملوك مصر بعلوّ الهمم و سعة الإنفاق و الكرم.

باب الدرفيل: هذا الباب بجانب خندق القلعة، و يعرف أيضا بباب المدرج، و كان يعرف قديما بباب سارية، و يتوصل إليه من تحت دار الضيافة و ينتهى منه إلى القرافة، و هو فيما بين سور القلعة و الجبل.

و الدرفيل هو الأمير حسام الدين لاجين الأيدمرىّ، المعروف بالدرفيل، دوادار الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، مات فى سنة اثنتين و سبعين و ستمائة.

دار العدل القديمة: هذه الدار موضعها الآن تحت القلعة، يعرف بالطبلخاناه، و الذى بنى دار العدل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، فى سنة إحدى و ستين و ستمائة، و صار يجلس بها لعرض العساكر فى كلّ اثنين و خميس، و ابتدأ بالحضور فى أوّل سنة اثنتين و ستين و ستمائة، و صار يجلس بها لعرض العساكر فى كلّ اثنين و خميس، و ابتدأ بالحضور فى أوّل سنة اثنتين و ستين و ستمائة، فوقف إليه ناصر الدين محمد بن أبى نصر و شكا أنه أخذ له بستان فى أيام المعز أيبك، و هو بأيدى المقطعين، و أخرج كتابا مثبتا و أخرج من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۵۹

ديوان الجيش ما يشهد بأن البستان ليس من حقوق الديوان، فأمر بردّه عليه فتسلمه.

و أحضرت مرافعة فى ورقة مختومة رفعها خادم أسود فى مولاه القاضى شمس الدين شيخ الحنابلة، تضمنت أنه يبغض السلطان و يتمنى زوال دولته، فإنه لم يجعل للحنابلة مدرّسا فى المدرسة التى أنشأها بخط بين القصرين، و لم يولّ قاضيا حنبليا، و ذكر عنه أمورا قادحة، فبعث السلطان الورقة إلى الشيخ، فحضر إليه و حلف أنه ما جرى منه شىء، و أن هذا الخادم طردته فاختلق علىّ ما قال. فقبل السلطان عذره و قال: و لو شتمتنى أنت فى حلّ، و أمر بضرب الخادم مائة عصا. و غلت الأسعار بمصر حتى بلغ أردب القمح نحو مائة درهم، و عدم الخبز، فنادى السلطان فى الفقراء أن يجتمعوا تحت القلعة، و نزل فى يوم الخميس سابع ربيع الآخر منها و جلس بدار العدل هذه و نظر فى أمر السعر و أبطل التسعير، و كتب مرسوما إلى الأمراء ببيع خمسمائة أردب، فى كلّ يوم ما بين مائتين إلى ما دونهما، حتى لا يشترى الخزان شيئا، و أن يكون البيع للضعفاء و الأرامل فقط دون من عداهم، و أمر الحجاب فنزلوا تحت القلعة و كتبوا أسماء الفقراء الذين تجمعوا بالرميلة، و بعث إلى كلّ جهة من جهات القاهرة و مصر و ضواحيهما حاجبا لكتابة أسماء الفقراء، و قال: و اللّه لو كان عندى غلة تكفى هؤلاء لفرّقتها، و لما انتهى إحضار الفقراء أخذ منهم لنفسه ألوفا، و جعل باسم ابنه الملك السعيد ألوفا، و أمر ديوان الجيش فوزع باقيهم، على كلّ أمير من الفقراء بعدّة رجاله، ثم فرّق ما بقى على الأجناد، و مفاردة الحلقة، و المقدّمين، و البحرية، و جعل طائفة التركمان ناحية و طائفة الأكراد ناحية، و قرّر لكلّ واحد من الفقراء كفايته لمدّة ثلاثة أشهر، فلما تسلم الأمراء و الأجناد ما خصهم من الفقراء فرّق من بقى منهم على الأكابر و التجار و الشهود، و عين لأرباب الزوايا مائة أردب قمح فى كلّ يوم، تخرج من الشون السلطانية إلى جامع أحمد بن طولون و تفرّق على من هناك، ثم قال: هؤلاء المساكين الذين جمعناهم اليوم و مضى النهار لا بدّ لهم من شىء، و أمر ففرّق فى كلّ منهم نصف درهم ليتقوّت به فى يومه، و يستمرّ له من الغد ما تقرّر، فأنفق

فيهم جملة مال، و أعطى للصاحب بهاء الدين عليّ بن محمد بن حنا طائفة كبيرة من العميان، و أخذ الأتابك سيف الدين أقطاى طائفة التركمان، و لم يبق أحد من الخواص و الأمراء الحواشى و لا من الحجاب و الولاة و أرباب المناصب و ذوى المراتب و أصحاب الأموال حتى أخذ جماعة من الفقراء على قدر حاله.

و قال السلطان للأمير صارم الدين المسعودىّ والى القاهرة: خذ مائة فقير و أطعمهم للّه تعالى. فقال: نعم قد أخذتهم دائما. فقال له السلطان هذا شىء فعلته ابتداء من نفسك، و هذه المائة خذها لأجلى. فقال للسلطان: السمع و الطاعة، و أخذ مائة فقير زيادة على المائة التى عينت له، و انقضى النهار فى هذا العمل و شرع الناس فى فتح الشون و المخازن و تفرقة الصدقات على الفقراء، فنزل سعر القمح و نقص الأردب عشرين درهما، و قلّ وجود

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۰

الفقراء إلى أن جاء شهر رمضان، و جاء المغلّ الجديد، فأوّل يوم من بيع الجديد نقص سعر أردب القمح أربعين درهما ورقا، و فى اليوم الذى جلس فيه السلطان بدار العدل للنظر فى أمور الأسعار قرئت عليه قصة ضمان دار الضرب، و فيها أنه قد توقفت الدراهم و سألوا إبطال الناصرية، فإن ضمانهم بمبلغ مائتى ألف و خمسين ألف درهم، فوقع عليها يحط عنهم منها مبلغ خمسين ألف درهم و قال: نحط هذا و لا نؤذى الناس فى أموالهم.

و فى مستهل شهر رجب منها جلس أيضا بدار العدل، فوقف له بعض الأجناد بصغير يتيم ذكر أنه وصيه، و شكا من قضيته. فقال السلطان لقاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، أنّ الأجناد إذا مات أحد منهم استولى خجداشه على موجوده، فيموت الوصىّ، و يكبر اليتيم فلا يجد له مالا، و تقدّم إليه أن لا يمكّن وصيا من الانفراد بتركة ميت، و لكن يكون نظر القاضى شاملا له، و تصير أموال الأيتام مضبوطة بأمناء الحكم. ثم أنه استدعى نقباء العساكر و أمرهم بذلك، فاستمرّ الحال فيه على ما ذكر.

و فى خامس عشرى شعبان سنة ثلاث و ستين و ستمائة، جلس بدار العدل و استدعى تاج الدين ابن القرطبىّ و قال له: قد أضجرتنى مما تقول عندى مصالح لبيت المال، فتحدّث الآن بما عندك، فتكلّم فى حق قاضى القضاة تاج الدين، و فى حق متولى جزيرة سواكن، و فى حق الأمراء، و أنهم إذا مات منهم أحد أخذ ورثته أكثر من استحقاقهم، فأنكر عليه و أمر بحبسه، و تحدّث السلطان فى أمر الأجناد و أنه إذا مات أحدهم فى مواطن الجهاد لا يصل إليه شاهد حتى يشهد عليه بوصيته، و أنه يشهد بعض أصحابه، فإذا حضر إلى القاهرة لا تقبل شهادته، و كان الجندىّ فى ذلك الوقت لا تقبل شهادته، فرأى السلطان أن كلّ أمير يعين من جماعته عدّة ممن يعرف خيره و دينه ليسمع قولهم، و ألزم مقدّمى الأجناد بذلك، فشرع قاضى القضاة فى اختيار رجال جياد من الأجناد و عينهم لقبول شهادتهم، ففرحت العساكر بذلك.

و جلس أيضا فى تاسع عشرية بدار العدل فوقف له شخص و شكا أن الأملاك الديوانية لا يمكن أحد من سكانها أن ينتقل منها، فأنكر السلطان ذلك و أمر أن من انقضت مدّة إجارته و أراد الخلوّ فلا يمنع من ذلك، و له فى ذلك عدّة أخبار كلها صالحة، رحمه اللّه تعالى.

و ما برحت دار العدل هذه باقية إلى أن استجدّ السلطان الملك المنصور قلاون الإيوان فهجرت دار العدل هذه إلى أن كانت سنة اثنتين و عشرين و سبعمائة، فهدمها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، و عمل موضعها الطبلخاناه، فاستمرّت طبلخاناه إلى يومنا، إلّا أنه كان فى أيام عمارتها إنما يجلس بها دائما فى أيام الجلوس نائب دار العدل و معه القضاة، و موقع دار العدل و الأمراء، فينظر نائب دار العدل. فى أمور المتظلمين، و تقرأ عليه

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۱

القصص، و كان الأمر على ذلك فى أيام الظاهر بيبرس و أيام ابنه الملك السعيد بركة، ثم أيام الملك المنصور قلاون.

الإيوان: المعروف بدار العدل، هذا الإيوان أنشأه السلطان الملك المنصور قلاون الألفىّ الصالحىّ النجمىّ، ثم جدّده ابنه السلطان

الملك الأشرف خليل، و استمرّ جلوس نائب دار العدل به، فلما عمل الملك الناصر محمد بن قلاون الروك أمر بهدم هذا الإيوان، فهدم و أعاد بناءه على ما هو عليه الآن، و زاد فيه، و أنشأ به قبة جليلة، و أقام به عمدا عظيمة نقلها إليه من بلاد الصعيد و رخمه، و نصب فى صدره سرير الملك، و عمله من العاج و الأبنوس، و رفع سمك هذا الإيوان و عمل أمامه رحبة فسيحة مستطيلة، و جعل بالإيوان باب سرّ من داخل القصر، و عمل باب الإيوان مسبوكا من حديد بصناعة بديعة تمنع الداخل إليه، و له منه باب يغلق، فإذا أراد أن يجلس فتح حتى ينظر منه و من تخاريم الحديد بقية العسكر الواقفين بساحة الإيوان، و قرّر للجلوس فيه بنفسه يوم الاثنين و يوم الخميس، فاستمرّ الأمر على ذلك، و كان أوّلا دون ما هو اليوم، فوسع فى قبته و زاد فى ارتفاعه و جعل قدّامه دركاة كبيرة، فجاء من أعظم المبانى الملوكية، و أوّل ما جلس فيه عند انتهاء عمل الروك بعد ما رسم لنقيب الجيش أن يستدعى سائر الأجناد، فلما تكامل حضورهم جلس و عين أن يحضر فى كلّ يوم مقدّما ألوف بمضافيهما، فكان المقدّم يقف بمضافيه و يستدعى بمضافيه من تقدمته على قدر منازلهم، فيتقدّم الجندىّ إلى السلطان فيسأله أنت ابن من و مملوك من، ثم يعطيه مثالا، و استمرّ على ذلك من مستهل المحرّم سنة خمس عشرة و سبعمائة إلى مستهل صفر منها، و ما برح بعد ذلك يواظب على الجلوس به فى يومى الاثنين و الخميس، و عنده أمراء الدولة و القضاة و الوزير و كاتب السرّ و ناظر الجيش و ناظر الخاص و كتاب الدست، و تقف الأجناد بين يديه على قدر أقدارهم، فلما مات الملك الناصر اقتدى به فى ذلك أولاده من بعده، و استمرّوا على الجلوس بالإيوان إلى أن استبدّ بمملكة مصر الملك الظاهر برقوق، فالتزم ذلك أيضا، إلّا أنه صار يجلس فيه إذا طلعت الشمس جلوسا يسيرا يقرأ عليه فيه بعض قصص لا لمعنى سوى إقامة رسوم المملكة فقط، و كان من قبله من ملوك بنى قلاون إنما يجلسون بالإيوان سحرا على الشمع، و كان موضع جلوس السلطان فى الإيوان للنظر فى المظالم، فأعرض الملك الظاهر عن ذلك و جعل لنفسه يومين يجلس فيهما بالإصطبل السلطانىّ للحكم بين الناس، كما سيأتى ذكره عن قريب إن شاء اللّه تعالى، و صار الإيوان فى أيام الظاهر برقوق و أيام ابنه الملك الناصر فرج، و أيام الملك المؤيد شيخ، إنما هو شىء من بقايا الرسوم الملوكية لا غير.

ذكر النظر فى المظالم

اشارة

اعلم أنّ النظر فى المظالم عبارة عن قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة، و زجر

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۲

المتنازعين عن التجاحد بالهيبة، و كان من شروط الناظر فى المظالم أن يكون جليل القدر، نافذ الأمر، عظيم الهيبة، ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع، لأنه يحتاج فى نظره إلى سطوة الحماة، و تثبت القضاة، فيحتاج إلى الجمع بين صفتى الفريقين، و أن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر فى الجهتين، و هى خطة حدثت لفساد الناس، و هى كلّ حكم يعجز عنه القاضى، فينظر فيه من هو أقوى منه يدا.

و أوّل من نظر فى المظالم من الخلفاء، أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى اللّه تعالى عنه. و أوّل من أفرد للظلامات يوما يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة النظر، عبد الملك بن مروان، فكان إذا وقف منها على مشكل، و احتاج فيها إلى حكم ينفذ، ردّه إلى قاضيه ابن إدريس الأزدىّ، فينفذ فيه أحكامه. و كان ابن إدريس هو المباشر، و عبد الملك الآمر، ثم زاد الجور، فكان عمر بن عبد العزيز رحمه اللّه أوّل من ندب نفسه للنظر فى المظالم فردّها، ثم جلس لها خلفاء بنى العباس، و أوّل من جلس منهم المهدىّ محمد، ثم الهادى موسى، ثم الرشيد هارون، ثم المأمون عبد اللّه، و آخر من جلس منهم المهتدىّ باللّه محمد بن الواثق، و أوّل من أعلم أنه جلس بمصر من الأمراء للنظر فى المظالم، الأمير أبو العباس أحمد بن طولون، فكان يجلس لذلك يومين فى الأسبوع، فلما

مات و قام من بعده ابنه أبو الجيش خمارويه، جعل على المظالم بمصر محمد بن عبيدة بن حرب، فى شعبان سنة ثلاث و سبعين و مائتين، ثم جلس لذلك الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيدىّ، و ابتدأ ذلك فى سنة أربعين و ثلاثمائة و هو يومئذ خليفة الأمير أبى القاسم أونوجور بن الإخشيد، فعقد مجلسا صار يجلس فيه كلّ يوم سبت، و يحضر عنده الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات، و سائر القضاة و الفقهاء و الشهود، و وجوه البلد، و ما برح على ذلك مدّة أيامه بمصر إلى أن مات، فلم ينتظم أمر مصر بعده إلى أن قدم القائد أبو الحسين جوهر بجيوش المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ، فكان يجلس للنظر فى المظالم و يوقع على رقاع المتظلمين، فمن توقيعاته بخطه على قصة رفعت إليه، سوء الاجترام أوقع بكم طول الانتقام، و كفر الأنعام أخركم من حفظ الذمام، فالواجب فيكم ترك الإيجاب، و اللازم لكم ملازمة الاجتناب، لأنكم بدأتم فأسأتم، و عدتم فتعدّيتم، فابتداؤكم ملوم و عودكم مذموم، و ليس بينهما فرجة تقتضى إلّا الذم لكم و الإعراض عنكم، ليرى أمير المؤمنين رأيه فيكم.

و لما قدم المعز لدين اللّه، إلى مصر و صارت دار خلافة، استقرّ النظر فى المظالم، مدّة يضاف إلى قاضى القضاة، و تارة ينفرد بالنظر فيه أحد عظماء الدولة، فلما ضعف جانب المستنصر بالله أبى تميم معدّ بن الظاهر، و كانت الشدّة العظمى بمصر، قدم أمير الجيوش بدر الجمالى إلى القاهرة و ولى الوزارة، فصار أمر الدولة كله راجعا إليه، و اقتدى به من بعده من الوزراء، و كان الرسم فى ذلك أن الوزير صاحب السيف يجلس للمظالم بنفسه، و يجلس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۳

قبالته قاضى القضاة، و بجانبه شاهدان معتبران، و يجلس بجانب الوزير الموقع بالقلم الدقيق، و يليه صاحب ديوان المال، و يقف بين يدى الوزير صاحب البلاد و اسفهسلار العساكر، و بين أيديهما الحجاب و النوّاب على طبقاتهم، و يكون هذا الجلوس يومين فى الأسبوع، و آخر من تقلد المظالم فى الدولة الفاطمية، رزيك بن الوزير الأجلّ، الملك الصالح طلائع بن رزيك، فى وزارة أبيه، و كتب له سجل عن الخليفة منه، و قد قلدك أمير المؤمنين النظر فى المظالم و إنصاف المظلوم من الظالم، و كانت الدولة إذا خلت من وزير صاحب سيف، جلس للنظر فى المظالم صاحب الباب فى باب الذهب من القصر، و بين يديه الحجاب و النقباء، و ينادى مناد بحضرته يا أرباب الظلامات، فيحضرون إليه، فمن كانت ظلامته مشافهة أرسلت إلى الولاة أو القضاة رسالة بكشفها، و من تظلم من أهل النواحى التى خارج القاهرة و مصر. فإنه يحضر قصة فيها شرح ظلامته، فيتسلمها الحاجب منه حتى تجتمع القصص فيدفعها إلى الموقّع بالقلم الدقيق، فيوقع عليها، ثم تحمل بعد توقيعه عليها إلى الموقّع بالقلم الجليل، فيبسط ما أشار إليه الموقع بالقلم الدقيق، ثم تحمل التواقيع فى خريطة إلى ما بين يدى الخليفة فيوقع عليها، ثم تخرج فى خريطتها إلى الحاجب فيقف على باب القصر و يسلم كلّ توقيع إلى صاحبه.

و أوّل من بنى دار العدل من الملوك، السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى رحمة اللّه تعالى عليه بدمشق، عند ما بلغه تعدّى ظلم نوّاب أسد الدين شير كوه بن شادى إلى الرعية، و ظلمهم الناس، و كثرة شكواهم إلى القاضى كمال الدين الشهرزورىّ، و عجزه عن مقاومتهم، فلما بنيت دار العدل أحضر شير كوه نوّابه و قال: إن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلّا بسببى، و اللّه لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحد منكم لأصلبنه، فامضوا إلى كلّ من كان بينكم و بينه منازعة فى ملك أو غيره فافصلوا الحال معه و أرضوه بكلّ طريق أمكن و لو أتى على جميع ما بيدى. فقالوا إن الناس إذا علموا بذلك اشتطوا فى الطلب. فقال: لخروج أملاكى عن يدى أسهل علىّ من أن يرانى نور الدين بعين أنى ظالم، أو يساوى بينى و بين أحد من العامّة فى الحكومة. فخرج أصحابه و عملوا ما أمرهم به من إرضاء أخصامهم، و أشهدوا عليهم. فلما جلس نور الدين بدار العدل فى يومين من الأسبوع، و حضر عنده القاضى و الفقهاء، أقام مدّة لم يحضر أحد يشكو شير كوه، فسأل عن ذلك فعرّف بما جرى منه و من نوّابه، فقال الحمد للّه الذى جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا. و جلس أيضا السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فى يومى الاثنين و الخميس لإظهار العدل، و لما تسلطن الملك المعز أيبك التركمانىّ أقام الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارىّ فى

نيابة السلطنة بديار مصر، فواظب الجلوس فى المدارس الصالحية بين القصرين و معه نوّاب دار العدل ليرتب الأمور و ينظر فى المظالم، فنادى بإراقة الخمور و إبطال ما عليها من المقرّر، و كان قد كثر الإرجاف بمسير الملك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۴

الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الشام لأخذ مصر، فلما انهزم الملك الناصر و استبدّ الملك المعز أيبك، أحدث وزيره من المكوس شيئا كثيرا، ثم إنّ الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ بنى دار العدل و جلس بها للنظر فى المظالم. كما تقدّم، فلما بنى الإيوان الملك الناصر محمد بن قلاون واظب الجلوس يوم الاثنين و الخميس فيه، و صار يفصل فيه الحكومات فى الأحايين إذا أعيى من دونه فصلها، فلما استبدّ الملك الظاهر برقوق بالسلطنة عقد لنفسه مجلسا بالإصطبل السلطانىّ من قلعة الجبل، و جلس فيه يوم الأحد ثامن عشرى شهر رمضان سنة تسع و ثمانين و سبعمائة، و واظب ذلك فى يومى الأحد و الأربعاء، و نظر فى الجليل و الحقير، ثم حوّل ذلك إلى يومى الثلاثاء و السبت، و أضاف إليهما يوم الجمعة بعد العصر، و ما زال على ذلك حتى مات، فلما ولى ابنه الملك الناصر فرج بعده و استبدّ بأمره، جلس للنظر فى المظالم بالإصطبل اقتداء بأبيه، و صار كاتب السرّ فتح الدين فتح اللّه يقرأ القصص عليه، كما كان يقرؤها على أبيه، فانتفع أناس و تضرّر آخرون بذلك، و كان الضرر أضعاف النفع، ثم لما استبدّ الملك المؤيد شيخ بالمملكة جلس أيضا للنظر فى المظالم كما جلسا، و الأمر على ذلك مستمرّ إلى وقتنا هذا، و هو سنة تسع عشرة و ثمانمائة.

و قد عرف النظر فى المظالم منذ عهد الدولة التركية بديار مصر و الشام بحكم السياسة، و هو يرجع إلى نائب السلطنة و حاجب الحجاب، و والى البلد و متولى الحرب بالأعمال، و سيرد إن شاء اللّه تعالى الكلام فى حكم السياسة عن قريب.

ذكر خدمة الإيوان المعروف بدار العدل

كانت العادة أنّ السلطان يجلس بهذا الإيوان بكرة الاثنين و الخميس طول السنة خلا شهر رمضان، فإنه لا يجلس فيه هذا المجلس، و جلوسه هذا إنما هو للمظالم، و فيه تكون الخدمة العامّة و استحضار رسل الملوك غالبا، فإذا جلس للمظالم كان جلوسه على كرسىّ إذا قعد عليه يكاد تلحق الأرض رجله، و هو منصوب إلى جانب المنبر الذى هو تخت الملك و سرير السلطنة، و كانت العادة أوّلا أن يجلس قضاة القضاة من المذاهب الأربعة عن يمينه، و أكبرهم الشافعىّ، و هو الذى يلى السلطان، ثم إلى جانب الشافعىّ الحنفىّ، ثم المالكىّ، ثم الحنبلىّ، و إلى جانب الحنبلىّ الوكيل عن بيت المال، ثم الناظر فى الحسبة بالقاهرة، و يجلس على يسار السلطان كاتب السرّ، و إن كان الوزير من أرباب السيوف، كان واقفا على بعد مع بقية أرباب الوظائف، و إن كان نائب السلطنة، فإنه يقف مع أرباب الوظائف، و يقف من وراء السلطان صفان عن يمينه و يساره من السلاحدارية و الجمدارية و الخاصكية، و يجلس على بعد بقدر خمسة عشر ذراعا عن يمنته و يسرته ذو و السنّ و القدر من أكابر أمراء المئين، و يقال لهم أمراء المشورة، و يليهم من أسفل منهم أكابر الأمراء و أرباب الوظائف، و هم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۵

وقوف، و بقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة، و يقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب و الدوادارية، لإعطاء قصص الناس و إحضار الرسل و غيرهم من الشكاة و أصحاب الحوائج و الضرورات، فيقرأ كاتب السرّ و موقعو الدست القصص على السلطان، فإن احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيما يتعلق بالأمور الشرعية و القضايا الدينية، و ما كان متعلقا بالعسكر فإن كانت القصص فى أمراء الإقطاعات قرأها ناظر الجيش، فإن احتاج إلى مراجعة فى أمر العسكر تحدّث مع الحاجب و كاتب الجيش فيه، و ما عدا ذلك يأمر فيه السلطان بما يراه، و كانت العادة الناصرية أن تكون الخدمة فى هذا الإيوان على ما تقدّم ذكره فى بكرة يوم الاثنين،

و أما بكرة يوم الخميس فإن الخدمة على مثل ذلك، إلّا أنّه لا يتصدّى السلطان فيه لسماع القصص، و لا يحضره أحد من القضاة و لا الموقعين و لا كاتب الجيش، إلا إن عرضت حاجة إلى طلب أحد منهم، و هذا القعود عادته طول السنة ما عدا رمضان.

و قد تغير بعد الأيام الناصرية هذا الترتيب، فصارت قضاة القضاة تجلس عن يمنة السلطان و يسرته، فيجلس الشافعيّ عن يمينه و يليه المالكيّ و يليه قاضي العسكر، ثم محتسب القاهرة، ثم مفتي دار العدل الشافعيّ. و يجلس الحنفيّ عن يسرة السلطان، و يليه الحنبليّ، و صارت القصص تقرأ و القضاة و ناظر الجيش يحضرون في يوم الخميس أيضا، و كانت العادة أيضا أنه إذا ولي أحد المملكة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون، فإنه عند ولايته يحضر الأمراء إلى داره بالقلعة و تفاض عليه الخلعة الخليفية السوداء، و من تحتها فرجية خضراء و عمامة سوداء مدوّرة، و يقلد بالسيف العربيّ المذهب، و يركب فرس النوبة و يسير و الأمراء بين يديه، و الغاشية قدّامه، و الجاويشية تصيح، و الشبابة السلطانية ينفخ بها، و الطبردارية حواليه إلى أن يعبر من باب النحاس إلى درج هذا الإيوان، فينزل عن الفرس و يصعد إلى التخت فيجلس عليه، و يقبّل الأمراء الأرض بين يديه، ثم يتقدّمون إليه و يقبلون يده على قدر رتبهم، ثم مقدمو الحلقة، فإذا فرغوا حضر القضاة و الخليفة، فتفاض التشاريف على الخليفة، و يجلس مع السلطان على التخت، و يقلد السلطان المملكة بحضور القضاة و الأمراء، و يشهد عليه بذلك، ثم ينصرف و معه القضاة، فيمدّ السماط للأمراء، فإذا انقضى أكلهم قام السلطان و دخل المقصورة و انصرف الأمراء.

و مما قيل في هذا الإيوان لمّا بناه السلطان الملك الناصر:

شرّفت إيوانا جلست بصدرهفشرحت بالإحسان منه صدورا

قد كاد يستعلي الفراقد رفعةإذ حاز منك الناصر المنصورا

ملك الزمان و من رعية ملكهمن عدله لا يظلمون نقيرا

لا زال منصور اللواء مؤيداأبد الزمان و ضدّه مقهورا

و قيل أيضا:

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۶ يا ملكا أطلع من وجههإيوانه لما بدا بدرا

أنسيتنا بالعدل كسرى و لن‌نرضى لنا جبرا به كسرا

القصر الأبلق: هذا القصر يشرف على الإصطبل، أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاون في شعبان سنة ثلاث عشرة و سبعمائة، و انتهت عمارته في سنة أربع عشرة، و أنشأ بجواره جنينة، و لما كمل عمل فيه سماطا حضره الأمراء و أهل الدولة، ثم أفيضت عليهم الخلع و حمل إلى كلّ أمير من أمراء المئين و مقدّمي الألوف ألف دينار، و لكلّ من مقدّمي الحلقة خمسمائة درهم، و لكلّ من أمراء الطبلخاناه عشرة آلاف درهم فضة، عنها خمسمائة دينار، فبلغت النفقة على هذا المهم خمسمائة ألف ألف درهم و خمسمائة ألف درهم.

و كانت العادة أن يجلس السلطان بهذا القصر كلّ يوم للخدمة ما عدا يومي الاثنين و الخميس، فإنه يجلس للخدمة بدار العدل، كما تقدّم ذكره، و كان يخرج إلى هذا القصر المطلّ على الإصطبل، و تارة يقعد دونه على الأرض و الأمراء وقوف على ما تقدّم، خلا أمراء المشورة و القرباء من السلطان فإنه ليس لهم عادة بحضور هذا المجلس، و لا يحضر هذا المجلس من الأمراء الكبار إلّا من دعت الحاجة إلى حضوره، و لا يزال السلطان جالسا إلى الثالثة من النهار، فيقوم و يدخل إلى قصوره الجوّانية، ثم إلى دار حريمه و نسائه، ثم يخرج في أخريات النهار إلى قصوره الجوّانية فينظر في مصالح ملكه، و يعبر إليه إلى قصوره الجوّانية خاصته من أرباب الوظائف في الأشغال المتعلقة به، على ما تدعو الحاجة إليه، و يقال لها خدمة القصر، و هذا القصر تجاه بابه رحبة يسلك إليها من الرحبة التي تجاه الإيوان، فيجلس بالرحبة التي على باب القصر خواص الأمراء قبل دخولهم إلى خدمة القصر، و يمشي من باب القصر في دهاليز مفروشة بالرخام، قد فرش فوقه أنواع البسط إلى قصر عظيم البناء شاهق في الهواء، بإيوانين أعظمهما الشماليّ، يطلّ منه على

الإصطبلات السلطانية، و يمتدّ النظر إلى سوق الخيل و القاهرة و ظواهرها إلى نحو النيل و ما يليه من بلاد الجيزة و قراها، و فى الإيوان الثانى القبلىّ باب خاص لخروج السلطان و خواصه منه إلى الإيوان الكبير أيام الموكب، و يدخل من هذا القصر إلى ثلاثة قصور جوّانية، منها واحد مسامت لأرض هذا القصر، و اثنان يصعد إليهما بدرج، فى جميعها شبابيك حديد تشرف على مثل منظرة القصر الكبير، و فى هذه القصور كلها مجارى الماء مرفوعا من النيل بدواليب تديرها الأبقار من مقرّه إلى موضع ثم إلى آخر حتى ينتهى الماء إلى القلعة و يدخل إلى القصور السلطانية و إلى دور الأمراء الخواص المجاورين للسلطان، فيجرى الماء فى دورهم، و تدور به حماماتهم، و هو من عجائب الأعمال لرفعته من الأرض إلى السماء قريبا من خمسمائة ذراع من مكان إلى مكان، و يدخل من هذه القصور إلى دور الحريم، و هذه القصور جميعها من ظاهرها مبنية بالحجر الأسود و الحجر الأسفر، موزرة من داخلها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۷

بالرخام و الفصوص المذهبة المشجرة بالصدف و المعجون و أنواع الملوّنات، و سقوفها كلها مذهبة قد موّهت باللازورد، و النور يخرق فى جدرانها بطاقات من الزجاج القبرسىّ الملوّن كقطع الجوهر المؤلفة فى العقود، و جميع الأراضى قد فرشت بالرخام المنقول إليها من أقطار الأرض مما لا يوجد مثله، و تشرف الدور السلطانية من بعضها على بساتين و أشجار و ساحات للحيوانات البديعة و الأبقار و الأغنام و الطيور الدواجن، و سيأتى إن شاء اللّه تعالى ذكر هذه القصور و البساتين و الأحواش مفصلا. و كان بهذا القصر الأبلق رسوم و عوايد تغير كثير منها و بطل معظمها، و بقيت إلى الآن بقايا من شعار المملكة و رسوم السلطنة، و سأقص من أنباء ذلك إن شاء اللّه تعالى ما لا تراه بغير هذا الكتاب مجموعا، و اللّه يؤتى فضله من يشاء.

الأسمطة السلطانية: و كانت العادة أن يمدّ بالقصر فى طرفى النهار من كلّ يوم أسمطة جليلة لعامّة الأمراء خلا البرّانيين، و قليل ما هم. فبكرة يمدّ سماط أوّل لا يأكل منه السلطان، ثم ثان بعده يسمى الخاص، قد يأكل منه السلطان و قد لا يأكل، ثم ثالث بعده و يسمى الطارئ و منه مأكول السلطان. و أما فى آخر النهار فيمتدّ سماطان، الأوّل و الثانى المسمى بالخاص، ثم إن استدعى بطارىء حضّر، و إلّا فلا. ما عدا المشوىّ فإنه ليس له عادة محفوظة النظام، بل هو على حسب ما يرسم به، و فى كلّ هذه الأسمطة يؤكل ما عليها و يفرّق نوالات، ثم يسقى بعدها الأقسماء المعمولة من السكر و الأفاويه المطيبة بماء الورد المبرّدة، و كانت العادة أن يبيت فى كلّ ليلة بالقرب من السلطان أطباق فيها أنواع من المطجنات و البوارد و القطر و القشطة و الجبن المقلىّ و الموز و السكباج، و أطباق فيها من الأقسماء و الماء البارد برسم أرباب النوبة فى السهر حول السلطان، ليتشاغلوا بالمأكول و المشروب عن النوم، و يكون الليل مقسوما بينهم بساعات الرمل، فإذا انتهت نوبة نبهت التى تليها، ثم ذهبت هى فنامت إلى الصباح، هكذا أبدا سفرا أو حضرا، و كانت العادة أيضا أن يبيت فى المبيت السلطانىّ من القصر أو المخيم إن كان فى السرحة المصاحف الكريمة لقراءة من يقرأ من أرباب النوبة، و يبيت أيضا الشطرنج ليتشاغل به عن النوم. و بلغ مصروف السماط فى كلّ يوم عيد الفطر من كلّ سنة، خمسين ألف درهم، عنها نحو ألفين و خمسمائة دينار، تنهبه الغلمان و العامّة، و كان يعمل فى سماط الملك الظاهر برقوق فى كل يوم خمسة آلاف رطل من اللحم، سوى الأوز و الدجاج، و كان راتب المؤيد شيخ فى كلّ يوم لسماطه و داره ثمانمائة رطل من اللحم، فلما كان فى المحرّم سنة ست و عشرين و ثمانمائة، سأل الملك الأشرف برسباى عن مقدار ما يطبخ له فى كلّ يوم بكرة و عشيا فقيل له: ستمائة رطل فى الوجبتين، فأمر أن يطبخ بين يديه، لأنه بلغه أنه يوخذ مما ذكر لشادّ الشرابخاناه، و نحوه مائة و عشرون رطلا، فجعل راتب اللحم فى كل يوم بزيادة أيام الخدمة، و نقصان أيام عدة الخدمة، خمسمائة رطل و ستة أرطال عن وجبتى الغداء و العشاء، و من الدجاج ستة و عشرين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۸

طائرا و لعمل المأمونية رطلين و نصفا من السكر، و ما يعمل برسم الجمدارية فإنه بعسل النحل.

ذكر العلامة السلطانية

قد جرت العادة أن السلطان يكتب خطه على كل ما يأمر به، فأمّا مناشير الأمراء و الجند و كلّ من له إقطاع فإنه يكتب عليه علامته، و كتبها الملك الناصر محمد بن قلاون، اللّه أملى، و عمل ذلك الملوك بعده إلى اليوم، و أما تقاليد النوّاب، و تواقيع أرباب المناصب من القضاة و الوزراء و الكتاب، و بقية أرباب الوظائف، و تواقيع أرباب الرواتب و الإطلاقات، فإنه يكتب عليها اسمه و اسم أبيه إن كان أبوه ملكا، فيكتب مثلا محمد بن قلاون، أو شعبان بن حسين، أو فرج بن برقوق، و إن لم يكن أبوه ممن تسلطن كبرقوق أو شيخ، فإنه يكتب اسمه فقط، و مثاله برقوق، أو شيخ. و أما كتب البريد و خلاص الحقوق و الظلامات، فإنه يكتب أيضا عليها اسمه، و ربما كرّم المكتوب إليه فكتب إليه أخوه فلان، أو والده فلان، و أخوه يكتب للأكابر من أرباب الرتب و الذى يعلم عليه السلطان، أما إقطاع فالرسم فيه أن يقال خرج الأمر الشريف، و أما وظائف و رواتب و إطلاقات، فالرسم فى ذلك أن يقال رسم بالأمر الشريف، و أعلى ما يعلم عليه ما افتتح بخطبة أولها الحمد للّه، ثم ما افتتح بخطبة أوّلها أما بعد حمد اللّه، حتى يأتى على خرج الأمر فى المناشير، أو رسم بالأمر فى التواقيع، ثم بعد هذا أنزل الرتب، و هو أن يفتتح فى المناشير، خرج الأمر و فى التواقيع رسم بالأمر، و تمتاز المناشير المفتتح فيها بالحمد للّه. أوّل الخطبة، أن تطغر بالسواد و تتضمن اسم السلطان و ألقابه، و قد بطلت الطغرافى وقتنا هذا، و كانت العادة أن يطالع نوّاب المملكة السلطان بما يتجدّد عندهم تارة على أيدى البريدية، و تارة على أجنحة الحمام، فتعود إليهم الأجوبة السلطانية و عليها العلامة، فإذا ورد البريدىّ أحضره أمير جاندار، و هو من أمراء الألوف، و الدوادار و كاتب السرّ بين يدى السلطان، فيقبّل البريدىّ الأرض، و يأخذ الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريدى، ثم يناول للسلطان فيفتحه، و يجلس حينئذ كاتب السرّ و يقرأ على السلطان سرّا، فإن كان أحد من الأمراء حاضرا تنحى حتى يفرغ من القراءة، و يأمر السلطان فيه بأمر، و إن كان الخبر على أجنحة الحمام، فإنه يكتب فى ورق صغير خفيف و يحمل على الحمام الأزرق، و كان لحمام الرسائل مراكز كما كان للبريد مراكز، و كان بين كلّ مركزين من البريد أميال، و فى كلّ مركز عدّة خيول كما بيناه فى ذكر الطريق فيما بين مصر و الشام، و كانت مراكز الحمام كلّ مركز منها ثلاثة مراكز من مراكز البريد، فلا يتعدّى الحمام ذلك المركز، و ينقل عند نزوله المركز على ما على جناحه إلى طائر حتى يسقط بقلعة الجبل، فيحضره البرّاج، و يقرأ كاتب السرّ البطاقة، و كلّ هذا مما يعلم عليه بالقصر، و مما كان يحضر إلى القصر بالقلعة فى كلّ يوم ورقة الصباح، يرفعها والى القاهرة و والى مصر، و تشتمل على إنهاء ما تجدّد فى كل يوم و ليلة بحارات البلدين و أخطاطهما من حريق أو قتل قتيل أو سرقة سارق و نحو ذلك، ليأمر السلطان فيه بأمره.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۶۹

الأشرفية: هذا القصر المعروف بالأشرفية أنشأ الملك الأشرف خليل بن قلاون فى سنة اثنتين و تسعين و ستمائة، و لما فرغ صنع به مهما عظيما لم يعمل مثله فى الدولة التركية، و ختن أخاه الملك الناصر محمد بن قلاون، و ابن أخيه الأمير موسى بن الصالح علىّ بن قلاون، و جمع سائر أرباب الملاهى، و جميع الأمراء، و وقف الخزاندارية بأكياس الذهب، فلما قام الأمراء من الخاصكية للرقص، نثر الخزاندارية على كلّ من قام للرقص حتى فرغ الختان، فأنعم على كلّ أمير من الأمراء بفرس كامل القماش، و ألبس خلعة عظيمة، و أنعم على عدّة منهم كلّ واحد بألف دينار و فرس، و أنعم على ثلاثين من الأمراء الخاصكية لكل واحد مبلغ خمسة آلاف دينار، و أنعم على البليبل المغنى بألف دينار، و كان الذى عمل فى هذا المهم من الغنم ثلاثة آلاف رأس، و من البقر ستمائة رأس، و من الخيل خمسمائة أكديس، و من السكر برسم المشروب ألف قنطار و ثمانمائة قنطار، و برسم الحلوى مائة و ستون قنطارا، و بلغت النفقة على هذا المهمّ فى عمل السماط و المشروب و الأقبية و الطراز و السروج و ثياب النساء مبلغ ثلاثمائة ألف دينار عينا.

البيسرية: و من جملة دور القلعة قاعة البيسرية، أنشأها السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون، و كان ابتداء بنائها فى أوّل يوم من شعبان سنة إحدى و ستين و سبعمائة، و نهاية عمارتها فى ثامن عشرى ذى الحجة من السنة المذكورة، فجاءت من الحسن فى

غايـة لم ير مثلها، و عمل لهـذه القاعـة من الفرش و البسط ما لا تـدخل قيمته تحت حصـر، فمن ذلك تسـعة و أربعون ثريا برسم وقود القناديـل، جملـة مـا دخل فيها من الفضـة البيضاء الخالصـة المضـروبة مائتا ألف و عشـرون ألف درهم، و كلها مطليـة بالطهب، و جاء ارتفاع بناء هـذه القاعـة طولا فى السـماء ثمانية و ثمانين ذراعا، و عمل السـلطان بها برجا يبيت فيه، من العاج و الأبنوس، مطعّم يجلس بين يديه، و أكناف و باب يدخل منه إلى أرض كذلك، و فيه مقرنص قطعة واحدة يكاد يذهل الناظر إليه، بشبابيك ذهب خالص، و طرازات ذهب مصوغ، و شـرافات ذهب مصوغ، و قبة مصوغة من ذهب صـرف، فيه ثمانية و ثلاثون ألف مثقال من الذهب، و صـرف فى مؤنه و أجره تتمة ألف درهم فضة، عنها خمسون ألف دينار، ذهبا، و بصدر إيوان هذه القاعة شباك حديد يقارب باب زويلة يطل على جنينة بديعة الشكل.

الدهيشة: عمّرها السـلطان الملك الصالح عماد الدين إسـماعيل بن محمد بن قلاون، فى سـنة خمس و أربعين و سـبعمائة، و ذلك أنه بلغه عن الملـك المؤيـد عمـاد الـدين صاحب حماه أنه عمر بحماه دهيشـة لم يبن مثلها، فقصـد مضاهاته، و بعث الأمير أقجبا و ابجيج المهنـدس لكشف دهيشـة حمـاه، و كتب لنـائب حلب و نـائب دمشق بحمل ألفى حجر بيض، و ألفى حجر حمر من حلب و دمشق، و حشرت الجمال لحملها حتى وصلت إلى قلعة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۰

الجبل، و صـرف فى حمولة كلّ حجر من حلب اثنا عشر درهما، و من دمشق ثمانية دراهم، و استدعى الرخام من سائر الأمراء و جميع الكتاب، و رسم بإحضار الصـناع للعمل، و وقع الشـروع فيها حتى تمت فى شهر رمضان منها، و قد بلغ مصروفها خمسمائة ألف درهم، سوى مـا قـدم من دمشق و حلب و غير هما، و عمل لها من الفرش و البسط و الآلات ما يجلّ وصـفه، و حضـر بها سائر الأغانى، و كان مهما عظيما.

السبع قاعات: هذه القاعات تشـرف على الميدان و باب القرافة، عمّرها الملك الناصـر محمد بن قلاون، و أسكنها سراريه، و مات عن ألف و مائتى و صيفة مولدة، سوى من عداهنّ من بقية الأجناس.

الجامع بالقلعة: هذا الجامع أنشأه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة ثمان عشرة و سبعمائة، و كان قبل ذلك هناك جامع دون هذا، فهدمه السـلطان و هدم المطبخ و الحوائجخاناه و الفراشخاناه، و عمله جامعا، ثم أخربه فى سنة خمس و ثلاثين و سبعمائة، و بناه هـذا البناء، فلما تم بناؤه جلس فيه و اسـتدعى جميع مؤذنى القاهرة و مصـر، و جميع القرّاء و الخطباء، و عرضوا بين يـديه، و سـمع تـأذينهم و خطـابتهم و قراءتهم، فاختـار منهم عشـرين مؤذنـا رتبهم فيه، و قرّر فيه درس فقه، و قارئـا يقرأ فى المصـحف، و جعـل عليه أوقافـا تكفيه و تفيض، و صـار من بعـده من الملوك يخرجون أيام الجمع إلى هـذا الجامع و يحضـر خاصـة الأمراء معه من القصـر، و يجىء باقيهم من باب الجامع، فيصـلى السـلطان عن يمين المحراب فى مقصورة خاصة به، و يجلس عنده أكابر خاصـته، و يصـلى معه الأمـراء خصـتهم و عـامّتهم خارج المقصورة عن يمنتها و يسـرتها على مراتبهم، فإذا انقضت الصـلاة دخل إلى قصوره و دور حرمه، و تفرّق كلّ أحد إلى مكانه.

و هـذا الجامع متسع الأرجاء مرتفع البناء، مفروش الأرض بالرخام، مبطن السـقوف بالذهب، و بصدره قبة عالية يليها مقصورة مسـتورة، هى و الرواقات بشبابيك الحديد المحكمة الصنعة، و يحف صحنه رواقات من جهاته.

الدار الجديدة: هذه الدار عند باب سرّ القلعة المطل على سوق الخيل، عمّرها الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ فى سنة أربع و ستين و ستمائة، و عمل بها فى جمادى الأولى منها دعوة للأمراء عند فراغها.

خزانة الكتب: وقع بها الحريق يوم الجمعة رابع صـفر سنة إحدى و تسعين و ستمائة، فتلف بها من الكتب فى الفقه و الحديث و التاريخ و عامـة العلوم شـىء كثير جـدا، كـان من ذخائر الملوك، فانتهبها الغلمان و بيعت أوراقا محرّقـة، ظفر الناس منها بنفائس غريبـة ما بين ملاحم و غيرها، و أخذوها بأبخس الأثمان.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۱

القاعة الصالحية: عمّرها الملك الصالح نجم الدين أيوب، و كانت سكن الملوك إلى أن أحترقت فى سادس ذى الحجة سنة أربع و ثمانين و ستمائة، و احترق معها الخزانة السلطانية.

باب النحاس: هذا الباب من داخل الستارة، و هو أجل أبواب الدور السلطانية، عمّره الناصر محمد بن قلاون، و زاد فى سعة دهليزه.

باب القلة: عرف بذلك من أجل أنه كان هناك قلة بناها الملك الظاهر بيبرس، و هدمها الملك المنصور قلاون فى يوم الأحد عاشر شهر رجب سنة خمس و ثمانين و ستمائة، و بنى مكانها قبة، فرغت عمارتها فى شوّال منها، ثم هدمها الملك الناصر محمد بن قلاون و جدّد باب القلة على ما هو عليه الآن، و عمل له بابا ثانيا.

الرفرف: عمّره الملك الأشرف خليل بن قلاون، و جعله عاليا يشرف على الجيزة كلها، و بيّضه و صوّر فيه أمراء الدولة و خواصها، و عقد عليه قبة على عمد، و زخرفها، و كان مجلسا يجلس فيه السلطان، و استمرّ جلوس الملوك به حتى هدمه الملك الناصر حمد بن قلاون فى سنة اثنتى عشرة و سبعمائة، و عمل بجواره برجا بجوار الإصطبل، نقل إليه المماليك.

الجب: كان بالقلعة جب يحبس فيه الأمراء، و كان مهولا مظلما كثير الوطاويط كريه الرائحة، يقاسى المسجون فيه ما هو كالموت أو أشدّ منه، عمره الملك المنصور قلاون فى سنة إحدى و ثمانين و ستمائة، فلم يزل إلى أن قام الأمير بكتمر الساقى فى أمره مع الملك الناصر محمد بن قلاون، حتى أخرج من كان فيه من المحابيس و نقلهم إلى الأبراج وردمه، و عمّر فوق الردم طباقا، فى سنة تسع و عشرين و سبعمائة.

الطبلخاناه تحت القلعة: ذكر هشام بن الكلبىّ: أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه لما قدم الشام، تلقاه المقلسون من أهل الأديان بالسيوف و الريحان، فكره عمر رضى اللّه عنه النظر إليهم و قال: ردّوهم. فقال له أبو عبيدة بن الجرّاح رضى اللّه عنه، إنها سنة الأعاجم، فإن منعتهم ظنوا أنه نقض لعهدهم. فقال عمر رضى اللّه عنه: دعوهم و التقليس: الضرب بالطبل أو الدف.

و هذه الطبلخاناه الموجودة الآن تحت القلعة فيما بين باب السلسلة و باب المدرج، كانت دار العدل القديمة التى عمرها الملك الظاهر بيبرس، و تقدّم خبرها. فلما كانت سنة اثنتين و عشرين و سبعمائة، هدمها الناصر محمد بن قلاون و بناها هذه الطبلخاناه الموجودة الآن تحت قلعة الجبل، فيما بين باب السلسلة و باب المدرج، و صار ينزل إلى عمارتها كلّ قليل، و تولى شدّ العمارة بها آق سنقر شادّ العمائر، و وجد فى أساسها أربعة قبور كبار،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۲

المقدار عليها قطع رخام منقوش عليها أسماء المقبورين و تاريخ وفاتهم، فنبشوا و نقلوا قريبا من القلعة، فكانوا خلقا كبيرا عظيما فى الطول و العرش، على بعضهم ملاءة ديبقية ملوّنة، ساعة مستها الأيدى تمزقت و تطايرت هباء، و فيهم اثنان عليهما آلة الحرب و عدّة الجهاد، و بهما آثار الدماء و الجراحات، و فى وجه أحد هما ضربة سيف بين عينيه، و الجرح مسدود بقطنة، فلما أمسكت القطنة و رفعت عن الجرح فوق الحاجب، نبع من تحتها دم يظنّ أنه جرح طرىّ، فكان فى ذلك موعظة و ذكرى، و كانت الطبلخاناه ساحة بغير سقف، فلما ولى الأمير سودون داز أمير أخور، و سكن الإصطبل السلطانىّ، عمّر هذه الطباق فوق الطباق، و كان الغرض من عمارتها صحيحا، فإن المدرسة الأشرفية كانت حينئذ قائمة تجاه الطبلخاناه، و لما كان زمان الفتن بين أمراء الدولة، تحصن فوقها طائفة ليرموا على الإصطبل و القلعة، فأراد بناء هذه الطباق فوق الطباق أن يجعل بها رماة، حتى لا يقدر أحد يقيم فوق المدرسة الأشرفية، و قد بطل ذلك، فإن الملك الناصر فرج بن برقوق هدم المدرسة الأشرفية، كما ذكر فى هذا الكتاب عند ذكر المدارس.

الطباق بساحة الإيوان: عمّرها الملك الناصر محمد بن قلاون، و أسكنها المماليك السلطانية، و عمر حارة تختص بهم، و كانت الملوك تعنى بها غاية العناية، حتى أن الملك المنصور قلاون كان يخرج فى غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك، و يأمر بعرضه عليه و يتفقد لحمهم و يختبر طعامهم فى جودته و رداءته، فمتى رأى فيه عيبا اشتدّ على المشرف و الاستادار

و نهر هما و حلّ بهما منه أىّ مكروه، و كان يقول: كلّ الملوك عملوا شيئا يذكرون به ما بين مال و عقار، و أنا عمّرت أسوارا و عملت حصونا مانعة لى و لأولادى و للمسلمين، و هم المماليك، و كانت المماليك أبدا تقيم بهذه الطبقات لا تبرح فيها، فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاون سمح للمماليك أن ينزلوا من القلعة فى النهار و لا يبتوا إلا بها، فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت بغيرها، ثم أنّ الملك الناصر محمد بن قلاون سمح لهم بالنزول إلى الحمام يوما فى الأسبوع، فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدّام، ثم يعودون آخر نهارهم، و لم يزل هذا حالهم إلى أن انقرضت أيام بنى قلاون، و كانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة، أوّلها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان و نزله فى طبقات جنسه و سلمه لطواشىّ برسم الكتابة، فأوّل ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، و كانت كلّ طائفة لها فقيه يحضر إليها كلّ يوم و يأخذ فى تعليمها كتاب اللّه تعالى و معرفة الخط و التمرّن بآداب الشريعة، و ملازمة الصلوات و الأذكار، و كان الرسم إذ ذاك أن لا تجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شبّ الواحد من المماليك علّمه الفقيه شيئا من الفقه، و أقرأه فيه مقدّمة، فإذا صار إلى سنّ البلوغ أخذ فى تعليمه أنواع الحرب من رمى السهام و لعب الرمح و نحو ذلك، فيتسلم كلّ طائفة معلم حتى يبلغ الغاية فى معرفة ما يحتاج إليه، و إذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمى النشاب لا يجسر جندى و لا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۳

أمير أن يحدّثهم أو يدنو منهم، فينقل إذن إلى الخدمة و يتنقل فى أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا و قد تهذبت أخلاقه و كثرت آدابه، و امتزج تعظيم الإسلام و أهله بقلبه، و اشتدّ ساعده فى رماية النشاب، و حسن لعبه بالرمح، و مرن على ركوب الخيل، و منهم من يصير فى رتبة فقيه عارف، أو أديب شاعر، أو حاسب ماهر، هذا و لهم أزمّة من الخدّام، و أكابر من رؤوس النوب يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافى، و يؤاخذونه أشدّ المؤاخذة، و يناقشونه على حركاته و سكناته، فإن عثر أحد من مؤدّبيه الذى يعلّمه القرآن، أو الطواشىّ الذى هو مسلّم إليه، أو رأس النوبة الذى هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنبا، أو أخلّ برسم، أو ترك أدبا من آداب الدين أو الدنيا، قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه، و بلغ من تأديبهم أن مقدّم المماليك كان إذا أتاه بعض مقدّمى الطباق فى السحر، يشاور على مملوك أنه يغتسل من جنابة، فيبعث من يكشف عن سبب جنابته، إن كان من احتلام فينظر فى سراويله، هل فيه جنابة أم لا، فإن لم يجد به جنابة جاءه الموت من كلّ مكان، فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك، و قادة يجاهدون فى سبيل اللّه، و أهل سياسة يبالغون فى إظهار الجميل، و يردعون من جارة أو تعدّى، و كانت لهم الإدرارات الكثيرة من اللحوم و الأطعمة و الحلاوات و الفواكه و الكسوات الفاخرة و المعاليم من الذهب و الفضة، بحيث تتسع أحوال غلمانهم، و يفيض عطاؤهم على من قصدهم.

ثم لما كانت أيام الظاهر برقوق، راعى الحال فى ذلك بعض الشىء إلى أن زالت دولته فى سنة إحدى و تسعين و سبعمائة، فلما عاد إلى المملكة رخص للمماليك فى سكنى القاهرة، و فى التزوّج، فنزلوا من الطباق من القلعة و نكحوا نساء أهل المدينة، و اخلدوا إلى البطالة، و نسوا تلك العوائد، ثم تلاشت الأحوال فى أيام الناصر فرج بن برقوق، و انقطعت الرواتب من اللحوم و غيرها حتى عن مماليك الطباق مع قلة عددهم، و رتب لكلّ واحد منهم فى اليوم مبلغ عشرة دراهم من الفلوس، فصار غذاؤهم فى الغالب الفول المصلوق، عجزا عن شراء اللحم و غيره، و هذا و بقى الجلب من المماليك إنما هم الرجال الذين كانوا فى بلادهم ما بين ملاح سفينة و وقاد فى تنور خباز، و محوّل ماء فى غيط أشجار و نحو ذلك، و استقرّ رأى الناصر على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم، بل يتركون و شؤونهم، فبدّلت الأرض غير الأرض، و صارت المماليك السلطانية أرذل الناس و أدناهم و أخسهم قدرا، و أشحهم نفسا، و أجهلهم بأمر الدنيا، و أكثرهم إعراضا عن الدين، ما فيهم إلّا من هو أزنى من قرد، و ألص من فأرة، و أفسد من ذئب، لا جرم أن خربت أرض مصر و الشام، من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات، بسوء إبالة الحكام، و شدّة عبث الولاة، و سوء تصرّف أولى الأمر، حتى أنه ما من شهر إلّا و يظهر من الخلل العام ما لا يتدارك فرطه، و بلغت عدّة المماليك السلطانية فى أيام الملك المنصور

قلاون ستة آلاف و سبعمائة، فأراد ابنه الأشرف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۴

خليل تكميل عدّتها عشرة آلاف مملوك، و جعلهم طوائف، فأفرد طائفتى الأرمن و الجركس و سماها البرجية لأنه أسكنها فى أبراج بالقلعة، فبلغت عدّتهم ثلاثة آلاف و سبعمائة، و أفرد جنس الخطا و القبجاق و أنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية و الزمرذية، و جعل منهم جمدارية و سقاة، و سماهم خاصكية، و عمل البرجية سلاحدارية و جمقدارية و جاشنكيرية و أوشاقية، ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاون بجلب المماليك من بلاد أزبك و بلاد توريز و بلاد الروم و بغداد، و بعث فى طلبهم و بذل الرغائب للتجار فى حملم إليه، و دفع فيهم الأموال العظيمة، ثم أفاض على من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامّة الأصناف دفعة واحدة فى يوم واحد، و لم يراع عادة أبيه و من كان قبله من الملوك فى تنقل المماليك فى أطوار الخدم حتى يتدرب و يتمرّن، كما تقدّم، و فى تدريجه من ثلاثة دنانير فى الشهر إلى عشرة دنانير، ثم نقله من الجامكية إلى وظيفة من وظائف الخدمة، بل اقتضى رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة، فأتاه من المماليك شىء كثير رغبة فيما لديه، حتى كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذى يجلبه إلى مصر، و بلغ ثمن المملوك فى أيامه إلى مائة ألف درهم فما دونها، و بلغت نفقات المماليك فى كلّ شهر إلى سبعين ألف درهم، ثم تزايدت حتى صارت فى سنة ثمان و أربعين و سبعمائة مائتين و عشرين ألف درهم.

دار النيابة: كان بقلعة الجبل دار نيابة بناها الملك المنصور قلاون فى سنة سبع و ثمانين و ستمائة، سكنها الأمير حسام الدين طرنطاى، و من بعده من نوّاب السلطنة، و كانت النوّاب تجلس بشباكها حتى هدمها الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، و أبطل النيابة و أبطل الوزارة أيضا، فصار موضع دار النيابة ساحة، فلما مات الملك الناصر أعاد الأمير قوصون دار النيابة عند استقراره فى نيابة السلطنة، فلم تكمل حتى قبض عليه، فولى نيابة السلطنة الأمير طشتمر حمص أخضر و قبض عليه، فتولى بعد نيابة السلطنة الأمير شمس الدين آق سنقر فى أيام الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاون، فجلس بها فى يوم السبت أوّل صفر سنة ثلاث و أربعين و سبعمائة فى شباك دار النيابة، و هو أوّل من جلس بها من النوّاب بعد تجديدها، و توارثها النوّاب بعده، و كانت العادة أن يركب جيوش مصر يومى الاثنين و الخميس فى الموكب تحت القلعة، فيسيرون هناك من رأس الصوة إلى باب القرافة، ثم تقف العسكر مع نائب السلطنة و ينادى على الخيل بينهم، و ربما نودى على كثير من آلات الجند و الخيم و الجركاوات و الأسلحة، و ربما نودى على كثير من العقار، ثم يطلعون إلى الخدمة السلطانية بالإيوان بالقلعة على ما تقدّم ذكره، فإذا مثل النائب فى حضرة السلطان، وقف فى ركن الإيوان إلى أن تنقضى الخدمة، فيخرج إلى دار النيابة و الأمراء معه، و يمدّ السماط بين يديه كما يمدّ سماط السلطان، و يجلس جلوسا عاما للناس، و يحضره أرباب الوظائف، و تقف قدّامه الحجاب، و تقرأ القصص، و تقدّم إليه الشكاة، و يفصل أمورهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۵

فكان السلطان يكتفى بالنائب و لا يتصدّى لقراءة القصص عليه و سماع الشكوى، تعويلا منه على قيام النائب بهذا الأمر، و إذا قرئت القصص على النائب نظر، فإن كان مرسومه يكفى فيها أصدره عنه، و ما لا يكفى فيه إلّا مرسوم السلطان أمر بكتابته عن السلطان و أصدره، فيكتب ذلك و ينبه فيه على أنه بإشارة النائب، و يميز عن نوّاب السلطان بالممالك الشامية بأن يعبر عنه بكافل المملكة الشريفة الإسلامية، و ما كان من الأمور التى لا بدّ له من إحاطة علم السلطان بها، فإنه إما أن يعلمه بذلك منه إليه وقت الاجتماع به، أو يرسل إلى السلطان من يعلمه به، و يأخذ رأيه فيه و كان ديوان الإقطاع، و هو الجيش فى زمان النيابة ليس لهم خدمة إلا عند النائب، و لا اجتماع إلّا به، و لا يجتمع ناظر الجيش بالسلطان فى أمر من الأمور، فلما أبطل الملك الناصر محمد بن قلاون النيابة، صار ناظر الجيش يجتمع بالسلطان، و استمرّ ذلك بعد إعادة النيابة، و كان الوزير و كاتب السرّ يراجعان النائب فى بعض الأمور دون بعض، ثم اضمحلت نيابة السلطنة فى أيام الناصر محمد بن قلاون، و تلاشت أوضاعها، فلما مات أعيدت بعده و لم تزل إلى أثناء أيام الظاهر

برقوق، و آخر من وليها على أكثر قوانينها الأمير سودون الشيخيّ، و بعده لم يل النيابة أحد فى الأيام الظاهرية، ثم إن الناصر فرج بن برقوق أقام الأمير تمراز فى نيابة السلطنة، فلم يسكن دار النيابة فى القلعة، و لا خرج عما يعرفه من حال حاجب الحجاب، و لم يل النيابة بعد تمراز أحد إلى يومنا هذا، و كانت حقيقة النائب أنه السلطان الثانى، و كانت سائر نوّاب الممالك الشامية و غيرها تكاتبه فى غالب ما تكاتب فيه السلطان، و يراجعونه فيه، كما يراجع السلطان، و كان يستخدم الجند و يخرج الإقطاعات من غير مشاورة، و يعين الأمر لكن بمشاورة السلطان، و كان النائب هو المتصرّف المطلق التصرّف فى كلّ أمر، فيراجع فى الجيش و المال و الخبر، و هو البريد، و كلّ ذى وظيفة لا يتصرّف إلّا بأمره، و لا يفصل أمرا معضلا إلّا مراجعته، و هو الذى يستخدم الجند و يرتب فى الوظائف إلّا ما كان منها جليلا كالوزارة و القضاء و كتابة السرّ و الجيش، فإنه يعرض على السلطان من يصلح، و كان قل أن لا يجاب فى شىء يعينه، و كان من عدا نائب السلطنة بديار مصر يليه فى رتبة النيابة، و كلّ نوّاب الممالك تخاطب بملك الأمراء إلّا نائب السلطنة بمصر فإنه يسمى كافل الممالك، تمييزا له و إبانة عن عظيم محله، و بالحقيقة ما كان يستحق اسم نيابة السلطنة بعد النائب بمصر سوى نائب الشام بدمشق فقط، و إنما كانت النيابة تطلق أيضا على أكابر نوّاب الشام، و ليس لأحد منهم من التصرّف ما كان لنائب دمشق، إلّا أن نيابة السلطنة بحلب تلى رتبة نيابة السلطنة بدمشق، و قد اختلت الآن الرسوم، و اتضعت الرتب، و تلاشت الأحوال، و عادت أسماء لا معنى لها، و خيالات حاصلها عدم. و اللّه يفعل ما يشاء.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۶

ذكر جيوش الدولة التركية و زيّها و عوايدها

اشارة

اعلم أنه قد كان بقلعة الجبل مكان معدّ لديوان الجيش، و أدركت منه بقية إلى أثناء دولة الظاهر برقوق، و كان ناظر الجيش، و سائر كتاب الجيش لا يبرحون فى أيام الخدمة نهارهم مقيمين بديوان الجيش، و كانت لهذا الديوان عوايد قد تغير أكثرها و نسى غالب رسومه، و كانت جيوش الدولة التركية بديار مصر على قسمين، منهم من هو بحضرة السلطان، و منهم من هو فى أقطار المملكة و بلادها و سكان بادية كالعرب و التركمان.

و جندها مختلط من أتراك و جركس و روم و أكراد و تركمان، و غالبهم من المماليك المبتاعين، و هم طبقات، أكابرهم من له إمرة مائة فارس، و تقدمة ألف فارس، و من هذا القبيل تكون أكابر النوّاب، و ربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس و العشرين. ثم أمراء الطبلخاناه، و معظمهم من تكون له إمرة أربعين فارسا، و قد يوجد فيهم من له أزيد من ذلك إلى السبعين، و لا تكون الطبلخاناه لأقل من أربعين. ثم أمراء العشراوات، ممن تكون له إمرة عشرة، و ربما كان فيهم من له عشرون فارسا و لا يعدّون فى أمراء العشراوات. ثم جند الحلقة، و هؤلاء تكون مناشيرهم من السلطان، كما أنّ مناشير الأمراء من السلطان، و أما أجناد الأمراء فمناشيرهم من أمرائهم، و كان منشور الأمير يعين فيه للأمير ثلث الإقطاع و لأجناده الثلثان، فلا يمكن الأمير و لا مباشروه أن يشاركوا أحدا من الأجناد فيما يخصهم إلّا برضاهم، و كان الأمير لا يخرج أحدا من أجناده حتى يتبين للنائب موجب يقتضى إخراجه، فحينئذ يخرجه نائب السلطان و يقيم عند الأمير عوضه، و كان لكل أربعين جنديا من جند الحلقة مقدّم عليهم، ليس له عليهم حكم إلّا إذا خرج العسكر لقتال، فكانت مواقف اوربعين مع مقدّمهم و ترتيبهم فى موقفهم إليه و يبلغ بمصر إقطاع بعض أكابر أمراء المئنى المقدّمين من السلطان مائتى ألف دينار جيشية، و ربما زاد على ذلك، و أما غيرهم فدون ذلك، يعبر أقلها إلى ثمانين ألف دينار و ما حولها. و أمّا الطبلخاناه فمن ثلاثين ألف دينار إلى ثلاثة و عشرين ألف دينار، و أما العشراوات فأعلاها سبعة آلاف دينار إلى ما دونها، و أما إقطاعات أجناد

الحلقة فأعلاها ألف و خمسمائة دينار، و هذا القدر و ما حوله إقطاعات أعيان مقدّمى الحلقة، ثم بعد ذلك الأجناد بابات، حتى يكون أدناهم مائتين و خمسين دينارا، و سيرد تفصيل ذلك إن شاء اللّه تعالى و أما إقطاعات جند الأمراء فإنها على ما يراه الأمير من زيادة بينهم و نقص.

و أما إقطاعات الشام فإنها لا تقارب هذا، بل تكون على الثلثين مما ذكرنا، ما خلا نائب السلطنة بدمشق فإنه يقارب إقطاعه أعلى إقطاعات أكابر أمراء مصر المقرّبين.

و جميع جند الأمراء تعرض بديوان الجيش و يثبت اسم الجندى و حليته، و لا يستبدل أميره به غير إلّا بتنزيل من عوّض به و عرضه.

و كانت للأمراء على السلطان فى كلّ سنة ملابس ينعم بها عليهم، و لهم فى ذلك حظ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۷

وافر، و ينعم على أمراء المئين بخيول مسرجة ملجمة، و من عداهم بخيول عرى، و يميز خاصتهم على عامتهم، و كان لجميع الأمراء من المئين و الطبلخاناه و العشراوات على السلطان الرواتب الجارية فى كلّ يوم، من اللحم و توابله كلها و الخبز، و الشعير لعليق الخيل، و الزيت.

و لبعضهم الشمع و السكّر و الكسوة فى كلّ سنة. و كذلك لجميع مماليك السلطان و ذوى الوظائف من الجند، و كانت العادة إذا نشأ لأحد الأمراء ولد، أطلق له دنانير و لحم و خبز و عليق، حتى يتأهل للإقطاع فى جملة الحلقة، ثم منهم من ينتقل إلى إمرة عشرة أو إلى إمرة طبلخاناه، بحسب الحظ، و اتفق للأميرين طرنطاى و كتبغا أنّ كلا منهما زوّج ولده بابنة الآخر، و عمل لذلك المهم العظيم، ثم سأل الأمير طرنطاى، و هو إذ ذاك نائب السلطان، الأمير بيلبك الأيدمرىّ و الأمير طيبرس أن يسألا السلطان الملك المنصور قلاون فى الإنعام على ولده و ولد الأمير كتبغابا قطاعين فى الحلقة، فقال لهما: و اللّه لو رأيتهما فى مصاف القتال يضربان بالسيف، أو كانا فى زحف قدّامى، أستقبح أن أعطى لهما أخبازا فى الحلقة، خشية أن يقال أعطى الصبيان الأخباز، و لم يجب سؤالهما هذا. و هم من قد عرفت.

لكن كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى رحمه اللّه، إذا مات الجندىّ أعطى إقطاعه لولده، فإن كان صغيرا رتب معه من يلى أمره حتى يكبر، فكان أجناده يقولون:

الإقطاعات أملاكنا يرثها أولادنا الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها. و به اقتدى كثير من ملوك مصر فى ذلك. و للأمراء المقدّمين حوائص ذهب فى وقت الركوب إلى الميدان، و لكلّ أمير من الخواص على السلطان مرتب من السكر و الحلوى فى شهر رمضان، و لسائرهم الأضحية فى عيد الأضحى على مقادير رتبهم، و لهم البرسيم لتربيع دوابهم، و يكون فى تلك المدجة بدل العليق المرتب لهم، و كانت الخيول السلطانية تفرّق على الأمراء مرّتين فى كلّ سنة، مرّة عند ما يخرج السلطان إلى مرابط خيوله فى الربيع عند اكتمال تربيعها، و مرّة عند لعبه بالأكرة فى الميدان. و لخاصة السلطان المقرّبين زيادة كثيرة من ذلك، بحيث يصل إلى بعضهم فى السنة مائة فرس، و يفرّق السلطان أيضا الخيول على المماليك السلطانية فى أوقات أخر، و ربما يعطى بعض مقدّمى الحلقة، و من نفق له فرس من المماليك، يحضر من لحمه و الشهادة بأنه نفق، فيعطى بدله. و لخاصة السلطان المقرّبين أنعام من الإنعامات، كالعقارات و الأبنية الضخمة التى ربما أنفق على بعضها زيادة على مائة ألف دينار، و وقع هذا فى الأيام الناصرية مرارا، كما ذكر عند ذكر الدول من هذا الكتاب، و لهم أيضا كساوى القماش المنوّع، و لهم عند سفرهم إلى الصيد و غيره العلوفات و الأنزال، و كانت لهم آداب لا يخلّون بها، منها أنهم إذا أدخلوا إلى الخدمة بالإيوان أو القصر، وقف كلّ أمير فى مكانه المعروف به، و لا يجسر أحد منهم و لا من المماليك أن يحدّث رفيقه فى الخدمة و لا بكلمة واحدة، و لا يلتفت إلى نحوه أيضا، و لا يجسر أحد منهم و لا من المماليك أن يجتمع بصاحبه فى نزهة و لا فى رمى النشاب و لا غير ذلك، و من بلغ السلطان

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۸

عنه أنه اجتمع بآخر نفاه أو قبض عليه.

و اختلف زى الأمراء و العساكر فى الدولة التركية، و قد بينا ما كان عليه زيّهم حتى غيره الملك المنصور قلاون عند ذكر سوق الشرابشيين، و صار زيهم إذا دخلوا إلى الخدمة، بالأقبية التترية و الكلاوات فوقها، ثم القباء الإسلامىّ فوقها، و عليه تشدّ المنطقة و السيف.

و يتميز الأمراء و المقدّمون و أعيان الجند بلبس أقبية قصيرة الأكمام فوق ذلك، و تكون أكمامها أقصر من القباء التحتانىّ، بلا تفاوت كبير فى قصر الكمّ و الطول، و على رؤوسهم كلهم كلوتات صغار غالبها من الصوف الملطىّ الأحمر، و تضرب و يلف فوقها عمائم صغار، ثم زادوا فى قدر الكلوتات و ما يلفّ فوقها فى أيام الأمير بلبغا الخاصكىّ، القائم بدولة الأشرف شعبان بن حسين، و عرفت بالكلوتات الطرخانية، و صاروا يسمون تلك الصغيرة ناصرية، فلما كانت أيام الظاهر برقوق بالغوا فى كبر الكلوتات، و عملوا فى شدّتها عوجا، و قيل لها كلوتات جركسية، و هم على ذلك إلى اليوم. و من زيهم لبس المهماز على الإخفاف، و يعمل المنديل فى الحياصة على الصولق من الجانب الأيمن، و معظم حوائص المماليك فضة، و فيهم من كان يعملها من الذهب، و ربما عملت باليشم و كانت حوائص أمراء المئين الأكابر، التى تخرج إليهم مع الخلع السلطانية من خزانة الخاص، يرصّع ذهبها بالجواهر. و كان معظم العسكر يلبس الطراز، و لا يكفت مهمازه بالذهب، و لا يلبس الطراز إلّا من له إقطاع فى الحلقة، و أما من هو بالحامكية أو من أجناد الأمراء، فلا يكفت مهمازه بالذهب و لا يلبس طرازا، و كانت العساكر من الأمراء و غيرهم تلبس المنوّع من الكمخا و الخطاى و الكبخى و المخمل و الإسكندرانىّ و الشرب و من النصافى و الأصواف الملوّنة. ثم بطل لبس الحرير فى أيام الظاهر برقوق، و اقتصروا إلى اليوم على لبس الصوف الملوّن فى الشتاء، و لبس النصافى المصقول فى الصيف.

و كانت العادة أن السلطان يتولى بنفسه استخدام الجند، فإذا وقف قدّامه من يطلب الإقطاع المحلول، و وقع اختياره على أحد، أمر ناظر الجيش بالكتابة له، فيكتب ورقة مختصرة تسمى المثال، مضمونها حيز فلان كذا، ثم يكتب فوقه اسم المستقرّ له، و يناولها السلطان فيكتب عليها بخطه، يكتب و يعطيها الحاجب لمن رسم له، فيقبّل الأرض، ثم يعاد المثال إلى ديوان الجيش فيحفظ شاهدا عندهم، ثم تكتب مربعة مكملة بخطوط جميع مباشرى ديوان الإقطاع، و هم كتاب ديوان الجيش، فيرسمون علاماتهم عليها، ثم تحمل إلى ديوان الإنشاء و المكاتبات، فيكتب المنشور و يعلّم عليه السلطان كما تقدّم ذكره، ثم يكمل المنشور بخطوط كتاب ديوان الجيش بعد المقابلة على حجة أصله.

و استجدّ السلطان الملك المنصور قلاون طائفة سمّاها البحرية، و هى أن البحرية

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۷۹

الصالحية لما تشتتوا عند قتل الفارس أقطاى فى أيام المعز أيبك، بقيت أولادهم بمصر فى حالة رذيلة، فعندما أفضت السلطنة إلى قلاون جمعهم و رتب لهم الجوامك و العليق و اللحم و الكسوة، و رسم أن يكونوا جالسين على باب القلعة، و سمّاهم البحرية، و إلى اليوم طائفة من الأجناد تعرف بالبحرية.

و أما البلاد الشامية، فليس للنائب بالمملكة مدخل فى تأمير أمير عوض أمير مات، بل إذا مات أمير سواء كان كبيرا أو صغيرا طولع السلطان بموته فأمّر عوضه، إما ممن فى حضرته و يخرجه إلى مكان الخدمة، أو ممن هو فى مكان الخدمة، أو ينقل من بلد آخر، من يقع اختياره عليه. و أما جند الحلقة فإنهم إذا مات أحدهم استخدم النائب عوضه، و كتب المثال على نحو من ترتيب السلطان، ثم كتب المربعة و جهزها مع البريد إلى حضرة السلطان فيقابل عليها فى ديوان الإقطاع، ثم إن أمضاها السلطان كتب عليها يكتب، فتكتب المربعة من ديوان الإقطاع، ثم يكتب عليها المنشور كما تقدّم فى الجند الذين بالحضرة، و إن لم يمضها السلطان أخرج الإقطاع لمن يريد. و من مات من الأمراء و الجند قبل استكمال مدّة الخدمة حوسب ورثته على حكم الاستحقاق، ثم إمّا يرتجع منهم أو يطلق لهم على قدر حصول العناية بهم، و إقطاعات الأمراء و الجند منها ما هو بلاد يستغلها مقطعها كيف شاء، و منها ما هو نقد على جهات

يتناولها منها، و لم يزل الحال على ذلك حتى راك الملك الناصر محمد بن قلاون البلاد كما تقدّم فى أوّل هذا الكتاب، عند الكلام على الخراج و مبلغه، فأبطل عدّة جهات من المكوس و صارت الإقطاعات كلها بلادا، و الذى استقرّ عليه الحال فى إقطاعات الديار المصرية مما رتبه الملك الناصر محمد بن قلاون فى الروك الناصرىّ، و هو عدة الجيوش المنصورة بالديار المصرية أربعة و عشرون ألف فارس، تفصيل ذلك: أمراء الألوف و مماليكهم ألفان و أربعمائة و أربعة و عشرون فارسا، تفصيل ذلك: نائب و وزير و ألوف خاصكية ثمانية أمراء، و ألوف خرجية أربعة عشر أميرا، و مماليكهم ألفان و أربعمائة فارس. أمراء طبلخاناه و مماليكهم ثمانية آلاف و مائتا فارس، تفصيل ذلك: خاصكية أربعة و خمسون أميرا، و خرجية مائة و ستة و أربعون أميرا، و مماليكهم ثمانية آلاف فارس.

كشاف و ولاة بالأقاليم خمسمائة و أربعة و سبعون، تفصيل ذلك: ثغر الإسكندرية واحد، و البحيرة واحد، و الغربية واحد، و الشرقية واحد، و المنوفيه واحد و قطيا واحد، و كاشف الجيزة واحد، و الفيوم واحد، و البهنسا واحد، و الأشمونين واحد، وقوص واحد، واسوان واحد، و كاسف الوجه البحرىّ واحد، و كاشف الوجه القبلىّ واحد. و مماليكهم خمسمائة و ستون. أمراء العشراوات و مماليكهم ألفان و مائتا فارس، تفصيل ذلك: خاصكية ثلاثون، و خرجية مائة و سبعون أميرا، و مماليكهم ألفان.

ولاة الأقاليم سبعة و سبعون أميرا، تفصيلهم: أشمون الرّمان واحد، و قليوب واحد،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۰

و الجيزة واحد، و تروجا واحد، و حاجب الإسكندرية واحد، و اطفيح واحد، و منفلوط واحد، و مماليكهم سبعون فارسا.

مقدّموا الحلقة و الأجناد أحد عشر ألفا و مائة و ستة و سبعون فارسا، تفصيل ذلك:

مقدّموا المماليك السلطانية أربعون، مقدّموا الحلقة مائة و ثمانون، نقباء الألوف أربعة و عشرون نقيبا، مماليك السلطان و أجناد الحلقة عشرة آلاف و تسعمائة و اثنان و ثلاثون فارسا، تفصيل ذلك: مماليك السلطان ألفا مملوك، أجناد الخلقة ثمانية آلاف و تسعمائة و اثنان و ثلاثون فارسا.

عبرة ذلك الخاصكية، الألوف و النائب و الوزير، كلّ منهم مائة ألف دينار، و كلّ دينار عشرة دراهم، الارتفاع ألف ألف درهم، بما فيه من ثمن الغلال، كلّ أردب واحد من القمح بعشرين درهما، و الحبوب كلّ أردب منها بعشرة دراهم، من ذلك الكلف مائة ألف درهم، و الخالص تسعمائة ألف درهم.

الألوف الخرجية، كلّ منهم خمسة و ثمانون ألف دينار، كلّ دينار عشرة دراهم، الارتفاع ثمانمائة ألف و خمسون ألفا، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح فيه، من ذلك الكلف سبعون ألف درهم، و الخالص لكلّ منهم سبعمائة و ثمانون ألف درهم.

الطبلخاناه الخاصكية، كلّ منهم أربعون ألف دينار، كلّ دينار عشرة دراهم، الارتفاع أربعمائة ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح فيه، من ذلك الكلف خمسة و ثلاثون ألف درهم، و الخالص لكلّ منهم ثلاثمائة و خمسة و ستون ألف درهم.

الطبلخاناه الخرجية ثلاثون ألف دينار، كلّ دينار ثمانية دراهم، الارتفاع مائتا ألف و أربعون ألف درهم، بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح، من ذلك الكلف أربعة و عشرون ألف درهم، و الخالص مائتا ألف و ستة عشر ألف درهم.

العشراوات الخاصكية كل منهم عشرة آلاف دينار، كلّ دينار عشرة دراهم، الارتفاع مائة ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح، من ذلك الكلف سبعة آلاف درهم، و الخالص لكلّ منهم ثلاثة و تسعون ألف درهم.

العشراوات الخرجية كلّ منهم سبعة آلاف دينار، كلّ دينار عشرة دراهم، الارتفاع سبعون ألف درهم، بما فيه من ثمن الغلال، على ما شرح. من ذلك الكلف خمسة آلاف درهم، و الخالص لكلّ منهم خمسة و ستون ألف درهم.

الكشّاف لكلّ منهم عشرون ألف دينار، كلّ دينار ثمانية دراهم، الارتفاع مائة ألف و ستون ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح، من ذلك الكلفة خمسة عشر ألف درهم، و الخالص مائة ألف و خمسة و أربعون ألف درهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۱

الولاة الاصطبلخاناه، كلّ منهم خمسة عشر ألف دينار، كلّ دينار ثمانية دراهم، الارتفاع مائة و عشرون ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح، من ذلك الكلف عشرة آلاف درهم، و الخالص لكلّ منهم مائة ألف و عشرة آلاف درهم.

الولاة العشراوات، لكلّ منهم خمسة آلاف دينار، كلّ دينار سبعة دراهم، الارتفاع خمسة و ثلاثون ألف درهم، بما فيه من ثمن المغل على ما شرح، من ذلك الكلف ثلاثة آلاف درهم، و الخالص لكلّ منهم اثنان و ثلاثون ألف درهم.

مقدّمو مماليك السلطان، كلّ منهم ألف و مائتا دينار، كلّ دينار عشرة دراهم، الارتفاع اثنا عشر ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح، من ذلك الكلف ألف درهم، و الخالص لكلّ منهم أحد عشر ألف درهم.

مقدّموا الحلقة، كلّ منهم ألف دينار، كلّ دينار تسعة دراهم، الارتفاع تسعة آلاف درهم بما فيه من ثمن الغلال، من ذلك الكلف تسعمائة درهم، و الخالص لكلّ منهم ثمانية آلاف درهم و مائة درهم.

نقباء الألوف لكل منهم أربعمائة دينار، كلّ دينار تسعة دراهم، الارتفاع ثلاثة آلاف و ستمائة درهم، بما فيه من ثمن الغلال، من ذلك الكلف أربعمائة درهم، و الخالص لكلّ منهم ثلاثة آلاف و مائتا درهم.

مماليك السلطان ألفان، بابة أربعمائة مملوك، لكلّ منهم ألف و خمسمائة دينار، كلّ دينار عشرة دراهم، عنها لأخمسة عشر ألف درهم، بابة خمسمائة مملوك، كل واحد ألف و ثلثمائة دينار، سعره عشرة دراهم، عنها ثلاثة عشر ألف درهم، بابة خمسمائة مملوك، لكل منهم ألف دينار و مائتا دينار، عنها اثنا عشر ألف درهم. بابة ستمائة مملوك، لكل واحد ألف دينار، عنها عشرة آلاف درهم.

اجناد الحلقة ثمانئة آلاف و تسعمائة و اثنان و ثلاثون فارسا، بابه ألف و خمسمائة فارس لكلّ منهم تسعمائة دينة بتسعة آلاف درهم، بابة ألف و ثلاثمائة و خمسين جنديا لكلّ منهم ثمانمائة دينار بثمانية آلاف درهم، بابة ألف و ثلاثمائة و خمسين جنديا كل منهم سبعمائة دينار عنها سبعة آلاف درهم. بابة ألف و ثلاثمائة جندىّ لكلّ منهم ستمائة دينار بستة آلاف درهم، بابة ألف و ثلاثمائة كلّ منهم بخمسمائة دينار بخمسة آلاف درهم. بابة ألف و مائة جندىّ لكلّ منهم أربعمائة دينار بأربعة آلاف درهم، بابة ألف و اثنين و ثلاثين جنديا لكل منهم ثلاثمائة دينار سعر عشرة دراهم عنها ثلاثة آلاف درهم.

و أرباب الوظائف من الأمراء بعد النيابة و الوزارة، أمير سلاح و الدوادار، و الحجبة، و أمير جاندار، و الاستادار، و المهندار، و نقيب الجيوش، و الولاة.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۲

فلما مات الملك الناصر محمد بن قلاون، حدث بين أجناد الحلقة نزول الواحد منهم عن إقطاعه لآخر بمال، أو مقايضة الإقطاعات بغيرها فكثر الدخيل فى الأجناد بذلك، و اشترت السوقة و الأراذل الإقطاعات، حتى صار فى زمننا أجناد الحلقة أكثرهم أصحاب حرف و صناعات، و خربت منهم أراضى إقطاعاتهم. و أوّل ما حدث ذلك أن السلطان الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاون، لما تسلطن فى شهر ربيع الآخر سنة ست و أربعين و سبعمائة، تمكن منه الأمير شجاع الدين أغرلوشادّ الدواوين، و استجدّ أشياء منها المقايضة بالإقطاعات فى الحلقة، و النزول عنها. فكان من أراد مقايضة أحد بإقطاعه، حمل كلّ منهما مالا لبيت المال يقرّر عليهما، و من اختار حيزا بالحلقة، يزن على قدر عبرته فى عبرته فى السنة دنانير يحملها لبيت المال، فإن كانت عبرة الحيز الذى يريده خمسمائة دينار فى السنة، حمل خمسمائة دينار، و من أراد النزول عن إقطاعه حمل مالا لبيت المال بحسب ما يقرّر عليه اغرلو، و أفرد لذلك و لما يؤخذ من طالبى الوظائف و الولايات ديوانا سمّاه ديوان البدل، و كان يعين فى المنشور الذى يخرج بالمقايضة، المبلغ الذى يقوم به كلّ من الجنديين، و كان ابتداء هذا فى جمادى الأولى من السنة المذكورة، فقام الأمراء فى ذلك مع السلطان حتى رسم بإبطاله، فلما ولى الأمير منجك اليوسفىّ الوزارة و سيره فى المال، فتح فى سنة تسع و أربعين باب النزول و المقايضات، فكان الجندىّ يبيع إقطاعه لكلّ من بذل له فيه مالا، فأخذ كثير من العامّة الإقطاعات، فكان يبذل فى الإقطاع مبلغ عشرين ألف درهم، و أقل منه على قدر متحصله، و للوزير رسم معلوم، ثم منع من ذلك، فلما كانت نيابة الأمير سيف الدين قيلاى فى سنة ثلاث و خمسين، مشى أحوال

الأجناد فى المقايضات و النزولات، فاشترى الإقطاعات الباعة و أصحاب الصنائع، و بيعت تقادم الحلقة، و انتدب لذلك جماعة عرفت بالمهيسين بلغت عدّتهم نحو الثلاثمائة مهيس، و صاروا يطوفون على الأجناد و يرغبونهم فى النزول عن إقطاعاتهم أو المقايضة بها، و جعلوا لهم على كلّ ألف درهم مائة درهم، فلما فحش الأمر أبطل الأمير شيخون العمرى النزولات و المقايضات عندما استقرّ رأس نوبة، و استقل بتدبير أمور الدولة، و تقدّم لمباشرى ديوان الجيش أن لا يأخذوا رسم المنشور و المحاسبة سوى ثلاثة دراهم، بعد ما كانوا يأخذون عشرين درهما.

ذكر الحجبة

و كانت رتبة الحجبة فى الدولة التركية جليلة، و كانت تلى رتبة نيابة السلطنة، و يقال لأكبر الحجبة حاجب الحجاب. و موضوع الحجبة أن متوليها بنصف من الأمراء و الجند، تارة بنفسه و تارة بمشاورة السلطان و تارة بمشاورة النائب، و كان إليه تقديم من يعرض و من يردّ، و عرض الجند، فإن لم يكن نائب السلطنة فإنه هو المشار إليه فى الباب، و القائم مقام النوّاب فى كثير من الأمور، و كان حكم الحاجب لا يتعدّى النظر فى مخاصمات الأجناد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۳

و اختلافهم فى أمور الإقطاعات و نحو ذلك، و لم يكن أحد من الحجاب فيما سلف يتعرّض للحكم فى شىء من الأمور الشرعية، كتداعى الزوجين و أرباب الديون، و إنما يرجع ذلك إلى قضاة الشرع، و لقد عهدنا دائما أن الواحد من الكتاب أو الضمان و نحوهم، يفرّ من باب الحاجب و يصير إلى باب أحد القضاة و يستجير بحكم الشرع فلا يطمع أحد بعد ذلك فى أخذه من باب القاضى، و كان فيهم من يقيم الأشهر و الأعوام فى ترسيم القاضى حماية له من أيدى الحجاب، ثم تغير ما هنالك و صار الحاجب اليوم اسما لعدّة جماعة من الأمراء، ينتصبون للحكم بين الناس لا لغرض إلّا لتضمين أبوابهم بمال مقرّر فى كلّ يوم على رأس نوبة النقباء، و فيهم غيروا حد ليس لهم على الأمرة إقطاع، و إنما يرتزقون من مظالم العباد، و صار الحاجب اليوم يحكم فى كلّ جليل و حقير من الناس، سواء كان الحكم شرعيا أو سياسيا بزعمهم، و إن تعرّض قاض من قضاة الشرع لأخذ غريم من باب الحاجب، لم يمكّن من ذلك، و نقيب الحاجب اليوم مع رذالة الحاجب و سفالته، و تظاهره من المنكر بما لم يكن يعهد مثله، يتظاهر به أطراف السوقة، فإنه يأخذ الغريم من باب القاضى و يتحكم فيه من الضرب و أخذ المال بما يختار، فلا ينكر ذلك أحد البتة، و كانت أحكام الحجاب أوّلا يقال لها حكم السياسة، و هى لفظة شيطانية لا يعرف أكثر أهل زمننا اليوم أصلها، و يتماهلون فى التلفظ بها و يقولون: هذا الأمر مما لا يمشى فى الأحكام الشرعية، و إنما هو من حكم السياسة، و يحسبونه هينا، و هو عند اللّه عظيم، و سأبين معنى ذلك، و هو فصل عزيز.

ذكر أحكام السياسة

اعلم أن الناس فى زمنا، بل و منذ عهد الدولة التركية بديار مصر و الشام، يرون أن الأحكام على قسمين: حكم الشرع، و حكم السياسة. و لهذه الجملة شرح، فالشريعة هى ما شرّع اللّه تعالى من الدين و أمر به، كالصلاة و الصيام و الحج و سائر أعمال البرّ، و اشتقّ الشرع من شاطىء البحر، و ذلك أن الموضع الذى على شاطىء البحر تشرع فيه الدواب، و تسميه العرب الشريعة، فيقولون للإبل إذا وردت شريعة الماء و شربت: قد شرع فلان إبله، و شرّعها، بتشديد الراء إذا أوردها شريعة لماء، و الشريعة و الشراع و الشرعة، المواضع التى ينحدر الماء فيها. و يقال: شرّع الدين يشرّعه شرعا بمعنى سنّه. قال اللّه تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً [الشورى/ ۱۳]

و يقال: ساس الأمر سياسة، بمعنى قام به. و هو سائس من قوم ساسة و سوس، و سوّسه القوم. جعلوه يسوسهم، و السوس الطبع و الخلق، فيقال: الفصاحة من سوسه و الكرم من سوسه، أى من طبعه. فهذا أصل وضع السياسة فى اللغة. ثم رسمت بأنها القانون الموضوع لرعاية الآداب و المصالح و انتظام الأحوال.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۴

و السياسة نوعان: سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهى من الأحكام الشرعية، علمها من علمها، و جهلها من جهلها. و قد صنف الناس فى السياسة الشرعية كتبا متعدّدة. و النوع الآخر سياسة ظالمة، فالشريعة تحرّمها و ليس ما يقوله أهل زماننا فى شىء من هذا، و إنما هى كلمة مغليّة، أصلها ياسه، فحرّفها أهل مصر و زادوا بأوّلها سينا فقالوا سياسة، و أدخلوا عليها الألف و اللام فظنّ من لا علم عنده أنها كلمة عربية، و ما الأمر فيها إلّا ما قلت لك.

و اسمع الآن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر و الشام. و ذلك أن جنكز خان القائم بدولة التتر فى بلاد الشرق، لما غلب الملك أونك خان و صارت له دولة، قرّر قواعد و عقوبات أثبتها فى كاتب، سمّاه ياسه، و من الناس من يسميه يسق، و الأصل فى اسمه ياسه، و لما تمم وضعه كتب ذلك نقشا فى صفائح الفولاذ، و جعله شريعة لقومه فالتموه بعده حتى قطع اللّه دابرهم. و كان جنكز خان لا يتدين بشىء من أديان أهل الأرض، كما تعرف هذا إن كنت أشرفت على أخباره، فصار الياسه حكما بتّا بقى فى أعقابه لا يخرجون عن شىء من حكمه.

و أخبرنى العبد الصالح الداعى إلى اللّه تعالى، أبو هاشم أحمد بن البرهان، رحمه اللّه:

أنه رأى نسخة من الياسة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد، و من جملة ما شرعه جنكزخان فى الياسه أن: من زنى قتل، و لم يفرق بين المحصن و غير المحصن. و من لاط قتل، و من تعمّد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد، أو دخل بين اثنين و هما يتخاصمان و أعان أحد هما على الآخر قتل. و من بال فى الماء أو على الرماد قتل. و من أعطى بضاعة فخسر فيها فإنه يقتل بعد الثالثة. و من أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل و من وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد هرب و لم يردّه على من كان فى يده قتل. و أنّ الحيوان تكتّف قوائمه و يشقّ بطنه و يمرس قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه. و أنّ من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح.

و من وقع حمله أو قوسه أو شىء من متاعه و هو يكرّ أو يفرّ فى حالة القتال و كان وراءه أحد، فإنه ينزل و يناول صاحبه ما سقط منه، فإن لم ينزل و لم يناوله قتل. و شرط أن لا يكون على أحد من ولد علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه مؤنة و لا كلفة، و أن لا يكون على أحد من الفقراء و لا- القرّاء و لا- الفقهاء و لا الأطباء و لا من عداهم من أرباب العلوم و أصحاب العبادة و الزهد و المؤذنين و مغسلى الأموات كلفة و لا مؤنة، و شرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى، و جعل ذلك كله قربة إلى اللّه تعالى، و ألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أوّلا، و لو أنه أمير، و من يناوله أسير. و ألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شىء و غيره يراه، بل يشركه معه فى أكله. و ألزمهم أن لا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه، و لا يتخطى أحد نارا و لا مائدة و لا الطبق الذى يؤكل عليه، و أنّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۵

من مرّ بقوم و هم يأكلون فله أن ينزل و يأكل معهم من غير إذنهم، و ليس لأحد منعه.

و ألزمهم أن لا يدخل أحد منهم يده فى الماء، و لكنه يتناول الماء بشىء يغترفه به، و منعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى، و منه أن يقال لشىء أنه نجس، و قال: جميع الأشياء طاهرة، و لم يفرق بين طاهر و نجس. و ألزمهم أن لا يتعصبوا لشىء من المذاهب، و منعهم من تفخيم الألفاظ و وضع الألقاب، و إنما يخاطب السلطان و من دونه و يدعى باسمه فقط، و ألزم القائم بعده بعرض العساكر و أسلحتها إذا أرادوا الخروج إلى القتال. و أنّه يعرض كلّ ما سافر به عسكره، و ينظر حتى الإبرة و الخيط، فمن وجده قد قصر فى شىء مما يحتاج إليه عند عرضه أياه عاقبه. و ألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر و الكلف فى مدّة غيبتهم فى

القتال، و جعل على العساكر إذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان و يؤدّونها إليه. و ألزمهم عند رأس كلّ سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهنّ لنفسه و أولاده.

و رتب لعساكره أمراء و جعلهم أمراء ألوف و أمراء مئين و أمراء عشراوات، و شرّع أن أكبر الأمراء إذا أذنب و بعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فإنه يلقى نفسه إلى الأرض بين يدى الرسول و هو ذليل خاضع، حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة، و لو كانت بذهاب نفسه. و ألزمهم أن لا يتردّد الأمراء لغير الملك، فمن تردّد منهم لغير الملك قتل، و من تغير عن موضعه الذى يرسم له بغير إذن قتل. و ألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة، و جعل حكم الياسه لولده جقتاى بن جنكز خان، فلما مات التزم من بعده من أولاده و أتباعهم حكم الياسه، كالتزام أوّل المسلمين حكم القرآن، و جعلوا ذلك دينا لم يعرف عن أحد منهم خالفته بوجه.

فلما كثرت وقائع التتر فى بلاد المشرق و الشمال و بلاد القبجاق، و أسروا كثيرا منهم و باعوهم، تنقلوا فى الأقطار، و اشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية، و منهم من ملك ديار مصر، و أوّلهم المعز أيبك. ثم كانت لقطز معهم الواقعة المشهورة على عين جالوت، و هزم التتار و أسر منهم خلقا كثيرا صاروا بمصر و الشام، ثم كثرت الوافدية فى أيام الملك الظاهر بيبرس و ملؤوا مصر و الشام، و خطب للملك بركة بن يوشى بن جنكز خان على منابر مصر و الشام و الحرمين، فغصت أرض مصر و الشام بطوائف المغل، و انتشرت عاداتهم بها و طرائقهم، هذا و ملوك مصر و أمراؤها و عساكرها قد ملئت قلوبهم رعبا من جنكز خان و بنيه، و امتزج بلحمهم و دمهم مهابتهم و تعظيمهم، و كانوا إنما ربّوا بدار الإسلام و لقّنوا القرآن و عرفوا أحكام الملة المحمدية، فجمعوا بين الحق و الباطل، و ضموا الجيد إلى الردىء، و فوّضوا القاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة و الصوم و الزكاة و الحج، و ناطوبه أمر الأوقاف و الأيتام، و جعلوا إليه النظر فى الأقضية الشرعية، كتداعى الزوجين و أرباب الديون و نحو ذلك، و احتاجوا فى ذات أنفسهم إلى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۶

الرجوع لعادة جنكز خان و الاقتداء بحكم الياسة، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم، و الأخذ على يد قويهم، و انصاف الضعيف منه على مقتضى ما فى الياسة، و جعلوا إليه مع ذلك النظر فى قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف فى أمور الإقطاعات، لينفذ ما استقرّت عليه أوضاع الديوان و قواعد الحساب، و كانت من أجلّ القواعد و أفضلها حتى تحكم القبط فى الأموال و خراج الأراضى، فشرّعوا فى الديوان ما لم يأذن به اللّه تعالى، ليصير لهم ذلك سبيلا إلى أكل مال اللّه تعالى بغير حقه، و كان مع ذلك يحتاج الحاجب إلى مراجعة النائب أو السلطان فى معظم الأمور.

هذا و ستر الحياء يومئذ مسدول، و ظلّ العدل صاف، و جناب الشريعة محترم، و ناموس الحشمة مهاب، فلا يكاد أحد أن يزيغ عن الحق، و لا يخرج عن قضية الحياء، إن لم يكن له وازع من دين، كان له ناه من عقل. ثم تقلص ظلّ العدل، و سفرت أوجه الفجور، و كشّر الجور أنيابه، و قلت المبالاة، و ذهب الحياء و الحشمة من الناس، حتى فعل من شاء ما شاء، و تعدّت منذ عهد المحن التى كانت فى سنة ست و ثمانمائة الحجاب، و هتكوا الحرمة، و تحكموا بالجور تحكما خفى معه نور الهدى، و تسلطوا على الناس مقتا من اللّه لأهل مصر و عقوبة لهم بما كسبت أيديهم، ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون.

و كان أوّل ما حكم الحجاب فى الدولة التركية بين الناس بمصر، أن السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاون، استدعى الأمير شمس الدين آق سنقر الناصرىّ، نائب طرابلس، ليوليه نيابة السلطنة بديار مصر عوضا عن الأمير سيف الدين بيغوا، أميرا حاجبا كبيرا، يحكم بين الناس، فخلع عليه فى جمادى الأولى سنة ست و أربعين و سبعمائة، فحكم بين الناس كما كان نائب السلطنة يحكم، و جلس بين يديه موقعان من موقعى السلطان لمكاتبة الولاة بالأعمال و نحوهم، فاستمرّ ذلك. ثم رسم فى جمادى الآخرة منها أن يكون الأمير رسلان يصل حاجبا مع بيغوا يحكم بالقاهرة على عادة الحجاب، فلما انقضت دولة الكامل بأخيه الملك المظفر حاجى

بن محمد، استقرّ الأمير سيف الدين أرقطاى نائب السلطنة، فعاد أمر الحجاب إلى العادة القديمة، إلى أن كانت ولاية الأمير سيف الدين جرجى الحجابة فى أيام السلطان الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاون، فرسم له أن يتحدّث فى أرباب الديون و يفصلهم من غرمائهم بأحكام السياسة، و لم تكن عادة الحجاب فيما تقدّم أن يحكموا فى الأمور الشرعية، و كان سبب ذلك و وقوف تجار العجم للسلطان بدار العدل فى أثناء سنة ثلاث و خمسين و سبعمائة، و ذكروا أنهم ما خرجوا من بلادهم إلّا لكثرة ما ظلمهم التتار و جاروا عليهم، و أن التجار بالقاهرة اشتروا منهم عدّة بضائع و أكلوا أثمانها، ثم هم يثبتون على يد القاضى الحنفىّ أعسارهم، و هم فى سجنه، و قد أفلس بعضهم فرسم للأمير جرجى بإخراج غرمائهم من السجن و خلاص ما فى قبلهم للتجار،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۷

و أنكر على قاضى القضاة جمال الدين عبد اللّه التركمانىّ الحنفىّ ما عمله، و منع من التحدث فى أمر التجار و المدينين، فأخرج جرجى غرماء التجار من السجن و عاقبهم، حتى أخذ للتجار أموالهم منهم شيئا بعد شىء، و تمكن الحجاب من حينئذ من التحكم على الناس بما شاؤوا.

أمير جاندار: موضوع أمير جاندار، التسلم لباب السلطان، و لرتبة البرد دارية، و طوائف الركابية، و الحرامانية، و الجندارية. و هو الذى يقدم البريد إذا قدم مع الدوادار و كاتب السرّ، و إذا أراد السلطان تقرير أحد من الأمراء على شىء أو قتله بذنب، كان ذلك على يد أمير جاندار، و هو أيضا المتسلم للزردخاناه، و كانت أرفع السجون قدرا، و من اعتقل بها لا تطول مدّته بها، بل يقتل أو يخلى سبيله، و هو الذى يدور بالزفة حول السلطان فى سفره مساء و صباحا.

الأستادار: إليه أمر البيوت السلطانية كلها من المطابخ و الشراب خاناه و الحاشية و الغلمان، و هو الذى كان يمشى بطلب السلطان فى السرحات و الأسفار، و له الحكم فى غلمان السلطان و باب داره، و إليه أمور الجاشنكيرية. و إن كان كبيرهم نظيره فى الأمرة من ذوى المئين، و له أيضا الحديث المطلق و التصرّف التام فى استدعاء ما يحتاجه كلّ من فى بيت من بيوت السلطان من النفقات و الكساوى، و ما يجرى مجرى ذلك.

و لم تزل رتبة الأستادار على ذلك حتى كانت أيام الظاهر برقوق، فأقام الأمير جمال الدين محمود بن علىّ بن اصفر عيّنه استادارا و ناط به تدبير أموال المملكة، فتصرّف فى جميع ما يرجع إلى أمر الوزير و ناظر الخاص، و صارا يتردّدان إلى بابه و يمضيان الأمور برأيه، فجلت من حينئذ رتبة الأستادار، بحيث أنه صار فى معنى ما كان فيه الوزير فى أيام الخلفاء، سيما إذا اعتبرت حال الأمير جمال الدين يوسف الاستادار فى أيام الناصر فرج بن برقوق، كما ذكرناه عند ذكر المدارس من هذا الكتاب، فإنك تجده إنما كان كالوزير العظيم، لعموم تصرّفه و نفوذ أمره فى سائر أحوال المملكة، و استقرّ ذلك لمن ولى الاستادارية من بعده، و الأمر على هذا إلى اليوم.

أمير سلاح: هذا الأمير هو مقدّم السلاحدارية، و المتولى لحمل سلاح السلطان فى المجامع الجامعة، و هو المتحدّث فى السلاح خاناه و ما يستعمل بها و ما يقدم إليها و يطلق منها، و هو أبدا من أمراء المئين.

الدوادار: و من عادة الدولة أن يكون بها من أمرائها من يقال له الدوادار، و موضوعه لتبليغ الرسائل عن السلطان، و ابلاغ عامّة الأمور، و تقديم القصص إلى السلطان، و المشاورة على من يحضر إلى الباب، و تقديم البريد هو أمير جاندار و كاتب السرّ، و هو الذى يقدم إلى السلطان كل ما تؤخذ عليه العلامة السلطانية من المناشير و التواقيع و الكتب، و كان يخرج عن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۸۸

السلطان بمرسوم مما يكتب، فيعين رسالته فى المرسوم، و اختلفت آراء ملوك الترك فى الدوادار، فتارة كان من أمراء العشراوات و الطبلخاناه، و تارة كان من أمراء الألوف.

فلما كانت أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون، ولى الأمير اقتمر الحنلىّ وظيفة الدوادارية، و كان عظيما فى الدولة، فصار يخرج المراسيم السلطانية بغير مشاورة، كما يخرج نائب السلطنة، و يعين فى المرسوم إذ ذاك انه كتب برسالته، ثم نقل إلى نيابة

السلطنة و أقام الأشرف عوضة الأمير طاش تمر الدوادار، و جعله من أكبر أمراء الألوف، فاقتدى به الملك الظاهر برقوق و جعل الأمير يونس الدوادار من أكبر أمراء الألوف، فعظمت منزلته و قويت مهابته، ثم لما عادت الدولة الظاهرية بعد زوالها، ولى الدوادارية الأمير بوطا، فتحكم تحكما زائدا عن المعهود فى الدوادارية، و تصرّف كتصرّف النوّاب، و ولّى و عزل و حكم فى القضايا المعضلة، فصار ذلك من بعده عادة لمن ولى الدوادارية، سيما لما ولى الأمير يشبك و الأمير حكم الدوادارية فى أيام الناصر فرج، فإنهما تحكمت فى جليل أمور الدولة و حقيرها، من المال و البريد و الأحكام و العزل و الولاية، و ما برح الحال على هذا فى الأيام الناصرية، و كذلك الحال فى الأيام المؤيدية يقارب ذلك.

نقابة الجيوش: هذه الرتبة كانت فى الدولة التركية من الرتب الجليلة، و يكون متوليها كأحد الحجاب الصغار، و له تحلية الجند فى عرضهم، و معه يمشى النقباء، فإذا طلب السلطان أو النائب أو حاجب الحجاب أميرا أو جنديا، كان هو المخاطب فى الإرسال إليه، و هو الملزوم بإحضاره، و إذا أمر أحد منهم بالترسيم على أمير أو جندىّ، كان نقيب الجيش هو الذى يرسم عليه، و كان من رسمه أنه هو الذى يمشى بالحراسة السلطانية فى الموكب حالة السرحة، و فى مدّة السفر، ثم انحطت اليوم هذه الرتبة، و صار نقيب الجيش عبارة عن كبير من النقباء المعدّين لترويع خلق اللّه تعالى، و أخذ أموالهم بالباطل على سبيل القهر، عند طلب أحد إلى باب الحاجب، و يضيفون إلى أكلهم أموال الناس بالباطل افتراءهم على اللّه تعالى بالكذب، فيقولون على المال الذى يأخذونه باطلا هذا حق الطريق، و الويل لمن نازعهم فى ذلك، و هم أحد أسباب خراب الإقليم كما بين فى موضعه من هذا الكتاب، عند ذكر الأسباب التى أوجبت خراب الإقليم.

الولاية: و هى التى يسميها السلف الشرطة، و بعضهم يقول صاحب العسس، و العسس الطواف بالليل لتتبع أهل الريب يقال: عس يعس عسا و عسسا. و أوّل من عس بالليل عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه، أمره أبو بكر الصدّيق رضى اللّه عنه بعس المدينة. خرّج أبو داود عن الأعمش عن زيد قال: أتى عبد اللّه بن مسعود فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرا، فقال عبد اللّه رضى اللّه عنه: إنّا قد نهينا عن التجسس، و لكن إن يظهر لنا شىء نأخذ به. و ذكر الثعلبىّ عن زيد بن وهب أنه قال: قيل لابن مسعود رضى اللّه عنه، هل لك فى

الوليد بن عتبة تقطر لحيته خمرا؟ فقال: إنّا قد نهينا عن التجسس، فإن ظهر لنا شىء نأخذ به، و كان عمر رضى اللّه عنه يتولى فى خلافته العسس بنفسه، و معه مولاه أسلم رضى اللّه عنه، و كان ربما استصحب معه عبد الرحمن بن عوف رضى اللّه عنه.

قاعة الصاحب: و كانت وظيفة الوزارة أجلّ رتب أرباب الأقلام، لأنّ متوليها ثانى السلطان إذ أنصف و عرف حقه، إلّا أن ملوك الدولة التركية قدّموا رتبة النيابة على الوزارة، فتأخرت الوزارة حتى قعد بها مكانها، و وليها فى الدولة التركية أناس من أرباب السيوف و أناس من أرباب الأقلام، فصار الوزير إذا كان من أرباب الأقلام يطلق عليه اسم الصاحب، بخلاف ما إذا كان من أرباب السيوف فإنه لا يقال له الصاحب، و أصل هذه الكلمة فى إطلاقها على الوزير، أنّ الوزير إسماعيل بن عباد كان يصحب مؤيد الدولة أبا منصور بويه بن ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمىّ، صاحب بلاد الرّىّ، و كان مؤيد الدولة شديد الميل إليه و المحبة له، فسماه الصاحب، و كان الوزير حينئذ أبو الفتح علىّ بن العميد يعاديه لشدّة تمكنه من مؤيد الدولة، فتلقب الوزراء بعد ابن عباد بالصاحب، و لا أعلم أحدا من وزراء خلفاء بنى العباس، و لا وزراء الخلفاء الفاطميين قيل له الصاحب، و قد جمعت فى وزراء الإسلام كتابا جليل القدر، و أفردت وزراء مصر فى تصنيف بديع، و الذى أعرف، أنّ الوزير صفىّ الدين عبد اللّه بن شكر وزير العادل و الكامل من ملوك مصر من بنى أيوب، كان يقال له الصاحب، و كذلك من بعده من وزراء مصر إلى اليوم.

و كان وضع الوزير أنّه أقيم لنفاذ كلمة السلطان و تمام تصرّفه، غير أنها انحطت عن ذلك بنيابة السلطنة، ثم انقسم ما كان للوزير إلى ثلاثة هم: الناظر فى المال، و ناظر الخاص، و كاتب السرّ، فإنه يوقع فى دار العدل ما كان يوقع فيه الوزير بمشاورة و استقلال.

ثم تلاشت الوزارة فى أيام الظاهر برقوق بما أحدثه من الديوان المفرد، و ذلك أنه لما ولى السلطنة أفرد إقطاعه لما كان أميرا قبل سلطنته، و جعل له ديوانا سمّاه الديوان المفرد، و أقام فيه ناظرا و شاهدين و كتابا، و جعل مرجع هذا الديوان إلى الأستادار، و صرف ما يتحصل منه فى جوامك مماليك استجدّها شيئا بعد شىء حتى بلغت خمسة آلاف مملوك، و أضاف إلى هذا الديوان كثيرا من أعمال الديار المصرية، و بذلك قوى جانب الاستادار، و ضعفت الوزارة حتى صار الوزير قصار نظره التحدّث فى أمر المكوس، فيستخرجها من جهاتها و يصرفها فى ثمن اللحم و حوايج المطبخ و غير ذلك، و لقد كان الوزير الصاحب سعد الدين نصر اللّه بن البقرىّ يقول: الوزارة اليوم عبارة عن حوايج كاش عفش، يشترى اللحم و الحطب و حوايج الطعام، و ناظر الخاص غلام صلف يشترى الحرير و الصوف و النصافى و السنجاب، و أمّا ما كان للوزراء و نظار الخاص فى القديم فقد بطل، و لقد صدق فيما قال، فإنّ الأمر على هذا.

و ما رأينا الوزارة من بعد انحطاط رتبتها يرتفع قدر متوليها إلّا إذا أضيفت إلى الأستادارية، كما وقع للأمير جمال الدين يوسف الأستادار، و الأمير فخر الدين عبد الغنىّ بن أبى الفرج.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۰

و أما من ولى الوزارة بمفردها، سيما من أرباب الأقلام، فإنما هو كاتب كبير يتردّد ليلا و نهارا إلى باب الأستادار، و يتصرّف بأمره و نهيه، و حقيقة الوزارة اليوم أنها انقسمت بين أربعة و هم: كاتب السرّ، و الأستادار، و ناظر الخاص، و الوزير. فأخذ كاتب السرّ من الوزارة التوقيع على القصص بالولايات و العزل و نحو ذلك فى دار العدل و فى داره. و أخذ الأستادار التصرّف فى نواحى أرض مصر، و التحدّث فى الدواوين السلطانية، و فى كشف الأقاليم، و ولاة النواحى، و فى كثير من أمور أرباب الوظائف، و أخذ ناظر الخاص جانبا كبيرا من الأموال الديوانية السلطانية، ليصرفها فى تعلقات الخزانة السلطانية، و بقى للوزير شىء يسير جدّا من النواحى، و التحدّث فى المكوس، و بعض الدواوين، و مصارف المطبخ السلطانى و السواقى، و أشياء أخر، و إليه مرجع ناظر الدولة، و شادّ الدواوين، و ناظر بيت المال، و ناظر الأهراء و مستوفى الدولة، و ناظر الجهات، و أمّا ناظر البيوت و ناظر الإصطبلات، فإنه أمرهما يرجع إلى غيره. و اللّه أعلم.

نظر الدولة: هذه الوظيفة يقال لمتوليها ناظر النظار، و يقال له ناظر المال، و هو يعرف اليوم بناظر الدولة، و تلى رتبته رتبة الوزارة، فإذا غاب الوزير و تعطلت الوزارة من وزير، قام ناظر الدولة بتدبير الدولة، و تقدّم إلى شادّ الدواوين بتحصيل الأموال و صرفها فى النفقات و الكلف، و اقتصر الملك الناصر محمد بن قلاون على ناظر الدولة مدّة أعوام من غير تولية وزير، و مشّى أمور الدولة على ذلك حتى مات، و لا بدّ أن يكون مع ناظر الدولة مستوفون يضبطون كلّيّات المملكة و جزئياتها، و رأس المستوفين مستوفى الصحبة، و هو يتحدّث فى سائر المملكة مصرا و شاما، و يكتب مراسيم يعلّم عليها السلطان، فتكون تارة بما يعمل فى البلاد، و تارة بالإطلاقات، و تارة باستخدام كتّاب فى صغار الأعمال، و من هذا النحو و ما يجرى مجراه. المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت ؛ ج۳ ؛ ص ۳۹۰

وان النظر: و هى وظيفة جليلة تلى نظر الدولة، و بقية المستوفين كلّ منهم حديثه مقيد، لا يتعدّى حديثه قطرا من أقطار المملكة، و هذا الديوان، أعنى ديوان النظر، هو أرفع دواوين المال، و فيه تثبت التواقيع و المراسيم السلطانية، و كلّ ديوان من دواوين المال إنما هو فرع هذا الديوان، و إليه يرفع حسابه و تتناهى أسبابه، و إليه يرجع أمر الاستيمار الذى يشتمل على أرزاق ذوى الأقلام و غيرهم. مياومة و مشاهرة و مسانهة من الرواتب، و كانت أرزاق ذوى الأقلام مشاهرة من مبلغ عين و غلة، و كان لأعيانهم الرواتب الجارية فى اليوم من اللحم بتوابله أو غير توابله، و الخبز و العليق لدوابهم، و كان لأكابرهم السكر و الشمع و الزيت و الكسوة فى كلّ سنة و الأضحية، و فى شهر رمضان السكر و الحلوى، و أكثرهم نصيبا الوزير، و كان معلومه فى الشهر مائتين و خمسين دينارا جيشية، مع الأصناف المذكورة و الغلة، و تبلغ نظير المعلوم. ثم ما دون ذلك من المعلوم لمن عدا الوزير و ما دون دونه، و كان معلوم القضاة و العلماء

أكثره خمسون دينارا فى كلّ شهر، مضافا لما بيدهم من

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۱

المدارس التى يستدرون من أوقافها، و كان أيضا يصرف على سبيل الصدقات الجارية و الرواتب الدارة على جهات، ما بين مبلغ و غلة و خبز و لحم و زيت و كسوة و شعير، هذا سوى الأرض من النواحى التى يعرف المرتب عليها بالرزق الإحباسية، و كانوا يتوارثون هذه المرتبات ابنا عن أب، و يرثها الأخ عن أخيه، و ابن العم عن ابن العمّ، بحيث أنّ كثيرا ممن مات و خرج ادراره من مرتبة لأجنبىّ، لما جاء قريبه و قدّم قصته يذكر فيها أولويته بما كان لقريبه، أعيد إليه ذلك المرتب ممن كان خرج باسمه.

نظر البيوت: كان من الوظائف الجليلة، و هى وظيفة متوليها منوط بالأستادار، فكلّ ما يتحدّث فيه أستادار السلطان فإنه يشاركه فى التحدّث، و هذا كان أيام كون الأستادار و نظره لا يتعدّى بيوت السلطان، و ما تقدّم ذكره، فأما منذ عظم قدر الأستادار و نفذت كلمته فى جمهور أموال الدولة، فإن نظر البيوت اليوم شىء لا معنى له.

نظر بيت المال: كان وظيفة جليلة معتبرة، و موضوع متوليها التحدّث فى حمول المملكة مصرا و شاما إلى بيت المال بقلعة الجبل، و فى صرف ما ينصرف منه، تارة بالوزن، و تارة بالتسبيب بالأقلام، و كان أبدا يصعد ناظر بيت المال و معه شهود بيت المال و صيرفىّ بيت المال و كاتب المال إلى قلعة الجبل، و يجلس فى بيت المال، فيكون له هناك أمر و نهى و حال جليلة لكثرة الحمول الواردة، و خروج الأموال المصروفة فى الرواتب لأهل الدولة، و كانت أمرا عظيما، بحيث أنها بلغت فى السنة نحو أربعمائة ألف دينار، و كان لا يلى نظر بيت المال إلا من هو من ذوى العدالات المبرزة، ثم تلاشى المال و بيت المال، و ذهب الاسم و المسمّى، و لا يعرف اليوم بيت المال من القلعة، و لا يدرى ناظر بيت المال من هو.

نظر الإصطبلات: هذه الوظيفة جليلة القدر إلى اليوم، و موضوعها الحديث فى أموال الإصطبلات و المناخات و عليقها و أرزاق من فيها من المستخدمين، و ما بها من الاستعمالات و الإطلاق، و كل ما يبتاع لها أو يبتاع بها، و أوّل من استجدّها الملك الناصر محمد بن قلاون، و هو أوّل من زاد فى رتبة أمير اخور و اعتنى بالأوجاقية و العرب الركابة، و كان أبوه المنصور قلاون يرغب فى خيل برقة أكثر من خيل العرب، و لا يعرف عنه أنه اشترى فرسا بأكثر من خمسة آلاف درهم، و كان يقول خيل برقة نافعة، و خيل العرب زينة، بخلاف الناصر محمد، فإنه شغف باستدعاء الخيول من عرب آل مهنا و آل فضل و غيرهم، و بسببها كان يبالغ فى إكرام العرب و يرغبهم فى أثمان خيولهم حتى خرج عن الحدّ فى ذلك، فكثرت رغبة آل مهنا و غيرهم فى طلب خيول من عداهم من العربان، و تتبعوا عتاق الخيل من مظانها، و سمحوا بدفع الأثمان الزائدة على قيمتها حتى أتتهم طوائف العرب بكرائم خيولهم، فتمكنت آل مهنا من السلطان و بلغوا فى أيامه الرتب العلية، و كان لا يحب خيول برقة، و إذا أخذ منها شيئا أعدّه للتفرقة على الأمراء البرّانيين، و لا يسمح بخيول آل مهنا إلّا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۲

لأعز الأمراء و أقرب الخاصكية منه، و كان جيد المعرفة بالخيل، شياتها و أنسابها، لا يزال يذكر أسماء من أحضرها إليه و مبلغ ثمنها، فلما اشتهر عنه ذلك جلب إليه أهل البحرين و الحساء و القطيف و أهل الحجاز و العراق كرائم خيولهم، فدفع لهم فى الفرس من عشرة آلاف درهم إلى عشرين إلى ثلاثين ألف درهم، عنها ألف و خمسمائة مثقال من الذهب، سوى ما ينعم به على مالكه من الثياب الفاخرة له و لنسائه، و من السكر و نحوه، فلم تبق طائفة من العرب حتى قادت إليه عتاق خيلها، و بلغ من رغبة السلطان فيها أنه صرف فى أثمانها دفعة واحدة من جهة كريم الدين ناظر الخاص ألف ألف درهم فى يوم واحد، و تكرّر هذا منه غير مرّة، و بلغ ثمن الفرس الواحد من خيول آل مهنا السنتين ألف درهم و السبعين ألف درهم، و اشترى كثيرا من الحجور بالثمانين ألفا و التسعين ألفا، و اشترى بنت الكرشاء بمائة ألف درهم، عنها خمسة آلاف مثقال من الذهب، هذا سوى الإنعامات بالضياع من بلاد الشام، و كان من عنايته بالخيل لا يزال يتفقدها بنفسه، فإذا أصيب منها فرس أو كبر سنه بعث به إلى الجشار ، و تنزى الفحول المعروفة عنده على

الحجور بين يديه، و كتّاب الإصطبل تؤرّخ تاريخ نزوها، و اسم الحصان، و الحجرة، فتوالدت عنده خيول كثيرة اغتنى بها عن الجلب، و مع ذلك فلم تكن عنده فى منزلة ما يجلب منها، و بهذا ضخمت سعادة آل مهنا و كثرت أموالهم و ضياعهم، فعزّ جانبهم و كثر عددهم و هابهم من سواهم من العرب، و بلغت عدّة خيول الجشارات فى أيامه نحو ثلاثة آلاف فرس، و كان يعرضها فى كلّ سنة و يدوّغ أولادها بين يديه و يسلمها للعربان الركابة، و ينعم على الأمراء الخاصكية بأكثرها، و يتبجح بها و يقول: هذه فلانة بنت فلان، و هذا فلان بن فلانة، و عمره كذا، و شراء أم هذا كذا و كذا، كان لا يزال يؤكد على الأمراء فى تضمير الخيول، و يلزم كلّ أمير أن يضمر أربعة أفراس، و يتقدّم لأمير اخور أن يضمر للسلطان عدّة منها و يوصيه بكتمان خبرها، ثم يشيع أنها لأيدغمش أمير اخور، و يرسلها مع الخيل فى حلبة السباق خشية أن يسبقها فرس أحد من الأمراء فلا يحتمل ذلك، فإنه ممن لا يطيق شيئا ينقص ملكه، و كان السباق فى كلّ سنة بميدان القبق، ينزل بنفسه و تحضر الأمراء بخيولها المضمرة، فيجريها و هو على فرسه حتى تنقضى نوبها، و كانت عدّتها مائة و خمسين فرسا فما فوقها، فاتفق أنه كان عند الأمير قطلو بغا الفخرىّ حصان أدهم سبق خيل مصر كلها فى ثلاث سنين متوالية أيام السباق، و بعث إليه الأمير مهنا فرسا شهباء على أنها إن سبقت خيل مصر فهى للسلطان، و إن سبقها فرس ردّت إليه و لا يركبها عند السابق إلّا بدوىّ قادها، فركب السلطان للسباق فى أمرائه على عادته و وقف معه سليمان و موسى ابنا مهنا، و أرسلت الخيول من بركة الحاج على عادتها و فيها

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۳

فرس مهنا، و قد ركبها البدوىّ عريا بغير سرج، فأقبلت سائر الخيول تتبعها حتى وصلت المدى و هى عرى بغير سرج، و البدوىّ عليها بقميص و طاقية، فلما وقفت بين يدى السلطان صاح البدوىّ: السعادة لك اليوم يا مهنا، لا شقيت. فشق على السلطان أن خيله سبقت، و أبطل التضمير من خيله، و صارت الأمراء تضمر على عادتها، و مات الناصر محمد عن أربعة آلاف و ثمانمائة فرس، و ترك زيادة على خمسة آلاف من الهجن الأصائل و النوق المهريات و القرشيات، سوى أتباعها. و بطل بعده السباق، فلما كانت أيام الظاهر برقوق عنى بالخيل أيضا و مات عن سبعة آلاف فرس و خمسة عشر ألف جمل.

ديوان الإنشاء: و كان بجوار قاعة الصاحب بقلعة الجبل ديوان الإنشاء، يجلس فيه كاتب السرّ، و عنده موقعو الدرج و موقعو الدست فى أيام المواكب طول النهار، و يحمل إليهم من المطبخ السلطانىّ المطاعم، و كانت الكتب الواردة و تعليق ما يكتب من الباب السلطانىّ موضوعة بهذه القاعة، و أنا جلست بها عند القاضى بدر الدين محمد بن فضل اللّه العمرىّ أيام مباشرتى التوقيع السلطانىّ، إلى نحو السبعين و السبعمائة، فلما زالت دولة الظاهر برقوق ثم عادت اختلت أمور كثيرة منها أمر قاعة الإنشاء بالقلعة، و هجرت و أخذ ما كان فيها من الأوراق، و بيعت بالقنطار، و نسى رسمها، و كتابة السرّ رتبة قديمة، و لها أصل فى السنّة، فقد خرّج أبو بكر عبد اللّه بن أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانىّ فى كتاب المصاحف من حديث الأعمش، عن ثابت بن عبيد عن زيد بن ثابت رضى اللّه عنه قال: قال لى رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: «إنها تأتينى كتب لا أحب أن يقرأها كلّ أحد، فهل تستطيع أن تعلّم كتاب العبرانية أو قال السريانية» فقلت نعم. قال: فتعلمتها فى سبع عشرة ليلة، و لم يزل خلفاء الإسلام يختارون لكتابة سرّهم الواحد بعد الواحد، و كان موضوع كتابة السرّ فى الدولة التركية على ما استقرّ عليه الأمر فى أيام الناصر محمد بن قلاون، أنّ لمتوليها المسمى بكاتب السرّ و بصاحب ديوان الإنشاء، و من الناس من يقول ناظر ديوان الإنشاء، قراءة الكتب الواردة على السلطان و كتابة أجوبتها، إما بخطه أو بخط كتاب الدست أو كتاب الدرج بحسب الحال، و له تفسير الأجوبة بعد أخذ علامة السلطان عليها، و له تصريف المراسيم ورودا و صدورا، و له الجلوس بين يدى السلطان بدار العدل لقراءة القصص و التوقيع عليها بخطه فى المجلس. فصار يوقع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة، و صار إليه التحدّث فى مجلس السلطان عند عقد المشورة و عند اجتماع الحكام لفصل أمر مهم، و له التوسط بين الأمراء و السلطان فيما يندب إليه عند الاختلاف أو التدبير، و إليه ترجع أمور القضاة و مشايخ العلم و نحوهم فى سائر المملكة مصرا و شاما، فيمضى من أمورهم ما أحب و يشاور السلطان فيما لا بدّ من مشاورته فيه، و كانت العادة أن يجلس تحت الوزير، فلما عظم، تمكن

القاضى فتح الدين فتح اللّه كاتب السرّ من الدولة، جلس فوق الوزير الصاحب سعد الدين إبراهيم البشيرى، فاستمرّ ذلك لمن بعده و رتبة كاتب السرّ

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۴

أجلّ الرتب، و ذلك أنها منتزعة من الملك.

فإن الدولة العباسية صار خلفاؤها فى أوّل أمرهم منذ عهد أبى العباس السفاح إلى أيام هارون الرشيد يستبدّون بأمورهم، فلما صارت الخلافة إلى هارون ألقى مقاليد الأمور إلى يحيى بن جعفر البرمكىّ، فصار يحيى يوقع على رقاع الرافعين بخطه فى الولايات و إزالة الظلامات و إطلاق الأرزاق و العطيات، فجلّت لذلك رتبته، و عظمت من الدولة مكانته، و كان هو أوّل من وقع من وزراء خلفاء بنى العباس، و صار من بعده من الوزراء يوقعون على القصص كما كان يوقع، و ربما انفرد رجل بديوان السرّ و ديوان الترسل، ثم أفردت فى أخريات دولة بنى العباس و استقلّ بها كتاب لم يبلغوا مبلغ الوزراء، و كانوا ببغداد يقال لهم كتاب الإنشاء، و كبيرهم يدعى رئيس ديوان الإنشاء، و يطلق عليه تارة صاحب ديوان الإنشاء، و تارة كاتب السرّ، و مرجع هذا الديوان إلى الوزير، و كان يقال له الديوان العزيز، و هو الذى يخاطبه الملوك فى مكاتبات الخلفاء. و كان فى الدولة السلجوقية يسمى ديوان الإنشاء بديوان الطغرا، و إليه ينسب مؤيد الدين الطغرائى و الطغراهى طرّة المكتوب، فيكتب أعلى من البسملة بقلم غليظ القاب الملك، و كانت تقوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير و الكتب، و يستغنى بها عن علامة السلطان، و هى لفظة فارسية، و فى بلاد المغرب يقال لرئيس ديوان الإنشاء صاحب القلم الأعلى، و أما مصر فإنه كان بها فى القديم لما كانت دار إمارة ديوان البريد، و يقال لمتوليه صاحب البريد، و إليه مرجع ما يرد من دار الخلافة على أيدى أصحاب البريد من الكتب، و هو الذى يطالع بأخبار مصر، و كان لأمراء مصر كتاب ينشئون عنهم الكتب و الرسائل إلى الخليفة و غيره، فلما صارت مصر دار خلافة كان القائد جوهر يوقع على قصص الرافعين إلى أن قدم المعز لدين اللّه، فوقع و جعل أمر الأموال و ما يتعلق بها إلى يعقوب بن كلس، و عسلوج بن الحسن، فوليا أموال الدولة، ثم فوّض العزيز بالله أمر الوزارة ليعقوب بن كلس، فاستبدّ بجميع أحوال المملكة، و جرى مجرى يحيى بن جعفر البرمكىّ، و كان يوقع.

و مع ذلك ففى أمراء الدولة من يلى البريد، و جرى الأمر فيما بعد على أن الوزراء يوقعون، و قد يوقع الخليفة بيده، فلما كانت أيام المستنصر بالله أبى تميم معدّ بن الظاهر و صرف أبا جعفر محمد بن جعفر بن المغربىّ عن وزارته، أفرد له ديوان الإنشاء فوليه مدّة طويلة، و أدرك أيام أمير الجيوش بدر الجمالىّ، و صار يلى ديوان الإنشاء بعده الأكابر إلى أن انقرضت الدولة، و هو بيد القاضى الفاضل عبد الرحيم بن علىّ البيسانى، فاقتدت بهم الدولة الأيوبية، ثم الدولة التركية فى ذلك، و صار الأمر على هذا إلى اليوم، و صار متولى رتبة كتابة السرّ أعظم أهل الدولة، إلّا أنه فى الدولة التركية يكون معه من الأمراء واحد يقال له الدوادار، منزلته منزلة صاحب البريد فى الزمن الأوّل، و منزلة كاتب السرّ منزلة صاحب ديوان الإنشاء، إلّا أنّه يتميز بالتوقيع على القصص، تارة بمراجعة السلطان و تارة بغير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۵

مراجعة، فلذلك يحتاج إليه سائر أهل الدولة من أرباب السيوف و الأقلام، و لا يستغنى عن حسن سفارته نائب الشام، فمن دونه، و للّه الأمر كله.

و أما فى الدولة الأيوبية فإن كتاب الدرج كانوا فى الدولة الكاملية قليلين جدا و كانوا فى غاية الصيانة و النزاهة و قلة الخلطة بالناس، و اتفق أنّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير كان من جملتهم، فسمع الملك الصالح نجم الدين أيوب عنه أنه يحضر فى السماعات، فصرفه من ديون الإنشاء و قال: هذا الديوان لا يحتمل مثل هذا. و كانت العادة أن لا يحضر كتاب الإنشاء الديوان يوم الجمعة، فعرض للملك الصالح فى بعض أيام الجمع شغل مهم، فطلب بعض الموقعين فلم يجد أحدا منهم، فقيل له أنهم لا يحضرون يوم الجمعة، فقال: استخدموا فى الديوان كاتبا نصرانيا يقعد يوم الجمعة لمهم يطرأ، فاستخدم الأمجد بن العسال كاتب الدرج لهذا المعنى.

نظر الجيش: قد تقدّم أنّه كان يجلس بالقلعة دواوين الجيش فى أيام الموكب، و تقدّم فى ذكر الإقطاعات و ذكر النيابة ما يدل على حال متولى نظر الجيش، و لا بدّ مع ناظر الجيش أن يكون من المستوفين، من يضبط كلّيّات المملكة و جزئياتها فى الإقطاعات و غيرها.

نظر الخاص: هذه الوظيفة و إن كان لها ذكر قديم من عهد الخلفاء الفاطميين، فإن متوليها لم يبلغ من جلالة القدر ما بلغ إليه فى الدولة التركية، و ذلك أن الملك الناصر محمد بن قلاون لما أبطل الوزارة، و أقام القاضى كريم الدين الكبير فى وظيفة نظر الخاص، صار متحدّثا فيما هو خاص بمال السلطان، يتحدّث فى مجموع الأمر الخاص بنفسه، و فى القيام بأخذ رأيه فيه، فبقى تحدّثه فيه و بسببه كأنه هو الوزير، لقربه من السلطان و زيادة تصرّفه. و إلى ناظر الخاص التحدّث فى الخزانة السلطانية، و كانت بقلعة الجبل، و كانت كبيرة الوضع لأنها مستودع أموال المملكة، و كان نظر الخزانة منصبا جليلا، إلى أن استحدثت وظيفة نظر الخاص فضعف أمر نظر الخزانة، و أمر الخزانة أيضا، و صارت تسمى الخزانة الكبرى، و هو اسم أكبر من مسماه، و لم يبق بها إلّا خلع يخلع منها أو ما يحضر إليها و يصرف أوّلا فأوّلا، و صار نظر الخزانة مضافا إلى ناظر الخاص، و كان الرسم أن لا يلى نظر الخزانة إلّا القضاة أو من يلحق بهم، و ما برحت الخزانة بقلعة الجبل حتى عملها الأمير منطاش سجنا لمماليك الظاهر برقوق، فى سنة تسعين و سبعمائة، فتلاشت من حينئذ و نسى أمرها، و صارت الخلع و نحوها عند ناظر الخاص فى داره، و كانت لأهل الدولة فى الخلع عوايد و هم على ثلاثة أنواع، أرباب السيوف و الأقلام و العلماء، فأما أرباب السيوف فكانت خلع أكابر أمراء المئين الأطلس الأحمر الرومىّ، و تحته الأطلس الأصفر الرومىّ، و على الفوقانىّ طرز زركش ذهب، و تحته سنجاب، و له سجف من ظاهره، مع الغشاء قندس و كلوتة زركش بذهب و كلاليب ذهب و شاش لانس رفيع موصول به، فى طرفيه حرير

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۶

أبيض مرقوم بألقاب السلطان مع نقوش باهرة من الحرير الملوّن، مع منطقة ذهب، ثم تختلف أحوال المنطقة بحسب مقاديرهم، فأعلاها ما عمل بين عمدها بواكر وسطى و مجنبتان بالبلخس و الزمرّد و اللؤلؤ، ثم ما كان ببيكارية واحدة مرصعة، ثم ما كان ببيكارية واحدة غير مرصعة. و أما من تقلد ولاية كبيرة منهم فإنه يزاد سيفا محلى بذهب يحضر من السلاح خاناه، و يحليه ناظر الخلوص، و يزاد فرسا مسرجا ملجما بكنبوش ذهب، و الفرس من الإصطبل، و قماشه من الركاب خاناه، و مرجع العمل فى سروج الذهب و الكنابيش إلى ناظر الخاص.

و كان رسم صاحب حماه من أعلى هذه الخلع، و يعطى بدل الشاش اللانس شاش من عمل الإسكندرية حرير شبيه بالطول، و ينسج بالذهب يعرف بالمثمر، و يعطى فرسين أحد هما كما ذكر و الآخر يكون عوض كنبوشه زنارى أطلس أحمر، و كانت لنائب الشام على ما استقرّ فى أيام الناصر محمد بن قلاون مثل هذا، وزيد لتنكر تركيبة زركش ذهب دائرة بالقباء الفوقانىّ.

و دون هذه الرتبة فى الخلع نوع يسمّى طرزوحش، يعمل بدار الطراز التى كانت بالإسكندرية و بمصر و بدمشق، و هو مجوّخ جاخات كتابة بألقاب السلطان، و جاخات طرزوحش، و جاخات ألوان ممتزجة بقصب مذهب، يفصل بين هذه الجاخات نقوش و طراز، هذا يكون من القصب، و ربما كبر بعضهم فركب عليه طرازا مزركشا بالذهب، و عليه فرو سنجاب و قندس كما تقدّم، و تحت القباء الطرزوحش قباء من المقترح الإسكندرانى الطرح، و كلوتة زركش بكلاليب و شاش على ما تقدّم، و حياصة ذهب، فتارة تكون ببيكارية و تارة لا يكون بها بيكارية، و هذه لأصاغر أمراء المئين و من يلحق بهم.

و دون هذه الرتبة فى الخلع، كمخا عليه نقش من لون آخر غير لونه، و قد يكون من نوع لونه بتفاوت بينهما، و تحته سنجاب بقندس، و البقية كما تقدّم، إلا أن الحياصة و الشاش لا يكونان بأطراف رقم، بل تكون مجوّخة بأخضر و أصفر مذهب، و الحياصة لا تكون ببيكارية.

و دون هذه المرتبة، كمخا تكون واحدة بسنجاب مقندس، و البقية على ما ذكر، و تكون الكلوتة خفيفة الذهب، و جانباها يكاد أن

يكونان خاليين بالجملة، و لا حياصة له.

و دون هذه الرتبة، مجوّم، لون واحد، و البقية على ما ذكر خلا الكوتة و الكلاليب.

و دون هذه الرتبة مجوم مقندس، و هو قباء ملوّن بجاخات من أحمر و أخضر و أزرق و غير ذلك من الألوان، بسنجاب و قندس و تحته قباء إمّا أزرق أو أخضر، و شاش أبيض بأطراف من نسبة ما تقدّم ذكره، ثم دون هذا من هذا النوع.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۷

و أما الوزراء و الكتاب فأجلّ ما كانت خلعهم الكمخا الأبيض المطرّز برقم حرير ساذج، و سنجاب مقندس، و تحته كمخا أخضر و بقيار، كان من عمل دمياط مرقوم، و طرحه. ثم دون هذه الرتبة عدم السنجاب، بل يكون القندس بدائر الكمين و طول الفرج، و دونها ترك الطرحة، و دونها أن يكون التحتانىّ مجوما و دون هذا أن يكون الفوقانىّ من الكمخا لكنه غير أبيض، و دونه أن يكون الفوقانىّ مجوما أبيض، و دونه أن يكون تحته عنابىّ.

و أما القضاة و العلماء فإن خلعهم من الصوف بغير طراز، و لهم الطرحة، و أجلّهم أن يكون أبيض و تحته أخضر، ثم ما دون ذلك و كانت العادة أن أهبة الخطباء و هى السواد تحمل إلى الجوامع من الخزانة، و هى دلق مدوّر و شاش أسود و طرحة سوداء و علمان أسودان مكتوبان بأبيض أو بذهب، و ثياب المبلغ قدّام الخطيب مثل ذلك خلا الطرحة، و كانت العادة إذا خلقت الأهبة المذكورة أعيدت إلى الخزانة و صرف عوضها، و كانت للسلطان عادات بالخلع: تارة فى ابتداء سلطنته، و تشمل حينئذ الخلع سائر أرباب المملكة، بحيث خلع فى يوم واحد عند إقامة الأشرف كجك بن الناصر محمد بن قلاون ألف و مائتا تشريف فى وقت لعبه بالكرة، على أناس جرت عوايدهم بالخلع فى ذلك الوقت، كالجوكندارية و الولاة، و من له خدمة فى ذلك. و تارة فى أوقات الصيد عند ما يسرح، فإذا حصل أحد شيئا مما يصيده خلع عليه، و إذا أحضر أحد إليه غزالا أو نعاما خلع عليه قباء مسجفا مما يناسب خلعة مثله على قدره، و كذلك يخلع على البزدارية و جملة الجوارح و من يجرى مجراهم عند كلّ صيد. و كانت العادة أيضا أن ينعم على غلمان الطشت خاناه و الشراب خاناه و الفراش خاناه و من يجرى مجراهم فى كلّ سنة عند أوان الصيد.

و كانت العادة أن من يصل إلى الباب من البلاد أو يرد عليه أو يهاجر من مملكة أخرى إليه أن ينعم عليه مع الخلع بأنواع الإدرارات و الأرزاق و الإنعامات، و كذلك التجار الذين يصلون إلى السلطان و يبيعون عليه لهم مع الخلع الرواتب الدائمة من الخبز و اللحم و التوابل و الحلوى و العليق و المسامحات، بنظير كلّ ما يباع من الرقيق المماليك و الجوارى، مع ما يسامحون به أيضا من حقوق أخرى تطلق، و كلّ واحد من التجار إذا باع على السلطان و لو رأسا واحدا من الرقيق، فله خلعة مكملة بحسبه خارجا عن الثمن و عما ينعم به عليه، أو يسفر به من مال السبيل على سبيل القرض ليتاجر به.

و أما جلّابة الخيل من عرب الحجاز و الشام و البحرين و برقة و بلاد المغرب، فإن لهم الخلع و الرواتب و العلوفات و الأنزال و رسوم الإقامات، خارجا عن مسامحات تكتب لهم بالمقرّرات عن تجارة يتجرون بها مما أخذوه من أثمان الخيول، و كان يثمّن الفرس بأزيد من قيمته، حتى ربما بلغ ثمنه على السلطان الذى يأخذه محضره نظير قيمته عليه عشر مرّات،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۸

غير الخلع و سائر ما ذكر، و لم يبق اليوم سوى ما يخلع على أرباب الدولة، و قد استجدّ فى الأيام الظاهرية، و كثر فى أيام الناصر فرج نوع من الخلع يقال له الجبة، يلبسه الوزير و نحوه من أرباب الرتب العلية، جعلوا ذلك ترفعا عن لبس الخلعة، و لم تكن الملوك تلبس من الثياب إلا المتوسط، و تجعل حوائصها بغير ذهب، فلم تزد حياصة الناصر محمد على مائة درهم فضة، و لم يزد أيضا سقط سرجه على مائة درهم فضة على عباءة صوف تدمرى أو شامى. فلما كانت دولة أولاده بالغوا فى الترف و خالفوا فيه عوايد أسلافهم، ثم سلك الظاهر برقوق فى ملابسه بعض ما كان عليه الملوك الأكابر لا كله، و ترك لبس الحرير.

الميدان بالقلعة: هذا الميدان من بقايا ميدان أحمد بن طولون الذى تقدّم ذكره عند ذكر القطائع من هذا الكتاب، ثم بناه الملك

الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة إحدى عشرة و ستمائة، و عمر إلى جانبه بركا ثلاثا لسقيه و أجرى الماء إليها، ثم تعطل هذا الميدان مدّة، فلما قام من بعده ابنه الملك العادل أبو بكر محمد بن الكامل محمد اهتم به، ثم اهتم به الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل اهتماما زائدا، و جدّد له ساقية أخرى، و أنشأ حوله الأشجار، فجاء من أحسن شيء يكون إلى أن مات، فتلاشى أمر الميدان بعده و هدمه الملك المعز أيبك سنة إحدى و خمسين و ستمائة. و عفت آثاره. فلما كانت سنة اثنتى عشرة و سبعمائة ابتدأ الملك الناصر محمد بن قلاون عمارته، فاقتطع من باب الإصطبل إلى قريب باب القرافة، و أحضر جميع جمال الأمراء فنقلت إليه الطين حتى كساه كله، و زرعه و حفر به الآبار و ركب عليها السواقى، و غرس فيه النخل الفاخر و الأشجار المثمرة، و أدار عليه هذا السور الحجر الموجود الآن، و بنى حوضا للسبيل من خارجه، فلما كمل ذلك نزل إليه و لعب فيه الكرة مع أمرائه و خلع عليهم، و استمرّ يلعب فيه يومى الثلاثاء و السبت، و صار القصر الأبلق يشرف على هذا الميدان، فجاء ميدانا فسيح المدى يسافر النظر فى أرجائه، و إذا ركب السلطان إليه نزل من درج تلى قصره الجوّانى، فينزل السلطان إلى الإصطبل الخاص، ثم إلى هذا الميدان و هو راكب و خواص الأمراء فى خدمته، فيعرض الخيول فى أوقات الإطلاقات و يلعب فيه الكرة، و كان فيه عدّة أنواع الوحوش المستحسنة المنظر، و كانت تربط به أيضا الخيول للتفسح، و فى هذا الميدان يصلى السلطان أيضا صلاة العيدين، و يكون نزوله إليه فى يوم العيد، و صعوده من باب خاص من دهليز القصر غير المعتاد النزول منه، فإذا ركب من باب قصره و نزل إلى منفذه من الإصطبل إلى هذا الميدان، ينزل فى دهليز سلطانىّ قد ضرب له على أكمل ما يكون من الأبهة، فيصلّى و يسمع الخطبة، ثم يركب و يعود إلى الإيوان الكبير و يمدّ به السماط و يخلع على حامل القبة و الطير و على حامل السلام و الاستادار و الجاشنكير و كثير من أرباب الوظائف، و كانت العادة أن تعدّ للسلطان أيضا خلعة العيد، على أنه يلبسها كما كانت العادة فى أيام الخلفاء، فينعم بها على بعض أكابر أمراء المئين، و لم يزل الحال على هذا إلى أن كانت سنة ثمانمائة، فصلّى الملك

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۳۹۹

الظاهر برقوق صلاة عيد النجر بجامع القلعة، لتخوّفه بعد واقعة الأمير على باى، فهجر الميدان و استمرّت صلاة العيد بجامع القلعة من عامئذ طول الأيام الناصرية و المؤيدية.

الحوش: ابتدئ العمل فيه على أيام الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة ثمان و ثلاثين و سبعمائة، و كان قياسه أربعة فدادين، و كان موضعه بركة عظيمة قد قطع ما فيها من الحجر لعمارة قاعات القلعة، حتى صارت غورا كبيرا، و لما شرع فى العمل، رتب على كلّ أمير من أمراء المئين مائة رجل و مائة بهيمة، لنقل التراب برسم الردم، و على كلّ أمير من أمراء الطبلخاناه بحسبه، و ندب الأمير أقبغا عبد الواحد شاد العمل، فحضر من عند كلّ من الأمراء أستاداره و معه جنده ودوا به للعمل، و أحضر الأسارى، و سخّر والى القاهرة و والى مصر الناس، و أحضرت رجال النواحى، و جلس أستاذار كلّ أمير فى خيمة و وزع العمل عليهم بالأقصاب، و وقف الأمير أقبغا يستحث الناس فى سرعة العمل، و صار الملك الناصر يحضر فى كلّ يوم بنفسه، فنال الناس من العمل ضرر زائد، و أخرق أقبغا بجماعة من أماثل الناس، و مات كثير من الرجال فى العمل لشدّة العسف و قوّة الحرّ، و كان الوقت صيفا، فانتهى عمله فى ستة و ثلاثين يوما، و أحضر إليه من بلاد الصعيد و من الوجه البحرىّ ألفى رأس غنم و كثيرا من الأبقار البلق لتوقف فى هذا الحوض، فصار مراح غنم و مربط بقر، و أجرى الماء إلى هذا الحوش من القلعة، و أقام الأغنام حوله، و تتبع فى كلّ المراحات من عيذاب وقوص إلى ما دونهما من البلاد، حتى يؤخذ ما بهما من الأغنام المختارة، و جلبها من بلاد النوبة و من اليمن، فبلغت عدّتها بعد موته ثلاثين ألف رأس سوى اتباعها، و بلغ البقل الأخضر الذى يشترى لفراخ الإوز فى كلّ يوم خمسين درهما، عنها زيادة على مثقالين من الذهب.

فلما كانت أيام الظاهر برقوق عمل المولد النبوىّ بهذا الحوض فى أوّل ليلة جمعة من شهر ربيع الأوّل فى كلّ عام، فإذا كان وقت ذلك ضربت خيمة عظيمة بهذا الحوض، و جلس السلطان و عن يمينه شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان بن نصر البلقينىّ، و يليه الشيخ المعتقد إبراهيم برهان الدين بن محمد بن بهادر بن أحمد بن رفاعة المغربىّ، و يليه ولد شيخ الإسلام، و من دونه و عن

يسار السلطان الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن سلامة التوزرىّ المغربىّ، و يليه قضاة القضاة الأربعة، و شيوخ العلم، و يجلس الأمراء على بعد من السلطان، فإذا فرغ القرّاء من قراءة القرآن الكريم، قام المنشدون واحدا بعد واحد، و هم يزيدون على عشرين منشدا، فيدفع لكلّ واحد منهم صرّة فيها أربعمائة درهم فضة، و من كلّ أمير من أمراء الدولة شقة حرير، فإذا انقضت صلاة المغرب مدّت أسمطة الأطعمة الفائقة، فأكلت و حمل ما فيها، ثم مدّت أسمطة الحلوى السكرية من الجوارشات و العقائد و نحوها، فتؤكل و تخطفها الفقهاء، ثم يكون تكميل إنشاد المنشدين و وعظهم إلى نحو ثلث الليل، فإذا فرغ المنشدون قام القضاة و انصرفوا، و أقيم السماع بقية الليل،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۰

و استمرّ ذلك مدّة أيامه، ثم أيام ابنه الملك الناصر فرج.

ذكر المياه التى بقلعة الجبل

و جميع مياه القلعة من ماء النيل، تنقل من موضع إلى موضع حتى تمرّ فى جميع ما يحتاج إليه بالقلعة، و قد اعتنى الملوك بعمل السواقى التى تنقل الماء من بحر النيل إلى القلعة عناية عظيمة، فأنشأ الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة اثنتى عشرة و سبعمائة أربع سواق على بحر النيل، تنقل الماء إلى السور، ثم من السور إلى القلعة. و عمل نقالة من المصنع الذى عمله الظاهر بيبرس بجوار زاوية تقىّ الدين رجب، التى بالرميلة تحت القلعة إلى بئر الإصطبل. فلما كانت سنة ثمان و عشرين و سبعمائة، عزم الملك الناصر على حفر خليج من ناحية حلوان إلى الجبل الأحمر المطلّ على القاهرة، ليسوق الماء إلى الميدان الذى عمله بالقلعة، و يكون حفر الخليج فى الجبل، فنزل لكشف ذلك و معه المهندسون، فجاء قياس الخليج طولا اثنين و أربعين ألف قصبة، فيمرّ الماء فيه من حلوان حتى يحاذى القلعة، فإذا حاذاها بنى هناك خبايا تحمل الماء إلى القلعة، ليصير الماء بها غزيرا كثيرا دائما صيفا و شتاء لا ينقطع، و لا يتكلف لحلمه و نقله، ثم يمرّ من محاذاة القلعة حتى ينتهى إلى الجبل الأحمر فيصبّ من أعلاه إلى تلك الأرض حتى تزرع، و عند ما أراد الشروع فى ذلك طلب الأمير سيف الدين قطاوبك بن قراسنقر الجاشنكير، أحد أمراء الطبلخاناه بدمشق، بعد ما فرغ من بناء القناة و ساق العين إلى القدس، فحضر و معه الصناع الذين عملوا قناة عين بيت المقدس على خيل البريد إلى قلعة الجبل، فأنزلوا، ثم أقيمت لهم الجرايات و الرواتب و توجهوا إلى حلوان، و وزنوا مجرى الماء و عادوا إلى السلطان و صوّبوا رأيه فيما قصد و التزموا بعمله، فقال: كم تريدون؟ قالوا: ثمانين ألف دينار. فقال: ليس هذا بكثير.

فقال: كم تكون مدّة العمل فيه حتى يفرغ؟ قالوا: عشر سنين. فاستكثر طول المدّة. و يقال أنّ الفخر ناظر الجيش هو الذى حسن لهم أن يقولوا هذه المدّة، فإنه لم يكن من رأيه عمل هذا الخليج، و ما زال يخيل للسلطان من كثرة المصروف عليه و من خراب القرافة ما حمله على صرف رأيه عن العمل، و أعاد قطلوبك و الصناع إلى دمشق، فمات قطلوبك عقيب ذلك فى سنة تسع و عشرين و سبعمائة فى ربيع الأوّل.

فلما كانت سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، اهتم الملك الناصر بسوق الماء إلى القلعة و تكثيره بها لأجل سقى الأشجار و ملء الفساقى، و لأجل مراحات الغنم و الأبقار، فطلب المهندسين و البنائين و نزل معهم و سار فى طول القناطر التى تحمل الماء من النيل إلى القلعة، حتى انتهى إلى الساحل، فأمر بحفر بئر أخرى ليركب عليها القناطر حتى تتصل بالقناطر العتيقة، فيجتمع الماء من بئرين و يصير ماء واحدا يجرى إلى القلعة، فيسقى الميدان و غيره، فعمل ذلك، ثم أحبّ الزيادة فى الماء أيضا، فركب و معه المهندسون إلى بكرة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۱

الجيش، و أمر بحفر خليج صغير يخرج من البحر و يمرّ إلى حائط الرصد، و ينقر فى الحجر تحت الرصد عشر آبار يصبّ فيها الخليج

المذكور، و يركّب على الآبار السواقى لتنقل الماء إلى القناطر العتيقة التى تحمل الماء إلى القلعة. زيادة لمائها، و كان فيما بين أوّل هذا المكان الذى عيّن لحفر الخليج و بين آخره تحت الرشد، أملاك كثيرة. و عدّة بساتين، فندب الأمير أقبغا عبد الوحد لحفر هذا الخليج و شراء الأملاك من أربابها، فحفر الخليج و أجراه فى وسط بستان الصاحب بهاء الدين بن حنا، و قطع أنشابه و هدم الدور، و جمع عامّة الحجارين لقطع الحجر، و نقر الآبار، و صار السلطان يتعاهد النزول للعمل كلّ قليل، فعمل عمق الخليج من فم البحر أربع قصبات، و عمق كلّ بئر فى الحجر أربعين ذراعا، فقدّر اللّه تعالى موت الملك الناصر قبر تمام هذا العمل، فبطل ذلك و انطمّ الخليج بعد ذلك، و بقيت منه إلى اليوم قطعة بجوار رباط الآثار، و ما زالت الحائط قائمة من حجر فى غاية الإتقان من إحكام الصناعة. و جودة البناء عند سطح الجرف الذى يعرف اليوم بالرصد، قائما من الأرض فى طول الجرف إلى أعلاه، حتى هدمه الأمير يلبغا السالمىّ فى سنة اثنتى عشرة و ثمانمائة، و أخذ ما كان به من الحجر فرمّ به القناطر التى تحمل إلى اليوم حتى يصل إلى القلعة، و كانت تعرف بسواقى السلطان، فلما هدمت جهل أكثر الناس أمرها و نسوا ذكرها.

المطبخ: كان أوّلا موضعه فى مكان الجامع، فأدخله السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون فيما زاده فى الجامع، و بنى هذا المطبخ الموجود الآن، و عمل عقوده بالحجارة خوفا من الحريق، و كانت أحوال المطبخ متسعة جدا سيما فى سلطنة الأشرف خليل بن قلاون، فإنه تبسط فى المآكل و غيرها، حتى لقد ذكر جماعة من الأعيان أنهم أقاموا مدّة سفرهم معه يرسلون كلّ يوم عشرين درهما فيشترى لهم بها مما يأخذه الغلمان، أربع خوافق صينى مملوءة طعاما مفتخرا بالقلوبات و نحوها، فى كلّ خافقية ما ينيف على خمسة عشر رطل لحم، أو عشرة أطيار دجار سمان، و بلغ راتب الحوايج خاناه فى أيام الملك العادل كتبغا كلّ يوم عشرين ألف رطل لحم، و راتب البيوت و الجرايات غير أرباب الرواتب فى كلّ يوم سبعمائة أردب قمحا، و اعتبر القاضى شرف الدين عبد الوهاب النشو ناظر الخاص أمر المطبخ السلطانىّ فى سنة تسع و ثلاثين و سبعمائة، فوجد عدّة الدجاج الذى يذبح فى كلّ يوم للسماط و المخاطى التى تخص السلطان و يبعث بها إلى الأمراء سبعمائة طائر، و بلغ مصروف الحوايج خاناه فى كلّ يوم ثلاثة عشر ألف درهم، فأكثر أولاد الناصر من مصروفها حتى توقفت أحوال الدولة فى أيام الصالح إسماعيل، و كتبت أوراق بكلف الدولة فى سنة خمس و أربعين و سبعمائة، فبلغت فى السنة ثلاثين ألف ألف درهم، و منها مصروف الحوايج خاناه فى كلّ يوم اثنان و عشرون ألف درهم. و بلغ فى أيام الناصر محمد بن قلاون راتب السكّر فى شهر رمضان خاصة من كل سنة، ألف قنطار، ثم تزايد حتى بلغ فى شهر رمضان سنة خمس و أربعين و سبعمائة ثلاثة آلاف قنطار، عنها ستمائة ألف درهم، عنها ثلاثون ألف

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۲

دينار مصرية، و كان راتب الدور السلطانية فى كل يوم من أيام شهر رمضان ستين قنطارا من الحلوى برسم التفرقة للدور و غيرها، و كانت الدولة قد توقفت أحوالها فوفر من المصروف فى كلّ يوم أربعة آلاف رطل لحم، و ستمائة كماجة سميذ، و ثلاثمائة أردب من الشعير، و مبلغ ألفى درهم فى كلّ شهر و أضيف إلى ديوان الوزارة سوق الخيل و الدواب و الجال، و كانت بيد عدّة أجناد عوّضوا عنها إقطاعات بالنواحى.

و اعتبر فى سنة ست و أربعين و سبعمائة متحصل الحاج علىّ الطباخ، فوجد له على المعاملين فى كل يوم خمسمائة درهم، و لابنه أحمد فى كلّ يوم ثلاثمائة درهم سوى الأطعمة المفتخرة و غيرها، و سوى ما كان يتحصّل له فى عمل المهمات مع كثرتها، و لقد تحصل له من ثمن الروس و الأكارع و سقط الدجاج و الأوز فى مهم عمله للأمير بكتمر الساقى، ثلاثة و عشرون ألف درهم، عنها نحو ألفين و مائتى دينار، فأوقعت الحوطة عليه و صودر، فوجد له خمسة و عشرون دارا على البحر و فى عدّة أماكن. و اعتبر مصروف الحوائج خاناه فى سنة ثمان و أربعين و سبعمائة، فكان فى كلّ يوم اثنين و عشرين ألف رطل من اللحم.

أبراج الحمام: كان بالقلعة أبراج برسم الحمام التى تحمل البطائق، و بلغ عدّتها على ما ذكره ابن عبد الظاهر فى كتاب تمائم الحمائم، إلى آخر جمادى الآخرة سنة سبع و ثمانين و ستمائة، ألف طائر و تسعمائة طائر، و كان بها عدّة من المقدّمين، لكلّ مقدّم منهم جزء

معلوم، و كانت الطيور المذكورة لا تبرح فى الأبراج بالقلعة، ما عدا طائفة منها فإنها فى برج بالبرقية خارج القاهرة، يعرف ببرج الفيوم، رتبه الأمير فخر الدين عثمان بن قزل أستادار الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و قيل له برج الفيوم، فإن جميع الفيول كانت فى إقطاع ابن قزل، و كانت البطائق ترد إليه من الفيوم، و يبعثها من القاهرة إلى الفيوم من هذا البرج، فاستمرّ هذا البرج يعرف بذلك. و كان بكلّ مركز حمام فى سائر نواحى المملكة مصرا و شاما، ما بين أسوان إلى الفرات، فلا تحصى عدّة ما كان منها فى الثغور و الطرقات الشامية و المصرية، و جميعها تدرج و تنقل من القلعة إلى سائر الجهات، و كان لها بغال الحمل من الإصطبلات السلطانية، و جاميكات البرّاجين و العلوفات تصرف من الأهراء السلطانية، فتبلغ النفقة عليها من الأموال ما لا يحصى كثرة، و كانت ضريبة العلف لكل مائة طائر ربع ويبة فول فى كلّ يوم، و كانت العادة أن لا تحمل البطاقة إلّا فى جناح الطائر، لأمور منها حفظ البطاقة من المطر و قوّة الجناح، ثم إنهم عملوا البطاقة فى الذنب، و كانت العادة إذا بطق من قلعة الجبل إلى الإسكندرية فلا يسرّح الطائر إلّا من منية عقبة بالجيزة، و هى أوّل المراكز، و إذا سرّح إلى الشرقية لا يطلق إلّا من مسجد تبر خارج القاهرة، و إذا سرّح إلى دمياط لا يسرّح إلّا من ناحية بيسوس، و كان يسير مع البرّاجين من يوصلهم إلى هذه الأماكن من الجاندارية، و كذلك كانت العادة فى كلّ مملكة يتوخى الإبعاد

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۳

فى التسريح عن مستقر الحمّام، و القصد بذلك أنها لا ترجع إلى أبراجها من قريب، و كان يعمل فى الطيور السلطانية علائم، و هى داغات فى أرجلها أو على مناقيرها، و يسميها أرباب الملعوب الاصطلاح، و كان الحمام إذا سقط بالبطاقة لا يقطع البطاقة من الحمام إلا السلطان بيده من غير واسطة، و كانت لهم عناية شديدة بالطائر، حتى أن السلطان إذا كان يأكل و سقط الطائر لا يمهل حتى يفرغ من الأكل، بل يحل البطاقة و يترك الأكل، و هكذا إذا كان نائما لا يمهل بل ينبه.

قال ابن عبد الظاهر: و هذا الذى رأينا عليه ملوكنا، و كذلك فى الموكب و فى لعب الأكرة، لأنه بلمحة يفوت و لا يستدرك المهم العظيم، إمّا من واصل أو هارب، و إمّا من متجدّد فى الثغور. قال: و ينبغى أن تكتب البطائق فى ورق الطير المعروف بذلك، و رأيت الأوائل لا يكتبون فى أولها بسملة، و تؤرّخ بالساعة و اليوم لا بالسنين، و أنا أورخها بالسنة، و لا يكثر فى نعوت المخاطب فيها، و لا يذكر حشو فى الألفاظ، و لا يكتب إلّا لبّ الكلام و زبدته، و لا بدّ و أن يكتب سرّح الطائر و رفيقه، حتى إن تأخر الواحد ترقّب حضوره، أو تطلب و لا يعمل للبطائق هامش و لا تجمّل، و يكتب آخرها حسبلة، و لا تعنون إلّا إذا كانت منقولة، مثل أن تسرّح إلى السلطان من مكان بعيد، فيكتب لها عنوان لطيف حتى لا يفتحها أحد، و كلّ وال تصل إليه يكتب فى ظهرها أنها وصلت إليه و نقلها، حتى تصل مختومة.

قال: و مما شاهدته و توليت أمره، أنّه فى شهور سنة ثمان و ثمانين و ستمائة، حضر من جهة نائب الصبيبة نيف و أربعون طائرا صحبة البرّاجين، و وصل كتابه أنه درجها إلى مصر، فأقامت مدّة لم يكن شغل تبطق فيه فقال برّاجوها: قد أزفّ الوقت عليها فى القرنصة، و جرى الحديث مع الأمير بيدار نائب السلطنة، فتقرّر كتب بطائق على عشرة منها بوصولها لا غير، و سرّحت يوم أربعاء جميعها، فاتفق وقوع طائرين منها، فأحضرت بطائقهما و حصل الاستهزاء بها، فلما كان بعد مدّة وصل كتاب السلطان أنها وصلت إلى الصبيبة فى ذلك اليوم بعينه، و بطق بذلك فى ذلك اليوم بعينه إلى دمشق، و وصل الخبر إلى دمشق فى يوم واحد، و هذا مما أنا مصرّفه و حاضره و المشير به. قال مؤلفه رحمه اللّه: قد بطل الحمام من سائر المملكة إلّا ما ينقل من قطيا إلى بلبيس و من بلبيس إلى قلعة الجبل، و لا تسل بعد ذلك عن شىء. و كأنى بهذا القدر و قد ذهب، و لا حول و لا قوّة إلّا باللّه العلىّ العظيم.

ذكر ملوك مصر منذ بنيت قلعة الجبل

اشارة

اعلم أن الذين و لوا أرض مصر فى الملة الإسلامية على ثلاثة أقسام. القسم الأول:

من ولى بفسطاط مصر، منذ فتح اللّه تعالى أرض مصر، على أيدى العرب أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و رضى عنهم و تابعيهم فصارت دار إسلام، إلى أن قدم القائد أبو الحسين جوهر من بلاد إفريقية بعساكر مولاه المعز لدين اللّه أبى تميم معدّ و بنى القاهرة، و هؤلاء

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۴

يقال لهم امراء مصر، و مدّتهم ثلاثمائة و سبع و ثلاثون سنة و سبعة أشهر و ستة عشر يوما أوّلها يوم الجمعة مستهل المحرم، سنة عشرين من الهجرة، و آخرها يوم الاثنين سادس عشر شعبان، سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة. و عدّة هؤلاء الأمراء مائة و اثنا عشر أميرا.

القسم الثانى: من ولىّ بالقاهرة منذ بنيت إلى أن مات الإمام العاضد لدين اللّه أبو محمد عبد اللّه رحمه اللّه، و هؤلاء يقال لهم الخلفاء الفاطميون، و مدّتهم بمصر مائتا سنة و ثمانى سنين و أربعة أشهر و اثنان و عشرون يوما، أوّلها يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان، سنة ثمان و خمسين و ثلاثمائة، و آخرها يوم الأحد عاشر المحرّم، سنة سبع و ستين و خمسمائة.

و عدّة هؤلاء الخلفاء أحد عشر خليفة.

و القسم الثالث: من ملك مصر بعد موت العاضد إلى وقتنا هذا الذى نحن فيه، و يقال لهم الملوك و السلاطين، و هم ثلاثة أقسام:

القسم الأول ملوك بنى أيوب، و هم أكراد.

و القسم الثانى البحرية و أولادهم، و هم مماليك أتراك لبنى أيوب. و القسم الثالث مماليك أولاد البحرية، و هم جراكسة، و قد تقدّم فى هذا الكتاب ذكر الأمراء و الخلفاء، و ستقف إن شاء اللّه تعالى على ذكر من ملك من الأكراد و الأتراك و الجراكسة، و تعرف أخبارهم على ما شرطنا من الاختصار، إذ قد وضعت لبسط ذلك كتابا سميته كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، و جردت تراجمهم فى كتاب التاريخ الكبير المقفى، فتطلبهما تجد فيهما ما لا تحتاج بعده إلى سواهما فى معناهما.

ذكر من ملك مصر من الأكراد

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى الأكراد، فذكر العجم أنّ الأكراد فضل طعم الملك بيوراسف، و ذلك أنه كان يأمر أن يذبح له كلّ يوم إنسانان و يتخذ طعامه من لحومهما، و كان له وزير يسمى أرماييل، و كان يذبح واحدا و يستحيى واحدا و يبعث به إلى جبال فارس، فتوالدوا فى الجبال و كثروا.

و من الناس من ألحقهم بإماء سليمان بن داود عليهما السلام، حين سلب ملكه و وقع على نسائه المنافقات الشيطان الذى يقال له الجسد، و عصم اللّه تعالى منه المؤمنات، فعلق منه المنافقات، فلما ردّ اللّه تعالى على سليمان عليه السلام ملكه، و وضع هؤلاء الإماء الحوامل من الشيطان قال: أكردوهم إلى الجبال و الأودية، فربتهم أمّهاتهم و تناكحوا و تناسلوا، فذلك بدء نسب الأكراد.

و الأكراد عند الفرس من ولد كرد بن اسفندام بن منوشهر، و قيل هم ينسبون إلى كرد بن مرد بن عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر، و قيل هم من ولد عمر و مزيقيا بن عامر ابن ماء السماء، و قيل من بنى حامد بن طارق، من بقية أولاد حميد بن زهير بن الحارث بن

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۵

أسد بن عبد العزى بن قصىّ. و هذه أقوال الفقهاء لهم ممن أراد الحظوة لديهم لما صار الملك إليهم.

و إنما هم قبيل من قبائل العجم، و هم قبائل عديدة: كورانية بنو كوران و هذبانية و بشتوية و شاصنجانية و سرنجية و بزولية و مهرانية و

زرداريـة و كيكانيـة و جاك و كرودنيليـة و رواديـة و دسـنية و هكارية و حميديـة و وركجية و مروانيـة و جلانيـة و سـنيكية و جونى. و تزعم المروانية أنها من بنى مروان بن الحكم، و يزعم بعض الهكارية أنها من ولد عتبة بن أبى سفيان بن حرب.

و أوّل من ملك مصر من الأكراد الأيوبية.

السـلطان الملـك الناصـر صـلاح الـدين: أبـو المظفر يوسف بن نجم الـدين أبى الشـكر أيوب بن شـادى بن مروان الكردىّ، من قـبيل الرواديـة، أحد بطون الهذبانية. نشأ أبوه أيوب و عمه أسد الدين شـير كوه ببلد دوين من أرض أذربيجان من جهة أرّان و بلاد الكرج، و دخلا بغداد و خدما مجاهد الدين بهروز، شـحنة بغداد، فبعث أيوب إلى قلعة تكريت و أقامه بها مستحفظا لها، و معه أخوه شير كوه و هو أصـغر منه سنا، فخدم أيوب الشهيد زنكى لما انهزم، فشكر له خدمته، و اتفق بعد ذلك أنّ شير كوه قتل رجلا بتكريت فطرد هو و أخوه أيوب من قلعتها، فمضـيا إلى زنكى بالموصل فآواهما و أقطعهما إقطاعا عنده، ثم رتب أيوب بقلعة بعلبك مسـتحفظا، ثم أنعم عليه بإمرة، و اتصل شير كوه بنور الدين محمود بن زنكى فى أيام أبيه و خدمه، فلما ملك حلب بعد أبيه كان لنجم الدين أيوب عمل كثير فى أخذ دمشق لنور الدين، فتمكنا فى دولته، حتى بعث شـير كوه مع الوزير شاور بن مجير السعدىّ إلى مصر، فسار صلاح الدين فى خدمته من جملة أجناده، و كان من أمر شير كوه ما كان حتى مات.

فأقيم بعده فى وزارة العاضد ابن أخيه صـلاح الدين يوسف بن أيوب فى يوم الثلاثاء خامس عشـرى جمادى الآخرة، سنة أربع و ستين و خمسـمائة، و لقبه بالملك الناصر، و أنزله بدار الوزارة من القاهرة، فاستمال قلوب الناس و أقبل على الجدّ و ترك اللهو و تعاضد هو و القاضـى الفاضل عبـد الرحيم بن علىّ البيسانىّ رحمه اللّه على إزالـة الدولـة الفاطمية، و ولى صدر الدين بن درباس قضاء القضاة، و عزل قضاة الشـيعة، و بنى بمدينـة مصر مدرسـة للفقهاء المالكيـة، و مدرسة للفقهاء الشافعية، و قبض على أمراء الدولة و أقام أصـحابه عوضهم، و أبطل المكوس بأسرها من أرض مصر، و لم يزل يدأب فى إزالة الدولة حتى تم له ذلك،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۶

و خطب لخليفـة بغداد المستنصـر بأمر اللّه أبى محمد بن الحسن العباسـىّ، و كان العاضد مريضا فتوفى بعد ذلك بثلاثة أيام، و استبدّ صلاح الـدين بالسـلطنة من أوّل سـنة سـبع و ستين و خمسـمائة، و استدعى أباه نجم الدين أيوب و إخوته من بلاد الشام، فقدموا عليه بأهاليهم.

و تأهب لغزو الفرنج و سار إلى الشوبك و هى بيد الفرنج، فواقعهم و عاد إلى أيلة فجبى الزكوات من أهل مصر و فرّقها على أصنافها، و رفع إلى بيت المال سـهم العاملين و سهم المؤلفة و سهم المقاتلة و سهم المكاتبين، و أنزل الغز بالقصر الغربىّ و أحاط بأموال القصر و بعث بها إلى الخليفـة ببغـداد، و إلى السـلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بالشام، فأتته الخلع الخليفية فلبسـها، و رتب نوب الطبلخاناه فى كلّ يوم ثلاث مرّات، ثم سار إلى الإسـكندرية، و بعث ابن أخيه تقىّ الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب على عسكر إلى برقـة، و عـاد إلى القـاهرة. ثم سار فى سـنة ثمان و خمسـين إلى الكرك و هى بيـد الفرنـج فحصـرها و عاد بغير طائل، فبعث أخاه الملك المعظم شـمس الدولة توران شاه ابن أيوب إلى بلاد النوبة، فأخذ قلعة إبريم و عاد بغنائم و سبى كثير، ثم سار لأخذ بلاد اليمن فملك زبيد و غيرها، فلما مات نور الدين محمود بن زنكى توجه السـلطان صـلاح الدين فى أوّل صـفر سـنة سبعين إلى الشام و ملك دمشق بغير مانع، و أبطل ما كان يؤخذ بها من المكوس كما أبطلها من ديار مصـر، و أخذ حمص و حماه، و حاصر حلب و بها الملك الصالـح مجير الـدين إسـماعيل بن العادل نور الدين محمود بن زنكى، فقاتله أهلها قتالا شديدا، فرحل عنها إلى حمص و أخذ بعلبك بغير حصـار، ثم عاد إلى حلب، فوقع الصـلح على أن يكون له ما بيـده من بلاد الشام مع المعرّة و كفر طاب، و لهم ما بأيـديهم، و عاد فأخـذ بغزاس بعـد حصـار، و أقـام بـدمشق، و نـدب قراقوس التقوىّ لأخـذ بلاد المغرب، فأخـذ أيجلن و عاد إلى القاهرة. و كانت بين السلطان و بين الحبيين وقعة هزمهم فيها و حصرهم بحلب أياما، و أخذ بزاعة و منبج و عزاز، ثم عاد إلى دمشق.

و قدم القاهرة فى سادس عشـرى ربيع الأوّل سـنة اثنتين و سـبعين بعد ما كانت لعساكره حروب كثيرة مع الفرنج، فأمر ببناء سور يحيط

بالقاهرة و مصر و قلعة الجبل، و أقام على بنائه الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدىّ، فشرع فى بناء قلعة الجبل و عمل السور و حفر الخندق حوله، و بدأ السلطان بعمل مدرسة بجوار قبر الإمام الشافعىّ رضى اللّه عنه فى القرافة، و عمل مارستانا بالقاهرة، و توجه إلى الإسكندرية فصام بها شهر رمضان، و سمع الحديث على الحافظ أبى طاهر أحمد السلفىّ، و عمر الأسطول و عاد إلى القاهرة، و أخرج قراقوش التقوىّ إلى بلاد المغرب، و أمر بقطع ما كان يؤخذ من الحجاج، و عوّض أمير مكة عنه فى كلّ سنة ألفى دينار و ألف أردب غلة، سوى إقطاعه بصعيد مصر و باليمن، و مبلغه ثمانية آلاف أردب.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۷

ثم سار من القاهرة فى جمادى الأولى سنة ثلاث و سبعين إلى عسقلان و هى بيد الفرنج، و قتل و أسر و سبى و غنم، و مضى يريدهم بالرملة فقاتل البرنس أرياط متملك الكرك قتالا شديدا، ثم عاد إلى القاهرة، ثم سار منها فى شعبان يريد الفرنج و قد نزلوا على حماه حتى قدم دمشق و قد رحلوا عنها، فواصل الغارات على بلاد الفرنج و عساكره تغزو بلاد المغرب، ثم فتح بيت الأحزان من عمل صفد و أخذه من الفرنج عنوة، و سار فى سنة ست و سبعين لحرب فتح الدين فليح أرسلان صاحب قونيه من بلاد الروم، و عاد ثم توجه إلى بلاد الأرمن، و عاد فخرّب حصن بهنسا و مضى إلى القاهرة فقدمها فى ثالث عشر شعبان.

ثم خرج إلى الإسكندرية و سمع بها موطأ الإمام مالك على الفقيه أبى طاهر بن عوف، و أنشأ بها مارستانا و دارا للمغاربة و مدرسة، و جدّد حفر الخليج و نقل فوهته، ثم مضى إلى دمياط و عاد إلى القاهرة، ثم سار فى خامس المحرّم سنة ثمان و سبعين على إيلة، فأغار على بلاد الفرنج و مضى إلى الكرك، فعاثت عساكره ببلاد طبرية و عكا، و أخذ الشقيف من الفرنج، و نزل السلطان بدمشق و ركب إلى طبرية فواقع الفرنج، و عاد فتوجه إلى حلب و نازلها ثم مضى إلى البيرة على الفرات، و عدّى إلى الرها فأخذها، و ملك حرّان و الرقّة و نصيبين، و حاصر الموصل فلم ينل منها غرضا، فنازل سنجار حتى أخذها، ثم مضى على حرّان إلى آمد فأخذها و سار على عين تاب إلى حلب، فملكها فى ثامن عشر صفر سنة تسع و سبعين، و عاد إلى دمشق و عبر الأران و حرّق بيسان على الفرنج و خرّب لهم عدّة حصون و عاد إلى دمشق، ثم سار إلى الكرك فلم ينل منها غرضا، و عاد ثم خرج فى سنة ثمانين من دمشق فنازل الكرك، ثم رحل عنها إلى نابلس فحرّقها و أكثر من الغارات حتى دخل دمشق، ثم سار منها إلى حماه و مضى حتى بلغ حرّان، و نزل على الموصل و حصرها، ثم سار عنها إلى خلاط فلم يملكها، فمضى حتى أخذ ميافارقين و عاد إلى الموصل، ثم رحل عنها و قد مرض إلى حرّان، فتقرّر الصلح مع المواصلة على أن خطبوا له بها و بديار بكر و جميع البلاد الأرتقية، و ضرب السكة فيها باسمه، ثم سار إلى دمشق فقدمها فى ثانى ربيع الأوّل سنة اثنتين و ثمانين، و خرج منها فى أوّل سنة ثلاث و ثمانين، و نازل الكرك و الشوبك و طبرية، فملك طبرية فى ثالث عشرى ربيع الآخر من الفرنج، ثم واقعهم على حطين و هم فى خمسين ألفا، فهزمهم بعد وقائع عديدة و أسر منهم عدّة ملوك، و نازل عكا حتى تسلمها فى ثانى جمادى الأولى، و أنقذ منها أربعة آلاف أسير مسلم من الأسر، و أخذ مجدل يافا و عدّة حصون، منها الناصرية و قيسارية و حيفا و صفورية و الشقيف و الغولة و الطور و سبسطية

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۸

و نابلس و تبنين و صرخد و صيدا و بيروت و جبيل، و أنقذ من هذه البلاد زيادة على عشرين ألف أسير مسلم كانوا فى أسر الفرنج، و أسر من الفرنج مائة ألف إنسان، ثم ملك منهم الرملة و بلد الخليل عليه السلام و بيت لحم من القدس و مدينة عسقلان و مدينة غزة و بيت جبريل، ثم فتح بيت المقدس فى يوم الجمعة سابع عشرى رجب و أخرج منه ستين ألفا من الفرنج بعد ما أسر ستة عشر ألفا ما بين ذكر و أنثى، و قبض من مال المفاداة ثلاثمائة ألف دينار مصرية، و أقام الجمعة بالأقصى و بنى بالقدس مدرسة للشافعية، و قرّر على من يرد كنيسة قمامة من الفرنج قطيعة يؤديها، ثم نازل عكا و صور و نازل فى سنة أربع و ثمانين حصن كوكب، و ندب العساكر إلى صفد و الكرك و الشوبك.

و عاد إلى دمشق فدخلها سادس ربيع الأوّل و قد غاب عنها فى هذه الغزوة أربعة عشر شهرا و خمسة أيام، ثم خرج منها بعد خمسة

أيام فشنّ الغارات على الفرنج و أخذ منهم أنطرسوس و خرّب سورها و حرّقها و أخذ جبلة و اللاذقية و صهيون و الشغر و بكاس و بقراص، ثم عاد إلى دمشق آخر شعبان بعد ما دخل حلب، فملكت عساكره الكرك و الشوبك و السلع فى شهر رمضان، و خرج بنفسه إلى صفد و ملكها من الفرنج فى رابع عشر شوّال، و ملك كوكب فى نصف ذى القعدة و سار إلى القدس، و مضى بعد النحر إلى عسقلان و نزل بعكا و عاد إلى دمشق أوّل صفر سنة خمس و ثمانين، ثم سار منها فى ثالث ربيع الأوّل و نازل شقيف أرنون و حارب الفرنج حروبا كثيرة، و مضى إلى عكا و قد نزل الفرنج عليها و حصروا من بها من المسلمين، فنزل بمرج عكا و قاتل الفرنج من أوّل شعبان حتى انقضت السنة.

و قد خرج الألمان من قسطنطينية فى زيادة ألف ألف يريد بلاد الإسلام، فاشتدّ الأمر و دخلت سنة ست و ثمانين و السلطان بالخرّوبة على حصار الفرنج، و الإمداد تصل إليه، و قدم الألمان طرسوس يريد بيت المقدس، فخرّب السلطان سور طبرية و يافا و أرسوف و قيسارية و صيدا و جبيل، و قوى الفرنج بقدوم ابن الألمان إليهم تقوية لهم، و قد مات أبوه بطرسوس و ملك بعده، فقدّر اللّه تعالى موته أيضا على عكا، و دخلت سنة سبع و ثمانين، فملك الفرنج عكا فى سابع عشر جمادى الآخرة و أسروا من بها من المسلمين و حاربوا السلطان و قتلوا جميع من أسروه من المسلمين و ساروا إلى عسقلان فرحل السلطان فى أثرهم و واقعهم بأرسوف، فانهزم من معه و هو ثابت حتى عادوا إليه، فقاتل الفرنج و سبقهم إلى عسقلان و خرّبها، ثم مضى إلى الرملة و خرّب حصنها و خرّب كنيسة له و دخل القدس

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۰۹

فأقام بها إلى عاشر رجب سنة ثمان و ثمانين، ثم سار إلى يافا فأخذها بعد حروب و عاد إلى القدس و عقد الهدنة بينه و بين الفرنج مدّة ثلاث سنين و ثلاثة أشهر، أوّلها حادى عشر شعبان، على أنّ للفرنج من يافا إلى عكا إلى صور و طرابلس و أنطاكية، و نودى بذلك، فكان يوما مشهودا، و عاد السلطان إلى دمشق فدخلها خامس عشرى شوّال و قد غاب عنها أربع سنين، فمات بها فى يوم الأربعاء سابع عشرى صفر سنة تسع و ثمانين و خمسمائة، عن سبع و خمسين سنة، منها مدّة ملكه بعد موت العاضد، اثنتان و عشرون سنة و ستة عشر يوما، فقام من بعده بمصر ولده.

السلطان الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان : و قد كان يومئذ ينوب عنه بمصر و هو مقيم بدار الوزارة من القاهرة، و عنده جلّ عساكر أبيه من الأسدية و السلاحية و الأكراد، فأتاه ممن كان عند أخيه الملك الأفضل علىّ، الأمير فخر الدين جهاركس، و الأمير فارس الدين ميمون القصرىّ، و الأمير شمس الدين سنقر الكبير، و هم عظماء الدولة، فأكرمهم. و قدم عليه القاضى الفاضل فبالغ فى كرامته، و تنكر ما بينه و بين أخيه الأفضل، فسار من مصر لمحاربته و حصره بدمشق، فدخل بينهما العادل أبو بكر حتى عاد العزيز إلى مصر على صلح فيه دخل، فلم يتم ذلك، و توحش ما بينهما و خرج العزيز ثانيا إلى دمشق، فدبر عليه عمه العادل حتى كاد أن يزول ملكه و عاد خائفا، فسار إليه الأفضل و العادل حتى نزلا بلبيس، فجرت أمور آلت إلى الصلح، و أقام العادل مع العزيز بمصر، و عاد الأفضل إلى مملكته بدمشق، فقام العادل بتدبير أمور الدولة، و خرج بالعزيز لمحاربة الأفضل فحصراه بدمشق حتى أخذاها منه بعد حروب و بعثاه إلى صرخد، و عاد العزيز إلى مصر و أقام العادل بدمشق حتى مات العزيز فى ليلة العشرين من محرّم سنة خمس و تسعين و خمسمائة، عن سبع و عشرين سنة و أشهر، منها مدّة سلطنته بعد أبيه ست سنين تنقص شهرا واحدا، فأقيم بعده ابنه.

السلطان الملك المنصور ناصر الدين محمد : و عمره تسع سنين و أشهر بعهد من أبيه، و قام بأمور الدولة بهاء الدين قراقوش الأسدىّ الأتابك، فاختلف عليه أمراء الدولة و كاتبوا الملك الأفضل علىّ بن صلاح الدين، فقدم من صرخد فى خامس ربيع الأوّل، فاستولى على الأمور و لم يبق للمنصور معه سوى الاسم، ثم سار به من القاهرة فى ثالث رجب يريد أخذ دمشق من عمه العادل بعد ما قبض على عدّة من الأمراء، و قد توجه العادل إلى ماردين، فحصر الأفضل دمشق، و قد بلغ العادل خبره فعاد و سار يريده حتى دخل دمشق، فجرت حروب كثيرة آلت إلى عود الأفضل إلى مصر بمكيدة دبرها عليه العادل، و خرج العادل فى أثره و واقعه على بلبيس فكسره فى

سادس ربيع الآخر سنة ست و تسعين،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۰

و التجأ إلى القاهرة و طلب الصلح، فعوّضه العادل صرخد و دخل إلى القاهرة فى يوم السبت ثامن عشره، و أقام بأتابكية المنصور ثم خلعه فى يوم الجمعة حادى عشر شوّال، و كانت سلطنته سنة و ثمانية أشهر و عشرين يوما، و استبدّ بالسلطنة بعده عمّ أبيه.

السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب : فخطب له بديار مصر و بلاد الشام و حرّان و الرها و ميافارقين، و أخرج المنصور و إخوته من القاهرة إلى الرها، و استناب ابنه الملك الكامل محمدا عنه، و عهد إليه بعده بالسلطنة، و حلف له الأمراء، فسكن قلعة الجبل و استمرّ أبوه فى دار الوزارة، و فى أيامه توقفت زيادة النيل و لم يبلغ سوى ثلاثة عشر ذراعا تنقص ثلاثة أصابع، و شرقت أراضى مصر إلّا الأقل، و غلت او سعار و تعذر وجود الأقوات حتى أكلت الجيف، و حتى أكل الناس بعضهم بعضا، و تبع ذلك فناء كبير و امتدّ ذلك ثلاث سنين، فبلغت عدّة من كفنه العادل وحده من الأموات فى مدّة يسيرة نحو مائتى ألف و عشرين ألف إنسان، فكان بلاء شنيعا، و عقب ذلك تحرّك الفرنج على بلاد المسلمين فى سنة تسع و تسعين، فكانت معهم عدّة حروب على بلاد الشام آلت إلى أن عقد العادل معهم الهدنة، فعاودوا الحرب فى سنة ستمائة و عزموا على أخذ القدس، و كثر عيثهم و فسادهم، و كانت لهم و للمسلمين شؤون آلت إلى نزولهم على مدينة دمياط فى رابع ربيع الأوّل سنة خمس عشرة و ستمائة، و العادل يومئذ بالشام، فخرج الملك الكامل لمحاربتهم، فمات العادل بمرج الصفر فى يوم الخميس سابع جمادى الآخرة منها و حمل إلى دمشق، فكانت مدّة سلطنته بديار مصر تسع عشرة سنة و شهرا واحدا و تسعة عشر يوما و قام من بعده ابنه.

السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالى محمد : بعهد أبيه. فأقام فى السلطنة عشرين سنة و خمسة و أربعين يوما و مات بدمشق يوم الأربعاء حادى عشرى رجب سنة خمس و ثلاثين و ستمائة. و أقيم بعده ابنه.

السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر: فاشتغل باللهو عن التدبير، و خرجت عنه حلب، و استوحش منه الأمراء لتقريبه الشباب، و سار أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب من بلاد الشرق إلى دمشق و أخذها فى أوّل جمادى الأولى سنة ست و ثلاثين، و جرت له أمور آخرها أنه سار إلى مصر فقبض الأمراء على العادل و خلعوه يوم الجمعة ثامن ذى القعدة سنة سبع و ثلاثين و ستمائة، فكانت سلطنته سنتين و ثلاثة أشهر و تسعة. و قام بعده بالسلطنة أخوه.

السلطان الملك الصالح نجم الدين أبو الفتوح أيوب : فاستولى على قلعة الجبل فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۱

يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة و جلس على سرير الملك بها، و كان قد خطب له قبل قدومه، فضبط الأمور و قام بأعباء المملكة أتم قيام، و جمع الأموال التى أتلفها أخوه، و قبض على الأمراء و نظر فى عمارة أرض مصر، و حارب عربان الصعيد، و قدّم مماليكه و أقامهم أمراء، و بنى قلعة الروضة و تحوّل من قلعة الجبل إليها و سكنها، و ملك مكة و بعث لغزو اليمن، و عمر المدارس الصالحية بين القصرين من القاهرة، و قرّر بها دروسا أربعة للشافعية و الحنفية و المالكية و الحنابلة، و فى أيامه نزل الفرنج على دمياط فى ثالث عشرى صفر سنة سبع و أربعين و عليهم الملك روادفرنس و ملكوها، و كان السلطان بدمشق، فقدم عند ما بلغه حركة الفرنج و نزل أشموم طناح و هو مريض، فمات بناحية المنصورة مقابل الفرنج، فى يوم الأحد رابع عشر شعبان منها، و كانت مدّة سلطنته بعد أخيه تسع سنين و ثمانية أشهر و عشرين يوما، فقامت أمّ ولده خليل و اسمها شجرة الدرّ بالأمر، و كتمت موته و استدعت ابنه توران شاه من حصن كيفا و سلمت إليه مقاليد الأمور. فقام من بعده ابنه.

السلطان الملك المعظم غياث الدين توران شاه: و قد سار من حصن كيفا فى نصف شهر رمضان فمرّ على دمشق و تسلطن بقلعتها فى يوم الاثنين لليلتين بقيتا منه، و ركب إلى مصر فنزل الصالحية طرف الرمل لأربع عشرة بقيت من ذى القعدة، فأعلن حينئذ بموت الصالح و لم يكن أحد قبل ذلك يتفوّه بموت السلطان، بل كانت الأمور على حالها و الخدمة تعمل بالدهليز و السماط يمدّ و شجرة

الدرّ تدبر أمور الدولة، و توهم الكافة أن السلطان مريض ما لأحد عليه سبيل، و لا وصول، ثم سار المعظم من الصالحية إلى المنصورة، فقدمها يوم الخميس حادى عشريه، فأساء تدبير نفسه و تهدّد البحرية حتى خافوه، و هم يومئذ جمرة العسكر، فقتلوه بعد سبعين يوما فى يوم الاثنين تاسع عشرى المحرّم سنة ثمان و أربعين و ستمائة، و بموته انقضت دولة بنى أيوب من ديار مصر بعد ما أقامت إحدى و ثمانين سنة و سبعة عشر يوما، و ملك منهم ثمانية ملوك.

ذكر دولة المماليك البحرية

و هم الملوك الأتراك، و كان ابتداء أمر هذه الطائفة، أنّ السلطان الملك الصالح نجم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۲

الدين أيوب، كان قد أقرّه أبوه السلطان الملك الكامل محمد ببلاد الشرق، و جعل ابنه العادل أبا بكر وليّ عهده فى السلطنة بمصر، فلما مات قام من بعده العادل فى السلطنة، و تنكر ما بينه و بين ابن عمه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل أبى بكر بن أيوب، و هو نائب دمشق، فاستدعى الصالح نجم الدين من بلاد الشرق و رتب ابنه المعظم ثوران شاه على بلاد الشرق، و أقرّه بحصن كيفا، و قدم دمشق و ملكها، فكاتبه أمراء مصر تحثه على أخذها من أخيه العادل، و خامر عليه بعضهم، فسار من دمشق فى رمضان سنة ست و ثلاثين، فانزعج العادل انزعاجا كبيرا و كتب إلى الناصر داود صاحب الكرك، فسار إليه ليعاونه على أخيه الصالح، فاتفق مسير الملك الصالح إسماعيل بن العادل أبى بكر بن أيوب من حماه و أخذه دمشق للملك العادل أبى بكر بن الملك الكامل محمد، فى سابع عشرى صفر سنة سبع و ثلاثين، و الملك الصالح نجم الدين أيوب يومئذ على نابلس، فانحلّ أمره و فارقه من معه حتى لم يبق معه إلّا مماليكه، و هم نحو الثمانين، و طائفة من خواصه نحو العشرين، و أما الجميع فإنهم مضوا إلى دمشق و كان الناصر داود قد فارق العادل و سار من القاهرة مغاضبا له إلى الكرك، و مضى إلى الصالح نجم الدين أيوب و قبضه بنابلس فى ثانى عشر ربيع الأول منها و سجنه بالكرك، فأقام مماليك الصالح بالكرك حتى خلص من سجنه فى سابع عشرى شهر رمضان منها، فاجتمع عليه مماليكه و قد عظمت مكانتهم عنده، و كان من أمره ما كان حتى ملك مصر، فرعى لهم ثباتهم معه حين تفرّق عنه الأكراد، و أكثر من شرائهم و جعلهم أمراء دولته و خاصته و بطانته و المحيطين بدهليزه، إذا سافر و أسكنهم معه فى قلعة الروضة، و سماهم البحرية، و كانوا دون الألف مملوك، قيل ثمانمائة، و قيل سبعمائة و خمسون، كلهم أتراك. فلما مات الملك الصالح بالمنصورة أحس الفرنج بشىء من ذلك، فركبوا من مدينة دمياط و ساروا على فارسكور، و واقعوا العسكر فى يوم الثلاثاء أوّل شهر رمضان سنة سبع و أربعين، و نزلوا بقرية شرمشاح، ثم بالبرمون، و نزلوا تجاه المنصورة، فكانت الحروب بين الفريقين إلى خامس ذى القعدة، فلم يشعر المسلمون إلّا و الفرنج معهم فى المعسكر، فقتل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، و انهزم الناس، و وصل روادفرنس ملك الفرنج إلى باب قصر السلطان، فبرزت البحرية و حملوا على الفرنج حملة منكرة حتى أزاحوهم و ولوا، فأخذتهم السيوف و الدبابيس و قتل من أعيانهم ألف و خمسمائة، فظهرت البحرية من يومئذ و اشتهرت، ثم لما قدم الملك المعظم توران شاه أخذ فى تهديد شجرة الدرّ و مطالبتها بمال أبيه، فكاتبت البحرية تذكرهم بما فعلته من ضبط المملكة حتى قدم المعظم، و ما هى فيه من الخوف منه، فشق ذلك عليهم، و كان قد وعد الفارس أقطاى المتوجه إليه من المنصورة لاستدعائه من حصن كيفا بإمرة، فلم يف له، فتنكر له و هو من أكابر البحرية، و أعرض مع ذلك عن البحرية و أطرح جانب الأمراء و غيرهم حتى قتلوه، و أجمعوا على أن يقيموا بعده فى السلطنة سرّية أستاذهم.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۳

الملكة عصمة الدين أم خليل شجرة الدر الصالحية: فأقاموها فى السلطنة و حلفوا لها فى عاشر صفر، و رتبوا الأمير عز الدين أيبك

التركمانىّ الصالحىّ أحد البحرية مقدّم العسكر، و سار عز الدين أيبك الرومىّ من العسكر إلى قلعة الجبل، و أنهى ذلك إلى شجرة الدرّ، فقامت بتدبير المملكة و علمت على التواقيع بما مثاله والدة خليل، و نقش على السكة اسمها و مثاله، المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة أمير المؤمنين، و كانت البحرية قد تسلمت مدينة دمياط من الملك روادفرنس بعد ما قرّر على نفسه أربعمائة ألف دينار، و عاد العسكر من المنصورة إلى القاهرة فى تاسع صفر و حلفوا لشجرة الدرّ فى ثالث عشره، فخلعت عليهم و أنفقت فيهم الأموال، و لم يوافق أهل الشام على سلطنتها، و طلبوا الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب حلب فسار إليهم بدمشق و ملكها، فانزعج العسكر بالقاهرة، و تزوّج الأمير عز الدين أيبك التركمانىّ بالملكة شجرة الدرّ، و نزلت له عن السلطنة و كانت مدّتها ثمانين يوما. و ملك بعدها.

السلطان الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركمانىّ الصالحىّ : أحد المماليك الأتراك البحرية، و كان قد انتقل إلى الملك الصالح من أولاد ابن التركمانىّ، فعرف بالتركمانىّ، و رقّاه فى خدمه حتى صار من جملة الأمراء و رتبة جاشنكيره ، فلما مات الصالح و قدّمته البحرية عليهم فى سلطنة شجرة الدرّ، كتب إليهم الخليفة المستعصم من بغداد يذمّهم على إقامة امرأة، و وافق مع ذلك أخذ الناصر لدمشق، و حركتهم لمحاربته، فوقع الاتفاق على إقامة أيبك فى السلطنة، فأركبوه بشعار السلطنة فى يوم السبت آخر شهر ربيع الآخر سنة ثمان و أربعين و ستمائة، و لقبوه بالملك المعز، و جلس على تخت الملك بقلعة الجبل، فورد الخبر من الغد بأخذ الملك المغيث عمر بن العادل الصغير الكرك و الشوبك، و أخذ الملك السعيد قلعة الصبيبة، فاجتمع رأى الأمراء على إقامة الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر، و يقال المسعود يوسف بن الملك المسعود يوسف، و يقال طسز، و يقال أيضا اقسيس بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، شريكا للمعز فى السلطنة، فأقاموه معه و عمره نحو ست سنين، فى خامس جمادى الأولى، و صارت المراسيم تبرز عن الملكين، إلّا أن الأمر و النهى للمعز، و ليس للأشرف سوى مجرّد الاسم، و ولى المعز الوزارة لشرف الدين أبى سعيد هبة اللّه بن صاعد الفائزىّ، و هو أوّل قبطىّ وليّ وزارة مصر، و خرج المعز بالعساكر و عربان مصر لمحاربة الناصر يوسف فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۴

ثالث ذى القعدة، و خيم بمنزلة الصالحية و ترك الأشرف بقلعة الجبل، و اقتتل مع الناصر فى عاشره، فكانت النصرة له على الناصر، و عاد فى ثانى عشره، فنزل بالناس من البحرية بلاء لا يوصف ما بين قتل و نهب و سبى، بحيث لو ملك الفرنج بلاد مصر ما زادوا فى الفساد على ما فعله البحرية، و كان كبراؤهم ثلاثة، الأمير فارس الدين أقطاى، و ركن الدين بيبرس البند قدارىّ، و بليان الرشيدىّ، ثم فى محرّم سنة تسع و أربعين خرج المعز بالأشرف و العساكر فنزل بالصالحية و أقام بها نحو سنتين، و الرسل تتردّد بينه و بين الناصر، و أحدث الوزير الأسعد هبة اللّه الفائزىّ مظالم لم تعهد بمصر قبله، فورد الخبر فى سنة خمسين بحركة التتر على بغداد، فقطع المعز من الخطبة اسم الأشرف و انفرد بالسلطنة و قبض على الأشرف و سجنه، و كان الأشرف موسى آخر ملوك بنى أيوب بمصر، ثم إن المعز جمع الأموال فأحدث الوزير مكوسا كثيرة سماها الحقوق السلطانية، و عاد المعز إلى قلعة الجبل فى سنة إحدى و خمسين و أوقع بعرب الصعيد و قبض على الشريف حصن الدين ثعلب بن ثعلب، و أذلّ سائر عرب الوجهين القبلىّ و البحرىّ و أفناهم قتلا و أسرا و سبيا، و زاد فى القطيعة على من بقى منهم حتى ذلوا و قلوا، ثم قتل الفارس أقطاى، ففرّ منه معظم البحرية، بيبرس و قلاون فى عدد كثير منهم إلى الشام و غيرها، و لم يزل إلى أن قتلته شجرة الدرّ فى الحمام ليلة الأربعاء رابع عشرى ربيع الأوّل سنة خمس و خمسين و ستمائة، فكانت مدّته سبع سنين تنقص ثلاثة و ثلاثين يوما، و كان ظلوما غشوما سفاكا للدماء، أفنى عوالم كثيرة بغير ذنب و قام من بعده ابنه.

السلطان الملك المنصور نور الدين علىّ بن المعز أيبك : فى يوم الخميس خامس عشرى ربيع الأوّل و عمره خمس عشرة سنة، فدبر أمره نائب أبيه الأمير سيف الدين قطز، ثم خلعه فى يوم السبت رابع عشرى ذى القعدة سنة سبع و خمسين و ستمائة، فكانت مدّته

سنتين و ثمانية أشهر و ثلاثة أيام، و قام من بعده.

السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز : فى يوم السبت، و أخرج المنصور بن المعز منفيا هو و أمّه إلى بلاد الأشكرىّ، و قبض على عدّة من الأمراء، و سار فأوقع بجمع هولاكو على عين جالوت و هزمهم فى يوم الجمعة خامس عشرى رمضان، سنة ثمان و خمسين، و قتل منهم و أسر كثيرا بعد ما ملكوا بغداد و قتلوا الخليفة المستعصم بالله عبد اللّه، و أزالوا دولة بنى العباس و خرّبوا بغداد و ديار بكر و حلب و نازلوا دمشق فملكوها، فكانت هذه الوقعة أوّل هزيمة عرفت للتتر منذ قاموا، و دخل المظفر قطز إلى دمشق و عاد منها يريد مصر، فقتله الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارىّ قريبا من المنزلة الصالحية فى يوم السبت

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۵

نصف ذى القعدة منها، فكانت مدّته سنة تنقص ثلاثة عشر يوما، و قام من بعده.

السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البند قدارىّ الصالحىّ :

التركىّ الجنس أحد المماليك البحرية، و جلس على تخت السلطنة بقلعة الجبل فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان و خمسين، فلم يزل حتى مات بدمشق فى يوم الخميس سابع عشرى المحرّم، سنة ست و سبعين و ستمائة، فكانت مدّته سبع عشرة سنة و شهرين و اثنى عشر يوما، و قام من بعده ابنه.

السلطان الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالى محمد بركة قان : و هو يومئذ بقلعة الجبل ينوب عن أبيه، و قد عهد إليه بالسلطنة و زوّجه بابنة الأمير سيف الدين قلاون الألفىّ، فجلس على التخت فى يوم الخميس سادس عشرى صفر، سنة ست و سبعين، إلى أن خلعه الأمراء فى سابع ربيع الآخر سنة ثمان و سبعين، و كانت مدّته سنتين و شهرين و ثمانية أيام، لم يحسن فيها تدبير ملكه، و أوحش ما بينه و بين الأمراء. فأقيم بعده أخوه.

السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس : و عمره سبع سنين و أشهر، و قام بتدبيره الأمير قلاون أتابك العساكر، ثم خلعه بعد مائة يوم و بعث به إلى الكرم، فسجن مع أخيه بركة بها. و قام من بعده.

السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاون الألفىّ العلائىّ الصالحىّ : أحد المماليك الأتراك البحرية، كان قبجاقى الجنس من قبيلة مرج أغلى، فجلب صغيرا و اشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر الساقى العادلىّ بألف دينار، و صار بعد موته إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة سبع و أربعين و ستمائة، فجعله من جملة البحرية، فتنقلت به الأحوال حتى صار أتابك العساكر فى أيام العادل سلامش، و ذكر اسمه مع العادل على المنابر، ثم جلس على التخت بقلعة الجبل فى يوم الأحد العشرين من شهر رجب سنة ثمان و سبعين، و تلقب بالملك المنصور و أبطل عدّة مكوس، فثار عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بدمشق و تسلطن و لقب نفسه بالملك الكامل، فى يوم الجمعة رابع عشرى ذى الحجة، فبعث إليه و هزمه و استعاد دمشق، ثم قدمت التتر إلى بلاد حلب و عاثوا بها، فتوجه إليهم السلطان بعساكره و أوقع بهم على حمص فى يوم الخميس رابع عشرى رجب، سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۶

ثمانين و ستمائة، و هزمهم بعد مقتلة عظيمة و عاد إلى قلعة الجبل، و توجه فى سنة أربع و ثمانين حتى نازل حصن المرقب ثمانية و ثلاثين يوما و أخذه عنوة من الفرنج، و عاد إلى القلعة، ثم بعث العسكر فغزا بلاد النوبة فى سنة سبع و ثمانين و عاد بغنائم كثيرة، ثم سار فى سنة ثمان و ثمانين لغزو الفرنج بطرابلس، فنازلها أربعة و ثلاثين يوما حتى فتحها عنوة فى رابع ربيع الآخر و هدمها جميعها، و أنشأ قريبا منها مدينة طرابلس الموجودة الآن، و عاد إلى قلعة الجبل و بعث لغزو النوبة ثانيا عسكرا فقتلوا و أسروا و عادوا، ثم خرج لغزو الفرنج بعكا، و هو مريض، فمات خارج القاهرة ليلة السبت سادس ذى القعدة سنة تسع و ثمانين و ستمائة، فكانت مدّته إحدى عشرة سنة و شهرين و أربعة و عشرين يوما. و قام من بعده ابنه.

السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل: فى يوم الأحد سابع ذى القعدة المذكور، و سار لفتح عكا فى ثالث ربيع الأوّل سنة

تسعين و ستمائة، و نصب عليها اثنين و تسعين منجنيقا و قاتل من بها من الفرنج أربعة و أربعين يوما حتى فتحها عنوة، فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى، و هدمها كلها بما فيها، و حرّقها و أخذ صور و حيفا و عتليت و انطرسوس و صيدا، و هدمها و أجلى الفرنج من الساحل فلم يبق منهم أحد و للّه الحمد، و توجه إلى دمشق و عاد إلى مصر فدخل قلعة الجبل يوم الاثنين تاسع شعبان، ثم خرج فى ثامن ربيع الآخر سنة إحدى و تسعين و ستمائة بعد ما نادى بالنفير للجهاد، فدخل دمشق و عرض العساكر و مضى منها فمرّ على حلب و نازل قلعة الروم، و نصب عليها عشرين منجنيقا حتى فتحها بعد ثلاثة و ثلاثين يوما عنوة، و قتل من بها من النصارى الأرمن و سبى نساءهم و أولادهم، و سماها قلعة المسلمين، فعرفت بذلك، و عاد إلى مصر فدخل قلعة الجبل فى يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة، و سار فى رابع المحرّم سنة اثنتين و تسعين حتى بلغ مدينة قوص من صعيد مصر، و نادى فيها بالتجهز لغزو اليمن، و عاد ثم سار مخفا على الهجن فى البريّة إلى الكرك، و مضى إلى دمشق فقدمها فى تاسع جمادى الآخرة، و قصد غزو بهنسا و أخذها من الأرمن، فقدموا إليه و سلموها من تلقاء أنفسهم و سلموا أيضا مرعش و تل حمدون، و مضى من دمشق فى ثانى رجب، و عبر من حمص إلى سلمية و هجم على الأمير مهنا بن عيسى و قبضه و إخوته و حملهم فى الحديد إلى قلعة الجبل، و عاد إلى دمشق ثم رجع إلى مصر فقدم قلعة الجبل فى ثامن عشرى رجب، ثم توجه للصيد فبلغ الطرّانة، و انفرد فى نفر يسير ليصطاد، فاقتحم عليه الأمير بيدار فى عدّة معه و قتلوه فى يوم السبت ثانى عشر المحرّم سنة ثلاث و تسعين و ستمائة، فكانت مدّته ثلاث سنين و شهرين و أربعة أيام، ثم حمل و دفن بمدرسة الأشرفية و أقيم من بعده أخوه.

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۷

السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون : و عمره سبع سنين، و قام الأمير زين الدين كتبغا بتدبيره، ثم خلعه بعد سنة تنقص ثلاثة أيام، و قام من بعده.

السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورىّ: أحد مماليك الملك المنصور قلاون، و جلس على التخت بقلعة الجبل فى يوم الأربعاء حادى عشر المحرّم، سنة أربع و تسعين، و تلقب بالملك العادل، فكانت أيامه شرّ أيام لما فيها من قصور مدّ النيل و غلاء الأسعار و كثرة الوباء فى الناس، و قدوم الأويراتية . فقام عليه نائبه الأمير حسام الدين لاجين و هو عائد من دمشق بمنزلة العرجاء، فى يوم الاثنين ثامن عشرى المحرّم سنة ست و تسعين، ففرّ إلى دمشق و استولى لاجين على الأمر، فكانت مدّته سنتين و سبعة عشر يوما، و قدم لاجين بالعسكر إلى مصر و قام فى السلطنة:

السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورىّ: أحد مماليك المنصور قلاون، و جلس على التخت بقلعة الجبل و تلقب بالملك المنصور فى يوم الاثنين ثامن عشرى المحرّم المذكور، و استناب مملوكه منكوتمر فنفرت القلوب عنه حتى قتل فى ليلة الجمعة حادى عشر ربيع الآخر سنة ثمان و تسعين و ستمائة، فكانت مدّته سنتين و شهرين و ثلاثة عشر يوما، و دبر الأمراء بعده أمور الدولة حتى قدم من الكرك.

السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون: و أعيد إلى السلطنة مرّة ثانية فى يوم الاثنين سادس جمادى الأولى، و قام بتدبير الأمور الأميران سلار نائب السلطنة، و بيبرس الجاشنكير أستادار، حتى سار كأنه يريد الحج، فمضى إلى الكرك و انخلع من السلطنة، فكانت مدّته تسع سنين و ستة أشهر و ثلاثة عشر يوما، فقام من بعده.

السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير: أحد مماليك المنصور قلاون، فى يوم السبت ثالث عشرى ذى الحجة، سنة ثمان و سبعمائة، حتى فرّ من قلعة الجبل فى يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان، سنة تسع و سبعمائة، فكانت مدّته عشرة أشهر و أربعة و عشرين يوما. ثم قدم من الشام فى العساكر:

السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون: و أعيد إلى السلطنة مرّة ثالثة فى يوم الخميس ثانى شوّال منها، فاستبدّ بالأمر حتى مات فى ليلة الخميس حادى عشرى ذى الحجة، سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و كانت مدّته الثالثة اثنتين و ثلاثين سنة و شهرين و خمسة و

عشرين

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۸

يوما، و دفن بالقبة المنصورية على أبيه، و أقيم بعده ابنه.

السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو بكر: بعهد أبيه فى يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة، و قام الأمير قوصون بتدبير الدولة، ثم خلعه بعد تسعة و خمسين يوما، فى يوم الأحد لعشرين من صفر سنة اثنتين و أربعين و سبعمائة، و أقام بعده أخاه:

السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاون: و لم يكمل له من العمر ثمان سنين فتنكرت قلوب الأمراء على قوصون و حاربوه و قبضوا عليه كما ذكر فى ترجمته، و خلعوا الأشرف فى يوم الخميس أوّل شعبان، فكانت مدّته خمسة أشهر و عشرة أيام، و قام الأمير أيدغمش بأمر الدولة، و بعث يستدعى من بلاد الكرم:

السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاون: و كان مقيما بقلعة الكرك من أيام أبيه، فقدم على البريد فى عشرة من أهل الكرك ليلة الخميس ثامن عشرى شهر رمضان، و عبر الدور من قلعة الجبل بمن قدم معه، و احتجب عن الأمراء و لم يخرج لصلاة العيد، و لا حضر السماط على العادة إلى أن لبس شعار السلطنة، و جلس على التخت فى يوم الاثنين عاشر شوّال، و قلوب الأمراء نافرة منه لإعراضه عنهم، فساءت سيرته، ثم خرج إلى الكرك فى يوم الأربعاء ثانى ذى القعدة، و استخلف الأمير آق سنقر السلارىّ نائب الغيبة. فلما وصل قبة النصر نزل عن فرسه و لبس ثياب العرب و مضى مع خواصه أهل الكرك على البريد، و ترك الأطلاب فسارت على البرّ حتى وافته بالكرك، فردّ العسكر إلى بلد الخليل و أقام بقلعة الكرك، و تصرّف أقبح تصرّف، فخلعه الأمراء فى يوم الأربعاء حادى عشرى المحرّم، سنة ثلاث و أربعين، فكانت مدّته ثلاثة أشهر و ثلاثة عشر يوما. و أقاموا بعده أخاه.

السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل: فى يوم الخميس ثانى عشرى المحرّم المذكور، و قام الأمير أرغون زوج أمّه بتدبير المملكة مع مشاركة عدّة من الأمراء، و سارت الأمراء و العساكر لقتال الناصر أحمد فى الكرك حتى أخذ و قتل، فلما أحضرت رأسه إلى السلطان الصالح و رآها فزع، و لم يزل يعتاده المرض حتى مات ليلة الخميس رابع عشر ربيع الآخر سنة ست و أربعين و سبعمائة، فكانت مدّته ثلاث سنين و شهرين و أحد عشر يوما. و قام بعده أخوه.

السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان: بعهد أخيه و جلس على التخت من غد، فأوحش ما بينه و بين الأمراء حتى ركبوا عليه، فركب لقتالهم فلم يثبت من معه و عاد إلى القلعة منهزما، فتبعه الأمراء و خلعوه، و ذلك فى يوم الاثنين مستهلّ جمادى الآخرة سنة سبع

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۱۹

و أربعين و سبعمائة، فكانت مدّته سنة و ثمانية و خمسين يوما. فأقيم بعده أخوه.

السلطان الملك المظفر زين الدين حاجى: من يومه، فساءت سيرته و انهمك فى اللعب، فركب الأمراء عليه، فركب إليهم و حاربهم فخانه من معه و تركوه حتى أخذ و ذبح فى يوم الأحد، ثانى عشر رمضان، سنة ثمان و أربعين و سبعمائة، و كانت مدّته سنة و ثلاثة أشهر و اثنى عشر يوما. و أقيم من بعده أخوه.

السلطان الملك الناصر بدر الدين أبو المعالى حسن بن محمد: فى يوم الثلاثاء رابع عشرة، و عمره إحدى عشرة سنة، فلم يكن له من الأمر شىء، و القائم بالأمر الأمير شيخو العمرىّ، فلما أخذ فى الاستبداد بالتصرّف خلع و سجن فى يوم اثنين ثامن عشرى جمادى الآخرة، سنة اثنتين و خمسين، فكانت مدّته أربع سنين تنقص خمسة عشر يوما، منها تحت الحجر ثلاث سنين و نيف، و مدّة استبداده نحو من تسعة أشهر. و أقيم من بعده أخوه.

السلطان الملك الصالح صلاح الدين صالح: فى يوم الاثنين المذكور، فكثر لهوه و خرج عن الحدّ فى التبذل و اللعب، فثار عليه الأميران شيخو و طاز و قبضا عليه و سجناه بالقلعة، فى يوم الاثنين ثانى شوّال، سنة خمس و خمسين و سبعمائة، فكانت مدّته ثلاث

سنين و ثلاثة أشهر و ثلاثة أيام.

و أعيد السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون: فى يوم الاثنين المذكور، فأقام حتى قام عليه مملوكه الأمير يلبغا الخاصكىّ و قتله فى ليلة الأربعاء، تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين و ستين، فكانت مدّته هذه ست سنين و سبعة أشهر و سبعة أيام.

و أقيم من بعده ابن أخيه السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجى بن محمد بن قلاون: و عمره أربع عشرة سنة، فى يوم الأربعاء المذكور، و قام بالأمر الأمير يلبغا، ثم خلعه و سجنه بالقلعة فى يوم الاثنين رابع عشر شعبان، سنة أربع و ستين و سبعمائة.

و أقام بعده السلطان الملك الأشرف زين الدين أبا المعالى شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن المنصور قلاون: و عمره عشر سنين، فى يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان المذكور، و لم يل من بنى قلاون من أبوه لم يتسلطن سواه، فأقام تحت حجر يلبغا حتى قتل يلبغا فى ليلة الأربعاء عاشر ربيع الآخر، سنة ثمان و ستين و سبعمائة، فأخذ يستبدّ بملكه حتى انفرد بتدبيره، إلى أن قتل فى يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة، سنة ثمان و سبعين و سبعمائة، بعد ما أقيم بدله ابنه فى السلطنة، فكانت مدّته أربع عشرة سنة و شهرين و خمسة عشر يوما.

فقام بالأمر ابنه السلطان الملك المنصور علاء الدين علىّ بن شعبان بن حسين: و عمره

سبع سنين، فى يوم السبت ثالث ذى القعدة المذكور، و أبوه حىّ، فلم يكن حظه من السلطنة سوى الاسم حتى مات فى يوم الأحد، ثالث عشرى صفر سنة ثلاث و ثمانين و سبعمائة، فكانت مدّته خمس سنين و ثلاثة أشهر و عشرين يوما.

فأقيم بعده أخوه السلطان الملك الصالح زين الدين حاجى: فى يوم الاثنين رابع عشرى صفر المذكور، فقام بأمر الملك و تدبير الأمور الأمير الكبير برقوق، حتى خلعه فى يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، فكانت مدّته سنة و شهرين ينقصان أربعة أيام، و به انقضت دولة المماليك البحرية الأتراك و أولادهم، و مدّتهم مائة و ست و ثلاثون سنة و سبعة أشهر و تسعة أيام، أوّلها يوم الخميس عاشر صفر سنة ثمان و أربعين و ستمائة، و آخرها يوم الثلاثاء ثامن عشر شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة، و عدّتهم أربعة و عشرون ذكرا، ما بين رجل و صبىّ، و امرأة واحدة، و أوّلهم امرأة و آخرهم صبىّ و لما أقيم الناصر حسن بعد أخيه المظفر حاجى طلب المماليك الجراكسة الذين قرّبهم المظفر بسفارة الأمير أغرلو، فإنه كان يدّعى أنه كان جركسىّ الجنس، و جلبهم من أماكن حتى ظهروا فى الدولة و كبرت عمائمهم و كلوتاتهم، فأخرجوا منفيين أنحس خروج، فقدموا على البلاد الشامية و اللّه تعالى أعلم.

ذكر دولة المماليك الجراكسة

و هم و اللاض و الروس أهل مدائن عامرة، و جبال ذات أشجار، و لهم أغنام و زروع، و كلهم فى مملكة صاحب مدينة سراى قاعدة خوارزم، و ملوك هذه الطوائف لملك سراى كالرعية، فإن داروه و هادوه كفّ عنهم، و إلّا غزاهم و حصهم، و كم مرجة قتلت عساكره منهم خلائق، و سبت نساءهم و أولادهم، و جلبتهم رقيقا إلى الأقطار، فأكثر المنصور قلاون من شرائهم، و جعلهم و طائفة اللاض جميعا فى أبراج القلعة، و سماهم البرجية، فبلغت عدّتهم ثلاثة آلاف و سبعمائة، و عمل منهم أوشاقية و جمقدارية و جاشنكيرية و سلاحدارية، و أوّلهم:

السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق بن آنص: أخذ من بلاد الجركس و بيع ببلاد القرم، فجلبه خواجا فخر الدين عثمان بن مسافر إلى القاهرة، فاشتراه منه الأمير الكبير يلبغا الخاصكىّ و أعتقه و جعله من جملة مماليكه الأجلاب، فيعرف ببرقوق العثمانىّ. فلما قتل يلبغا أخرج الملك الأشرف الأجلاب من مصر، فسار منهم برقوق إلى الكرك، فأقام فى عدّة منهم مسجونا بها عدّة سنين، ثم أفرج

عنه و عمن كان معه، فمضوا إلى دمشق و خدموا عند الأمير منجك نائب الشام حتى طلب الأشرف اليلبغاوية، فقدم برقوق فى جملتهم و استقرّ فى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۲۱

خدمة ولدى السلطان علىّ و حاجى مع من استقرّ من خشداشيته ، فعرفوا باليلبغاوية إلى أن خرج السلطان إلى الحج، فثاروا بعد سفره و سلطنوا ابنه عليا، و حكم فى الدولة منهم الأمير قرطاى الشهابىّ، فثار عليه خشداشية أينبك البدرىّ، فأخرجه إلى الشام و قام بعده بتدبير الدولة، و خرج إلى الشام فثارت عليه اليلبغاوية و فيهم برقوق، و قد صار من جملة الأمراء، فعاد قبل وصوله بلبيس، ثم قبض عليه، و قام بتدبير الدولة غير واحد فى أيام يسيرة، فركب برقوق فى يوم الأحد ثالث عشرى ربيع الآخر سنة تسع و سبعين و سبعمائة، وقت الظهيرة، فى طائفة من خشداشيته و هجم على باب السلسلة و قبض على الأمير يلبغا الناصرىّ، و هو القائم بتدبير الدولة، و ملك الإصطبل و ما زال به حتى خلع الصالح حاجى و تسلطن فى يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع و ثمانين و سبعمائة وقت الظهر، فغير العوائد و أفنى رجال الدولة، و استكثر من جلب الجراكسة إلى أن ثار عليه الأمير يلبغا الناصرىّ، و هو يومئذ نائب حلب، و سار إليه ففرّ من قلعة الجبل فى ليلة الثلاثاء خامس جمادى الأولى سنة إحدى و تسعين، و ملك الناصرىّ القلعة و أعاد الصالح حاجى و لقبه بالملك المنصور، و قبض على برقوق و بعثه إلى الكرك فسجنه بها، فثار الأمير منطاش على الناصرى و قبض عليه و سجنه بالإسكندرية، و خرج يريد محاربة برقوق و قد خرج من سجن الكرك، و سار إلى دمشق فى عسكر، فحاربه برقوق على شقحب ظاهر دمشق و ملك ما معه من الخزائن، و أخذ الخليفة و السلطان حاجى و القضاة و سار إلى مصر، فقدمها يوم الثلاثاء رابع عشر صفر سنة اثنتين و تسعين، و استبدّ بالسلطنة حتى مات ليلة الجمعة للنصف من شوّال سنة إحدى و ثمانمائة، فكانت مدّته أتابكا و سلطانا إحدى و عشرين سنة و عشرة أشهر و ستة عشر يوما، خلع فيها ثمانية أشهر و تسعة أيام. و قام من بعده ابنه.

السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج: فى يوم الجمعة المذكور، و عمره نحو العشر سنين، فدبر أمر الدولة الأمير الكبير ايتمش، ثم ثار به الأمير يشبك و غيره، ففرّ إلى الشام و قتل بها، و لم تزل أيام الناصر كلها كثيرة الفتن و الشرور و الغلاء و الوباء، و طرق بلاد الشام فيها الأمير تيمورلنك فخرّبها كلها و حرّقها، و عمها بالقتل و النهب و الأسر حتى فقد منها جميع أنواع الحيوانات، و تمزق أهلها فى جميع أقطار الأرض، ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء، فاشتدّ بها الغلاء على من تراجع إليها من أهلها، و شنع موتهم، و استمرّت بها مع ذلك الفتن، و قصر مدّ النيل بمصر حتى شرقت الأراضى إلّا قليلا، و عظم الغلاء و الفناء، فباع أهل الصعيد أولادهم من الجوع، و صاروا أرقاء مملوكين، و شمل الخراب الشنيع عامّة أرض مصر و بلاد الشام من حيث يصب النيل من الجنادل إلى حيث مجرى الفرات، و ابتلى مع ذلك بكثرة فتن الأميرين نوروز الحافظى

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۲۲

و شيخ المحمودىّ، و خروجهما ببلاد الشام عن طاعته، فتردّد لمحاربتهما مرارا حتى هزماه ثم قتلاه بدمشق، فى ليلة السبت سادس عشر صفر سنة خمس عشرة و ثمانمائة، فكانت مدّته منذ مات أبوه إلى أن فرّ فى يوم الأحد خامس عشرى ربيع الأول سنة ثمان و ثمانمائة، و اختفى، و أقيم بعده أخوه عبد العزيز، و لقب الملك المنصور ست سنين و خمسة أشهر و أحد عشر يوما، و أقام الناصر فى الاختفاء سبعين يوما ثم ظهر فى يوم السبت خامس عشر جمادى الآخرة، و استولى على قلعة الجبل و استبدّ بملكه أقبح استبداد، إلى أن توجه لحرب نوروز و شيخ و قاتلهما على اللجون، فى يوم الاثنين ثالث عشر المحرّم، سنة خمس عشرة، فانهزم إلى دمشق و هما فى إثره، و قد صار الخليفة المستعين بالله فى قبضتهما و معه مباشر و الدولة، فنزلا على دمشق و حصراه، ثم ألزما الخليفة بخلعة من السلطنة فلم يجد بدّا من ذلك و خلعه فى يوم السبت خامس عشرية، و نودى بذلك فى الناس، فكانت مدّته الثانية ست سنين و عشرة أشهر سواء.

و أقيم من بعده الخليفة المستعين بالله أمير المؤمنين أبو الفضل العباس بن محمد العباسى: و أصل هؤلاء الخلفاء بمصر، أنّ أمير

المؤمنين المستعصم بالله عبد اللّه آخر خلفاء بنى العباس، لما قتله هولاكو بن تولى بن جنكزخان فى صفر سنة ست و خمسين و ستمائة ببغداد و خلت الدنيا من خليفة، و صار الناس بغير إمام قرشىّ إلى سنة تسع و خمسين، فقدم الأمير أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر أبى نصر محمد بن الخليفة الناصر العباسىّ من بغداد إلى مصر، فى يوم الخميس تاسع رجب منها، فركب السلطان الملك الظاهر بيبرس إلى لقائه و صعد به قلعة الجبل، و قام بما يجب من حقه و بايعه بالخلافة و بايعه الناس، و تلقب بالمستنصر، ثم توجّه لقتال التتر ببغداد فقتل فى محاربتهم، لأيام خلت من المحرّم سنة ستين و ستمائة، فكانت خلافته قريبا من سنة.

ثم قدم من بعده الأمير أبو العباس أحمد بن أبى علىّ الحسن بن أبى بكر من ذرية الخليفة الراشد بالله أبى جعفر منصور بن المسترشد، فى سابع عشرى ربيع الأوّل، فأنزله السلطان فى برج بقلعة الجبل و أجرى عليه ما يحتاج إليه، ثم بايعه فى يوم الخميس ثامن المحرّم سنة إحدى و ستين بعد ما أثبت نسبه على قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، و لقّبه بالحاكم بأمر اللّه، و بايعه الناس كافة، ثم خطب من الغد و صلى بالناس الجمعة فى جامع القلعة، و دعى له من يومئذ على منابر أراضى مصر كلها قبل الدعاء للسلطان، ثم خطب له على منابر الشام، و استمرّ الحال على الدعاء له و لمن جاء من بعده من الخلفاء، و ما زال بالبرج إلى أن منعه السلطان من الاجتماع بالناس فى المحرّم سنة ثلاث و ستين، فاحتجب و صار كالمسجون زيادة على سبع و عشرين سنة، بقية أيام الظاهر بيبرس و أيام ولديه محمد بركة و سلامش، و أيام قلاون. فلما صارت السلطنة إلى الأشرف خليل بن قلاون أخرجه من سجنه مكرّما، فى يوم الجمعة العشرين من شهر رمضان، سنة

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۲۳

تسعين و ستمائة، و أمره فصعد منبر الجامع بالقلعة و خطب و عليه سواده، و قد تقلد سيفا محلّى، ثم نزل فصلى بالناس صلاة الجمعة قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة، و خطب أيضا خطبة ثالثة فى يوم الجمعة تاسع عشرى ربيع الأوّل سنة إحدى و تسعين، و حج سنة أربع و تسعين، ثم منع من الاجتماع بالناس، فامتنع حتى أفرج عنه المنصور لاجين فى سنة ست و تسعين و أسكنه بمناظر الكبش، و أنعم عليه بكسوة له و لعياله، و أجرى عليه ما يقوم به، و خطب بجامع القلعة خطبة رابعة و صلى بالناس الجمعة، ثم حج سنة سبع و تسعين، و توفى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى، سنة إحدى و سبعمائة، فكانت خلافته مدّة أربعين سنة ليس له فيها أمر و لا نهى، إنما حظه أن يقال أمير المؤمنين، و كان قد عهد إلى ابنه الأمير أبى عبد اللّه محمد المستمسك، ثم من بعده لأخيه أبى الربيع سليمان المستكفى، فمات المستمسك فى حياته، و اشتدّ جزعه عليه، فعهد لابنه إبراهيم بن محمد المستمسك.

فلما مات الحاكم أقيم من بعده ابنه المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بعده له، فشهد وقعة شقجب مع الملك الناصر محمد بن قلاون و عليه سواده، و قد أرخى له عذبة طويلة و تقلد سيفا عربيا محلى، ثم تنكر عليه و سجنه فى برج بالقلعة نحو خمسة أشهر، و أفرج عنه و أنزله إلى داره قريبا من المشهد النفيسىّ بتربة شجرة الدر، فأقام نحو ستة أشهر و أخرجه إلى قوص فى سنة سبع و ثلاثين و سبعمائة، و قطع راتبه و أجرى له بقوص ما يتقوّت به، فمات بها فى خامس شعبان سنة أربعين.

و عهد إلى ولده، فلم يمض الملك الناصر محمد عهده، و بويع ابن أخيه أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المستمسك بن أحمد الحاكم بيعة خفية لم تظهر، فى يوم الاثنين خامس عشرى شعبان المذكور، و أقام الخطباء أربعة أشهر لا يذكرون فى خطبهم الخليفة، ثم خطب له فى يوم الجمعة سابع ذى القعدة منها، و لقب بالواثق بالله، فلما مات الناصر محمد و أقيم بعده ابنه المنصور أبو بكر استدعى أبو القاسم أحمد بن أبى الربيع سليمان، و أقيم فى الخلافة و لقب بالحاكم بعد ما كان يلقب بالمستنصر، و كنى بأبى العباس، فى يوم السبت سلخ ذى الحجة سنة إحدى و أربعين و سبعمائة، و فاستمرّ حتى مات فى يوم الجمعة رابع شعبان، سنة ثمان و أربعين و سبعمائة.

فأقيم بعده أخوه المعتضد بالله أبو بكر، و كنيته أبو الفتح بن أبى الربيع سليمان، فى يوم الخميس سابع عشرة و استقرّ مع ذلك فى نظر مشهد السيدة نفيسة رضى اللّه عنها ليستعين بما يريد إلى ضريحها من نذر العامّة على قيام أوده، فإن مرتب الخلفاء كان على مكس

الصاغة، و حسبه أن يقوم بما لا بدّ منه فى قوتهم، فكانوا أبدا فى عيش غير موسع، فحسنت حال المعتضد بما يبيعه من الشمع المحمول إلى المشهد النفيسىّ و نحوه إلى أن توفى يوم

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۲۴

الثلاثاء عاشر جمادى الأولى سنة ثلاث و ستين، و كان يبلغ بالكاف، و حج مرّتين إحداهما سنة أربع و خمسين، و الثانية سنة ستين.

فأقيم بعده ابنه المتوكل على اللّه أبو عبد اللّه محمد بعهده إليه فى يوم الخميس ثانى عشرة، و خلع عليه بين يدى السلطان الملك المنصور محمد بن الملك المظفر حاجى، و فوّض إليه نظر المشهد، و نزل إلى داره فلم يزل حتى تنكر له الأمير أينبك فى أوّل ذى القعدة سنة ثمان و سبعين بعد قتل الملك الأشرف شعبان بن حسين، و أخرجه ليسير إلى قوص.

و أقام عوضه فى الخلافة ابن عمه زكريا بن إبراهيم بن محمد فى ثالث عشرى صفر سنة تسع و سبعين، و كان قد أمر بردّ المتوكل من نفيه، فردّ إلى منزله من يومه، فأقام به حتى رضى عنه أينبك و أعاده فى العشرين من ربيع الأوّل منها إلى خلافته، ثم سخط عليه الظاهر برقوق و سجنه مقيدا فى يوم الاثنين أوّل رجب سنة خمس و ثمانين، و قد وشى به أنه يريد الثورة و أخذ الملك.

و أقيم بعده فى الخلافة الواثق بالله أبو حفص عمر بن المعتصم أبى إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحاكم، فى يوم الاثنين المذكور، فما زال خليفة حتى مات يوم السبت تاسع شوّال سنة ثمان و ثمانين. فأقام الظاهر بعده فى الخلافة أخاه زكريا بن إبراهيم فى يوم الخميس ثامن عشرية، و لقب بالمستعصم، و ركب بالخلعة و بين يديه القضاة من القلعة إلى منزله، فلما أشرف الظاهر برقوق على زوال ملكه و قرب الأمير يلبغا الناصرىّ نائب حلب بالعساكر، استدعى المتوكل على اللّه من محبسه و أعاده إلى الخلافة، و خلع عليه فى يوم الأربعاء أوّل جمادى الأولى سنة إحدى و تسعين، و بالغ فى تعظيمه، و أنعم عليه، فلم يزل على خلافته حتى توفى ليلة الثلاثاء ثامن عشرى رجب سنة ثمان و ثمانمائة، و هو أوّل من اتسعت أحواله من الخلفاء بمصر، و صار له إقطاعات و مال.

فأقيم فى الخلافة بعده ابنه المستعين بالله أبو الفضل العباس، و خلع عليه فى يوم الاثنين رابع شعبان بالقلعة بين يدى الناصر فرج بن برقوق، و نزل إلى داره ثم سار مع الناصر إلى الشام، و حضر معه وقعة اللجون حتى انهزم، فدعاه الأميران شيخ و نوروز فمضى من موقفه إليهما و معه مباشر و الدولة، فأنزلاه و وكلا به و سارا به لحصار الناصر، ثم ألزماه حتى خلعه من السلطنة، و أقامه شيخ فى السلطنة و بايعه و من معه، فى يوم السبت خامس عشرى المحرّم سنة خمس عشرة و ثمانمائة، و بعث إلى نوروز و هو بشمالىّ دمشق حتى بايعه، فنالوا بإقامته أغراضهم من قتل الناصر و انتظام أمرهم، ثم سار به شيخ إلى مصر و أقام نوروز بدمشق، فلما قدم به أسكنه القلعة و نزل هو بالحراقة من باب السلسلة، و قام بجميع الأمور و ترك الخليفة فى غاية الحصر، حتى استبدّ بالسلطنة، فكانت مدّة الخليفة منذ أقاموه سلطانا

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۲۵

سبعة أشهر و خمسة أيام، و نقل الخليفة إلى بعض دور القلعة و وكل به من يحفظه و أهله و قام من بعده بالسلطنة.

السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودىّ: أحد مماليك الظاهر برقوق، فى يوم الاثنين أوّل شعبان سنة خمس عشرة و ثمانمائة، فسجن الخليفة فى برج بالقلعة ثم حمله إلى الإسكندرية، فسجنه بها، و لم يزل سلطانا حتى مات فى يوم الاثنين ثامن المحرّم سنة أربع و عشرين، فكانت مدّته ثمان سنين و خمسة أشهر و ستة أيام. فأقيم بعده ابنه.

السلطان الملك المظفر شهاب الدين أبو السعادات أحمد: و عمره سنة واحدة و نصف، فقام بأمره الأمير ططر، و فرّق ما جمعه المؤيد من الأموال، و خرج بالمظفر يريد محاربة الأمراء بالشام، فظفر بهم، و خلع المظفر، و كانت مدّته ثمانية أشهر تنقص سبعة أيام. و قام بعده.

السلطان الملك الظاهر أبو الفتح ططر: أحد مماليك الظاهر برقوق، و جلس على التخت بقلعة دمشق فى يوم الجمعة تاسع عشرى شعبان، سنة أربع و عشرين، و قدم إلى قلعة الجبل و هو موعوك البدن، فى يوم الخميس رابع شوّال، فثقل فى مرضه من يوم الاثنين

ثانى عشرية حتى مات فى الأحد، رابع عشرى ذى الحجة، فكانت مدّته ثلاثة أشهر و يومين، فأقيم بعده ابنه.

السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد: و عمره نحو عشر سنين، فقام بأمره الأمير برسباى الدقاقىّ، ثم خلعه بعد أربعة أشهر و أربعة أيام. و قام من بعده.

السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباى: أحد مماليك الظاهر برقوق، و جلس على تخت الملك فى يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر، سنة خمس و عشرين و ثمانمائة.

هذا آخر الجزء الثالث من أصل مصنفه الإمام المقريزىّ رحمه اللّه تعالى و رضى عنه.

و وجد على هامش بعض النسخ ما صورته: و توفى الأشرف برسباى ثالث عشر ذى الحجة، سنة إحدى و أربعين و ثمانمائة، فكانت مدّته ست عشرة سنة و تسعة شهور، ثم قام من بعده ولده: الملك العزيز يوسف، و سنّه نحو خمس عشرة سنة، ثم خلع فى تاسع عشر ربيع الأوّل سنة اثنتين و أربعين و ثمانمائة، فكانت مدّته نحو ثلاثة أشهر.

و قام من بعده الملك الظاهر جقمق فى تاسع عشر ربيع المذكور، و خلع نفسه من الملك فى مرض موته، و تولى بعده بعهده ولده. الملك المنصور عثمان فى حادى عشرى المحرّم سنة سبع و خمسين و ثمانمائة، فكانت مدّة الظاهر جقمق أربع عشرة سنة و نحو عشرة شهور، ثم خلع ولده المنصور عثمان فى سابع ربيع الأوّل سنة سبع و خمسين و ثمانمائة،

المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، بيروت، ج۳، ص: ۴۲۶

فأقام فى الملك أحدا و أربعين يوما، و تولى عوضه الملك الأشرف أينال: فى ثامن من ربيع الأوّل سنة سبع و خمسين و ثمانمائة، و خلع نفسه فى مرض موته فى جمادى الأولى سنة خمس و ستين و ثمانمائة، فكانت مدّته ثمان سنين و شهرين، و تولى بعده ولده الملك المؤيد أحمد ثم خلع فى ثامن عشر رمضان سنة خمس و ستين و ثمانمائة، فكانت مدّته أربعة أشهر.

و تولى الملك الظاهر خشقدم تاسع عشر رمضان، سنة خمس و ستين و ثمانمائة، و مات عشر شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و سبعين، فكانت مدّته نحو ست سنين و نصف.

ثم تولى الملك الظاهر بلباى فى حادى عشر الشهر المذكور، ثم خلع فى سابع جمادى الأولى من السنة المذكورة، فكانت مدّته ستة و خمسين يوما. ثم تولى الملك الظاهر تمربغا فى ثامن جمادى الأولى المذكور، ثم خلع فى العشر الأول من شهر رجب الفرد، سنة اثنتين و سبعين و ثمانمائة، و كانت مدّته نحو تسعة و خمسين يوما، و تولى الملك الأشرف قايتباى فى ثانى عشر رجب من السنة المذكورة، و توفى فى ثانى عشرى ذى القعدة سنة إحدى و تسعمائة، فكانت مدّته تسعا و عشرين سنة و أربعة شهور و أياما.

و تولى بعده ولده الملك الناصر محمد فى التاريخ المذكور، ثم قتل بالجيزة فى آخر يوم الأربعاء، النصف من ربيع الأوّل سنة أربع و تسعمائة، فكانت مدّته سنتين و ثلاثة أشهر و أياما. ثم تولى خاله الملك الظاهر قانصوه الأشرفىّ قايتباى فى ضحوة يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأوّل المذكور، ثم خلع فى سابع ذى الحجة سنة خمس و تسعمائة، فكانت مدّته نحو عشرين شهرا. و تولى عوضه الملك الأشرف جان بلاط الأشرفىّ قايتباى، و أتانا خبرة بمنزله الجديدة فى العود من المدينة الشريفة، فى يوم الجمعة سادس عشرى ذى الحجة سنة خمس و تسعمائة، فكانت مدّته ستة شهور و أياما، ثم خلع فى يوم السبت ثامن عشر جمادى الآخرة سنة ست و تسعمائة و تولى الملك العادل طومان باى الأشرفىّ قايتباى ثم خلع سلخ رمضان من السنة المذكورة، فكانت مدّته نحو مائة يوم، و تولى بعده الملك الأشرف قانصوه الغورىّ الأشرفىّ قايتباى مستهل شوال من السنة المذكورة، انتهى و اللّه تعالى أعلم بالصواب.

تم الجزء الثالث، و يليه الجزء الرابع و أوله: «ذكر المساجد الجامعة».

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بُنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ– فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة "القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹